

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ضياء الفرقان فی تفسير القرآن مجلد ۱۱

لِـمُؤَلِّفِهِ سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه : نقوی قاضی، محمد تقی، ۱۳۰۸.
 عنوان و نام پدیدآور : ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / لمؤلفه محمد تقی نقوی قاضی.
 مشخصات نشر : تهران: قائن، ۱۳۹۶.
 مشخصات ظاهری : ج. ۱۸.
 شابک : 978-964-8981-24-7؛ ج. ۱۱: 978-964-8981-55-1.
 وضعیت فهرست نویسی : فیبا.
 یادداشت : عربی.
 موضوع : تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
 موضوع : Qur'an - Shiite hermeneutics - - 20th century
 رده بندی کنگره : ۱۳۹۵ ض ۹۷/۹۸ BP
 رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
 شماره کتابشناسی ملی : ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الحادی عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قاضی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الأول

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

شابک: ۱ - ۵۵ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧ الجزء السادس عشر
٩ سورة الكهف
٥٣ سُورَةُ مَرْيَمَ
١٦٥ سُورَةُ طه
٣٤٣ الجزء السابع عشر
٣٤٥ سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ
٥٠٤ سُورَةُ الْحَجِّ
٦١٩ الفهرست

الجزء

السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
 (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا
 تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦)
 فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا
 فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ
 يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا
 (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ
 بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا
 السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ
 فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ
 كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ
 مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠)
 فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَ
 أَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ
 يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ
 أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ
 يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ
 عَنْ أَمْرِ ذَلِكِ فَأَوْيَلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
 صَبْرًا (٨٢)

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا

أي قال الخضر لموسى ألم أقول، لك مراراً أنك لن تستطيع معي صبراً و هذا الكلام منه تحقيق ما قال له أولاً لا توبيخاً له لأنه جار مجرى الذم و هو لا يجوز على الأنبياء فقال له موسى في الجواب عن ذلك إن سألتك عن شيء تعمله بعد هذا فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً، وهذا إقرار من موسى بأن صاحبه قد قدّم إليه ما يوجب القدر عنده فلا يلزمه ما أنكره و قرأ الجمهور فلا تصاحبني و قرأ عيسى و يعقوب فلا تصحبني بصيغة المضارع مضارع صحب و قرئ بضمّ التاء و كسر الحاء مضارع، أصحب و معنى قد بلغت من لدني عذراً، أي قد اعتذرت إليّ و بلغت لى العذر من، لدني، بإدغام نون، لدن، في نون الوقاية التي إتصلت بياء المتكلم و قرأ نافع و عاصم بتخفيف التّون و هي نُون، لدن، إتصلت بياء المتكلم و هو القياس لأن أصل الأسماء إذا أضيفت إلى ياء المتكلم لم تلحق نُون الوقاية نحو غلامي و فرسي.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا

فانطلقا أي مشياً حتى إذا أتيا قرية، قيل و القرية التي أتيا أهلها أنطاكية أو الأبله أو بجزيرة الأندلس و هي الجزيرة الخضراء أو ناصرة من أرض الروم و الأقوال فيها كثيرة مختلفة و الكل لا دليل عليه و الله أعلم بحقيقة ذلك فالمعنى أنهما مضيا حتى أتيا قرية إستطعما أهلها أي طلبا منهم ما يأكلانه فإمتنع أهل القرية من تضييفهما، فوجدا، أي موسى و الخضر، فيها، في القرية جداراً يريد أن ينقض أي وجدا حائطاً قارب أن ينقض أي يسقط أو يتفتت فيصير حصاة، فأقامه، أي فأقام الخضر الجدار لئلا يسقط فظاهر الكلام يدل

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

الجلد الحادي عشر

على أَنَّ الخضر لم يهدم الجدار بل بناه كما هو المستفاد من قوله فأقامه، قَالَ لَوْ شِئْتُ، أي قال موسى لخضر لو شئت لَاتَّخَذْتُ عليه أجراً لَأَنَّ بناه بعد هدمه يستحقُّ عليه أجراً.

و قال ابن جبير مسحه بيده وأقامه فقام و قيل أقامه بعمودٍ و عمده به. قال بعض المفسرين لما أقام الجدار لم يتمالك موسى بعد أن رأى الحرمان و مساس الحاجة إن قال الخضر لو شئت لَاتَّخَذْتُ عليه أجراً و طلبت على عملك جعلاً حَتَّى تَتَعَشَّ به و تستدفع الضرورة.

و قال ابن عطية قوله، لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْراً، و أن لم يكن سؤالاً ففي ضمنه الإنكار لفعل الخضر من إقامته الجدار بلا عوض ففيه تخطئة ترك الأجر لقوم أبو أن يضيّفوهما و الحاصل أَنَّ في كلامه هذا إنكار لما فعله خضر من إقامة الجدار بلا عوض ضمناً و لذلك قال الخضر في جواب موسى ما حكى الله عنه.

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أي قال الخضر لموسى هذا فراق بيني و بينك، و الظاهر أَنَّ، هذا، إشارة الى قوله: لَوْ شِئْتُ لَا اِلٰى جَمِيعِ جَوَازِ الْإِنكَارِ أي هذا الإعراض سبب الفراق بيننا على حسب ما سبق من الميعاد و هو قوله إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، و هذه الجملة و أَنَّ لم تكن سؤالاً ظاهراً أَلَّا أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ إِذَا الْمَعْنَى أَلَمْ تَكُنْ تَتَّخِذْ عَلَيْهِ أَجْراً لِإِحْتِيَاجِنَا إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى، سَأُنَبِّئُكَ، أي سأخبرك بتأويل قولي لك أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، من خرق السفينة و قتل الغلام و إقامة الجدار بما آل إليه الأمر فيما كان ظاهره أن لا يكون.

قال بعض المحققين في هذه الأمثلة التي وقعت بين موسى و الخضر حجة على موسى و إعجاله و ذلك أَنَّهُ لَمَّا أَنْكَرَ خَرَقَ السَّفِينَةِ نُوْدِيَ يَا مُوسَى أَيْنَ كَانَ تَدْبِيرُكَ هَذَا وَ أَنْتَ فِي التَّابُوتِ مَطْرُوحاً فِي الْيَمِّ، فَلَمَّا أَنْكَرَ قَتْلَ الْغُلَامِ قِيلَ لَهُ

أين إنكارك هذا من وكز القبطي و قضائك عليه، فلما أنكر إقامة الجدار نودي
أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجرة سأنبتك في معاني هذا
معك و لا أفارقك حتى أوضح لك ما إستبهم عليك فقال:

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ
كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا، قِيلَ إِنَّ مُوسَى لَمَّا عَزَمَ الْخَضِرُ
على مفارقتها أخذ بنياها و قال لا أفارقك حتى تخبرني بم أباح لك فعل ما
فعلت فلما إلتمس ذلك أخذ الخضر في البيان و التفصيل فقال لموسى
أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ بِدَأْ بِقِصَّةِ مَا وَقَعَ لَهُ أَوَّلًا.
قيل أنها كانت لعشرة إخوة زماني و خمسة يعملون في البحر و قيل كانوا
جرا فنسبت إليهم للإختصاص و كيف كان فالآية تدل على أن للسفينة كانت
لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم و إحتج بهذه الآية على أن المسكين هو
الذي له بلغة من العيش كالسفينة لهؤلاء و أنه أجصلح حالاً من الفقير، فأردت
أن أعيبها، و السبب في ذلك أنه كان ورائهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، هذا
الكلام دلالة على أن الملك كان يأخذ السفينة الصحيحة و لا يأخذها إذا كانت
معيبة و هذا هو السر في خرق السفينة.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
قيل في الكلام حذف و تقديره و كان كافراً و كذا وجد في مصحف، أبي، و
قرأ ابن عباس و أما الغلام فكان كافراً و كان أبواه مؤمنين قيل و نص في
الحديث على أنه كان كافراً مطبوعاً على الكفر و يراد بأبويه أبوه و أمه ثني
تقلياً من باب القمرين في القمر و الشمس، فَخَشِينَا فَخَشِينَا، أي خفنا، أن
يرهقهما، أي أوقعهما، طغياناً و كفراً فيكون ذلك مفسدة فأمر الله بقتله لذلك
كما لو أماته.

فَقَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا أَيُّ أَرْدْنَا مِنْ قَتْلِ الْغَلَامِ أَنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ لِأَبَوَيْهِ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْغَلَامِ زَكَاةً، أَيُّ صَلَاحًا وَطَهَارَةً، وَ أَقْرَبَ رُحْمًا، أَيُّ أَثَرٍ بِوَالِدَيْهِ مِنَ الْمَقْتُولِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ أَقْرَبُ أَنْ يَرْحَمَاهُ بِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ الْخَضِرُ عَنْ مَالِ الْجِدَارِ فَقَالَ:

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

قال الخضر، و أمّا الجدار فكان، ملكاً، لغلامين يتيمين، صغيرين إذ لا يتم بعد البلوغ قيل إسمهما أحرَم و حريم و إسم أبيهما كاشح و إسم أمهما دهنًا، و كان تحته، أي تحت الجدار، كنز لهما، أي لليتين الصغيرين و الكنز مالٌ مدفون تحت الأرض، و كان أبوهما صالحاً، يعني أبا اليتين، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما، يعني كما لهما من الإحتلام و العقل، و يستخرجا كنزهما رحمةً من ربك أي نعمةً عن أمري، أي ما فعلت ذلك من قبل نفسي بل فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى، ذلك، الذي قتلته لك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً هذا ما ذكره المفسرون في تفسير الآية بقي في المقام أبحاث حول الآية لا بد لنا من التنبية عليها إجمالاً.

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: أَنَّ مُوسَى الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ هَلْ هُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ الْمُرْسَلُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ غَيْرِهِ فَقَالَ قَوْمٌ أَنَّ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ هُوَ مُوسَى بْنُ مِيشَا بْنِ يُوسُفَ أَوْ مُوسَى بْنُ أَفْرَائِيمَ بْنِ يُوسُفَ وَ الْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ يَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّ مُوسَى الَّذِي طَلَبَ الْخَضِرَ هُوَ مُوسَى بْنُ مِيشَا بْنِ يُوسُفَ وَ كَانَ نَبِيًّا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ إِلَّا أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ إِنْتَهَى.

وقال في قوله تعالى: **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا الْجُمُهورِ عَلَى أَنَّهُ الْخَضِرُ** واسمه بلياً بن ملكان وقيل اليسع وقيل الياس **أَتَيْنِيهِ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا** هي الوحي والنبوة والفتى في الآية يوشع بن نون هذا هو المشهور عند المفسرين من العامة والخاصة ويؤيده أن الله تعالى لم يذكر في كتابه موسى غير موسى بن عمران.

البحث الثاني: أن موسى بن عمران كان من أعظم الأنبياء وقد عدّ من أولي العزم فكيف يجوز أن يتبع غيره ويتعلم منه وعندنا أن النبي لا يجوز أن يفتقر إلى غيره ثم كيف يجوز أن يقول له الخضر أنك لن تستطيع معي صبراً، والاستطاعة هي القدرة فكيف يمكن أن لا يكون موسى قادراً على الصبر هذا أولاً. ثم كيف قال موسى ستجدني إنشاء الله صابراً أو لا أعصي لك أمراً فاستثنى المشيئة في الصبر وأطلق فيما ضمنه من طاعته وإجتناّب معصيته وكيف قال موسى لقد جئت شيئاً إمراً أو شيئاً نكراً وما أتى الخضر منكراً على الحقيقة وما معنى قوله لا تؤاخذني بما نسيت وقد ثبت أن الأنبياء لا يجوز عليهم النسيان ولم نعت موسى النفس بأنها زكية ولم يكن كذلك على الحقيقة ولم قال فخشياً فإن كان الذي خشيه هو الله تعالى على ما ظنه قوم لا يجوز عليه تعالى وأن كان هو الخضر فكيف يستبيح دم الغلام لأجل الخشية فهذه الأمور كلها ينافي مقام النبوة وهذا هو الذي صار باعثاً على القول بأن موسى المذكور في الآية ليس موسى بن عمران.

نقول في الجواب أن هذه الأمور لا تنافي مذهب الجمهور ولا مقام النبوة. أمّا العالم الذي نعتة الله في هذه الآيات فلا يجوز إلا أن يكون نبياً فاضلاً وقد قيل أنه الخضر وليس يمتنع أن يكون الله تعالى قد أعلم هذا العالم ما لم يعلمه موسى وأرشد موسى ليتعلم منه وأما الممتنع أن يحتاج النبي في العلم إلى بعض رعيته ممن أرسل إليهم إذ عليه يلزم تقديم المفضل على الفاضل وهو قبيح عقلاً.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعِ الْخَضِرِ



المجلد العاشر

و أما ما تعلّمه النبي من عالم آخر غير ما ذكرناه فليس تعلّمه منه الأكثعلّمه من الملك الذي يهبط إليه بالوحي و ليس في هذا دلالة على أنه كان أفضل من النبي و إلاّ يلزم أن يكون جبرئيل مثلاً أفضل من رسول الله و غيره من الأنبياء هذا أولاً.

أما ثانياً: فنقول كون عالم أفضل من عالم آخر في بعض العلوم لا يدلّ على الأفضليّة مطلقاً إذا عرفت هذا فنقول:

العالم الذي تعلّم منه موسى و هو الخضر على الأشهر لم يكن ممّن أرسل إليه موسى و لم يكن أعلم و أفضل من موسى في جميع العلوم بل كان أعلم في علم خاصّ أو علوم خاصّة من علم الغيب كما قال تعالى: **وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** أي نوعاً من العلم و أما في غير هذا النوع من العلوم فلم تثبت أفضليّته بل الأمر بالعكس و إذا كان كذلك فهو أفضل من موسى في بعض العلوم الذي يتعلّق بالبواطن و موسى أفضل منه في العلوم الظاهرية و الباطنية من حيث المجموع فموسى أفضل منه بقولٍ مطلقٍ و هو المطلوب.

و أما نفي إستطاعته فأنما أراد بها أنّ الصبر لا يخفّ عليك و أنّه يثقل على طبيعتك و ذلك كما يقول أحدنا لغيره أنّك لن تستطيع أن تنظر إليّ و كما يقول للمريض الذي يجهد الصّوم و أن كان قادراً عليه أنّك لن تستطيع الصّيام تطبيقه فليس معنى هذا الكلام سلب الإستطاعة مطلقاً و ما نحن فيه من هذا القبيل و بالجملة أنّ الصبر على ما تكرهه النفس ثقیل عليها و لا فرق في ذلك بين النبي و غيره إلاّ أنّ النبي يصبر عليه مع ثقله على النفس و غيره لا يصبر لقلة إيمانه فقوله: **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ليس فيه نفي ماهيّة القدرة و الإستطاعة هذا كلّ مضافاً إلى أنّه ربّما يعبرّ بالإستطاعة عن الفعل نفسه كما قال تعالى حكاية عن الحواريين **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ** ^(١) أي هل نفعل ذلك فعلى هذا الوجه كأنّه قال لموسى أنّك لن تصبر و

لن يقع منك الصبر بمقتضى طبيعتك والحاصل أنَّ المنفي في المقام هو الصبر دون الإستطاعة والدليل على ذلك هو قول موسى في الجواب ستجدني إنشاء الله صابراً حيث لم يقل مستطيعاً ولو كان المنفي هو الإستطاعة لقال ستجدني إنشاء الله مستطيعاً.

و أما قوله ولا أعصي لك أمراً فهو أيضاً مشروط بالمشيئة وليس بمطلق فكأنه قال ستجدني صابراً ولا أعصي لك أمراً إنشاء الله وتعليق الفعل على المشيئة مما لا إشكال فيه.

و أما قوله لقد جئت شيئاً إمرأ فقد قيل أنه أراد شيئاً عجباً أو منكراً بعضهم أنَّ الأمر هو الداهية فكأنه قال جئت داهيةً وعلى هذا فمعنى الكلام أنَّ ظاهر ما، يتيه المنكر ومن يشاهده ينكره قبل أن يعرف علته ويحتمل أن يكون من حذف الشرط فكأنه أراد أن كنت قبلته ظالماً لقد جئت شيئاً نكراً، أو يكون المراد أنك أتيت أمراً بدلاً غريباً وأمثال ذلك من الإحتمالات ومحصل الكلام أنك أتيت أمراً عجبياً أو منكراً ظاهراً وهذا لا ينافي أن يكون اعتقاده بحسب الواقع أنه غير منكر.

و أما قوله: لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، فيمكن أن يراد بالنسيان التَّرك كما في قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَسَىٰ^(١) أي ترك و عليه فالمعنى لا تواخذي بما تركت من عهدك، ويمكن أن يقال أنه أراد لا تواخذي بما فعلته مما يشبه النسيان فسماه نسياناً للمشابهة كما قال المؤذن لإخوة يوسف أنك لسارقون، أي أنكم تشبهون السراق وكما يتأول الخبر الذي رواه أبو هريرة عن النبي أنه قال كذب إبراهيم ثلاث كذبات، في قوله سارة أختي، وفي قوله بل فعله كبيرهم وفي قوله: إِنِّي سَقِيمٌ والمراد بذلك أن كان الخبر صحيحاً أنَّ إبراهيم فعل ما ظاهره الكذب وإذا حملنا هذه اللفظة، بلى غير النسيان الحقيقي فلا سؤال فيها أصلاً.

و أما إذا حملناه على النسيان الحقيقي فعلى مذهب العامة لا إشكال فيه لأنهم يجوزون السهو والنسيان على الأنبياء وأما على مذهبنا فإنه لا يجوز على النبي النسيان فيما يؤدبه أو في شرعه أو في أمر يقتضي التنفير عنه وأما فيما هو خارج عما ذكرناه فلا مانع من النسيان بمقتضى الطبع البشري كما إذا نسي أو سهى في مأكله أو مشربه على وجه لا يستمر ولا يتصل فإن ذلك غير ممتنع هكذا قيل وفيه نظر والحق أن النسيان بمعنى الترك كما مر فلا سؤال جواب.

البحث الثالث: في قوله: **أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**، حيث وصف موسى النفس بأنها زكية ولم تكن كذلك واقعاً فكيف خفي على موسى ذلك.

والجواب أن الكلام خرج مخرج الإستفهام لا على سبيل الأخبار وإذا كان إستفهاماً فلا سؤال ولا جواب في هذا الموضوع وقد اختلف المفسرون في هذه النفس فقال أكثرهم أنه كان صبيّاً لم يبلغ الحلم وعلى هذا يجب أن يحمل قوله: **زَكِيَّةً**، على أنه من الزكاة الذي هو الزيادة والنماء لا من الطهارة في الدين وذهب قوم إلى أنه كان رجلاً بالغاً كافراً ولم يكن موسى يعلم بإستحقاقه القتل فإستفهم عن حاله.

و أما قوله: **فَخَشِينَا** أن يرهقهما طغياناً وكفراً فالظاهر أن الخشية هي من العالم لا منه تعالى والخشية هنا بمعنى العلم كما:

قال الله تعالى: **وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْثِهَا نُسُورًا^(١)**.

قال الله تعالى: **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْنًا^(٢)**.

و أمثال ذلك فإن الخشية فيها بمعنى العلم وعلى هذا فالمعنى أنني علمت بإعلام الله لي أن هذا الغلام متى بقي كفر أبواه ومتى قتل بقيا على إيمانهما فصارت تبقيته مفسدة ووجب إحترامه ولا فرق بين أن يميته الله تعالى وبين

أن يأمر بقتله وأن قلنا أن الخشية هاهنا بمعنى الخوف الذي لا يكون معه يقين ولا قطع فهذا يطابق جواب من قال أن الغلام كان كافراً مستحقاً للقتل لكفره.

وأما مسألة الجدار والسفينة فلا كلام لأحد فيها ومحصل الكلام في الكل هو أن العالم أعني به الخضر كان له علم خاص مما علمه الله تعالى وقد يعبر عنه بعلم الباطن ولم يكن هو من أمة موسى وهذا مما لا إشكال فيه عقلاً وشرعاً فإن النبي ينبغي أن لا يحتاج في علمه إلى أمته وأما إلى غير الأمة فلا دليل عليه مضافاً إلى أن يكون الغير في علم خاص أعلم من النبي لا يلزم منه أن يكون أعلم منه في جميع العلوم وذلك لأن علوم الأنبياء ليست من العلوم الكسبية بل هي الدنية أفاض الله عليهم والإفاضات الربانية بحسب الاستعدادات والقابليات والمصالح التي لا يعلمها إلا هو ولهذا قال تعالى:

تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ^(١) وهذا على القول بأن الخضر كان من الأنبياء واضح لا خفاء فيه إذ لازم ذلك أن يكون نبياً أعلم من نبي آخر محذور فيه.

البَحْثُ الرَّابِعُ: أن المستفاد من الآية أنه لا ينبغي لأحد من المخلوقات أن يعجب بنفسه في علمه وذلك لأن فوق كل ذي علم عليم والذي أحاط علمه بكل الأشياء ظاهرها وباطنها هو الله تعالى وأما ما سواه كائناتاً ما كان فهو محتاج إلى التعلم إلى آخر عمره نبياً كان أو غيره إلا أن الأنبياء يتعلمون من الله تعالى بالوحي والإلهام وأما غيرهم فيتعلمون منه بواسطة العلماء وإن شئت قلت علوم الأنبياء ليست كسبية.

وأما القول بأن النبي وإن كان من أعظم الأنبياء يعلم جميع الأشياء ولا يحتاج إلى التعلم ولو من الله تعالى فلم يقل به أحد وهذا رسول الله ﷺ أمره الله أن يقول رب زدني علماً، والأصل فيما ذكرناه هو قوله تعالى: وَمَا

أَوْتِيقُمْ مِنْ أَعْلَمِ إِلَّا قَلِيلًا^(١) فالمخلوق فقيرٌ محتاج في جميع شئونه في علمه و قدرته و حياته و بالجملة في ذاته و صفاته و الغني المطلق ليس إلا الله تعالى و هذا بحمد الله واضح لا خفاء فيه.

البحث الخامس: روى المجلسي رحمته الله عن الصدوق بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال لما لقي موسى العالم و كلمه و سأله نظر إلى خطاف تصغي و ترتفع في الماء و تسفل في البحر فقال العالم لموسى أتدري ما تقول هذه الخطاف قال و ما تقول قال تقول و ربّ السموات و الأرض و ربّ البحر ما علمكما من علم الله إلا قدر ما أخذت بمنقاري من هذا البحر و أكثر و لما فارقه موسى قال موسى أوصني فقال الخضر إلزم ما لا يضرّك معه شيء كما لا ينفعلك مع غيره شيء و إياك و اللّجاجة و المشي إلى غير حاج و الضحك في غير تعجب بابن عمران لا تعبرن أحدًا بخطيئته و أبك على خطيئتك إنتهى.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصي موسى يوشع بن نون و هو فتاه الذي ذكره الله في كتابه إنتهى.

و بأسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: كان موسى أعلم من الخضر إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله فأردنا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه زكوةً و أقرب رحماً، قال ولدت لهما جارية فولدت غلاماً فكان نبياً إنتهى.

و في حديث آخر ولدت سبعين نبياً،

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: و كم من إنسان له حق لا يعلم به قال قلت و ماذا يا بن رسول الله قال عليه السلام: أن صاحبي الجدار كان لهما كنزٌ تحته أمّا أنه لم يكن ذهب و لا فضة قال قلت فأَيُّهما كان أحق به فقال الأكبر كذلك نقول إنتهى.

و عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله قال: سألته عن قول الله و أمّا
الجدار فكان لغلّامين يتيمين في المدينة و كان تحته كنزٌ فقال عليه السلام
أمّا أنّه ما كان ذهباً و لا فضّة و أمّا كان أربع كلمات، أنّي أنا الله لا
إله إلا أنا، من أيقن بالموت لم يضحك سنّه و من أقر بالحساب لم
يفرح قلبه و من آمن بالقدر لم يخش إلا ربّه إنتهى.

وفي حديثٍ آخر و عجت لمن أيقن بالقدر كيف يستبطن الله في
رزقه و عجت لمن يرى النشأة الأولى كيف ينكر النشأة الآخرة
إنتهى ^(١).



وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ
 مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا
 بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
 وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ
 تُعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا
 مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ
 عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ
 جَزَاءٌ أَلْحَسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)
 ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ
 وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا
 سَبِيلًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)
 ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ
 وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا
 (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَا جُوجَ
 مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ
 أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكْنَىٰ
 فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ
 بَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) اتُّونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا
 سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ
 نَارًا قَالَ اتُّونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا
 اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي
 جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا
 بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
 لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي
 غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا
 (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي
 مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
 نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا
 (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
 يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا (١٠٥)
 ذَلِكَ جَزَاءُ وَهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي
 وَرُسُلِي هُزُوءًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧)
 خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ
 كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ
 أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)
 قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ
 إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
 عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

◀ اللغة

عَيْنَ حِمَّةٍ: أي ماء ذات حماة.
 رَدْمًا: الرَّدَم أَشَدُّ الْحِجَابِ.
 زُبْرُ الْحَدِيدِ: الزُّبْرُ بضم الزَّاء الجملة المجتمعة من الحديد والصفرو
 نحوهما وأصله الإجماع.
 بَيْنَ الصَّدْفَيْنِ: الصَّدْفَانِ الْجِبْلَانِ.
 قَطْرًا: القَطَرِ التَّمَاسِ.
 دَكَّاءَ: بفتح الدَّال أي مذكوكاً مستويّاً بالأرض.
 هَزْؤًا: أي سخرية وإستهزاء.

◀ الإعراب

فَاتَّبَعَ يروى بوصل الهمزة والتشديد و سبباً مفعوله و يقرأ بقطع الهمزة و
 التَّخْفِيفِ و هو متعلِّق إلى إثنين أي أتبع سبباً سبباً حِمَّةٍ صفة عَيْنٍ إمَّا أَنْ
 تُعَذِّبَ أَنْ فِي وَضْعِ رَفْعٍ بِالْإِبتِدَاءِ وَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَي أَمَّا الْعَذَابُ وَاقِعٌ مِنْكَ
 بِهِمْ جَزَاءً الْحُسْنَى مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَي مَجْزِيًّا بِهَا وَ قِيلَ هُوَ مُصَدَّرٌ
 عَلَى الْمَعْنَى أَي يَجْزِي بِهَا جِزَاءً وَ قِيلَ تَمْيِيزٌ وَ يقرأ بِالنَّصْبِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ
 مَطْلَعِ الشَّمْسِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَكَانًا وَ أَنْ يَكُونَ مُصَدَّرًا وَ الْمُضَافُ مَحْذُوفٌ
 أَي مَكَانَ طُلُوعِ الشَّمْسِ كَذَلِكَ أَي الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَيْنَ السَّيِّئِينَ بَيْنَ هَاهُنَا مَفْعُولٌ
 بِهِ وَ السَّدُّ بِالْفَتْحِ مُصَدَّرٌ سَدٌّ وَ هُوَ بِمَعْنَى الْمَسْدُودِ وَ بِالضَّمِّ إِسْمٌ لَهُ يَأْجُوجَ وَ
 مَا أَجُوجَ هُمَا إِسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ لَمْ يَنْصَرَفَا لِلْعَجْمَةِ وَ التَّصْرِيفُ مَا مَكَّنِي مَا،
 بِمَعْنَى، الَّذِي وَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَ (خَيْرٌ) خَبَرُهُ وَ (قَطْرًا) مَفْعُولٌ أَتُونِي وَ مَفْعُولٌ،
 أَفْرَغَ، مَحْذُوفٌ أَي أَفْرَغَهُ الَّذِينَ كَانَتْ فِي مَوْضِعِ جَرِّ صِفَةِ لِلْكَافِرِينَ أَوْ نَصَبٍ
 بِإِضْمَارِ أَعْنِي أَوْ رَفْعٍ بِإِضْمَارِ، هُمْ أَعْمَالًا تَمْيِيزٌ وَ زَنًّا تَمْيِيزٌ أَوْ حَالِ ذَلِكَ مُبْتَدَأٌ
 وَ جَزَاءُ هُمْ مُبْتَدَأٌ ثَانٍ وَ جَهَنَّمُ خَبَرُهُ وَ الْجُمْلَةُ خَبَرُ الْأَوَّلِ وَ الْعَائِدُ مَحْذُوفٌ أَي

جزاؤهم به لَا يَبْغُونَ حَال من الضَّمير في خالدين مَدَدًا تمييز أَنَّمَا إِلَهُكُم هاهنا مصدرية ولا يمنع من ذلك دخول ما، العامة عليها.

◀ التفسير

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا

الضَّمير في يسألونك عائد على قريش أو على اليهود والمشهور أنَّ السَّائِلِينَ قريش حين دَسَّتْهَا اليهود على سؤاله عن الرُّوح وفتيته ذهبوا في الدَّهْر ليقع إمتحانه بذلك و ذو القرنين هو الإسكندر اليوناني على قول ابن إسحاق وقال وهب هو رومي وهل هو نَبِيّ أو عبدٌ صالح ليس بنَبِيّ قولان، قيل ملك الدُّنيا مؤمنان سليمان و ذو القرنين و كافران، نمرود و بخت نصر و كان بعد نمرود و نقلت العامة في تفاسيرهم عن علي عليه السلام أَنَّهُ قَالَ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا لَيْسَ بِمَلِكٍ وَلَا نَبِيٍّ ضَرْبٌ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْمَنِ فَمَاتَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ فَضْرَبَ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرَ فَمَاتَ فَبَعَثَهُ اللَّهُ فَسَمِّيَ ذُو الْقَرْنَيْنِ. وقيل سَمِّيَ به لَأَنَّهُ طَافَ قَرْنِي الدُّنْيَا يَعْنِي جَابَهَا شَرْقَهَا وَ غَرْبَهَا.

وقيل كان له قرنان صغيرتان والأقوال فيه كثيرة.

وقد روي أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألتَه عن قول الله يسألونك عن ذي القرنين الآية، قال عليه السلام أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ فَضْرَبَ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْمَنِ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَضْرَبَ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرَ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَمَلَكَهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَى حَيْثُ تَغْرُبُ الْحَدِيثُ، وَ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَنْبِيَاءُ كَانَ أَمَ مَلَكًا فَقَالَ لَا نَبِيًّا وَلَا مَلَكًا بَلْ كَانَ عَبْدًا أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحْبَبَهُ اللَّهُ وَ نَصَحَ لِلَّهِ فَنَصَحَ لَهُ فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ فَضْرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْمَنِ فَغَابَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ

يَغِيبُ ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ الثَّانِيَةَ فَضْرِبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرَ فَعَابَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ الثَّلَاثَةَ فَمَكَنَ اللَّهُ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَفِيكُمْ مِثْلُهُ يَعْنِي نَفْسَهُ الْحَدِيثُ^(١).

أَقُولُ يَظْهَرُ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ وَامْتَالِهِ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَانَ نَبِيًّا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ ثُمَّ مَكَنَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ النَّبُوءَةِ فَصَارَ مُلْكًا وَعَلَى هَذَا فَهُوَ مِثْلُ سُلَيْمَانَ النَّبِيِّ مُلْكُ الْأَرْضِ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا مَعَ النَّبُوءَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَا يَعْجَبُنِي ذِكْرُهُ وَنَسْبُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَ شَابًا مِنْ الرُّومِ فَجَاءَ بِنِي مَدِينَةَ مِصْرَ الْإِسْكَندَرِيَّةَ فَلَمَّا فَرَّغَ جَاءَهُ مُلْكٌ فَعَلَّاهُ فِي السَّمَاءِ فَقَالَ لَهُ مَا تَرَى فَقَالَ أَرَى مَدِينَتِي وَمَدَائِنَ ثُمَّ عَلَّاهُ فَقَالَ مَا تَرَى قَالَ أَرَى مَدِينَتِي ثُمَّ عَلَّاهُ فَقَالَ مَا تَرَى قَالَ أَرَى الْأَرْضَ قَالَ فَهَذَا الْيَمُّ مُحِيطٌ بِالْدُّنْيَا أَنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكَ تَعْلَمُ الْجَاهِلُ وَتُثِيبُ الْعَالَمَ فَآتَى بِهِ السُّدَّ وَهُوَ جَبَلَانِ لَيْنَانِ يَزْلِقُ عَنْهُمَا كُلُّ شَيْءٍ ثُمَّ مَضَى بِهِ حَتَّى جَاوَزَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ثُمَّ مَضَى بِهِ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى وَجُوهَهُمْ وَجُوهُ الْكَلَابِ يِقَاتِلُونَ مَأْجُوجَ وَيَأْجُوجَ ثُمَّ مَضَى بِهِ حَتَّى قَطَعَ بِهِ أُمَّةً أُخْرَى يِقَاتِلُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجُوهَهُمْ وَجُوهُ الْكَلَابِ ثُمَّ مَضَى بِهِ حَتَّى قَطَعَ بِهِ هَؤُلَاءِ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى قَدْ سَمَّاهُمْ إِنْتَهَى.

أَقُولُ أَنْظُرُوا يَا أَهْلَ الْإِنْصَافِ إِلَى هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي هِيَ بِكَلَامِ الشَّيَاطِينِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْعَجَبُ أَنَّهُ وَامْتَالِهِ بِهِذِهِ الْمَوْصُوفَاتِ يَفْسِّرُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَإِذَا كَانَ الطَّبْرِيُّ وَهُوَ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَرَاجِيفِ فَمَا ظَنُّكَ بِاتِّبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ وَهُمْ أَكْثَرُهُمْ لَوْلَا جَمْعُهُمْ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْقَارِئُ مَا تَفْهَمُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْمَوْضُوعِ وَنَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِهِ.

وقد روي جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول أن ذا القرنين كان عبداً صالحاً جعله الله عز وجل حجة على عباده فدعا قومه إلى الله وأمرهم بتقواه فضربوه على قرنه فغاب عنهم زماناً حتى قيل مات أو هلك بأيّ وادٍ سلك ثم ظهر ورجع إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر وفيكم من هو على سنته الحديث.

وعن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: أن الله لم يبعث أنبياء ملوكاً في الأرض إلا أربعة بعد نوح، أولهم ذو القرنين وإسمه عياش وداود وسليمان ويوسف.

وعن كتاب الخصال بأسناده، ملك الأرض كلّها أربعة مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين وأما الكافران، نمرود وبخت نصر وإسم ذي القرنين عبد الله بن ضحاك بن معدٍ إنتهى^(١).

إذا عرفت هذا فنقول يظهر من بعض الأخبار أن الخضر كان مع ذي القرنين.

فقد روي المجلسي في البحار عن الصدوق بالأسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: أن ذي القرنين كان عبداً صالحاً لم يكن له قرن من ذهب ولا فضة بعثه الله في قومه فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم ثم عاد إليهم فدعاهم فضربوه على قرنه الأيسر وفيكم مثله قالها ثلاث مرات وكان قد وصف له عين الحياة وقيل له من شرب منها شربة لم يموت حتى يسمع الصيحة وأنه خرج في طلبها حتى أتى موضعاً كان فيه ثلاث مائة وستون عيناً وكان الخضر على

مَقْدَمَتِهِ وَكَانَ مِنْ أَتَوَا أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ فِدْعَاهُ وَاعْطَاهُ وَأَعْطَى قَوْمًا
 مِنْ أَصْحَابِهِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حُوتًا مَمْلُوحًا ثُمَّ قَالَ انْطَلِقُوا إِلَى هَذِهِ
 الْمَوَاضِعِ فَلْيَغْسِلْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حُوتَهُ وَأَنَّ الْخَضِرَ انْتَهَى إِلَى عَيْنٍ
 مِنْ تِلْكَ الْعَيُونِ فَلَمَّا غَمَسَ الْحُوتَ وَوَجَدَ رِيحَ الْمَاءِ حَيًّا وَأَنْسَابَ
 فِي الْمَاءِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْخَضِرَ رَمَى بِثِيَابِهِ وَسَقَطَ فِي الْمَاءِ فَجَعَلَ
 يَرْتَمِسُ فِي الْمَاءِ وَيَشْرَبُ رَبَاءً أَنْ يَصِيبَهَا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجَعَ وَ
 رَجَعَ أَصْحَابُهُ فَأَمَرُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِقَبْضِ السَّمَكِ فَقَالَ أَنْظَرُوا فَقَدْ
 تَخَلَّفَتْ سَمَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالُوا الْخَضِرُ صَاحِبُهَا فِدْعَاهُ وَقَالَ مَا فَعَلْتَ
 بِسَمَكَتِكَ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ فَقَالَ مَاذَا صَنَعْتَ قَالَ سَقَطَتْ فِيهَا أُغْوَصُ وَ
 أَطْلَبُهَا فَلَمْ أَجِدْهَا قَالَ عَنِ الْمَاءِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَطَلَبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الْعَيْنَ
 فَلَمْ يَجِدْهَا فَقَالَ لِلْخَضِرِ أَنْتَ صَاحِبُهَا وَأَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ لِهَذِهِ الْعَيْنِ
 وَكَانَ إِسْمُ ذِي الْقَرْنَيْنِ عِيَاشًا وَكَانَ أَوَّلَ الْمُلُوكِ بَعْدَ نُوحٍ مَلِكًا مَا
 بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ انْتَهَى^(١).

أَقُولُ وَيَعْلَمُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَامْتَالِهِ وَجْهَ الرِّبْطِ بَيْنَ الْقَصَتَيْنِ أَعْنِي بِهَا
 قِصَّةَ الْخَضِرِ مَعَ مُوسَى وَقِصَّتَهُ مَعَ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَلَعَلَّهُ هُوَ الْوَجْهَ فِي ذِكْرِ قِصَّةِ
 ذِي الْقَرْنَيْنِ عَقِيبَ قِصَّةِ الْخَضِرِ وَمُوسَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَلِنَرْجِعَ إِلَى
 تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَيَسْأَلُونَكَ الصَّمِيرَ عَائِدًا عَلَى قَرِيشٍ وَقِيلَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ
 الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ فِي ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ يَا مُحَمَّدُ سَأَلْتُمُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا أَيْ
 مِنْ أَخْبَارِهِ وَسِيرَتِهِ.

بِسْمِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



المجلد الحادي عشر

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا
 وَ الْمَعْنَى إِنَّا بَسَطْنَا يَدَهُ وَقَدَرْنَاهُ فِي الْأَرْضِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَفِي قَوْلِهِ: مِنْ
 كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اعْطَاهُ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَرَادِهِ وَقِيلَ

المراد بالسَّبَب العلم أي أتيناه علماً يُسبب به إلى ما يريد و أنما أشار تعالى إلى السَّبَب لأنَّ الدنيا دار الأسباب بمعنى أنَّه تعالى جعل لكلِّ شيء سبباً و أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها و أن كانت الأسباب أيضاً تحت قدرته و قد ورد في الآثار أنَّ الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً هيأ له أسبابه فأنَّه مسبَّب الأسباب و لكنَّ جرَّت سنَّته في عالم الكون و الفساد على ذلك فالمرضى لا بدَّ له من مراجعة الطَّبيب و شرب الدَّواء و الجاهل لا بدَّ له من مراجعة العالم و تعلُّم العلم منه و هكذا و في قوله: **أَتَيْنِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**، إشارة إلى نقطةٍ أخرى و هي أنَّ ذا القرنين كان من عباد الله الصَّالحين و هو كان كذلك كما عرفت فَاتَّبَعَ سَبَباً قرأ ابن عامر و أهل الكوفة بقطع الهمزة و فتحها و تخفيف التاء و سكونها و قرأ الباقر بوصل الهمزة و تشديد التاء و فتحها من قولهم اتَّبَعَ إتباعاً و التَّخفيف أشهر و عليه المصاحف و كيف كان فالمعنى أنَّه اتَّبَعَ طريقاً إلى ما أريد منه و بعبارةٍ أخرى أنَّه تمسَّك بالأسباب للوصول إلى المسببات فكان يستعين بالأسباب على الملوك و فتح الفتوح و قتل الأعداء في الحروب و الفاء في قوله فَاتَّبَعَ للتفريع أي لما آتيناه من كلِّ شيء سبباً فَاتَّبَعَ ذلك السَّبَب في الوصول إلى المقصد فإذا أراد بلوغ المغرب فَاتَّبَعَ سَبَباً يوصله إليه حتَّى بلغ وكذلك إذا أراد بلوغ المشرق أو بلوغ السَّدين و الجملة أنَّه لم يتخلَّف عن قانون الطبيعة و السُّنة الجارية للوصول إلى مقاصده بل كان يتبناها.

في القرآن في تفسير القرآن

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا

جزء ١٦

في هذه الآية إشارة بل دلالة على أنَّ ذا القرنين سار حتَّى بلغ مغرب الشَّمس و فيها أبحاث:

الأول: أنَّه كيف بلغ إلى مغرب الشَّمس أقول قد ذكر الله تعالى أنَّه مكَّنه في الأرض و أعطاه العلم بالأسباب و أنَّه اتَّبَعَ السَّبَب.

المجلد الحادي عشر

قد روي الصَّدُوق في كتاب كمال الدِّين و اتمام النِّعْمَة بأَسْنَدِهِ عن رجلٍ من بني أُسَد قال: سأل رجلٌ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَأَيْتَ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ بَلَغَ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَحَّرَ اللَّهُ لَهُ السَّحَابَ وَمَدَّ لَهُ فِي الْأَسْبَابِ وَ بَسَطَ لَهُ النُّورَ فَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيْهِ سَوَاءً. وَفِي تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ خَيَّرَ بَيْنَ السَّحَابِ الصَّعْبِ وَالسَّحَابِ الذَّلُولِ فَرَكِبَ فَاخْتَارَ الذَّلُولَ فَرَكِبَ الذَّلُولَ فَكَانَ إِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ كَانَ رَسُولَ نَفْسِهِ إِلَيْهِمْ لَكِي لَا يَكْذِبُ الرُّسُلَ انْتَهَى.

و عَنْ حَارِثِ بْنِ حَبِيبٍ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ عَلِيًّا فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبِرْنِي عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَحَّرَ لَهُ السَّحَابَ وَ قَرَّبَتْ لَهُ الْأَسْبَابَ وَ بَسَطَ لَهُ فِي النُّورِ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ كَيْفَ بَسَطَ لَهُ فِي النُّورِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَ يَضِيءُ بِاللَّيْلِ كَمَا يَضِيءُ بِالنَّهَارِ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلرَّجُلِ أَزِيدُكَ فَسَكَتَ انْتَهَى.

البحث الثاني: ما المراد بمغرب الشمس و غروبها في عين حمئة، على قراءة المشهور و عين حامية على قراءة الكسائي و حمزة و ابن عامر عن عاصم بالألف من غير همزة أي حارة.

نقول أما على القراءة الأولى و هي المشهور فالمعنى أنها تغرب في ماءٍ و طينٍ فإن الحمئة ما فيه ماءٌ و حمأة سوداء، و أما على القراءة الثانية فالمعنى أنها تغرب في ماءٍ حارٍّ فإن الحامية هي الحارة و الحق أن المعنى فيهما واحد إذ يجوز أن تكون العين جامعة للوصفين.

نقل الرَّاظِي فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَمَلٍ فَرَأَى الشَّمْسُ حِينَ غَابَتْ فَقَالَ ﷺ: أَتَدْرِي يَا أَبَا ذَرٍّ أَيْنَ تَغْرِبُ هَذِهِ قُلْتُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَأَنَّهَا تَغْرِبُ فِي

عينٍ حاميةٍ قال الرّازي و إتفق أنّ ابن عباس كان عند معاوية فقراً
معاوية حامية بألف فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن
عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين عليه السلام.

ثمّ وجه أبي كعب الأخبار و قال كيف تجد الشّمس تغرب قال في ماءٍ و
طينٍ كذلك نجده في التّوراة و الحمئة ما فيه ماء و حمأة سوداء إنتهى و قلنا لا
منافاة بين القراءتين في المعنى لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين.

البحث الثالث: أنّ غروب الشّمس في عينٍ حمئةٍ أو حامية غير معقول
بحسب الظّاهر و ذلك لأنّ العين الحمئة أو حامية تكون في الأرض لا محالة و
قد ثبت أنّ الشّمس أكبر من الأرض بمراتب كثيرة فكيف يعقل غروبها في
نقطةٍ من الأرض و إنّما قلنا في نقطةٍ من الأرض لأنّ العين لا تطلق على كلّ
الكرة فلا محالة تكون واقعة في بعضها و إذا كان الأمر على هذا المنوال يلزم
دخول الكثير في القليل و هو كما ترى و لنعم ما قيل بالفارسية.

أوصاف خدا به گفتگو ممکن نیست گنجایش بحر در سبو ممکن نیست
و قد أجاب عند الرّازي بعد ذكره الإشكال الذي ذكرناه بوجوه:

الأول: أنّ ذي القرنين لمّا بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من
العمارات وجد الشّمس كأنّها تغرب في عينٍ و هذه مظلمة و أن لم تكن كذلك
في الحقيقة كما أنّ راكب البحر يرى الشّمس كأنّها تغرب في البحر إذا لم ير
الشّط و هي في الحقيقة تغيب وراء البحر هذا هو التأويل الذي ذكره أبو عليّ
الجبائي في تفسيره.

الثاني: أنّ للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالناظر الى
الشّمس يتخيّل كأنّها تغيب في تلك البحار الغربيّة قويّة السّخونة فهي حامية و
هي أيضاً حمئة لكثرة ما فيها من الحمئة السوداء و الماء فقوله تغرب في عينٍ
حمئة إشارة الى أنّ الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر و هو موضع
شديد السّخونة.

الثَّالِث: قال أهل الأخبار أَنَّ الشَّمْسَ تَغِيبُ فِي عَيْنٍ كَثِيرَةِ الْمَاءِ وَالْحَمِئَةِ وَ هَذَا فِي غَايَةِ الْبَعْدِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ إِذَا رُصِدَ نَاكِسُونًا قَمَرِيًّا فَإِذَا إِبْتَدَرْنَاهُ وَ رَأَيْنَا أَنَّ الْمَشْرِقِيِّينَ قَالُوا حَصَلَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَعَلِمْنَا أَنَّ أَوَّلَ اللَّيْلِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ هُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ الثَّانِي عِنْدَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ بَلْ ذَلِكَ الْوَقْتُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ اللَّيْلِ عِنْدَنَا فَهُوَ وَقْتُ الْعَصْرِ فِي بَلَدٍ وَ وَقْتُ الظَّهْرِ فِي بَلَدٍ آخَرَ وَ وَقْتُ الضُّحَا فِي بَلَدٍ مَالَتْ وَ وَقْتُ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي بَلَدٍ رَابِعٍ وَ نِصْفُ اللَّيْلِ مِنْ بَلَدٍ خَامِسٍ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ مَعْلُومَةٌ بَعْدَ الْإِسْتِقْرَاءِ وَ الْإِعْتِبَارِ وَ عَلِمْنَا أَنَّ الشَّمْسَ طَالَعَةُ ظَاهِرَةٍ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ كَانَ الَّذِي يُقَالُ أَنَّهَا تَغِيبُ فِي الطَّيْنِ وَ الْحِمَاةِ كَلَامًا عَلَى خِلَافِ الْيَقِينِ وَ كَلَامِ اللَّهِ مُبَرَّءٌ عَنْ هَذِهِ التُّهْمَةِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُضَارَ إِلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ إِنْتَهَى كَلَامُ الرَّازِي.

أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ فِي الْجَوَابِ عَنِ الْإِشْكَالِ لَا بَأْسَ بِهِ ظَاهِرًا إِلَّا أَنَّ أَصْلَ الْإِشْكَالِ مَحَلُّ نَظَرٍ وَ تَأْوِيلٍ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ أَنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ أَوْ عَامِيَةٍ وَ أَمَّا أَنْ تِلْكَ الْعَيْنُ أَيْنَ تَكُونُ فِي الْأَرْضِ لَا دَلِيلَ وَ مِنْ أَيْنَ ثَبَتَ أَنَّ الْعَيْنَ وَاقِعَةٌ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يُقَالَ كَيْفَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ فِي عَيْنٍ مِنْ عَيُونِ الْأَرْضِ مَعَ أَنَّ الشَّمْسَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ الْأَرْضِ بِمَرَاتٍ وَ لَمَّا لَمْ يَبَيِّنْ فِي الْآيَةِ مَوْضِعَ الْعَيْنِ الَّتِي تَغْرُبُ الشَّمْسُ فِيهَا فَالْسَّكُوتُ أَوْلَى لِقَوْلِهِ **عَلَيْهَا**: **أَسْكَنُوا مِمَّا سَكَّتَ اللَّهُ عَنْهُ** فَأَنَّ الْوُقُوفَ عِنْدَ الشُّبْهَةِ خَيْرٌ مِنَ الْإِقْتِحَامِ فِي الْهَلَكَةِ وَ لَعَلَّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى عَيْنَ حَمِئَةٍ لَا نَعْلَمُ مَوْضِعَهَا وَ الشَّمْسُ تَغْرُبُ فِيهَا وَ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِغُرُوبِهَا هُوَ إِسْتِتَارُهَا فِيهَا وَ أَمَّا كَيْفِيَّةُ الْقَضِيَّةِ وَ الْعِلْمُ بِهَا تَفْصِيلًا فَهُوَ مَوْقُوفَةٌ عَلَى تَعَقُّلِهَا وَ تَصَوُّرِهَا فَأَنَّ التَّصْدِيقَ بِشَيْءٍ مَوْقُوفٌ عَلَى تَصَوُّرِهِ أَنَّ تَصَوُّرَ الْعَيْنِ الْحَمِئَةِ غَيْرُ مُمْكِنٍ لَنَا فِي الْمَقَامِ مَا لَعْلَمَ بِهَا خَارِجٌ عَنْ خَطِئَتِهِ أَدْرَاكُنَا فَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَ إِنَّا بَعْدَ الْفَحْصِ التَّامِ فِي الْأَخْبَارِ وَ الْآثَارِ لَمْ نَجِدْ مَا يَفِيدُ الْقَطْعَ وَ الْيَقِينَ فَنَقُولُ اللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ كَلَامِهِ.

البحث الرابع: و وجد عندها قوماً، الصّمير في عندها، يعود على الشّمس و يكون التّأنيث لها و قيل يعود إلى العين الحامية فعلى الأوّل معنى الكلام أنّ ذا القرنين وجد عند الشّمس قوماً و حيث أنّ جلوس قوم في قرب الشّمس غير معقول فيصير المعنى أنّه لمّا تخيل أنّ الشّمس تغرب هناك كان سكّان هذا الموضع كأنّهم سكنوا بالقرب منها و على التّاني يصير المعنى أنّه وجد عند العين قوماً هكذا فسرّ الرّازي الكلام و الّذي عندنا في معنى الكلام هو أنّه وجد في جهة المغرب و سمّته سكّاناً و هذا ممّا لا إستبعاد فيه فأنّ البلاد في المغرب و المشرق أي في جهتهما موجودة الآن يقال بلاد الشرق و بلاد الغرب فالقوم الّذين وجدهم كانوا من سكّان البلاد في جهة المغرب قلنا يا ذَا الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قال بعض المفسّرين أنّ هذه الآية تدلّ على أنّه تعالى تكلمّ معه من غير واسطة يدلّ على أنّه كان نبياً و حمل اللفظ على أنّ المراد أنّه خاطبه على السنة بعض أنبيائه عدولاً عن الظّاهر.

أقول لا يستفاد من قوله: قلنا يا ذَا الْقَرْيَيْنِ أنّه تعالى تكلمّ معه من غير واسطة و أية دلالة فيه على التّكلمّ معه بلا واسطة:
قال الله تعالى: فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ^(١).
قال الله تعالى: قلنا يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ^(٢) و أمثال ذلك من الآيات.

نعم لو قال و أوحينا إليه أو كلّمه الله لكان ما ذكره حقّاً مع أنّ في أوحينا أيضاً كلام لقوله تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى النَّحْلِ الْآيَةَ و الحاصل أنّ التّوبة لا تثبت بهذه الإحتمالات و معنى الآية أنّه قلنا له إمّا أن تعذب، هؤلاء القوم لإقامتهم على الشّرك و الكفر و إمّا أن تتخذ فيهم حسناً، بأن تأسرهم فتعلمهم الهدى و تستقدم من العمي و يحتمل أن يكون المعنى في الجملة الثانية و إمّا أن

هذا القرآن في تفسيره

جزء ١٦

المجلد العاشر

ترشدهم إلى الهدى فيسلموا على يديك ويظهر من الآية أنهم كانوا على الشُّرك وكانوا عبدة الشَّمس هكذا قيل و عندنا أَنَّ الآية لا تدلُّ عليه فلا يستفاد منها ما فسَّروها به بل الآية تدلُّ على أَنَّهُ وجد عندها قومًا إمَّا أَنَّهُم كانوا مشركين لا يستفاد منها اللَّهُمَّ إِلَّا أَن يُقال أَنَّ الأصل يقتضي الكفر ولا سِيَّما بالنِّسبة إلى قومٍ لم يبعث إليهم نبي قطَّ والقوم كانوا كذلك والأحسن أن يقال لم يكن لهم دينٌ أصلاً فما كانوا عبدة الشَّمس ولا عبدة الله تعالى فأمر الله تعالى ذا القرنين أن يدعوهم إلى التوحيد فيعذبهم في صورة الإنكار بعد ظهور الحقِّ أو يتخذ فيهم حسناً في صورة الإطاعة والإنقياد وهذا هو المستفاد من ظاهر الآية و أمَّا قولهم إمَّا تعذبهم بالقتل لإقامتهم على الشُّرك، فلا دليل عليه والله أعلم فتدبر فيها (قال أمَّا من ظلم) أي ظلم نفسه بعدم الإيمان (فسوف نعذبه) في الدنيا و ثمَّ يردُّ إلى ربِّه فيعذبه عذاباً نكراً، يوم القيامة، أي عظيماً منكراً أنكره النَّفس من جهة الطَّبع و هو عذاب النَّار صحَّ.

وَأَمَّا مَنْ أَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا

و هذه الآية دليل على ما ذكرناه، أي أدعهم إلى الإيمان و أقم لهم البراهين و الحجج عليه ففي صورة الإنكار و العناد عذبهم لأنَّهم مستحقون له و أمَّا من قبل الدَّعوة و آمن بالله و عمل صالحاً فله جزاء الحسنی و هو جزاء الطَّاعة و قبل جزاء الحسنی الجنَّة، قرأ بعضهم جزاء الحسنی بالرفَّع و الآخرون بالنَّصب فعلى الرفَّع معناه ما ذكرناه أي فله جزاء الطَّاعة و هى الحسنی و أمَّا على القول بالنَّصب فيحتمل أن يكون نصباً على المصدر في موضع الحال أي فلهم الجنَّة يجزون بها جزاءً و قيل نصب على التَّمييز و هو ضعيف لأنَّ التَّمييز يصحُّ تقديمه و تفصيل البحث فيه في النَّحو.

وقوله سنقول له من أمرنا يسراً، قيل أي قولاً جميلاً وقيل معناه لا تأمره بالصَّعب الشَّاق ولكن بالسَّهل الميسر من الزَّكاة والخراج وغيرهما وتقديره ذا يسرٍ كقوله قولاً ميسوراً والضَّمير في، له، عائد على من، في قوله وأما من آمن.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا

أي أتبع طريقاً إلى مقصده الذي يسر له وقيل طريقاً ومسلِكاً لجهاد الكفار.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ
أي الموضع الذي تطلع منه.

وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا
أي لم يكن بتلك الأرض جبل ولا شجر ولا بناء فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم يغورون في المياه والأسراب وإذا غربت تصرفوا في أمورهم.
قال قتادة هي الزَّنج (كذلك وقد أخطأنا بما لديه خبراً) أي كذلك علَّمناهم وعلَّمناه أو المعنى كذلك أتبع سبباً إلى مطلع الشمس كما أتبعه إلى مغربها.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا

المراد بالسَّدَّين الجبلان اللذان جعل الرَّدَم بينهما في قول ابن عباس و قتادة والسَّد وضع ما ينتفي به الخرق وقيل السَّد الحاجز بينك وبين الشيء.
قال الكسائي الضَّم والفتح في السَّد بمعنى واحد وقال أبو عبيدة و عكرمة السَّد بالضَّم من فعل الله وبالفتح من فعل الآدميين.

وقال الخليل وسيبويه بالضَّم الإسم وبالفتح المصدر قال وهب السَّدان جبلان منيفان في السَّماء من ورائهما ومن أمامهما البلدان وهما بمنقطع أرض

التُّرْكُ وَ ذَكَرَ الْهَرَوِي أَنَّهُمَا جَبَلَانِ مِنْ وَرَاءِ بِلَادِ التُّرْكِ وَقِيلَ هُمَا جَبَلَانِ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ لَيْسْتَانِ أَمْلَسَانِ يَزِلْقُ عَلَيْهِمَا كُلُّ شَيْءٍ وَ سَمِّيَ الْجَبَلَانِ سُدَّيْنِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سَدٌّ فَجَاجَ الْأَرْضُ وَ كَانَتْ بَيْنَهُمَا فَجْوَةٌ يَدْخُلُ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ الْأَقْوَالُ فِيهِمَا كَثِيرَةٌ لَا فَائِدَةَ فِي ذِكْرِهَا إِذْ لَا دَلِيلَ مِنَ الْعَقْلِ وَ النُّقْلِ عَلَى صَحَّتِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا مَعْنَاهُ وَجَدَ ذَوَا الْقَرْنَيْنِ مِنْ دُونِ السُّدَيْنِ قَوْمًا يَعِيشُونَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، لِإِخْتِلَافِ لُغَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ وَ أَمَّا قَالَ تَعَالَى لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا وَ لَمْ يَقُلْ لَا يَعْلَمُونَ قَوْلًا لِأَنَّهُمْ فَقَهُوا بَعْضَ الشَّيْءِ عَنْهُمْ وَ أَنْ كَانَ بَعْدَ شِدَّةٍ وَ عُسْرَةٍ وَ بِذَلِكَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ.

قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا

وَ الضَّمِيرُ فِي قَالُوا، عَائِدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ أَنْ مَأْجُوجَ وَ يَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فِي تَخْرِيبِ الدِّيَارِ وَ قَطْعِ الطَّرِيقِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا، أَيَّ أَجْرًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا، يَمْنَعُ عَنْ دُخُولِهِمُ الْأَرْضَ وَ الْإِفْسَادَ فِيهَا وَ أَمَّا قَالُوا لَهُ ذَلِكَ وَ طَلَبُوا فِيهِ مَا طَلَبُوا لِأَنَّهُمْ رَجَوْا عِنْدَهُ مَا يَنْفَعُهُمْ لِكُونِهِ مَلِكِ الْأَرْضِ وَ دَوَّخِ الْمُلُوكِ وَ بَلَغَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَبْلُغْ أَرْضَهُمْ مَلِكٌ قَبْلَهُ وَ إِخْتَلَفُوا فِي يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ، فَقَالَ قَوْمُ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ آدَمَ قَبِيلَتَانِ، وَ قِيلَ مِنْ وَلَدِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ، وَ قِيلَ أَنَّهُمْ مِنَ التُّرْكِ وَ قِيلَ يَأْجُوجَ مِنَ التُّرْكِ وَ مَأْجُوجَ مِنَ الْجِيلِ وَ الدَّيْلَمِ.

وَ قَالَ قِتَادَةُ وَ السُّدَيُّ بَنَى السُّدَّ عَلَى أَحَدِ وَ عَشْرِينَ قَبِيلَةً وَ بَقِيَتْ مِنْهُمْ قَبِيلَةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ السُّدِّ فَهَمُ التُّرْكُ وَ إِخْتَلَفَ فِي عِدْدِهِمْ وَ صِفَاتِهِمْ وَ الْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مَا ذَكَرُوهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ أَنَّهُمَا لَمْ يَعْرِفَا إِلَى الْآنَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
الرَّدْم، أَشَدُّ الْحِجَابِ فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

هَلْ غَادَرِ الشَّعْرَاءُ مِنْ مَّتَرْدَمٍ أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارُ بَعْدَ تَوَّهْمٍ
يُقَالُ رَدَمٌ ثَوْبُهُ تَرْدِيمًا إِذَا أَكْثَرَ الرَّقَاعُ فِيهِ وَقِيلَ الرَّدْمُ السَّدُّ الْمَتْرَاكِبُ مَكَّنِّي،
بَنُوْنٍ وَاحِدَةٍ قِرَاءَةُ الْمَشْهُورِ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، مَكَّنِّي، بَنُوْنٍ فَمِنْ شَدَدِ ادَّعَمٍ كِرَاهِيَةِ
الْمَثْلِينَ، وَمِنْ لَمْ يَدْعَمْ قَالَ لِأَتَهُمَا مِنْ كَلِمَتَيْنِ لِأَنَّ التَّوْنَ الثَّانِيَّةَ لِلْفَاعِلِ وَالْيَاءُ
لِلْمَتَكَلِّمِ وَهُوَ مَفْعُولٌ بِهِ وَقُلْنَا لِلْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ، مَكَّنِّي بَنُونَ وَاحِدَةً مَشْدُودَةً
يَعْنِي قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي جَوَابِهِمْ مَا مَكَّنِّي، أَيِ أَقْدَرَنِي فِيهِ خَيْرٌ أَيِ أُنْسَى لَا
أَحْتَاجُ إِلَى أَجْرِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَانِي عَمَّا سِوَاهُ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي أَيِ أَعِينُونِي
بِرَجَالٍ لَا بِمَالٍ، أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ وَهُمْ مَأْجُوجٌ وَيَأْجُوجٌ، رَدْمًا، أَيِ حَاجِزًا
حَصِينًا مُؤْتَقًا.

قَالَ فِي التَّبْيَانِ وَتَرَكَ الِهْمِزَةَ فِي يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ هُوَ الْإِخْتِيَارُ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ
الْأَعْجَمِيَّةَ لَا تَهْمِزُ مِثْلَ طَالُوتَ وَجَالُوتَ وَهَارُوتَ وَهَارُوتَ، وَمِنْ هَمْزٍ قَالَ
لِأَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ أَحَجَّ النَّارِ وَمِنْ الْمَلْحِ الْأَجَاجِ فَيَكُونُ مَفْعُولًا فِيهِ فِي قَوْلِ مَنْ
جَعَلَهُ عَرَبِيًّا وَتَرَكَ صَرْفَهُ لِلتَّعْرِيفِ وَالتَّأْنِيثِ لِأَنَّهُ إِسْمُ قَبِيلَةٍ وَلَوْ قَالَ لَوْ كَانَ عَرَبِيًّا
لَكَانَ هَذَا إِشْتِقَاقَهُ وَلَكِنَّهُ أَعْجَمِيٌّ فَلَا يَشْتَقُّ لَكَانَ أَصُوبُ قَالَ رُوبَةُ:

لَوْ أَنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مَعًا وَعَادَ عَادَ وَاسْتَجَاشُوا تَبَعًا

فَتَرَكَ الصَّرْفَ فِي الشَّعْرِ كَمَا هُوَ فِي التَّنْزِيلِ وَجَمَعَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ بِأَجَجٍ
مِثْلَ يَعْقُوبَ وَيَعْقَابَ وَمِنْ جَمْعٍ جَعَلَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، فَاعُولًا جَمْعُهُ
يُؤَاجِجُ بِالْوَاوِ مِثْلَ طَاغُوتٍ وَطَوَاغِيتٍ وَهَارُوتَ وَهَوَارِيتَ وَسَاقَ الْكَلَامِ إِلَى
أَنْ قَالَ الْجَبَائِي أُنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ قَبِيلَانِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ وَقِيلَ مِنْ وَلَدِ يَافَثَ بْنِ
نُوحَ وَمِنْ نَسْلِهِمُ الْأَتْرَاكُ وَبِأَلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَوْلُهُ، مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ،
مَعْنَاهُ يَأْكُلُونَ النَّاسَ وَقَالَ قَوْمٌ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ سَيَفْسُدُونَ، ذَهَبَ إِلَيْهِ قَتَادَةُ إِنَّتَهَى.

أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا

قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر، الصَّدَفَيْنِ، بضم الصاد و الدال و الباقون بفتحهما إلا أبا بكر عن عاصم فإنه ضم الصاد و سكن الدال فالأقوال ثلاثة:
ضم الصاد و الدال و فتحهما، و ضم الصاد و سكن الدال، حكى الله تعالى عن ذي القرنين أنه قال للقوم الذين شكوا إليه إفساد ياجوج و ماجوج، آتوني زبر الحديد، قرأ الجمهور، زبر، بفتح الباء و الحسن بضمها مع إتفاقهما في ضم الراء.
و قال الزجاج في المفردات الزبرة قطعة من الحديد جمعه، زبر، و قد يقال الزبرة من الشعر جمعه زبر، قال لهم ذو القرنين، آتوني زبر الحديد، أي أعطوني زبر الحديد و ناولونها أمرهم بنقل الألة و زبر الحديد، قطع الحديد حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ و التقدير إذا ساوى البناء بين الصدفين وهما جانبا الجبل و سميا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما قال الشاعر:

كلا الصدفين ينفذه سناها توقد مثل مصباح الظلام

و يقال للبناء المرتفع صدف تشبيهاً بجانب الجبل فالصدفان الجبلان المتناوحيان و لا يقال للواحد، صدف، قال، أي ذو القرنين لهم، أنفخوا، أي أنفخوا على زبر الحديد بالأكيار و ذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر و الحجارة ثم يوقد عليها الحطب و الفحم بالمنافخ حتى تحمى و الحديد إذا أوقد عليه صار كالنار و ذلك قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا، ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر فيفرغه على تلك الطاقة المنصدة فإذا إلتأم و اشتد و لصق البعض ببعض إستأنف وضع طاقة أخرى إلى أن إستوى العمل فصار جبلاً صلباً و معنى آتوني أفرغ عليه قطراً، أي أعطوني قطراً، أفرغ عليه و القطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب الرصاص المذاب و منه قوله، و أسلنا له عين القطر.

وقال بعض المفسرين أن ذا القرنين قاس ما بين الصّدفين من حفر الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل حشوه الصّخر وطينه النّحاس المذاب ثمّ يصبّ عليه و البنيان من زبر الحديد بينهما الحطب و الفحم حتى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاههما و قيل طول ما بين السّدين مائة فرسخ و عرضه خمسون و الأقوال كثيرة.

فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا

أي لم يقدروا أن يعلوه و ما استطاعوا له نقباً من أسفل على قول قتادة، فما استطاعوا أي ياجوج و ماجوج أن يظهروه أي يصلوا إليه لبعده و إرتفاعه و إملاسه و لا أن يتقبوه لصلابته و ضخامته فلا سبيل إلى مجاوزته إلاّ بأحد هذين إما إرتقاء و إما نقب و قد سلب قدرتهم على ذلك و حاصل ذلك المعنى هو عجزهم أي ياجوج و ماجوج على أن يعلوه أو يتقبوه لإرتقائه و صلابته و في استطاع ثلاث لغات، استطاع يستطيع و استطاع يسطيع بحذف التاء.

قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا

أي قال ذو القرنين لهم، هذه أي هذا السّد نعمة من الله و رحمة منه على عباده، أو هذا الإقدار و التّمكين من تسويته رحمة من ربّي إذ لا حول و لا قوّة إلاّ بالله، في الكلام حذف و تقديره فلمّا أكمل بناء السّد و استوى و استحكم قال هذا رحمة من ربّي، فإذا جاء وعد ربّي و هو يوم القيامة جَعَلَهُ أي جعل السّد دَكَّاءَ مَنُونًا أراد دكّه دكّا و هو مصدر و من قرأ بالمُدّ أراد جعل الجبل أرضاً دكّاء منبسطة و جمعها دكاءت و كان وعد ربّي حقّاً، أي ما وعد الله بأنّه يفعل له لا بدّ من كونه فأنّه حقّ و هو لا يخلف وعده و فيه إشارة إلى أنّ السّد أيضاً لا يبقى كغيره من الجبال فإنّ الدنّيا و ما فيها في معرض الفناء.

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ
جَمْعًا

يقول الله تعالى، و تركنا، هذا الضمير لله تعالى و قوله بعضهم، الظاهر أنَّ الضمير فيه عائد على ياجوج و ماجوج و قيل يعود على الخلق و يقويه قوله و نفخ في الصور فعلى الأول معنى الكلام أنا تركنا بعضهم يومئذ يمججون في بناء السد و يخوضون فيه متعجبين و معنى يومئذ، يوم إنقضاء السد و لما نفخ في الصور فجمعناهم جمعاً يعني يوم القيامة يحشرهم الله جميعاً.

على الثاني: و هو رجوع الضمير على الخلق فالمعنى تركنا الخلق في الدنيا كذلك و يوم القيامة يحشرهم الله جميعاً و أنما قال و تركنا بعضهم ولم يقل و تركناهم لأنَّ المتصنفين بما وصفهم الله به هم بعض الخلق لا جميعهم فأنَّ التعبير بالموج الذي هو اضطراب الماء بتراكب بعضه على بعض هو شأن جهال الناس و الله أعلم.

و أما النفخ في الصور ف قيل أنه ينفخ فيه ثلاث نفخات:

الأولى: نفخة الفرج التي يفرع من في السموات و الأرض.

الثانية: نفخة الصعق.

الثالثة: نفخة القيام لرَبِّ العالمين و سيأتي الكلام فيه في موضعه بوجه أبسط.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا

أي أبرزناها و أظهرناها حتَّى يروها، يومئذ أي يوم إذ جمعناهم و قيل اللآم في للكافرين، بمعنى على و التقدير و عرضنا الكافرين على جهنم عرضاً وصف الكافرين بالغطاء في العين و قال.

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا

إستعار الغطاء لأعينهم و المراد أَنَّهُم لا ينصرون آياتي الَّتِي ينظر إليها فيعتبر بها وهذا على حذف مضاف أي عن آيات ذكرى المراد بالذَّكر هاهنا القرآن و المعنى أَنَّهُم في غطاء عن القرآن و تأمل معانيه و المراد بالأعين البصائر لا الجوارح لأنَّ الجوارح لا نسبة بينها و بين الذَّكر فأنَّ الذَّكر يكون بالقلب و قوله و كانوا لا يستطيعون سماعاً، مبالغة في إنتفاء السَّمْع إذ نفيت الإستطاعة و هم أن كانوا صمّاً لأنَّ الأصم قد يستطيع السَّمْع إذا صيح به و أمّا هؤلاء أصمّت أسماعهم فلا إستطاعة بهم للسَّمْع و لا يقدرّون عليه.

أقول الحقّ أنّ الذَّكر في الآية بمعنى التَّوْحِيد و العين عين البصيرة لا عين البصر كما أنّ المراد بالسَّمْع ليس الحاسة بل المراد به سمع القلب المعبر عنه بالتَّفَقُّه و التَّدبُّر وهذا لا يختصّ بالكافر بمعنى المصطلح أعني به المشرك أو المنكر لتوحيد الله بل المراد به الكفر بمعناه العامّ الشَّامِل للكفر الجحود و كفر النُّعمة فمن أقرّ بالتَّوْحِيد و أنكر الرِّسالة و الولاية داخل في قوله: **أَعْيُنُهُمْ** في غطاء عن ذكرى، و إلى هذا المعنى أشار الإمام عليّ بن موسى الرِّضا في الحديث المشهور بسلسلة الذهب كلمة لا إله إلاَّ الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي حيث قال **عليه السلام** بعد ذكر الحديث بشروطها و أنا من شروطها فلو كان الإقرار بالتَّوْحِيد كافياً لدخول الجنّة و الأمن من العذاب لما قال **عليه السلام** ما قال و السّر في ذلك أنّ المعتقد بالتَّوْحِيد معتقد بالرِّسالة أيضاً لأنَّ الرِّسول مبعوث إلى الخلق من قبله تعالى و من اعتقد بالرِّسول حقّاً اعتقد بجميع ما جاء به الرِّسول من قبل الله تعالى رأس جميع الأمور الولاية.

قال رسول الله **ﷺ** في الحديث المشهور عند الجميع من العامة و الخاصة من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة أي ميتة الكفر أي و ان كان مقرّاً معتقداً بالتَّوْحِيد و الرِّسالة ظاهراً و ذلك لأنَّ الولاية بمنزلة اللُّب و الرِّسالة بمنزلة القشر قال الله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ** و في أخبارنا ما يدلّ عليه:

ما ذكره الصّدوق في العيون في باب ما جاء عن الرّضا من الأخبار في التّوحيد بأسناده عن عبد الله بن صالح الهروي قال سأل المأمون أبا الحسن عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام عن قول الله تعالى: الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا فقال عليه السلام أنّ غطاء العين لا يمنع من الذّكر والذّكر لا يرى بالعين ولكن الله عزّ وجلّ شبّه الكافرين بولاية عليّ بن أبي طالب بالعميان لأنّهم كانوا يستثقلون قول النّبي صلى الله عليه وآله فيه ولا يستطيعون له سمعاً، فقال المأمون فرّجت عني فرج الله عنك الحديث.

و بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله حديث طويل وفيه قلت قوله عزّ وجلّ: الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي. قال عليه السلام يعني بالذّكر ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهو قوله ذكري، قلت قوله ولا يستطيعون سمعاً، قال عليه السلام: كانوا لا يستطيعون إذا ذكر عليّ عندهم أن يسمعوا ذكره لشدة بغضٍ له و عداوة منهم له ولأهل بيته.

و محضّ الكلام أنّ الآية صرّحت بأنّ المراد من الكافرين كلّ من كانت عين بصيرته في غطاءٍ و سترٍ عن ذكره تعالى ولا يستطيع سمعاً أي تفقهاً و تدبراً في الآيات التكوينية و التّشريعية سواء كان كافراً أي منكراً أو مشركاً له تعالى أو مسلماً ظاهراً بأنّ الملاك في عرضه على جهنّم أو عرضها عليه هو ما ذكره في الآية من الغطاء و الصّم و هذا ظاهرٌ ولا ينكره إلّا المعاند و للبحث فيه مقام آخر.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا

قرأ الجمهور، أفحسب الذين، بكسر السين وفتح الباء وعليها المصاحف وقرأ بعضهم بتسكين السين وضمّ الباء مضافاً إلى الذين ونسب هذه القراءة إلى عليّ عليه السلام وزيد بن عليّ بن الحسين وعلى هذا، فحسب، مبتدأ والخبر قوله: **أَنْ يَتَّخِذُوا**، وأما على القراءة الأولى فهو بمعنى، فلن و لذلك قرأ عبد الله، أفظنّ الذين كفروا الآية.

قال الزمخشري أو على الفعل والفاعل لأنّ إسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك قائم الزيدان والمعنى أنّ ذلك لا يفهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا وهى قراءة محكمة جيدة إنتهى.

وأورد عليه أنّ، حسب ليس بإسم فاعل فتعمل ولا يلزم من تفسير شيء أن تجري عليه جميع أحكامه وكيف كان فمعنى الآية على المشهور أفحسب الذين كفروا بتوحيد الله وجحدوا ربوبيته، أن يتخذوا عبادي، من الملائكة والمسيح، من دونه أي من دون الله أولياء وأنصاراً يمنعونهم من عقابي لهم على كفرهم وقد أعددت جهنّم للكافرين، نزلاً، أي مأوى ومنزلاً، أي ما ظنّوه باطل قطعاً وأما على القراءة الأخرى فالمعنى أنّ ذلك لا يفهم ولا ينفعهم عند الله، وقيل معناه أحسبهم على إتخاذهم عباد الله من دون الله أولياء إن جعل لهم جهنّم نزلاً ومأوى، أي لا يفهم فأنّ الهمزة للإنكار وعلى التقديرين فالمعنى واضح وقد إتفق المفسرون على أنّ المراد بقوله عبادي، الملائكة والمسيح وكلّ عبد يعبد من دون الله فأنّهم لا يمنعونهم من عقاب الله يقدرون عليه وهذا ممّا لا كلام فيه وأنما الكلام في معنى الكفر في الآية فمن قال أنّ المراد به كفر الجحود أي إنكار الرّب وإتخاذ معبود غيره من عباده كالملائكة والمسيح مثلاً فقد خصّ الآية بالكفّار والمشرّكين وهو المشهور بين المفسرين فأنّهم خصّوا الآية بالكفّار المنكرين لتوحيد الله الجاحدين لربوبيته وأما من قال أنّ المراد بالكافرين في الآية كلّ منكر لإلهيّه و ربوبيّه ونعمه فيصير المعنى فيها عاماً والأمر سهل بعد وضوح المراد.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

الأنباء الأخبار أمر الله نبيه أن يقول لهم هل ننبئكم أي نخبركم بالأخسرين أعمالاً، الخسر بضم السين و الخسران إنتقاص رأس المال و ينسب ذلك إلى الإنسان فيقال خسر فلان، و إلى الفعل فيقال خسرت تجارتك و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال و الجاه في الدنيا و هو الأكثر و في المقتنيات النفسية كالصحة و السلامة و العقل و الإيمان و الثواب و هو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين و هذا هو المراد من الخسران في الآية فأقوله بالأخسرين أعمالاً، بصيغة التفضيل يدل على خسران العمل من حيث الثواب و العقاب لا خسران المال و الجاه في الدنيا بل نقول كل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية و التجارات البشرية و الوجه فيه أن الدنيا و ما فيها من النعم في معرض الزوال و الفناء لتغيرها و حدوثها فزوالها لا يعد خسراناً.

و أما الآخرة فهي باقية و نعمها دائمة لا زوال فيها فمن تركها لأجل الدنيا الفانية فقد خسر خسراناً مبيناً.

قال بعض المفسرين أنهم اليهود و النصارى، و قيل الرهبان منهم و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: هم أهل حروراء من الخوارج سأله ابن الكوا عن ذلك فقال عليه السلام: أنت و أصحابك منهم و هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا أي جاز عنهم و هلك و هم مع ذلك يحسبون أي يظنون أنهم يفعلون الأفعال الجميلة و الحسبان هو الظن و هو ضد العلم.

أقول الآية لا تختص بقوم دون قوم لأن تعالى ذكر فيها حكماً كلياً يشمل الكافر و المسلم و المؤمن و الفاسق و بالجملة جميع الأصناف و الأفراد لأن

قوله الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، معناه بطلان عمله بعدم تَرْتَبِ الثَّوَابِ عليه و قوله: وَ هُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنْعًا، معناه عدم علمه ببطلان عمله بل يحسب أنه يحسن.

و هذا أي بطلان العمل و عدم العلم به لا يختص بقوم دون قوم بل هو من الأصول الجارية بالنسبة إلى جميع الأعمال، فأَنَّ العمل الصادر عن عامله قد يكون معلوم الحسن و قد يكون معلوم القبح و قد يكون مشكوكاً فيه لا كلام لنا في القسمين الأولين و أما المشكوك فيه فهو على قسمين:

أحدهما: أن يكون الطرفين متساويين بالنظر إلى الاعتقاد و هذا هو الشك.
ثانيهما: أن يترجح أحد الجانبين على الآخر و هو المسمى بالظن و ما نحن فيه من هذا القبيل و قد ثبت أَنَّ الظن لا يغني عن الحق شيئاً، و لا سيما في الاعتقادات ففي الآية إشارة أو دلالة على أَنَّ الظن بحسن العمل لا يكفي بل لابد له من القطع بصحة عمله وعلى هذا فالآية لا تختص بأهل حروراء أو باليهود و النصارى بل تشمل جميع الفرق الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنْعًا، وكلَّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا

الظاهر أَنَّ المراد بالآيات أعم من التشريعية و التكوينية و الكفر بها إنكارها و اللقاء كناية عن لقاء ثوابه و عقابه لا رؤية العين كما ذهب إليها أهل السنة و قوله: فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ أَوْقَعُوهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الْمُتَحَرِّرِ فِي الشَّرِيعَةِ و لذلك قال تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، فَأَنَّ العمل الفاسد لا وزن له أي لا قيمة له فلا يستحق فاعله الثواب.

و قد ورد في الأخبار أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: لَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ يَنْظُرُ إِلَى نِيَّاتِكُمْ و في بعض آخر لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قولكم و المآل واحد.

فصل الفرقان في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

فقد روي في الصحيح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أَنَّهُ لِيَأْتِيَ الرَّجُلَ السَّمِينُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ.

و في كتاب الإجماع عن أمير المؤمنين في حديث طويل يذكر فيه
أهل الموقف و أحوالهم و فيه، و منهم أئمة الكفر وقادة الضلالة
فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً و لا يعبأ بهم لأنهم لم يعبتوا
بأمره و نهيه فهم يوم القيامة في جهنم خالدون تلفح وجوههم
النار و هم فيها كالحون إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله
عَزَّوَجَلَّ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا قَالَ عَلَيْهِ السلام: هُمُ النَّصَارَى
و القسيسون و الرهبان و أهل الشبهات و الأهواء و من أهل القبلة و
الحرورية و أهل البدع إنتهى.

ذَلِكَ جَزَاءُ لَهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُوًا
ذلك، كذلك لأن جهنم جزاؤهم بما كفروا، بالله و رسوله (و اتخذوا آياتي و
رسلي هزواً) أي سخرية و إستهزاء، أثبت الله تعالى لهم ذنبين:
أحدهما: الكفر و هو الأصل في الباب.

الثاني: سخريتهم و إستهزاؤهم بالرسل و الآيات ثم بعد ذلك أشار الله
تعالى إلى حال المؤمنين يوم القيامة.

إِنَّ الَّذِينَ أَصْنَوْا وَاَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا
أي مأوى، و الفردوس البستان الذي يجمع الزهر و الثمر و سائر ما يمتع و
يلذ و قيل هو البستان الذي فيه الأعتاب و قيل هو أطيب موضع في الجنة و
قيل غير ذلك.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا

نصب خالد بن علي الحال و الحول بكسر الحاء و فتح الواو التَّحول و التَّبدل أي لا يطلبون عنها التَّحول و الإنتقال إلى مكانٍ آخر غيرها و قيل معناه لا يبعثون عنها من حالٍ إلى حالٍ و الجامع عدم إنتقالهم عمّا يكونون عليه مكاناً و حالاً و قال في المفردات الحول السَّنة إعتباراً بإنقلابها و دوران الشَّمس في مطالعها و مغاربها إنتهى.

أقول قد روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قَوْلِهِ: حَوْلًا قَالَ عليه السلام: خالد بن لا يخرجون عنها و لا يبعثون عنها حولاً، أي لا يريدون بها بدلاً ثم قال عليه السلام هذه نزلت في أبي ذرّ و المقداد و سلمان و عمار بن ياسر إنتهى.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا

أمر الله أن يقول لجميع المكلفين قل لو كان ماء البحر مداداً و هو ما يمدّ به الدّواة من الحبر و ما يمدّ به السّراج من السّليط لكتابة كلمات الله لنفد ماء البحر و لم تنفد كلمات الله و قوله: وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا فالمدد و هو الجائي شيئاً بعد شيء على إتصالٍ و المداد الذي يكتب به فقوله مدداً، نصب على المصدر بمعنى و لو أمددناه بمثله إمداداً ثمّ ناب المدد و مناب الأمداد مثل أنبتكم نباتاً، قال صاحب الكشّاف و المعنى لو كتبت كلمات علم الله و حكمته و كان البحر مداداً لها و المراد بالبحر الجني، لنفد البحر قبل أن تنفد الكلمات و لو جئنا بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً و الكلمات غير نافذة إنتهى.

و قال في التّبيان، الكلمة الواحدة من الكلام و لذلك يقال للقصيدة لأنّها قطعة واحدة من الكلام و الصّفة المفردة كلمة إنتهى.

و قال القرطبي قالت اليهود لرسول الله ﷺ أنك أوتيت الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح فقال تعالى: قل لهم وإن أوتيت القرآن وأوتيت التوراة فهي بالنسبة الى كلمات الله قليلة.

قال ابن عباس، لكلمات ربي، أي مواعظ ربي، وقيل عني بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى وهو وأن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات ولأنه ينوب منابها إنتهى كلامه.

وقال الرازي بعد نقله ما نقلناه عن صاحب الكشف و تقرير الكلام أن البحار كيفما فرضت في الإتساع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهي لا يعني بضمير المتناهي البتة إنتهى كلامه.

أقول حمل الكلمات على علم الله وحكمه ومعلوماته خلاف ظاهر الآية إذ ليس البحث في علم الله وحكمه وحمل الكلمة على العلم والحكمة لا يساعده العقل واللغة أما اللغة فواضحة وأما العقل فلأن الكلمة حاكية عن العلم والحاكي غير المحكي عنه والعجب أن جميع المفسرين حملوا الكلام على ظاهره وفسروا الكلمات بأنها جمع كلمة أعني بها الحروف ثم حكموا بأنها غير متناهية ولم يعلموا أن كلمات الله بهذا المعنى متناهية والذي يقوي في نفسي هو أن المراد بالكلمات معناها العام الشامل للتكوينيات والتشريعات أي الموجودات الخارجية والأحكام والمواعظ وإطلاق الكلمة على الموجود الخارجي شائع وقد عبر الله تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم بالكلمة حيث قال تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَنْتَ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (١).
و قال الله تعالى: أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَبْرٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ (٢).

و قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ^(١)**.

ولذلك يقال أن كلمات الله على قسمين تكويني و تشريعي إذا عرفت هذا فنقول:

الكلمة التكوينية، هي التي قد يعبر عنها بكلمة الإيجاد المشار إليها:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٢)**.

قال الله تعالى: **سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٣)**.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٤)**.

وأما الكلمات التشريعية، فهي عبارة عن الأوامر و النواهي و المواعظ و غيرها مما هو موجود في الشرائع الإلهية و الكتب السماوية و هذه الكلمات هي التي قد تتخلف فيها الإرادة عن المراد لكون الاختيار واسطة بينهما.

و أما الكلمات التكوينية، فلا تخلف فيها أصلاً فقوله تعالى: **قُلْ لَوْ كَانَ أَلْبَحْرُ مِدادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي** المراد بها التكوينيات أي الموجودات الخارجية أو الأعم منها و من التشريعات و من المعلوم عدم تناهيها بالنسبة إلينا و أما بالنسبة إلى خالقها فهي متناهية و الآية لا تدل على عدم تناهيها بقول مطلق بل تدل على كثرتها و أنه ينفذ البحر قبل أن تنفذ و لا شك أن إحصاء المخلوقات خارج عن قدرة البشر قال الله تعالى: **وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا^(٥)**.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا في الآية مسائل:

في قوله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**

جزء ١٦

المجلد العاشر

١- النساء = ١٧١

٢- النحل = ٤٠

٣- مريم = ٣٥

٤- يس = ٨٢

٥- ابراهيم = ٣٤

أحدهما: قوله: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ قال الرَّابِعُ في المفردات البَشَرَةُ ظاهر الجلد و الأدمة باطنه كذا قال عامة الأدباء و قال أبو زيد بالعكس ذلك و جمعها بشر و أشبار، و عبّر عن الإنسان بالبشر إعتباراً بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصُّوف أو الشُّعر أو الوبر و إستوى في لفظ البشر الواحد و الجمع و ثني فقال، المؤمن لبشرين، و خصّ في القرآن كلّ موضع أعتبر من الإنسان جثته و ظاهره بلفظ البشر و ساق الكلام إلى أن قال: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فيه تنبيه على أَنَّ النَّاسَ يَتَسَاوَوْنَ في البَشَرِيَّةِ إنتهى موضع الحاجة من كلامه إذا عرفت هذا فقد علمت أَنَّ إطلاق البشر على الإنسان أنما هو بإعتبار جثته و جسمه لا بإعتبار روحه فقوله قل أنا بشرٌ مثلكم، معناه أَنِّي مثلكم من حيث الجثّة و الجسد و هذا ممّا لا كلام فيه فَأَنَّ الأنبياء كانوا من جنس البشر لا من جنس الملك و الجنّ فمن هذه الجهة لا فرق بينهم و بين غيرهم من أفراد البشر و لأجل ذلك كانوا يأكلون و يشربون و ينامون و هكذا في جميع صفات البشر.

الثانية: قوله: يُوحَىٰ إِلَيَّ أصل الوحي الإشارة السريعة و لتضمن السرعة قيل أمرٌ وحيّ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التعريض و قد يكون بصوتٍ مجرّدٍ عن التركيب و بإشارة ببعض الجوارح و بالكتابة و يقال للكلمة الإلهية التي تلقى الى أنبيائه و أوليائه وحيّ و ذلك أمّا برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل و للنبّي في صورة معيّنة، و أمّا بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، و إمّا بألقاء في الرّوع كما ذكر النبي ﷺ، أَنَّ روح القدس نفث في روعي، و إمّا بإلهام نحو: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ^(١) و أمّا بتسخير نحو قوله: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ^(٢).

و إمّا بمنام كما قال ﷺ إنقطع الوحي و بقيت المبشرات رؤيا المؤمن.

فقوله: **يُوحَىٰ إِلَيَّ** إشارة الى مقام نبوته وهذا هو الفرق بينه وبين غيره من البشر.

فقوله: **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** بمنزلة الجنس وقوله: **يُوحَىٰ إِلَيَّ** بمنزلة الفعل المميز كما يقال في تعريف الإنسان أنه حيوان ناطق فقوله حيوان يدخل فيه، جميع الحيوانات وقوله ناطق يخرج ما ليس له نفس ناطقة فقوله: **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** في الحقيقة تعريف للنبي كأنه قيل، النبي ما هو، قيل هو بشر يوحى إليه، وبهذا القيد أعني به الوحي يخرج عن التعريف جميع أفراد البشر ممن لا يوحى إليه وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ** ^(١) أي من لا يوحى إليه ليس بنبي قطعاً وليس كل بشر يصلح للوحي وبما ذكرناه يظهر لك فساد ما قال بعض الجهال كما حكى الله عنهم:

قال الله تعالى: **قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا** ^(٢).

قال الله تعالى: **هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** ^(٣).

قال الله تعالى: **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ** ^(٤).

قال الله تعالى: **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا** ^(٥).

قال الله تعالى: **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** ^(٦).

فهذه الآيات تدل على جهل قائلها، وذلك لأن الله تعالى لم يأمرنا بطاعة البشر ومتابعته في أقواله وأفعاله من حيث أنه بشر بل أمرنا بالإنقياد له من حيث أنه يوحى إليه ففي الحقيقة أمرنا بمتابعة الوحي في الحقيقة راجعة الى طاعة الله فمن أطاع النبي فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصاه وحيث أن الجاهل لجهله لا يعلم ما يقول يزعم أنه يطيع البشر فيقول ما يقول.

في آيات القرآن في تفسير القرآن



المجلد العاشر عشر

١- إبراهيم الآية ١٠

٢- المؤمنون = ٣٣

٣- المدثر = ٢٥

١- الانبياء = ٢٤

٢- الأنبياء = ٣

٣- التغابن = ٦

الثالثة: قوله **إِلَهُكُمْ إِلَهُهُ** وأحد في هذا الكلام إشارة إلى أن النبي يدعو الناس إلى التوحيد في بدأ الأمر وأنه أي التوحيد هو الأصل ولذلك قال النبي ﷺ: **قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلَحُوا** والوجه فيه واضح فإن الطاعة فرح المعرفة.

قال الله تعالى: **مَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي** ^(١) أي ليعرفون، وكلمة، إنما تغيد الحصر والمعنى أن الإلهية منحصرة به تعالى لا شريك له في الملك فهو الواجب الوجود الذي يستحق أن يعبدوا ما سواه كائناً ما كان مخلوق له محتاج إليه حدوثاً وبقاءً وقوله واحد، أي واحد بالوحدة الحقّة الحقيقة لا أنه واحد بالعدد كسائر الموجودات العددية.

الرابعة: قوله **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ^(٢) أي فمن كان يرجو الثواب من الله على أعماله في الدنيا فليعمل عملاً صالحاً، وهو العمل على طبق موازين الشريعة خالصاً لوجه الله ولا يشرك بالشرك الخفي وهو الرياء بعبادة ربه أحداً، ففي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال سئل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله عز وجل: **مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ** فقال ﷺ من صلى مائة الناس فهو مشرك، ومن زكى مائة الناس فهو مشرك ومن صام مائة الناس فهو مشرك ومن حجّ مائة الناس فهو مشرك ومن عمل عملاً بما أمره الله عز وجل مائة الناس فهو مشرك ولا يقبل الله عز وجل عمل مرءٍ إنتهى.

وفي كتاب التوحيد عن علي عليه السلام حديث طويل، يقول فيه وقد سأله رجل عما إشتهبه عليه من الآيات فأما قوله: **بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** ^(٣) يعني بالبعث فسماه الله عز وجل لقاءه وكذلك ذكر المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم يعني أنهم يؤمنون أنهم يبعثون ويحشرون ويجزون بالثواب والعقاب والظن هنا اليقين وكذلك:

قال الله تعالى: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا^(١).

قال الله تعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ^(٢).

يعني بقوله من كان يؤمن بالله مبعوث فإن وعد الله لآت من الثواب والعقاب فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية واللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب الله من لقاء فأنه يعني بذلك البعث إنتهى.

وفي أصول الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا قال عليه السلام: الرجل يعمل شيئاً من الثواب ولا يطلب به وجه الله أنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن تسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه ثم قال عليه السلام ما من عبد أسر خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً وما من عبد يسر شراً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له شراً إنتهى.

و أما أن الرجل يعمل عملاً خيراً فراه إنسان فيُسره ذلك فلا إشكال لقول أبي جعفر عليه السلام ما من أحدٍ إلا ويحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يصنع ذلك.



سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ
 نَادَى رَبَّهُ يَدَاؤً حَقِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
 مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
 شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَ
 كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥)
 يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
 (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ
 نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي
 غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ
 عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ
 خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ
 لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
 (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى
 إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ
 الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا
 مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ
وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

◀ اللغة

وَهَنٌ: الوهن الضعف.

أَشْتَعَلَ: الاشتعال الانتشار.

الشَّيْبُ: ضدَّ الشَّباب.

عَاقِرًا: أي لا تلد و العقر في البدن الجرح و منه أخذ العاقر.

عِتِيًّا: العتي والعسي واحد و العاسي هو الذي غيَّره طول الزَّمان إلى حال

اليبس و الجفاف و قيل من له بضع و سبعون سنة.

هَيْنٌ: أي سهل يسير.

◀ الإعراب

ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ذَكَرَ، خبر مبتدأ محذوف أي هذا ذكر رحمة ربك إذْ
ظرف لرحمة أو لذكر شيئاً نصب على التَّمييز و قيل هو مصدر في موضع
الحال و قيل هو منصوب على المصدر خَفْتُ الْمَوَالِيَّ فيه حذف مضاف أي
عدم الموالى أو جور الموالى سَمِيًّا فَعِيل بمعنى مسامياً و لام الكلمة واو من
سما يسمو عِتِيًّا أصله عَتَوَ على فعول مثل تعود و جلوس إلا أَنَّهُمْ اسْتَقْبَلُوا
تَوَالِي الضَّمَّتَيْنِ و الواوين فكسروا التاء فإنقلبت الواو ياءً لسكونها و إنكسار ما
قبلها ثُمَّ قلبت الواو التي هي لام ياءً لسبق الأولى بالسكون و قيل، من زائدة،
عِتِيًّا مصدر مؤكد أو تمييز أو مصدر في موضع الحال من الفاعل كَذَلِكَ أي
الأمر كذلك و قيل هو في موضع نصب سَوِيًّا حال من الفاعل في تَكَلَّمَ أَنَّ
سَبَّحُوا أن مصدرية و قيل بمعنى، أي و بِقُوَّةٍ مفعول أو حال وَ حَنَانًا معطوف
على الحكم وَ بَرًّا أي و جعلناه بَرًّا و قيل هو معطوف على خبر كان.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر

◀ التفسير

كَيْعَصَ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا

قد تقدم الكلام في أول البقرة وغيرها من السور إختلاف المفسرين في الحروف المقطعة وأنه لا يعلم معناها إلا الله تعالى والمشهور عندهم أنها أسماء السور وقال بعضهم أن كل حرف منها حرف من إسم من أسماء الله والله أعلم.

قوله: ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ، أي هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا، وصفه بالعبودية إشارة إلى تقربه عند الله وأنه نال مقام العبودية كما عبر عن رسوله بالعبد حيث قال: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ^(١) وقد ثبت أنه لا مقام فوق مقام العبودية ولذلك في أيوب النبي:

قال الله تعالى: وَ أَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ^(٢).

وفي نوح:

قال الله تعالى: كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا^(٣).

وفي داوود وسليمان:

قال الله تعالى: وَ هَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ^(٤).

وفي عيسى:

قال الله تعالى: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَيْنِي الْكِتَابَ^(٥).

وفي نوح:

قال الله تعالى: ذُرِّيَّتِي مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا^(٦).

وفي الخضر:

١- الاسراء = ٤١ ص - ٢

٢- القصص = ٣٠ ص - ٤

٣- الاسراء = ٣ ص - ٦

١- الاسراء = ١

٢- القصص = ٩

٣- مريم = ٣٠

قال الله تعالى: فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا^(١).

وقد ورد في الأخبار أنَّ مقام العبودية فوق الرسالة و النبوة إذ نادى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا أي حين دعا رَبَّهُ سِرًّا غير جَهْرًا لا يُريد به رياء و قيل أَسْرَهُ من موالیه الذين خافهم، و قيل دعائه كان في جوف اللَّيْلِ، و قيل لإخلاصه فيه فلا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ والاحتمالات كثيرة.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا

حكى الله تعالى في هذه الآية ما دعا زكريا رَبَّهُ قال رَبِّ، أي رَبِّي، حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه، أَنِّي وهن العظم مِنِّي، أي عرض عَلَيَّ الضَّعْفُ وهو نقصان القوَّة و أَنما أسند الوهن إلى العظم لأنه عمود البدن و به قوامه و هو أصل بناء فإذا وهن تداعى ما وراءه و تساقطت قوَّته و لأنه أشدَّ ما فيه و أصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن و وَحَدَّ العظم لأنه يدلُّ على الجنس و قصد في كلامه هذا أَنَّ هذا الجنس الذي هو العمود و القوام و أشدَّ ما تَرَكَّب منه الجسد قد أعياه الوهن.

و قال قتادة إشتكى سقوط الأضراس، و قال الكرمانى كان له سبعون سنة و قيل خمس و سبعون وقى خمس و ثمانون و قيل ستون و قيل غير ذلك بعض المفسرين في وجه الإضافة إلى العظم أَنَّ العظم مع صلابته إذا كبر ضعف و تناقص فكيف باللحم و العصب و قوله: اسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا شَبَّهُ الشَّيْبَ بشواظ النَّارِ في بياضه و إنتشاره في الشَّعر و فشوّه فيه و أخذّه منه كلّ مأخذ بإشتعال النَّار ثمَّ أخرجهُ مخرج الإستعارة ثمَّ أسند الإشتعال إلى مكان الشَّعر و منبته و هو الرَّأس و أخرج الشَّيب مميّزًا ولم يصف الرَّأس إكتفاءً بعلم

بَابُ
فِي
الْأَرْوَاحِ
وَالْجَسَدِ

جزء ١٦

بَابُ
فِي
الْأَرْوَاحِ
وَالْجَسَدِ

المخاطب أنه رأس زكريّا فمن ثمّ فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة.

قال الزّمخشري وإلى هذا نظر ابن دريد حيث قال:

و إشتعل المبيض في مسوده مثل إشتعال النار في جزل الفضاء
وقيل قوله: شَيْئاً مصدر في موضع الحال وإشتعال الرأس إستعارة
المحسوس للمحسوس إذا المستعار منه النار والمستعار له الشيب والجامع
بينهما الإنسباط والانتشار وقوله، ولم يكن، نفى فيما مضى أي ما كنت
بدعائك ربّ شقيّاً بل كنت سعيداً مَوْفَقاً إذ كنت تجيب دعائي فأسعد بذلك
فعلى هذا الكاف مفعول وقيل المعنى لم أكن فيما مضى بدعائك إلى الإيمان
شقيّاً بل كنت ممّن أطاعك وعبدك مخلصاً فالكاف على هذا فاعل والأول
أظهر لأنّه شكر الله تعالى بما سلف إليه من أنعامه أي قد أحسنت إليّ فيما
سلف وسعدت بدعائي إياك فالإنعام يقتضي أن تجيبي آخرأ كما أجبتي
أولاً.

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا

الموالي بنو العمّ والقرابة الذين بالنسب قال الشاعر:

مهلاً بني عمّا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً
وقال لبيد:

و مولي قد دفعت الضيم عنه و قد أُمسى بمنزلة المضيم
وقال ابن عباس ومجاهد و قتادة الموالى هنا الكلالة، خاف أن يرثوا ماله و
أن يرثه الكلالة وقالت فرقة أنما كان مواليه مهملين الدّين فخاف بموته أن
يضيع الدّين فطلب وليّاً يقوم بالدّين وحده و قال صاحب الكشف كان مواليه
و هم عصبة و أخوته و بنو عمّه شرار بني إسرائيل فخافهم على الدّين أن
يغيّروه و يبدّلوه و أن لا يحسنوا الخلافة على أمته فطلب عقباً من صلبه صالحاً

يقتدي به في إحياء الدّين من ورائي أي من بعد موتي وكانت إمراة عاقراً لا تصلح للولادة فهب لي من لدنك ولياً فأنتك قادرٌ على ذلك ثم قال يرثني و يرث من آل يعقوب و إجمعه ربّ رضىاً أي إجعل ذلك الولي الذي يرثني مرضياً عندك ممثلاً لأوامرك و نواهيك ففي هذه الآية طلب زكريا من الله تعالى ولياً يرثه و يرث من آل يعقوب و أن يكون صالحاً مرضياً عند الله و هذا ظاهر لا خلاف فيه أنما الكلام في قوله: **يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** و أنّ زكريا عليه السلام أي إرث أراد و بعبارة أخرى المالماد بالإرث في الآية هل هو المال أو العلم و الحكمة و النبوة و نحن نذكر أولاً ما ذهب إليه المفسرون من العامة ثم نردفه بما ذكره الخاصّة أعني بهم الشيعة تبعاً لأهل البيت فنقول:

قال الطّبري و قوله فهب لي من لدنك ولياً يقول فأرزقني من عندك ولداً و ارثاً معيّنًا و قوله: **يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** يقول يرثني من بعد وفاتي مالي و يرث من آل يعقوب النبوة و ذلك أنّ زكريا كان من ولد يعقوب ثم نقل الأخبار الواردة في الباب و بعد ذلك نقل منها ما يدلّ على أنّ المراد هو العلم أو النبوة و العلم دون المال.

و نقل عن السّدي أنّه قال يرث نبوتي و نبوة آل يعقوب.
و قال القرطبي و قالت طائفة أنما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين فطلب ولياً يقوم بالدين بعده حكى هذا القول الزّجاج و عليه فلم يسأل من يرث ماله لأنّ الأنبياء لا نورث و هذا هو الصّحيح من القولين في تأويل الآية و أنّه عليه السلام أراد وراثة العلم و النبوة لا وراثة المال لما ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.

و في كتاب أبي داود أنّ العلماء ورثة الأنبياء و أنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهماً و ورثوا العلم و ساق الكلام إلى أن قال و أنّ سليمان لم يرث من داود مالا خلفه داود بعده و أنّما ورث منه العلم و الحكمة و كذلك ورث يحيى من آل يعقوب هكذا قال أهل التّأويل (أهل العلم بالتأويل) ما عدا الرّوافض و إلّا

ما روي عن الحسن أنه قال يرثني مالا ويرث من آل يعقوب النبوة والحكمة وكل قول يخالف قول النبي ﷺ فهو مدفوعٌ مهجورٌ إنتهى كلامه.

وقال الرازي وإختلفوا في المراد بالميراث على وجوه:

أحدها: أن المراد به في الموضوعين هو وراثة المال وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك.

ثانيها: أن المراد به في الموضوعين وراثة النبوة وهو قول أبي صالح.

ثالثها: يرثني المال ويرث من آل يعقوب النبوة وهو قول السدي ومجاهد والشعبي.

رابعها: يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة وهو مروي عن مجاهد وإعلم أن هذه الروايات ترجع إلى أمور خمسة وهي المال، ومنصب الجبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة ولفظ الإرث مستعملٌ في كلها إنتهى موضع الحاجة من كلامه ومن أراد الوقوف على ما ذكره مفصلاً فعليه بكتابه.

وقال الألوسي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال ما هذا لفظه ومذهب أهل السنة أن الأنبياء لا يرثون مالا ولا يورثون لما صحَّ عندهم من الأخبار إنتهى.

وقال البيضاوي والمراد وراثة الشرع والعلم فأَنَّ الأنبياء لا يورثون المال وقيل يرثني الجبورة فإنه كان حبراً ويرث من آل يعقوب الملك إنتهى.

وقال السيوطي في الدر المنثور بعد ما فسَّر الورثة بالعصبة في قوله ربِّ هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب، قال يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، ثم نقل بعد ذلك من الأخبار ما يدل على أن المراد بالميراث هو النبوة والعلم، وفي حديث السنة والعلم كما ذكره الطبري وحاصل الكلام أنهم حملوا الوراثه على الوراثه في العلم والنبوة والحكمة وغير ذلك ممَّا شاءوا وأرادوا لا على وراثه المال والذي دعاهم إلى ذلك هو الحديث الذي رواه أبو بكر عن رسول الله ﷺ أنه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما

تركناه صدقة، فهذا هو الذي ألجأهم إلى حمل الآية على خلاف ظاهرها و منشأ ذلك ليس إلا التَّعَصُّبُ و العناد فَأَنَّ كلمة الوراثة حقيقة في الوراثة المالية مجاز في غيرها و ذلك لأنَّ وراثة العلم و النبوة و الحكمة و أمثالها من الفضائل لا معنى لها حقيقةً لأنَّها من الأمور الكسبيَّة أو الإفاضية من عالم الغيب و لا يعقل أن يكون أحدٌ وارثاً لعلم غيره أو سخاءه أو شجاعته و هو ممَّا يشهد به العقل بل الحسَّ أيضاً ففي كلِّ موردٍ أطلق لفظ الإرث على غير المال يحمل على المجاز المعلوم أنَّ حمل اللفظ على المعنى المجازي يحتاج إلى القرينة المصححة فإذا لم توجد القرينة يحمل اللفظ على معناه الحقيقي و آية قرينة دلَّت في الآية على ما ذكره و لذلك قال ابن عطية و الأكثر من المفسرين على أنَّ زكريَّا أنما أراد وراثة المال و يحتمل قول النَّبِيِّ إِنَّا معشر الأنبياء لا نورث، أن لا يريد به العموم بل على أنَّه غالب أمرهم فتأمَّله و أظهر الأليق بزكريَّا عليه السلام أن يريد وراثة العلم و الذين فتكون الوراثة مستعارة إنتهى.

فقوله مستعارة تصريح منه بأنَّه أن أريد بالوراثة العلم و الدين، فهو ليس على المعنى الحقيقي بل إستعارة و إذا كان الأمر على هذا المنوال فحمل الكلام على وراثة المال و العلم أولى من حمله على العلم فقط ولكنَّهم لا يرضون به الآن كما لم يرضوا به سابقاً تعصباً و عناداً، و أمَّا المفسرون ممَّا فقد إتفقوا على حمل اللفظ على معناه اللغوي و هو المال و هذا المعنى شائع في العرف أيضاً فإذا قيل زيد وارث عمرو أو ورث عمرو لا يفهم العرف منه إلا الوراثة في المال قال بعض المحقِّقين في هذه الآية دلالة على بطلان ما رواه أبو بكر من أنَّ الأنبياء لا تورث و ذلك لأنَّ زكريَّا طلب الوارث و من الواضح أنَّ المراد من يرث المال أو الأعَمَّ منه و من العلم و النبوة و الحمل على أنَّه أراد من يرث العلم و النبوة خاصَّة خلاف المتبادر الذي هو علامة الحقيقة و إرادة الخاص من العام مع عدم وجود المخصَّص غير منقول و لا مخصَّص في المقام بالإتفاق فأن قالوا أنَّ المخصَّص هو الخبر الذي رواه أبو بكر قلنا:

في القرآن في خبره

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

أَمَّا أَوَّلًا: أَنَّهُ خَبِرَ وَاحِدٌ وَهُوَ لَا يَصْلَحُ لِتَخْصِصِ عُمُومِ الْكِتَابِ.
ثَانِيًا: لَمْ تَثْبِتْ صَحَّتَهُ إِذْ لَمْ يَشْهَدْ عَلَى صَحَّتِهِ إِلَّا عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَعُمَرُ وَهُوَ كَمَا تَرَى.

ثَانِيًا: أَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْأَيَّاتِ عَلَى مَا سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ كَلَّهُ
إِسْتِدْلَالُ الْعَامَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى التَّعَصُّبِ أَيْضًا لِأَنَّهُ أَيُّ زَكَرِيَّا طَلَبَ وَلِيًّا يَرِثُهُ وَلَمْ
يَطْلُبْ وَلِيَّةً وَلَوْلَا التَّعَصُّبُ لَمْ يَخْصُ الطَّلَبُ بِهِ بَلْ قَالَ وَلِيًّا أَوْ وَلِيَّةً فَلَمَّا خَصَّصَهُ بِهِ
دَلَّ عَلَى أَنَّ بَنِي عَمِّهِ يَرِثُونَهُ مَعَ الْوَلِيَّةِ فَلِذَلِكَ لَمْ يَطْلُبْهَا وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْوَلِيَّ
يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى وَالتَّذْكِيرُ بِإِعْتِبَارِ التَّغْلِيبِ وَإِلَّا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ اللَّهُ
وَلِيِّ الَّذِينَ آمَنُوا مِثْلًا مُخْتَصًّا بِالرِّجَالِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَذْكَرٌ لَا مُؤَنَّثَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ
وَلِيَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَبَعْدَ الْغَضِّ عَنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ نَقُولُ وَجْهَ التَّخْصِصِ أَنَّهُ
جَرَى عَلَى مَا عَلَيْهِ طِبَاعُ الْبَشَرِ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي الْبَنِينَ دُونَ الْبَنَاتِ أَوْ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ
يَرِثُ الْمَالِ وَيَقُومُ بِأَعْبَاءِ الثَّبُوتِ مَعًا وَمِثْلَهُ لَا يَصْلَحُ لِلنِّسَاءِ وَمَحْضَلُ الْكَلَامِ أَنَّ
الْمِيرَاثَ فِي الْمَالِ كَانَ ثَابِتًا فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي قَانُونِ الْإِرْثِ
وَمَا سِوَاهُ مَجَازٍ وَقَدْ ثَبِتَ هَذَا الْأَصْلُ فِي الْإِسْلَامِ أَيْضًا بِصَرِيحِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَ
الْإِجْمَاعِ وَالْعَقْلِ بَلْ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ ضَرُورَاتِ الْإِسْلَامِ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّسُولَ
فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ أَوَّلَى بِالْعَمَلِ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنْ غَيْرِهِ فَكَيْفَ يَعْقِلُ
إِنْتِشَاءَهُ عَنِ الْحُكْمِ وَثُبُوتَهُ لِأَمَّتِهِ وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ وَ
بَيْنَ الْقَوْلِ إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نَنْصَلِّي أَوْ لَا نَصُومُ وَهَكَذَا فِي الْمَحْرَمَاتِ ثُمَّ نَقُولُ
كَيْفَ يَعْقِلُ الْأَخْذُ بِالْحَدِيثِ الَّذِي لَمْ تَثْبِتْ صَحَّتَهُ بَلْ تَتَنَادَى الْأَفَاظَةُ بِأَنَّهُ مَجْعُولٌ، وَ
تَرَكَ الْكِتَابَ وَالْإِعْرَاضَ عَمَّا جَاءَ فِيهِ، أَلَيْسَ اللَّهُ أَثْبَتَ الْمِيرَاثِ فِي كِتَابِهِ
بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ أَلَمْ يَقُلْ وَوَرِثَ سَلِيمَانُ دَاوُدَ، أَلَيْسَ حُكْمُ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ
فَأَنْ قَالَ قَائِلُ الْآيَاتِ تَدَلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْإِرْثِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَنْبِيَائِهِمْ وَأَمَّا
فِي الْإِسْلَامِ فَلَا وَلا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الْإِرْثِ ثَابِتًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَاسْتِثْنَى مِنْهُمْ
رَسُولُ الْإِسْلَامِ دُونَ أَمَّتِهِ، نَقُولُ فِي الْجَوَابِ أَمَّا أَوَّلًا فَهَذَا مُحْتَاجٌ إِلَى الْإِتْبَاتِ.

ثانياً: لو كان كذلك لقال ﷺ أنا من بين الأنبياء لا أورث، وأما قوله، إنا معشر الأنبياء أو نحن، فهو يشمل جميع الأنبياء من آدم إلى خاتم الأنبياء و يلزم التعارض بين الحديث ونص الكتاب، وكان جاعل الحديث غفل عن هذه النقطة و لم يقل أنا من الأنبياء لا أورث حتى لا يقع التعارض بين الحديث و الكتاب و يمكن تخصيص الكتاب به على فرض صحته وأما على ما نقلوه من أنه ﷺ قال إنا معشر الأنبياء لا نورث فلا يمكن تخصيص الكتاب به لإستحالة تخصيص العام بعام آخر وهو واضح.

إن قلت فما كان الوجه في تمسكهم بالحديث على خلاف الكتاب.
قلت الوجه فيه منع الزهراء عليها السلام عن الميراث عن رسول الله ﷺ بقول مطلق إذ ثبوت الميراث في المال يستلزم الثبوت في غيره أيضاً و قد نقل ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج أنه قال لأستاذي، ما بال أبي بكر لم يصدق فاطمة الزهراء في قولها بثبوت الميراث لها بصريح الكتاب ألم يعلم أنها صديقة شهدت آية التطهير بصدقهما قال الأستاذ و هو أبو جعفر التقيب نعم كان أبو بكر عالمًا بأن الزهراء صادقة في قولها قلت فلم لم يرد إليها ما إدعتها قال لأن أبا بكر كان يعلم أن تصديقها في مسألة الميراث و فذلك يوجب تصديقها في جميع الموارد و منها مسألة الخلافة، إنتهى كلامه بتلخيص منا و قد تكلمنا في هذا الباب في شرحنا على خطبة فذك بما لا مزيد عليه و قلنا هناك أن السر في جعل الحديث هو هذا: وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون إنا لله وإنا إليه راجعون.

و لنعم ما قال الشيخ في التبيان حيث قال و في الآية دلالة على أن الأنبياء يورثون المال بخلاف ما يقول من خالفنا أنهم لا يورثون، لأن ذكرنا صرح بدعائه و طلب من يرثه و يحجب مني عمه و عصبته من الولد و حقيقة الميراث إنتقال ملك المورث، إلى ورثته بعد موته بحكم الله و حمل ذلك على العلم و النبوة على خلاف الظاهر لأن النبوة و العلم لا يورثان لأن النبوة

تابعة للمصلحة لا مدخل للنسبة فيها والعلم موقوف على من يتعرض له و يتعلمه على أن زكريّا إنما سأل وليّاً من ولده يحجب مواليه من بني عمّه و عصبته من الميراث و ذلك لا يليق إلا بالمال لأنّ النبوة والعلم لا يحجب الولد عنهما بحالٍ على أن اشتراطه أن يجعله رضيعاً لا يليق بالنبوة لأنّ النّبي لا يكون إلا رضيعاً معصوماً فلا معنى لمسألته ذلك وليس كذلك المال لأنّه يرثه الرضي غير الرضي إنتهى موضع الحاجة من كلامه رفع مقامه و للبحث فيه مقام آخر.

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا
قيل المنادى هم الملائكة بوحى من الله و ذلك:

قال الله تعالى: فَنادتهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ^(١).

و الغلام الولد الذكر و قد يقال للأثنى غلامه، و الظاهر أن يحيى ليس عربياً لأنه لم تكن عادتهم أن ييموا بالفاظٍ عربيّة فيكون منعه الصّرف للعلميّة و العميّة، و قيل يسمّى بذلك لأنه يحيى بالحكمة و العفة أو بهدايته و إرشاده خلق كثير، و قيل لأنه يستشهد و الشّهداء أحياء و كيف كان فقد بشر زكريّا بما طلبه من الله و هو الولد و قوله: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قال ابن عباس معناه لم يلد مثله العواقي ولدأ و قال مجاهد لم نجعل له من قبل، مثلاً، و قال ابن جريح و قتادة لم يسمّ أحداً بإسمه قبله من الأنبياء.

قَالَ رَبِّ ائْنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا

أَيَّ قَالَ زَكْرِيَّا لَمَّا نُوْدِيَ بِذَلِكَ، أَتَى، أَيَّ كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ، وَإِمْرَأَتِي عَاقِرٌ، لَا يَلِدُ مِثْلَهَا، وَ قَدْ بَلَغْتَ، أَنَا مِنَ الْكِبَرِ أَيَّ مِنَ السَّنِّ عَتِيًّا، الْعَتَى بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَ التَّاءِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْكِبَرِ وَ الْعَاسِي هُوَ الَّذِي غَيَّرَهُ طَوْلُ الزَّمَانِ إِلَى حَالِ الْيَسِّ وَ الْجَفَافِ.

وَ قَالَ قَتَادَةُ كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَ سَبْعُونَ سَنَةً، وَ هَذَا أَيَّ كَسَرَ الْعَيْنِ فِي قَوْلِهِ عَتِيًّا، هُوَ قِرَاءَةُ الْكَسَائِي وَ حَمْزَةٌ وَ الْأَعْمَشُ وَ أَمَّا غَيْرُهُمْ مِنَ الشَّيْعَةِ فَقَرَأُوهَا بِالضَّمِّ وَ الْمَعْنَى وَاحِدًا وَ لَا خِلَافَ فِيهِ.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكْ شَيْئًا. قَالَ أَيَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، كَذَلِكَ أَيَّ الْأَمْرِ كَذَلِكَ فَهُوَ تَصْدِيقٌ لَهُ ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، أَيَّ لَيْسَ يَشَقُّ عَلَيْهِ خَلْقُ الْوَلَدِ مِنْ بَيْنِ شَيْخٍ وَ عَاقِرٍ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ فِي قَوْلِهِ: قَالَ رَبُّكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُنَادِي كَانَ مُلْكًا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَ هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ قَالَ رَبُّكَ وَلَوْ كَانَ الْمُنَادِي هُوَ اللَّهُ تَعَالَى لَقَالَ، أَقُولُ وَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ أَيَّ سَهْلٌ يَسِيرٌ وَ كَيْفَ لَا يَكُونُ سَهْلًا وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ، ذَلِكَ وَ لَمْ تَكْ شَيْئًا، مُوجُودًا وَ هَذَا الْكَلَامُ بِمَنْزِلَةِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ بِقِيَاسِ الْأَوَّلِيَّةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ الْمُحْضِ أَصْعَبُ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ بَيْنِ شَيْخٍ وَ عَاقِرٍ وَ الْأَوَّلُ قَدْ حَصَلَ فَالثَّانِي أَوْلَى بِالْحَصُولِ وَ الْمَقْصُودُ كَيْفَ تَتَعَجَّبُ مِنْ حَصُولِ الْوَلَدِ لَكَ وَ أَنْتَ شَيْخٌ وَ إِمْرَأَتُكَ عَاقِرٌ وَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي خَلَقْتُكَ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا، وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عُمُومِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى بِجَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ وَ صُورَةِ الْقِيَاسِ هَكَذَا، إِنَّ خَلْقَ الْوَلَدِ عَنِ الشَّيْخِ وَ الْعَاقِرِ أَمْرٌ مُمَكِّنٌ لَا إِسْتِحَالَةَ فِيهِ وَ كُلُّ مُمْكِنٍ تَتَعَلَّقُ الْقُدْرَةُ بِهِ وَ يُوْجَدُ فَهُوَ يُوْجَدُ.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ آلَتَاكَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا.

الآية العلامة طلب زكريّا من ربّه آية وعلامة يعلم بها وقوع ما بشّره و أنّما طلب ذلك ليزداد يقيناً لا أنّه كان شاكّاً في قدرته كما قال إبراهيم عليه السلام: وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: **أَيَّتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ**، ثلاث ليالٍ، قال ابن عباسٍ إعتقل لسانه من غير مرضٍ ثلاثة أيّام.

و قال قتادة إعتقل لسانه من غير خرسٍ، قيل أنّه لما حملت زوجته بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً و هو مع ذلك يقرأ التّوراة و يذكر الله فإذا أراد مناداة أحد لم يطقه و سويّاً حال من ضمير أي لا تكلم في حال صحّتك ليس بك خرس و لا مرض و قيل قوله: **سَوِيّاً** عاقد على اللّيلي أي كاملات مستويات فتكون صفة لثلاث و دلّ ذكر اللّيلي هنا، و الأيّام في آل عمران على أنّ المنع من الكلام استمر له ثلاثة أيّام بليليهن، و أنّ، في قوله أن لا تكلم النّاس هي النّاصبة للمضارع وليست بالمخففة من التّثنية كما زعم.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً أي و هو بتلك الصّفة من كونه لا يستطيع أن يكلم النّاس من المحراب أي من محراب عبادته و المحراب بكسر الميم هو موضع الصّلاة، فأوحى إليهم، أي أشار إليهم لعدم قدرته على التّكلم أو لعدم كونه مأموراً به فأشار إليهم و قيل كتب على الأرض و قال عكرمة كتب في ورقة و الوحي في كلام العرب الكتابة و منه قول ذي الرّمة:

سوى الأربع الذّهم اللّواتي كأنها
بقية وحي في بطون الصّحائف
و قال الآخر:

كوحى صحائف من عهد كسرى
فأهداها لأعجم طمطمئي
و قال جرير:

كأنّ أخا اليهود يخطّ وحيّاً
بكافٍ في منازلها ولام

وقوله: **أَنْ سَبِّحُوا** فقل أي صلُّوا و قيل أمرهم بتسبيح الله و ذكره المفسرون كان يخرج على قومه بكرة و عشياً فيأمرهم بالصلاة إشارةً.

أقول و لا يبعد أن يكون الأمر بالتسبيح لنقطة و هى أن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجيباً يقول سبحان الله سبحان الخالق و علي هذا فلما رأى حصول الولد من شيخ و عاقر تعجب منه فسبح هو و أمر غيره بالتسبيح أيضاً، و أن، في قوله: **أَنْ سَبِّحُوا** مفسرة و قيل قوله: **أَنْ سَبِّحُوا**، نصب بأوحى، و قيل أنها مصدرية و هى تكون بمعنى أى:

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا

قيل في الكلام حذف و تقديره، فلما ولد يحيى و كبر و بلغ السن الذي يؤمر فيه قال الله على لسان الملك يا يحيى خذ الكتاب و هو التوراة إذ لم يكن الإنجيل موجوداً، و قيل كان له كتاب خصّ به كما خصّ كثير من الأنبياء بمثل ذلك و قيل الكتاب صحف إبراهيم و المشهور عند المفسرين هو القول الأول و قوله: **بِقُوَّةٍ**، أي بجِدِّ، و آتيناه الحكم صبيّاً، أي أعطيناه الفهم لكتاب الله و قيل الحكم هنا النبوة و قيل الحكمة و العلم بالأحكام و قيل هو اللب و العقل الكامل، و قيل آداب الخدمة أو الفراسة الصادقة و الكل محتمل و قوله صبيّاً، أي طفلاً لأنه كان ابن سنتين و قيل ابن ثلاث و قيل ابن سبع و الآية تدلّ على أنه كان صبيّاً و أمّا تعيين السن فلا دليل عليه و فى الآية إشارة إلى أن الصبي يمكن أن يكون نبياً و هو كذلك.

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الحادى عشر

وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكُوَّةً وَ كَانَ تَقِيًّا، وَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا، وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا

وَ حَنَانًا، معطوف على الحكم أي و آتيناه الحكم صبيّاً و حناناً من لدنا و الحنان الرحمة أي آتيناه الحكم و الرحمة من لدنا، أي من عندنا و ذلك لأن

الحكم والرحمة من عند الله فقط سواء كان الحكم بمعنى النبوة أم العلم والحكمة فأَنَّ الكلَّ من عند الله تعالى الرحمة وقوله: زَكُوَّةٌ أي عملاً صالحاً وعن الزجاج أي تطهيراً، وقيل زيادة في الخير هكذا قيل وقال الشيخ في التبيان أي إِنَّا زَكَيْنَاهُ بحسن الثناء عليه كما يزكي الشهود الإنسان وأنا أقول الزكوة في الأصل النمو أي رفعناه مكاناً رفيعاً علياً، وكان تقياً، أي كان يحيى تقياً لا يعدل به غيره لأنه لم يعص الله بل ٥ بم يَهْم قط بكبيرة ولا صغيرة وكان طعامه العشب المباح، وبعبارة أخرى كان يتقي معاصي الله وترك طاعته زاهداً في الدنيا راغباً للأخرة، وبراً بوالديه، أي كثير التبر والإكرام والتبجيل وقرأ بعضهم، بِرّاً، بكسر الباء أي وذا برّاً، ولم يكن جباراً أي متكبراً، عصياً أي عاصياً كثير العصيان، وسلاماً عليه، وسلام الله على يحيى يوم ولد من أمه يموت ويوم يبعث حياً، أي يوم القيامة.

قال الطبري أي أمان وقال ابن عطية والأظهر أَنَّها التحية المتعارفة وأنما الشرف في أن سلم الله عليه وحيّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله.

أقول نقل المجلسي رحمه الله في البحار بأسناده عن الريان بن شبيب قال دخلت على الرضا عليه السلام في أول يوم من المحرم فقال عليه السلام يا بن شبيب أصائم أنت فقلت لا فقال عليه السلام إِنَّ هذا اليوم هو اليوم الذي دعا زكريا ربه فقال رب هب لي من ولدك ذرية طيبة أنك سميع الدعاء فاستجاب الله له وأمر الملائكة فنادت زكريا وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يشرك بيحيى فمن صام هذا اليوم ثم دعا الله عز وجل استجاب الله له كما استجاب لزكريا إنتهى.

وبأسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت ما عني الله تعالى بقوله في يحيى: وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكُوَّةً قَالَ عليه السلام تَحَنُّنَ الله قال قلت فما بلغ من تحنن الله عليه قال عليه السلام كان إذا قال يارب قال الله عز وجل لبيك يا يحيى إنتهى.

وبأسناده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ كان من زهد يحيى ابن زكريّا أنّه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأحرار والرهبان عليهم مدارع الشعر وبرانص الصوف وإذا هم قد خرّقوا تراقيهم وسلّكوا فيها السلاسل وشدّوها إلى سوارى المسجد فلمّا نظر إلى ذلك أتى أمّه فقال يا أمّاه أنسجي لي مدرعة من شعر وبرانصاً من صوف حتّى أتى بيت المقدس فأعبد الله مع الأحرار والرهبان فقالت له أمّه حتّى يأتي نبيّ الله وأمره في ذلك فلمّا دخل زكريّا أخبرته بمقاله يحيى فقال له زكريّا يا بنيّ ما يدعوك إلى هذا وأنت صبيّ صغير فقال له يا أبه ما رأيت من هو أصغر سنّاً منّي قد ذاق الموت قال بلى، ثمّ قال لأمّه أنسجي له مدرعة من مشعر وبرانصاً من صوف ففعلت فتدرّع المدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه ثمّ أتى بيت المقدس فأقبل يعبد الله عزّ وجلّ مع الأحرار حتّى أكلت مدرعة الشعر لحمه فنظر ذات يوم الى ما قد نحل من جسمه فبكى فأوحى الله عزّ وجلّ اليه يا يحيى أتبكي ممّا نحل من جسمك وعزّتي وجلّالي لو إطلعت الى النّار إطلاعة لتدرّعت مدرعة الحديد فضلاً عن المنسوج فبكى حتّى أكلت الدّموع لحم خديّه وبدا للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمّه فدخلت عليه وأقبل زكريّا واجتمع الأحرار والرهبان فأخبروه بذهاب لحم خديّه فقال ما شعرت بذلك فقال زكريّا يا بنيّ ما يدعوك الى هذا أنما سئلت ربّي أن يهبك لي لتقرّبك عيني قال أنت أمرتني بذلك يا أبه قال ومتى ذلك يا بنيّ قال ألسنت القائل إنّ بين الجنّة والنّار لعقبة لا يجوزها إلاّ البكاؤون من خشية الله قال بلى فجّد وأجتهّد وشأنك غير شأنّي فقام يحيى فتفقد مدرعه فأخذته أمّه فقالت أتاأذن لي يا بنيّ أن أتخذ لك قطعتي لبود تواريان أضراسك وتنشفان دموعك

فقال لها شأنك فأخذت قطعتي لبود تواريان أضراسه و تنشفان دموعه حتى إبتلتا من دموع عينيه فحسر عن ذراعيه ثم أخذهما فعصرهما فتحدّر الدّموع من بين أصابعه فنظر زكريّا الى ابنه و الى دموع عينيه فرفع رأسه الى السّماء فقال اللهم هذا إبني و هذه دموع عينيه و أنت أرحم الرّاحمين إنتهى موضع الحاجة منه والحديث طويل.

و بأسناده عن ياسر الخادم قال: سمعتُ الرّضا عليه السلام يقول أنّ أوحش ما يكون لهذا الخلق في ثلاثة مواطن يوم يلد فيخرج من بطن أمّه فيرى الدّنيا و يوم يموت فيعابن الآخرة و أهلها و يوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدّنيا و قد سلم الله تعالى على يحيى في هذه المواطن الثلاثة و آمن من روعته فقال و سلامٌ عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيّاً و قد سلم عيسى ابن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال و السّلام عليّ يوم أموت و يوم أبعث حيّاً إنتهى.

و بأسناده سأل سعد بن عبد الله القائم عليه السلام عن تأويل كهيعص، قال عليه السلام: هذه الحروف من أنباء الغيب إطلع الله عليها عبده زكريّا ثم قصّها على محمّد ﷺ.

و ذلك أنّ زكريّا سأل ربّه أن يعلّمه أسماء الخمسة فأهبط عليه جبرائيل فعلّمه أيّاهما فكان زكريّا إذا ذكر محمّداً و عليّاً و فاطمة و الحسن و الحسين سرّي عنه همّه و إنجلي كربه و إذا ذكر إسم الحسين عليه السلام خنقته العبرة و وقعت عليه البهرة فقال عليه السلام ذات يوم إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعة منهم تسّليت بأسماءهم من همومي و إذا ذكرت الحسين تدمع عيني و تثور زفرتي فأنبأه الله تبارك و تعالى عن قصّته فقال كهيعص، فالكاف إسم كربلاء، و الهاء هلاك

العترة و الياء يزيد و هو ظالم الحسين و العين عطشه و الصّاد صبره فلمّا سمع ذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة أيّام و منع فيهنّ النّاس من الدّخول عليه و أقبل على البكاء و النّحيب و كان يرثيه إلهي خير جميع خلقك بولده إلهي أنزل بلوى هذه الرّزية بفناءه، إلهي ألبس عليّاً و فاطمة ثياب هذه المصيبة إلهي أتحلّ كربة هذه المصيبة بساحتها ثمّ كان يقول إلهي أرزقني ولداً تقرّ به عيني على الكبر فإذا رزقته فافتني بحبه ثمّ أفجعني بعدكما تفجع محمّداً حبيبك بولده فرزقه الله بيحيى و فجعه به و كان حمل بيحيى ستّة أشهر و حمل الحسين عليه السلام كذلك الخبر، و أمّا شهادته فقد روى أيضاً بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال أنّ ملكاً كان على عهد يحيى بن زكريّا لم يكفه ما كان عليه من الطّروقة حتّى تناول إمراً بغياً، فكانت تأتيه حتّى أسنت فلمّا أسنت هيأت إبنتها ثمّ قال لها أني أريد أن أتي بك الملك فإذا واقعت فيسألك ما حاجتك فقولي حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريّا فلمّا واقعتها سألها حاجتها فقالت قتل يحيى ابن زكريّا فلمّا كان في الثّالثة بعث إلى يحيى فجاء به فدعا بطست ذهب فذبحه فيها و صبّوه على الأرض فيرتفع الدّم و يعلو و أقبل النّاس يطرحون عليه التّراب فيعلو عليه الدّم حتّى صار تلاً عظيماً و مضى ذلك القرن فلمّا كان من أمر بخت نصر ما كان رأى ذلك الدّم فسأل عنه فلم يجد أحداً يعرفه حتّى دلّ على شيخ كبير فسأله فقال أخبرني أبي عن جدّي أنّه كان من قصّة يحيى بن زكريّا كذا و كذا و قصّ عليه القصّة و الدّم دمه فقال بخت نصر لا جرم لأقتلنّ عليه حتّى يسكن فقتل عليه سبعين ألفاً فلمّا وفى عليه سكن الدّم، و فى خبر آخر أنّ هذه البغي كانت زوجة ملك جبّار قبل هذا الملك و تزوّجها هذا بعده فلمّا أسنت فكانت لها إبنة من الملك

الأول قالت لهذا الملك تزوج أنت بها فقال لأسأل يحيى بن زكريّا عن ذلك فإن أذن فعلت فسأله عنه فقال يحيى لا يجوز فهيأت بنتها وزيّنتها في حال سكره و عرضتها عليه فكان من حال قتل يحيى ما ذكر فكان ما كان إنتهى^(١).

أقول ما أشبه ولادته و شهادته بولادة الحسين و شهادته و قصّة بخت نصر بقصّة المختار حيث قتل كثيراً من الظالمين و لأجل ذلك كان الحسين عليه السلام في مسيره إلى كربلاء كثيراً ما يذكر قصّة يحيى ابن زكريّا ألا لعنة الله على الظالمين و سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون و قد ورد في الأخبار أنّه ما بكت السماء و الأرض إلا على يحيى ابن زكريّا و الحسين بن عليّ سلام الله عليهما و ذلك لشدة مظلوميتهما و شقاوة من ظلم عليهما فأَنَّ الأنبياء و أولاد الأنبياء لا يقتلهم إلا أولاد الزنا و يزيد بن معاوية كان كذلك كما أَنَّ معاوية أيضاً كان كذلك على ما تشهد به التواريخ.



وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا
 مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
 فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)
 قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا
 (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا
 زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
 يَمَسْسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ
 رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً
 مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ
 مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)

مناسبة هذه القصة لما قبلها واضحة و ذلك أنه تعالى لما ذكر قصة زكريا و طلبه الولد و أجابه الله إياه فولد له من شيخ فان و عجز له عاقر و كان ذلك ممّا يتعجب منه أردفه بما هو أعظم في الغرابة و العجب و هو وجود ولدٍ من غير ذكرٍ فدل ذلك على عظم قدرة الله و حكمته و أيضاً فقصّ عليهم ما سأله من قصة أهل الكهف و قصة الخضر و موسى ثم قصّ عليهم ما سأله و هو قصة ذي القرنين ثم ذكر في هذه التوراة قصصاً لم يسأله عنها و فيها غرابة ثم أتبع ذلك بقصة إبراهيم و موسى و هارون موجزة ثم بقصة إسماعيل و إدريس ليستقر في أذهانهم أنه إطلع نبيه على ما سأله و على ما لم يسأله و أنّ الرسول ﷺ وحيه في ذلك واحد يدل على صدقه و صحة رسالته من أمي لم يقرأ الكتب و الرحل و لا خالط من له علم و لا عني بجمع سير فقال تعالى (وَأَذْكُرْ يَا مُحَمَّدٌ) في الكتاب و هو القرآن، و الذكر إدراك النفس للمعنى بحضوره في القلب و الإذكار إحضار النفس له و أنما سمّي كتاباً لأنه ممّا

يكتب، و مريم، هي ابنة عمران أم عيسى عليه السلام وكانت خالة يحيى فهما أي عيسى و يحيى كانا إنا الخالة.

نقل الطبري أن يحيى قال لعيسى أدع لي فأنت خير مني فقال له عيسى بل أنت أدع لي فأنت خير مني سلم الله عليك و أنا سلمت على نفسي إنتهى.

إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا قَالِ الزَّمَخْشَرِي، إذ، بدل من مريم بدل الإشتغال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وقته إذ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيها إنتهى و قوله إذ انتبذت، الإنتبذ إتخاذ الشيء بإلقاء غيره عنه و الأصل الإلقاء من قولهم نبذه وراء ظهره أي ألقاه و النبذ الطرح.

و قال قتادة معنى إنتبذت إنفردت و قيل معناه إنتخذت مكاناً تنفرد فيه للعبادة و قيل معناه تباعدت و قال السدي إنتبذت لتطهر من حيضها و قال غيره لتعبد الله وكانت وفقاً على سداثة المتعبد و خدمته و قوله مكاناً شرقياً، فإنتصب، مكاناً على الظرف أي في مكان و وصف بشرفي لأنه كان يلي بيت المقدس أو من دارها و بسبب كونه في الشرقي أنهم كانوا يعظمون جهة الشرق من حيث تطلع الشمس و عن ابن عباس إنتخذت النصارى الشرق قبله لميلاد عيسى و قيل قعدت في مشرقه للإغتسال من الحيض محتجة بحائط أي شيء ليسترها و كان موضعها المسجد كما قال تعالى: فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا إِلَى مَرْيَمَ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قيل المراد بالروح جبرئيل عليه السلام و سمّاه روحاً لأنه روحاني لا يشبه شيئاً من غير الروح و خصّ بهذه الصفة تشريفاً له و قيل لأنه تحيى به الأرواح بما يؤديه إليهم من أمر الأديان و الشرائع وكيف كان لا خلاف عند المفسرين في أن المراد بالروح الملك جبرئيل أو غيره و لا يبعد أن يكون الروح إسم ملك من الملائكة كما قال تعالى: نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ^(١) و قوله: فَتَمَثَّلَ لَهَا أي فَتَمَثَّلَ الْمَلَكُ لَهَا

أي لمريم بشراً سوياً أي مستوي الخلق، قيل أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضئ الوجه جعد الشعر سوي الخلق لم ينتقص من الصورة الأدمية شيئاً أو حسن الصورة مستوي الخلق.

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا

لما تمثل الملك لها بصورة البشر قالت، أي قالت مريم له، أني أعوذ بالرحمن أي ألتجئ إليه منك إن كنت تقياً، تخاف عقوبة الله و إنما علقت التعويز على التقوى إذ أتعوذ بالرحمن منه أن يرتدع عما يسخط الله بخلاف الفاسق الفاجر فإنه لا يعرف الله و لا يرتدع عن عصيانه ففي ذلك تخويف و ترهيب كما يقول القائل إن كنت مؤمناً فلا تظلمني وكانت مريم غير عالمة بأنه تقى أم لا فلما سمع الملك منها هذا القول قال ^١لها، أنما أنا رسول ربك، أرسلني الله لأبشرك بأنه تعالى يهب لك غلاماً ذكراً زكياً، طاهراً من الذنوب، و قيل نامياً في أفعال الخير وقرأ بعضهم روحنا بفتح الراء لأنه سبب لما فيه روح العبادة و إصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله: فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَ رِيحَانٌ ^(١) أو لأنه من المقربين و هم الموعودون بالروح أي مقرين وذا روحنا و ذكر النقاش أنه قرئ روحنا بتشديد النون إسم ملك من الملائكة و انتصب البشر سوياً على الحال، و إنما مثل الملك لها بصورة البشر لتستأنس مريم بكلامه و لا تنفر عنه ولو بدا لها في صورة الملكية لنفرت ولم تقدر على إستماع كلامه و دل على عفافها و ورعها أنها تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن و كان تمثيله لها على تلك الصفة إبتلاءً لها و

بَابُ التَّوْقَاتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٦

المجلد العادي عشر

سبراً لعفتها، قيل كانت مريم في منزل زوج أختها زكرياً ولها محراب على حدة تسكنه و كان زكرياً إذا خرج أغلق عليها فتُمنّت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فإنفرج السَّقْف لها فخرجت فجلست في المشرقة وراء الجبل فأتاها الملك قال بعضهم قام الملك بين يديها في صورة ترب لها إسمه يوسف من خدم بيت المقدس وقيل غير ذلك والمتّع ما في الكتاب لا غيره وقيل، إن، في قوله: **إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا نَافِيَةً** أي ما كنت تقيّاً بدخولك عليّ ونظرك إليّ و فسّرت الزّكوة، في قوله: **زَكِيًّا**، هنا بالصّلاح والنبوة وتعجبت مريم بما ألقى في روعها أنّه من عند الله، قالت، أي مريم، أنّى يكون لي غلام أي كيف يكون ذلك و **لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** بالجماع على وجه الزوجية، و **لَمْ أَكُ بَغِيًّا**، تخصيص بعد تعميم لأنّ ميسس البشر يكون بِنكاح وبسفاح.

قال الزّمخشري جعل المسّ عبارة عن نكاح الحلال لأنّه كناية عنه لقوله تعالى: **مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ** وقوله: **أَوْ لَفَسْتُمْ** والنساء والزنا ليس كذلك أنما يقال فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك، و البغي المجاهرة المشتهرة في الزّنا، قيل لما كان هذا اللفظ خاصاً بالمؤنث لم يحتج إلى علامة التّأنيث فصار كحائض و طالق وأنما يقال للرجل باغ.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا

أي قال الملك لها لما سمع تعجّبها من هذه البشارة، كذلك يعني أنّ الله تعالى قال ذلك، قال ربك هو عليّ هَيِّنٌ، أي سهلٌ، وقوله هو، يرجع إلى الغلام أي خلق الغلام عليّ هَيِّنٌ كما خلقتك قبل وأخرجتك من العدم إلى الوجود على ما مرّ في قصّة زكرياً، ولنجعله أي ولنجعل الغلام، آيةً، و غلامٌ على قدرة الله، للنّاس، ليعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير، و رحمةً مِنَّا، معطوف على آية أي أنّه رحمة مِنَّا على الخلق و ذلك لأنّ النّبي رحمة، و كان أمراً مقضياً، أي و

كان وجود الغلام أمراً مفروغاً منه أي قضاه الله وقدره و ما قضاه الله بأنه كائن من كونه فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهٖ مَكَانًا قَصِيًّا يعني حملت مريم عيسى في بطنها، ذكروا أَنَّ جبرئيل نفخ في جيب درعها أو فيه و في كمّها، فلمّا حملت بعيسى، انتبذت مكاناً قصيًّا، أي انفردت مكاناً بعيداً ومعناه قاصيًّا و هو خلاف الدّاني، قيل كانت مريم بنت أربع عشرة سنة و قيل خمس عشرة و كانت لم تحض قطّ فلمّا أحسّت و خافت ملامة الناس أن يظنّوا بها الشر ارتمت به إلى مكانٍ قصي حياءً و فراراً قيل أنّها ببيت لحم بينه و بين إيليا أربعة أميال، و قيل بعيداً من أهلها وراء الجبل و قيل أقصى الدّار و ذكر المفسّرون في المقام أقوالاً لا يعتمد عليها بل الإعراض عنها أولى من التّعريض لها لكونها مضطربة متناقضة.



فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا
يَمْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣)
فَنَادِيهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ
تَحْتِكَ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ
تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي
وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ
لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ
أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨)
فَأشارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْأَمْهِدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ اتَّخَذَ
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ
مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا
شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ
لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا
فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ
يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
(٣٨) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ
هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا نُرْجِعُونَ (٤٠)

◀ اللغة

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ: الأصل جاءها ثم عُدِّي بالهمزة إلى مفعول ثانٍ وإستعمل بمعنى ألجأها وذلك لأن رجاء، قد يعدى بالباء وقد يعدى بالألف مثل ذهب به وأذهبته وخرجت به وأخرجته فعلى التعدية بالباء يقال جاء به، وعلى التعدية بالهمزة يقال أجاها وما نحن فيه من هذا القبيل ثم دخلت الفاء على الهمزة و من المعلوم أن تعدى الفعل بالهمزة يستدعى مفعولاً ثانياً يقال أستعمل بمعنى، ألجأها أي إضطرها قال الشاعر:

ود جأر سار معتمداً إليكم أجائته المخافة و الرجاء

أي جائت به، وَالْمَخَاضُ، بفتح الميم وجع الولادة و يقرأ بالكسر وهما لغتان و قيل الفتح إسم للمصدر مثل السَّلام والعطاء و الكسر مصدر مثل القتال نَسِيًا: بكسر النون و عليه فهو بمعنى المنسي و يقرأ بالفتح أي شيئاً حقيراً و يقرأ بفتح النون و همزة بعد السين و هو من نسأت اللبن إذا خالطت به ماءً كثير و قيل النسي خرقه الحيض التي تلقىها المرأة.

مِنْ تَحْتِهَا: بفتح الميم فاعل، نادى، و أن فى أَلَا مصدرية أي لا تغمى.

سَرِيًّا: السَّر هو التَّهَر الصَّغِير و إنما سَمِيَ التَّهَر سَرِيًّا لَأَنَّهُ يسري بجريانه.

وَهَزَى: الْهَز التَّحْرِيك الشَّدِيد و يُقال هزرت الرُّمَح فأهتز.

جَيِّيًا: الْجَنِي فَعِيل بمعنى، مفعول أي المجني المأخوذ من الثمرة الطرية

يقال إجتناه إذا إقتطفه (فَرِدًا) الفري القبيح من الإفتراء.

◀ الإعراب

أَلَا أَنْ مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ بِمَعْنَى أَيْ رُطْبًا حَالٌ مُوْطِئَةٌ وَصَاحِبُهُ الضَّمِيرُ فِي الْعَقْلِ وَ قِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ، هَزِيٍّ، وَ قِيلَ تَمْيِيزٌ وَ جَيِّئًا بِمَعْنَى مَجْتَبِيٍّ بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَيْ طَرِيًّا مِنْ الْبَشَرِ حَالٌ مِنْ أَحَدًا وَ مَفْعُولٌ بِهِ فَأَتَتْ بِهِ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ حَالٌ وَ كَذَلِكَ تَحْمِلُهُ وَ صَاحِبُهُ مَرِيْمٌ وَ قِيلَ تَحْمِلُهُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ عَيْسَى صَبِيًّا حَالٌ مِنْ الضَّمِيرِ فِي الْجَارِ بَغِيًّا حَالٌ خَبَرَ كَانَتْ نَبِيًّا حَالٌ بَرًّا مُعْطُوفٌ عَلَى، مُبَارَكًا، وَ يَقْرَأُ بِكَسْرِ الْبَاءِ وَ هُوَ مُعْطُوفٌ عَلَى الصَّلَاةِ وَلُذْتُ ظَرْفٍ وَ الْعَامِلُ فِيهِ الْخَبَرُ الَّذِي هُوَ، عَلَى ذَلِكَ مُبْتَدَأٌ وَ عَيْسَى خَبَرُهُ وَ ابْنُ مَرْيَمَ تَعَتْ أَوْ خَبَرُ ثَانٍ قَوْلُ الْحَقِّ أَيْ أَقُولُ قَوْلَ الْحَقِّ وَ قِيلَ هُوَ حَالٌ مِنْ عَيْسَى وَ قِيلَ التَّقْدِيرُ أَعْنِي قَوْلَ الْحَقِّ وَإِنْ أَلَّهِ رَبِّي بِالْكَسْرِ عَلَى الْإِسْتِنَافِ وَ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ عَلَى أَنَّهُ مُعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ بِالصَّلَاةِ أَيْ وَ أَوْصَانِي بِأَنْ اللَّهَ رَبِّي أَسْمِعْ بِهِمْ بِهِمْ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ كَقَوْلِكَ أَحْسَنَ بَزِيدٍ أَيْ أَحْسَنَ زَيْدٌ هَذَا بِنَاءً عَلَى مَسْلَكِ الْمَشْهُورِ مِنْ أَنَّ لَفْظَهُ لَفْظُ الْأَمْرِ وَ مَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ.

وَأَمَّا عَلَى قَوْلِهِ بِأَنَّهُ أَمْرٌ حَقِيقَةٌ فَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ نَصَبٌ وَ الْفَاعِلُ مُضْمَرٌ.

◀ التفسير

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا

أَي لَمَّا حَمَلَتْ مَرِيْمٌ بِعَيْسَى وَ اتَّخَذَتْ بِهِ وَ الْبَاءُ فِي بِهِ، لِلْحَالِ أَيْ مُصْحُوبَةٌ بِهِ وَ الْمَعْنَى لَمَّا إِعْتَزَلَتْ مَرِيْمٌ وَ هُوَ أَيْ عَيْسَى فِي بَطْنِهَا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ وَ إِخْتَلَفُوا فِي مَدَّةِ الْحَمْلِ عَلَى أَقْوَالٍ:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ كَانَتْ مَدَّةُ الْحَمْلِ سَاعَةً وَاحِدَةً وَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ وَ قِيلَ حَمَلَتْ فِي سَاعَةٍ وَ صُورَ فِي سَاعَةٍ وَ وَضَعَتْهُ فِي سَاعَةٍ.

وقيل ستة أشهر وقيل في سبعة أشهر وقيل ثمانية وقيل غير ذلك والذي يستفاد من الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت أنَّ مدَّة الحمل كانت ستة أشهر. فعن كتاب علل الشرائع عن الصادق عليه السلام وقد ذكرنا فاطمة عليها السلام قال عليه السلام فعلمت وحملت بالحسين عليه السلام فحملت ستة أشهر ثم وضعت ولم يعش ولد قط لستة أشهر غير الحسين بن علي عليهما السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام. إنتهى.

وفي حديث آخر قال عليه السلام: ولم يولد لستة أشهر إلا عيسى بن مريم والحسين بن علي عليه السلام. إنتهى.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام القول بتسع ساعات أيضاً والله أعلم بحقيقة الحال وكيف كان لما قرب وضع الحمل فأجاءها المخاض أي ألجأها واضطرها إلى جذع النخلة، والأصل في، فأجاءها، جاءها ثم عدي بالهمزة إلى مفعول ثانٍ وإستعمل بعض ألجأها وقد أوضحناه في شرح اللغات وقلنا هو ممَّا يعدي تارة بالباء فيقال جاء به وأخرى بالآلف فيقال فأجاءها وما نحن فيه من قبيل التعدّي بالهمزة، وقيل أنَّ الأجراء تدلُّ على المطلق، فتصلح لما هو بمعنى الأجراء ولما هو بمعنى الإختبار كما لو قلت أقمت زيداً فإنه قد يكون مختاراً لذلك وقد يكون مجبوراً قد قسرتة على القيام وعلى هذا فقوله تعالى: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ، معناه وجاء المخاض إلى جذع النخلة أمَّا بإختيار منها أو بالأجراء بسبب المخاض وهذا هو الحق فلا يدلُّ الإستعمال على تغيير المعنى وعلى هذا فمعنى الكلام، أجاءها كما يقال أجاءه إلى موضع كذا وقرأ بعضهم، فأجأها، من المعاناة وقيل في مصحف، أبي، فلما أجاءها، أقول قراءة، فأجأها، وأن كانت غير مشهورة إلا أنها أوفق بسياق العبارة والعقل والحس أيضاً يحكم أن المخاض وفي شدة الولادة وأوجاعها يأتي بغتة ومفاجأة وعلى هذا فأجأها المخاض أحسن من فأجاءها المخاض معنى وأما

لفظاً فالقراءة المشهورة أولئى لوجود الفاء المفيدة للتفريع و كيف كان فالمعنى لا خفاء فيه على القراءتين.

و أما المخاض بفتح الميم و كسرهما هو شدة الولادة و أوجاعها يقال ناقة ماخض، أي دنا ولادتها و قوله إلى جذع النخلة، فالجذع بكسر الجيم ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سقف عليه و لا غصن ولهذا لم يقل إلى النخلة، فكأنها طلبت شيئاً تستند إليه و تتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق، ولم تجد شيئاً سوى جذع النخلة فتعلقت به و المشهور أن ميلاد عيسى كان بيت اللحم و أنها لما هربت و خافت عليه أسرع به و جاءت به إلى بيت المقدس فوضعت على صخرة فإنخفضت الصخرة له و صارت كال مهد و هي الآن موجودة تزار بحرم بيت المقدس ثم بعد أيام توجهت إلى بحر الأردن فعمدته فيه و هو اليوم الذي تتخذة النصارى و تسمونه يوم الغطاس و همأ يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقدست فلذلك يغطسون في كل ماء و من زعم أنها ولدته بمصر قال بكورة أناس قيل و نخلة مريم قائمة إلى اليوم و الظاهر أنها كانت موجودة قبل مجي مريم إليها و قيل أن الله أنبت لها نخلة تعلقت بها و قيل أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة يابس بال أصله مدود لا رأس له و لا ثمر و لا حفرة هذا ما ذكره بعض المفسرين.

و قال صاحب الكشف و التعريف (في النخلة) لا يخلو إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم و الصعق كان تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره. و أما أن يكون تعريف الجنس أي جذع هذه الشجرة خاصة و كان الوقت شتاء إنتهى.

قال بعض المحققين أن النخلة من خواصها أنها لا تثمر إلا بعد اللقاح قطعت رأسها لا تثمر فكأنه تعالى قال أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح ثم أتى أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز

ظهور الولد من غير ذكر و حاصل الكلام أَنَّ النَّخْلَةَ من بين الأشجار أشبه شيء
بالإنسان في ظهور الثمر عليها، ولعلّه لهذه النقطة إختار النَّخْلَةَ في المقام من
بين الأشجار فأطعمها الله منها الرُّطْب الذي هو ضرسة النَّفساء.

قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا أَي قَالَتْ مَرِيَمُ يَا
لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا، إِسْتِحْيَاءُ مِنَ النَّاسِ وَ كُنْتُ نَسِيًّا، فَالنَّسِيُّ الشَّيْءُ الْمَتْرُوكُ
حَتَّى يَنْسَى، وَ يَجُوزُ فِيهِ الْفَتْحُ وَ الْكَسْرُ مِثْلُ الْوَتْرِ وَ الْوَتْرِ قِيلَ الشَّيْءُ بِالْفَتْحِ
الْمَصْدَرُ يُقَالُ نَسِيتُ الشَّيْءَ نَسِيًّا وَ نَسِيَانًا وَ بِالْكَسْرِ الْإِسْمُ وَ قِيلَ النَّسِيُّ خَرْقَةُ
الْحَيْضِ الَّتِي تَلْقِيهَا الْمَرْأَةُ قَالَ الشَّاعِرُ:

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيًّا تَقْصَهُ إِذَا مَا غَدَتْ وَ إِنْ تَمَالَكْ بَتَلَتْ
وَ قَوْلُهُ مِتُّ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَ ضَمِّهَا فَعَلَى الْكَسْرِ مِنْ مَاتَ يَمُتُ وَ عَلَى الضَّمِّ مِنْ
مَاتَ يَمُوتُ، الظَّاهِرُ أَنَّهَا قَالَتْ هَذَا الْكَلَامُ وَ تَمَنَّتْ الْمَوْتَ بَعْدَ وَلَادَةِ عِيسَى
أَوْ عِنْدَهَا لَمَّا رَأَتْهُ مِنَ الْأَلَامِ وَ التَّغْرِبِ وَ إِنْكَارِ قَوْمِهَا وَ أَنَّهَا تَمَنَّتْ الْمَوْتَ مِنْ
جَهَةِ الدِّينِ إِذْ خَافَتْ أَنْ يَظُنَّ بِهَا الشَّرَّ فِي دِينِهَا، وَ قَوْلُهُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا، فَالنَّسِيُّ
الشَّيْءُ الْحَقِيرُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْسَى فَلَا يَتَأَلَّمُ لِفَقْدِهِ كَالْوَتْدِ وَ الْحَبْلِ لِلْمَسَافِرِ وَ
خَرْقَةُ الطَّمْثِ وَ مَنْسِيًّا تَأْكِيدٌ لَهُ وَ لَا شَكَّ أَنَّهَا تَمَنَّتْ ذَلِكَ لَمَّا لَحِقَهَا مِنْ فِرْطِ
الْحَيَاءِ عَلَى حَكْمِ الْعَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ لَا كِرَاهَةٍ لِحُكْمِ اللَّهِ أَوْ لَشِدَّةِ التَّكْلِيفِ عَلَيْهَا
إِذَا بَهَتُوهَا وَ هِيَ عَارِفَةٌ بِبَرَاءَةِ سَاحَتِهَا، وَ قِيلَ لِحَزْنِهَا عَلَى النَّاسِ أَنْ يَأْتُمُوا
بِسَبَبِهَا.

بَابُ
الْوَقْفَانِ فِي
مِنْهُنَّ
الْقُرْآنِ

فَنَادِيهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا

الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَنَادِيَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ قَتَادَةُ وَ الضَّحَّاكُ الْمَنَادِي
كَانَ جِبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَانَ فِي بَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ أَخْفَضَ مِنَ الْبَقْعَةِ الَّتِي كَانَتْ مَرِيَمُ
عَلَيْهَا قَالَهُ الْحَسَنُ وَ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَنَادَاهَا مَلِكٌ مِنْ تَحْتِهَا وَ
قَرَأَ الْبَاقُونَ بِحَرْفِ الْجَرِّ فَقَطْ وَ قَرَأَ بَعْضُهُمْ مِنْ تَحْتِهَا، بِفَتْحِ الْمِيمِ بِمَعْنَى الَّذِي وَ

جزء ١٦

المجلد العادي عشر

تحتها ظرف منصوب صلة، لمن، والمراد به عيسى أي ناداها المولود، وأن، في ألا، حرف تفسير أي لا تحزني، والسري في قول الجمهور الجدول.

وقال قتادة عظيماً من الرجال له شأن ورومي أن الحسن فسَمَى الآية فقال أجل لقد جعله الله أي المولود سويّاً كريماً، والحق أن المراد بالسري معناه اللغوي وهو الجدول والنهر وأما قيل للنهر سري لأنه يسري بجريانه كما قيل جدول لشدة جريه قال لبيد:

فَتَوَسَّطَا عَرْضَ السَّري فَصَدَعَا مَسْجُورَةً مَتَّجَاوِزُ أَقْدَامِهَا

وقال السدي كان الجذع مقطوعاً وأجري تحته النهر والمعنى، لما غلب عليها الحزن فناداها عيسى من تحتها أي من بطنها أن لا تحزني أي لا تحزني ولا تغتممي قد جعل ربك تحتك سرياً يشرب منه وذلك لأن الجذع كان يابساً وعلى هذا فقد ظهرت لها آيات تسكن إليها ولم يكن حزنها لفقد الطعام والشرب حتى تتسلى بالأكل والشرب ولكن لما ظهر في ذلك من خرق العادة حتى يتبين لقومها أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا

أمرها الله تعالى بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع والباء في قوله: بِجِذْعٍ قيل زائدة.

وقال صاحب الكشف صلة للتأكيد كما يقال خذ بالزنام، وأعط بيدك قال تعالى: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ^(١) أي فليمدد سبباً.

وقيل المعنى وهزى إليك رطباً على جذع النخلة وتساقط أي تتساقط فأدخم التاء في الستين وقرأ، هَمَزَةٌ تساقط مخففاً فحذف التي أدغمها غيره وقرأ عاصم، تساقط، بضم التاء مخففاً وكسر القاف وقرئ، تساقط، بإظهار التائين، و

يساقط، بالياء وإدغام التاء ويسقط ويسقط وتسقط وقوله: رُطْبًا نصب بالهمزة و
يختلف نصبه، بحسب معاني القرآت وقوله: جَنِيًّا بفتح الجيم وكسر النون صفة
للرُطْب ومعناه طابت وصلحت للإجتناء وهي من جنيت الثمرة قال الفراء،
الجنّي والمجنّي واحد يذهب أُنهما بمنزلة الفتيل والمفتول والجريح و
المجروح وقال غيره الجنّي المقطوع من نخلة واحدة والمأخوذ من مكان
نشأته كما قال الشاعر:

و طيب ثمار في رياضٍ أريضةٍ و أغصان أشجارٍ جناها على قربٍ
يريد بالجنّي ما يجني منها أي يقطع ويؤخذ والمعنى وهزي اليك أي
هزي النخلة اليك كما في قوله تعالى: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ^(١) تساقط النخلة عليك
رُطْبًا جَنِيًّا أي رُطْبًا طابت وصلحت للإجتناء وتقديره تساقط عليك ثمر
النخلة رُطْبًا.

قيل ولم يكن للنخلة رأس وكانت في الشتاء فجعله الله آية:

فَكُلِّي وَ أَشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْنًا فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا
لَمَّا قال جبرائيل أو الملك لها: هُزِّي إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ
رُطْبًا جَنِيًّا قال لها بعد ذلك، فكلي، من ذلك الرُطْب وَ أَشْرَبِي من السّري و
هو النّهر، وَ قَرِّي عَيْنًا نصب على التّمييز أي و قرّي عيناً برؤية الولد النّبي و
هو عيسى و الفتح في القاف قراءة الجمهور و كسر القاف لغة نجد، و هو مأخوذ
من المقرّ و القرّة، و هما البرد و دمعة السّرور باردة و دمعة الحزن حارة و قيل
الدمع كلّ حار فمعنى أقرّ الله عينيه أي سكن الله عينيه بالنّظر الى من يحبّه
حتّى تقرّ و تسكن، يقال فلان قرّة عيني أي نفسي تسكن بقربه و قال الشّيباني،
و قرّي عيناً، أي ما في حَضّها على الأكل و الشّرب و النّوم قال أبو عمرو، أقرّ

فَبِالْقُرْآنِ
فِي قُرْآنِ
فِي قُرْآنِ

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

اللَّهُ عَيْنِي أَي أَنَامُ عَيْنِيهِ وَأَذْهَبَ سَهْرَهُ وَأَتَمَّا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ رَاحَةَ الْبَشَرِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنَّوْمِ.

و قال بعض المفسرين معناه لتبرد عينك بسرور ما ترى و قال الآخر لتسكن سكون سرور برؤيتها ما تحب و نزل القرآن بلغة قريش فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنْ أَلْبَشَرٍ أَحَدًا تَرَيْنَ، أصله ترأين مثل ترغيبين فالهمزة عين الفعل و الباء لامة و هو مبنى هنا من أجل ثون التأكيد مثل لنضربن، فألقيت حركة الهمزة على الراء و حذفت اللام للبناء كما تحذف في الجزم و بقيت ياء الضمير و حرّكت لسكونها و سكون التّون بعدها و يقرأ، ترين، بإسكان الباء و تخفيف التّون على أنّه لم يجزم، بأمّا، و هو بعيد و من البشر حال من أحداً أو مفعول به و المعنى أنّ الله ألقى إليها بعد الأمر بالأكل و الشُّرب ما تقول أن رأيت أحداً من البشر و سألتها عن ولدها فقولي إني نذرتُ للرّحمنِ صوماً فلن أكلمَ اليومَ إنسيّاً هذا ما ألقاه الله إليها أن تقول في جواب من سألتها عن ولدها و أمرها أن تقول أنني نذرت لرّحمن صوماً، أي صمتاً و بعبارة أخرى نذرت للرّحمن أن أسكت فالمراد بالصوم قيل السكوت و قيل المراد به الصمت من الطّعام و الشّراب و الكلام أي إمساكاً و أنّما أمرها الله بذلك ليكفيها الكلام ولدها بما يبرئ ساحتها، و قيل من كان صام في ذلك الوقت لا يكلم الناس فأذن لها في هذا المقدار من الكلام، و قيل أمرها الله أن تشير إليهم بهذا المعنى و يحتمل أن يكون المعنى فلن أكلمَ اليومَ إنسيّاً، بعد قلولي هذا و بين الشّروط و جزاءه جملة محذوفة يدلّ عليه المعنى أي فأما ترّين من البشر أحداً و سألك أو جاؤوك الكلام فقولي له كذا و كذا.

بِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٦

المجلد العاشر

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا

أي فأتت مريم به أي بعيسى قومها، قيل إتيانها كان من ذاتها بمعنى أنها لم تكن مأمورة به فحُتَّت إلى الوطن و علمت أنَّ عيسى سيكفيها من يكلمها، فعادت إلى قومها و قيل أرسلوا إليها لتحضري إلينا بولدك و كان الشيطان قد أخبر قومها بولادتها وكيف كان أنها أتت قومها و الحال أنها كانت تحمل عيسى قالوا أي قال قومها، يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، أي شنيعاً و قيل أي عملاً عجيباً هو من الافتراء و معناه القبيح، يا أخت هارون، نسبت إلى هارون أخي موسى لأنها كانت من ولده، و قيل نسبت إلى هارون شقيقها أو أخوها من أمها و كان من أمثل بني إسرائيل.

و قال قتادة أنه كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه من عرف بالصلاح، و قال قوم كان رجلاً فاسقاً معلناً بالفسق فنسبت إليه ما كان أبوكِ أمراً سوءً و ما كانت أمكِ بغيّاً أي ما كان أبوك و أمك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها وهذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً.

أي فأشارت مريم إلى ابنها عيسى أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه قيل كان المستنطق لعيسى زكريّا و يروى أنهم لما أشاروا إلى الطفل قالوا إستخفافاً بنا أشد علينا من زناها ثم قالوا لها على جهة الإنكار و التّحکم بها كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً أي أنّ من كان في المهد يربى لا يكلم و أنما أشارت إليه لما تقدّم لها من وعده أنه يجيبهم عنها و يغنيها عن الكلام، و قيل أنما كان ذلك بوحى من الله إليها قيل، كان، هاهنا زائدة و نصب صبيّاً، على الحال، قال الشاعر:

فكيف إذا رأيت ديار قومي و جيران لنا كانوا كرام

و المعنى و ديار جيران كرام و (كانوا) فضلة فلذلك لم تعمل، و قيل ليست

بزائدة ومعناه على الشرط و تقديره من كان في المهد صبياً، كيف نكلمه على التقديم والتأخير وعلى أي حال لما سألوه.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

أي قال عيسى إني عبد الله، قيل أنه قام متكئاً على يساره وأشار إليهم بسبأته اليمنى وأنطقه الله تعالى أولاً بقوله: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ** وأما أشار أولاً بمقام العبودية لأنه الأصل في جميع الإفاضات ومع ذلك فيه إشارة إلى أن الله تعالى أوجده بقدرته ثم أشار ثانياً بأن الله تعالى أعطاه الكتاب وهو الإنجيل وثالثاً بأنه تعالى جعله نبياً.

وقال قومٌ معناه إني عبد الله سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً، فيما بعد، أقول لو كان معنى الكلام ما ذكره لقال الله تعالى سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً، وحيث لم يقل ذلك وجاء بصيغة الماضي فالمعنى أتاني الكتاب وجعلني نبياً فيما مضى أي في علم الله وهذا هو الحق عندنا وأما عند العامة وغيرهم من أهل الظاهر فالماضي بمعنى المضارع وتوضيح ذلك نقول النبوة من أعلى المواهب الربانية وأفضل المناصب الإلهية وليس كل واحدٍ من الناس لائقاً بهذا المقام.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِصْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ^(١).

قال الله تعالى: **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي^(٢).**

قال الله تعالى: **ثُمَّ أَوْثَقْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا^(٣).**

وغيرها من الآيات وهذا مما لا كلام فيه وأما الكلام في أن النبوة التي أعطاه الله من شاء وأراد أعطاه قبل ولادة النبي أو بعدها وبعبارة أخرى

النبي نبي في بطن أمه أو بعد ولادته في الدنيا وذلك إننا لا نشك في أن رسول الإسلام مثلاً صار مأموراً بالدعوة بعد مضي أربعين سنة من عمره وهكذا غيره من الأنبياء فإن قلنا أن الله تعالى جعلهم أنبياء في دار الدنيا بعد مضي أربعين سنة أو أقل أو أكثر فالنبي في المهد بل قبل ذلك الزمان ليس بنبي بل هو كغيره من أحاد الناس و أن قلنا أنه تعالى جعلهم أنبياء في الأزل قبل إيجادهم في هذه الدنيا فهم أنبياء من حين الولادة إلى الموت وعلى هذا تبنتي العصمة التي إتفقوا على وجودها فيهم لأن العصمة من شئون النبوة و لوازمها فهي تدور مدار وجود النبوة و لذلك إختلفوا في عصمة الأنبياء هل هي ثابتة لهم من حين الولادة أو هي ثابتة لهم من حين الدعوة و حيث أن العامة إختاروا الشق الثاني ذهبوا إلى أن الأنبياء قبل وصولهم إلى مقام الدعوة كانوا كغيرهم من الناس فلهم مالهم و عليهم ما عليهم، و لذلك إحتاجوا إلى التأويل في الآيات المشعرة بخلاف مذهبهم كما فيما نحن فيه.

و أما على مذهب الحق و هو أن النبوة ثابتة للنبي من حين الولادة مع لوازمها فالآيات على ظواهرها و لا تحتاج إلى التأويل و هذا هو الأصل في هذا الباب إذا عرفت هذا فقوله تعالى حكاية عن عيسى: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ اتَّخَذَنِي** **الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا**. الخ لا يحتاج إلى التأويل بقولهم سيؤتيني الكتاب و يجعلني نبياً، بل هو على ظاهره لأن عيسى كان في المهد نبياً و إذا أثبت النبوة لوازمها مما هو مذكور في الآية إلا أن زمان فعليتها في المستقبل فأَنَّ العالم عالمٌ قبل ظهور العلم منه و الطبيب طبيب قبل ظهور الطبابة و الشجاع شجاع قبل ظهور الشجاعة و بالجملة حصول ملكة العدالة و الشجاعة و السخاوة و العدالة شيء و فعليتها و ظهورها في الخارج شيء آخر و محصل الكلام هو أن مقام النبوة و لوازمها من العلم و العصمة و التقوى و العدالة و غيرها كانت حاصلة للأنبياء من بدو ولادتهم إلا أن ظهور الدعوة منهم كان موكولاً إلى زمانٍ

خاص لا يعلمه إلا الله وهذا أصل يعتمد عليه في النبوة والإمامة فما ثبت للنبي ثبت للإمام من حيث الصفات والخواص قال رسول الله ﷺ لأُمير المؤمنين علياً أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وذلك نقول أن التكلم في المهد من العصمة والعلم وغيرها لا تختص بالأنبياء بل هي ثابتة للأوصياء أيضاً وللبحث فيه مقام آخر.

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
الواو للعطف فإن الآية معطوفة على ما قبلها والمعنى جعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت، أي معلماً للخير أينما كنت وقيل نفاعاً، والبركة نماء الخير والمبارك الذي ينمي الخير به قال بعض المفسرين وظاهر قوله: وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أنه تعالى نبأه حال طفوليته فأكمل عقله وإستبأه طفلاً وقيل أن ذلك سبق في قضاءه وسابق حكمه ويحتمل أن يجعل الآتي لتحققه كأنه قد وجد إنتهى.

وقوله: أَيْنَ مَا كُنْتُ شرط وجزاءه محذوف وتقديره جَعَلَنِي مُبَارَكًا وحذف للدلالة ما تقدم عليه ولا يجوز أن يكون معمولاً، لجعلني السابق، لأن، إني، لا يكون إلا إستفهاماً أو شرطاً ولا يجوز أن يكون هنا إستفهاماً فَتُبِتت الشرطية وإسم الشرط لا ينصبه فعل قبله أنما هو معمول للعقل الذي يليه وهو الفعل المحذوف وقوله وأوصاني بالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، أي أمرني بهما والظاهر حمل الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ على ما شرع في البدن والمال وقيل المراد بالصَّلَاةِ الدُّعاء وبالزَّكَاةِ التَّطَهُّرُ و(ما) في، ما دمت، مصدرية ظرفية وقوله: مَا دُمْتُ حَيًّا، أي مُدَّةَ حياتي.

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

أي وأوصاني أن أكون باراً بوالدتي أي محسناً إليها قرأ بعضهم، بَرًّا بكسر الباء وعليه فهو أمّا على حذف مضاف أي وذا بَرٍّ و أمّا على المبالغة جعل ذاته

من فرط برّه و يجوز أن يضمّر فعل في معني، أوصاني، و هو كلّفني لأنّ أوصاني بالصلاة و كلّفنيها واحد، و من قرأ و برّاً بفتح الباء و هو المشهور فقد جعله معطوفاً على مباركاً و فيه بعد للفعل بين المعطوف و المعطوف عليه و بالجملة التي هي أوصاني و متعلّقها و الأولى إضمار فعل أي و جعلني برّاً. و حكى أبي البقاء أنّه قرئ و برّاً بكسر الباء و الرّاء عطفاً على بالصلاة و الزّكاة، و قوله: **يَوَالِدَتِي**، بيان محلّ البرّ و أنّه لا والد له و بهذا القول برّأها قومها و لم يجعلني جباراً شقيّاً، أي لم يحكم الله عليّ بالتّجبر و الشّقاء و لم يسمّني بذلك.

و السّلامُ عليّ يومٌ وُلِدْتُ و يومٌ أَمُوتُ و يومٌ أُبْعَثُ حَيّاً

و أمّا قال و السّلامُ عليّ، بالألف و اللّام و لم يقل و سلامٌ عليّ، لنقطه و هي أنّ اللّام للجنس أي و جنس السّلام عليّ خاصّة فقد عرّض بأنّ ضده عليكم و نظيره و السّلام على من إتّبع الهدى، يعني أنّ العذاب و هو ضدّ السّلام على من كذّب و تولى و أمّا حصّ السّلام بالأيّام الثلاثة أعني بها يوم الولادة و يوم الموت و يوم البعث لأنّها أيّام الشّدائد و المحن فمن نجى من شدائدّها فقد نجى من عذاب الأخره و قد عبّر عنها بأيّام الله، و قيل اللّام لتعريف المنكر في قصّة يحيى في قوله: **وَ السّلامُ الخ** نحو قوله تعالى: **كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ**^(١) أي و ذلك السّلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إليّ.

قال بعض المحقّقين أنّ سلام يحيى أرجح من سلام عيسى لأنّ يحيى لم يقل سلامٌ عليّ بل قال الله تعالى و سلامٌ عليه يوم ولد الخ و أمّا عيسى فقال: **السّلامُ عليّ الخ** و من المعلوم أنّ سلام الله أرجح و أفضل من سلام عيسى على نفسه.

أقول الحقّ أنّ الأمر بالعكس و ذلك لأنّه تعالى أقام عيسى في ذلك مقام نفسه فسَلِمَ نائباً عن الله تعالى لكونه مظهراً كاملاً لخالفه.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

الإشارة بذلك، إلى المولود الذي ولدته مريم المتّصف بتلك الأوصاف الجميلة و، ذلك، مبتدأ و، عيسى، خبره و ابن مريم صفة لعيسى أو خبر بعد خبر أو بدل و المقصود ثبوت نبوته من مريم خاصّة من غير أب فليس بإبن له كما يزعم البغدادى و لا لغيره كما يزعم اليهود، و قرأ المشهور، قول الحق، بنصب اللّام على أنّه مصدر مؤكّد لمضمون الجملة أي هذه الأخبار عن عيسى أنّه ابن مريم ثابتٌ صدق ليس منسوباً لغيرها أي أنّها ولدته من غير فسق بشر كما تقول هذا عبد الله الحقّ لا الباطل أي أقول الحقّ و أقول قول الحقّ فيكون الحقّ هنا الصّدق و هو من إضافة الموصوف الى صفة أي القول الحقّ كما قال، وعد الصّدق أي الوعد المصدّق و أن عني به الله تعالى كان القول مراداً به الكلمة، كما قالوا كلمة الله كان إنتصابه على المدح و على هذا فتكون، الذي صفة للقول و على الوجه الأوّل تكون صفة للحقّ.

أقول رفع القول أولى من النّصب على أنّه بدل من عيسى ابن مريم أو هو خبر، لذلك أي ذلك الذي هو عيسى ابن مريم، قول الحقّ بناءً على أن يكون ذلك عيسى ابن مريم مبتدأ و قول الحقّ خبره، أو هو خبر بعد خبر بناءً على المشهور من أنّ ذلك مبتدأ و عيسى ابن مريم خبره، و عليه فالمعنى ذلك أي عيسى ابن مريم، قول الحقّ و كلمته:

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** (١).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ** ^(١).

والكلمة هي القول كما قيل في تعريفها الكلمة قولٌ مفردٌ، وعلى هذا التَّغيير فقولُه: **قَوْلَ الْحَقِّ** إشارة الى أنه أي المسيح إنما وجد للكلمة كن، المشار إليها بقوله: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ^(٢) ففي هذا الكلام ردُّ على المُساق الذين قالوا في عيسى ما قالوا من الأكاذيب والإفتراء فكأنه قيل عيسى ابن من، فقال تعالى ذلك أي عيسى، قول الحق أي قول الله أي موجودٌ بقوله: كن، وأما قوله: **فِيهِ يَمْتَرُونَ** فالضمير راجع على عيسى أو راجعٌ على قول الحق والإمتراء الشك، أي هو قول الحق الذي تشكون فيه أي في عيسى أو في قول الحق وذلك لأنهم كانوا يشكون في قدرة الله تعالى وأنه قادرٌ على إيجاد البشر من غير أب هذا ما فهمناه من الآية والله أعلم بكلامه.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

وهذه الآية في الحقيقة مفسرة لما قبلها وثبت ما ذكرناه وحاصل الكلام فيها أنه ليس كل من وجد بغير أب فهو ابن الله كما يزعم النصارى ففي الآية إشارة الى أمرين:

أحدهما: ما يستحيل في حقّه تعالى وهو إتخاذ الولد.

ثانيهما: أنه قادر على كل شيء ومنه إيجاد البشر من غير أب فقولُه: **مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ** إشارة إلى الأول وقوله: **إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** إشارة الى الثاني وهو عموم قدرته فنفي الله شيئاً وأثبت شيئاً وكلاهما حق لا مرية فيه أما الأول فلأن إتخاذ الولد لا يعقل إلا من الجسم الذي فيه الشهوة وهو تعالى منزّه عن الجسميّة ولوازمها ولذلك أتى بكلمة، سبحانه.

بسم القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ ثَابِتٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِثْبَاتِ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ قِبَلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ وَإِعْلَمُ أَنَّ السَّلَامَ مُصْدَرٌ سَلَّمْتُ سَلَاماً وَمَعْنَاهُ عُمُومُ الْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالسَّلَامُ جَمْعُ سَلَامَةٍ وَالسَّلَامُ إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَسَلَامٌ يَبْتَدَأُ بِهِ فِي التَّكْرَرِ لِأَنَّهُ يَكْثُرُ اسْتِعْمَالُهُ تَقُولُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ، وَأَسْمَاءُ يَحْسُنُ الْإِبْتِلَاءُ بِهَا لِأَنَّ فَائِدَتَهَا وَاحِدَةٌ وَلَمَّا جَرَى ذِكْرُ، سَلَامٌ، أُعِيدَ هَاهُنَا بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ لِيَرِدَ عَلَى الْأَوَّلِ إِنْتِهَى مَا أَفَادَهُ الْمَفْسَّرِينَ.

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

لَا كَلَامَ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْوَاوَ لِلْعُطْفِ وَإِخْتَلَفُوا فِي الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ عَلَى أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: وَأَوْصَانِي أَيَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَوْصَانِي بِكَذَا وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى، ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، أَيَّ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ مَوْضِعُهُ الرَّفْعُ بِأَنَّهُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ.

الثَّالِث: أَنَّ الْمَعْنَى وَقَضَى اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ.

الرَّابِع: التَّقْدِيرُ وَلِأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ، وَالْعَامِلُ فِيهِ فَأَعْبُدُوهُ.

الخَامِس: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، وَكَيْفَ كَانَ فَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا عُوجَ فِيهِ أَيَّ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَغَيْرَهُمَا وَأَمَّا قَالَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَلَمْ يَقُلْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ، لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنِّي مِثْلُكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَالزُّبُوبِيَّةِ فَلَا تَتَّخِذُونِي مَعْبُوداً فَأَنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ وَأَمَّا قَدَّمَ لَفْظَ الْجَلَالَةِ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ عَلَى الْأَصْحَ لِلذَّاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ الْمُسْتَجْمَعِ لِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ فَهُوَ أَيَّ مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ فَوْقَ مَقَامِ الْخَالْقِيَّةِ وَالزَّائِقِيَّةِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَفِي أَمْرِهِ لِلْعِبَادَةِ حَيْثُ قَالَ فَأَعْبُدُوهُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَنْعَمٌ عَلَيْكُمْ حَيْثُ خَلَقَكُمْ وَرَبَّكُمْ وَشُكْرُ الْمَنْعَمِ وَاجِبٌ عَقْلاً عَلَى الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ وَلَا نَعْنِي بِالشُّكْرِ الْحَقِيقِيِّ إِلَّا الْعِبَادَةَ وَالْمَعْرِفَةَ.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 الاختلاف في المذهب هو أن يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقد الأخرى و
 الأحزاب جمع حزب و الحزب الجمع المنقطع في رأيه عن غيره و المعنى
 اختلف أهل الكتاب في عيسى ففي هذه الآية إخبار من الله للرسول بتفرق
 بني إسرائيل فرقاً و قوله من بينهم يعني أن الاختلاف لم يخرج منهم و ذلك
 لأن سبب الاختلاف كان موجوداً فيهم و يحتمل أن يكون المراد بالأحزاب
 اليهود و النصارى و قال الحسن تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة
 عيسى اختلفوا فيه من بين الناس فالضمير في، بينهم، على هذا ليس عائداً
 على الأحزاب.

وقيل الأحزاب هنا المسلمون و اليهود و النصارى، و قال قتادة إن
 بني إسرائيل جمعوا أربعة من أحبارهم فقال أحدهم عيسى هو الله نزل إلى
 الأرض و أحيا من أحيا و أمات من أمات فكذبته الثلاثة و اتبعه اليعقوبية ثم قال
 أحد الثلاثة عيسى ابن الله فكذبته الاثنان و اتبعته النطورية و قال أحد الاثنان
 عيسى أحد ثلاثة، الله إله و مريم إله، و عيسى إله، فكذبته الرابع و اتبعته
 الإسرائيلية، و قال الرابع عيسى عبد الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه،
 فأتبعته فرقة من بني إسرائيل ثم إقتل الأربعة فغلب المؤمنون و ظهرت
 اليعقوبية على الجميع و فى ذلك نزلت إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ^(١) و
 الأربعة يعقوب و نظور و مليكا و إسرائيل إنتهى.

وقوله و مشهد، هو مفعول من الشهود و هو الحضور أو من الشهادة مصدراً و
 مكاناً و زماناً، فمن الشهود يجوز أن يكون المعنى من شهود هول الحساب و
 من الشهادة يجوز أن يكون المعنى من شهادة ذلك اليوم و أن تشهد عليهم
 الملائكة و الأنبياء و ألسنتهم و أيديهم بالكفر و اليوم العظيم يوم القيامة.

بني إسرائيل
 و في القرآن
 فليست
 القرآن

جزء ١٦

الجلد العاشر
 ع

وقال قتادة هو يوم قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب وقيل ما قالوه وشهد غرابة في عيسى وأمه يوم اختلفهم، وحاصل المعنى في الآية أنهم أي اليهود والنصارى أو جميع الناس اختلفوا في عيسى فمنهم من قال بألوهيته ومنهم من قال عيسى ابن الله وجميع هذه الأقوال كفر وإلحاد فويل لهؤلاء القوم من يوم الشهود وهو يوم القيامة.

وَأَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
قيل معناه ما أسمعهم وما أبصرهم على وجه التعجب والمعنى أنهم حلوا في ذلك محل من يتعجب منه وفيه تهديد وعيد أن يسمعون ما يصدع قلوبهم ويردّون ما يهيلهم، وقال الحسن و قتادة لأن كانوا في الدنيا صمّا عمياً عن الحقّ فما أسمعهم به وما أبصرهم به يوم القيامة هكذا فسروا الكلام تقدّم منّا البحث في قوله:

قال الله تعالى: فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ^(١).

قال الله تعالى: أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ^(٢).

وقلنا هناك أن التقدير خلاف الأصل و ظاهر الآية هو الأمر بالإبصار والإسماع وليس في الكلام ما يدلّ على التعجب هذا مضافاً إلى أن التعجب من الله تعالى لا معنى له والمراد بالبصر هاهنا ليس هو المماسّة بل المراد به البصيرة فقوله: أَبْصِرْ كناية تفهم المقصود بسبب الآيات والدلائل وقوله: أَسْمِعْ كناية عن إبلاغ الحكم لئلا يقولوا إنّا لم نسمع والمعنى إجعلهم على بصيرة وأتمم عليهم الحجّة بالتبليغ، يوم يأتوننا أي قل لهم يوم القيامة يوم عظيم هو يوم يقرّ المرء من أخيه وصاحبه وبنيه وبعبارة أخرى أبصرهم البيّنات والدلائل وأسمعهم المواعظ والآيات هذا ما وصل إليه فهمي القاصر والعلم عند الله.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَلَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فمعناه واضح إذ لا يملك أحد في يوم القيامة الأمر والنهي إلا الله تعالى.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
المراد بيوم الحسرة يوم القيامة سمي به لأن الظالم يتحسر فيه ويقول يا ليتني لم أفعل كذا وكذا كما حكى الله تعالى في كتابه:
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ^(١).

قال الله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا^(٢).

وإذا كان يوم القيامة يوم الحسرة والندامة والعقل حاكم بأن الحسرة بعد الوقوع في التهلكة لا فائدة فيها فينبغي التحرز منها قبل الوقوع فيها فأن الدفع أسهل وأيسر من الرفع ولأجل ذلك أمر الله أنبياءه بالإنذار وفي قوله: إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ إشارة إلى ما ذكرناه وأنهم كانوا في الدنيا غافلين عما سيقع بهم بعد موتهم فلم يؤمنوا فيها هذا الكلام إشارة إلى أن الغفلة منشأ الشرور والأفات وهو كذلك.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ
أخبر الله تعالى في هذه الآية عن نفسه فقال إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا فان أي لا يبقى منهم أحدٌ عليها وإلينا يرجعون كلهم يوم القيامة وفيه إشارة إلى فناء الموجودات وبقاء:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٣).

قال الله تعالى: **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.**

و لنُشر إلى شطرٍ من الأخبار الواردة في قصّة عيسى تيمناً وتبركاً بها فنقول:
روى في البحار بأسناده عن أبي بصير قال: لأبي عبد الله عليه السلام لم
خلق الله عيسى من غير أبٍ وخلق سائر الناس من الآباء والأمهات
فقال عليه السلام ليعلم الناس تمام قدرته وكمالها وليعلموا أنّه قادرٌ على
أن يخلق خلقاً من أنثى من غير ذكرٍ كما أنّه قادر على أن يخلقه من
غير ذكرٍ والأنثى وأنّه عزّ وجلّ فعل ذلك ليعلم أنّه على كلّ شيءٍ
قدير إنتهى.

و بأسناده عن الأصول قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرّوح التي
في آدم في قوله: **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا** ^(١) قال عليه السلام
هذه روحٌ مخلوقة و الرّوح التي في عيسى مخلوقة إنتهى.
و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: أنّ مريم حملت بعيسى
عليه تسع ساعات كلّ ساعةٍ شهراً إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: أنّ الصّيام ليس من الطّعام و
الشّراب وحده ثمّ قال عليه السلام قالت مريم إنّي نذرت للرّحمن صوماً، أي
صمتاً، إنتهى ^(٢).

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: و قد ذكر يوم
عاشوراء و هذا اليوم الذي ولد فيه عيسى ابن مريم و الحديث طويل.
و في كتاب سعد السّعود بأسناده عن المغيرة بن شعبة و قد بعثه
النّبي إلى نجران فقالوا ألسّتم تقرّأون (يا أخت هارون) و بينهما كذا
و كذا فنذكر ذلك للنّبي صلّى الله عليه وآله ألا قلت لهم أنّهم كانوا يسمّون
بأنبيائهم و الصّالحين منهم إنتهى.

وفي كتاب معاني الأخبار بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ^(١) قال نفاعاً إنتهى.

وفي أصول الكافي بأسناده عن بريد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى بن مريم حين يكلم في المهد حجة الله على أهل زمانه فقال عليه السلام كان يومئذ نبياً حجة الله خير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال إني عبدُ الله أتيني الكتابُ وجعلني نبياً، ما دُمْتُ حياً^(٢) قلت فكان يومئذ حجة لله على زكريا في تلك الحال وهو في المهد فقال عليه السلام كان عيسى في تلك الحال آية لله ورحمة منه لمريم حين يكلم فعبر عنها و كان نبياً وحجة على من سمع كلامه في تلك الحال ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان و كان زكريا حجة لله عزَّ وجلَّ بعد صمت عيسى لسنتين ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عزَّ وجلَّ: يا يحيى خذ الكتاب بقوة و آتيناك الحكم صبياً^(٣) فلما بلغ سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله إليه فكان يعني الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم وأسكنه الأرض والحديث طويل أخذنا موضع الحاجة.

وبأسناده عن صفوان ابن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول يهب الله لي غلاماً فقد وهب الله لك فقر عيوننا فلا أرانا الله يومك فأن كان كون مالي من، فأشار بيده الى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه فقلت

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين قال عليه السلام وما يضره من ذلك شيء قد قام عيسى بالحجة و هو ابن ثلاث سنين إنتهى...

الحسين بن محمد الخירاني عن أبيه قال: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن بخراسان فقال له قائل يا سيدي أن كان كون فإلى من، قال عليه السلام: الى أبي جعفر إبنني فكأن القائل إستصغر سنّ أبي جعفر عليه السلام فقال أبو الحسن أنّ الله تبارك و تعالى بعث عيسى ابن مريم رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر عليه السلام إنتهى.

و بأسناده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عن أفضل ما يتقرب به العباد الى ربهم وأحب ذلك الى الله ما هو فقال عليه السلام: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلوة ألا ترى أنّ العبد الصالح عيسى ابن مريم عليه السلام قال وَأَوْضَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم قال الصادق عليه السلام في هذه الآية: (وَأَوْضَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) قال عليه السلام: زكاة الرأس لأنّ كلّ الناس ليست لهم أقوال و أنما الفطرة على الفقير و الغني و الصغير و الكبير إنتهى.

و في عيون الأخبار بأسناده عن الصادق عليه السلام حديث طويل في تعداد الكبائر و منها عقوق الوالدين لأنّ الله عزّ وجلّ جعل العقاق جباراً شقيّاً في قوله تعالى حكايةً عن عيسى: وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا^(١) إنتهى^(٢).

■

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا
 (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ
 لَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي
 قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
 صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ
 الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي
 أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
 لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهِتَى
 يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي
 مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي
 إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
 بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا
 يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ
 يَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ
 رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

اللغة

سَوِيًّا: أي معتدلاً.

مَلِيًّا: أي دهنراً، وقيل سليماً سَوِيًّا.

حَفِيًّا: الحفي بفتح الحاء وكسر الفاء اللطيف لعموم النعمة.

المجلد الحادي عشر

◀ الإعراب

إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ إِذْ ظَرْفٍ وَالْعَامِلُ فِيهِ صَدِيقًا نَبِيًّا أَرَأَيْتَ أَنْتَ مَبْتَدَأٌ وَخَبِرَ وَأَنْتَ فَاعِلُهُ وَأَغْنَى عَنِ الْخَبَرِ وَجَازُ الْإِبْتِدَاءِ بِالنُّكْرَةِ لِإِعْتِمَادِهَا عَلَى الْهَمْزَةِ وَمِثْلًا ظَرْفُ أَيِّ دَهْرًا طَوِيلًا وَقِيلَ هُوَ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ وَكُلًّا جَعَلْنَا هُوَ مَنْصُوبٌ بِجَعَلْنَا.

◀ التفسير

وَ أَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

و أذكر يا محمد أي أتلى عليهم نبأ إبراهيم و ذاكره و موره في التنزيل هو الله تعالى و مناسبة هذه الآية لما مثلها أنه تعالى لما ذكر قصة مريم و ابنها عيسى و إختلاف الأحزاب فيهما و عبادتهما من دون الله من قبيل من قامت بهما الحياة ذكر الفريق الضال الذي عبد جماداً و الفريقان و إن إشتراكا في الضلال، فالفريق العابد للجماد أضلّ ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام تذكيراً للعرب بما كان إبراهيم عليه من توحيد الله و قوله: صِدِّيقًا نَبِيًّا، فالصديق من أبنية المبالغة و هو مبنًى من الثلاثي للمبالغة أي كثير الصدق و يقابله الكذب وصف الله تعالى إبراهيم بالصدق على العموم في أقواله و أفعاله.

قال الزمخشري المراد فرط صدقه و كثرة ما صدق به من غيوب الله و آياته و كتبه و رسله و كان الرجحان و الغلبة في هذا التصديق لكتبه و الرسل أي كان مصدقاً لجميع الأنبياء و كتبهم و كان نبياً في نفسه.

إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا قَالَ الطَّبْرَسِيُّ قد بينا فيما مضى أنّ الذي يقوله أصحابنا أنّ هذا الخطاب من إبراهيم أنما توجه الى من سمّاه الله أباً له لأنّه كان جدّ إبراهيم من أمّه و أنّ أباه الذي ولده كان اسمه تارخ لإجتماع الطائفة على أنّ آباء الأنبياء

إلى آدم كلهم مسلمون موحّدون و لما روي عنه عليه السلام أنّه قال لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام المطّهرين حتّى أخرجني في عالمكم هذا و الكافر غير موصوف بالطّهارة لقوله تعالى: **إِنَّمَا الْأُفْشِرُكُونُ نَجَسٌ** ^(١) إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما ذكره عليه السلام حقّ لا مرية فيه و قد إنتفتت الشّيعة تبعاً لأئمتهم على ذلك و قد ورد في زيارة الحسين عليه السلام: أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشّامخة و الأرحام المطّهرة لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلّهمات ثيابها الخ.

هذا و أمّا العامّة فقد حملوا اللفظ على ظاهره و قالوا أنّ أباه أزر كان كافراً و قد أجمعوا في تفاسيرهم على ذلك فعلى قولهم كان أذر أباً لأبراهيم حقيقياً، و لنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول إذ قال إبراهيم لأبيه، أزر، يا أبت، أي يا أبي و دخلت التاء للمبالغة في تحقيق الإضافة **لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ** إستفهم إبراهيم عن السّبب الحامل لأبيه على عبادة الصّنم و هو منتفٍ عنه السّمع و البصر و الإغناء عنه شيئاً تنبيهاً على شناعة الرأى و قبحه و فساده في عبادة من إنتفت عنه هذه الأوصاف و توضيح الكلام بحيث الإجمال أنّ المعبود ينبغي أن يسمع دعاء العابد و يبصر عمله ليجزيه عليه ثواباً و عقاباً، و أن يكون ملاذاً و ملجأ في الشّدائد و يجيب دعوة المضطرّ إذا دعاه و أن يفرج له بعد الشّدة و من المعلوم أنّ هذه الأمور متوقّفة على الإدراك و أمّا الأصنام و الأوثان و الأحجار و أمثالها من الجمادات التي لا إدراك لها و لا شعور كيف يعقل أن تتّصف بهذه الأمور و ما ليس متّصفاً بها كيف يعبد، و (ما) في لا يسمع قيل أنّها موصولة بمعنى الذي و قيل أنّها نكرة موصوفة و معمول، يسمع و يبصر، منسّي و لا ينوي أي ما ليس به إستماع و لا إبصار لأنّ المقصود نفي هاتين الصّفتين دون تقييد بمتعلّق، و قوله: **شَيْئاً** أمّا مصدر أو مفعول به.

في القرآن
في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا

لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ الْعِلَّةِ فِي عِبَادَةِ الصَّنَمِ وَلَمْ يَجِدْ جَوَابًا إِذْ لَمْ يَقْدِرْ آزَرَ عَلَى
الْجَوَابِ إِنَّتَقَلَ مَعَهُ إِلَى إِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِهِ وَلَمْ يَصِفْ أَبَاهُ
بِالْجَهْلِ صَرِيحًا إِذْ يَغْنِي عَنْهُ السُّؤَالُ السَّابِقُ مِضَافًا إِلَى مِرَاعَاةِ الْأَدَبِ فِي
الْكَلَامِ وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **أُذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ**
جَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(١)، وَ، فِي قَوْلِهِ مِنَ الْعِلْمِ لِلتَّبَعِضِ أَيْ أَتَأْتِي مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ لَيْسَ مَعَكَ فَاتَّبِعْنِي عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ وَأَرْفُضِ
الْأَصْنَامَ وَعِبَادَتَهُمَا أَهْدُكَ صِرَاطًا سَوِيًّا أَيْ مُسْتَقِيمًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ وَ هُوَ
الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِيَادَ لَهُ فِي أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ قَالَ: **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ**
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

و هَذَا الْكَلَامُ فِي الْحَقِيقَةِ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** وَ قَدْ مَرَّ
الْكَلَامُ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَمْدِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَ إِنْتَقَلَ مِنْ أَمْرِهِ بِاتِّبَاعِهِ إِلَى
نَهْيِهِ عَنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ فَقَالَ: **يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ**
لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا حَيْثُ اسْتَعَصَى حِينَ أَمَرَهُ بِالسَّجُودِ لِأَدَمَ فَابَى فَهُوَ عَدُوٌّ لَكَ وَ
لَأَبِيكَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ وَ الْعَاقِلُ لَا يَعْبُدُ عَدُوَّهُ، إِنْ قُلْتَ، أَنَّهُ مَا كَانَ عَابِدًا لِلشَّيْطَانِ
بَلْ كَانَ عَابِدًا لِلصَّنَمِ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: **لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ**.

قُلْتَ عِبَادَةُ الصَّنَمِ وَ الْوَثْنِ وَ بِالْجُمْلَةِ عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ عِبَادَةُ
الشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ**
مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قِيلَ، أَخَافُ، هَاهُنَا بِمَعْنَى أَعْلَمُ فَخَشِينَا
أَنْ يُزْهِقَهُمَا^(٢).

أَي عَلِمْنَا أَنْ يَمْسَكَ وَيُلْحَقَكَ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى إِشْرَاكَكَ مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ غَيْرِهِ وَتَمَى فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ كُنْتَ وَلِيًّا لِلشَّيْطَانِ أَي نَاصِرًا وَمُسَاعِدًا لَهُ فَأَنَّ التَّابِعَ نَاصِرٌ لِمَتَّبِعِهِ لَا مُحَالَةَ وَلِذَلِكَ يَتَّبِعُهُ وَقِيلَ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ وَالتَّقْدِيرُ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ وَلِيًّا فِي الدُّنْيَا لِلشَّيْطَانِ فَيَمْسَكَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ وَقِيلَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْينَ أَنَّ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَحْمَلَ الْعَذَابَ عَلَى الْخِذْلَانِ مِنَ اللَّهِ فَيَصِيرُ مَوَالِيًّا لِلشَّيْطَانِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَسًّا الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا فَأَنْ يَبْتَلِيَ عَلَى كُفْرِهِ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا فَيَكُونَ ذَلِكَ الْعَذَابَ سَبَبًا لِمَتَمَادِيهِ عَلَى الْكُفْرِ وَصِرُورَتِهِ إِلَى وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى أَنْ يُوَافِيَ عَلَى الْكُفْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ^(١) وَكَيْفَ كَانَ فَهَذِهِ الْمُنَاصِحَاتُ تَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِمَعَالِجَةِ أَبِيهِ وَالطَّمَعِ فِي هِدَايَتِهِ قَضَاءً لِحَقِّ الْآبُوَّةِ وَإِرْشَادًا إِلَى الْهُدَى لِقَوْلِهِ **وَاللَّهُ يَهْدِي اللَّهُ لِكُلِّ رَجُلٍ** خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا

قَالَ، أَرَارَ، أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ، أَي أَتَارَكَ أَنْتَ وَزَاهَدًا فِي عِبَادَةِ آلِهَتِي، ثُمَّ قَالَ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ أَي أَنْ لَمْ تَمْتَنِعْ مِنْ ذَلِكَ لَأَرْجُمَنَّكَ، أَي لَأُرْمِيَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَبَاعِدَ عَنِّي وَقِيلَ لَأُرْمِيَنَّكَ بِالذَّمِّ وَالْعَيْبِ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا، أَي سَوِيًّا سَلِيمًا مِنْ عُقُوبَتِي وَقِيلَ ذَهْرًا، وَالْهَجْرُ التَّرْكُ أَي أَتْرَكْنِي وَبَاعَدَ عَنِّي حَتَّى لَا أَرَاكَ وَهُوَ كِتَابِيَّةٌ عَنْ طَرْدِهِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ نَفْسِهِ وَمِنْ هَذَا الْكَلَامِ نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ مُرٌّ عَلَى الْأَسْمَاعِ فَضْلًا عَنِ الْعَمَلِ بِهِ.

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ قَدَّمَ الْخَبَرَ عَلَى الْمُبْتَدَأِ فِي قَوْلِهِ: **أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي** لِأَنَّهُ كَانَ أَصَمَّ عَبْدَهُ وَفِيهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّعَجُّبِ وَالْإِنْكَارِ لِرَغْبَتِهِ عَنْ آلِهَتِهِ

وَأَنَّ إِلَهَهُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْغَبَ عَنْهَا أَحَدٌ وَفِي هَذَا سُلْوَانٍ وَتَلَجَّ لِصَدْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَلْقَى مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ كَفَّارِ قَوْمِهِ إِنَّتَهَى.

أَقُولُ ما ذكره في إعراب الكلام أنكره بعض المفسرين حيث قال والمختار في إعراب، أَرَاغِبُ أَنْتَ أَنْ يَكُونَ رَاغِبٌ مُبْتَدَأٌ لِأَنَّهُ قَدْ اعْتَمَدَ عَلَى أَدَاةِ الْإِسْتِفْهَامِ وَأَنْتَ فَاعِلٌ سَدَّ مَسَدَ الْخَبَرِ وَيَتَرَجَّحُ هَذَا الْإِعْرَابُ عَلَى مَا أَعْرَبَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ بَوَجْهِينَ:

أحدهما: أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ إِذْ رُتِبَ الْخَبَرُ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنِ الْمُبْتَدَأِ.

الثاني: أَنْ لَا يَكُونُ فَصْلٌ بَيْنَ الْعَامِلِ الَّذِي هُوَ أَرَاغِبُ وَبَيْنَ مَعْمُولِهِ الَّذِي هُوَ عَنْ آلِهِتِي، بِمَا لَيْسَ بِمَعْمُولٍ لِلْفَاعِلِ لِأَنَّ الْخَبَرَ لَيْسَ هُوَ عَامِلًا فِي الْمُبْتَدَأِ بِخِلَافِ كَوْنِ أَنْتَ فَاعِلًا فَاتَهُ مَعْمُولُ أَرَاغِبُ فَلَمْ يَفْصَلْ بَيْنَ، أَرَاغِبُ وَبَيْنَ عَنْ آلِهِتِي بِأَجْبَتِي أَنَّمَا فَصْلٌ بِمَعْمُولٍ لَهُ وَلَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِ رَغْبَتَهُ عَنْ آلِهِتِهِ تَوَعَّدَهُ مُقْسِمًا عَلَى إِنْفَازِ مَا تَوَعَّدَ بِهِ أَنْ لَمْ يَنْتَهَ إِنَّتَهَى.

وِإِخْتَلَفُوا فِي الرَّحْمِ فَقَالَ قَوْمٌ أَيُّ لَأَقْتُلَنَّكَ، وَ قَالَ قَوْمٌ أَيُّ لَأَشْتُمَنَّكَ لَأَرْجُمَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ.

فَأَنْ قُلْتَ عَلَامَ عَطْفٍ وَ أَهْجَرَنِي.

قُلْتَ عَلَى مَعْطُوفٍ عَلَيْهِ مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ لَأَرْجُمَنَّكَ أَيُّ فَبَاحْذَرْنِي وَ أَهْجَرَنِي لِأَنَّ لَأَرْجُمَنَّكَ تَهْدِيدٌ وَ تَقْرِيعٌ وَ أَنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِيُنَاسِبَ بَيْنَ جُمْلَتِي الْعَطْفِ وَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ وَ قَوْلِهِ: مَلِيًّا إِنْتَصَبَ عَلَى الظَّرْفِ أَيُّ دَهْرًا طَوِيلًا الْمُلُوانِ وَ هُمَا اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الْمَلَاوَةُ بِتَثْلِيثِ حَرَكَةِ الْمِيمِ، الدَّهْرُ الطَّوِيلُ مِنْ قَوْلِهِمْ أَمْلَيْتَ لِفُلَانٍ فِي الْأَمْرِ إِذَا أَطْلَتَ لَهُ قَالَ الشَّاعِرُ:

فَعْنَا بِهَا مِنَ الشَّبَابِ مَلَاوَةً فَالْحَجَّ آيَاتُ الرَّسُولِ الْمُحِبِّ
وَ قِيلَ مَعْنَاهُ أَبَدًا، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَتَصَدَعَتْ صَمَّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمَرَمَلَاتُ مَلِيًّا

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا

قرأ أبو البر، سلاماً، بالنصب، والجمهور بالرفع وهو الأصح قالوا هذا بمعنى المسالمة لا بمعنى التحية أي أمتته مني لك و أما قالوا ذلك لأنهم لا يجوزون ابتداء الكافر بالسّلام وقال النقاش، حليم خاطب سفيهاً كقوله: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا^(١) وقيل أنه دعاء له بالسّلامة على سبيل الإستمالة ثم وعده بالإستغفار وذلك يكون بشرط حصول ما يمكن معه الإستغفار وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبادة وهذا كما يرد الأمر والنهي على الكافر مع أنه لا يصح الإمتثال إلا بشرط الإيمان.

وقال الشيخ رحمه الله في التبيان، سلامٌ عليك، أي سلامة عليك أي إكرام وبر بحق الآبوة وشكر التربية وقال ذلك على وضع التواضع له ولين الجانب لموضعه إنتهى.

وهذا هو الحق إذ لا نعني بقوله: أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(٢) إلا هذا وأما قوله سأستغفر لك ربّي فمعناه أنه وعده بالإستغفار على مقتضى العقل وهو ممّا لا إشكال فيه.

وقال قوم أنه وعده بالإستغفار بشرط تركه عبادة الأوثان ولذلك قال سأستغفر لك أي في المستقبل ولم يقل أستغفر لك، وقيل معنى الكلام أَدْعُو اللَّهَ فِي هِدَايَتِكَ فَيَغْفِرَ لَكَ بِالْإِيمَانِ فَأَنْ إِبراهيم كان يعلم أن اللَّه لا يغفر للكافر مادام كونه كافراً وقوله: إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا أي إن اللَّه كان بي رحيمًا، حليمًا، وقيل بارًا، وقيل الحفي المكرم المحتفل الكثير البر والألطف.

وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

لَمَّا أَمَرَهُ آزَرَ بِهَجْرِهِ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ فِي قَوْلِهِ: **وَأَهْجُزْنِي مَلِيًّا**، أَخْبَرَهُ إِبْرَاهِيمَ بِأَنَّهُ يَتِمُّثَلْ أَمْرُهُ وَيَعْتَزَلُهُ وَقَوْمُهُ وَمَعْبُودَاتُهُمْ فَهَاجَرَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى الشَّامِ وَقِيلَ إِلَى حِرَّانَ بِأَرْضِ كُوشَاءَ، وَفِي هِجْرَتِهِ هَذِهِ تَزَوَّجَ سَارَةَ وَلَقِيَ الْجَبَّارَ الَّذِي أَخْدَمَ سَارَةَ هَاجِرَ وَقَوْلُهُ أَدْعُو رَبِّي قِيلَ مَعْنَاهُ وَأَعْبُدْ رَبِّي كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الدُّعَاءُ الْعِبَادَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** وَ يَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِالْدُّعَاءِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الشَّعْرَاءِ، رَبِّ هَبْ لِي حَكَمًا إِلَى آخِرِهِ، وَقَوْلُهُ: **عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا** قِيلَ فِيهِ تَعْرِيفُ آخَرٍ بِشَقَاوَتِهِمْ بِدُعَاءِ آلِهَتِهِمْ مَعَ التَّوَاضُعِ لِلَّهِ فِي كَلِمَةِ عَسَى، وَ مَا فِيهِ مِنْ هُضْمِ النَّفْسِ وَفِي عَسَى، تَرَجُّعٌ فِي ضَمْنِهِ خَوْفٌ شَدِيدٌ.

فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا

أَيَّ فَلَمَّا إِعْتَزَلَهُمْ إِبْرَاهِيمَ أَيَّ فَارَقَهُمْ وَ أَرْضَهُمْ وَ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ، وَ هَبْنَا لَهُ أَيَّ أَنْسَنَا وَحَشْتَهُ بِأَوْلَادِ كِرَامٍ عَلَى اللَّهِ رَسُلَ اللَّهِ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَنْبِيَاءَ فَوَلَدَ لَهُ إِسْحَاقُ وَ ابْنُهُ يَعْقُوبُ تَسْلِيَةً لَهُ وَ شَدَادًا لِعُضْدِهِ وَ إِسْحَاقُ أَصْغَرُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ وَ لَمَّا حَمَلَتْ هَاجِرَ بِإِسْمَاعِيلَ غَارَتْ سَارَةُ ثُمَّ حَمَلَتْ بِإِسْحَاقَ.

وَ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا الْمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ النَّبُوءَةُ وَقِيلَ الْمَالُ وَالْوَلَدُ، وَ الْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا خَيْرَ الدِّينِيِّ وَ الدُّنْيَوِيِّ مِنَ الْعِلْمِ وَ الْمَنْزِلَةِ وَ الشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا وَ النِّعَمِ فِي الْآخِرَةِ وَ لِسَانَ الصَّدَقِ الثَّنَاءُ الْحَسَنَ الْبَاقِي عَلَيْهِمْ آخِرُ الْأَبَدِ وَ عَبَّرَ بِاللِّسَانِ كَمَا عَبَّرَ بِالْيَدِ عَمَّا يَطْلُقُ بِالْيَدِ وَ هِيَ الْعَطِيَّةُ وَ اللَّسَانُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الرِّسَالَةُ الرَّائِعَةُ كَانَتْ فِي خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنِّي أَتْنِي لِسَانَ لَا أَسْرَ بِهَا

و قال آخر:

ندمت على لسانٍ كان مِنِّي

و لسان العرب لغتهم و كلامهم إستجاب الله دعوته فصَّيره قدوة حتَّى عَظَّمه أهل الأديان كلَّهم و إدَّعوه فقال تعالى مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ و مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، و أعطى ذلك ذَرِيَّتَهُ فَأَعْلَى ذَكَرَهُمْ و أَثْنَى عَلَيْهِمْ.

أقول في هذه الآيات دلالة على أَنَّ الإنسان إذا دعا قومه إلى الحقِّ و أنكره فلا يعتزل عنهم ممدوح و ذلك أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إعتزلهم بعد إنكارهم الدَّعوة. ففي كتاب علل الشَّرائع بأسناده قال إحتجَّوا في مسجد الكوفة فقالوا ما بال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يَنَازِعِ الثَّلَاثَةَ (أبو بكر وعمر وعثمان) كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية فبلغ ذلك عليًّا، فأمر أن ينادي الصَّلَاة جامعة فلمَّا إجتمعوا صعد المنبر فحمد الله و أَثْنَى عليه ثُمَّ قال:

قلنا ذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ لِي بَسْتَةٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَسُوءَ فِعْلًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءٌ حَسَنَةً قَالُوا و مِنْ هُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُهُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ قَالَ لِقَوْمِهِ، و أَعْتَزَلَكُمْ و مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَأَنْ قُلْتُمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إَعْتَزَلَ قَوْمَهُ لَغَيْرِ مَكْرُوهِ أَصَابَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ كَفَرْتُمْ و أَنْ قُلْتُمْ إَعْتَزَلَهُمْ لِمَكْرُوهِ رَأَاهُ مِنْهُمْ فَالْوَصِي أَعْذَرُ.

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة إنتهَى.

بَيَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجْهَ إِعْتَزَالِهِ عَنِ الْقَوْمِ و هو وصول المكروه منهم إليه و لا شَكَّ أَنَّ المراد من المكروه هو إنكارهم عليه لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ و فعل المعصوم حِجَّةٌ كَمَا ثَبَتَ فِي مَحَلِّهِ.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ رحم الله عبد طلب من الله عز وجل حاجة فألح في الدعاء أستجيب له أو لم أستجيب وتلى هذه الآية: وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا.

و في تفسير علي بن إبراهيم، فلما اعتزلهم يعني إبراهيم و ما يعبدون من دون الله إلى قوله: مِنْ رَحْمَتِنَا يعني لإبراهيم و إسحاق ويعقوب من رحمتنا رسول الله و جعلنا لهم لسان صدقٍ علياً، يعني أمير المؤمنين عليه السلام حدثني بذلك أبي عن الحسن بن علي العسكري عليه السلام انتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين لسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خيراً من المال يأكله و يورثه الحديث بطوله إنتهى^(١).



وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ
كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ وَفَرَّغْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَهَبْنَا لَهُ مِنْ
رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَأَذْكُرُ فِي
الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ
رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ
الزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَأَذْكُرُ فِي
الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَ
رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا
مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ
هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ
خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ
يَلْقَوْنَ عَذَابًا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ
عَاشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا
مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا
بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ

رَبُّكَ نَسِيًّا (٤٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ
سَمِيًّا (٤٥)

◀ اللغة

الطُّور: بِضَمِّ الطاء جبل بالشَّام.
نَجِيًّا: أي إختصه بكلامه.
وَاجْتَبَيْتُمَا: الإجتباء والإختيار.
فَخَلَفَ: أي ترك.
غِيًّا: الغي بفتح الغين الشر والخيبة.

◀ الإعراب

نَجِيًّا هو حال و هارون بدل و نبيًّا حال مَكَانًا عَلِيًّا ظرف مِنْ دُرِّيَّةِ آدَمَ هو
بدل من النبيين بإعادة الجار و سُجَّدًا حال مقدرة بُكِيًّا أيضاً كذلك جَنَاتِ
عَدْنٍ من كسر التاء بدله من الجنة في الآية قبلها و من رفع فهو خبر مبتدأ
محذوف إِنَّهُ كَانَ وَعَدُهُ مَأْتِيًّا الهاء ضمير إسم الله و يجوز أن تكون ضمير
الشأن و وَعَدُهُ بدل منه بدل الإشتمال.

◀ التفسير

وَ أَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَوْسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا
قرأ الكوفيون مخلصاً، بفتح اللام أي أخلصه الله للعبادة و النبوة كما قال
تعالى إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ يُكَزِّي الدَّارِ^(١) و قرأ باقي السبعة و الجمهور
بكسر اللام أي أخلص العبادة عن الشُّرك و الرياء أو أخلص نفسه و أسلم وجهه

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد العاشر عشر

لله والمعنى و أذكر يا محمد في الكتاب موسى ابن عمران أنه كان مخلصاً في عبادته و رسالته و قوله: كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، إشارة الى أنه صاحب كتاب و شريعة أرسله الله تعالى الى عباده كغيره من المرسلين و في هذا الكلام دلالة على أن موسى كان رسولاً و نبياً، أي أعطاه الله مقام الرسالة و النبوة معاً لا أنه كان نبياً فقط مثل هود و صالح و إدريس و أمثالهم.

إن قلت قوله: وَكَانَ رَسُولًا، مغنٍ عن قوله: نَبِيًّا، لأن كل رسولٍ نبيٌّ و لا عكس.

قلت لعل الوجه في ذكر النبي بعد الرسول إشارة الى خروج الملائكة لأن الرسول يطلق على الملك كما يطلق على البشر:

قال الله تعالى: يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ (١).

قال الله تعالى: جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا (٢).

قال الله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى (٣) والآيات كثيرة.

و على هذا فقوله نبياً، يدل على أنه كان رسولاً من جنس البشر لأن الملك لا يكون نبياً و الله أعلم.

نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا

ندائه إيّاه هو تكليمه تعالى إيّاه و الطور الجبل المشهور بالشّام و الظاهر أن الأيمن منفذ للجانب لقوله في الآية الأخرى، جانب الطور الأيمن بنصب الأيمن نعتاً لجانب الطور و الجبل نفسه لا يمتدة و لا يسرة و لكن كان على يمين موسى بحسب وقوفه فيه و أحتمل بعضهم أن يكون صفة للطور إذ معناه الأسعد المبارك.

نبأ القرآن في تفسيره

جزء ١٦

الجبل العادي

قلت فعلى هذا هو مشتق من اليمن و البركة أي كان الطور مباركاً هذا و الجمهور على أنه صفة للجانب أي أنه تعالى ناداه من ناحيته اليمنى يمين موسى و قوله قَرَيْنَاهُ نَجِيًّا، إختلفوا في معنى المراد من المَقْرَب فقال الجمهور تقرب التَّشْرِيف و قال ابن عَبَّاس أدنى موسى من الملكوت و رفعت له الحجب حتَّى سمع صريف الأقلام، و قال سعيد أردفه جبرئيل عَلَيْهِ السَّلَام و قال الزَّمخشرى شَبَّهَ بمن قَرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلَّمه بغير واسطة ملك إنتهى.

و نَجِّي فعيل من المناجاة بمعنى مناج كالجليس و قال قتادة معنى نجاة صدقه.

أقول المراد بالقرب في الآية هو القرب المعنوي الذي يحصل للإنسان بسبب الإخلاص في العبودية كما يقال فلانٌ مَقْرَب عند الله و أمّا ما نقلوه عن ابن عَبَّاس أن موسى رفعت له الحجب حتَّى سمع صريف الأقلام فهو كلام لا طائل تحته إذ ليس هناك صرِيْق حتَّى يسمع و لتوضيح ذلك نقول القرب و البعد يتقابلان و يستعمل ذلك في المكان و يعبر عنه بالقرب المكانى.

قال الله تعالى: وَ لَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (١).

قال الله تعالى: وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ أَلْيَتَيْمٍ (٢).

قال الله تعالى: وَ لَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ... (٣).

قال الله تعالى: فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ غَائِبِهِمْ هَذَا (٤).

و يستعمل في الزمان و يعبر عنه بالقرب الزماني و منه:

قال الله تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ (٥).

قال الله تعالى: وَ إِنِ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (٦).

وقد يستعمل في النسبة:

قال الله تعالى: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَأَلْيَتَايَ (١).

قال الله تعالى: أَلْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ (٢).

قال الله تعالى: وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (٣) وأمثالها منها.

وقد يستعمل في الخطوة:

قال الله تعالى: وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ (٤).

وقوله في عيسى عليه السلام.

قال الله تعالى: وَجِبْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٥).

قال الله تعالى: نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٦).

قال الله تعالى: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٧).

وهكذا قد يستعمل في الرعاية:

قال الله تعالى: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٨).

قال الله تعالى: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ (٩).

قال الله تعالى: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ (١٠).

إذا عرفت هذا فقد علمت أن قوله وَ قَرِيبَانَهُ نَجِيًّا من قبيل قوله تعالى في عيسى و الملائكة حيث وصفهم بالقرب و يحتمل أن يكون المراد بالقرب هو حذف الوساطة في التكلم في قوله: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١١) أي بدون الوساطة و هو من أعلى مراتب القرب وَ هَبْنَاهُ لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا الهبة أن تجعل ملك لغيرك بغير عوض يقال وهبته هبةً و موهبتاً و موهباً، و

بِالْقُرْبَىٰ
وَالْأَقْرَبُونَ
وَالْمُقَرَّبُونَ
وَالْمُقَرَّبِينَ

جزء ١٦

الجدول العادي
الجزء ١٦

٢- النساء = ٧

٤- النساء = ١٧٢

٦- الاعراف = ١١٤

٨- الاعراف = ٥٦

١٠- الواقعة = ٨٥

١- النساء = ٨

٣- المائدة = ١٠٦

٥- آل عمران = ٤٥

٧- المطففين = ٢٨

٩- البقرة = ١٨٦

١١- النساء = ١٦٤

قد تكون الهبة بعوض و يعبر عنها بالهبة المعوضة كما يعبر عن الأولى بغير المعوضة و ما نحن فيه من القسم الأول لأن مواهب الله تعالى تكون بلا عوض لأنها على أساس الجود الذي لا عوض فيه و لا غرض فقله أو أحيانا له، إشارة إلى أن هارون كان من مواهب الله أعطاه لموسى ليكون له عضداً و وزيراً، قال الله تعالى: **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا**^(١) و قوله **مِنْ رَحْمَتِنَا**، فكان، من، نشأته أو تبعيضته أي أنها نشأت من رحمتنا التي هي قريب من المحسنين و قوله: **نَبِيًّا**، إشارة إلى أنه أي هارون كان نبياً، لو كان حياً بعد موسى إلا أنه مات قبله و الكلام مشعر بأن هارون كان شريكاً له في النبوة إلا أن ظهور النبوة و فعليتها كان مشروطاً ببقاء بعد موسى و إلى هذا المعنى أشير بقوله **يَا عَلِيُّ أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى** إلا أنه لا نبي بعدي. و قد مر الكلام في قصة موسى و ولادته و سيأتي تفصيل الكلام في سورة القصص إنشاء الله و يظهر من الأخبار أن الله تعالى كما قرب موسى نجياً، قرب علياً عليه السلام نجياً.

في بصائر الدرجات بأسناده عن حمران قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام فذاك بلغني أن الله تبارك و تعالى ناجى علياً قال عليه السلام أجل قد كان بينهما مناجاة بالطائف نزل بينهما جبرئيل عليه السلام إنتهى. و بأسناده عن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم الطائف ناجى رسول الله ﷺ علياً فقال أبو بكر و عمر إن تجيته دوننا فقال ﷺ ما إن تجيته بل الله ناجاه إنتهى.

وَ أَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا. أي و أذكر يا محمد في الكتاب الذي هو القرآن أيضاً إسماعيل و هو ابن إبراهيم الخليل أبو العرب فإن المشهور أنه أول من تكلم بالعربية قول

الجمهور، و قيل المراد به هو إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فشجوا جلدة رأسه فخيره الله فيما شاء من عذابهم فاستغفاه و رضي بثوابه و فوَّض أمرهم إليه في عفوه و عقوبته و صدق وعده أنه كانت مواعيد الله للناس توفى بالجميع فلذلك خصَّ بصدق الوعد قيل لم يعد ربّه موعدة إلا أنجزها فمن مواعيده الصبر و تسليم نفسه للذَّبْح و وعد رجلاً أن يقيم بمكانٍ فغاب عنه مدّة قيل سنة و قيل اثني عشر يوماً فقال برحت من مكانك فقال لا و الله ما كنت لأخلف موعدي.

أقول يظهر من الأخبار أن إسماعيل هذا غير إسماعيل ابن إبراهيم الخليل. فقد روي ابن أبي عمير بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: سمّي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكانٍ فانتظر سنة فسماه الله عزّ وجلّ صادق الوعد ثمّ أنّ الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل ما زلت منتظراً لك إنتهى.

و في عيون الأخبار بأسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال عليه السلام: أتدري لم سسمي إسماعيل صادق الوعد قال قلت لا أدري قال عليه السلام: وعد رجلاً فجلس له حولاً ينتظره إنتهى.

و في كتاب علل الشرائع بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنّ إسماعيل الذي قال الله عزّ وجلّ في كتابه وَ أَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ أَنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا لم كين إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه و وجهه فأتاه ملك فقال أنّ الله جلّ جلاله بعثني إليك فمرني بما شئت فقال لي أسوة بما يصنع بالأنبياء عليهم السلام إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ إسماعيل كان رسولاً نبياً سلط عليه قومه ففشروا جلدة وجهه وفروة رأسه فأتاه رسول من ربّ

العالمين فقال له رَبِّكَ يَقْرُوكَ السَّلَامَ ويقول قد رأيت ما صنع بك و قد أمر رَبِّي بطاعتك فمرني بما شئت فقال يكون لي بالحسين بن عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أسوةٌ إنتهى.

و في تفسير عَلِيٍّ بن إبراهيم، و أذكر في الكتاب إسماعيل أَنَّهُ كان صادق الوعد، وعد وعداً فإنتظر صاحبه سنة و هو إسماعيل بن حزقيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إنتهى.

و قال الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّنِ و الطَّبْرَسِيِّ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ و تَبْعُهُمَا مِنْ كَانَ بَعْدَهُمَا مِنَ الْمَفْسَّرِينَ أَنَّهُ إسماعيل بن إبراهيم، و به قال الطَّبْرِيُّ و الرَّازِيُّ و غَيْرُهُمَا مِنْ مَفْسَّرِي الْعَامَّةِ و هو المشهور بين المفسرين.

و قيل أَنَّ إسماعيل بن إبراهيم مات قبل أبيه إبراهيم و أَنَّ هَذَا هُوَ إسماعيل بن حزقيل و اللَّهَ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

أَي وَ كَانَ إسماعيل يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، قِيلَ الْمُرَادُ بِالْأَهْلِ أُمَّتُهُ وَ هُوَ خِلَافُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَ مَتَافَاهِمِ الْعَرَفِ فَإِنَّ الْأَهْلَ فِي الظَّاهِرِ أَقْرَبُ أَقَارِبِهِ لُغَةً وَ عَرَفًا وَ قَوْلُهُ: مَرْضِيًّا وَ هُوَ إِسْمٌ مَفْعُولٌ أَيِ قَدْ رَضِيَ أَعْمَالُهُ لِأَنَّهَا كُلَّهَا طَاعَاتٌ قِيلَ أَرَادَ بِذَلِكَ أَفْعَالَهُ الْوَاجِبَاتِ وَ الْمُنْدُوبَاتِ دُونَ الْمُبَاحَاتِ لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ وَ لَا يَسْخَطُهَا وَ أَصْلُ مَرْضِيٍّ، مَرْضٌ، فَقُلِبَتِ الضَّمَّةُ كَسْرَةً وَ الْوَاوُ يَاءٌ وَ أَدْغَمَتْ فِي الْيَاءِ فَصَارَ مَرْضِيًّا.

وَ أَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

أَي وَ أَذْكُرُ يَا مُحَمَّدُ فِي الْكِتَابِ أَيِ فِي الْقُرْآنِ، إِدْرِيسَ قِيلَ هُوَ جَدُّ أَبِي نُوحٍ وَ هُوَ أَخْنُوعٌ وَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ نَظَرَ فِي النُّجُومِ وَ الْحِسَابِ وَ جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ وَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ وَ خَاطَ الثِّيَابَ وَ لَبَسَ الْمَخِيطَ وَ كَانَ خِيَاطًا وَ كَانُوا قَبْلَ يَلْبَسُونَ الْجُلُودَ وَ أَوَّلُ مُرْسَلٍ بَعْدَ آدَمَ وَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْمَوَازِينَ وَ الْمَكَايِيلَ وَ

الأسلحة فقاتل بني قابيل، وقيل هو الياس بعث الى قومه بأن يقولوا لا إله إلا الله و يعملون ما شأؤوا فأبوا وأهلكوا وإدريس إسم أعجمي منع من الصّرف للعلميّة والعجمة ولا يجوز أن يكون أفعيلاً، من الدّرس كما قال بعضهم لأنّه كان يجب صرفه إذ ليس فيه إلا سبب واحد العلّمية، ثمّ وصفه الله تعالى بكونه صديقاً أي كثير التّصديق بالحقّ و نبياً من قبل الله تعالى الى الخلق.

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا

و المكان العلّي شرف النّبوة و الزّلفى عند الله و قد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، و قيل هو رفع النّبوة و التّشريف و المنزلة في السّماء كسائر الأنبياء و قيل بل رفع الى السّماء ذلك بأمر الله كما رفع عيسى عليه السلام قالوا في كيفيّة رفعه الى السّماء أنّه كان له خليلٌ من الملائكة فحمّله على جناحه و صعد به حتّى بلغ السّماء الرّابعة فلقى هناك ملك الموت فقال له أنّه قيل لي إهبط الى السّماء الرّابعة فأقبض فيها روح إدريس و إنّّي لأعجب كيف يكون هذا فقال له الملك الصّاعد هذا إدريس معي فقبض روحه.

و روي أنّ هذا كلّّه كان في السّماء السّادسة قاله ابن عبّاس وعن الحسن، رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أي إلى الجنّة إذ لا شيء أعلى منها.
و في الكافي بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ أخبرني جبرئيل أنّ ملكاً من الملائكة كانت له عند الله منزلة عظيمة فتعّتب عليه فأهبطه من السّماء إلى الأرض فأتى إدريس و قال له أنّ لك من الله منزلة فاشفع لي عند ربّك فصّلّي ثلاث ليالٍ لا يفتر و صام أيامها لا يفطر ثمّ طلب إلى الله عزّ وجلّ في السّحر في الملك فقال الملك أنّك قد أعطيت سؤلك أطلق الله لي جناحي و أنا أحبّ أن أكافيك فأطلب إليّ حاجة فقال تريني ملك

الموت لعلِّي أنس به فأنتَ ليس يهتني مع ذكره شيء فبسط جناحه
ثم قال إركب فصعد به يطلب ملك الموت في السماء الدنيا فقبل له
إصعد فاستقبله بين السماء الرابعة والخامسة فقال الملك يا ملك
الموت ما لي أراك قاطباً قال العجب أنتي تحت ظلّ العرش حتى أمرت
أن أقبض روح آدمي بين السماء الرابعة والخامسة فسمع إدريس
فامتعض، فخر من جناح الملك فقبض روحه مكانه قال الله عزّ
وجلّ: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا إنتهى.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: رَأَى فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ
قَالَ ﷺ: فَقُلْتُ مَنْ هَذَا يَجْبُرُ ثِيْلَ فَقَالَ هَذَا إِدْرِيسُ رَفَعَهُ اللَّهُ مَكَانًا
عَلِيًّا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي.

وقد ذكر في تفسير نور الثقلين حديثاً طويلاً في الباب إن شئت فراجع.

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا
مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا
تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا

أولئك إشارة إلى ما تقدّم ذكره من حالات الأنبياء (من) في قوله: مِنْ
النَّبِيِّينَ بيانية لأنّ جميع الأنبياء منعم عليهم ومن، الثانية للتبعض وكان
إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنّه جدّ أبي نوح، وإبراهيم من ذريته من حمل
مع نوح لأنّه من ولد سام بن نوح، ومن ذرية إبراهيم إسحاق وإسماعيل و
يعقوب وإسرائيل معطوف على إبراهيم، و زكريّا ويحيى وموسى وهارون
من ذرية إسرائيل وكذلك عيسى لأنّ مريم من ذريته.

قال بعض المفسرين فإن حملنا (من) في قوله: مِنْ النَّبِيِّينَ على التبعض
لا إشكال فيه إذ لم تدلّ على من عداهم لم ينعم عليهم بل لا يمتنع أن يكون

أَنَّمَا أَفْرَدَهُمْ بِأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً مَخْصُوصَةً عَظِيمَةً رَفِيعَةً وَأَنْ كَانَ غَيْرِهِمْ أَيْضاً قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةٍ دُونِهَا إِنْتَهَى.

إِنْ قُلْتَ لِمَ قَالَ مَنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، وَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

قُلْتَ لِأَنَّ النَّبِيَّ فِي الْآيَةِ يَشْمَلُ الرَّسُولَ أَيْضاً وَ هُوَ لَا يَخْتَصُّ بِذُرِّيَّةِ آدَمَ لِأَنَّ اللَّهَ بَعَثَ رُسُلًا لِيَسُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ بَلْ هُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **يُضْطَفَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** ^(١).

وَقَوْلُهُ: **وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** أَي مِمَّنْ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى الطَّاعَاتِ فَاهْتَدَوْا إِلَيْهَا وَاجْتَبَيْنَاهُمْ أَي اخْتَرْنَاهُمْ وَاصْطَفَيْنَاهُمْ، مِنَ النَّاسِ، إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ، أَي أَعْلَامِهِ وَ أَدْلَتِهِ خَرُّوا سُجَّدًا أَي سَجَدُوا لَهُ تَعَالَى وَ بَكِيًّا أَي بَكَوْا، وَ بَكِيًّا جَمْعُ بَاكِ وَ نَصَبَهَا عَلَى الْحَالِ وَ تَقْدِيرُهُ، خَرُّوا سَاجِدِينَ بَاكِينَ، وَ قِيلَ بَكِيًّا، مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْبُكَاءِ، وَ قِيلَ أَنْتَصَبَ، سَجَدًا، عَلَى الْحَالِ الْمَقْدَرَةِ لِأَنَّهُ حَالُ ضَرُورَةٍ لَا يَكُونُ سَاجِدًا، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ إِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ يَخْضَعُونَ لِرَبِّهِمْ وَ يَكُونُ يَخْضَعُونَ لِعَظَمَتِهِ وَ يَكُونُ مِنْ خَشْيَتِهِ وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عُلُوِّ مَقَامِهِمْ وَ مَرْتَبَتِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ.

إِنْ قُلْتَ لِمَ فَرَّقَ فِي ذِكْرِ نَسَبِهِمْ وَ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ.

قُلْتَ لَعَلَّ التَّفْرِيقَ لِتَبْيِينِ مَرَاتِبِهِمْ فِي شَرَفِ النَّسَبِ فَكَانَ لِإِدْرِيسَ شَرَفُ الْقَرَبِ مِنْ آدَمَ لِأَنَّهُ جَدُّ نُوْحَ وَ كَانَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حَمَلَ مَعَ نُوْحَ لِأَنَّهُ مِنْ وَلَدِ سَامِ بْنِ نُوْحَ وَ كَانَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَكَانَ بِهِمْ شَرَفُ إِبْرَاهِيمَ لِتَبَاعُدِهِمْ مِنْ آدَمَ وَ هَكَذَا.

بَيِّنَاتُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جُزْءُ ١٦

المجلد العاشر عشر

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا

الْخَلْفَ بفتح اللّام يستعمل للصّالحين و بتسكين اللّام في الصّالح، قال الشّاعر:

ذهب الذّين يعاش في أكنافهم و بقيت في خلف كجلد الأجراب
و لذلك أجمعوا على سكون اللّام في الآية و قال الفراء يستعمل كلّ واحدٍ
منهما في الآخر و على هذا فيجوز فتح اللّام في الآية و في الآية دلالة على أنّ
المراد بالخلف من لم يكن صالحاً و هذا ممّا لا خلاف فيه، لأنّهم أضاعوا
الصّلاة و اتّبعوا الشّهوات أمّا بتركها أو بتأخيرها عن مواقيتها فإنّ الإضاعة تطلق
على التّرك و التّأخير.

و قد ورد في الحديث أنّ الصّلاة تقول ضيّعني ضيّعك الله لمن أخرّها من
غير عذرٍ و لا يبعد أن يكون المراد بالإضاعة التّأخير عن وقتها لا تركها لأنّ
الإضاعة لا تطلق على المعدوم، و قيل الإضاعة الإخلال بشروط الصّلوة عدم
إعتقاد وجوبها و قيل تعطيل المساجد و الإشتغال بالصّنائع و الأسباب و هذه
الأقوال لا بأس بها فإنّ الإضاعة تطلق على الجميع و أمّا الشّهوات فية عامّ في
كلّ مشتهر يشغل عن الصّلاة و ذكر الله هكذا قيل و الحقّ أنّ المراد بها
المحرّمات و أنّما خصّ الصّلاة بالذّكر من بين الواجبات لأنّها أفضل الواجبات
و أهمّها في جميع الأديان إن قبلت قبل ما سواها و إن ردّت ردّاً ما سواها و
قوله: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا الغي بفتح الغين الشرّ و الخيبة قال الشّاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره و من يغو لا يعدم على الغي لائماً
و قال ابن مسعود الغي وادّ في جهنّم و قال ابن زيد أي ضلالاً و قيل معناه
يلقون مجازاة غيهم يوم القيامة.

إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا

الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْتِثْنََاءَ مُتَّصِلٌ وَقَالَ الرَّجَاجُ مَنْقُطَعٌ، إِسْتِثْنَى مِنْهُمْ مَنْ تَابَ وَ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَ إِتْبَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَ أَمِنْ وَ عَمِلَ صَالِحًا، قِيلَ قَوْلُهُ: «أَمِنْ»، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْإِضَاعَةُ إِضَاعَةُ كُفْرٍ، وَ الْحَقُّ أَنَّ الْإِضَاعَةَ أَعْمٌ مِنْ إِضَاعَةِ الْكُفْرِ وَ غَيْرِهَا وَ التَّخْصِصُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ فِي قَوْلِهِ: «عَمِلَ صَالِحًا»، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتَّحَقُّ بِدُونِ الْعَمَلِ وَ قَوْلُهُ: «فَأَوْ لَيْتَكَ»، إِشَارَةٌ إِلَى التَّائِبِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَأَنْتُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا، فَأَنَّ رَبَّكَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ لِأَنَّ الظُّلْمَ قَبِيحٌ وَ هُوَ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ الْقَبَائِحِ ثَبَتَ ذَلِكَ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَ النَّفْثِيَّةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا
جَنَّاتٍ عَدْنٍ، جَنَّاتٍ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: الْجَنَّةُ فِي قَوْلِهِ:
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَأَنَّهُ قِيلَ وَ مَا الْجَنَّةُ الَّتِي يَدْخُلُونَ فِيهَا، قِيلَ لَهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَ
قِيلَ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ بِتَقْدِيرِ هِيَ جَنَّاتٍ وَ الْجَنَّةُ الْبُسْتَانُ الَّذِي يَجْنَهُ الشَّجَرُ فَإِذَا
لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ وَ يَكُونُ مِنْ خَضِرَةٍ فَهُوَ رَوْضَةٌ وَ لَا يُسَمَّى جَنَّةً هَكَذَا قِيلَ وَ
أَمَّا قِيلَ جَنَّاتٍ عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ جَنَّةٌ تَجْمَعُهَا
الْجَنَّةُ الْعَظْمَى وَ الْعَدْنُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَ سَكُونِ الدَّالِّ وَ الثُّنُونُ الْإِقَامَةُ يُقَالُ عَدْنٌ
بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ وَ الْوَعْدُ الْإِخْبَارُ بِمَا يَتَّضَمَّنُ فِعْلَ الْخَيْرِ وَ نَقِيضُهُ الْوَعِيدُ وَ
هُوَ الْإِخْبَارُ عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ وَ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ مَنْ تَابَ وَ أَمِنْ وَ عَمِلَ صَالِحًا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الْخُلُودِ فِيهَا الَّتِي وَعَدَ
الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَيْسَتْ حَاضِرَةً عَنْدهُمْ بَلْ هِيَ غَائِبَةٌ عَنْ
الْحَوَاسِّ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ أَيُّ أَنَّ الرَّحْمَنَ وَ قِيلَ أَنَّ الْهَاءَ ضَمِيرُ الشَّانِ وَ قَوْلُهُ كَانَ
وَعْدُهُ مَأْتِيًّا، أَيُّ كَانَ وَعْدُ الرَّحْمَنِ مَأْتِيًّا يَأْتِيهِ أَوْلِيَاءُهُ وَ قِيلَ مَأْتِيًّا أَيُّ مَفْعُولًا وَ
فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ فِي الْآيَةِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ
وَعْدَهُمُ الْجَنَّةَ وَ وَعْدُهُ حَقٌّ لَا خَلْفَ فِيهِ:

قال الله تعالى: وَغَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا^(١).

قال الله تعالى: وَكَانَ وَغَدَّ رَبِّي حَقًّا^(٢).

قال الله تعالى: وَغَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: إِنَّ وَغَدَّ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا^(٤) والآيات كثيرة.

وفي هذا الكلام إشارة إلى نقطة أخرى وهي أن الله قادر على كل شيء فلا يقدر أحد على منعه عما أراد و شاء فلا محالة يكون وعده مأتياً ثم وصف الله الجنة.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا
أي لا يسمعون في جنات عدن لغواً أي كلاماً لا معنى له وقد يكون اللغو الهذر من الكلام، إلا سلاماً قيل هو إستثناء منقطع وهو قول الملاحكة سلام عليكم بما صبرتم، وسلم الله عليهم عند دخولها.

أقول لا يبعد أن يكون الإستثناء متصلاً وكان السلام منهم أي يسلم كل واحد على الآخر، وقوله: وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا أي في الجنة، بكرةً وعشيًّا، يعني يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم واللييلة من الزمن.
وقال مجاهد لا بكرة فيها ولا عشي ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

وقال صاحب الكشف، اللغو فضول الكلام وما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو وإتقائه حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف

١- النساء = ١٢٢

٢- الكهف = ٩٨

٣- الزوم = ٦

٤- لقمان = ٣٣

فيها و ما أحسن قوله: **وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا^(١)** **وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ^(٢)** أي إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً إلا ذلك فهو من وادي قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ طول من قراع الكتائب
أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب و التقيصة على الإستثناء
المنقطع و قال أيضاً و لا يكون هناك ليل و لا نهار و لكن على التقدير ولأنه
المتنعم عند العرب من وجد غداء و عشاء، و قيل أراد دوام الرزق كما تقول أنا
عند فلان صباحاً و مساءً و بكرةً و عشياً و لا يقصد الوقتين المعطوفين إنتهى.
أقول ما ذكره لا بأس به و الأمر واضح.

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا

أي تلك الجنة التي وصفناها نعطيتها من كان تقياً في دار الدنيا بترك
المعاصي و فعل الطاعات و أنما قال نورث، تشبيهاً بالميراث:

قال الله تعالى: **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ^(٣)**.

قال الله تعالى: **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ**
ءَاسِينٍ^(٤).

قال الله تعالى: **قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ^(٥)**.

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا
كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا

قيل أبطأ جبرئيل عن الرسول مرةً فلما جاء قال جبرئيل قد إستقت إليك
أفلا تزورنا أكثر ممّا تزورنا فنزلت الآية أخبر الله فيها بأنّ لا تنزل إلا بأمر الله،

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

٥٥ - القصص = ٢

٤ - محمد = ١٥

١ - الفرقان = ٧٢

٣ - النحل = ٣٠

٥ - الفرقان = ١٥

له، أي لله تعالى ما بين أيدينا وهو الدنيا وما خلفنا وهو الآخرة، وما بين ذلك، هو ما بين التفخيتين، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا أي ليس الله مِمَّنْ ينسى و يخرج عن كونه عالماً لأنه عالمٌ لنفسه و تقدير الكلام و ما نسيتك ربك وإن آخرَ الوحي عنك و قيل أَنَّ الآيةَ متصلة بما قبلها و ذلك لِأَنَّ جبرئيلَ إحتبس عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن قصَّة أصحاب الكهف و ذي القرنين و الرُّوح فلم يجيبهم و رجا أَن يأتيه جبرئيل بجواب ما سألوا عنه فأبطأ عليه أربعين يوماً و قيل أُنشئ عشرة ليلة و قيل خمسة عشر يوماً ثلاثة عشر و قيل ثلاثة أيام فقال النَّبِيُّ أَبْطَأْتُ عَلَيَّ حَتَّى سَاءَ ظَنِّي و إشتقت إليك فقال جبرئيل إِنِّي كُنت أَشْوَقَ و لكنِّي عَبْدٌ مَأْمُورٌ إِذَا بَثْتُ نَزَلْتُ و إِذَا حَبَسْتُ إِحْتَبَسْتُ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ و قال بعض المفسرين هو إخبار عن أهل الجنة أَنَّهُمْ يَقُولُونَ عِنْدَ دُخُولِهَا و مَا نَنْزِلُ هَذِهِ الْجَنَّةِ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ثُمَّ أَنَّ قَوْلَهُ: وَ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: إِنَّا إِذَا أَمَرْنَا فَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ.

والثاني: إِذَا أَمَرَ رَبُّكَ نَزَلْنَا عَلَيْكَ فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ مُتَوَجِّهًا إِلَى النَّزُولِ و على الثاني مُتَوَجِّهًا إِلَى التَّنْزِيلِ.

و أمَّا قَوْلُهُ: وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا حيث نفى النسيان عنه تعالى فالوجه فيه هو أَنَّ النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه و إما غفلة و إما عن قصدٍ حَتَّى يَنْحَذِفَ عَنِ الْقَلْبِ ذِكْرُهُ و كُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى لَكُونِهِ مَنْزَهِاً عَنِ مِثَابَهَةِ الْأَجْسَامِ.

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا

إرتفع ربُّ السَّمَوَاتِ على أَنَّهُ خَيْرٌ مُبْتَدَأٌ مُحْذُوفٌ أَي هو ربُّ السَّمَوَاتِ أَوْ على الْبَدَلِ مِنَ الرَّبِّ فِي قَوْلِهِ: وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا، و المعنى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

هو المالك المتصرف في السموات والأرض وما بينهما من المخلوق فليس لأحد منعه منه و قوله: فَأَعْبُدْهُ أَي إذا كان الله ربهما فأعبده وحده لا شريك له، وَ أَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ أَي أصبر على تحمّل مشقة عبادته هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا أَي مثلاً و شبهاً على قول ابن عباس و مجاهد و قيل معناه أنّه لا يستحق أحد أن يسمّى إليه إلّا هو.

و قال بعضهم السّمي من توافق في الإسم تقول هذا سميّك أي إسمه مثل إسمك فالمعنى أنّه لم يسم بإسم الله أي بلفظه شيء قطّ و كان المشركون يسمّون أصنامهم ألهة و العزى إليه، و أمّا لفظ الله فلم يطلقوه على شيء من أصنامهم، و يحتمل أن يعود الضمير على قوله: رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا، أي هل تعلم من يسمّى أو يوصف بهذا الوصف غير الله تعالى هذا ما ذكره في تفسير الكلام.

أقول الأقوى عندي أنّ قوله: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا كلامٌ مستقلّ و ذلك أنّ الله تعالى لمّا وصف نفسه بما وصف من عدم النسيان و أنّه ربّ السموات و الأرض و ما بينهما، قال: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا، أي هل تعلم له من كان لائقاً بهذه الأوصاف أي بعدم النسيان و خلق السموات و الأرض و ما بينهما فالإستفهام للإنكار أي لا تعلم له سميًّا، أي مثلاً و شبهاً فإنّ ما سواه كائنٌ ما كان مخلوق له و كلّ مخلوق فهو مروبّ فلا ربّ في الحقيقة إلّا هو كما قال تعالى: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ مُحْصَلُ الكلام أنّ الرّب بمعناه الحقيقي منحصرّ به تعالى قوله: فَأَعْبُدْهُ وَ أَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ حيث أتى الكلام بالفاء التي تفيد التّفريع إشارة إلى أنّ الرّب الموصوف بما ذكرناه هو المستحق للعبادة لا غيره و من المعلوم أنّ العبادة تلازم المشقة فالعابد لا محيص له من الصّبر عليها بل نقول لا صبر أشدّ من الصّبر على العبادة.

قال الله تعالى: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا^(١).

قال الله تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَرْصِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ^(٢).



وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا
 (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ
 يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَّيْكَ لَنَخْشُرَنَّهَمْ وَالشَّيَاطِينَ
 ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ
 مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْلَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩)
 ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَ
 إِن مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
 مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ
 فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُلْتِى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
 قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ
 مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ
 قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ
 فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا
 رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ
 فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)
 وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ
 الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)
 أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَ
 وَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا
 (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ
 مَدًّا (٧٩) وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَ
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١)

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا
 (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوْرُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ
 عَذَابًا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا
 (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦)
 لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ
 عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ
 جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ
 وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ
 دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ
 يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ
 الْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ
 أَخَصَّيْهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا
 يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنذِرَ بِهِ
 قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ
 تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

◀ اللغة

جِئْنَا: جمع جائي و هو الذي برك على ركبته.

لَنُزْعَنَّ: أي لنستخرجنَّ.

عِتْيًا: أي تَمَرْدًا قِيلَ هُوَ جَمْعُ عَاتٍ.
 صِيلًا: جَمْعُ صَالٍ وَ الصَّلَاءُ يُقَالُ لِلْوُقُودِ وَ لِلشَّوَاءِ.
 نَدِيًا: أي مَجْلِسًا يُقَالُ نَدَوْتُ الصَّوْمَ أَنْدُوهُمْ نَدَوًا إِذَا جَمَعْتَهُمْ فِي مَجْلِسٍ.
 أَثَاثًا: الْأَثَاثُ الْمَتَاعُ.
 وَرِيًا: الرَّيُّ الْمَنْظَرُ.
 تَوَزُّهُمْ: أي تَرَعَجَهُمْ إِزْعَاجًا، وَ الْإِزْ، الْإِزْعَاجُ إِلَى الْأَمْرِ.
 وَقَدًا: أي رَكْبَانًا فِي قَدُومِهِمْ.
 وَرَدًا: أي عَطَاشًا.
 إِدًا: بِكسر الالف أي مَنكَرًا عَظِيمًا.
 يَتَفَطَّرْنَ: أي يَتَشَقَّقْنَ الْإِنْفِطَارَ الْإِنْشِقَاقَ.
 هَدًا: الْهَدَى، تَهْدَمُ بِشَدَّةِ صَوْتٍ.
 وَدًا: الْوَدَّ بِضَمِّ الْوَاوِ الْحَبِّ.
 لُدًا: اللَّدَّ بِضَمِّ اللَّامِ مَأْخُوذٌ مِنَ اللَّدِّ وَ هُوَ شَدَّةُ الْخُصُومَةِ.
 رَكْزًا: الرَّكْزُ بِكسر الرَّاءِ الصَّوْتُ وَ قِيلَ الْحَسَّ.

الإعراب

أَعْدَا الْعَامِلَ فِيهَا فَعَلَ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ أَيِ أُبْعَثَ إِذَا، وَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا أَخْرَجَ لِأَنَّ مَا بَعْدَ اللَّامِ وَ سَوْفَ، لَا يَعْمَلُ فِيهَا قَبْلَهَا يَذْكُرُ بِالتَّشْدِيدِ أَيِ يَتَذَكَّرُ جَيْثًا حَالِ أَيُّهُمْ مَوْضِعُهَا نَصَبٌ بِنَزْعِ هَذَا إِذَا قُلْنَا أَنَّ الضَّمَّةَ فِيهَا ضَمَّةُ بِنَاءٍ وَ أَمَّا إِذَا قُلْنَا أَنَّهَا ضَمَّةُ الْإِعْرَابِ فَفِيهِ أَقْوَالُ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا مُبْتَدَأٌ وَ أَشَدُّ خَبْرُهُ وَ هُوَ عَلَى الْحِكَايَةِ وَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ وَ إِنْ مِنْكُمْ أَيِ وَ مَا أَحَدٌ مِنْكُمْ فَحَذَفَ الْمَوْصُوفُ مَقَامًا بِالْفَتْحِ مَوْضِعَ الْإِقَامَةِ أَوْ هُوَ مَصْدَرٌ كَالْإِقَامَةِ وَ بِالضَّمِّ فِيهِ الْوَجْهَانِ أَيْضًا نَدِيًا لَامَ الَّذِي وَ أَوْ يُقَالُ نَدَوْتُهُمْ وَ مَصْدَرُهُ النَّدْوُ وَ كَمْ أَهْلَكْنَاكُمْ مَنْصُوبٌ بِأَهْلَكْنَا وَ أَحْسَنُ أَثَاثًا صِفَةً لَكُمْ وَ

رَثِيًّا يَقْرَأُ بِهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ بَعْدَ الرَّاءِ وَ هُوَ مِنَ الرُّؤْيَةِ أَيْ أَحْسَنَ مَنَظَرًا وَ يَقْرَأُ بِتَشْدِيدِ
 الْيَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزَةٍ بِنَاءً عَلَى قَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءٌ لِسُكُونِهَا وَ انْكَسَارُ مَا قَبْلَهَا ثُمَّ أَدْغَمَ، وَ
 قِيلَ هُوَ مِنَ الرَّيِّ ضِدُّ الْعَطَشِ لِأَنَّهُ يُوجِبُ حَسْنَ الْبَشَرَةِ وَ يَقْرَأُ، رَثِيًّا، بِهَمْزَةٍ بَعْدَ
 يَاءٍ سَاكِنَةٍ وَ هُوَ مَقْلُوبٌ قُلٌّ مِنْ كَانَ هِيَ شَرْطِيَّةٌ وَ الْأَمْرُ جَوَابُهَا وَ الْأَمْرُ هُنَا
 بِمَعْنَى الْخَبَرِ إِمَّا أَلْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ كِلَاهُمَا بَدَلُ مِمَّا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
 جَوَابٌ إِذَا وَ يَزِيدُ مُعْطُوفٌ عَلَى مَعْنَى، فَلْيُمَدِّدْ مَنْ هُوَ مِنْ بِمَعْنَى الَّذِي وَ هُوَ
 شَرِّصَلَتِهَا، وَ قِيلَ هِيَ إِسْتِفْهَامٌ أَطْلَعَ الْهَمْزَةَ هَمْزَةُ الْإِسْتِفْهَامِ لِأَنَّهَا مُقَابِلَةُ الْأَمِّ، وَ
 هَمْزَةُ الْوَصْلِ مُحذُوفَةٌ لِقِيَامِ هَمْزَةِ الْإِسْتِفْهَامِ مَقَامَهَا وَ يَقْرَأُ بِالْكَسْرِ عَلَى أَنَّهَا هَمْزَةُ
 وَصْلٍ وَ حَرَفِ الْإِسْتِفْهَامِ مُحذُوفٍ لِلدَّلَالَةِ، أَمْ، عَلَيْهِ كَلًّا بِضَمِّ الْكَافِ وَ التَّنْوِينِ
 حَالِ بِعِبَادَتِهِمْ الْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ أَيْ سَيَكْفُرُ الْمُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
 الْأَصْنَامَ وَ قِيلَ هُوَ مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ أَيْ سَيَكْفُرُ الْمُشْرِكُونَ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ
 وَضِدًّا وَاحِدًا فِي مَعْنَى الْجَمْعِ وَفَدًّا جَمْعٌ وَافِدٌ مِثْلُ رَكْبٍ جَمْعُ رَاكِبٍ لَا
 يَمْلِكُونَ حَالٌ إِلَّا مَنْ آتَخَذَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ وَ الْمَنْقَطَعِ أَوْ هُوَ
 فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ بَدَلًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي يَمْلِكُونَ هَذَا مُصَدَّرٌ عَلَى الْمَعْنَى وَ قِيلَ هُوَ
 حَالٌ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ وَ قِيلَ فِي مَوْضِعٍ
 جَرَّ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ، وَ فِي مَوْضِعٍ، أَيْ الْمَوْجِبُ لِذَلِكَ دَعَاؤُهُمْ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ مِنْ نَكْرَةٍ مَوْصُوفَةٍ وَ فِي السَّمَوَاتِ صِفَتُهَا إِلَّا آتَى خَيْرَ كُلِّ وَ وَ مَدَّ
 حَمَلًا عَلَى لَفْظِ كُلِّ.

التفسير

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا

قِيلَ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ قَرِيشٍ قِيلَ هُوَ أَبِي بَنْ خُلْفٍ جَاءَ بِعَظْمِ
 رِفَاتٍ فَنَفَخَ فِيهِ وَ قَالَ لِلرَّسُولِ أَيْبِثْ هَذَا وَ كَذَبَ وَ سَخَرَ وَ أَسْنَدَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ
 لِاجْنَسِ بِمَا صَدَرَ مِنْ بَعْضِهِمْ أَوْ لِلْجَنْسِ الْكَافِرِ الَّذِي يَنْكُرُ الْبَعْثَ وَ الْمَعْنَى يَقُولُ

الإنسان الكافر المنكر للبعث، فإذا ما مَت لسوف أخرج حَيًّا أَعِذَا مَا مِتَّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا، والهمزة للإستفهام الإنكاري أي لا أخرج حَيًّا بعد الموت فهو إنكارٌ للبعث والإنكار لا يفيد إذا لم يكن مقرونًا بالدليل فَأَنَّ الأشياء على الإمكان ما لم يدلّ دليل على الإمتناع لقولهم أي الفلاسفة، كلّ ما قرع سمعك فذره في بقعة الإمكان ما لم تدرك عنه قائمة البرهان ومنها البعث وهو الحياة بعد الموت فهو ممكنٌ في حدّ نفسه إذ لم يدلّ دليل على إمتناعه عقلاً وليس للمنكر دليلٌ إلّا مجرد الإستبعاد أجاب الله تعالى عنه بقوله:

أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا

قرأ نافع وابن عامر وعاصم، أَوْ لَا يَذْكُرُ، خفيفاً وقرأ الباقون بالتشديد فمن شدّد الدال أراد أو لا يتذكر، فأدغم التاء في الدال لقرب مخرجهما، خفّف فلقوله: فَهَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ^(١) وبعبارة أخرى من شدة أخذه من التذكر ومن ضعف أخذه من الذكر والمأل فيهما واحد.

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن جهل المنكرين وعدم تفكّرهم في البعث ولذلك أنكروه وذلك لأنّ البعث ليس إلّا الحياة بعد الموت فمن زعم أنّ الإنسان بموته يعدم بالكلية يلزم منه الإحياء عن العدم ومن ذهب إلى أنّ الإنسان لا يعدم بالموت بل المادّة الأصليّة باقية بعد تلاشي الأعضاء كما هو الحقّ يلزم من قوله أن لا يكون الإحياء عن العدم وعلى التقديرين لا إشكال فيه ولا إمتناع وذلك لأنّ الإحياء على الأوّل أعني به الإحياء عن العدم فهو ممكنٌ بل واقعٌ في حقّ المنكر أليس الله أوجده من العدم وقد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد.

وأما على الثاني فالأمر أسهل، فقله تعالى: أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ، الى

في القرآن
تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

قوله: **وَلَمْ يَكُ شَيْئًا** ردُّ على المنكر وجوده فكأنَّه قيل له لو إستحال الإحياء عن العدم فكيف صرت موجوداً بعد أن لم تكن شيئاً، وحيث أنك لا تقدر على إنكار وجودك بعد أن لم تكن كذلك لا تقدر على إنكار الوجود بعد العدم مطلقاً و محصل الكلام هو أن إنكار البعث للمنكر يرجع إلى إنكار الوجود في حق نفسه و هو كما ترى و سيأتي البحث فيه في موضعه إنشاء الله.

إِنْ قُلْتَ قَالَ تَعَالَى وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ولم يقل و كنت معدوماً، فلا يلزم أن يكون الإحياء من العدم كما هو المطلوب.

قُلْتَ الشَّيْءُ مساوئ للوجود فمعنى قوله: **وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**، لم يك موجوداً، و ما لى بموجود يكون معدوماً لعدم الوساطة بين الوجود و العدم كما ثبت في محلّه فالمطلوب حاصل.

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا
الواو في قوله: **فَوَرَبِّكَ** للقسم، أي لنبعثنهم من قبورهم مقرنين أوليائهم من الشَّيَاطِينِ والواو في **وَالشَّيَاطِينِ** للعطف أو بمعنى، مع، أي يحشرون مع قرنائهم من الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ أَغْوَوْهُمْ يقرن كل كافر مع شيطانٍ في سلسلةٍ هذا إذا كان الضمير في، لنحشرنهم، للكفرة، و أما إذا كان الضمير عائداً على الجميع مؤمناً كان أو كافراً كما هو الحق فالمعنى لنحشرن جميع الناس مع شياطينهم و أنما قلنا هو الحق لأن الشَّيَاطِينِ لجميع الناس من ولد آدم:

قال الله تعالى: **يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ** ^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ^(٢).

فعلى هذا لكل إنسان شيطان يفتنه فقوله **لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ** معناه

نحشرهم جميعاً ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً، إذا كان الضمير عاماً كما هو المختار فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم كما كانوا في الموقف متجاثين لأنه من توابع التوافق للحساب قبل الوصول إلى الثواب والعقاب و قال تعالى في حالة الموقف: وَ قَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(١) و جثياً حال مقدرة و عن ابن عباس، جثياً، أي قعوداً و قيل جماعات جمع جثوة و هو المجموع من التراب والحجارة.

و قال مجاهد و غيره على الركب، و قال السدي قياماً على الركب ليضيق المكان بهم و قرأ حمزة و الكسائي و حفص، جثياً و عتياً و صلياً، بكسر الجيم و العين و الصاد و الجمهور بضمها.

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا.

ثم للتراخي أي بعد حشرهم و حضورهم حول جهنم، لنزع أي لنخرجن و قيل لنرمين من نزع القوس و هو الرمي بالسهم و قوله من كل شيعه، فالشيعه الجماعة المرتبطة بمذهب، يقال شائع فلاناً أي تابعه، و المعنى ثم لنخرجن من كل جماعة من أتباع الشيطان أيهم أي فرقة منهم أشد على الرحمن عتياً، أي متمرداً عاصياً، قال أبو الأعوص يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً.

و قال الزمخشري يمتاز من كل طائفة من طوائف الغي و الفساد أعاصهم فأعصاهم و أعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب فقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم و الضمير في أيهم عائد على المحشورين المحضرين.

قال ابن عباس عتياً، أي جرأة، و قال مجاهد فجراً، و قيل إفتراءً بلغة تميم و قيل عتياً، جمع عاتٍ فانتصابه على الحال.

في تفسير القرآن



المجلد الحادي عشر

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا
لَمَّا قَالَ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ، أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا، وَيُمْكِنُ أَنْ
يَتَّوَهُم مَّتَّوَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَعْتَىٰ وَأَعْصَىٰ فَدَفَعَ هَذَا
التَّوَهُمَ بِقَوْلِهِ: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا أَيُّ نَحْنُ أَعْلَمُ
مَوَاضِعَهُمْ لِأَنَّا قَدْ أَحْطَيْنَا عِلْمًا بِكُلِّ وَاحِدٍ فَنَعْلَمُ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ بِالنَّارِ مَنْ لَيْسَ
كَذَلِكَ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَىٰ نَحْنُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَبْلَ إِيجَادِهِمْ فِي
الدُّنْيَا فَضْلًا مِنْ بَعْدِهِ وَقَوْلِهِ: صِلِيًّا، قِيلَ مَعْنَاهُ نَعْلَمُ أَوْلَىٰ بِالْخُلُودِ.
وَقَالَ الْكَلْبِيُّ صِلِيًّا، أَيُّ دُخُولًا، وَقِيلَ لَزُومًا، وَقِيلَ جَمْعُ صَالٍ فَإِنْ تَصَبَّ
عَلَى الْحَالِ وَ، بِهَا، مُتَعَلِّقٌ بِأَوْلَىٰ وَهُوَ الْحَقُّ عِنْدَنَا.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا
الضَّمِيرُ فِي وَارِدِهَا، عَائِدٌ إِلَىٰ جَهَنَّمَ فِي قَوْلِهِ: لَنُخْضِرْنَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ
جِثْيًا وَكَلِمَةُ (إِنْ) نَافِيَةٌ أَيُّ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَارِدُهَا، فَإِنَّ الْكِنَايَةَ فِي قَوْلِهِ
إِلَّا وَارِدُهَا، رَاجِعَةٌ إِلَىٰ جَهَنَّمَ بِلَا خِلَافٍ إِلَّا قَوْلُ مُجَاهِدٍ، فَإِنَّهُ قَالَ هِيَ كِنَايَةٌ عَنْ
الْحَمَىٰ وَالْأَمْرَاضِ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْخُطَابُ لِلْكَفَّارِ أَيُّ قُلُوبُهُمْ يَامُحَمَّدُ،
لَيْسَ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا فَيَكُونُ الْوُرُودُ فِي حَقِّهِمُ الدُّخُولُ، وَ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَىٰ
أَنَّ الْخُطَابَ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكُلَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ قَالُوا لَيْسَ الْوُرُودُ الدُّخُولُ بَلِ
الْمَرَادُ جَوَارِحُهُمْ عَلَى الصَّرَاطِ الَّذِي مَمْدُودٌ عَلَيْهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، قَدْ يَرُدُّ الشَّيْءُ وَلَمْ يَدْخُلْهُ كَقَوْلِهِ: وَلَقَدْ وَرَدَ مَاءٌ مَذِينٌ^(١) وَ
وَرَدَتْ الْقَافِلَةُ الْبَلَدَ وَلَمْ تَدْخُلْهُ وَلَكِنْ قَرِبَتْ مِنْهُ أَوْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ قَالَ الشَّاعِرُ:
فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ رِزْقًا حَمَامَةً وَضَعَنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ
وَقَوْلُ الْعَرَبِ وَرَدْنَا مَاءَ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي كَلْبٍ إِذَا حَضَرُوهُمْ وَدَخَلُوا
بِلَادَهُمْ وَلَيْسَ يَرَادُ بِهِ الْمَاءُ بَعِيْنُهُ إِنْتَهَىٰ.

و يمكن أن يستدل على العموم بقوله تعالى:

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا

فإن هذه الآية صريحة في المدعى و القرآن يفسر بعضه بعضاً، قال قتادة و
 يابن مسعود، ورودهم اليها هو ممرهم عليها، هذا ما قالوه في المقام.
أقول أما الآية الأولى و هي قوله: **وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا.**
 فالظاهر أن الورد للكل بلا إستثناء و قوله: **كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**
 يدل على أن الورد حق سبق به القضاء أي أن الله تعالى قضى بذلك و لا مرّد
 لقضائه.

و أما الآية الثانية و هي قوله: **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** فتدل على أن المتقين
 ينجيهم الله من العذاب و النجاة لا معنى لها إلا بعد الدخول فلو كان الورد
 بمعنى المرور عليها كما ذهب اليه بعضهم أو أكثرهم فلا معنى لقوله: **ثُمَّ نُنَجِّي**
الَّذِينَ اتَّقَوْا فإن النجاة بعد الوقوع في الهلكة لا قبله ظاهر و قوله: **وَ نَذَرُ**
الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا أي نبركهم فيها باركين على ركبهم، و هذا الكلام يؤيد ما
 ذكرناه كما لا يخفى على المتأمل و ممّا يدل على المختار ما رواه أبو صالح
 غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال اختلفنا في الورد فقال
 قوم لا يدخلها مؤمن و قال آخرون يدخلونها جميعاً: **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**
 فلقيت جابر بن عبد الله الأنصاري فسألته فأومى بإصبعيه الى أذنيه و قال
 صمتا أن لم أكن سمعت رسول الله يقول الورد و الدخول لا يبقى برّ فاجر إلا
 يدخلها فيكون على المؤمنين برداً و سلاماً كما كانت على إبراهيم أن للنار أو
 قال لجهنم ضجيجاً من بردها ثم ينجي الله الذين اتقوا و نذر الظالمين فيها
 جثيًّا إنتهى.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ
الْآيَةِ

حزء ١٦

المجلد العاشر عشر

و روي عن النبي ﷺ أنه سأل عن المعنى فقال ﷺ: **أَنَّ اللَّهَ**

تبارك و تعالى يجعل النار كالسمن الجامد و يجمع عليها الخلق ثم

ينادي المنادي أن خذي أصحابك فوالذي نفسي بيده لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها إنتهى.

و قال الصدوق عليه السلام في الإعتقادات أنه لا يصيب أحداً من أهل التوحيد ألم النار إذا دخلوها وأتماً يصيبهم الألم عند الخروج منها فتكون الألام جزاءً بما كسبت أيديهم و ما الله بظلام للعبيد إنتهى.

أقول و فى بعض الأخبار أن الله تعالى لا يدخل أحداً الجنة حتى يطلع على النار و ما فيها من العذاب ليعلم تمام فضل الله عليه و كمال لطفه و إحسانه إليه فيزداد لذلك فرحاً و سروراً بالجنة و نعيمها و لا يدخل أحداً النار حتى يطلع على الجنة و ما فيها من أنواع النعيم و الثواب ليكون ذلك زيادة عقوبة له و حسرة على ما فاتته من الجنة و نعيمها و قد ورد في الخبر أن الحمى من قبح جهنم.

و روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد مريضاً فقال: أبشر أن الله عز وجل يقول الحمى هي نارٌ أسلّطها على عبده المؤمن في الدنيا لتكون حظّه من النار.

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الحمى رائد الموت و هي سجن المؤمن في الأرض و هي حظّ المؤمن من النار.

و في حديث آخر عنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحمى رائد الموت و سجن الله في أرضه وفورها من جهنم و هي حظّ كلّ مؤمنٍ من النار إنتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و يستفاد من مجموعها أن لكلّ إنسان حظّاً من النار و لعلّ السرّ في ذلك أن الوصول إلى اللذة و النعمة بعد النقمة و رؤية العذاب ولو في حقّ الكافر و الفاسق أحلى و ألذّ و هذا معنى قولهم تعرف الأشياء بأضدادها، فلا يعرف الغنى إلا بعد الفقر و لا الصحة إلا بعد

المرض ألا ترى أنَّ الغني إذا لم يكن غناه مسبوقاً بالفقر لا يعرف قدره الصَّحيح
قدر الصَّحة و بالعكس وهذا هو السَّر في قوله و أن منكم إلّا واردها الخ.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا

قيل نزلت في النَّصر بن الحارث و أصحابه، كان فقراء الصحابة في خشونة
عيش و المشركون يدهنون رؤوسهم و يرجلون شعورهم و يلبسون الحرير و
فاخر الملابس فقالوا للمؤمنين أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَقَامًا أي منزلاً و سكناً و
أحسن نديًّا أي مجلساً و لما قام الحجَّة على منكري البعث و أتبعه بما يكون
يوم القيامة أخبر عنهم أنَّهم عارضوا تلك الحجَّة اللَّامغة بأموالهم و رفاههم في
الدنيا و ذلك عندهم يدلُّ على كرامتهم على الله و ذلك لأنَّ الكافر يزعم أنَّ
الله تعالى ينعم في الدنيا على أهل الحقَّ و أنَّ أحبَّ الخلق إليه تعالى
المتَّنعون الغائضون في اللذات و الشَّهوات ولم يعلموا أنَّ الله يقول أَنَّمَا
نَمْلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا فيقولون للفقراء نحن قد أنعم الله علينا دونكم فنحن
أغنياء و أنتم فقراء و نحن أحسن مجلساً و أجمل شارَةً و المراد بالبيِّنات
المعجزات و البراهين و الحجج تكويناً و تشريعاً قال الله تعالى: **وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ** ^(١) و على هذا يصير معنى الآية إذا قرأت على
المشركين أدلة الله الظَّاهرة و حججه الواضحة يقولون للَّذِينَ صَدَّقُوا بذلك
مستفهمين لهم و غرضهم الإنكار عليهم أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَقَامًا، أي منزل إقامة
في الجَنَّة أو في النَّار و أحسن نديًّا أي مجلساً، فالنَّدي المجلس الَّذي قد
اجتمع فيه أهله فهم يفتخرون على المؤمنين بكثرة نعمهم و حسن أحوالهم و
حال مجلسهم فقال الله تعالى في جوابهم.

بَيِّنَاتٍ الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِهِ

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئَاءًا

أخبر الله تعالى في هذه الآية كثرة ما أهلك من القرون ممن كان أحسن حالاً منهم في الدنيا تنبيهاً على أنه تعالى يهلكهم ويستأصل شأفتهم كما فعل ذلك بغيرهم من المترفين الذين كانوا قبلهم، وإتعاظاً لهم إن كانوا ممن يتعظ أنه لم يغن عنهم ما كانوا فيه من حسن الأثاث والرأي وقوله: مِنْ قَرْنٍ تبيين لقوله: وَكَمْ وَهِيَ أَي، كم، مفعول لقوله: أَهْلَكْنَا.

قال صاحب الكشاف و تبعه أبو البقاء وَهُمْ أَحْسَنُ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ صفة، لكم، وهذا الكلام مخالف لقول الجمهور وذلك لِأَنَّ النُّحُوينَ انْتَفَقُوا عَلَى أَنَّ كَمَ الْإِسْتِفْهَامِيَّةُ وَالْخَبَرِيَّةُ لَا تَوْصِفُ وَلَا يَوْصَفُ بِهَا وَعَلَى هَذَا يَكُونُ، هَم، أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئَاءًا فِي مَوْضِعِ الصَّفَةِ لِقَرْنٍ وَجَمْعٌ لِأَنَّ الْقَرْنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَفْرَادٍ كَثِيرَةٍ فُرُوعِيٍّ مَعْنَاهُ وَلَوْ أَفْرَدَ الضَّمِيرُ عَلَى اللَّفْظِ لَكَانَ عَرَبِيًّا فَصَارَ كُلْفُظٌ جَمِيعٌ قَالَ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحَضَّرُونَ وَقَالَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَّصِرٌ، فَوَصَفَهُ بِالْجَمْعِ وَبِالْمُفْرَدِ ثُمَّ أَنَّ الْجُمْهُورَ قَرَأَهُ وَرِئَاءًا بِتَقْدِيمِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْيَاءِ مِنْ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الرُّئْيُ الْمَنْظَرُ وَقَالَ ابْنُ الْأَحْمَرِ وَاحِدُ الْأَثَاثِ أَثَاثَةٌ كَحِمَامٍ وَحِمَامَةٌ وَقَالَ أَفْرَاءٌ لَا وَاحِدَ لَهُ وَتَجْمَعُ عَلَى أَثَةٍ وَأَثَثَ وَيَجُوزُ فِي، رِئَاءًا، ثَلَاثَةٌ أَوْجَهٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ، رِئَاءًا، بِالْهَمْزِ قَبْلَ الْيَاءِ، وَرِئَاءًا، بِيَاءٍ قَبْلَ الْهَمْزَةِ، وَرِئَاءًا، بِتَرْكِ الْهَمْزَةِ فِي قَوْلِ الزَّجَّاجِ قِيلَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الزَّيِّ، كَقَوْلِهِ:

أَهَاجَتِكَ الصُّغَائِنُ يَوْمَ بَانُوا بِذِي الرِّيِّ الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ

أَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ فِي مَعْرِضِ الْفَنَاءِ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَفْتَخِرَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ شَبَّهَهَا بَعْضُهُمْ بِخِيَالِ الظِّلِّ فَقَالَ:

رَأَيْتُ خِيَالِ الظِّلِّ أَعْظَمَ عِبْرَةً لِمَنْ كَانَ فِي عِلْمِ الْحَقَائِقِ رَاقِيً
شَخْوصاً وَأَصْوَاتاً يَخَالِفُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ وَأَشْكَالاً بَغِيرِ وَفَاقٍ
تَجِيٍّ وَتَمْضِيٍّ بَابَةً بَعْدَ بَابَةٍ وَتَفْنِيٍّ جَمِيعاً وَالْمَحْرُوكَ بَاقِيً

وقال الآخر:

ما أنعم على عبده بنعمة أوفى من العافية
وكل من عوفي في جسمه فإنه في عيشة راضية
والمال حلّو حسنٌ جيّدٌ على الفتى لكّنه عارية
ما أحسن الدنيا و لكّنها مع حسنها غدارة فانية
أين الأمم الماضية أين الملوك السالفة
أين القرون الخالية

أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان
أين الذين قهروا الأبطال و الشجعان
أين الذين دانت لهم المشارق و المغرب
أين الذين تمتعوا باللذات و المشارب
أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً و عتياً

أين الذين راحوا في الحلل بكرةً وعشياً
مقيمٌ بالحجون رهين رمسٍ و أهلي راحلون بكلّ وادٍ
كأني لم أكن لهم حبيباً و لا كانوا الأحبة في السواد
فعوجوا بالسّلام فإن أبيتم فأمّوا بالسّلام على البعاد
قال بعض العرفاء لا فخر فيما يزول و لا غنى فيما لا يبقى و هل الدنيا إلّا
كما قال بعض الحكماء المتّقدين، قدرٌ يغلي، و كيف يملي، قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسّمت عجباً ولم تبدي
حتّى مهّرت على الكنيف فقال لي أموالهم و نوالهم عندي

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا

أي قل يا محمد لهؤلاء الكفّار من كان في الضلالة عن الحقّ و إتباعه،
فليمدد له الرّحمن مدّاً، المدّ في الأصل الجرّ و منه المدة للوقت الممتدّ يقال

بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي الْقُرْآنِ

جزء ١٦

بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي الْقُرْآنِ

مددته في غيّه وأمددت الجيش بمدد و الإنسان بطعام و أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه.

قال الله تعالى: **وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ**^(١).

قال الله تعالى: **أَمْدَكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**^(٢).

قال الله تعالى: **يُمِدُّكُم رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ**^(٣).

قال الله تعالى: **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**^(٤).

قال الله تعالى: **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ**^(٥).

قال الله تعالى: **وَيُمِدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**^(٦).

قيل و أنما ذكر بلفظ الأمور ليكون أكد كأنه ألزم نفسه إلزاماً كما يقول القائل، أمر نفسي، ويمكن أن يكون أراد فليمدد له الرَّحْمَنُ مَدًّا في عذابهم في النار كما قال: **وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**^(٧).

و الحاصل أنَّ المدَّ إمَّا في الدنيا و إمَّا في الآخرة من حيث العذاب وكيف كان فهو من ثمرات الضلالة أعادنا الله منها.

حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَوْضَعَفُ جُنْدًا أي لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين إمَّا العذاب في الدنيا و هو غلبة المسلمين عليهم و تعذيبهم إياهم قتلاً و أسراً و إظهار الله دينه على أيديهم، و إمَّا يوم القيامة و ما ينالهم من الخزي و النكال فحينئذ يعلمون عند

١- الطُّور = ٢٢

٢- الشَّعْرَاء = ١٣٣

٣- آل عمران = ١٢٥

٤- مريم = ٧٩

٥- المؤمنون = ٥٥

٦- البقرة = ١٥

٧- مريم = ٨٠

المعانة أن الأمر على عكس ما قدروه وأنهم شرّ مكاناً وأضعف جنداً لا خيرٍ مقاماً وأحسن ندياً وأن المؤمنين على خلاف صفتهم هكذا فسّره بعض المفسرين.

وقال في التبيان ما هذا لفظه وقوله: **حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ أَيْ** شاهدوا ما وعدهم الله به **إِمَّا أَلْعَذَابَ** والعقوبة على المعاصي و**إِمَّا الْقِيَامَةَ** والمجازاة لكل أحدٍ على ما يستحقه، فسيعلمون حينئذٍ ويتحققون من هو شرّ مكاناً وأضعف جنداً، الكفار أم المؤمنين وفي ذلك غاية التهديد في كونهم على ما هم عليه إنتهى كلامه.

أقول والذي نفهم من الأيتين هو أن الله تعالى يدعهم في طغيان جهلهم وكفرهم فقوله: **فَلْيُمَدَّدْ**، لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر أي من كان في الضلالة مدّه الرحمن مدّاً حتى يطول إغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه فهو نظير قوله: **إِنَّمَا نُقَالِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا**^(١) أي فليعش ما شاء وليوسع لنفسه في العمر فمصيره إلى الموت والعقاب، حتى إذا رأوا ما يوعدون إمّا العذاب في الدنيا وإمّا الساعة فيصيرون إلى النار فسيعلمون هناك من هو شرّ مكاناً وأضعف جنداً، أي تنكشف حينئذٍ الحقائق وهذا في الحقيقة ردٌّ على قولهم، أي الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً.

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَآلْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا

لما أخبر الله تعالى في الآية السابقة أن من كان في الضلالة يمدّه في طغيانه وكفره وجهله أخبر في هذه الآية عن المؤمنين الذي إهتدوا بأنّه يزيد في إيمانهم وأن ما يبقى منهم من الأعمال الصالحة خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ

صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

مردّاً، و المراد بالزيادة لهم فيه أن يفعل بهم الألفاف التي يستكثرون عندها الطاعات بما يبيته لهم من الأمور التي تدعوهم إلى أفعال الخيرات و أن شئت قلت يزيد في توفيقهم و حثهم على الخيرات و ذلك لأنهم آمنوا بالله و رسوله و عملوا الصالحات و تركوا المعاصي قال الله تعالى في قصّة أصحاب الكهف: **إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى^(١)**.

قال الله تعالى: **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ^(٢)**.
قال الله تعالى: **مَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا^(٣)**.

قال الله تعالى: **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ^(٤)** والآيات كثيرة.

و قوله: **خَيْرٌ مَرَدًّا**، أي خير نعيماً ترده الباقيات الصالحات على صاحبه أي يرجع خيرها إليه و اختلفوا في معنى المراد بقوله و الباقيات الصالحات فقال قوم هي فعل جميع الطاعات و إجتناّب المعاصي و قيل هي قوله سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و لله الحمد.

و روي عن أبي عبد الله عليه السلام الباقيات الصالحات القيام آخر الليل لصلاة الليل و الدعاء في الأسحار و قيل غير ذلك من الإذكار و الأفعال و الحق أن المراد بها جميع الأفعال و الأقوال الحسنة التي تبقى آثارها في الدنيا و يترتب عليه الثواب في الآخرة و سميت بها لأن منافعها تبقى في الدنيا و تنفع كالولد الصالح و السنة الحسنة و الأبنية التي يستفيع بها بعد موته كالمدراس و الحمامات و دار الأيتام و الموقوفات و غير ذلك و بالجملة كلّ الخيرات و المبرّات، خير ثواباً، في الآخرة و خير مرده الباقيات الصالحات على صاحبه و بعبارة أخرى خير من حيث العاقبة.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَ وَلَدًا

قيل نزلت في العاص بن وائل عمل له خباب بن الأثر عملاً و كان متيناً
فاجتمع له عنده دينٌ فتقاضاه فقال لا أنصفك حتى تكفر بمحمدٍ ﷺ فقال
خباب لا أكفر بمحمدٍ حتى يميتك الله و يبعثك فقال العاص أو مبعوث أنا بعد
الموت فقال خباب نعم قال فأت إذا كان ذلك فسيكون لي مال و ولد و عند
ذلك أقضيك دينك و قال الحسن نزلت في الوليد بن المغيرة و قد كانت للوليد
أيضاً أقوال تشبه هذا الغرض و كيف كان ما نعرض عنه الإستهزاء بالدين.
ورد في الحديث أنه قال أو أستم تزعمون أن في الجنة الذهب و الفضة و
الحرير قال خباب بلى قال فموعد بيني و بينك الجنة فو الله لأوتين فيها خيراً
مما أوتيت في الدنيا.

أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

الهمزة في، أطلع، الإستفهام و لذلك عادلها، أم، و قرئ بكسر الهمزة في
الابتداء و حذفها في الوصل على تقدير حذف همزة الإستفهام لدلالة، أم،
عليها كقول الشاعر:

بسبع رمين الجمر أم بثمان

يريد، أبسبع، فعلى القراءة الأولى حذفت همزة الفعل و بقيت همزة
الإستفهام و التقدير، إطلع الغيب، و على الثانية حذفت الإستفهام و بقيت
همزة الفعل و أكثر المفسرين إختاروا القراءة الأولى و عليها المصاحف.

و المعنى أن ما إدعى أن يؤتاه و تألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد الطريقين
إما علم الغيب، و إما عهد من عالم الغيب فبأيها توصل إلى ذلك، و العهد قيل
هي كلمة الشهادة و قيل المراد، هل عهد الله إليه أن يؤتیه ذلك و من المعلوم
أن كل واحدٍ منهما منتفٍ في حق القائل و لذلك.

قال تعالى: **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**

كلّا حرف ردع وفيه تنبيه على الخطأ الذي هو مخطئي فيما تصوّره لنفسه و يتّمنّاه فليرتدع عنه و كُنّي بالكتابة عمّا يترتّب عليها من الجزاء فلذلك دخله السّين للإستقبال أي سنجازيه على ما يقوله و المعنى ليس الأمر كما زعمه و تصوّره لنفسه سنكتب ما يقول في صحيفة عمله و نمدّ، أي نطول له من العذاب الّذي يعذب به المستهزؤون أو نزيده من العذاب و نضاعف له المدد و الغرض إنّنا نحرّمه ما يتّمنّاه من الولد و المال و نجعله لغيره هكذا قيل و قال الكلبي نجعل ما يتّمنى من الجنّة لغيره.

وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْدًا

اي نرثه نحن المال و الولد بعد إهلاكنا إياه و إبطالنا ما ملّكناه و يأتينا فرداً، أي يجيئنا فرداً يوم القيامة لا أحد معه.

و قال بعضهم، نرثه ما يقول، معناه نحفظه عليه و منه قوله العلماء ورثة الأنبياء أي حفظة ما قالوه و قوله فرداً، يدلّ على ذلّته و أنّه لا ناصر له ولا معين.

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا

و الضّمير في، و إتخذوا عائد على الكفار و عبدة الأصنام و هم الّذين إتخذوا غير الله، آلهة ليكونوا أي الآلهة، لهم عزّاً، يتغرزون بها في النّصرة و المنغصة و الإنقاذ من العذاب أما اللّام في، لِيَكُونُوا، لام، كي و قد تسمّى بلام العاقبة و في هذا الكلام تنبيه على أنّ المعبود يكون عزّاً للعابد و هو كذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: **كَفَى بِي عِزًّا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا** فما لا يكون عزّاً للعابد لا ينبغي أن يعبد لأنّ العاقل لا يخضع و لا يعبد ما ليس كذلك و من المعلوم أنّ معطي الشّي لا يكون فاقداً له فالمعبود الّذي يكون عزّاً لغيره لا بد له من أن

يكون عزيزاً في نفسه و ما سوى الله كائناً ما كان لا عزّة له في نفسه فكيف يكون عزّاً لغيره و إنّما قلنا ذلك لأنّ العزّة ثابتة لله تعالى فقط و أمّا غيره فهو عزيزٌ به تعالى و إذا كان كذلك فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات كيف يعبد الجمادات و الأخشاب التي لا حياة لها فضلاً عن الأوصاف بل الحقّ الذي لا مرثية فيه أنّه لا ينبغي إطلاق الإنسان على من كان كذلك حقيقة كما أشار الله تعالى بقوله:

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا

أي ليس الأمر كذلك سيكفرون هؤلاء الكفار، بعبادتهم، الآلهة القيامة، إمّا بإنكارهم العبادة إيّاهم لمّا يرون من سوء عاقبتها فيقولون ما عبدناهم، و إمّا بتيسير عنهم كما قال الله تعالى حكاية عنهم، **تَبَرُّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ** ^(١) أي ما كانت عبادتهم لنا بأمرنا و إرادتنا و إنّما عبدونا من عند أنفسهم و قوله: **يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** أي عوناً في خصومتهم و تكذيبهم.

و قال قتادة يكونون قرنائهم في النار يلعنونهم و يتبرؤون منهم فالضمير في **يَكُونُونَ** يصحّ أن يعود الى العابدين و أن يعود الى المعبودين فعلى الأول يكون العابد ضدّ المعبود و على الثاني بالعكس و المقصود كلّ واحد من العابد و المعبود يتبرأ من الآخر و يكون ضدّاً و مخالفاً له.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا

قال المفسّرون، أرسلنا، في الآية بمعنى، سلطنا، أي ألم تر يا محمّد إنّنا سلطنا الشّياطين على الكافرين يؤزّهم أزّا، أي تزعجهم إزعاجاً، و المراد بتسليطه الشّياطين على الكفار هو أنّه تعالى خلّى بين الشّياطين و بين الكفار حتّى أغووهم ولم تحل بينهم بالإلجاء و بالمنع و عبّر عن ذلك بالإرسال على

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْصِيلِ الْقُرْآنِ

جزء ١٤

المجلد العاشر عشر

ضرب من المجاز وذلك مثل قوله: فَيُقْسِيكَ أَلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى^(١).

فقول بعض المفسرين معناه تحرّكهم إلى الكفر لا معنى له أن أرادوا به الإلجاء وأن أرادوا به الوسوسة أي أن الشيطان يوسوهم إلى الكفر فلا إشكال فيه وذلك لأن الشيطان لا يقدر على الإجبار والإلجاء بمعنى سلب الاختيار عن العبد وإلى ذلك أشار من قال أن معنى الكلام تغريهم على المعاصي وتهيّجهم لها بالوساوس والتسويلات وعلى هذا فالمعنى خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا

الخطاب في قوله، فلا تعجل، لرسول الله ﷺ أي لا تعجل يا محمد بالعذاب والهلاك إنما نعدُّ لهم، أي لهؤلاء الكفار، عذًّا، أي جعلنا لهلاكهم موعداً معيناً فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أياماً محصورة وأنفاس معدودة لأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعدّ فيها لوجدت، وقيل نعدّ أعمالهم لنجازيهم، وقيل آجالهم فإذا جاء أحللتنا العقوبة بهم، وقيل أيامهم التي سبق قضاؤها أن نمهلهم إليها والمعاني متقاربة وأن كانت الألفاظ مختلفة ونشر إلى بعض ما ورد في تفسير هذه الآيات فنقول:

روي في تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً أَي يَكُونُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ضِدًّا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَتَّبِرُونَ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَتْ الْعِبَادَةُ هِيَ السَّجُودُ وَالرُّكُوعُ وَأَمَّا هِيَ طَاعَةُ الرِّجَالِ مِنْ أَطَاعِ مَخْلُوقاً فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَقَدْ عُبِدَهِ وَقَوْلُهُ: أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا

قال عليه السلام: لَمَّا طَغَوْا فِيهَا وَ فِي فِتْنَتِهَا طَاعَتَهُمْ مَدَّ لَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ تُوْزَّهُمْ أَزًّا، أَيْ تَنْخَسُهُمْ نَخْسًا وَ تَحْضُّهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَ عِبَادَتِهِمْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا أَيْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَ فِتْنَتِهِمْ وَ كَفَرَهُمْ إِنْتَهَى.

و في الكافي بأسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عزَّ وَجَلْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا، قال عليه السلام: ما هو عندك قلت عدد الأيام قال عليه السلام أَنَّ الْأَبَاءَ وَ الْأُمَّهَاتِ يَحْضُونَ ذَلِكَ وَ لَكِنَّهُ عَدَدُ الْأَنْفَاسِ إِنْتَهَى.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا

أَي أَذْكَرِ يَامُحَمَّدُ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَ اللَّهِ وَ فَعَلُوا طَاعَاتِهِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا، أَيْ رِكَبَانًا فِي قُدُومِهِمْ وَ وَعْدَ لَأَنَّهُ مُصَدَّرُ وَفْدٍ، وَ الْوَفْدُ مَشْعُرٌ بِالْإِكْرَامِ وَ التَّبَجُّيلِ مَا يَفْدُو الْوُفُودَ عَلَى الْمُلُوكِ مُنْتَظَرِينَ لِلْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، وَ قِيلَ عَلَى نَوْقٍ رَحَالَهَا ذَهَبٌ وَ عَلَى نَجَائِبِ سَرْجِهَا يَاقُوتٌ وَ قِيلَ أَنَّهُمْ يُؤْتُونَ بَنُوقٍ لَمْ يَرْمِثْهَا عَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ وَ أَزْقَتْهَا الزَّبَرَجَدُ فَيَرْكَبُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَصْلُوا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ، يَحْشُرُهُمُ اللَّهُ جَمَاعَةً وَ أَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّ الْوَفْدَ يُطْلَقُ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَ رَوَى أَنَّهُ يَرْكَبُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا أَحَبَّ مِنْ إِبِلٍ أَوْ خَيْلٍ، وَ شَبَّهُوا بِالْوُفُودِ لِأَنَّهُمْ سَرَاةُ النَّاسِ وَ أَحْسَنُهُمْ شَكْلًا وَ لَيْسَتْ وَفَادَةٌ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الْأَطْرَافَ مِنَ الْمَوْفُودِ عَلَيْهِ وَ هُوَ لَئِنْ لَيْسَ لَهُمْ إِنْصِرَافٌ بَلْ مَقِيمُونَ أَبَدًا فِي ثَوَابِ رَبِّهِمُ الْجَنَّةِ.

فِي أَصُولِ الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي الْجَارُودِ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا أَوَّلُ وَافِدٍ عَلَى الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ كِتَابُهُ وَ أَهْلُ بَيْتِي ثُمَّ أَمْتِي ثُمَّ أَسْأَلُهُمْ مَا فَعَلْتُمْ بَكِتَابِ اللَّهِ وَ أَهْلُ بَيْتِي إِنْتَهَى.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله قال عليه السلام:
 سأل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير قوله عز وجل: يَوْمَ نَحْشُرُ
 الْمُتَّقِينَ إِلَى الْآرْحَضِ وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي الوفد لا يكون إلا
 ركباناً أولئك الرجال إتقوا الله عز وجل فأحبهم وإختصهم و
 رضى أعمالهم فسمّاهم الله متقين ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي أما والذي
 فلق الحبة و برئ النّسمة أنهم ليخرجون من قبورهم و بياض
 وجوههم كبياض الثلج عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن عليهم
 نعال الذهب شراكها من لؤلؤ يتلأأ إنتهى.

و في حديث آخر أنّ الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الجنة عليها
 رحائل الذهب مكلّة بالدّر والياقوت و جلالها الإستبرق و السندس
 و خطامها جذل الأرجوان و أزقتهم من زبرجد فينظر بهم الى
 المحشر مع كلّ رجل منهم ألف ملك من قدّامه و من يمينه و من
 شماله يزفونهم حتّى ينتهوا بهم الى باب الجنة الأعظم و على باب
 الجنة شجرة الورقة منها يستظل تحتها مائة ألف من الناس و عن
 يمين الشجرة عين مطهرة مكوكبة يسقون منها شربة فيطهر الله
 قلوبهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشعر و ذلك قوله عز
 وجل: وَ سَقِيَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ^(١) من تلك العين المطهرة ثم
 يرجعون الى عين أخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون منها و هى
 عين الحياة فلا يموتون أبداً، ثم قال عليه السلام يوقف بهم قدّام العرش و
 قد سلموا من الأفات و الأسقام و الحرّ و البرد فيقول الجبار جلّ
 ذكره للملائكة الذين معهم أحشروا أوليائي الى الجنة و لا تقفهم
 مع الخلائق قد سبق رضائي عنهم و وجبت لهم رحمتي فكيف أريد
 أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات و السيئات فيسوقهم الملائكة الى

الجنة فإذا إنتهوا الى باب الجنة الأعظم ضربوا الملائكة الحلقة ضربة فتصير صريراً فيبلغ صوت صريرها كل حوراء خلقها الله عز وجل وأعدّها أوليائه فتباشروا إذ سمعوا صوت صرير الحلقة يقول بعضهم قد جاءنا ولياء الله فيفتح لهم الباب فيدخلون الجنة ويشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين فيقلن مرحباً بكم فما كان أشد شوقاً إليكم ويقول لهم أولياء الله مثل ذلك فقال علي عليه السلام من هؤلاء يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا علي هؤلاء شيعتك المخلصون في ولايتك وأنت إمامهم وهو قول الله عز وجل: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا عَلَى الرَّسَائِلِ إنتهى تفسير نور الثقلين^(١).

وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا

السَّوْقُ بفتح السين الحث على السير ساقه يسوقه سوقاً فهو سائق ومنه السَّاق لإستمرار السير بها السَّوْق بضم السين لأنه يساق به البيع والشراء شيئاً بعد شيء، قال الفراء يسوقهم مشاة وقال الأخفش عطاشاً، وقيل أفراداً ومعنى ورداً، عطاشاً، لأن الورد العطاش قاله ابن عباس ولما كان من يرد الماء لا يرده إلا العطش أطلق الورد على العطاش تسميةً للشيء بسببه ولما أشار الله تعالى بقوله يوم نحشر المتقين، الآية أتبعها بذكر المجرمين وقال نسوق المجرمين الآية، وقوله ورداً نصب على المصدر والتقدير فيردون ورداً ونقل عن ابن عباس أنه قال، الورد الإبل العطاش، وقيل، ورداً منصوب على الحال أي حال كونهم مشاة عطاشاً، وأنما قال في المتقين نحشر وفي المجرمين نسوق لأن المجرم بمنزلة الحيوان وكلمة السَّوْق كثيراً ما تقال في الحيوانات يقال ساق الإبل إلى كذا ومنه السَّائق فكأن المجرمين الذين في رأسهم الكفار جعلوا بمنزلة الحيوان والوجه فيه ظاهر.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

قيل المراد بالعهد العمل الصالح و عليه فموضع، من، نصب على أنه استثناء منقطع لأن المؤمن ليس من المجرمين و قد قيل أنه نصب على حذف اللام بمعنى لا يملكون المتقون الشفاعة إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهداً، و العهد على هذا هو الإيمان و الإقرار بوحديته و تصديق أنبياءه فأَنَّ الكفار لا يشفع لهم و نقل عن القراء أنه قال من، في موضع رفع بدلاً من الواو و التّون في قوله: لَا يَمْلِكُونَ، و المعنى لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عهداً، و هو الإيمان.

و قال الزّمخشري، الواو في (لَا يَمْلِكُونَ) أن جعل ضميراً فهو للعباد و دلّ عليه ذكر المتقين و المجرمين لأنهم على هذه القسمة و يجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في قولهم، أكلوني البراغيث، و الفاعل من اتخذ، لأنه في معنى الجمع و محلّ، من، اتخذ، رفع على البدل أو على الفاعلية و يجوز أن ينصب على تقدير حذف المضاف أي إلا شفاعة من اتخذ، و المراد لا يملكون أن يشفع لهم و اتخذ العهد الإستظهار بالإيمان و العمل وعن ابن مسعود أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتخذ كلّ صباح و مساءً عند الله عهداً قالوا و كيف ذلك قال ﷺ يقول كلّ صباح و مساءً اللهم فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أني أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك و أنّ محمداً عبدك و رسولك و أنّك إن تكلمني إلى نفسي تقرّني من البشر و تباعدني من الخير و أنّي لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً تؤفّنيه يوم القيامة أنّك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع و وضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهدٌ فیدخلون الجنة و قيل كلمة الشهادة من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به أي لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها و تعضده مواضع في التّنزيل إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكره الزمخشري في المراد بالعهد لا يمكن المساعدة عليه على إطلاقه وذلك لأن الحديث الذي ذكره هو وغيره من المفسرين يدل على أن من قال كل صباح ومساءً اللهم فاطر السموات والأرض إلى آخره هو في عهد الله فدخل الجنة ولو كان القائل به معاوية ويزيد وعبد الملك وأمثالهم من الظلمة وهذا ممّا لا يقبله العقل السليم هذا أولاً.

ثانياً: ليس البحث في دخول الجنة وعدمه وإنما البحث في الشفاعة وأنها من يملكها يوم القيامة والحديث الذي نقلوه عن ابن مسعود عن رسول الله على فرض صحته لا يدل على أن صاحب العهد يملك الشفاعة بل يدل على أنه يدخل الجنة ولا كلام لنا فيه وبعبارة أخرى دلت الآية على أن مالك الشفاعة من يتخذ عند الرحمن عهداً، وأين هذا ممّا يستفاد من الحديث والذي نفهم من الآية ونعول عليه بقرينة السياق هو أن الله تعالى ذكر في هذه الآيات أن الكفار قالوا كذا وكذا فمن قوله تعالى: **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا إِلَى قَوْلِهِ: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا**، في شأن الكفار والمشركين إلا قوله يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، وحيث أن الكفار كانوا يزعمون أن هؤلاء الأصنام والأوثان يشفعون لهم عند الله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: **وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** ^(١) فلذلك قال في المقام لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً، رداً عليهم وأن الشفاعة تحتاج إلى عهد من الله وعلى هذا فلا يبعد أن يكون المراد بالعهد الإذن من الله تعالى ويدل عليه قوله:

قال الله تعالى: **وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** ^(٣).

قال الله تعالى: **لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ** ^(٤).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

و غيرها من الآيات الدالة على أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِهِ تَعَالَى هَذَا كُلُّهُ
بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّافِعِينَ وَيَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ أَنَّ الْمَشْفُوعِينَ أَيْضًا كَذَلِكَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أَرْتَضَى** ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ^(٢).

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُسْتَفَادَ مِنَ الْآيَاتِ هُوَ أَنَّ الشَّافِعَ وَالْمَشْفُوعَ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَ
إِخْتِيَارِهِ وَأَنْهُمَا لَا يَكُونَانِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَهَذَا هُوَ الْعَهْدُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا
يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا

قَرَأَ الْكَسَائِيُّ وَ نَافِعٌ تَكَادُ بِالْيَاءِ وَ الْبَاقُونَ بِالتَّاءِ وَ قَرَأَ الْكَسَائِيُّ وَ حَفْصٌ
يَتَفَطَّرْنَ بِيَاءٍ وَ تَاءٍ مِنْ تَفَطَّرَ وَ الْبَاقُونَ يَتَفَطَّرْنَ، مِنْ إِنْفَطَرَ.

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ بِأَنَّهُمْ أَيْ الْكَفَّارُ قَالُوا إِنْ أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، كَمَا قَالَتْ
النَّصَارَى أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَ قَالَتْ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ وَ قَالَ بَعْضُ الْكَفَّارِ أَنَّ
الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ الْقَسَمِ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، أَيْ
لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ مُنْكَرًا عَظِيمًا.

قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ إِدًّا، أَيْ أَمْرًا مُنْكَرًا يَقَعُ فِيهِ جَلْبَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَدَّتْ
النَّاقَةُ تَنَدُّ أَيْ رَجَعَتْ حَنِيتَهَا تَرْجِيْعًا شَدِيدًا وَ الْأَدِيدُ الْجَلْبَةُ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْ فَرَعَتْ مِنْهُ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ وَ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ
وَ كَدَنَ أَنْ يَزِلْنَ مِنْهُ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَ قِيلَ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ أَيْ تَسْقُطُ
عَلَيْهِمْ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ أَيْ تَخْسَفُ بِهِمْ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَيْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ.

وقال أبو مسلم تكاد تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول و
انتصب هذاً، على المصدر لأن معنى، تخرّ منهجٌ فقوله: تَخَرُّ الْجِبَالُ هَذَا أَيْ
تنهد الجبال هذاً.

وقال الزّمخشرى فأن قلت ما معنى إنفطار السّموات وإنشقاق الأرض و
خروج الجبال ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات.
قلت فيه وجهان:

أحدهما: أن الله يقول كدت أفعل هذا بالسّموات والأرض والجبال عند
وجود هذه الكلمات غضباً مني على من تفوّ بها لولا علمي وقاري وأني لا
أعجل بالعقوبة كما قال أن الله: يُفْسِكُ السّمَواتِ وَالأَرْضَ.

الثاني: أن يكون إستعظماً للكلمة وتهيلاً من فظاعتها وتصويراً لأثرها في
الدين وهدمها لأركانها وقواعده وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن
يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر
إنتهى.

وقوله: وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، فقد تكلمنا فيه سابقاً وقلنا
أن الولد من شئون الجسم ولوازمه وهو تعالى منزّه عن هذه الأمور ما ثبت في
محله.

أقول الحق أن الكلام في هذه الآيات خرج مخرج المثل وهذه طريقة
للعرب مشهورة في المبالغة كما يقولون، هذا كلامٌ يفلق الصّخر ويهدّ الجبال و
يصرع الطّير ويستنزل الوعول وليس ذلك بكذبٍ منهم بل المعنى أنه لحسنه
وبلاغته يفعل مثل هذه الأمور لو تأتت:

قال الله تعالى: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا
مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(١).

و معنى الكلام إِنَّا لَو أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ وَ كَانَ الْجَبَلُ مِمَّا يَتَّصِدِعُ إِشْفَاقًا
 مِنْ شَيْءٍ أَوْ خَشْيَةً لِّأَمْرِ، لَتَّصَدَعَ مَعَ صَلَابَتِهِ وَ قُوَّتِهِ فَكَيْفَ بِكُمْ يَا مُعَاشِرَ
 الْمَكَلَّفِينَ مَعَ ضَعْفِكُمْ وَ قَلَّتْكُمْ وَ أَنْتُمْ أُولَى بِالْخَشْيَةِ وَ الْإِشْفَاقِ، وَ هَكَذَا مَا نَحْنُ
 فِيهِ فَالْمَعْنَى لَوْ كَانَتِ السَّمَوَاتُ مِمَّا يَتَّقُطِرْنَ وَ الْأَرْضُ مِمَّا يَنْشَقُّ وَ الْجِبَالُ مِمَّا
 يَنْهَدُ، لَكَانَتِ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ تَتَّصِفُ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ مِنْ فَطَاعَةٍ
 هَذَا الْكَلَامِ وَ رِكَائِهِ وَ أَيْ كَلَامٍ أَفْطَعَ وَ أَقْبَحَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الشَّنِيعِ قَالَ الشَّاعِرُ:
 أَمَا وَ جَلَالُ اللَّهِ لَوْ تَذَكَّرْنِي كَذَكَرَاكَ مَا نَهَنَتْ لِلْعَيْنِ مَدْمَعًا
 فَقَالَتْ بَلَى وَ اللَّهُ ذَكَرًا لِمَوَانِهِ تَضْمَنَهُ صَمُّ الصَّافَا لَتَّصَدَعَا
 وَ قَالَ الْآخَرُ:

وَقَفْتُ عَلَى رِبْعٍ لِمَيْتَةٍ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَ أَخَاطِبُهُ
 وَ أَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبَتْهُ تَكَلَّمْنِي أَحْجَارُهُ وَ مَلَاعِبُهُ
 وَ قَالَ الْآخَرُ:

فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْحَصَى فَلَقِ الْحَصَى وَ بِالزَّيْجِ لَمْ يَسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ
 قَالَ فِي التَّبْيَانِ، قَالَ قَوْمُ الْمَعْنَى لَوْ كَانَ شَيْءٌ يَتَّقُطِرُ إِسْتِعْظَامًا لَمَا يَجْرِي مِنَ
 الْبَاطِلِ لَتَّقُطِرَتِ السَّمَوَاتُ إِسْتِعْظَامًا لَمَا يُضِيفُونَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ إِتْخَاذِ الْوَلَدِ
 وَ تَنْشِقِ الْأَرْضِ وَ تَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا.

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا

إِنْ، نَافِيَةٌ أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَوْجُودٍ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا وَ هُوَ عَبْدٌ لِلرَّحْمَنِ
 وَ مَخْلُوقٌ لَهُ وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْمَرَادُ الْعُقْلَاءُ وَ قَوْلُهُ مِنْ، يَدُلُّ عَلَيْهِ لِأَنَّ
 كَلِمَةً مِنْ، لَا تَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي ذَوِي الْعُقُولِ كَمَا أَنَّ مَا، يَشْمَلُ الْجَمِيعَ قَالَ اللَّهُ: لَهُ
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَهُوَ يَشْمَلُ الْجَمِيعَ.

ثَانِيًا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ ذَوِي الْعُقُولِ فَيَصِيرُ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّ جَمِيعَ
 ذَوِي الْعُقُولِ عِبِيدٌ لَهُ وَ الْوَجْهُ فِيهِ ظَاهِرٌ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُمْ وَ أَوْجَدَهُمْ مِنْ

العدم والمخلوق عبداً لخالقه قهراً وهذه الآية في الحقيقة ردٌ على اليهود والنصارى وغيرهم ممن إتخذوا المخلوق آلهة كقولهم في المسيح وعزير ولم يعلموا أن المسيح قد أقرَّ بعبوديته له تعالى حيث قال: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ^(١) ومحصل الكلام أن ما سوى الله كائناً ما كان لا يستحق أن يكون معبوداً وهو ظاهرٌ.

لَقَدْ أَحْصَيْتُهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

اي علم تفاصيلهم وأعدادهم فكأنه عدَّهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم والدليل عليه أنه تعالى خلقهم وأوجدهم ولا يعقل أن يكون الخالق جاهلاً بما خلقه مضافاً إلى أن العلم في الواجب عين ذاته علّة لإيجاد ما سواه فعلمه بذاته علّة لعلمه بمعلوله بل نقول علمه بذاته هو عين العلم بمعلوله قال الله تعالى: **وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ^(٢).

ثالثاً: لو لم يكن عالماً لكان جاهلاً لعدم الوسطة بين العلم والجهل والجهل نقص والنقص من شئون الممكن وهو تعالى واجب الوجود فلو كان جاهلاً يلزم أن يكون ممكناً وقد ثبت أنه واجب وهذا خلفٌ:

قال الله تعالى: **وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ^(٤).

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ^(٥).

والآيات الدالة على عموم علمه كثيرة هذا كله مضافاً إلى أنه يرزقهم الرزاق كيف يكون جاهلاً بمرزوقه والأمر أوضح من أن يخفى على أحدٍ.

١- مريم = ٣٠

٢- الطلاق = ١٢

٣- آل عمران = ٢٩

٤- الأنعام = ٥٩

٥- لقمان = ٣٤

وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا

لا أحد معه ولا ناصر له ولا معين لأن كل أحد مشغول بنفسه لا يهتمه هم غيره وقد ورد أن فاطمة عليها السلام قالت لأبيها يا أبت أخبرني كيف يكون الناس يوم القيامة قال صلى الله عليه وآله يا فاطمة يشغلون فلا ينظر أحد إلى أحد ولا والد إلى الولد ولا ولد إلى أمه الحديث.

وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ^(١).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

لا شك أن السنين للإستقبال إلا أن المفسرين اختلفوا في أن هذا الجعل في الدنيا أو في الآخرة فقال بعضهم إنه في الدنيا وذلك لأن المؤمنين كانوا بمكة حال نزول هذه السورة وكانوا ممقوتين من الكفرة فوعدهم الله بذلك إذا ظهر الإسلام وفشى وقال الآخرون أنه في الآخرة وذلك أن الآية متصلة بما قبلها في المعنى أي أن الله لما أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض حال العبودية والإنفراد أنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم وداً وهو ما يظهر عليهم من كرامته لأن محبة الله للعبد أنما هي ما يظهر عليه من نعمة و امارات غفرانه.

وقال الزمخشري وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحبهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم وقال أيضاً والمعنى سيحدث لهم في القلوب مؤدة ويزرعها فيها من غير تؤدّد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب بها الناس مؤدات القلوب من قرابة أو صداقة أو إصطناع مبرة وغير ذلك وأنما هو اختراع منه ابتداءً إختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظماً لهم وإجلالاً لمكانهم إنتهى.

وقيل في الكلام حذف و التقدير سيدخلهم دار كرامته و يجعل لهم وداً بسبب نزع الغل من صدورهم بخلاف الكفار فأنهم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض و يلعن بعضهم بعضاً و في النار أيضاً يتبأر بعضهم من بعض، ثم أن الجمهور على ضم الواو و قرأ أبو الحرت بفتحها و قرأ جناح بن حبيش وداً بكسر الواو، و اختلفوا في نزولها ف قيل نزلت في عبد الرحمن بن عوف كان اليهود و النصارى و المنافقون يحبونه و كان لما هاجر من مكة إستوحش بالمدينة فشكى ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت و قيل نزلت في المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ألقى الله لهم وداً في قلب النجاشي و ذكر النقاش أنها نزلت في علي بن أبي طالب.

و قد روي الزمخشري عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام يا علي: قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في صدور المؤمنين وداً (مودة).

أقول هذا هو الحق في نزول الآية و به قال كثيرون من مفسري العامة قال في الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية و أخرج ابن مردويه و الديلمي عن البراء قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي عندك وداً و اجعل لي في صدور المؤمنين مودة فأنزل الله تعالى أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً، قال فنزلت في علي إنتهى.

و أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت في علي بن أبي طالب أن الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً، قال محبة في قلوب المؤمنين و قال الألوسي في تفسير روح المعاني و أخرج ابن مردويه و الديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي كرم الله وجهه قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في صدور المؤمنين وداً، فأنزل الله سبحانه هذه الآية و كان محمد بن الحنفية يقول لا تجد مؤمناً إلا و هو يحب علياً كرم الله وجهه و أهل بيته.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

و روى الإمامية خبر نزولها في عليّ عليه السلام عن ابن عباس و الباقر و أيّدوا ذلك بما صحّ عندهم أنّه كرّم الله وجهه قال لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن ييغضني ما أبغضني ولو حببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني و ذلك أنّه قضى فإنقضى على لسان النبي ﷺ أنّه قال لا ييغضك مؤمن و لا يحبك منافق، و المراد المحبة الشرعية التي لا غلو فيه و زعم بعض النصارى حبّه كرّم الله وجهه فقد أنشد الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ يوسف الأنصاري الشاطبي لابن إسحاق النصارى الرّسغني:

عدّي وتيمّم لا أحاول ذكرهم بسوء و لكنّي محبّ لهاشم
وما تعتريني في عليّ و رهطه إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون مابال النصارى تحبهم و أهل التهر من أعرب و أعاجم
فقلت لهم أنّي لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتّى البهائم

و أنت تعلم أنّه إذا صحّ الحديث ثبت كذبه و أظنّ أنّ نسبة هذه الأبيات للنّصراني لا أصل لها و هي من أبيات الشيعة بيت الكذب و كم لهم مثل هذه المكائد كما بيّن في التّحفة الأثني عشرية و الطّاهر أنّ الآية على هذا مدنيّة أيضاً ثمّ العبرة على سائر الروايات في سبب النزول لعموم اللفظ لا بخصوص السّبب إنتهى ما ذكره في الباب بالفاظه و عباراته.

و أنا أقول أنظر إلى هذا المتعصب المعاند للحقّ كيف نسب الأبيات إلى الشيعة و عبّر عنهم ببيت الكذب و الكيد و هذه الأشعار رواها غير واحد من مفسريهم في تفاسيرهم و ليس فيها في تفاسير الشيعة عين و لا أثر و الأخبار الواردة في فضائل أهل البيت و لا سيّما أمير المؤمنين أكثر ممّا رآه الألوسي تحتاج الشيعة في إثبات الفضيلة لعليّ عليه السلام إلى قول النّصراني ذنب الشيعة لو كان النّصراني محبّاً لعليّ عليه السلام و نحن نشير إلى بعض ما ورد في الباب من كتاب شواهد التنزيل للحافظ الحسكاني رغماً لأنف الألوسي و امثاله من المعاندين و الحافظ الحسكاني من أعيان علماء العامة.

ما رواه بأسناده عن علي بن موسى الرضا عن أبائه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب يا علي: قل رب أقذف لي المؤدة في قلوب المؤمنين رب اجعل لي عندك عهداً رب اجعل لي عندك ودّاً، فأنزل الله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)، فلا تلقى مؤمناً مؤمنة إلا وفي قلبه ودٌّ لأهل البيت انتهى.

ما رواه بأسناده عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ يا علي قل اللهم اجعل عندك عهداً و اجعل لي في صدور المؤمنين مؤدة فأنزل الله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً قال نزلت في علي إنتهى.

ما رواه بأسناده عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب يا علي قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في قلوب المؤمنين مؤدة فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً قال أنزلت في علي ابن أبي طالب إنتهى.

ما رواه بأسناده عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ يا علي قل اللهم ثبت لي الود في قلوب المؤمنين و اجعل لي عندك ودّاً و عهداً فقال علي ذلك فقال رسول الله ﷺ ثبتت و رب الكعبة ثم نزلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قَوْلِهِ قَوْماً لَذّاً، فقال رسول الله ﷺ قد نزلت هذه الآية فيمن كان مخالفاً لرسول الله ﷺ لعلي إنتهى.

و قد ذكر أحاديث كثيرة بهذا المضمون أن شئت الوقوف عليها فعليك بكتابه و العجب من الألوسي حيث تمسك في إثبات مدعاه بالتحفة الأثني

عشرية التي لا يعرف أحدٌ من علماء الشيعة، أين هي ومن ألقاها ونسبها اليهم و غفل أو أعرض عناداً عن الكتب المعتمدة عند الخاصة والعامة وللبحث فيه مقام آخر ولنعم ما قيل فيه ^{عليه السلام}:

لد أعطيت مالم يعط خلقاً هنيئاً يا أمير المؤمنين
إليك إشتاقت الأملاك حتى تحنت من تشوقها حيناً
هنالك برا لها الرّحمن شخصاً كسبهك لا يغادره يقيناً

ولم يعلم الألووسي وامثاله أنّ حبّ الله ورسوله إيّاه أكثر من حبّ الناس له لقوله ^{عليه السلام} يحبّه الله ورسوله وقوله ^{عليه السلام} : أنّ الله عزّ وجلّ يكثر من الثناء على عليّ بن أبي طالب فوق عرشه فإشتاق العرش إلى عليّ بن أبي طالب فخلق الله هذا الملك على صورة عليّ ^{عليه السلام} تحت عرشه ليسكن شوق العرش إليه الحديث ^(١).

و الأحاديث الواردة في فضائله ومناقبه و حبّ الله ورسوله وملاكته إيّاه فوق جدّ الإحصاء.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا

و المعنى أنّما يسرنا القرآن بلسانك وجعلناه عربياً لتبشّر به، أي بالقرآن، المتقين، بالجنة، وتذذر، أي تخوف به أي بالقرآن قوماً لُدّاً، أي مخاصمين ذوي جدلٍ وهو من اللدد وهو شدة الخصومة ومنه قوله تعالى: وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ^(٢) فالمعنى وتذذر به أي بالقرآن قوماً لُدّاً أي مخاصماً للحق منكرأ إيّاه هذا ظاهر الآية وعليه جمهور المفسرين ولم يزدوا على ظاهر الآية شيئاً فكانهم قنعوا بتفسير ألفاظها من غير تدبّر فيها.

فنقول قال الراغب في المفردات الألدّ الخصيم الشديد التّأبّي و جمعه،

لُذًا، بَضَمَ اللَّامَ وَ سَكُونِ الدَّالَ الْمَشْدُودَةَ وَأَصْلُ الْأَلَدِ الشَّدِيدِ اللَّدْدُ أَيِ صَفْحَةِ الْعِنَقِ وَ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يُمْكِنَ صَرْفُهُ عَمَّا يَرِيدُهُ وَ فَلَانٌ يَتَلَدُّ أَيِ يَتَلَفُّ وَ انْتَهَى.

ثُمَّ أَتَى أَظُنُّ أَنَّ الْآيَةَ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا قَبْلُهَا بِدَلِيلِ الْفَاءِ الَّتِي تَفِيدُ التَّفْرِيعَ أَيِ أَنَّ فَرْعَ عَلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَلَى أُسَاسِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِيهَا كَمَا مَرَّ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَدِّ مُحِبَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَالْمُرَادُ بِاللُّدِّ هُوَ خُصُومَتُهُ وَ انْكَارُ وَلايَتِهِ فَيُصِيرُ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّمَا يَسِّرُنَا الْقُرْآنَ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَنْذِرُهُ أَيِ بِالْقُرْآنِ قَوْمًا لَدَّا أَيِ قَوْمًا شَدِيدَ الْخُصُومَةِ لِهَوْلَاءِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ حُبَّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِحَسَبِ دَعَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ هَذَا لَا يَنَافِي قَوْلَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ بِاللُّدِّ شَدِيدَ الْخُصُومَةِ لِلْحَقِّ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْحَقَّ مَعَ عَلِيٍّ وَ بِالْعَكْسِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ وَ الْحَقُّ مَعَهُ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ فَالْمُخَاصِمُ لِلْحَقِّ مُخَاصِمٌ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ مُخَاصِمُهُ مُخَاصِمُ الْحَقِّ وَ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ:

مَا رَوَاهُ الْعِيَّاشِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ عِمَارِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** ^(١) وَ ذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا وَ فِي آخِرِهِ وَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ يَسْمَعُ النَّاسُ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ هَبْ لِعَلِيِّ الْمُوَدَّةِ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْهَيْبَةِ وَ الْعِظَمَةِ فِي صُدُورِ الْمُنَافِقِينَ** فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا فَإِنَّمَا يُسِرُّنَاهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَّا

بَنِي أُمَيَّةٍ فَقَالَ، رَكَعَ، وَ اللَّهُ لَصَاحٍ مِنْ تَمَرٍ فِي شَنْ بَالٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا سَأَلَ مُحَمَّدَ رَبِّهِ أَفَلَا سَأَلَهُ مُلْكًا يَعْضُدُهُ أَوْ كَنْزًا يَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى فَاقَتِهِ فَأَنْزَلَ إِلَيْهِ فِيهِ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ هُودٍ أَوَّلُهَا **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** انْتَهَى.

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جُزْء ١٦

الْمَجْلَدُ الْحَادِي عَشَرَ

و في تفسير علي بن إبراهيم، وأما قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الآية، فإنه قال الصادق عليه السلام: كان سبب نزول هذه الآية أَنَّ أمير المؤمنين كان جالسا بين يدي رسول الله ﷺ فقال: له قل يا علي اللهم اجعل لي في قلوب المؤمنين ودأ فأنزل الله، أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الآية، ثم خاطب الله نبيه فقال فَأَتَمَّا يَسِّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ يَعْنِي الْقُرْآنَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ الآية.

و في روضة الواعظين للمفيد عليه السلام قال رسول الله ﷺ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُوَ عَلَيَّ، وَأَمَّا يَسِّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ الآية، قال أَنَّمَا يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ حِينَ أَقَامَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَاءً فَبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْذَرَ بِهِ الْكَافِرِينَ وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، لَذَا، أَيَّ كَفَارًا إِنَّتَهُي.

و في تفسير علي بن إبراهيم مثله، و يظهر من هذه الأخبار أَنَّ المراد باللدَّ من خاتم الرسول في نبوته و أمير المؤمنين في ولايته و محبته و هو المطلوب و قد مرَّ حديث الحافظ الحسكاني في الباب حيث قال، فقال رسول الله ﷺ قد نزلت هذه الآية فيمن كان مخالفاً لرسول الله و لعلي.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأُمَمِ مَا لَا تَحْصُونَ فَقَالَ تَعَالَى يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا أَيَّ ذِكْرًا، وَ قِيلَ أَيُّ صَوْتًا وَ الْمَعْنَى إِنَّا قَدْ أَهْلَكْنَا أُمَمًا كَثِيرَةً أَعْظَمَ مِنْهُمْ كَثْرَةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَشَدَّ خِصَامًا فَلَمْ يَغْنَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَرَدْنَا إِهْلَاكَهُمْ فَقَوْلُهُ مِنْ أَوَّلٍ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ أَيُّ هَلْ تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا وَ تَجِدُ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا، أَيُّ صَوْتًا أَوْ ذِكْرًا وَ قِيلَ الرِّكْزُ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ صَوْتٍ أَوْ حَرَكَةٍ، قَالَ الشَّاعِرُ:

عن ظهر غيبٍ و الأنيس سقامها

وتوجَّست رِكَزَ الأنيس فراعها

و قيل الصَّوْتُ الخَفِيّ و منه ركز الرُّمَحُ إذا غَيَّبَ طرفه في الأرض قال
الشّاعر:

و صادقنا سمع التّوجس لليسرى لركزٍ خَفِيٍّ أو لصوتٍ مندِّ
و كيف كان ففي الآية تهديدٌ و تخويف لمنكري الحَقِّ إذا كان عن عنادٍ و
لجاجة و أمّا إذا كان عن جهلٍ قصوراً لا تقصيراً فلا هذا آخر الكلام في تفسير
سورة مريم و الحمد لله ربّ العالمين.



سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا
تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ
الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ
تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَيْكَ
حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ
عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا
مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ
فَاستَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدْنِي وَاقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ
السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا

وَاتَّبَعَ هَوِيَهُ فَتَزُدْنِي (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا
 مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ أَلأُولَى
 عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ
 أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا
 هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
 سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا أَلأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ
 إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً
 أُخْرَى (٢٢) لِتُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا أَلْكُبْرَى (٢٣)
 إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ
 أَسْرِخْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَ
 أَخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)
 وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ
 أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي (٣٠) وَ أَشْرِكُهُ فِي
 أَمْرِي (٣١) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٢) وَ نَذْكُرَكَ
 كَثِيرًا (٣٣) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٤) قَالَ قَدْ
 أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

اللغة

جزء ١٦

آسَوَى: الإستواء الإستيلاء و قيل معناه إستوى لطفه و تدبيره.

أَلْزَى: أَلْزَى التراب الندى.

أَمْكُتُوا: المكث اللَّبث أي ألبثوا مكانكم.

بِقَبَسٍ: القبس الشعلة و هو نار في طرف عود أو قصبه.

المجلد الحادي عشر

فَاخْلَعْ: الخلع النَّزع يقال خلع ثوبه عن بدنه و خلع نعله عن رجله.

الْوَادِي: سفح الجبل.

طُوًى: إسم للوادي.

فَتَرَدَّى: أي فتهلك يقال ردى يردى إذا هلك.

أَهْشُ: أي أخطب بها ورق الشجر اليابس لترعاه غنمي.

مَارِبٌ: الأرب الحاجة.

◀ الإعراب

إِلَّا تَذَكُّرَةً هو إستثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة أي للتذكرة و قيل هو مصدر أي لكن ذكرنا به تذكرة و قيل مصدر في موضع الحال تنزيلاً مصدر أي أنزلناه تنزيلاً و قيل هو مفعول، يخشى، و من متعلقة به أَلْعَلِّي بضم العين جمع العليا لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ مبتدأ و خبر أَخْفَى يجوز أن يكون فعلاً ومفعوله محذوف أي و أخفى السّر عن الخلق و يجوز أن يكون إسماً أي و أخفى منه إِذْ رَأَوْا إذ ظرف للحديث أو مفعول به أي أذكر نُودِيَ المفعول القائم مقام الفاعل مَضْمَر أي نودي موسى و قيل هو المصدر أي نودي النداء و ما بعده مفسر له طُوًى يقرأ بالضم و التنوين و هو إسم للوادي و هو بدل منه و يجوز فيه الرفع أي هو طوى و يقرأ بغير تنوين على أنه معرفة مؤنث إسم للبقعة و قيل هو معدول و أن لم يعرف المعدول عنه لِذِكْرِ اللَّامِ تَتَّعَلَقُ، بأقم، و التقدير عند ذكرك إِيَّاي فالمصدر مضاف إلى المفعول و قيل إلى الفاعل أي لذكري إِيَّاكَ أو إِيَّاهَا بِمَا تَسْعَى ما، مصدرية بمعنى الَّذِي فَتَرَدَّى يجوز فيه النصب على جواب النهي و الرفع أي فإذا تردى وَ مَا تِلْكَ ما، مبتدأ و، تلك، خبره و هو بمعنى، هذه و يَمِينُكَ حال يعمل فيه معنى الإشارة و قيل هو بمعنى الَّذِي فيكون، يمينك، صفة لها أَتَوْكُمُا موضعه حال من الباء، أو من العصا.

و قيل هو خبر، هي، و عصاي مفعول بفعل محذوف، و قيل هي خبر، و أتوكأ، خبر آخر (تسعى) يجوز أن يكون خبراً ثانياً، و أن يكون حالاً سيرتها آلأولى هو يدل من ضمير المفعول بدل الإشتمال و يجوز أن يكون ظرفاً أي في طريقتهما و ييضاءَ حال و مِنْ عَيْرِ سُوءِ صفة لبيضاء أو حالاً من الضمير في ييضاء أو حال من الضمير في الجار، و قيل منصوبة بفعل محذوف أي و جعلناها آية أو آيتناك آية و لِنُرِيكَ متعلق بهذا المحذوف مِنْ لِسَانِي يتعلق بأحلل أو يكون وصفاً لعقدة.

◀ التفسير

طه اختلف المفسرون في معناه كما اختلفوا في غيره من الحروف المقطعة في أوائل السور و المشهور عندهم أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا هو و قيل أنها أسماء للسور القرآنية.

قال ابن عباس معناه يا رجل و قيل أنها لغة معروفة في عكِل و قيل في عكَّ.

قال الكلبي لو قلت في عكَّ لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول، طه و أنشد الطبري في ذلك.

دعوت بظه في القتال فلم يجب فحفت عليه أن يكون مؤملاً
و قال عبد الله بن عمرو معناه يا حبيبي بلغة عكَّ.
و قال قطرب هو بلغة، علي.

قال الشاعر:

أَنَّ السَّفَاهَةَ طه من شمائلكم لا بارك الله في القوم الملاعين
و حكى الطبري أنه بالنبطية يا رجل.

و قال عكرمة بلسان الجثة و الأقوال فيه كثيرة و الحق أنها من لغة العرب و أن وجدت في لغة أخرى.

و قال بعض المفسرين أنه أي، طه، من أسماء النبي ﷺ و قد روي عنه ﷺ أنه قال، لي عند ربي عشرة أسماء فذكر أن فيها، طه، و يس، و منه قول الشاعر:

سلام على آل طه وياسين
و المشهور أنه إسم للسورة و مفتاح لها و الله أعلم.

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى

الشقاوة خلاف السعادة، يقال شقى يشقى شقوة و شقاوة و شقاء.

قال الله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ^(١).

و قرأ شقاوتنا فالشقوة كالردة و الشقاوة كالشقاوة من حيث الإضافة فكما أن السعادة في الأصل ضربان، سعادة اخروية و سعادة دنيوية ثم الدنيوية ثلاثة أضرب، نفسية، بدنية، خارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب الشقاوة الأخروية.

قال الله تعالى: فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى^(٢).

قال الله تعالى: غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا.

و قرأ شقاوتنا، و في الدنيوية:

قال تعالى في كتابه: فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى^(٣).

قال بعض الأدباء قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت في كذا وكل شقاوة تعب و ليس كل تعب شقاوة فالتعب أعم من الشقاوة قاله في المفردات و على هذا فقوله تعالى: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى أي لتتعب و لذلك قالوا الشقاء في اللغة العناء و التعب قال الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم لعقله و أخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فمعنى، لتشقى، لتتعب أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفطر فأسفك عليهم وعلى كفرهم و تحسرك على أن يؤمنوا.

و روي أن أبا جهل بن هشام والنضر بن الحرث قالا للنبي ﷺ أنك شقي لأنك تركت دين آباءك فنزلت وقيل في سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يتحمل من مشقة الصلوة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج الى الترويح بين قدميه.

و قال مجاهد كان النبي ﷺ وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلوة بالليل من طول القيام ثم ننسخ ذلك بالغرض فنزلت هذه الآية.

و قال الكلبي لما نزل الوحي على النبي بمكة اجتهد في العبادة وإشتدت عبادته فجعل يصلي الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية فأمر الله أن يخفف عن نفسه فيصلّي و ينام فنسخت هذه الآية قيام الليل فكان بعد هذه الآية يصلي و ينام، و قال مقاتل و الضحاک فلما نزل القرآن على النبي ﷺ قام هود و أصحابه فصلوا فقال كفار قريش ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا لتشقى فأنزل الله، طه يقول يا رجل:، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، أي لتتعب.

أقول ما ذكروه في سبب النزول لا بأس به لو دلّ الدليل على صحته و الحق على ما يستفاد من ظاهر الآية هو أن النبي ﷺ كان في بدء الأمر قد أتعب نفسه إما بكثرة الصلوة و أما بتبليغ الرسالة فقال الله تعالى: مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى.

أما أن هذا التعب من أين حصل له من الصلوة أو من غيرها فالله أعلم.

نعم يظهر من الأخبار الواردة عن العترة أن التعب كان من الصلوة.

ففي تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله و أبي جعفر عليهما السلام قالوا: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام على أصابع رجليه حتى تورم فأنزل الله تبارك و تعالى، طه، بلغة طي يا محمد، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إنتهى.

و في كتاب معاني الأخبار بأسناده عن الصادق عليه السلام في حديث طويل يقول فيه، وأما طه، فإسم من أسماء النبي صلى الله عليه وآله ومعناه يا طالب الحق الهادي اليه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد إنتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول الله لم تتعب نفسك غفر لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخر فقال صلى الله عليه وآله يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً، قال و كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إنتهى.

و في كتاب الإجماع للطبرسي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آباءه عن الحسين بن علي عليه السلام: قال أمير المؤمنين ولقد قام رسول الله عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورت قدماه و إصفر وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عز وجل: طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به الحديث. و الأحاديث كثيرة.

إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى

قوله: تَذَكُّرَةً هو منصوب على المصدر أي أنزلناه لتذكّر به تذكرة أو على المفعول من أجله أي ما أنزلناه إلا للتذكرة، و التذكرة ما يتذكر به الشيء و هو أعم من الدلالة و الإمارة.

قال الله تعالى: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرَةِ مُغْرِضِينَ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا^(١).

قال الله تعالى: وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ^(٢).

قال الله تعالى: نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَتَعَاوَنًا لِلْمُقْوِينَ^(٣).

وفي قوله: لِمَنْ يَخْشَى إشارة الى أنَّ القرآن ليس تذكرة للقاسية قلوبهم و ذلك لأنَّ الخشية، خوفٌ يشوبه تعظيمٌ و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و لذلك حصَّ العلماء بها:

قال الله تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ^(٤).

قال الله تعالى: إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشِيهَا^(٥).

قال الله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى^(٦).

و الحاصل أنَّ الخشية أعني بها الخوف الناشئ عن العظمة و الكبرياء هي الأصل في قبول النصح و الموعظة فمن لا خشية له لا يستفيع بالآيات و المواعظ و لذلك قال لمن يخشى و قال بعض المفسرين التذكرة هي البشارة و النذارة و أنَّ ما إدعاه المشركون من إنزاله للشقاء ليس كذلك بل أنما نزل تذكرة إنتهى.

تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى

قوله: تَنْزِيلًا، منصوب منزَّل مضمرة أي نزل تنزيلًا مِّمَّنْ خلق الأرض و السموات العلى.

و من المعلوم أنَّ خالقها هو الله تعالى فالمعنى أنَّ الله نزل القرآن تنزيلًا، و فيه إشارة الى أنَّ القرآن كلام الخالق لا كلام المخلوق كما زعم المشركون و العلوى بضمَّ العين جمع العلياء مثل كبرى و صغرى، و كبر و صغر، و أنما أتى

فصل القرآن في تفسيره

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

٢- الحاقة = ٤٨

٤- فاطر = ٢٨

٦- النازعات = ٢٦

١- المزمل = ١٩

٣- الواقعة = ٧٣

٥- النازعات = ٤٥

بصيغة الجمع مراعاة للسَّمَوَاتِ والمراد بالعلو جهة الفوق أن كان العلو حسياً
فإنَّ السَّمَوَاتِ أعلى من الأرض و يحتمل أن يكون إتصاف السَّمَوَاتِ بالعلو
من جهة أنها مقر الملائكة المقربين والمقصود أنَّ الذي خلق الأرض و
السَّمَوَاتِ هو الذي أنزل القرآن على عبده و رسوله فمن أنكر المنزل أنكر
الخالق و هو ظاهر و مع ذلك ففيه إخبار عن عظمته و جبروته و جلاله

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

الرَّحْمَنُ رفع بأنَّه خبر مبتدأ أي هو الرَّحْمَنُ وذلك لأنَّه لما قال تنزيلاً ممَّن
خلق بيَّنه فكأنَّه قال هو الرَّحْمَنُ، و قيل يجوز فيه النصب على المدح و الجز
على البدل، و قال النَّحاس رفع على الإبتداء و أمَّا الخبر فهو قوله: لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ، ثُمَّ أَنَّ الرَّحْمَنَ لا يطلق إلا على الله تعالى من حيث أنَّ
معناه لا يصح إلا له إذ هو الذي وسع كلَّ شيء رحمةً بخلاف الرَّحِيمِ فإنَّه قد
يستعمل في غيره تعالى كما قال في وصف رسوله: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ الى قوله: بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ و قيل أنَّ الله تعالى رحمن الدُّنيا و
رحيم الآخرة و ذلك أنَّ إحسانه في الدُّنيا عامٌّ يشمل الكافر و المؤمن و أمَّا في
الآخرة فهو مختصٌّ بالمؤمنين و كيف كان فإنَّ الرَّحْمَنَ من أسماء الله تعالى
مختصٌّ به، و العرش، بفتح العين و سكون الراء في الأصل شيء متَّصف و
جمعه عروش:

قال الله تعالى: وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْ ذَاكِ عَلَى عَرْشِهَا^(١).

قال الله تعالى: وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْ ذَاكِ عَلَى عَرْشِهَا^(٢).

و قوله: إستوى على العرش فإنَّ الإستواء الإستلاء و قيل معناه إستوى
لطفه و تدبيره و المعنى أنَّ الرَّحْمَنَ إستولى على عرشه أو إستوى لطفه و
تدبيره في حقَّ الجميع و الأوَّل أشهر و أقوى.

وَأَعْلَمُ أَنَّ عَرْشَ اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا بِالْإِسْمِ وَلَيْسَ كَمَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ أَوْهَامُ الْعَامَّةِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ عَامِلًا لَهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ لَا مَحْمُولًا.

قال الزَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَرْشَ مَا اِخْتَلَفُوا فِي الْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنْهُ فَقَالَ الْقِفَالُ الْعَرْشُ فِي قَوْلِهِ **الْرَحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**، بِمَعْنَى الْمَلِكِ وَقِيلَ هُوَ السَّرِيرُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ ثُمَّ جَعَلَ كُنَايَةً عَنْ نَفْسِ الْمَلِكِ يُقَالُ قَلَّ عَرْشُهُ أَيْ أَمَقَّصَ مُلْكُهُ وَقَالُوا اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ اسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ الْعَرْشَ بِالْجِسْمِ الْأَعْظَمِ وَالْإِسْتَوَاءَ بِمَعْنَى الْإِسْتِيلَاءِ.

قال الزَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ اِتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ فَوْقَ السَّمَوَاتِ جِسْمًا عَظِيمًا هُوَ الْعَرْشُ وَ اِخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْعَرْشِ هُنَا فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ سَطَحَهَا وَرَفَعَ سَمَكَهَا فَأَنَّ كُلَّ بِنَاءٍ يُسَمَّى عَرْشًا وَ بَانِيهِ يُسَمَّى عَارِشًا قَالَ تَعَالَى: **وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** وَالْإِسْتَوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ هُوَ الْإِسْتِعْلَاءُ عَلَيْهِ بِالْقَهْرِ وَ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَرْشِ الْجِسْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الْمَلِكُ وَ مَلِكُ اللَّهِ عِبَارَةٌ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَ وَجُودَ مَخْلُوقَاتِهِ أَنَّمَا حَصَلَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَا جَرَمَ صَحَّ إِدْخَالُ حَرْفِ (ثُمَّ) عَلَيْهِ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُرَادَ إِسْتَوَاءَهُ عَلَى عَالَمِ الْأَجْسَامِ بِالْقَهْرِ وَ الْقُدْرَةِ وَ التَّدْبِيرِ وَ الْحِفْظِ يَعْنِي أَنَّ مَنْ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى فِي حِفْظِهِ وَ تَدْبِيرِهِ الْإِحْتِيَاجُ إِلَيْهِ فَسَأَلَ بِهِ خَبِيرًا وَ الْبَاءُ فِي، بِهِ، بِمَعْنَى، عَنْ، أَيْ عَنْهُ وَ الْخَبِيرُ هُوَ اللَّهُ أَوْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

قال المجلسي رحمته الله فِي الْبَحَارِ إِعْلَمُ أَنَّ مُلُوكَ الدُّنْيَا لَمَّا كَانَ ظُهُورُهُمْ وَ إِجْرَاءُ أَحْكَامِهِمْ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ أَنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ صُعُودِهِمْ عَلَى كُرْسِيِّ الْمَلِكِ وَ خُرُوجِهِمْ عَلَى عَرْشِ السُّلْطَانَةِ وَ مِنْهُمَا تَظْهَرُ آثَارُهُمْ وَ تَتَبَيَّنُ أَسْرَارُهُمْ وَ اللَّهُ

سبحانه لتقدسه عن المكان لا يوصف بمحل ولا قصر وليس له عرش كرسي يستقر عليهما بل يطلقان على أشياء من مخلوقاته أو صفاته الكمالية على وجه المناسبة فالكرسي والعرش يطلقان على معانٍ.

أحدهما: أنهما جسمان عظيمان خلقهما الله فوق سبع سموات و ظاهر أكثر الأخبار أن العرش أرفع وأعظم من الكرسي ويلوح من بعضها العكس والحكماء يزعمون أن الكرسي هو الفلك الثامن والعرش هو الفلك التاسع وظواهر الأخبار تدل على غير ذلك من كونهما مرتبعتين ذاتي قوائم وأركان وربما يأولان بالجهات والحدود والصفات التي بها إستحقا التعظيم والتكريم ولا حاجة لنا الى هذه التكاليف وأنما سميا بالإسمين لبروز أحكامه وتقديراته من عندهما وإحاطة الكرويين والمقرئين وأرواح النبين والأوصياء بهما وعروج من قرينه من جنبه اليها كما أن أوامر الملوك وأحكامهم وآثار سلطنتهم وعظمتهم تبدو منهما وتطيف مقرّبوا جنابهم وخواص ملكهم بها وساق الكلام الى أن قال ﷺ.

ثانيها: العلم كما عرفت إطلاقها في كثير من الأخبار عليه وذلك لأن منشأ ظهوره سبحانه على خلقه العلم والمعرفة وبه يتجلى على العباد فكأنه عرشه وكرسيه سبحانه وحملتها بيننا وأثمتنا لأنهم خزان علم الله في سماءه وأرضه لا سيما ما يتعلق بمعرفته سبحانه.

ثالثها: الملك وقد مر إطلاقهما عليه في خبر حنان والوجه ما مر أيضاً.

رابعها: الجسم المحيط وجميع ما في جوفه أو جميع خلق الله ويستفاد من بعض الأخبار إذ ما من شيء في الأرض ولا في السماء وما فوقها إلا من آيات وجوده وعلامات قدرته وأثار وجوده وفيضه وحكمته بجميع المخلوقات عرش عظمته وجلاله وبها تجلى على العارفين بصفات كماله وهذا أحد المعاني التي خطرت ببالي الفاجر.

خامسها: إطلاق العرش على كل صفة من صفاته الكمالية والجلالية إذ كل منها مستقر لعظمته وجلاله وبها يظهر لعباده على قدر قابليتهم ومعرفتهم فله عرش العلم وعرش القدرة وعرش الرحمانية وعرش الرحيمية وعرش الوحدانية وعرش التنزه وقد أول الوالد قدس سره الخبر الذي ورد في تفسير قوله: **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى** أن المعنى إستوى من كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء، أن المراد بالعرش هنا عرش الرحمانية والظرف حال أي الرب حال كونه على العرش الرحمانية، إستوى من كل شيء إذ بالنظر إلى الرحيمية التي عبارة عن الهدايات والرحمات الخاصة بالمؤمنين أقرب والمراد أنه سبب صفة الرحمانية حال كونه على عرش الملك والعظمة والجلال إستوى نسبته إلى كل شيء وهي فائدة التقييد بالحال نفى توهم أن هذا الإستواء مما ينقص من عظمته وجلاله شيئاً.

سادسها: إطلاق العرش على قلب الأنبياء والأوصياء وكل المؤمنين فأن قلوبهم مستقر محبته ومعرفته سبحانه كما روي أن قلب المؤمن عرش الرحمن.

وروي أيضاً في الحديث القدسي لم يسعني سمائي ولا أرضي وسعني قلب عبدي المؤمن إنتهى كلامه رفع مقامه والله تعالى أعلم بحقيقة كلامه.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى
الآم في، له، للملك أو للاختصاص ومن المعلوم أن الخالق مالك المخلوق وأن العبد وما في يده كان لمولاه فإذا ثبت كونه خالقاً لما سواه فهو مالك لجميع ما سواه وهذه الملكية ذاتية لا عرضية أي أنها ثابتة له تعالى في مقام ذاته فلا يمكن سلبها عن الذات ولذلك نقول المالك الحقيقي هو الله تعالى لا يشاركه فيه أحد وأما الملكية في المخلوق عرضية أعطاها الله إياه فإذا شاء

أخذها و قوله: **وَمَا تَحْتِ الْأَثَرِ** فالثرى التراب التدى والمعنى و ما تحت الأرض فأث الثرى في الحقيقة الأرض و أنما خصه بالذكر لأنه ليس داخلًا في ما بينهما و أن شئت قلت أن الله تعالى يملك ما بين السماء والأرض من المحسوسات و ما تحت الأرض من الموجودات التي لا تحس و لا ترى و لازم ذلك أن يكون المملوك مطيعاً لربه خاضعاً لربوبيته كما هو شأن المملوك بالنسبة إلى مولده و خالقه.

وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى

الجهر رفع الصوت يقال، جهر يجهر جهراً فهو جاهر والصوت مجهور و ضده الهمس، و السر بكسر السين ما حدث به الإنسان غيره في خفية و أخفى، منه ما أضمره في نفسه و لم يحدث به غيره قاله ابن عباس و قال سعيد بن جبير السر ما أضمره العبد في نفسه و أخفى منه ما لم يكن و لا أضمره أحد، و قال قوم، أخفى، بمعنى الخفي و رد هذا القول بأنه ترك الظاهر و عدولاً بلفظة أفعّل، إلى غير معناها من غير ضرورة.

و قال بعضهم السر مقابل الجهر كما قال تعالى سرّكم و جهركم، و قيل السر ما سرّه في نفسه و الأخرى ما خفى عنه ممّا هو فاعله و لا يعلمه.

و قال مجاهد السر ما تخفيه من الناس و أخفى منه الوسوسة و قيل السر العزيمة و أخفى منه ما لم يخطر على القلب و نقل عن بعض السلف أنه قال، و أخفى فعل ماضٍ لا أفعّل تفضيل أي يعلم أسرار العباد و أخفى عنهم ما يعلمه و هو كقوله: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ** (١) و لا يخفى عليك ضعف هذا القول و الحق ما ذهب إليه المشهور من أن السر ما حدث في خفية و أخفى منه ما أضمره في نفسه فتقدير الآية يعلم السر و

أخفى منه و أنما حذف منه، لدلالة الكلام عليه كما تقول فلان كالقيل أو أعظم وهذا كالحجة أو أصغر، أي أعظم منه و أصغر منه ثم أن الدليل على أنه يعلم السر و أخفى منه، هو أن الله تعالى خالق الإنسان و موجدته و هذا ممّا لا كلام فيه، و الخالق عالم بجميع شئون مخلوقه و إلا يلزم أن لا يكون خالقاً له و العلم من توابع الوجود فإذا كان الوجود منه تعالى فالعلم أيضاً منه سواء جهر به المخلوق أو أسر به و هكذا جميع صفات العبد.

ثانياً: نقول أن الله تعالى عالمٌ بذاته و ذاته علّة لإيجاد ما سواه فما سواه معلول له و العلم بالعلّة يستلزم العلم بالمعلول تفضيلاً فهو يعلم السر و أخفى منه لأنّه داخل في سلسلة المعلولات و هو ظاهر.

ثالثاً: لو لم يعلم السر و أخفى منه لزم أن يكون جاهلاً و الجهل نقص و النقص من شئون الممكن و قد فرضناه واجباً هف فثبت و تحقّق أن الله عالم بجميع الأمور ظاهرها و باطنها و لا يخفى عليه شيء و العقل و النقل يشهدان بذلك كما مرّ البحث فيه مراراً.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

قال الزّمخشري الحسنى تأنيث الأحسن و صفت بها الأسماء لأنّ حكمها حكم المؤنث كقولك الجماعة الحسنى و مثلها قارب أخرى و من آياتنا الكبرى و الذي فضّلت به أسماءه في الحسن سائر الأسماء دلالتها على معاني التقديس و التمجيد و التعظيم و الرّبوبية و الأفعال التي هي النّهاية في الحسن إنتهى كلامه.

و ذكروا أنّ هذه الأسماء هي التي قال فيها رسول الله ﷺ أنّ لله تسعاً و تسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة:

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ^(١).

قال الله تعالى: أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى^(١).

قال الله تعالى: هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى^(٢).

وَهَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى، إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى
قوله: وَ هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى خطاب للنبي ﷺ وتسليه له مما ناله من أذى قومه والتثبيت له بالصبر على أمر ربه كما صبر موسى و قال بعضهم لما ذكر تعالى تعظيم كتابه وتضمن تعظيم رسوله أتبعه بقصة موسى ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة و تكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد:

قال الله تعالى: وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ^(٣).

قال الله تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ^(٤).

و هل هذا إستفهام تقرير يحث على الإصغاء لما يلقى إليه و على التأسى و قيل هل، بمعنى قد، أي قد أتاك حديث موسى و القول الأول هو الحق إذ رأى نَارًا أي حين رأى نارا فقال لِأَهْلِهِ امْكُثُوا أي البشوا مكانكم (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا أي رأيْتُ نارا والإيناس وجدان الشيء لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ القبس الشعلة و هو نار في ظرف عود أو قصبة و المعنى لعلِّي آتيكم بنار تصطلون به أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى أي أجد من يدلني على الطريق الذي أضللتناه أو ما إستدل به عليه.

قال القرطبي إستأذن موسى شعبياً في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله و غنمه و ولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة و قد عاد عن

الطَّرِيقَ وَ تَفَرَّقَتْ مَاشِيَتُهُ فَقَدَحَ مُوسَى النَّارَ فَلَمْ تَوَرَّ الْمَقْدَحَةُ شَيْئاً إِذْ بَصُرَ بِنَارٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَى يَسَارِ الطَّرِيقِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ آمَكُثُوا، أَيِ أَقِيمُوا بِمَكَانِكُمْ، إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا، أَيِ أَبْصَرْتُ فَلَمَّا تَجَّهَ نَحْوَ النَّارِ فَإِذَا النَّارُ فِي شَجَرَةٍ عَنَابٍ فَوْقَ مُتَعَجِّباً مِنْ حَسَنِ ذَلِكَ الصُّوِّ وَ شِدَّةِ خُضْرَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ فَلَا شِدَّةَ حَرٍّ النَّارُ تَغْيِيرَ حَسَنِ خُضْرَةِ الشَّجَرَةِ وَ لَا كَثْرَةَ مَاءِ الشَّجَرَةِ وَ لَا نِعْمَةَ الْخُضْرَةِ تَغْيِيرَانِ حَسَنِ ضَوْءِ النَّارِ وَ ذَكَرَ الْمَهْدُويُّ فَرَأَى النَّارَ فِي شَجَرَةٍ مِنَ الْعَلْيَقِ فَقَصَّدهَا فَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ فَرَجَعَ وَ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ثُمَّ دَنَتْ مِنْهُ وَ كَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّجَرَةِ إِنَّتَهِيَ مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

وَ قَالَ الطَّبْرِيُّ نَقْلًا عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ وَهَبِ بْنِ مِنْبِهِ الْيَمَانِيِّ قَالَ قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ خَرَجَ وَ مَعَهُ غَنَمٌ لَهُ وَ مَعَهُ زَنْدٌ لَهُ وَ عَصَاهُ فِي يَدِهِ يَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِهِ نَهَارًا فَإِذَا أَمْسَى اقْتَدَحَ بَزَنْدِهِ نَارًا فَبَاتَ عَلَيْهَا هُوَ وَ أَهْلُهُ وَ غَنَمُهُ فَإِذَا أَصْبَحَ غَدًا بِأَهْلِهِ وَ بَغَنَمِهِ فَتَوَكَّأَ عَلَى عَصَاهُ فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ بِمُوسَى كِرَامَتَهُ وَ ابْتَدَأَ فِيهَا بَنُوتَهُ وَ كَلَامَهُ أَخْطَأَ فِيهَا الطَّرِيقَ حَتَّى لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ فَأَخْرَجَ زَنْدَهُ لِيَتَقَدَّحَ نَارًا لِأَهْلِهِ لِيَبْتَئُوا عَلَيْهَا حَتَّى يَصْبَحَ وَيَعْلَمَ وَجْهَ سَبِيلِهِ فَأَصْلَدَ زَنْدَهُ فَلَا يَورِي لَهُ نَارًا فَقَدَحَ حَتَّى أَغْيَاهَ لَاحَتِ النَّارُ فَرَأَاهَا فَقَالَ لِأَهْلِهِ آمَكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي أَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هَدًى وَ عَنِي بِقَوْلِهِ: افْتَشْتُ نَارًا، وَجَدْتُ إِلَى أَنْ قَالَ وَ أَتَمَّا أَرَادَ مُوسَى بِقَلْدِهِ لَعَلِّي أَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَتِيكُمْ بِذَلِكَ لِيَصْطَلُوا بِهِ إِنَّتَهِيَ هَذَا مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَقَامِ وَ حَيْثُ انْجَرَّ الْكَلَامُ إِلَى هَاهُنَا فَلَا يَدُّ لَنَا مِنْ ذَكَرِ أَصْلِ الْقِصَّةِ مِنْ حِينَ حَمَلَهُ إِلَى نُبُوتِهِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ هُمْ أَدرَى بِمَا فِي الْبَيْتِ فَنَقُولُ:

رَوَى الْمَجْلِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْبَحَارِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: أَنْ مَوْسَى لَمَّا حَمَلَتْ أُمُّهُ بِهِ لَمْ يَظْهَرْ حَمْلُهَا إِلَّا عِنْدَ وَضْعِهِ وَ كَانَ فَرْعُونَ قَدْ وَكَّلَ بِنِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نِسَاءً مِنَ الْقَبْطِ يَحْفَظُهُنَّ وَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ بَلْغُهُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ أَنَّهُ يُولَدُ فِينَا رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ يَكُونُ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي فِي خَلْقِ خَلْقِهِ

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

هلاكَ فرعون وأصحابه على يديه فقال فرعون عند ذلك لأقْتَلَنَّ ذكور أولادهم حتَّى لا يكون ما يريدون وفرَّق بين الرِّجال والنِّساء وحبس الرِّجال في المجالس فلمَّا وضعت أم موسى بموسى نظرت وحزنت وإعْتَمَتْ وبكت وقالت يذبح السَّاعة فعطف الله بقلب الموكَّلة عليه فقالت لأم موسى مالك قد إصْفَر لونك فقالت له أخاف أن يذبح ولدي فقالت لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلَّا أحبَّه وهو قول الله عزَّ وجلَّ، وألقيت عليك محبة مني، فأحبَّته القبطية الموكَّلة به وأنزل الله على أم موسى التَّابوت ونوديت أمه ضعيه في التَّابوت فأقذفيه في اليم وهو البحر ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين فوضعه في التَّابوت وأطبقت عليه وألقته في النيل وكان لفرعون قصور على ط النيل فنظر من قصره ومعه آسية إمرأته إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج وتضربه الرِّياح حتَّى جاءت على باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التَّابوت ورفع اليد فلمَّا فتحه وجد فيه صبيًّا فقال هذا إسرائيلي فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبةً شديدةً وكذلك في قلب آسية وأراد فرعون أن يقتل فقالت آسية لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتَّخذه ولدًا وهم لا يشعرون أنه موسى ولم يكن لفرعون ولد فقالت إلتمسوا له ظنًّا تربيه فجاءوا بعدة نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن أحدٍ من النِّساء وهو قوله الله وحَرَّمنا عليه المراضع من قبل وبلغ أمه أن فرعون قد أخذه فحزنت وبكت كما قال الله فأصبح فؤاد أم موسى فارغاً كادت لتبدي به يعني كادت أن تخبرهم بخبره أو أتموت ثم ضبطت نفسها فكانت كما قال لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ثم قالت لاخت موسى قصيه أي إتبعه فجاءت أخته إليه فبصرت به عن جنبٍ أي عن بعدٍ وهم لا يشعرون فلمَّا لم يقبل موسى مأخذ ثدي أحد من النِّساء إغْثَم فرعون غمًّا شديدًا فقالت أخته هل أدلِّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فقالوا نعم فجاءت بأمه فلمَّا أخذته في حجرها وإلتقمته نديها إلتقمته وشرب ففرح فرعون وأهله و

أكرموا أمه فقالوا لها ربّه لنا فإنا نفعل بك و نفعل كذا و ذلك قول الله فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها و لا تحزن و لتعلم أنّ وعد الله حقّ و لكن أكثرهم لا يعلمون فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلّما يلدون و يرّبي موسى ويكرمه يعلم أنّ هلاكه على يديه فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى الحمد لله ربّ العالمين فأنكر ذلك عليه و لطمه و قال ما هذا الذي تقول فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللّحية فهلبتها أي قلع بعضها فهمّ فرعون بقتله فقالت إمرأته غلامٌ حدث لا يدري ما يقول فقال فرعون بلى يدري فقالت له ضع بين يديك تمرّاً و جمرّاً فإن ميّز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمرّاً و جمرّاً فقال له كل فمّد يده إلى التّمر فجاء جبرئيل فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فأحترق لسانه فصاح و بكى فقالت آسية لفرعون ألم أقل لك أنّه لا يعقل فعفى عنه قال الرّأوي فقلت لأبي جعفر عليه السلام فكم مكث موسى غائباً عن أمه حتّى رده الله عليها قال عليه السلام ثلاثة أيّام فقلت فكان هارون أخا موسى لأبيه و أمه قال عليه السلام نعم أما تسمع الله يقول يا ابن أمّ لا تأخذ بليحيّتي برأسي، فقلت فأيتهما أكبر سنّاً قال عليه السلام هارون قلت و كان الوحي ينزل عليهما جميعاً قال عليه السلام كان الوحي ينزل على موسى يوحيه إلى هارون فقلت له أخبرني عن الأحكام و القضاء و الأمر و النّهي أكان ذلك إليهما قال عليه السلام كان موسى الذي ينادي ربّه و يكتب العلم و يقضي بين بني إسرائيل و هارون يخلفه إذا غاب عن قومه للمناجات قلت فأيتهما مات قبل صاحبه قال عليه السلام مات هارون قبل موسى و ماتا جميعاً في التّيه قلت فكان لموسى ولد قال عليه السلام لا كان الولد لهارون و الذريّة له، فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتّى بلغ مبلغ الرّجال و كان ينكر عليه ما يتكلّم به موسى من التّوحيد حتّى همّ به فخرج موسى من عنده و دخل المدينة فإذا رجلاًن يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى و الآخر يقول بقول فرعون، فاستغاثة الذي هو من شيعته، فجاء موسى فوكز صاحبه فقضى عليه و توارى

في القرآن
في تفسير
القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر

في المدينة فلمّا كان من الغد جاء آخر فتّبت بذلك الرّجل الّذي يقول يقول موسى فاستغاث بموسى فلمّا نظر صاحبه إلى موسى، قال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس فخلّى عن صاحبه و هرب وكان خازن فرعون مؤمناً بموسى قد كتم إيمانه ستة مائة سنة وهو الّذي قال الله تعالى:

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ^(١)

و بلغ فرعون خبر قتل موسى الرّجل فطلبه ليقّته فبعث المؤمن الى موسى أنّ الملائمةمرون بك ليقّتلوك فأخرج إني لك من النّاصحين فخرج منها كما حكى الله خائفاً يترقب، قال ^{الطّيل} يلتفت يمنة و يسرة و يقول ربّ نجني من القوم الظّالمين و مرّ نحو مدين و كان بينه و بين مدين تسير ثلاثة أيّام فلمّا بلغ باب مدين رأى بئراً يستقي النّاس منها لأغنامهم و دوابهم فقعد ناحية و لم يكن أكل منذ ثلاثة أيّام شيئاً فنظر الى جاريتين في ناحية و معهما غنيمات لا تدنون من البئر فقال لهما مالكما لا تستقيان فقالتا كما حكى الله حتّى يصدر الرّعاء و أبونا شيخ كبير، فرحهما موسى و دنى من البئر فقال لمن على البئر إستقي لي دلوّاً و لكم دلوّاً و كان الدّلوّا يمّده عشرة رجال فاستقى وحده دلوّاً لمن على البئر و دلوّاً لبنتي شعيب و سقى أغنامهما ثمّ تولّى الى الظّل فقال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير، و كان شديد الجّوع و قال أميرالمؤمنين أنّ موسى كليم الله حيث سقى لهما تولّى الى الظّل فقال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير، و الله ما سأل الله إلّا خبزاً يأكل لأنّه كان يأكل بقلة الأرض يرى خضرة البقل من صفاق بطنه من هزاله فلمّا رجعتا إبتا شعيب الى شعيب قال لهما أسرعتما الرّجوع فأخبرناه بقصّة موسى ^{الطّيل} ولم تعرفاه فقال شعيب لواحدةٍ منهما إذهبي إليه فأدعيه لنجزيه أجر ما سقى لنا فجاءت إليه كما حكى

اللّٰهُ تَعَالٰى: فَفَشِنِي عَلَى اسْحَابِيَّاءٍ فَمَشَتْ أَمَامَهُ فَقَالَتْ لَهُ أُنْ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَقَامَ مُوسَىٰ مَعَهَا فَسَفَقْتُهَا الرِّيحَ فَبَانَ عَجْزُهَا فَقَالَ لَهَا مُوسَىٰ تَأْخِرِي وَدَلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ بِحَصَاتٍ تَلْقِيهَا أَمَامِي أَتُبْعُهَا فَإِنَّا قَوْمٌ لَا يَنْظُرُونَ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى شُعَيْبٍ قَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ لَا تَخَفْ نَجُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَتْ إِحْدَى بَنَاتِ شُعَيْبٍ، يَا أَبْتَ إِسْتَأْجِرْهُ أُنْ خَيْرٌ مِنْ إِسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينَ، فَقَالَ لَهَا شُعَيْبٌ أَمَّا قُوَّتُهُ فَقَدْ عَرَفْتَهُ بِسُقْيِ الدَّلْوِ وَحْدَهُ فَبِمَ عَرَفْتَ أَمَانَتَهُ فَقَالَتْ أَنَّهُ قَالَ لِي تَأْخِرِي عَنِّي وَدَلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ فَإِنَّا مِنْ قَوْمٍ لَا يَنْظُرُونَ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي أَعْجَازِ النِّسَاءِ فَهَذِهِ أَمَانَتُهُ فَقَالَ شُعَيْبٌ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتِينِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِيمًا الْأَجْلَيْنِ قِيضَتْ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ، أَيُّ لَا سَبِيلَ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ عَشْرَ سَنِينَ أَوْ ثَمَانِي سَنِينَ فَقَالَ مُوسَىٰ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ.

قال الزاوي قلت له **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَيُّ الْأَجْلَيْنِ قَضَى قَالَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَتَمَمْتُ عَشْرَ حَجَجٍ قُلْتُ لَهُ فَدَخَلَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ الْأَجْلُ أَوْ بَعْدَهُ قَالَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** قَبْلَ، قُلْتُ فَالرَّجُلُ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ وَيَشْتَرِطُ لِأَبْيَها إِجَارَةً بِشَهْرَيْنِ مِثْلًا يُجُوزُ ذَلِكَ قَالَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّ مُوسَىٰ عَلِمَ أَنَّهُ يَتِمُّ لَهُ شَرْطُهُ فَكَيْفَ لِهَذَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى يَفِيَّ قُلْتُ لَهُ جَعَلْتَ فِدَاكَ أَيَّتَهُمَا زَوْجَةً شُعَيْبٌ مِنْ بَنَاتِهِ قَالَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَيْهِ فِدَعْتَهُ وَقَالَتْ لِأَبْيَها يَا أَبْتَ إِسْتَأْجِرْهُ أُنْ خَيْرٌ مِنْ إِسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينَ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجْلَ قَالَ شُعَيْبٌ لَبُدْ لِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَى وَطَنِي وَأُمِّي وَأَهْلِي بَيْتِي فَمَالِي عِنْدَكَ فَقَالَ شُعَيْبٌ مَا وَضَعْتَ أَغْنَامِي فِي هَذِهِ السَّنَةِ مِنْ غَنَمٍ بَلَقَ فَهُوَ لَكَ

فعمد موسى عند ما أراد أن يرسل الفحل على الغنم الى عصاه
فَقَشَرَ مِنْهُ بَعْضَهُ وَتَرَكَ بَعْضَهُ وَوَعَزَّزَهُ فِي وَسْطِهِ مَرْبُوضَ الْغَنَمِ
وَأَلْقَى عَلَيْهِ كِسَاءً أَبْلَقَ ثُمَّ أَرْسَلَ الْفَحْلَ عَلَى الْغَنَمِ فَلَمْ تَضَعْ الْغَنَمُ
فِي تِلْكَ السَّنَةِ إِلَّا بَلَقًا فَلَمَّا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلَ حَمَلَ مُوسَى إِمْرَأَتَهُ وَ
زَوَّدَهُ شَعِيبَ مَنْ عِنْدَهُ وَسَاقَ غَنَمَهُ فَلَمَّا أَرَادَ الْخُرُوجَ قَالَ لَشَعِيبَ
أَبْغِي عَصَا تَكُونُ مَعِيَ وَكَانَتْ عَصَى الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ قَدْ وَرَّثَهَا
مَجْمُوعَةٌ فِي بَيْتٍ فَقَالَ لَهُ شَعِيبُ أَدْخُلْ هَذَا الْبَيْتَ وَخُذْ عَصَا مِنْ بَيْنِ
تِلْكَ الْعَصَا فَدَخَلَ فَوَثَّ بِتِلْكَ عَصَا نُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَصَارَتْ فِي كَفِّهِ
فَأَخْرَجَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا شَعِيبُ فَقَالَ رَدَّهَا وَخُذْ غَيْرَهَا فَرَدَّهَا لِيَأْخُذْ
غَيْرَهَا فَوَثَّ بِتِلْكَ إِلَيْهِ تِلْكَ بَعِينَهَا فَرَدَّهَا حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا
رَأَى شَعِيبُ ذَلِكَ قَالَ لَهُ إِذْهَبْ فَقَدْ خَصَّكَ اللَّهُ بِهَا فَخَرَجَ يَرِيدَ مِصْرَ
فَلَمَّا صَارَ فِي مَفَازَةٍ مَعَهُ أَهْلُهُ أَصَابَهُمْ يَرْدٌ شَدِيدٌ وَرِيحٌ وَظَلْمَةٌ وَ
قَدْ جَفَّهِمُ اللَّيْلُ وَنَظَرَ مُوسَى إِلَى نَارٍ وَكَانَتْ ظَهَرَتْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: فَلَمَّا
قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
أَمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ^(١) فَأَقْبَلَ نَحْوَ النَّارِ يَقْتَبِسُ فَإِذَا شَجَرَةٌ وَنَارٌ تَلْتَهَبُ عَلَيْهَا
فَلَمَّا ذَهَبَ نَحْوَ النَّارِ يَقْتَبِسُ مِنْهَا أَهْوَاتٌ إِلَيْهِ فَفَزَعَ مِنْهَا وَعَدَا وَ
رَجَعَ النَّارَ إِلَى الشَّجَرَةِ فَأَلْتَفَتَ إِلَيْهَا وَدَرَجَتْ إِلَى الشَّجَرَةِ فَرَجَعَ
الثَّانِيَةَ لِيَقْتَبِسَ فَأَهْوَاتٌ إِلَيْهِ فَعَدَا وَتَرَكَهَا ثُمَّ أَلْتَفَتَ وَكَانَتْ رَجَعَتْ إِلَى
الشَّجَرَةِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الثَّالِثَةَ فَأَهْوَاتٌ فَعَدَا وَلَمْ يَعْقِبْ أَيُّ لَمْ يَرْجِعْ
فَنَادَاهُ اللَّهُ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ مُوسَى فَمَا
الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مَا فِي يَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ قَالَ

أَلْقِيهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فِصَارَتْ حَيَّةٌ فَفَزَعَهَا مِنْهَا مُوسَى وَعَدَا فَنَادَاهُ
 اللَّهُ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ أَنْتَ مِنَ الْآمِنِينَ وَأَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ
 بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ أَيْ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى كَانَ شَدِيدَ
 السَّمَرَةِ فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ فَأُضَاءَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 فَذَانِكَ بَرَهَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
 فَقَالَ مُوسَى كَمَا حَكَى اللَّهُ: إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَ
 أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِذَاءً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ
 إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ^(١) انتهى^(٢).

أقول و إنما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد ما لا يخفى مضافاً إلى
 أن الله تعالى أشار إلى موسى في كثير من الآيات و ذلك لما في قصته من
 المواعظ و العبر فذكرنا هذا الحديث عن المعصوم ليكون الناظر على بصيرة و
 لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآيات بعد وضوح المراد منها فيه فنقول:

فَلَمَّا آتَتْهَا نُودِيَّ يَا مُوسَى

أَي لَمَّا أَتَى مُوسَى النَّارَ الَّتِي رَأَاهَا وَ أَنْسَاهَا، وَ نُوْدِي، مُوسَى، مِنْ جَانِبِ
 الشَّجَرَةِ الَّتِي فِيهَا النَّارُ وَ النَّدَاءُ هُوَ مَدَّ الصَّوْتِ.

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَ أَبُو عَمْرٍو إِنِّي أَنَا رَبُّكَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَ الْبَاءِ وَ الْبَاقُونَ بِكَسْرِهَا وَ
 سَكُونِ الْبَاءِ فَعَلَى قَوْلٍ مِنْ فَتْحِ الْهَمْزَةِ فَالْمَعْنَى نُوْدِي بِأَنِّي أَنَا وَ لَمَّا حَذَفَ الْبَاءَ
 فَتَحَ، وَ مِنْ كَسْرِهَا فَعَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ أَوْ عَلَى تَقْدِيرٍ، قِيلَ لَهُ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ
 وَ قَوْلُهُ: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ قِيلَ السَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَمْرٌ بِخَلْعِ النَّعْلَيْنِ فِيهِ قَوْلَانِ:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

أحدهما: لياشر بقدميه بركة الوادي المقدس.

ثانيهما: أنها كانت من جلد حمار ميت.

و حكى التلجي أنه أمر بذلك على وجه الخضوع والتواضع والخلع نزع الملبوس، و قيل كانتا من جلد بقرة ذكّى لكن أمر بخلعها لبيان بركة الوادي المقدس و تمس قدماه ترتبه، و قيل أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي، و المقدس، المطهر، و طوى إسم علم عليه فتكون بدلاً أو عطف بيان وفيها قرأت، فمنهم من قرأها بكسر الطاء منوناً، ومنهم من قرأها بضمها منوناً، من قرأها بضمها غير منون ومنهم من قرأها بكسرها غير منون.

و قال الزاغب في المفردات في طوى، قيل هو إسم الوادي الذي حصل فيه و قيل أن ذلك جعل إشارة الى حالة حصلت له على طريق الإجتباء فكأنه طوى عليه مسافة لو إحتاج أن ينالها في الإجتهد لبعد عليه، و قيل هو إسم أرض فمنهم من يعرفه ومنهم من لا يعرفه و قيل هو مصدر طويت فينصرف و يفتح أوله و يكسر نحو مشنى و ثني و معناه ناديته مرّتين إنتهى هذا كلام المفسرين حول الآية.

و قد ذكر القرطبي و امثاله في تفسير الآية من الأباطيل و المجعولات ما لا يخفى على المتأمل البصير بالأخبار.

في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بأسناده الى سعد بن عبد الله القمر عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل و فيه قلت فأخبرني يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله لنبيه موسى، فأخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، فإن فقهاء الفريقين يزعمون أنها كانت من أهاب الميتة قال صلواة الله عليه من قال ذلك فقد إفترى على موسى و أستجمله في نبوته لأنه ما خلا الأمر فيه من خطيئتين، أما أن تكون صلواة موسى فيها جائزة أو غير جائزة فإن كانت صلواته جائزة جاز له لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة و أن كانت

مَقْدَسَةٌ مَطْهَرَةٌ فَلَيْسَتْ بِأَقْدَسَ وَأَطْهَرَ مِنَ الصَّلَاةِ وَأَنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ غَيْرَ جَائِزَةٍ فِيهَا فَقَدْ أُوجِبَ عَلَى مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفِ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ وَعِلْمُ مَا جَازَ فِيهِ الصَّلَاةُ وَمَا لَمْ يَجِزْ وَهَذَا كَفَرٌ قُلْتُ فَأَخْبِرْنِي يَا مُوَلَايَ عَنِ التَّأْوِيلِ فِيهَا قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنَّ مُوسَى نَاجَى رَبَّهُ بِالْوَادِي الْمَقْدَسِ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنِّي قَدْ أَخْلَصْتُ لَكَ الْمَحَبَّةَ مِنِّي وَغَسَلْتُ قَلْبِي عَمَّنْ سِوَاكَ وَكَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لِأَهْلِهِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْلَعُ نَعْلَيْكَ أَيَّ إِنزَعِ حُبِّ أَهْلِكَ مِنْ قَلْبِكَ أَنْ كَانَتْ مَحَبَّتِكَ لِي خَالِصَةً وَقَلْبِكَ مِنَ الْمِيلِ إِلَى مَنْ سِوَايَ مَغْسُولٌ إِنْتَهَى.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ أَيَّ خَوْفِكَ، خَوْفِكَ مِنْ ضِيَاعِ أَهْلِكَ، وَخَوْفِكَ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنْتَهَى.

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى

الظَّاهِرُ أَنَّ، مَا، فِي، لِمَا، بِمَعْنَى أَنَا إِخْتَرْتُكَ لِلنُّبُوَّةِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ فَاسْتَمِعْ لِلَّذِي يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ قِيلَ لِمَا سَمِعَ مُوسَى هَذَا الْكَلَامَ وَقَفَ عَلَى حَجَرٍ وَاسْتَدَّ إِلَى حَجَرٍ وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ وَأَلْقَى ذَقْنَهُ عَلَى صَدْرِهِ وَوَقَفَ لِيَسْتَمِعَ وَكَانَ كُلُّ لِبَاسِهِ صَوْفًا وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَدَبَ الْإِسْتِمَاعِ سَكُونُ الْجَوَارِحِ وَغَضُّ الْبَصَرِ وَالْإِصْغَاءُ بِالسَّمْعِ وَحُضُورُ الْعَقْلِ وَالْعَزْمُ عَلَى الْعَمَلِ وَذَلِكَ هُوَ الْإِسْتِمَاعُ لِمَا يَحِبُّ اللَّهُ وَحَذْفُ الْفَاعِلِ فِي يُوحَى لِلْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا أُوْحَى إِلَيْهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْغَى

هَذَا الْكَلَامُ فِي الْحَقِيقَةِ تَفْسِيرٌ لِمَا يُوحَى أَشَارَ أَوَّلًا إِلَى التَّوْحِيدِ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

تَفْلَحُوا فمن لم يعرف الله لم يعبده و العبادَة فرع على المعرفة و لذلك فسّر قوله تعالى: مَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(١) بقولهم ليعرفون قال أمير المؤمنين عليه السلام: أَوَّلُ الَّذِينَ مَعَرَفَتُهُ و قال الحسين الشهيد عليه السلام: مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ فَإِذَا عَرَفُوهُ عِبَدُوهُ الْخ... و لأجل ذلك قَدِمَ المعرفة في جميع الأمور على العامة و الإنقياد و لذلك يقال أعبد النَّاسَ أَعْرِفَهُ بَلِ الْحَقُّ أَنَّ المعرفة إذا حصلت حصلت العبادَة قطعاً و لأجل ذلك أشار الله تعالى أولاً إلى معرفة الله بالوحدانية ثُمَّ قَالَ فَأَعْبُدْنِي أَيِ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، فَأَعْبُدْنِي و الأولى أن يكون، فَأَعْبُدْنِي، لفظ يتناول ما كلّفه به من العبادَة ثُمَّ عطف عليه ما هو قد يدخل تحت ذلك المطلق فبدأ بالصلاة و قال و أقم لذكرى، إذ هي أفضل الأعمال و أنفعها في الآخرة أن قبلت قبل ما سواها و أن رَدَّتْ رَدّاً سواها و مع ذلك هي أَوَّلُ مَا يَسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ مِنَ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ و إقامة الصَّلَاة هي إتيانها بجميع شرائطها و آدابها على الوجه المقرّر في الشريعة المقدّسة المأمور بها في جميع الأديان لا مطلق الصَّلَاة كيف إنْفَقَتْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ^(٢) و في الزَّيَارَةِ أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ أَقَمْتَ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتَ الزَّكَاةَ الْخ....

و لذلك أمر الله موسى بإقامتها و قال و أقم الصَّلَاةَ وَلَمْ يَقُلْ وَ صَلِّ مِثْلًا وَ قَوْلُهُ: لِذِكْرِي قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَيِ لَتَذْكُرْنِي فِيهَا بِالتَّسْبِيحِ وَ التَّعْظِيمِ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ، لِأَن أَذْكُرَكَ بِالْمَدْحِ وَ الثَّنَاءِ، وَ قِيلَ الْمَعْنَى مَتَى ذَكَرْتَ أَنَّ عَلَيْكَ صَلَاةً كُنْتَ فِي وَقْتِهَا أَوْ فَاتَ وَقْتُهَا، فَأَقِمَهَا، قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ، لَذِكْرِي، يَحْتَمِلُ وَجُوهًا وَ الْأَحْسَنُ مِنْهَا مَا وَافَقَ الْحَدِيثَ وَ الْمَعْنَى أَقِمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِهَا لِأَنَّهُ إِذَا ذَكَرَهَا فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَقْدَرَ مِضَافٌ هُنَا أَيِ لَذِكْرِ صَلَوَاتِي، وَ يَكُونُ قَدْ وَقَعَ ضَمِيرُ اللَّهِ، مَوْقِعَ ضَمِيرِ الصَّلَاةِ لَشَرْفِهَا، وَ قُرِّيَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ، فَتَكُونُ اللَّامُ الْأَوَّلَى بَدَلَ الْإِضَافَةِ أَيِ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَقْتَ ذِكْرِهَا.

أقول ما ذكره في المقام لا بأس به والذي يختلج بالبال هو أنَّ المعنى أقم الصلوة لذكرى، أي على وجه الإخلاص ولا تقصد بها غرضاً آخر لتكون مشركاً بالشرك الخفي المعبر عنه بالرياء وبعبارة أخرى صل مع حضور القلب فإنَّ حضور القلب هو الذكر بعينه وأما قوله: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَلْحَ....

فالمراد بالسَّاعَةِ القيامة فإنَّها آتية لا محالة، قيل لِمَا ذكر الله تعالى الأمر بالعبادة وإقامة الصلوة ذكر الحاصل على ذلك وهو البعث والمعاد للجزاء فقال أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ وَهِيَ الَّتِي يَظْهَرُ عِنْدَهَا مَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ وَجَزَاءُ ذَلِكَ إِمَّا ثَوَابًا وَإِمَّا عِقَابًا وَقَوْلُهُ أَكَادَ أَخْفِيهَا، قَرَأَ الْحَسَنُ وَمَجَاهَدٌ أَخْفِيهَا، بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ بِمَعْنَى أَظْهَرَهَا أَيْ أَنَّهَا مِنْ صِحَّةٍ وَقَوَعِهَا وَتَيَقَّنَ كَوْنَهَا تَكَادَ تَظْهَرُ وَلَكِنْ تَأَخَّرَتْ إِلَى الْأَجْلِ الْمَعْلُومِ وَتَقُولُ الْعَرَبُ خَفِيتَ الشَّيْءُ أَيْ أَظْهَرْتَهُ قَالَ الشَّاعِرُ:

خَفَاهَنْ مِنْ إِيْقَانِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهَنْ وَدَقَ مِنْ عَشْيٍ مَجْلَبٍ
وَقَالَ الْآخَرُ:

فَأَنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نَخْفَهُ وَأَنْ تَوَقِدُوا الْحَرْبَ لَا نَعْقِدُ

وَلَامٌ لَتَجْزَى عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِأَخْفِيهَا، أَيْ أَظْهَرَهَا لَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ، أَخْفِيهَا بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَعَلَيْهَا الْمَصَاحِفُ فَعَلًا وَعَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ فَهُوَ مُضَارِعٌ أَخْفَى بِمَعْنَى، سَتَرَ وَالْهَمْزَةُ هُنَا لِلْإِزَالَةِ أَيْ أَزَلْتَ الْخَفَاءَ وَهُوَ الظَّهْرُ وَإِذَا أَزَلْتَ الظَّهْرَ صَارَ لِلسَّتْرِ كَقَوْلِكَ أَعْجَمْتَ الْكِتَابَ أَزَلْتَ عَنْهُ الْعِجْمَةَ وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ هَذَا مِنْ بَابِ السَّلْبِ وَمَعْنَاهُ أَزِيلُ عَنْهَا خِفَاؤَهَا سَتَرَهَا وَاللَّامُ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِأَتِيَةٍ كَأَنَّهُ قَالَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَتَجْزَى، وَقِيلَ أَخْفِيهَا بِضَمِّ الْهَمْزَةِ بِمَعْنَى أَظْهَرَهَا فَتَتَّحِدُ الْقِرَاءَتَانِ وَأَخْفَى مِنَ الْأَضْدَادِ بِمَعْنَى الْإِظْهَارِ وَبِمَعْنَى السَّتْرِ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ خَفِيتُ وَأَخْفَيْتُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَقَدْ حَكَاهُ أَبُو الْخَطَّابِ أَيْضًا وَهُوَ مِنْ رُؤُوسِ اللَّغَةِ، وَقَوْلُهُ أَكَادَ، مِنْ أَفْعَالِ الْمَقَارِبَةِ لَكِنَّهَا مَجَازٌ هُنَا، بَعْضُهُمْ، أَكَادَ، بِمَعْنَى أَرِيدَ فَالْمَعْنَى أَرِيدَ إِخْفَاؤَهَا وَقَالَتْ فِرْقَةٌ، خَبَرَ كَادَ،

محذوف تقدير الكلام أكاد أتى بها لقربها و صحّة وقوعها كما حذف في قول الشاعر:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله
أي كدت أفعل و ثمّ استأنف الأخبار بأنّه يخفيها، وقوله: لِيَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ
بِمَا تَسْعَى أَي تجازي كلّ نفس بحسب عملها من خير أو شرّ فمن عمل
الطّاعات أثيب عليها و من عمل المعاصي عوقب عليها فَأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى و لذلك سُميت القيامة بِيَوْمِ الْجَزَاءِ:
قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ^(١).

قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(٢).
قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَى^(٣).

فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوِيَهُ فَتَرْدِي
و الظاهر أنّ الخطاب في فَلَا يَصُدُّكَ بِموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ و لا يلزم من النّهي عن
الشّيء إمكان وقوعه ممّن سبقت له العصمة فينبغي أن يكون لفظاً.
و قيل أنّه خطاب للنبي ﷺ لفظاً و لأمرته معنى و هو كما ترى بعيد عن
سياق الآيات و الصّد المنع، و قيل الصّد، الصّرف عن الخير يقال صدّه عن
الإيمان و صدّه عن الحقّ و لا يقال صدّه عن الشرّ و لكن يقال صرفه عن الشرّ و
منعه منه و المعنى أنّ الله تعالى نهى موسى ظاهراً و جميع المكلفين واقعاً أن
يصدّهم عن ذكر السّاعة و المجازاة فيها من لا يصدّق بها من الكفار و اتّبع هواه
أي هوى نفسه و قوله: فَتَرْدِي أَي فتهلك يقال ردّي يردي إذا هلك أي أن
صدّدت عن السّاعة بترك التّأهب لها هلكت، و تردّي هلك بالسّقوط:

قال الله تعالى: وَ لَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ^(١).

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا^(٢).

قال الله تعالى: وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ^(٣).

قال الله تعالى: رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا^(٤).

و الآيات كثيرة شكَّ أنَّ الغفلة عن الآخرة أو الإعراض عنها يوجب السقوط عن مقام الإنسانية، و قوله: فَتَرَدُّي يجوز أن يكون منصوباً على جواز النهي و أن يكون مرفوعاً، أي فأنت تردى، على الخبر.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى

ما، إستفهام مبتدأ و تلك خبره و يمينك، في موضع الحال كقوله و هذا لعلمي شيخاً، و العامل إسم الإشارة.

و قال الزمخشري يجوز أن يكون، تلك، إسماً موصولاً صلته بيمينك، إنَّما يصحَّ على مذهب الكوفيين، كأنه قيل و ما التي بيمينك، و هو في صورة السؤال لموسى عمّا في يده اليمنى و الغرض تنبيهه له عليها ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها و التأمل لها، إن قلت، قوله و ما تلك بيمينك يا موسى، سؤال و هو لا يكون إلا لطلب العلم، و هو على الله محال لأنَّه قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً و لا يخفى عليه شيء.

قلت أجاب عنه صاحب الكشف و قال أنما سأله ليريه عظيم ما يخترعه عز و علا في الخشبة اليابسة من قلبها حيَّة نضناضة و ليقرّر في نفسه المبانيّة البعيدة بين المقلوب عنه و المقلوب إليه و ينّبهه على قدرته الباهرة و نظيره أن يريك الزرّاد زبرة من حديد و يقول لك ماهي فتقول زبرة من حديد ثمَّ يريك بعد أيام لبوساً مردّاً فيقول لك هي تلك الزبرة صيرّتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة و أنيق السرد إنتهى.

بسم الله الرحمن الرحيم
في قوله تعالى
وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى

جزء ١٦

المجلد العاشر على عهد

و قال الرّازي نظير ذلك إلا أنّه غير الألفاظ فكأنّه أخذه منه و حاصله أنّه تعالى قد نبّه العقول على كمال قدرته و نهاية عظّمته من حيث أنّه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله: **وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**.

و أجاب ثانياً بما حاصله أنّه لما تخيّر موسى من الدهشة و غلب عليه الخوف و الحيرة ممّا رآه من الشّجرة و إستماع كلام الله منها أراد الله تعالى إزالة تلك الدهشة و الخوف عنه فسأله عن العصا و هو أمر لا يقع الغلط فيه.

ثالثاً: لما عرّف موسى كمال الإلهيّة أراد أن يعرفه نقصان البشريّة فسأله عن منافع العصا فذكر موسى بعضها فعرفه الله تعالى أنّ فيها منافع أعظم ممّا ذكره موسى تنبيهاً على العقول قاصرة عن معرفة صفات الشّيء الحاضر.

رابعاً: أن يقرّر عنده أنّه خشبة إذا قلبها ثعباناً لا يخافها، إنتهى ما ذكره في الجواب ملخصاً.

و قال بعض المفسّرين منهم، أنما إمتحن موسى بهذا السّؤال تنبيهاً له ليعلم أنّ للعصا عند الله إسماءً أخرى و حقيقة أخرى غير ما علّمه منها فيخيّل علمها إلى الله تعالى فيقول أنت أعلم بها ياربّ فلما إتكل على علم نفسه و قال هي عصاي فكأنّه قيل له أخطأت في هذا الجواب خطأين أحدهما في التّسمية بالعصا و الثّاني في إضافتها إلى نفسك و هو ثعبان لا عصاك إنتهى.

أقول هذا ما ذكره في المقام و أنت ترى أنّ هذه الأجوبة كلّها إستحسانات إختراعها أوهاهم و خيالاتهم و العقل السّليم لا يوافقها و لا سيّما الأخير منها فإنّه أشبه بكلام المجانين و أن نسبه صاحب روح البيان إلى التّأويلات و لم يعلم القائل و الناقل أنّ موسى لم يخطأ في الجواب أصلاً لا في التّسمية بالعصا و لا في إضافتها إلى نفسه.

و الذي يقوّي في النفس في حلّ الإشكال هو أنّه تعالى لما أوجد الصّوت في الشّجرة و قال أنّي أنا ربّك فأخلع نعليك، الآية دهش موسى منه و تعجّب

من ذلك و لَمَّا قَالَ أَنَا إِخْرَتَكَ فَاسْتَمَعَ إِلَى قَوْلِهِ: فَتَرَدَّدَى عِلْمٌ مِنْ ظَاهِرِ الْكَلَامِ أَنَّهُ بَعَثَ إِلَى النَّبُوَّةِ فِشَاءً أَنْ يَرَاهُ اللَّهُ أَيْةً أُخْرَى لِيُطْمَئِنَّ قَلْبُهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الْخَلْقِ فَقَالَ تَعَالَى: وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى وَاللَّهُ تَعَالَى كَانَ عَالِمًا بِهَا قَبْلَ السَّوْأْلِ كَمَا كَانَ عَالِمًا بِجَوَابِ مُوسَى قَبْلَ قَوْلِهِ: هِيَ عَصَايَ، وَأَمَّا سَأَلُهُ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقَرَّ مُوسَى بِأَنْ مَا فِي يَمِينِهِ هُوَ عَصَاهُ، ثُمَّ صَيَّرَهُ ثَعْبَانًا لِيَكُونَ أَيْةً أُخْرَى لَهُ وَأَنَّ الَّذِي يَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ يَقْدَرُ عَلَى إِيجَادِ الصَّوْتِ فِي الشَّجَرَةِ أَيْضًا وَبِذَلِكَ زَالَ الشَّكُّ عَنْ قَلْبِهِ بِالْكَلِيَّةِ وَأَيَقِنَ بِصَحَّةِ النَّدَاءِ مِنَ الشَّجَرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ إِخْتَارَهُ لِلنَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ.

ثَانِيهِمَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَهُ كَلِيمًا فَقَالَ لَهُ: مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى فَقَالَ مُوسَى هِيَ عَصَايَ الْخَ وَهَذَا السَّوْأْلُ وَالْجَوَابُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى صَارَ كَلِيمًا لِلَّهِ وَحَيْثُ إِنْجَرَ الْكَلَامُ إِلَى هَا هُنَا فَلَا بَأْسَ بِمَا ذَكَرَهُ الرَّازِي وَغَيْرُهُ مِنْ مَفْسَرِي الْعَامَّةِ وَهُوَ أَنَّ الْخُطَابَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ مُوسَى كَانَ بِلَا وَاسِطَةٍ وَلَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَجَابُوا عَنِ الْإِشْكَالِ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا خَاطَبَ مُوسَى خَاطَبَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ: فَأَوْحَى إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَى^(١).

الثَّانِي: إِنْ كَانَ مُوسَى تَكَلَّمَ مَعَهُ وَهُوَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَامَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ يَخَاطَبُونَ يَخَاطَبُونَ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ عَلَى مَا قَالَ ﷺ الْمَصْلِيُّ يَنَاجِي رَبَّهُ وَالرَّبُّ يَتَكَلَّمَ أَحَادَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّكْرِيمِ فِي قَوْلِهِ: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ^(٢) إِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ الرَّازِي فِي الْجَوَابِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ مَا ذَكَرَهُ فِي الْجَوَابِ لَا يُمْكِنُ الْمُسَاعَدَةُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْوَحْيَ لَوْ كَانَ أَفْضَلَ مِنَ التَّكَلَّمَ يُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلَ مِنْ مُوسَى لِأَنَّ اللَّهَ أَوْحَى

اليهم ولم يكن الوحي مختصاً بمحمد ﷺ من بين الأنبياء حتى يكون دليلاً على أفضليته.

ثانياً: أن الله تعالى يقول في كتابه: **وَأَوْخَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**^(١) فلو كان الوحي أفضل لكانت النحل أفضل من موسى وهو كما ترى لا يقول به عاقل فضلاً من مسلم.

وأما قوله: **أَنَّ الْمَصَلِّيَ يَنَاجِي رَبَّهُ** فهذا أيضاً لا طائل تحته فإن أمة موسى وعيسى وجميع الأنبياء كانوا يصلون ويناجون ربهم وهو ظاهر.

وأما قوله **وَالرَّبُّ يَتَكَلَّمُ** مع آحاد أمة محمد يوم القيامة الى آخر ما قال.

فيقال له أن كان الرب يتكلم يوم القيامة مع آحاد أمة محمد، فهو يتكلم مع آحاد جميع الأمم وأي دليل دل على اختصاص التكلم بهذه الأمة هذا مضافاً الى أن أصل الدعوى من الخرافات التي لا ينبغي أن يسمع اليها وأما صدر هذا الكلام من أهل السنة ولا سيما الأشاعرة منهم والله تعالى أعظم شأناً وأجل من أن يتكلم مع أحد شافهة بلا واسطة في الدنيا وفي الآخرة فكأنه لم يسمع قوله تعالى: **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**^(٢) وهذا أصل يعتمد عليه في جميع المقامات وبذلك يظهر فساد قوله أن الخطاب كان لموسى بلا واسطة، ولم يحصل ذلك لمحمد ﷺ فإن الخطاب لجميع الأنبياء كان مع الواسطة، بإيجاد الله تعالى النداء فيها سواء كانت شجرة أو جبل أو غيرهما.

قال الله تعالى: **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**^(٣).

فقوله تكليماً يدل على أن التكلم معه كان نوعاً خاصاً أي من طريق الوحي أو من وراء حجاب وليس من سنخ التكلم المتعارف بين الناس كما زعمه الرازي وامثاله وللبحث فيه مقام آخر كما أن أفضلية محمد ﷺ على جميع

الأنبياء ثابتة في محلّه و التكلم لا يكون دليلاً عليها فإنّ التكلم على ما فسرناه في الجميع على حدّ سواء.

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا الْآوْلَىٰ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ

لما سأل موسى بقوله مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، أجاب بأنها عصاي أي أن الذي في يدي عصاي ثم ذكر موسى ما يترتب عليها من المنافع وهو ثلاثة. أحدها: قوله أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا.

ثانيها: قوله وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي.

ثالثها: قوله وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ.

أما قوله: أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا فَالتَّوَكُّي والإعتماد واحد ومعناه أعتمد عليها إذا عييت فقوله أتوكأ، من توكأ يتوكأ مثل تَصَرَّف يَتَصَرَّف والضَّمير في عليها راجع على عصي ولا شك أن الإتكاء والإعتماد من أهم منافع العصا ولذلك يأخذ بها من ضعف جسمه أو كان به مرض بحيث لا يقدر على المشي بدونها أو يشقّ عليه.

وقوله: وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي أي أخطب بها ورق الشجر اليابس لترعاه غنمي قال الشاعر:

أَهشُّ بِهَا بِالْعَصَا عَلَىٰ أَغْنَامِي

وقوله: وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى، فالْمَآرِب جمع مأربة بفتح الراء وضّمّها وهي الحاجة وحكي بكسر الراء أيضاً، والأرب بفتح الراء والأربة بكسر الألف وسكون الراء الحاجة، وأنما قال أخرى لأنّ المآرب في معنى الحاجة فكأنّه قال جماعة من الحاجات أخرى، وفي هذا الكلام إشارة الى أنّ منافع العضا لا تنحصر بالإتكاء والهش بل يترتب على العصا من المنافع غيرهما أيضاً ممّا لا يكاد يعدّ وهو ظاهر لا يحتاج الى التوضيح والتفصيل لكونه من المحسوسات.

قال الرّازي أنّه قال هي عصاي فذكر العصا و من كان قلبه مشغولاً بالعصا و منافعها كيف يكون مستغرقاً في بحر معرفة الحقّ و لكن محمداً ﷺ عرض عليه الجنة و النار فلم يلتفت الى شيء ولما قيل له أمدحنا قال لا أحصي ثناء عليك ثمّ نسي نفسه و نسي ثناءه فقال أنت كما أثبتت على نفسك إنتهى كلامه و لقائل أن يقول للرّازي أيها الشيخ لو سأل الله تعالى محمداً ﷺ كما سأل موسى و قال له ما تلك يمينك يا محمّد، و كان في يده عصاه مثلاً فما كان جوابه لرّبه غير أن يقول هي عصاي و قد حكم العقل بأنّ الجواب مطابق للسؤال و الإستغراق في بحر معرفة الله لا ينافي التكلّم بالجواب لأنّه أمرٌ قلبيّ و الجواب أمرٌ لفظيّ وأي دليل على أنّ المستغرق في بحر معرفة الله لا يتكلّم بالألفاظ و لا يراعي الجواب مطابقاً للوال و من أين ظهر لك أنّ قلبه، أي قلب موسى كان مشغولاً بالعصا فإن كان غرض الرّازي من هذه الكلمات إثبات أفضليّة محمداً ﷺ على موسى كما يظهر من كلامه فهي أي الأفضليّة ثابتة لا كلام لأحد فيه لكن لا بهذه الكلمات التي لا دليل على صحتها من العقل و النقل.

أن قلت لما قال موسى هي عصاي فقد تمّ الجواب و ذلك لأنّ الله تعالى لم يسأل عن منافع العصا بل سأل عما في يده و قد ثبت أنّ الجواب يكون مطابقاً للسؤال.

قلت ذكروا في وجه التّفصيل أنّ موسى كان يحبّ المكالمة مع ربّه فجعل تفصيل الكلام محصلاً للغرض و هذا الجواب إرضاه الكلّ ولم يخالف فيه أحد من المفسرين.

و أنا أقول هذا الجواب لا يصحّ عقلاً و لا عرفاً و ذلك لأنّ حبّ المكالمة قد يكون من ناحية المخاطب و قد يكون من جانب المتكلّم و قد يكون من الطرفين، فإن كان من جانب المخاطب فقط فهو لا يوجب تفصيل الكلام و صحّته إذ من الممكن أن لا يكون المتكلّم ممّن يحبّ المكالمة أكثر من

الجواب، و أن كان الحبّ من جانب المتكلّم فهو محتاج إلى الدليل و من أين ثبت على موسى أنّ الله يحبّ تفصيل الكلام بل الأمر بالعكس لأنّه لو أراد التفصيل جعل السؤال كذلك و حيث لم يجعل السؤال مفصلاً و منع بالأقلّ نكشف أنّه أحبّ الإختصار، و أن كان مرادهم من حبّ المكالمة حبّها من الطرفين فعليهم بالإثبات و محصل الكلام أنّ قوله: هِيَ عَصَايَ إِلَى قَوْلِهِ: وَ لِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى سؤال واحد و هو مَا تِلْكَ بِمِمينِكَ يَا مُوسَى خارج عن المتعارف في المحاورات و المكالمات فلا بدّ له من دليل.

فنقول أنّ ما ذكره في الجواب متفرّع على أن تكون ما، في قوله: مَا تِلْكَ بِمِمينِكَ، ما الحقيقيّة التي بها يسأل عن ماهيّة المسمّى كقولك الإنسان ماهو، أي ما حقيقة و ماهيّة و الجواب حيوان ناطق فقط فلا يقال في جواب هذا السؤال أكثر من قولنا، حيوان ناطق، إذ به يبيّن مقصود المتكلّم و هو معرفة ماهيّة الإنسان فلو قال المخاطب في الجواب الإنسان حيوان ناطق ضاحك مستقيم القامة يرى و يسمع و يمشي إلى غير ذلك من الأوصاف لا يصحّ لأنّ الغرض من السؤال قد حصل بقوله حيوان ناطق.

و سائر الأوصاف من عوارض الماهيّة لا منها و على هذا يتّوجه الإشكال يصحّ للمخاطب أن يقول أنني أردت من التفصيل كذا و كذا أو كنت أحبّ المكالمة مع المتكلّم.

و أمّا إذا كانت غير حقيقته و هي التي لا يسأل بها عن حقيقة الشّي و ماهيّة بل الغرض منها شرح اللفظ فلا بدّ للمخاطب أن يشرح المسؤول عنه و يوضحه حتّى يرتفع الإبهام مثلاً إذا قال المتكلّم ما هذه الشجرة، لا يصحّ للمخاطب أن يقول هذه خشبة مستقيم القامة، لأنّ كونها كذلك معلوم عند المتكلّم بل ينبغي أن يشرح المخاطب منافعها بأن يقول هذه شجرة تترتب عليها من المنافع كذا و كذا إذا عرفت هذا و علمت أنّ السؤال، بما، قد يكون على سبيل الحقيقة و قد لا يكون و بعبارة أخرى، ما، قد تكون حقيقة و قد تكون شارحة،

ففي قوله تعالى: **مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**، لم يدلّ دليل على أنّ المراد، بما، في قوله، ماتلك، ما الحقيقة التي يسأل بها عن ماهية الشيء وإذا لم تكن حقيقة فهي شارحة وهو المطلوب.

و الدليل على أنّها ليست حقيقة هو أنّ موسى لم يبين في الجواب ماهية العصا و حقيقتها بل قال هي عصاي فعبر عن الخشبة التي كانت في يده بأنّها عصاه و هو أي الجواب شرح اللفظ لا بيان ماهية الخشبة فإنّ كون الخشبة عصاه من عوارض الخشبة و منافعها لا أنّ العصا حقيقتها و ماهيتها و من هنا يظهر أنّ موسى عليه السلام فهم من الكلام أنّ الله تعالى لم يرد بالسؤال ماهية الخشبة التي كانت بيمينه بل أراد بيان ما يترتب عليها من المنافع و الآثار فأجاب موسى بما يقتضيه السؤال و ذكر من منافعها إجمالاً و تفصيلاً ما أشارت إليه الآية و إذا كان كذلك فلا إشكال و لا جواب بل الجواب مطابق للسؤال طابق النعل بالنعل ولو كان الأمر كما ذكره من حمل الماء على ما، الحقيقة يتوجه على موسى إشكال آخر و هو أنّ السؤال عن ماهية الخشبة و الجواب عن عوارضها و أوصافها و هو لا يليق بمقام النبي هذا ما فهمناه من الآية و به يندفع الإشكال من أصله و لا نحتاج إلى التكلّفات الباردة و الأقوال الواهية في الجواب إذ لا إشكال في المقام حتّى يحتاج إلى الجواب و الله أعلم بكلامه.

قَالَ فَأَلْقِيهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى

لما قال موسى هي عصاي إلى آخر ما قال قال تعالى له ألقها أي ألق عصاك فألقها موسى فإذا هي، أي الخشبة، حيّة تسعى أي تسرع في الأرض، قوله: إذا، للمفاجأة و الحيّة تطلق على الصّغيرة و الكبيرة و الذّكر و الانثى و الجانّ الرّقيق من الحيات و النّعبان العظيم منها و لا تنافي بين تشبيهها بالجانّ في قوله: **فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ**^(١) و بين كونها ثعباناً لأنّ تشبيهها بالجانّ في

أَوَّلَ حَالِهَا ثُمَّ تَزِيدُ حَتَّى صَارَتْ ثَعْبَانًا أَوْ شَبَّهَتْ بِالْجَانِّ وَ هِيَ ثَعْبَانٌ فِي سُرْعَةِ حَرَكَتِهَا وَ إِهْتَزَازِهَا مَعَ عَظَمِ خَلْقِهَا، قِيلَ لَمَّا أَلْقَى عَصَاهُ صَارَتْ ثَعْبَانًا كَانَتْ لَهَا عُرْفٌ كَعُرْفِ الْفَرَسِ وَ صَارَتْ شَعْبَتَا الْعَصَا لَهَا فَمَأً وَ بَيْنَ لَحْيَيْهَا أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا.

و عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ إِنْ قَلَبْتَ ثَعْبَانًا تَبَلَّغَ الصَّخْرَ وَ الشَّجَرَ وَ عَيْنَاهَا تَقْدَانُ فَلَمَّا رَأَى مُوسَى هَذَا الْأَمْرَ الْعَجِيبَ الْهَائِلَ لِحَقِّهِ مَا يَلْحَقُ الْبَشَرَ عِنْدَ رُؤْيَا الْأَهْوَالِ وَ الْمَخَافِ لَا سِيَّمَا هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي يَذْهَلُ الْعُقُولُ وَ مَعْنَى تَسْعَى تَتَنَقَّلُ وَ تَمْشِي بِسُرْعَةٍ وَ حِكْمَةٍ إِنْ قَلَبَهَا وَقْتُ مَنَاجَاتِهِ تَأْنِيسَهُ بِهَذَا الْمَعْجَزِ الْهَائِلِ حَتَّى يَلْقِيَهَا لِفِرْعَوْنَ فَلَا يَلْحَقُهُ ذَعْرٌ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ إِذْ قَدْ جَرَتْ لَهُ بِذَلِكَ عَادَةٌ وَ تَدْرِيهِ فِي تَلْقَى تَكَالِيفِ التَّوْبَةِ وَ مَشَاقِ الرِّسَالَةِ ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِقْدَامِ عَلَى أَخْذِهَا وَ نَهَاهُ أَنْ يَخَافَ مِنْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى:

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى

قَالَ، أَيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، خُذْهَا، أَيُّ تَنَاوَلْهَا بِيَدِكَ تَخَفْ، مِنْهَا (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى أَيُّ سَنُعِيدُهَا إِلَى صُورَةِ الْخَشْبَةِ وَقِيلَ سَنُعِيدُ خَلْقَتَهَا الْأُولَى وَ الْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَ قِيلَ لَمَّا قَالَ تَعَالَى لَهُ لَا تَخَفْ بَلَغَ مِنْ ذَهَابِ خَوْفِهِ وَ طَمَئِنَّةِ نَفْسِهِ أَنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي فَمِهَا وَ أَخَذَ بِلَحْيَيْهَا وَ حِينَ أَخْذِهَا بِيَدِهِ صَارَتْ عَصَا كَمَا كَانَتْ فَقَوْلُهُ: سِيرَتَهَا الْأُولَى مَفْعُولٌ ثَانٍ سَنُعِيدُهَا عَلَى حَذْفِ الْجَارِ مِثْلُ قَوْلِهِ وَ إِيخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ، أَيُّ إِلَى سِرَتِهَا الْأُولَى أَوْ بَدَلٌ مِنْ مَفْعُولٍ سَنُعِيدُهَا بَدَلِ إِشْتِمَالٍ فَهَذِهِ الْمَعْجَزَةُ أَوَّلُ مَعْجَزَةٍ جَرَتْ عَلَى يَدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

وَ أَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةٍ أُخْرَى الْجَنَاحَ حَقِيقَةً فِي الطَّائِرِ وَ الْمَلِكِ ثُمَّ تَوْسَعُ فِيهِ فَاطْلُقَ عَلَى الْيَدِ وَ عَلَى الْعِضْدِ وَ عَلَى جَنْبِ الرَّجْلِ وَ أَصْلَ الْجَنُوحِ الْمِيلَ وَ مِنْهُ جَنَاحُ الطَّائِرِ لِأَنَّهُ يَمِيلُ

به في طيرانه حيث شاء والجنب فيه جنوح الأضلاع وأصل العضد من جهته تميل حيث شاء صاحبها وقال أبو عبيدة الجناحان النّاحيتان.

وقال بعض المفسرين يقال لكلّ ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطفه و جناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنّه يجنحهما عند الطيران ومعنى ضمّ اليد إلى الجناح في قوله: وَ أَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ يعلم من قوله تعالى في آية أخرى:

قال الله تعالى: وَ أَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ^(١).

قال الله تعالى: أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ^(٢).

والقرآن يفسر بعضه بعضاً فقوله: وَ أَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ، معناه أدخل يدك في جيبك فعلى هذا يكون الجناح في الآية كناية عن الجيب تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فالسوء الرداءة والقيح في كلّ شيء فكُنِيَ عنه بالبرص كما كُنِيَ عن العورة بالسّوءة والبرص أبغض شيء إلى العرب فكان جديراً بأن يَكُنِيَ عنه والمعنى تخرج بيضاء يدك من غير برص.

إن قلت قال تعالى: وَ أَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ولم يقل إلى جيبك فما معنى الخروج.

قلت قوله: تَخْرُجُ دليل على الدّخول إذا لو لم يكن خروج، قيل خرجت يده بيضاء تشف وتضي كأنها شمس وكان آدم اللّون فكان إذا أدخل يده في جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تشرق مثل البرق الشّمس من غير برص ثم إذا ردّها عادت إلى لونها الأوّل بلا نور، قيل اليد أعظم في الإعجاز من العصا وقيل بالعكس ولا فائدة في هذا البحث لأنّ الأنظار مختلفة والعقول متفاوتة وهو ظاهر على المتأمل.

لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى

قال صاحب الكشف أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حيّة لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى، أي بهاتين الآيتين نريك بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

وَأَمَّا قَالَ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ولم يقل لنريك آياتنا الكبرى بحذف من، للدلالة على أن ما أراه الله من الآيات هو بعضها لا جميعها فَأَنَّ الآيات كثيرة لا يحصيها إلا هو ولذلك أتى، بكلمة من، التي للتبعض ثم أنهم اختلفوا في تركيب الآية من حيث الإعراب فقال بعضهم أَنَّ الكبرى مفعول ثانٍ لنرى و مفعول الأوّل كان الخطاب و قيل: مِنْ آيَاتِنَا في موضع المفعول الثاني و تكون الكبرى صفة لآياتنا على حدّ الأسماء الحسنى، و قارب أخرى و الَّذي نختاره في المقام هو أن يكون، من آياتنا، في موضع المفعول الثاني، لنريك، و الكبرى، صفة لآياتنا لأنّه يلزم من ذلك أن تكون آياته تعالى كلّها هي الكبر، لأنّ ما كان بعض الآيات الكبر صدق عليه أنّه الكبرى و إذا جعلت الكبرى مفعولاً لم تتّصف الآيات بالكبر لأنّها هي المتّصفة بأفعل التّفضيل و أيضاً إذا جعلت الكبرى مفعولاً ثانياً فلا يمكن أن يكون صفة كالعصا و اليد معاً لأنّهما كان يلزم التّثنية في وصيفهما و الأمر سهل بعد وضوح المعنى.

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

أمر الله تعالى موسى بعد أن أراه الآيتين و هما قلب العصا حيّة، و اليد البيضاء، أن يذهب إلى فرعون و يبيّن العلة في ذلك بقوله أنّه أي فرعون طغى، أي تجاوز قدره في عصيان الله و تجاوز به قدر معاصي الناس و ذلك أنّه إدعى الألوهيّة و أجبر الناس على الإعتراف و الإقرار بألوهيّةه و أيّ طغيانٍ أشدّ و أعظم منه قيل أنّه تعالى قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إسمع كلامي و أحفظ وصيّتي و أنطق برسالاتي فأنك بعيني و سمعي و أنّ معك يدي و بصري و أنّي ألبستك

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

جَنَّةٍ مِنْ سُلْطَانِي لَتَسْتَكَمِلَ بِهَا الْقُوَّةَ فِي أَمْرِي أُبْعَثُكَ إِلَى خَلْقٍ ضَعِيفٍ مِنْ خَلْقِي بِطَرِيقٍ نَعْمَتِي وَأَمِنْ مَكْرِي وَغَرَّتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى جَحَدَ حَقِّي وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتِي وَأَنْتِي أَقْسَمَ بِعِزَّتِي لَوْلَا الْحِجَّةُ وَالْعَذْرُ الَّذِي وَضَعْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي لَبَطَشْتَ بِهِ بِطُشَّةٍ جَبَّارٍ وَكُلَّ هَانَ عَلَيَّ وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِي فَبَلَغَهُ عَنِّي رِسَالَتِي وَأَدْعَاهُ إِلَى عِبَادَتِي وَحَذَرَهُ نَعْمَتِي وَقُلْ لَهُ قَوْلًا لِنَبَأٍ فَأَنْ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي لَا يَطْرَفُ وَلَا يَتَنَفَسُ إِلَّا بِعِلْمِي فَسَكَتَ مُوسَى سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَتَكَلَّمُ ثُمَّ جَاءَهُ مَلَكٌ فَقَالَ أَجِبْ رَبَّكَ فِيمَا أَمَرَكَ بَعْدَهُ وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى.

رَبِّ أَشْرَحَ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ أَخْلُفْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ أَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَرُونَ أَخِي، أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي، وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهُوَ فِي سَطْوَتِهِ وَ قُدْرَتِهِ، سَأَلَ رَبَّهُ أُمُورًا ثَمَانِيَةً ثُمَّ ذَكَرَ فِي أُخْرَاهَا مَا يَجْرِي مَجْرَى الْعِلَّةِ لِلسُّؤَالِ:

الأول: طَلَبَ مِنْهُ تَعَالَى شَرْحَ الصَّدْرِ وَ إِلَى ذَلِكَ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ الْمُرَادُ بِشَرْحِ الصَّدْرِ وَسَعَتُهُ وَ قِيلَ بَيِّنُهُ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ شَجَعَنِي لِأَجْتَرِي بِهِ عَلَى مَخَاطَبَةِ فِرْعَوْنَ وَ أَمَّا قَدَّمَهُ عَلَى سَائِرِ الْأُمُورِ لِتَقَدُّمِهِ عَقْلًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ وَ لَا سِيَّمَا فِي حَقِّ النَّبِيِّ لَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ^(١).

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَاطَبَ مُوسَى بِالْأَشْيَاءِ السَّتَةِ:

أحدها: مَعْرِفَةُ التَّوْحِيدِ فَقَالَ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا.

ثانيها: أَمْرُهُ بِالْعِبَادَةِ وَ الصَّلَاةِ فَقَالَ فَأَعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِي.

ثالثها: معرفة الأخرة حيث قال أَنْ السَّاعَةَ آتِيَةٌ.

رابعها: حكمة أفعاله في الدنيا في قوله: وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى.

خامسها: عرض المعجزات الباهرة عليه في قوله: لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى.

سادسها: إرساله الى أعظم النَّاس كُفْرًا و عِتْوًا في قوله: إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً للقهر فأراد موسى عَلَيْهِ السَّلَام جبر هذا القهر بالمعجزة فعرفه أَنْ كُلَّ مَنْ سَأَلَهُ قَرَبَ مِنْهُ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ^(١) وموسى كان مخصوصاً بالقرب لقوله تعالى: وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًا^(٢) ولذلك قال رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي أَوْ يقال أَنَّهُ خَافَ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِدَعَا رَبَّهُ وَ طَلَبَ مِنْهُ شَرْحَ الصَّدْرِ لِيَكُونَ مَأْمُونًا مِنْ غَوَائِلِهِمْ إِنْتَهَى.

أقول لا نحتاج الى هذه التكاليف في الباب بعد وضوح المعنى و أَنَّ العبد محتاج الى رَبِّهِ في جميع شؤنه و لا سيما مقام النبوة حيث أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ مَكْلَفًا بما إحتاج معه الى إحتمال ما لا يحتمله إِلَّا ذُو جَاشٍ رَابِطٍ وَ صدرٍ فسيح، و لذلك سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِيَحْتَمِلَ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنَ الشَّدَائِدِ الَّتِي يَضِيقُ لَهَا الصَّدْرُ وَ هذا واضح.

الثاني: قوله: وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي، أَي سَهِّلْ عَلَيَّ أَمْرَ النَّبُوءَةِ الَّتِي هِيَ خَلَاقَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَ مَا يَصْحَبُهَا مِنْ مَزَاوِلَةِ جَلَائِلِ الْخُطُوبِ وَ قَدْ عَلِمَ مُوسَى مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ مِنَ الْجَبُرُوتِ وَ التَّمَرُّدِ وَ التَّسْلُطِ وَ الطُّغْيَانِ وَ الْإِنْكَارِ لِلْحَقِّ.

الثالث: قوله: وَ أَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ طَلَاقَةَ اللِّسَانِ مِنْ أَهَمِّ شُرَاطِئِ التَّبْلِيغِ لِأَنَّ الْمُبْلَغَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى بَيَانِ مَرَادِهِ بِأَحْسَنِ الْوُجُوهِ لَا يَتَرْتَبِ عَلَيْهِ تَبْلِيغُهُ أَثَرُ إِذِ الْمَفْرُوضُ أَنَّ الْمَخَاطَبَ لَمْ يَفْهَمْ مَرَادَهُ وَ ذَلِكَ قَالَ رَسُولُ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٦

الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ وَالْإِيمَانُ

اللَّهُ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بِيَدِ أَنِّي مِنْ قَرِيشٍ، وَ الْحَلَّ نَفِي الْعَقْدِ بِالْفَرْقِ وَ ضِدَّ الْحَلِّ الْعَقْدِ، وَ يُقَالُ أَنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِ مُوسَى رِثَةً وَ هِيَ الَّتِي لَا يَفْصَحُ مِنْهَا بِالْحُرُوفِ وَ قِيلَ أَنَّ سَبَبَ الْعَقْدَةِ فِي لِسَانِهِ أَنَّهُ طَرَحَ جِمْرَةً فِيهِ لَمَّا أَرَادَ فِرْعَوْنَ قَتْلَهُ لِأَنَّهُ أَخَذَ لِحِيَّتَهُ وَ قَدْ مَرَّ بِبَيَانِ ذَلِكَ مَفْصَلًا، وَ قِيلَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَطَمَهُ، وَ قِيلَ ضَرَبَهُ بِقَضِيْبٍ كَانَ فِي يَدِهِ وَكَيْفَ كَانَ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْعَقْدَةَ كَانَتْ مِنْ الْعَوَارِضِ لَا بِحَسَبِ الطَّبِيعَةِ وَ الْخَلْقَةِ كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ وَ غَيْرِهِمْ.

الزَّابِعُ: قَوْلُهُ: يَفْقَهُوْا قَوْلِي طَلَبَ مُوسَى مِنْ حَلِّ الْعَقْدَةِ قَدْرَ مَا يَفْقَهُ قَوْلُهُ قِيلَ وَ بَقِيَ بَعْضُهَا لِقَوْلِهِ وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا، وَ لِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ وَ أَحْلَلَ الْعَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي، فَقَوْلُهُ وَ أَحْلَلَ عَقْدَةً آيَةً عَقْدَةٍ كَانَتْ وَ لِذَلِكَ نَكَرَهَا فَالْتَّنْكِيرُ يَفِيدُ التَّوَعِيَةَ وَ الْبَعْضِيَّةَ، وَ قِيلَ زَالَتْ بِالْكَلِيَّةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَ هُوَ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ أَيُّ مُوسَى لَمْ يَقُلْ وَ أَحْلَلَ الْعَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي بَلْ قَالَ عَقْدَةً فَإِذَا حُلَّ عَقْدَةً فَقَدْ أَتَاهُ اللَّهُ سُؤْلَهُ.

وَ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَ فِي تَنْكِيرِ الْعَقْدَةِ وَ أَنَّ لَمْ يَقُلْ وَ أَحْلَلَ عَقْدَةً لِسَانِي، أَنَّهُ طَلَبَ حَلَّ بَعْضِهَا، فَقَوْلُهُ مِنْ لِسَانِي صِفَةٌ لِلْعَقْدَةِ كَأَنَّهُ قِيلَ وَ أَحْلَلَ عَقْدَةً مِنْ عَقْدٍ لِسَانِي.

أَقُولُ وَ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ مِنْ لِسَانِي، مُتَعَلِّقٌ بِأَحْلَلِي.

الخَامِسُ: قَوْلُهُ: وَ أَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي الْوَزِيرُ بَفَتْحِ الْوَاوِ الْمَعِينِ الْقَائِمُ بِوُزْرِ الْأُمُورِ أَيُّ بِثَقْلِهَا فَوْزِيرُ الْمَلِكِ يَتَحَمَّلُ عَنْهُ أَوْزَارَهُ وَ مُؤْنَهُ وَ قِيلَ مِنْ الْوَزْرِ وَ هُوَ الْمَلْجَأُ يَلْتَجَأُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

مِنْ السَّبَاعِ الصُّوَارِي دُونَهُ وَزُرُ وَ النَّاسِ شَرَّهُمْ مَا دُونَهُ وَزُرُ
كَمْ مَعْشَرٍ سَلِمُوا لَمْ يَزِدْهُمْ سَبْعُ وَ مَا نَرَى بَشَرًا لَمْ يُوْذَمْ بِشَرِّ
فَالْمَلِكِ يَعْتَصِمُ بِرَأْيِهِ وَ يَلْتَجَأُ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِ

و قال الأصمعي هو من الموازنة و هي المعاونة و المساعدة و القياس أثير .
 و كذا قال الزمخشري فقلبت الهمزة الى الواو و وجه قلبها أن فعلاً جاء في
 معنى فاعل و قال بعضهم لا حاجة إلى إدعاء قلب الهمزة و اوالاً لأن لنا إشتقاقاً
 واضحاً و هو الوزر و جوزوا أن كون لي وزيراً مفعولين لأجعل ، و هارون بدل أو
 عطف بيان ، و أن يكون وزيراً و هارون مفعوليه و قدّم الثاني إعتناءً بأمر الوزارة ،
 و أخي بدل من هارون في هذين الوجهين ، و فى قوله: **مِنْ أَهْلِي** إشارة إلى أن
 يكون الوزير من أهل بيت موسى و لذلك قال بعد هذا الكلام هارون أخى .

السادس: قوله: **هُرُونَ أَخِي** قيل كان هارون أكبر من موسى بأربعة أعوام و
 هو أخوه من أمّه و أبيه و مات قبل موسى في التّيه .

السابع: قوله: **أُشَدُّ بِهِ أَزْرِي** الأزّر بفتح الهمزة الظّهر يقال أزرني فلان
 على أمرى أي كان لي ظهراً و منه المئزر لأنّه يشدّ على الظّهر و قيل يجوز أن
 يكون أزر، لغة في وزر و هو ضعيف و فى هذا الكلام إشارة إلى أن الأخ يشدّ به
 الظّهر لا غيره من الأقرباء و لذلك قيل في موت الأخ الآن إنكسر ظهري و قلّت
 حيلتي و لا يقال هذا الكلام في موت غيره من الأقرباء حتّى الأولاد .

الثامن: قوله: **وَ أَشْرِكُهُ فِيْ أَمْرِي** بالأمر النّبوّة أي أشركه في نبوّتي و كان
 هارون كذلك لو بقي بعد موسى إلّا أنّه مات قبله و لمّا طلب موسى من ربّه ما
 سأل قال كما حكى الله عنه **كَيْ تَسْبِّحَكَ كَثِيرًا وَ تَذْكُرَكَ كَثِيرًا** فهذا الكلام
 منه بمنزلة العلة كأنّه قيل لم سألت من ربك ما سألت فقال كي نسبحك كثيراً و
 نذكرك كثيراً أي أنما سألت ربّي ذلك لأجل التسبيح و الذّكر ، فالتسبيح هو
 التّنزيه لله عمّا لا يجوز عليه من وصفه بما لا يليق به فكلّ شيء عظم به الله
 بنفي ما لا يجوز عليه فهو تسبيح مثل قوله سبحانه الله و الحمد لله و لا إله إلّا
 الله و الله أكبر ، و قوله **وَ تَذْكُرَكَ كَثِيرًا** معناه نذكرك بحمدك و الثناء عليك لما
 أوليتنا من نعمك و مننت به علينا من يحتمل رسالتك قاله في التّبيان .

أقول قَدَمَ التَّسْبِيحِ لَأَنَّهُ تَزْيِيهِهِ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَمَلًا يَلِيقُ بِجَنَابِهِ وَبِرَأْيِهِ عَنِ التَّقَائِصِ وَمَحَلِّ ذَلِكَ الْقَلْبَ وَأَمَّا الذِّكْرُ وَالتَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَمَحَلَّهُ اللِّسَانَ فَلِذَلِكَ قَدَمَ مَا مَحَلَّهُ الْقَلْبَ عَلَى مَا مَحَلَّهُ اللِّسَانَ كَثِيرًا، قَوْلُهُ: كَثِيرًا نَعْتُ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَوْ مَنْصُوبٍ عَلَى الْحَالِ أَيْ نَسَبَحُكَ التَّسْبِيحَ فِي حَالِ كَثَرَتِهِمْ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ سَبِيوِيهِ وَقَوْلُهُ: إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا أَيْ أَنْكَ عَالِمٌ بِأَحْوَالِنَا وَأُمُورِنَا وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهَا إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَتَقُولُ:

رَوَى الْحَافِظُ الْحُسَكَانِيُّ فِي الشُّوَاهِدِ التَّنْزِيلِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ حَذِيفَةَ ابْنِ أُسَيْدٍ قَالَ، أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ، أَبَشِّرْ أَبَشِّرْ أَنَّ مُوسَى دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِهِ هَارُونَ وَأَنْتِي أَدْعُو رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيٌّ أَخِي أَشَدُّ بِهِ ظَهْرِي وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي أَنْتَهَى.

وَأَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمِيْسٍ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتِي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى اللَّهُمَّ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيًّا أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي إِلَى قَوْلِهِ: كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا أَنْتَهَى.

وَأَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمِيْسٍ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي وَاسِّرْ لِي أَمْرِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيٌّ أَنْتَهَى. وَبِأَسْنَادِهِ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْتِي أَقُولُ كَمَا قَالَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ اللَّهُمَّ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي يَعْنِي ظَهْرِي وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي يَكُونُ لِي صَهْرًا وَخَتَنًا أَنْتَهَى.

أقول و روى أبي المغازلي الشافعي بأسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال فأخذ رسول الله ﷺ بيد عليّ فصلّى أربع ركعات ثم رفع يده إلى السماء فقال اللهم سألك موسى بن عمران وأنا محمد أسألك أن تشرح لي صدري و تيسر لي أمري و تحلّ عقدة من لساني يفقهوا قولي و أَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي أشدّ به أزرّي و أشركه في أمري فقال ابن عباس سمعت منادٍ ينادي يا أحمد قد أوتيت ما سألت فقال النبي ﷺ يا أبا الحسن أرفع يدك إلى السماء و أدع ربك و إسأله يعطيك فرفع عليّ يده إلى السماء و هو يقول اللهم إجعل لي عندك ودًا فأنزل الله على نبيّه، أَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا فَتَلَاها النبي ﷺ على أصحابه فعجبوا من ذلك عجباً شديداً فقال النبي ﷺ ممّ تعجبون أَنْ القرآن أربعة أرباع فربّع فينا أهل البيت خاصّة و ربّع حلال و حرام، و ربّع فرائض و أحكام، و الله أنزل في عليّ كرائم القرآن إنتهى.

و روى في الدّر المنثور و هو من أحسن التّفاسير عند العامّة بأسناده عن أبي جعفر بن عليّ ع قال: لَمَّا نَزَلَتْ وَ أَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشَدَّ بِهِ أَزْرِي، كان رسول الله ﷺ على جبلٍ ثمّ دعا ربّه و قال اللهم أشدّ أزرّي بأخي عليّ فأجابه إلى ذلك إنتهى^(١).

و الأحاديث من طرق العامّة في الباب كثيرة و أمّا الخاصّة أعني بها الشيعة فالمؤاخذات عندهم من المسلّمات فلا نحتاج إلى ذكر أحاديثهم في المقام روى في المناقب عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال سمعت عليّاً ينشد و رسول الله يسمع:

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي
 معه ربيت و سبطاه هما ولدي
 جدي و جد رسول الله منفرد
 وفاطم زوجتي لا قول ذي فند
 والحمد لله شكراً لا شريك له
 التبر بالعبد و الباقي بلا أحد
 قال جابر فتبسم رسول الله ﷺ وقال صدقت إنتهى.

ولنعم ما قيل:

علي أخوه المصطفى قد رويتم
 و شيخاً كما قد قلتما أخوان



وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٦) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
أَمْرًا يُؤْوِيهِ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ
فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوُّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ
لِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٨) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ
هَلْ أَدْرَأُكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ
كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَجَعَلْنَاكَ
مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ
مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٣٩) وَ
أَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤٠) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ
بِأَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤١) إِذْهَبَا إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٢) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٣) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ
يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٤) قَالَ لَا تَخَافَا
إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٥) فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا
رُسُلَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ
مَنْ أَتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٦) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ
الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٧) قَالَ فَمَنْ
رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٨) قَالَا رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ
شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٤٩)

◀ اللّٰغَة

أَقْذِفْهِ: القذف الطرح.
 فِي أَلِيمٍ: أليم بفتح الياء وسكون الميم المشددة البحر، والمراد به هنا النبل.
 لَتُصْنَعْ: أي يتغذى.
 فَتَنَّاكَ فَتُونًا: أي إختبرناك إختبارًا.
 فَلَبِثْتَ: أي أقمت يقال لبث في قومه مدة أي أقام فيهم.
 وَأَصْطَفَعْنَاكَ: أي إصطفيتك.
 وَلَا تَبْتَئَا فِي ذِكْرِي: أي لا تغتر، يقال ونئ في الأمر يني إذا فتر فيه.

◀ الإعراب

إِذْ أَوْحَيْنَاَ هُوَ ظرف، لَمَنَّا أَقْذِفْهِ أَنْ مصدرية بدلاً من، ما يوحى و يجوز أن تكون بمعنى، أي، فَلْيَلْقِهِ أمر للغائب و مِنِّي تتعلق، بألقيت و يجوز أن تكون نعتاً لمحبة أي لتحب و لتصنع إِذْ تَمْشِي بدل من، إذ الأولى و التقدير أذكر إذ تمشي فَتُونًا مصدر مثل القعود و يجوز أن يكون جمعاً تقديره بفتون كثيرة على قَدَرِ حال أي موافقاً لما قدر لك خَلَقَهُ مفعول أول كُلِّ شَيْءٍ ثانٍ أي أعطى مخلوقه كل شيء و قيل هو على وجهه و المعنى أعطى كل شيء مخلوق خلقه أي هو الذي إبتدعه، و يقرأ، خلقه، على الفعل و المفعول الثاني محذوف للعلم به.

◀ التفسير

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى بِأَنَّهُ قَدْ أَتَاهُ مَا طَلِبَهُ وَ أَعْطَاهُ سُؤْلَهُ فِي قَوْلِهِ: فَقَدْ أَوْتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى^(١) أَشَارَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ نِعْمَةٍ عَلَيْهِ وَ مِنْهُ لَدَيْهِ فَقَالَ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى وَ هِيَ حِفْظُهُ عَنِ الْقَتْلِ حِينَ الْوِلَادَةِ.

و قال بعضهم المعنى أعطيت طلبتك و ما سألتك من شرح الصّدر و تيسير الأمر و حلّ العقدة و جعل أخيك وزيراً و ذلك من المنة عليه ثم ذكر الله تعالى تقديم منة أخرى عليه على سبيل التوقيف ليعظم إجهاده و تقوي بصيرته و قوله: مَرَّةً معناه، منة، كأنه قال منة أخرى، و أخرى، تأنيث أخر بمعنى، غير، أي منة غير هذه المنة وليست أخرى، بمعنى، أخرة فتكون مقابلة للأولى و تخيل ذلك بعضهم فقال سماها أخرى و هي أولى، لأنها أخرى في الذّكر، و الأخرى لفظٌ مشترك يكون تأنيث الآخر بفتح الخاء و تأنيث الآخر بمعنى الأخيرة (أخرة) فهذه يلحظ فيها معنى التّأخر و المعنى إنّي قد حفظتك و أنت طفلٌ رضيعٌ فكيف لا أحفظك و قد أهلكك للرّسالة ففي قوله: مَرَّةً أُخْرَى إجمالٌ يفسره قوله: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ.

أقول لا يحتاج الكلام إلى هذا التفصيل و ذلك لأنّ الله تعالى قد منّ على موسى مرّتين، مرّة في حال الطفوليّة على ما سبق شرحه و مرّة بعد النّبوة فقوله و لقد منّا عليك مرّة أخرى، أي في حال الطفوليّة كما قال تعالى: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى قال الجمهور الوحي هنا وحي إلهام كقوله: وَ أُوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ^(١) و قيل وحي إعلام إمّا بإراءة ذلك في منام و إمّا ببعث ملك إليها لا على جهة النّبوة كما بعث إلى مريم و هذا هو الظاهر، لظاهر قوله يأخذه عدوّ لي و عدوّ له و لظاهر قوله في سورة القصص: إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعَلُوهُ مِنْ أَلْمُزَسَلِينَ^(٢) و حيث أنّ في قوله ما يوحى إلهام و إجمال فسره بقوله:

أَنْ أَقْذِفِهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي أَلِيمٍ فَلْيُلْقِهِ أَلِيمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوُّهُ وَ عَدُوُّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي
أي أوحينا إلى أمك أن أقذفه في التابوت و أقذفه في المفسرة لأنّ الوحي بمعنى القول، و قال ابن

بنيان القرآن في تفسير القرآن



المجلد الحادي عشر

عطية هي أي أن، بدل من، ما، يعني أنها مصدرية فلذلك كان لها موضع من الإعراب والوجهان سائغان والظاهر أن التابوت كان من خشب وقيل من بردى شجر مؤمن آل فرعون سئدت خروقه وفرشت فيه نطعاً وقيل قطعاً محلوجاً وسدت فمه وجصصته وقيرته وألقته في اليم وهو إسم للبحر العذب والمراد به في المقام النيل وأما القول بأنه إسم للنيل خاصة فلا دليل عليه ولا ساعدته اللغة والضمير في قوله أقذفه في اليم عائد على موسى أي أوحينا إلى أمك أن أقذفه أي أقذف في أطرحي موسى في النيل وكذلك الضميران بعده وذلك لأن موسى هو المحدث عنه لا التابوت وأما ذكر التابوت على سبيل الوعاء.

قال الزمخشري والضمائر كلها راجعة إلى موسى ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه خجعة لما يؤدي من تنافر النظم وقال بعض المفسرين الضمير الأول في أقذفه، عائد على موسى وفي الثاني عائد على التابوت. أقول هذا بحث لا فائدة فيه إذ لا فرق بين عود الضمير على موسى وعوده على التابوت إذ المراد بالتابوت هو التابوت الذي فيه موسى لا نطلق التابوت فالمحدث عنه هو موسى لا التابوت فإنه فضلة في المقام.

وقوله: **فَلْيُلْقِهِ آلِيمٌ بِالسَّاحِلِ** هو جزاء وخبر أخرج مخرج الأمر والتقدير فأطرحه في اليم فليلقه اليم بالساحل روي أن فرعون كان يشرب في موضع من النيل إذ رأى التابوت فأمر به رفيق إليه وإمرأته معه فأروه فرحمته آسية امرأة فرعون وطلبت له لتأخذه ابناً فأباح لها ذلك وروي أن التابوت جاء في الماء إلى المشرعة التي كانت جوارى امرأة فرعون تستعين منها الماء فأخذت التابوت وجلبته إليها وأعلمته فرعون والعدو الذي لله ولموسى هو فرعون كما قال تعالى: **يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ** أما أنه كان عدواً لله فهو ظاهر لأنه كان يدعي الألوهية في قوله **أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى**، وبعبارة أخرى أنه أنكر الألوهية لله تعالى ولا نغني بالعدو إلا هذا وأما كونه عدواً لموسى أي سيكون له عدواً في

المستقبل و قد ثبت أنَّ المستقبل إذا كان محقق الوقوع فهو في حكم الماضي فصَحَّ أن يقال أنَّ فرعون عدوُّ له حتَّى قبل ولادة موسى و بعبارة أخرى أنَّه عدوُّ له في العاقبة فكذا في الحال إلَّا أنَّه لا علم به قال الله تعالى: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا**^(١) و قد أجمع المفسرون على أنَّ اللّام في، ليكون، لام العاقبة أي التلقطه آل فرعون من الماء ليكون لهم عدوًّا في المستقبل و فرعون و من تبعه لم يعلموا به إذ لو علموا به لقتلوه فهو عدوُّ لموسى واقعاً و موسى عدوُّ له لكفره و عناده و سيأتي تفصيل الكلام في سورة القصص.

و قوله: **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** أي جعلتك محبوباً عند فرعون و آسية قيل كان فرعون قد أحبه حباً شديداً حتَّى لا يتمالك أن يصبر عنه و قال ابن عباس أحبه الله و حبَّبه إلى خلقه. و قال قتادة كان في عينيه ملاحظة ما رآه أحد إلَّا أحبه.

و قال الزمخشري، منِّي، لا يخلوا إمَّا أن يتعلّق بألقيت فيكون المعنى أحبتك و من أحبه الله أحبَّته القلوب و إمَّا أن يتعلّق بمحذوف هو صفة لمحَبَّته أي محبة خالصة أو واقعة منِّي قد ركزتها أنا فيها في القلوب و زرعها فيها فلذلك أحبك فرعون وكلّ من أبصرك.

أقول و نظير ذلك قول رسول الله ﷺ في الحسين الشهيد عليه السلام: **أَنَّ** للحسين محبةً في القلوب مكنونة و السر في ذلك أنَّ القلوب بيد الله فهو الذي يقلبها كيف يشاء كما يقال يا مقلب القلوب و الأبصار، و لا فرق في ذلك بين قلب فرعون و غير فرعون فإنَّ الكل مخلوق له فقلوبهم بيده و قوله: **لِتُصْنَعَ** قرأ الجمهور بكسر اللّام كي، و ضمّ التاء و نصب الفعل أي و لتربي، و يحسن إليك و قوله: **عَلَى عَيْنِي** أي أنا أراقبك كما يراعي الرّجل الشّيء بعينه إذا اعتنى به فالمعنى إنّي ألقى في قلب فرعون محبةً بالنسبة إليك لتصنع أي

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

لكي تصنع على عيني أي تغذي على محبتي وإرادتي تقديره و أنا أراك يقال صنعت الفرس إذا أحسنت إليه و قرئ و لتصنع بإسكان اللام و العين و ضم التاء فعل أمر، و قوله: **عَلَى عَيْنِي** أي على مرئي و منظري و هو كناية عن مراقبة الله إياه ثم أن وجه المنة في هذه الآية من جهات:

الأولى: إلقاء محبة موسى في قلب القابلة حين ولادته.

والثاني: إلهامه تعالى الى قلب أمه في جعلها الطفل في التابوت و طرحه في الماء.

الثالث: إلقائه اليم بالساحل و حفظه من الغرق.

الرابع: إلقاء المحبة في قلب فرعون و آسية ليصنعا به ما صنعا من التغذية و إظهار و غير ذلك و لا شك أن هذه الأمور من أحلى مصاديق النعم في حقّه.

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَ قَتَلَتْ نَفْسًا فَجَنَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ۖ وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ، قيل إسمها مريم و سبب ذلك أن آسية عرضته للرُّضاع فلم يقبل موسى امرأة فجعلت تنادي في المدينة و يطاف به و يعرض للمراضع فيأبى و بقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته بالتفتيش في المدينة لعلها تقع على خبره فبصرت به في طوافها فقالت أنا أدلكم على من يكفله و له ناصحون فتعلقوا بها و قالوا أنت تعرفين هذا الصبي فقالت لا ولكن أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التقرب الى الملكة و الجّد في خدمتها و رضاها فتركوها و سالوها الدلالة فجاءت بأم موسى فلما قرّبه شرب ثديها فسّرت آسية و قالت لها كوني معي في القصر فقالت ما كنت لأدع بيتي و ولدي و لكنّه يكون عندي قالت نعم فأحسنّت آسية الى أهل ذلك البيت غاية الإحسان و الى هذا أشار الله تعالى بقوله: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** برؤيتك، و لا تحزن، بفراقها إياك قيل أن

بنو إسرائيل إعْتَزُوا بهذا الرِّضَاعِ والنَّسَبِ مِنَ الْمَلِكَةِ وَلَمَّا كَمَلَ رِضَاعُهُ أَرْسَلَتْ أَسِيَةَ إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ جِئْتِنِي بِوَلَدِي لِيَوْمِ كَذَا وَأَمَرَتْ خَدْمَهَا وَمَنْ لَهَا أَنْ يَلْقِيَنَّهُ بِاللِّحْفِ وَالْهَدَايَا وَاللِّبَاسِ فَوَصَلَ إِلَيْهَا عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ بِخَيْرِ حَالٍ وَأَجْمَلَ شَبَابٍ فَسَرَتْ أَسِيَةُ بِهِ وَدَخَلَتْ بِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ لِيَرَاهُ وَلِيَهَبَهُ فَأَعْجَبَهُ وَقَرَّبَهُ فَأَخَذَ مُوسَى بِلَحْيَةِ فِرْعَوْنَ يَوْمًا مِنَ الْآيَاتِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِ عِنْدَ ذِكْرِ الْعَقْدَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ فَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ أَيْضًا وَقُلْنَا أَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا مِنَ الْقَبْطِ وَسَيَاتِي الْكَلَامُ فِيهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:**

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ^(١).

وقوله: **وَقَتَلْتَ** قُتُوًّا قِيلَ معناه إختبرناك إختباراً، فَأَنَّ الْفِتْنَةَ الْإِخْتِبَارَ وَقِيلَ الْفِتْنَةُ الْمَحَنَةُ وَمَا يَشُقُّ عَلَى الْإِنْسَانِ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ أَيَّ خَلَصْنَاكَ مِنْ مَحَنَةٍ بَعْدَ مَحَنَةٍ وَأَمَّا الْغَمُّ فِي قَوْلِهِ: **فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ أَلْغَمٍ** فَقِيلَ أَيُّ مِنَ الْقَتْلِ فَأَنَّ الْغَمَّ بَلْغَةُ قَرِيضِ الْقَتْلِ وَقِيلَ مِنْ غَمِّ التَّابُوتِ وَقِيلَ مِنْ غَمِّ الْبَحْرِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ غَمُّ الْقَتْلِ حِينَ قَتَلَ الْقَبْطِيَّ فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ خَائِفًا ظَاهِرًا.

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى لَمَّا قَتَلَ مُوسَى قَبْطِيًّا فِي الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرَ فِرْعَوْنَ بِهِ هَمَّ بِقَتْلِ مُوسَى فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى شُعَيْبِ النَّبِيِّ عَلَى مَا مَرَّ بِيَانِهِ وَأَجْرَ نَفْسِهِ عَشْرَ سِنِينَ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ** وَقَالَ وَهَبُ ثَمَانٍ وَعَشْرُونَ سَنَةً مِنْهَا مَهْرُ ابْنَتِهِ وَبَيْنَ مِصْرَ وَمَدْيَنَ ثَمَانِ مَرَاهِلٍ قِيلَ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ وَالتَّقْدِيرُ وَفَتْنَاكَ فَتُونًا، فَخَرَجْتَ خَائِفًا إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ فَلَبِثْتَ سِنِينَ قِيلَ وَكَانَ عَمْرُهُ حِينَ ذَهَبَ إِلَى مَدْيَنَ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا وَأَقَامَ عَشْرَةَ أَعوامٍ فِي رِعْيِ غَنَمِ شُعَيْبٍ ثُمَّ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا بَعْدَ بِنَاءِهِ بِامْرَأَةِ بِنْتِ شُعَيْبٍ وَوُلِدَ فِيهَا فَكَمَلَ لَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً وَهِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي عَادَ اللَّهُ إِرْسَالَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى رَأْسِهَا.

قوله: **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ**

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى أَيَّ جِئْتَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَاجَيْتَكَ فِيهِ وَ كَلَّمْتُكَ وَاسْتَنْبَأْتُكَ وَ قَوْلُهُ: عَلَى قَدَرٍ قِيلَ أَيَّ وَقْتٍ مَعْيِنَ قَدَرْتَهُ لَمْ تَعُدِّمْهُ وَ لَمْ تَتَأَخَّرْ عَنْهُ وَ قِيلَ عَلَى مِقْدَارٍ مِنَ الزَّمَانِ بَوْحِي إِلَى الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ وَ هُوَ الْأَرْبَعُونَ قَالَ الشَّاعِرُ:

نال الخلافة أو جاءت على قدر كما أتى ربه موسى على قدر
قال الجبائي معنى قوله: وَ فَتَنَّاكَ فَتُونًا أَيَّ شَدَّدْنَا عَلَيْكَ التَّعَبَ فِي أَمْرِ
المعاش حَتَّى رَعَيْتَ لَشُعَيْبٍ عَشْرَ سِنِينَ، وَ يُوَكِّدُهُ قَوْلُهُ: فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ وَ هِيَ مَدِينَةُ شُعَيْبٍ، وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ إِخْتَبَرْنَاكَ بِأَشْيَاءَ:

أُولَئِهَا: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ فِي السَّنَةِ الَّتِي كَانَ فِرْعَوْنُ يَذْبَحُ فِيهَا الْأَطْفَالَ، ثُمَّ لِقَائِهِ
فِي الْيَمِّ، ثُمَّ مَنَعَهُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مِنْ ثَدْيِ أُمِّهِ، ثُمَّ جَزَّهَ بِلَحْيَةِ فِرْعَوْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُ
الْجَمْرَةُ بِدَلِّ الدُّرَّةِ فَدَرَأَ ذَلِكَ عَنْهُ قَتْلَ فِرْعَوْنَ، ثُمَّ قَتَلَهُ الْقَبْطِيُّ وَ خَرُوجَهُ خَائِفًا
يَتَرَقَّبُ، ثُمَّ رَعَايَتَهُ الْغَنَمَ لِيَتَدَرَّبَ بِهَا عَلَى رِعَايَةِ الْخَلْقِ فَيَقَالُ أَنَّهُ نَدَّلَهُ مِنْ
الْغَنَمِ، جَدِي، فَاتَّبَعَهُ أَكْثَرَ النَّهَارِ وَ أَتَعَبَهُ ثُمَّ أَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَ ضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ وَ قَالَ
لَهُ أَتَعْبَتَنِي وَ أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ لَمْ يَغْضَبْ عَلَيْهِ وَ لِهَذَا إِتَّخَذَهُ اللَّهُ كَلِيمًا فَهَذَا هَذَا
الْفَتُونِ الَّتِي أَشَارَتْ الْآيَةُ بِهَا وَ قَوْلُهُ: فَلَبِثْتَ سِنِينَ يَرِيدُ عَشْرَ سِنِينَ أَتَمَّ
الْأَجَلِينَ (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) يَرِيدُ مُوَافَقًا لِلنَّبُوءَةِ وَ الرِّسَالَةِ.

وَ قَالَ الرَّازِيُّ فِي الْمَقَامِ فَلَا يَدُّ مِنْ حَذْفِ الْكَلَامِ لِأَنَّهُ عَلَى قَدَرِ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ
وَ ذَكَرُوا فِي ذَلِكَ الْمَحْذُوفِ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ سَبَقَ فِي قَضَائِي وَ قَدَرِي أَنْ أَجْعَلَكَ رَسُولًا لِي فِي وَقْتٍ مَعْيِنٍ
عَنَيْتُهُ لِذَلِكَ فَمَا جِئْتَ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ الْقَدْرِ لَا قَبْلَهُ وَ لَا بَعْدَهُ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ: إِنَّا كُلَّ
شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ^(١).

ثَانِيهَا: عَلَى مِقْدَارٍ مِنَ الزَّمَانِ يُوْحَى فِيهِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَ هُوَ رَأْسُ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ.

ثالثها: القدر هو الموعد فأن أثبت أنه تقدّم هذا الموعد صحّ حمله عليه و لا يمتنع ذلك الإحتمال أن شعيباً عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عيّنوا ذلك الموعد إنتهى.

أقول القدر بفتح القاف و الدال مصدر مبلغ الشئ الطاقة و القوة ما يقدره الله من القضاء و يحكم منه، تعلّق الإرادة بالأشياء في أوقاتها أقدار قاله بعض أهل اللّغة و قال بعضهم القدر ما صدر مقدوراً عن فعل القادر والقدر بفتح القاف و سكون الدال ما يقدره الله من القضاء.

و قال في المنجد القدر بسكون الدال مصدر مبلغ الشئ مساوياً لغيره بلا زيادة و لا نقصان يقال هذا قدر ذلك، أي مماثله و مساوٍ له إذا عرفت هذا فقد علمت أن القدر و القدر معناهما واحد و الفرق بالإعتبار فإذا إعتبرت شيئاً بالقياس إلى شئٍ آخر كما تقول هذا مساوٍ لذاك في الوزن مثلاً أو في المساحة أو في القيمة و إذا إعتبرت بالقياس إلى ما قدر له بقضاء الله فتقول هذا على قدر أي مطابق لما قدره الله و توضيحه إجمالاً أن لله تعالى قضاءً و قدر فالقضاء نفس الحكم و القدر حدّ الحكم و أن شئت قلت ظرف الحكم و إختلفوا في تقديم أحدهما على الآخر.

فقال بعض الفلاسفة القضاء مقدّم على القدر و قال الآخرون بالعكس الحق لأن الحكم ينبغي أن يكون ناظراً إلى المحكوم عليه و هذا هو مقتضى العقل و العدل فلا يجوز عقلاً أن يحكم على شئٍ بأي نحو كان ألا ترى أن الله تعالى يقول في كتابه: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^(١) فقولهُ: إِلَّا وُسْعَهَا يُعَبِّرُ عَنْهُ بِالْقَدَرِ و على هذا فالحق أن القدر مقدّم على الحكم أي أن الله تعالى يحكم على العبد على قدر سعته و قدرته و من المعلوم أن تعيين الوسع مقدّم على الحكم:

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ^(٢).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

فهذا حكمٌ منه تعالى أمر الله عباده بالصيام:
 قال الله تعالى: **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ^(٢).

و غيرها من الواجبات والمستحبات ثم وضع الله عنهم الصوم في السفر و
 في حالة المرض مثلاً وهذا الحكم مطابق للقدر أي أن الله تعالى علم قبل
 الحكم أن المريض لا يقدر على الصوم والفقر لا يقدر على الحج بمعنى أنه
 يقع في مشقة فخص الحكم بمن لا يكون كذلك وهذا أي تخصيص الحكم
 بمن يقدر عليه يسمى بالقدر ثم أن العبد قد يكون حمله موافقاً للقدر مطابقاً له
 وقد لا يكون وذلك لأنه مختارٌ في فعله إن شاء فعل وإن شاء ترك فأن فعل ما
 أمر به وقع الفعل على ما قدر له وأن شئت قلت وقع على قدرٍ وإلا فلا و
 الأصل فيما ذكرناه أن القضاء والقدر في الأحكام التشريعية غيرهما في
 التكوينات معنى وذلك لأن القضاء والقدر في التكوينات لا إختيار للعبد
 فيها بخلاف التشريعات فهما في التكوين على أساس الجبر والقهر التشريع
 على أساس إختيار العبد وعدم إختياره ألا ترى أن العبد يخلق ويوجد في
 الدنيا بغير إختياره وإرادته ولا يصلي ولا يصوم بغير إختياره ولذلك نقول أن
 التكوينات مطابقة للقضاء والقدر ولا تخلف فيها وأما التشريعات فليست
 كذلك لأن إختيار العبد واسطة بين الأمر والفعل ولو كان الأمر في التشريعات
 والتكوينات على حد سواء لزم الجبر وملخص الكلام هو أن القضاء والقدر
 في التكوينات على أساس الجبر والقهر وفي التشريعات على أساس
 الإختيار الثابت للعبد فالعبد غير مجبور في فعله وعلى هذا فالعبد المأمور أن
 كان عمله مطابقاً لما قضى الله عليه وقدر أي حكم به فهو جاء على قدر وإلا
 فلا إذا عرفت هذا وتأملت فيه حق التأمل فلنرجع إلى تفسير قوله: **ثُمَّ جِئْتَ**
عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى.

ونقول أن الله تعالى قدّر لموسى النبوة والرّسالة في الأزل لأنّه علم أن موسى يقدر على أداء وظيفته وليست النبوة من الأمور الشّاقة الخارجة عن قدرة البشر ثمّ قضى على هذا التّقدير تشريعاً لا تكويناً فهذا من جانب الله و أمّا موسى فإن كان أعماله التي تصدر منه بإختياره وإرادته تنطبق على ما يليق بشأن الرّسول فقد جاء بما قدّر له وقضى به وحيث أن موسى كان كذلك فلا جرم جاء بأعماله على قدرٍ فهو نبيّ بلا كلام و أنما قلنا جاء بأعماله على قدرٍ لأنّ الله تعالى اختبره وإمتحنه كما قال: وَ فَتَنَّاكَ فَتُونًا، هذا ما خطر ببالي في تفسير كلام الله و لم أر في كلمات المفسّرين ما يكشف القناع عن كلام الله فأفهم وإغتم.

وإلى ما ذكرناه أشار الله بقوله: وَ أَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أي إصطفتك وإخترتك من بين عبادي و من المعلوم أن الإصطفاء والإختيار بعد الإختبار والإمتحان.

قال بعض المفسّرين أي إخترتك لكلامي، والحقّ أن تقييد الكلام لا وجد له فإنّ كونه كليماً لله تعالى من مصاديق الإصطفاء وهو ظاهر و قال بعضهم معناه أخلصتك بالألطف التي فعلتها بك إخترت عندها الإخلاص لعبادتي و المعنى واضح لا خفاء فيه فإنّ من وصل إلى مقام القرب كما قال تعالى: وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا واجدٌ لجميع مراتب الكمال فإنّ كلّ الصّيد في جوف الفرا.

قال الرّاغب في المفردات الإصطناع المبالغة في إصلاح الشّيء وقوله وَ أَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي إشارة إلى نحو ما قال بعض الحكماء، أن الله تعالى إذا أحبّ عبداً تَفَقَّده مكا يَتَفَقَّد الصّديق صديقه.

و قال بعض المفسّرين، وإصطنعتك لنفسى، أي جعلتك موضع الصّنيعة و مقرّ الإكمال والإحسان و أخلصتك بالألطف و إخترتك لمحبّتي يقال إصطنع فلان فلاناً إنَّخذه صنيعه و هو إنتقال من الصُّنع و هو الإحسان إلى الشّخص حتّى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان إنتهى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

و قال في معنى لِنَفْسِي، أي لأوامري وإقامة حججي و تبليغ رسالتي فحركاتك و سكناتك لي لا لنفسك ولا لأحد غيرك.

و قال الزمخشري هذا تمثيل لما حوَّله من منزلة التَّقَرُّب و التَّكْرِيم و التَّكْلِيم مثل حاله بحال من يراه الملوك بجميع خصال فيه و خصائص أهلًا لأن يكون أقرب منزلة إليه و أطف محلاً فيصطنعه بالكرامة و الإثرة و يستخلصه لنفسه إنتهى كلامه.

إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي

الوحي الفتور يقال ونى في الأمر بني إذا أفر فيه، و هو فعل لازم و إذا عدَّى فبعن و بفي و زعم بعض الأدباء أنه يأتي فعلاً ناقصاً من أخوات ما زال و بمعناها و هو ضعيف فقوله: **وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** أي لا تقتربا، أمر الله تعالى موسى و هارون بالذهاب إلى فرعون و أنما أشرك هارون معه في الذهاب إلى فرعون لأنه أي موسى دعا ربّه و طلب منه أشياء كان فيها أن يشرك أخاه هارون في قوله: **وَ أَشْرِكُهُ فَيَ أَفْرِي** ^(١) فذكر الله أنه أتاه سؤله في قوله: **قَدْ أَوْتَيْتَ سؤْلَكَ يَا مُوسَى** ^(٢) و كان عند إشراك أخيه فأمره هنا و أخاه بالذهاب و أخوك، معطوف على الضمير المستكن في، إذهب، قيل أن الله أوحى إلى هارون و هو بمصر أن يتلقى موسى و قيل سمع بمقدمه و قيل لهم ذلك و قوله بآياتي، ظاهره الجمع فقيل هي العصا و اليد و عقدة لسانه، و قيل اليد و العصا و قد يطلق الجميع على المثني و هما اللتان تقدّم ذكرهما و قيل العصا مشتملة على الآيات، لأنها إنقلبت حيواناً صغيراً في أول الأمر ثم عظم حتى صار ثعباناً ثم إدخال موسى يده في فمها فلا يضُرّه و قيل ما أعطي من معجزة و وحي و قوله: **وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** أي لا تضعفا و لا تقصرا و المراد بالذكر تبليغ

الرَّسَالَةَ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَقَعُ عَلَى سَائِرِ الْعِبَادَاتِ وَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ مِنْ أَجْلِهَا وَأَعْظَمُهَا
فَكَانَ جَدِيراً أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ إِسْمُ الذِّكْرِ.

إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

أَيُّ عَتَا وَ خَرَجَ عَنِ الْحَدِّ فِي الْمَعَاصِي وَ فِي رَأْسِهَا إِدْعَاءُ الْأُلُوهِيَةِ فِي قَوْلِهِ:
أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى وَ هَارُونَ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ أَنْ يَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ،
الَّذِينَ ضَدَّ الْخَشَوْنَ وَ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْأَجْسَامِ ثُمَّ يَسْتَعَارُ لِلخَلْقِ وَ غَيْرِهِ مِنَ
الْمَعَانِي فَيَقَالُ فَلَانٌ لَيْسَ وَ فَلَانٌ خَشِنٌ أَمْرُهُمَا اللَّهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْحَقِّ
إِذَا كَانَتْ بِخَشُونَةٍ لَا تَنْفَعُ وَ لَا تُؤَثِّرُ فِي قَلْبِ الْمَخَاطَبِ بَلْ تَوْجِبُ تَنْفَرُ الطَّبَعِ
وَلَوْ كَانَ الْكَلَامُ حَقًّا وَ هَذَا أَمْرٌ مُحْسُوسٌ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ

جَادِلْهُمْ بِلَا تَتِي هِيَ أَحْسَنُ^(١).

وَ قِيلَ الْقَوْلُ الَّذِي، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيْنَهَا خَفَتُهَا عَلَى اللِّسَانِ
وَ قَالَ الْحَسَنُ هُوَ قَوْلُهُمَا أَنْ لَكَ رَبًّا وَ أَنْ لَكَ مَعَادًا وَ أَنْ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةٌ وَ نَارًا فَاْمَنْ
بِاللَّهِ يَدْخُلُكَ الْجَنَّةُ وَ يَقْلُ عَذَابِ النَّارِ.

وَ قِيلَ أَمْرُهُمَا تَعَالَى أَنْ يَعِدَ الْمَوَاعِيدَ عَلَى الْوَعِيدِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَقْدَمَ بِالْوَعْدِ قَبْلَ الْوَعِيدِ لِيَنْهِيَ الْقَبَائِلَ جِهَالَهَا

قِيلَ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ مُوسَى وَ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَا عَرَضَا شَوَارَ فِرْعَوْنَ
آسِيَةً فَقَالَتْ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرُدَّ هَذَا فَشَاوَرَا هَامَانَ فَقَالَ لَهُ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّكَ
ذُو عَقْلٍ تَكُونُ مَالِكًا فَتَصِيرُ مَمْلُوكًا وَ رَبًّا فَتَصِيرُ مَرْبُوبًا فَاْمْتَنَعْ مِنْ قَبُولِ مَا عَرَضَ

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الحادي عشر

عليه موسى، وقوله: **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** قيل الترجي بالنسبة لهما إذ هو مستحيل وقوعه من الله تعالى، وقيل الترجي في القرآن ليس على معناه بل معناه، أي كي يتذكر أو يخشى، وفائدة إرسالهما اليه مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن، إقامة الحجة عليه وإزالة المعذرة وقال بعضهم القول اللين ما حكاه الله هنا وهو **فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ** الى قوله: **وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**.

وقال الفراء **لَعَلَّ** هنا بمعنى، كي، أي كي يتذكر أو يخشى كما تقول **إعمل لعلك تأخذ أجرك أي كي**، تأخذ أجرك وأما قوله: **يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** فقال صاحب الكشف أي يتذكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق أو يخشى أن يكون الأمر كما يصفان فيجبره إنكاره الى الهلكة، وقيل المراد بقوله: **يَتَذَكَّرُ** هو حال فرعون حين احتبس النبل فسار الى شاطئه وأبعد وفر ساجداً لله رغباً أن لا يخجله ثم ركب فأخذ النبل يتبع حافر فرسه فرضاً أن يتذكر علم الله وكرمه وأن يحذر من عذاب الله.

وقيل المعنى إذهب اليه على رجاء كما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أو يطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ولعل، لترجي المخاطب تارة وترجي المخاطب أخرى.

قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ

أي لما أمرهما بالذهاب الى فرعون قالا ربنا أننا نخاف أن يفراط علينا فرعون، والفراط بفتح الفاء السبق والتقدم ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة و فرس فرط تسبق الخيل قال الشاعر:

وأستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تقدم فارط الوارد
وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنا فرطكم على الحوض أي متقدمكم وسابقكم.

قال الرّاعب في المفردات، فرط إذا تقدّم تقدّماً بالقصد يفرط ومنه الفارط الى الماء أي المتّقدّم لإصلاح الدّلّو إنتهى.

فقوله تعالى: **أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا** معناه أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَيْنَا أو أَنْ يطغى، أي أَنّا نخاف أن يعجّل علينا بالعقوبة و يبادرنا بها قبل دعوتنا أيّاه أو أن يطغى في التّخطي الى أن يقول فيك ما لا ينبغي تجرّئه عليك لإستكباره وإدّعاء الرّبوبيّة أو من حبّه الرّئاسة أو من قومه القبط المتّمردين و ما قالاه حقّ لا مريّة فيه فأَنْ المتكبر الجبّار لا يقبل الحقّ غالباً.

قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى

أي قال الله في جواب موسى و هارون، لا تخافا منه، أَنني معكما أي أنصركما فأَنْ المعية هنا بالنصرة والعون، أسمع أقوالكما و أرى أفعالكما، و قال ابن عبّاس أسمع جوابه لكما و أرى ما يفعل بكما و هما كناية عن العلم فأَنْ الله تعالى لا يسمع و لا يبصر بالجراحة لتنزهه عن الجسميّة و الجراحة من شؤن الجسم فقولنا أَنّه سميعٌ بصيرٌ معناه أَنّه عالم بالمسموعات و المبصرات و من المعلوم أَنّ المنصور من الله لا يكون مغلوباً أبداً و من كان لله كان الله معه و من كان الله معه فهو الغالب بلا كلام بل الحقّ أَنّ النّصر الواقعي لا يكون إلّا منه تعالى:

قال الله تعالى: **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**^(١).

قال الله تعالى: **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**^(٢).

قال الله تعالى: **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**^(٣).

قال الله تعالى: **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ**^(٤).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

٢- الأنفال = ١٠

٤- يونس = ١٠٣

١- آل عمران = ١٢٦

٣- الزّوم = ٤٧

قال الله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^(١).

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى

قوله: فَأْتِيَاهُ كَرَّرَ القول بالإتيان، فقولا، لفرعون إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ أَي ما جئناك من عند أنفسنا ولكن ربك أمرنا، وفي قوله ربك، تحقير له، وإعلام بأنه مربوط مملوك لا الرب كما يدعيه في قوله: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ثُمَّ بَيَّنَّا لَهُ ما أُرْسِلَا بقولهما فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ وَأَمَّا قَالَا ذَلِكَ لِأَنَّ فرعون تبعه من القبط كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع التكاليف والأعمال الشاقة من الحضر والبناء ونقل الأحجار والصخرة في كل شيء مع قتل الولدان وإستخدام النساء وغير ذلك ثُمَّ ذكر ما يدل على صدقهما في إرسالهما إليه فقالا: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وفي تكرار الرب ما لا يخفى من اللطف حيث أَنَّ التكرار يؤكد مربوبيته ومقهوريته وأنه ينبغي أن يتذكر أو يخشى إذ لا يمكن له الفرار من حكومة الله والنجاة من عذابه إِلَّا بالالتجاء إليه، والمراد بالآية في قوله: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ قِيلَ هي العصا واليد ولما كانا أي موسى وهارون مشتركين في الرسالة صَحَّ نسبة المجيء بالآية إليهما وأن كانت صادرة من أحدهما.

أَنْ قُلْتَ لَمْ وَحْدَ، بآية ولم يشن، ومعه آيتان، العصا واليد.

قلت لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببيئته وبرهان فكأنه قال قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما إدعينا من الرسالة و يحتمل أن يكون المراد جنس الآية وهو قريب مما ذكرناه والحاصل أَنَّ الآية تشهد بإننا رسولا ربك.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى** فالظاهر أنه فصلٌ من الكلام فسَلِّمًا على مُتَّبِعِي الهدى و في هذا توبيخٌ له فلم يرد به التَّحِيَّة بل معناه من إَتَّبَعَ الهدى سلم من عذاب الله

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى

أَمَّا قَالَ أَوْحِيَ إِلَيْنَا ولم يذكر الموحى و هو الله تعالى لأنَّ فرعون كانت له بادرة فربَّما صدر منه في حقِّ الموحى ما لا يليق به هكذا قيل والمعنى أَوْحِيَ إِلَيْنَا مِنْ رَبَّنَا أَنَّ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى مَنْ كَذَّبَ الْأَنْبِيَاءَ وَ تَوَلَّى أَي أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ.

قال ابن عباس هذه أَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ مَا كَذَّبَ وَ تَوَلَّى فَلَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا** ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ** ^(٢).
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ** ^(٣) والآيات كثيرة.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى

قال فرعون، فَمَنْ رَبُّكُمَا، الخطاب لموسى و هارون، يا موسى لم يقل يا موسى و هارون لدلالة الكلام عليه فَأَنَّ الْخَطَابَ فِي قَوْلِهِ رَبُّكُمَا لهما، فَأَجَابَهُ موسى بقوله الَّذِي حَكَى عَنْهُ، قال، أَي قال موسى في جواب فرعون مَنْ رَبُّكُمَا رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، قيل أَي صورته الَّتِي قَدَّرَ لَهُ، ثُمَّ هَدَى،

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

أي ثمّ هداه الى شربه و مطعمه و سكنته و منكحه الى غير ذلك من ضروب هدايته قاله مجاهد و قيل معناه أعطى كلّ شيءٍ مثل خلقه من زوجةٍ ثمّ هداه لمنكحه من غير أن رأى ذكراً أتى أنثى قبل ذلك و حذف المضاف و أقام المضاف اليه مقامه و غير ذلك من هدايته هذا على قراءة المشهور و هى فتح الخاء و سكون اللّام على أن يكون مصدراً و قرأ بعضهم بفتح اللّام و الخاء على أنّه فعل ماضٍ فقلوه: **خَلَقَهُ** على قراءة المشهور مفعول به و على القراءة الأخرى فعل ماضٍ و الضّمير فيه عائد على الشيء و المعنى أنّه تعالى خلق كلّ شيءٍ على الهيئة التي بها ينتفع و التي هي أصلح الخلق له ثمّ هداه لمعيشته و منافعه لدينه و دنياه قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول الظاهر أنّ المراد بالهداية في قوله: ثُمَّ هَدَى، الهداية التكوينية بدليل قوله: **خَلَقَهُ** و المعنى أنّه تعالى هداه تكوينياً إلى ما ينتفع به و يستنصر به من غير تعليم الغير إيّاه و هذا من العجائب التي تدهش العقول فأنتك إذا تأملت في أنواع الموجودات و أصناف المخلوقات ترى الهداية التكوينية فيها على سبيل الإرتكاز و لنعم ما قال صاحب الكشف حيث قال ولله في هذا الجواب ما أخصره و ما أبينه لمن ألقى الذّهن و نظر بعين الإنصاف و كان طالباً للحقّ إنتهى.

و قال بعض المفسّرين المعنى أعطى كلّ ما خلق خلقته و صورته على ما يناسبه من الإتقان لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم و لا خلق البهائم في خلق الإنسان و لكن خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديراً قال الشّاعر:

وله في كلّ شيءٍ خلقةٌ و كذلك الله ما شاء فعل

و قال الضّحّاك خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له ثمّ هدى أي يسّر كلّ شيءٍ لمنافعه و مرافقه فأعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار و الأذن الشّكل الذي يوافق الإستماع و كذلك الأنف و اليد و الرّجل و اللّسان كلّ واحدٍ منها

مطابق لما علّق به من المنفعة، و قال قتادة أعطى كلّ شيءٍ صلاحه و هداه لما يصلحه و قيل كلّ شيءٍ هو المفعول الثاني لأعطى و خلقه، المفعول الأوّل أي أعطى خليقته كلّ شيءٍ يحتاجون إليه و يرتفقون به و الأقوال متقاربة المعنى.



قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥٠) قَالَ عَلِمَهَا
 عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى
 (٥١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمُ
 فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
 أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٢) كُلُوا وَارْزُقُوا
 أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٥٣)
 مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ
 تَارَةً أُخْرَى (٥٤) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا
 فَكَذَّبَ وَابْتَدَى (٥٥) قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ
 الْأَرْضِ بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٦) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ
 مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ
 وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٧) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ
 الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُخًى (٥٨) فَتَوَلَّى
 فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٥٩) قَالَ لَهُمْ
 مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦٠)
 فَتَنَّا زُكْرًا وَأَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى (٦١)
 قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمُ
 مِنَ الْأَرْضِ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ
 الْمُثُلَى (٦٢) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ
 أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا
 أَنْتَ تُلْقِي وَإِنَّمَا أَنْتَ نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٤) قَالَ

بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ
 سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٥) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
 خِيفَةً مُوسَى (٦٦) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ
 الْأَعْلَى (٦٧) وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا
 صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
 حَيْثُ أَتَى (٦٨) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا
 بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٦٩) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ
 أَدْنِ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
 فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ
 لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا شَدَّ
 عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧٠)

◀ اللغة

الْقُرُونِ الْأُولَى: هي الأمم الماضية.

لَا يَضِلُّ: بفتح الباء أي لا يذهب.

مَهْدًا: أي مستقرًا.

شَتَّى: أي متفرقات.

الْأَنْهَى: بضم النون جمع نهية نحو كسية وكسى والنهية العقل.

أَبَى: أي امتنع.

سَوَّى: أي عدلاً وقيل أي مستوياً.

فَتَوَلَّى: أي أعرض.

فَيَسْجِجْكُمْ: السُّجَّتْ استقصاء الشعر في الحلق معناه يستأصلكم.

خَابَ: إنقطع رجاءه.

أَفْتَرَى: الافتراء الكذب.

أَسْرُوا: أي أخفوا.

بَطْرِبَقْتَكُمْ الْمَثَلَى: أي يذهب بطريقة أولى العقل والأشراف والأنساب.

تَلَقَّفَ: أي تبتلع.

◀ الإعراب

عِلْمُهَا مبتدأ عند رَبِّي خبره وفي كِتَابٍ معمول الخبر أو خبر ثانٍ أو حال من الضمير في، عند، لا يَضِلُّ في موضع جرٍّ صفة لكتابٍ مَهْدًا هو مصدر وصف به شَتَّى جمع شتيت مثل مرضى ومريض وهو صفة لأزواج أو لبنات أَلْتَهَى جمع نهية وقيل هو مفرد بِسَحَرٍ مِثْلُهُ يجوز أن يتعلّق، بلنأتينك، وأن يكون حالاً من الفاعلين مَوْعِدًا هاهنا مصدر سُوَّى بالكسر صفة شاذة و يقرأ بالضم وهو أكثر في الصفات مَوْعِدُكُمْ مبتدأ يَوْمُ الزَّيْنَةِ الخبر إن هَذَا في وجهه وجوه:

أحدها: أنها بمعنى نعم، أي نعم هذان لساحران وعلى هذا ف قوله هذان مبتدأ و لساحران الخبر.

الثاني: أن فيها ضمير الشأن محذوف أي أنه هذان لساحران، بعدهما مبتدأ وخبر كما مضى القول فيه.

الثالث: قال الزّجاج التقدير لهما ساحران فحذف المبتدأ وبقي الخبر.

الرابع: أن الألف علامة التثنية في كلِّ حالٍ وهي لغة لبني الحرث لكنانة و يقرأ، إن، بالتخفيف وقيل هي مخففة من الثّقيلة، و قرأ أبو عمرو، إن هذين، بتشديد، إن و نصب هذين وَ يَذْهَبُ بِطَرِبَقْتَكُمْ أي يذهب بطريقكم فالباء معدية كما أن الهمزة معدية صفاً حال أي مصطفين وقيل مفعول به أي أقصد وصف أعدائكم فإذا هي للمفاجأة جبالُهُمْ مبتدأ يُخَيَّلُ حال وقيل هو الخبر أَنَّهَا تَسْعَى بدل منه بدل الإشتمال ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال

(تلقف بالجزم على الجواب و الفاعل ضمير ما، و أنث لأنه أراد العصا و يقرأ بضم الفاء على أنه حال من العصا أو من موسى و هي حال مقدرة و تشديد القاف و تخفيفها قراءتان:

◀ التفسير

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى

قيل لما أجابه موسى بجواب فسكت ولم يقدر فرعون على معارضته فيه إنتقل إلى سؤال آخر و هو ما حال من هلك من القرون الأولى أي الأمم الماضية و كان هذا السؤال منه معاينة لموسى، و يحتمل أن يكون قصده من هذا السؤال هو إختبارها أي أنه سأل موسى عن أخبار الأمم و أجاديتها ليختبر أهمها نبيان أو هما من جملة القصاص الذين دارسوا قصص الأمم السالفة و ذلك لأن موسى لم يكن له علم بالتوراة لأنها أنزلت عليه بعد هلاك فرعون فقال موسى **عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي** و قيل مراده بالسؤال عنها أنه أن كان الحق ما وصفت فلم عبدوا الأصنام ولم تعبدوا الله في الأعصار الماضية، و قيل مراده، مالها لا تبعث و لا تحاسب و لا تجازى فقال موسى علمها عند ربي أي أن هذا سؤال عن الغيب و قد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، و قيل لما قال موسى أننا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب و تولى، قال فرعون فما بال القرون الأولى فأنها كذبت ثم أنهم ما عذبوا و الإحتمالات كثيرة و الحق أن موسى لما قرّر لفرعون أو المبدأ و أنه الذي أعطى كل شيء هدى قال فرعون أن كان ما ذكرت في غاية الظهور فما بال القرون الأولى نسوه و تركوه و عبدوا الأصنام فلو كانت الدلالة واضحة كما ذكرت وجب على القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها، فقال موسى علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي و لا ينسى أي في كتاب لا يذهب عليه شيء و العرب تقول لكل ما ذهب على الإنسان مما ليس بحيوان ضلّه ققولهم فلان ضلّ منزله أو لباسه إذا أخطأ، فإذا ضلّ منه

حيوان فيقولون، أضلُّ، بألف يقال أضلُّ بغيره أو ناقته أو فرسه بالألف و حاصل المعنى أنَّ العلم بالأُمم الماضية و حالاتهم و بالجملة العلم بكلِّ الكائنات ما مضى و ما يأتي عند ربِّي و هو مثبت في كتابٍ و لا يجوز عليه الخطأ و النسيان كما يجوز عليك أيُّها العبد الدليل فهو لا يضلُّ كما تَضَلُّ أنت و لا ينسى كما تنسى أنت يا مدَّعي الرُّبوبيَّة، بالجهل و الوقاحة و لعلَّ المراد بالكتاب اللُّوح المحفوظ و الضَّمير في عِلْمُهَا يعود على القرون الأولى أي أنَّه مكتوب عند ربِّي في اللُّوح المحفوظ لا يجوز عليه أن يخطي شيئاً أو ينساه.

و قال بعض المفسرين المراد بالكتاب هو الكتاب الذي كتبه الملائكة من أحوال البشر.

قال الرَّاзи في تفسيره لهذه الآية اختلفوا في فقالوا علمها عند ربِّي في كتابٍ، فأَنَّ العلم الذي عند الرَّب كيف يكون في الكتاب و تحقيقه هو أنَّ علم الله صفة و صفة الشَّيِّ قائمة به فأما أن تكون صفة الشَّيِّ حاصلة في كتابٍ فذاك غير معقولٍ فذكروا فيه وجهين:

الأوَّل: معناه أنَّه سبحانه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الإستدلال على أنَّه تعالى عالمٌ بكلِّ المعلومات منزَّة عن السَّهو و الغفلة و لقائلٍ أن يقول قوله في كتابٍ يوهم احتياجه سبحانه في ذلك العلم إلى ذلك الكتاب.

الوجه الثَّاني: أنَّ تفسير ذلك بأنَّ بقاء تلك المعلومات في علمه كبقاء المكتوب في الكتاب فيكون الغرض منه تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شيء منها عن علمه و هذا التفسير مؤكَّد بقوله بعد ذلك لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى إنتهى كلامه.

أقول تحقيقه ليس بتحقيقٍ و ذلك لأنَّ علم الله هو عين ذاته كما ثبت في محلِّه و ليس العلم صفة قائمة بذاته فأَنَّ هذا خلاف التحقيق نعم العلم فينا

صفة قائمة بذواتنا لأنه لم يكن ثمّ كان فلا ذات غير العلم و العلم غير الذات كما أنّ الصّفة غير الموصوف و الموصوف غير الصّفة قال أمير المؤمنين عليه السلام و كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف وكلّ موصوف أنّه غير الصّفة فمن وصفه فقد قرنه و من قرنه فقد ثناه إلى آخر كلامه و قد تكلمنا في شرح هذه الكلمات مفصّلاً في شرحنا على التّهج بما لا مزيد عليه فقول الرّازي صفة الشّي لا تكون في كتابٍ عجيبٍ منه هذا أولاً.

ثانياً: نقول لو كان العلم صفة قائمة بذاته تعالى أيضاً لا إشكال في الآية و دل لأنّ المقصود من كون العلم في كتابٍ ليس حصول الصّفة فيه بأن نقول صفة العلم في كتابٍ، بل المقصود أنّ ما في الكتاب من علمه أي من أثاره المعلوم أنّ ما في الكتاب معلومه لا علمه و بعبارة أخرى ما في الكتاب كاشف عن علم الكاتب لا أنّه علمه بعينه و للبحث فيه مقام آخر.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى

لما ذكر موسى عليه السلام ما دلّ على ربوبية الله و تمّ كلامه عند قوله: وَ لَا يَنْسَى، ذكر الله تعالى ما نبّه به على قدرته تعالى و وحدانيّته فأخبر عن نفسه بأنّه هو الذي صنع كيت و كيت و أنّما ذهبنا إلى أنّ هذا هو من كلام الله لقوله تعالى: فَأَخْرَجْنَا وَقَوْلُهُ: كُلُّوا وَ أَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ و قوله: وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ فَيَكُونُ قَوْلُهُ فَأَخْرَجْنَا وَأَرَيْنَاهُ، التفاتاً، من الضمير الغائب في، جعل و سلك، إلى الضمير المتكلم المعظم نفسه يكون الالتفات من قائلين و أبعد من ذهب إلى أنّ الذي، نعت لقوله: رَبِّي فيكون في موضع رفع أو نصب على المدح هذا ما قاله بعض المفسرين في تفسيره الَّذِي جَعَلَ مرفوع صفة لرّبي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح و هذا من مظانه و محارّه إنتهى.

أقول وبه قال القرطبي أيضاً إلا أنه قال في نصبه، أنه بإضمام أعني في التبيان موضع الذي، رفع بدل من قوله، ربّي، ولم يذكر الوجهين الآخرين.

وقال الطبرسي رحمته الله **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ** يجوز أن يكون في موضع جرّ بأنه صفة ربّي، و يجوز أن يكون في موضع رفع بأن يكون خبر مبتدأ، محذوف إنتهى.

وقال ابن عطية يحتمل أن يكون **فَأَخْرَجْنَا** من كلام موسى حكاية عن الله تعالى على تقدير، يقول عز وجل: **فَأَخْرَجْنَا** ويحتمل أن يكون كلام موسى ثمّ عند قوله: **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ** ثم وصل الله كلام موسى بأخباره لمحمد صلّى الله عليه وآله والمراد به الخطاب إلى الخلق أجمع في قوله لكم، نبههم على هذه الآيات إنتهى.

وقال الرازي أمّا قوله: فأخرجنا به أزواجاً شتى ففيه مسائل:

الأولى: قوله: **فَأَخْرَجْنَا** فيه وجوه:

أحدها: أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربّي **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ كَذَا** وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحرارة أزواجاً من نبات شتى.

ثانيها: أن عند قوله: **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ثمّ كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلاً بالكلام الأول بقوله: **فَأَخْرَجْنَا بِهِ** ثم يدل على هذا الإحتمال قوله: **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ**.

ثالثها: قال صاحب الكشف إنتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للإيدان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره قوله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ** ^(١) إلى آخر الآيات التي ذكرها تأييداً لما حققه إنتهى.

كلام الرّازي في المقام ثمّ قال الرّازي.

وإعلم أنّ قوله: فَأَخْرَجْنَا إِنَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ.
والأول: باطل لأنّ قوله بعد ذلك كُلُّوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ الخ لا يليق
بموسى و ساق الكلام إلى أن قال فثبت أنّ هذا كلام الله و لا يجوز أن يكون
كلام الله ابتداءً من قوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَرْوَاجًا شَتَّى، لأنّ الفاء يتعلّق بما قبله
فلا يجوز جعل هذا كلام الله و جعل ما قبله كلام موسى فلم يبق إلّا أن يقال أنّ
كلام موسى ثمّ عند قوله: لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ثمّ ابتدأ كلام الله من قوله
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا و يكون التقدير هو الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
مَهْدًا فيكون، الَّذِي، خبر مبتدأ محذوف و يكون الانتقال من الغيبة إلى
الخطاب إلتفاتاً إنتهى.

أقول ما ذكره الرّازي وحقّقه لا بأس به بل هو أحسن الأقوال في المقام و
نحن أيضاً نقول به و الله أعلم بكلامه و لنرجع إلى تفسير الآية فقوله: الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا أي هو الَّذِي جعل لكم الأرض مهدياً أي مستقراً
يستقروا عليه و قد أشار الله تعالى إلى كون الأرض مهدياً في مقام آخر أيضاً:
قال الله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا^(١).

قال في المفردات المهد ما تهيأ للصّبى:

قال الله تعالى: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا^(٢).

والمهد والمهاد المكان الممهّد الموطّأ قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
مَهْدًا.

قال الله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا^(٣).

وذلك مثل قوله الأرض فراشاً، ومهدت لك كذا هيأته وسوّيته:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

قال الله تعالى: **وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا^(١)**.

إذا عرفت هذا فأعلم أنَّ التعبير عن الأرض بالمهد يدل على أنَّ الأرض ليست بساكنة بل هي متحركة خلافاً للقدماء من علماء الهيئة فأنهم كانوا يقولون أنَّ الأرض ساكنة وأما في زماننا هذا فقد ثبت بالأدلة العقلية والحسية أنَّ الأرض تدور حول الشمس بحركة سريعة وإنما قلنا ذلك لأنَّ المهد إنما وضع لأن يحرك الصبي ليستريح فيه وفي قوله: **جَعَلَ** أشار الى أنَّ الله تعالى جعل الأرض مهداً فكما أنَّ المهد يحتاج الى محركٍ يحركه كذلك الأرض تحتاج الى محركٍ يحركها كما هو يقتضي القاعدة العقلية وهي أنَّ المتحرك يحتاج الى جسمٍ متحرك بل هي من عوارض الجسم وكل عارض محتاج الى غيره في عروضه فعروض الحركة على الأرض يحتاج الى محركٍ وهو الله تعالى هذا على مذاق الشهور وأما على ما اخترناه في الباب فالأمر أوسع من ذلك وهو أنَّ لازم الماهية أيضاً مجعول بتبع ماهيته والقول بأنَّ الماهيات غير مجعولة كلام لا نفهم معناه إلا أن يقال أنَّ الماهية حد الوجود وليست بشئٍ مستقلاً فلا يتعلّق بها الجعل إلا بتبع الوجود وعلى هذا تكون الحركة في الحقيقة من عوارض الوجود أو الموجود في الخارج والإحتياج ثابت فيه بلا كلام فثبت المطلوب ومحصل الكلام في المقام هو أنَّ الأرض جعلها الله مهداً لنا ولم توجد الأرض كذلك بغير خالقٍ وموجد فثبت الخالق لها وهو المطلوب في المقام وأما قوله: **وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا**.

قال الرَّاغِب السُّلُوكُ النَّفَازُ فِي الطَّرِيقِ يقال سَلَكَ الطَّرِيقَ وَ سَلَكَتْ كَذَا فِي طَبَقِهِ.

فَمَنْ الْأَوَّلُ:

قال الله تعالى: **يَتَسَلَّكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا** ^(١).

قال الله تعالى: **فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا** ^(٢).

وما نحن فيه من هذا القبيل.

الثاني:

قال الله تعالى: **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ** ^(٣).

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** ^(٤).

والسُّبُلُ بضم السين والباء جمع سبيل وهو الطريق، والمعنى جعل لكم في الأرض سبلاً تسلكوا فيها في حوائجكم من موضع الى موضع حتى لا تتصدّر عليكم مصالحكم، وهو أيضاً من الألفاظ الربانيّة وفي كلامه هذا إشارة الى أنّ الله تعالى هو الذي خلق الأرض وجعل فيها السُّبُل لتتنفوا بها في معاشكم فهو أي جعل السُّبُل فيها من أحسن النعم بعد نعمة الإيجاد ولما كانت الأرض من الجمادات التي لا حياة لها قال تعالى: **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى** الضمير في، به، عائد على الماء والباء للسبب أي وأنزل الله من السماء ماءً، وهو ماء المطر فأخرجنا بسبب الماء أزواجاً أي أصنافاً شتى أي مختلفة متشعبة، ففي قوله فأخرجنا، إلتفات وفي هذا الإلتفات تخصيص أيضاً بإنا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحدٍ والأجود أن يكون شتى في موضع نصب نعتاً لقوله أزواجاً لأنها المحدث عنها.

وقال الزمخشري يجوز أن يكون، شتى، صفة للنبات والنبات مصدر سمى به النبات كما سمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والزائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

٢- النحل = ٦٩

٤- الحجر = ١٢

١- نوح = ٢٠

٣- المذثر = ٤١

للبهائم ثم قالوا من نعمته عزّ وجلّ أن أرزاق العباد إنّما تحصل بعمل الأنعام و قد جعل الله علفها ممّا يفضل عن حاجتهم ولا يقدرّون على أكله.

أقول أمّا أنّ حياة الأرض بالماء وهى مع قطع النّظر عنه ميتة عنه فهو محسوس لا كلام فيه، و قد أشار الله تعالى الى ذكر ذلك في كثير من الآيات: قال الله تعالى: **حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ^(١)**. قال الله تعالى: **وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٢)**. قال الله تعالى: **فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٣)**. قال الله تعالى: **لِنُخْبِئَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ** **أَنَاسِيَّ كَثِيرًا^(٤)**.

قال الله تعالى: **وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَهُهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٥)**.

قال الله تعالى: **وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْبِئُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٦)**. و أمّا قوله تعالى: **فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ تَبَاتٍ شَتَّى** ففيه إشارة إلى أنّ إخراج النّبات من الأرض أنّما هو بسبب الماء إلّا أنّ المخرج هو الله تعالى و ذلك لأنّ الأرض مخلوقة له تعالى و الماء الذي هو سبب لإخراج النّبات فيها أيضاً مخلوق له تعالى فينتج أنّ الإخراج بقدرته قال الشاعر:

تفكر في نبات الأرض وأنظر إلى آثار ما صنع المليك
ففي رأس الزبرجد شاهدات بأنّ الله ليس له شريك
و حيث أنّ النّبات منه ما يصلح للنّاس و منه ما يصلح للبهائم و الأنعام.

كُلُوا وَارْزَعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى

١- الأعراف = ٥٧

٢- الزّوم = ١٩

٣- فاطر = ٩

٤- الفرقان = ٤٩

٥- البقرة = ١٦٤

٦- الزّوم = ٢٤

قوله: **كُلُوا وَارْزُقُوا** لفظه لفظ الأمر و المراد الإباحة أي كلوا مما يؤكل و أرعوا أنعامكم فيما لا يؤكل أن في ذلك لآيات أي علامات، لأولي النهى أي لذوي العقول السليمة و النهى بضم التون جمع نهية و هى العقل و أنما خص ذلك بأولي النهى لأن الجاهل بمعزل عن التدبر و التفكير لجهله و كذا العاقل، و قيل أن النهى مفرد وليس بجمع و هو العقل:

قال الله تعالى: **كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ** ^(١).

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا** ^(٢).

و الآيات كثيرة و حيث قد ثبت أن شكر المنعم واجب عقلاً فيجب على العاقل أن يشكر الله على نعمه و رأس الشكر معرفته تعالى و لأجل ذلك ذكر هذه الآيات لفرعون لعله يتذكر أو يخشى.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى

لما قال تعالى أن في ذلك من جعل الأرض مهداً و سلك سبلها و إنزال الماء عليها من السماء و إخراج النبات منها، لآيات لأولي النهى أي لمن له عقل أشار إلى خلقه الإنسان و قال: **مِنْهَا** أي من الأرض، خلقناكم أول مرة و فيها نعيدكم، بعد الموت و منها نخرجكم حين البعث مرة أخرى و المراد بهذه الخلقة هو خلقه الجسم و البدن أي منها خلقنا أبدانكم و أجسادكم كما أن منها أخرجنا نباتاً شتى فكما أن النبات يخرج من الأرض كذلك أبدانكم تخرج منها و أما الرُّوح فهو من عالم المجردات و قد سبق القول فيه غير مرة و فى هذه الآية إشارة إلى أن الذي خلقكم من الأرض قادر على أن يبعثكم منها تارة أخرى فلا تغفل أيها الإنسان عن نفسك و إعلم أن لك خالقاً و أنك تبعث بعد الموت و تسأل عن أعمالك قال الله تعالى: **وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ** ^(٣) و

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٦

الْعَلَّامُ الْغُيُوبُ

تفضيل الكلام في مسئلة المعاد موكل إلى محله إنشاء الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى

هذا إخبار من الله تعالى إلى محمد ﷺ قيل وهذا يدل على أن قوله: فأخرجنا الخ... أنما هو خطاب له ﷺ والضمير في أريناه عائد على فرعون و الرؤية من رؤية البصر لا رؤية القلب هكذا قيل و الحق أن المراد بها معناها العام الشامل للبصر والقلوب ذلك لأن فرعون كما رأى الآيات بالبصر أعني بالمشاهدة كذلك رآها بالقلب إلا أن عناده للحق وحبه للرئاسة و السلطنة صار باعثاً لإنكاره لا أنه لم يعقلها فقوله تعالى: وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا إشارة إلى الرؤيتين و بذلك تمت الحجة عليه ولو كان المراد بها الرؤية بالبصر فقط فالحجة ناقصة لأن المجنون و هو الذي لا عقل له يرى الآيات بالبصر و من المعلوم أنه غير مكلف فلا يتوجه الذم عليه، و حيث أن فرعون لم يكن من المجانين و كان عاقلاً ظاهراً و أراه الله تعالى الآيات الباهرة التي أتى بها موسى فهو رآها و عقلها و علم بحقيقتها إلا أن العناد منعه عن قبولها و الإقرار بصدقها ظاهراً كما هو شأن المعاند و إلى هذه الدقيقة أشار الله بقوله، فَكَذَّبَ وَأَبَى، فالتكذيب راجع إلى اللسان و الإباء راجع إلى القبول قلباً أي كذب بلسانه و إمتنع عن القبول بقلبه وكيف كان ففي الآية إشارة بل دلالة على أن الله تعالى أتم الحجة عليه و بذلك صار مستحقاً للعقاب و العذاب.

بدء القرآن في تفسير القرآن

قَالَ أَجِئْتُنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى

و أنما قال فرعون ذلك بعد أن رأى الآيات قال لموسى أَجِئْتُنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا، أي من أرض مصر بسحرك يا موسى، الباء للسبب أي بسبب سحرك، و المراد بالخروج من أرض مصر هو الخروج عن السلطنة عليها تحت عنوان الربوبية وليس المراد به الخروج المتعارف لأن الإيمان بالله لا يستلزم

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

الخروج منها و هو معلومٌ و أنما قال من أرضنا ولم يقل من أرض مصر أو من الأرض مثلاً لأنه كان يدعي أن أرض مصر له لقوله أليس لي ملك مصر كما حكى الله عنه بقوله:

و نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ^(١).

فقوله أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، يدل على ما ذكرناه لأنه لم يقل أليس لي حكومة مصر مثلاً، و قال ملك مصر بضم الميم و أما قوله: بِسِحْرِكَ حَيْثُ حَمَلَ المعجزة على السحر فالوجه فيه هو أنه لو قال بإعجازك مثلاً، كان هذا إقراراً منه بنبوة موسى لأن المعجزة لا يأتي بها إلا نبي أو وصي و الإقرار بالنبوة مستلزم للإقرار بالتوحيد و الألوهية لأن النبي مبعوث من قبل الله و هذا الإقرار منه ينافي ما كان عليه في حكومته على الناس من إدعاء الربوبية و لأجل ذلك عبّر عن المعجزة بالسحر و قد قيل في المثل أن الغريق يتشبث بكل حشيش، و هذا أي إنكار الحق عناداً و لجأجأً لأجل الرئاسة و الحطام الدنيوية من الأمور المتداولة الشائعة بين أهل الدنيا في كل عصرٍ و زمانٍ و لا يختص بفرعون فأَنَّ الفراعنة لا يذعنون للحق بإختيارهم لتكبرهم و تجبرهم و هذا داءٌ لا دواء له إلا الإيمان بالله و الخضوع في جنب عظمته.

فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا
أَنْتَ مَكَانًا سُوًى

قوله: فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ، جواب لقسم محذوف أوهم الناس أن ما جاء به موسى أنما هو من باب السحر و أن عنده من يقاومه في ذلك فطلب فرعون من موسى ضرب موعد للمناظرة بالسحر و الظاهر أن موعداً، هنا هو الزمان أي

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

فَعَيْنَ يَامُوسَى لَنَا زَمَانًا لِّذَلِكَ لَا نَخْلُفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ فِي الْإِجْتِمَاعِ فِيهِ وَقَوْلُهُ: مَكَانًا سَوًى أَي مَكَانًا عَدْلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَقِيلَ مَعْنَاهُ مَكَانًا مُسْتَوِيًّا يَتَّيْنِ النَّاسُ فِيهِ، وَقِيلَ مَكَانًا يَسْتَوِي حَالُنَا فِي الرِّضَا بِهِ وَفِي (سَوًى) إِذَا قَصَرَ لَغْتَانِ كَسَرَ السِّينِ وَضَمَّهَا وَإِذَا فَتَحَتْ السِّينَ مَدَدْتَهُ نَحْوُ قَوْلِهِ: **إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ^(١).

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، سَوًى، الضَّعْفُ وَالْوَسْطُ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَأَنْ أَبَانَا كَانَ حَلًّا بِبِلَدَةٍ سَوًى بَيْنَ قَيْسِ قَيْسِ غِيلَانَ وَالْفَزْرِ فَقَوْلُهُ: مَوْعِدًا، لِيَتَعَيَّنَ الزَّمَانُ، وَقَوْلُهُ: مَكَانًا سَوًى، لِيَتَعَيَّنَ الْمَكَانُ فَأَنَّ الْمُنَاطَرَةَ وَكُلَّ حَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ لَا تَخْلُو مِنْهُمَا أَي مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الطَّلَبِ وَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ تَعْيِينُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَقَدْ طَلَبَهُمَا فِرْعَوْنُ مِنْهُ أَي مِنْ مُوسَى فَأَجَابَ مُوسَى كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ.

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى

قِيلَ يَوْمُ الزَّيْنَةِ هُوَ يَوْمُ عِيدِ كَانَ لَهُمْ، وَقِيلَ يَوْمُ شَرَفٍ كَانُوا يَتَزَيَّنُونَ بِهَا فَهَذَا جَوَابٌ عَنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ مَوْعِدًا وَقَوْلُهُ: **وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**، قِيلَ هُوَ فِي مَوْضِعٍ رَفِيعٍ وَتَقْدِيرُهُ مَوْعِدُكُمْ حَشَرَ النَّاسِ وَقِيلَ مَوْضِعُهُ جَزَّ تَقْدِيرُهُ يَوْمُ يُحْشَرُ النَّاسُ، أَنْ قُلْتَ طَلَبَ فِرْعَوْنُ مِنْ مُوسَى زَمَانًا وَمَكَانًا، فَأَجَابَ مُوسَى عَنْ الزَّمَانِ بِقَوْلِهِ، وَأَمَّا مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ عَنْ الْمَكَانِ فَلَمْ يَجِبْهُ.

قُلْتَ قَوْلُهُ: **وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** جَوَابٌ عَنِ الْمَكَانِ مَعْنًى وَأَنْ لَمْ يَطَابِقْهُ لَفْظًا وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا بَدَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْ يَجْتَمِعُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ فِي مَكَانٍ بَعِينَةٍ مُشْتَرَاةٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَبَذَرَ الزَّمَانَ عِلْمَ الْمَكَانِ مِنْ بَابِ الْمَلَازِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّ الْحَشَرَ يَلْزِمُ الْمَكَانَ بَلْ لَا يَتَحَقَّقُ الْحَشَرُ إِلَّا فِيهِ. **إِنْ قُلْتَ فَبِمَ يَنْتَصِبُ مَكَانًا.**

قلت بالمصدر أو بفعل يدلّ عليه المصدر، والمراد بقوله: ضحّى ضحى ذلك اليوم بعينه فقوله ضحّى خبره أي خبر المبتدأ وهو موعدكم بمعنى الوقت على قراءة الحسن على نيّة التعريف فيه لما ذكرناه من أنّه ضحى ذلك اليوم بعينه.

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى

أي فأعرض فرعون عن قبول الحقّ أوم تولى ذلك الأمر بنفسه أو فرجع إلى أهله لإستعداد مكائده أو أدبر على عادة المتواعدين أن يولي كلّ واحدٍ منهما صاحبه ظهره إذا اختلفا فَجَمَعَ كَيْدَهُ، أي جمع ذوي كيده وهم السّحرة وكانوا عصابة لم يخلق الله أسحر منها، ثمّ أتى، أي ثمّ أتى فرعون للموعد الذي كان مقرّر عنده مع جميع السّحرة و أتى موسى أيضاً بمن معه من بني إسرائيل فلمّا اجتمعوا.

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى

قَالَ لَهُمْ أي قال موسى للسّحرة ويلكم، قال الأصمعي، ويل قبح، وقد يستعمل على التّحسر ومن قال، ويل، وإد في جهنّم، لم يرد أنّ ويلاً في اللّغة هو موضوع لهذا قاله في المفردات وقوله: لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أي لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً على قول الزّمخشري.

وقال في التّبيان أي لا تكذبوا عليه تعالى كذباً بتكذيبي وتقولوا أنّ ما جئت به السّحر، والإفتراء إقطاع الخبر الباطل بإدخاله في جملة الحقّ وأصله القطع من فراه يفريه فرياً، والإفتراء والإفتعال والإختلاق واحدٌ وأما الكذب فهو الخبر الذي لا يطابق الواقع وليس فيه خلطٌ وبهذا يفترقان، فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ، أي فيستأصلكم بعذابٍ والسّحت إستقصاء الشّعر في الحلق فمن قرأ بضّم الباء أخذه من أسحت رباعياً ومن قرأ بفتح الباء فهو من سحت ثلاثياً.

بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٦

المجلد العاشر

وقوله: **وَ قَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**، فالخيبة الإنقطاع أي إنقطع رجاء من إفتري الكذب يقال رجع بخيبته أي رجع بغير قضاء حاجته والمعنى أن موسى قال للسحرة لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم أي فيستأصلكم الله بعذابٍ إفتري على الله فقد إنقطع رجاءه فيرجع خائباً.

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى

لا شك أن الصّمائير ترجع على السحرة أي أنهم تنازعوا أمرهم بينهم و اختلفوا فيه لكنهم أخفوا النجوى و اختلف المفسرون فيما أخفوه بينهم على أقوال:

قال قتادة أنهم قالوا أن كان هذا ساحراً فسنگلبه و أن كان من السماء فله أمره. و قال وهب، لما قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً، قالوا ما هذا بقول ساحر، و قيل إسرارهم كان أنهم قالوا إن غلبنا موسى إتبعناه. و قيل أسروا النجوى دون موسى و هارون بقوله أن هذين لساحران ذكر هذه الوجوه في التبيان.

و قال بعض المفسرين إسرارهم النجوى خيفةً من فرعون أن يتبين فيهم ضعفاً لأنهم لم يكونوا مصممين على غلبة موسى بل كان ظناً من بعضهم صاحب الكشف الظاهر أنهم تشاوروا في السر و تجاذبوا أهداب القول ثم قالوا إن هذان لساحران فكانت نجواهم في تليفق هذا الكلام و تزويره خوفاً من غلبتها و تثبيطاً للناس من إتباعها إنتهى.

قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِ هٰذَا وَ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى

قالوا أي السحرة، إن هذان، أي موسى و هارون، لساحران، و اختلف في تخريج هذه القراءة فقال القدماء من النحاة أنه على حذف ضمير الشأن و التقدير أنه هذان لساحران و على هذه القراءة فقوله: **هَٰذَا** مبتدأ و لساحران،

خبره و الجملة خبر، إِنْ، في إِنْه، و الهاء إسمها، واللّام في كَساحِرَانِ داخلة على خبر المبتدأ، و أورد على هذا القول أنّ حذف ضمير الشّأن لا يجيئ إلا في ضرورة الشّعرو دخول اللّام في الخبر شاذّ.

و قال الفراء (الزجاج) اللّام لم تدخل على الخبر بل التّقدير لهما ساحران فدخلت على المبتدأ المحذوف وقيل إنّ بمعنى نعم، وثبت ذلك في اللّغة فتحمل الآية عليه و هذان لساحران، مبتدأ و خبر و اللّام في، لساحران، على ذينك التّقديرين في هذا التّخريج و التّخريج الّذي قبله، و الّذي يقوّي في النّفس هو أنّ، إنّ هي المخفّفة عن الثّقيلة، و هذان مبتدأ و لساحران، الخبر و اللّام للفرق بين، إنّ، النّافية و، إنّ، المخفّفة عن الثّقيلة على رأي البصريين و الكوفيّين يزعمون أنّ إنّ، نافية و اللّام بمعنى، إلّا، و قرأت فرقة إنّ ذان لساحران، و تخريجهما كتخريج التّي قلبها و ذلك لأنّ إسم الإشارة هو، ذا، و الهاء للتّنبية، و قرأ بعضهم أنّ هذين بتشديد نون إنّ، و بالياء في هذين بدل الالف و إعراب هذا واضح إذ جاء على النّمط المعروف في التّشّية لقوله، فذانك برهانان إحدى إنتي هاتين بالالف رفعا و الياء نصبا و جزأ، و لكن هذه القراءة خلاف المصحف و الأقوال فيه كثيرة.

وقولهم: يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا تبعوا فيه مقالة
فرعون حيث قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ونسبوا السحر أيضاً
لهارون لما كان مشتركاً معه في الرسالة و سالكاً طريقته و علّقوا الحكم على
الإرادة بقولهم: يريدان و هم لا إطلاع لهم عليها تنقيصاً لهما و خطأً من قدرهما
و قد كان ظهر لهم من أمر اليد و العصا ما يدلّ على صدقهما و علموا أنّه ليس
في قدرة السّاحر أن يأتي بمثل ذلك و قولهم بطريقتكم المثلى، فالطريقة
السّيرة و المملكة و الحال التي هم عليها، و المثلى بضّم الميم تأنيث الأمثل أي
الفضلى الحسنى، و قيل عبّر عن السّيرة بالطريقة و أنّه يراد بها أهل العقل و
السّن و الحجي و حكوا أنّ العرب تقول فلان طريقة قومه أي سيدهم، و قيل

هو على حذف مضاف أي ويذهب بأهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل لقول موسى أرسل معنا بني إسرائيل.

أقول يحتمل أن يكون مرادهم بطريقة المثلى، هو دينهم الذي كانوا عليه فإن كل حزب بما لديهم فرحون، والمعنى أن موسى و هارون يريدان أن يغيروا دينكم، وفسره بعضهم بالجاء والمنصب والرئاسة وإلى هذا ينظر قول من قال الأمثل الأفضل أي أن طريقتكم ومذهبكم أفضل مما يدعوكم إليه موسى يريد أن يخرجكم منه و قال بعضهم الأمثل الأشبه بالحق وقيل الأمثل الأوضح والأظهر والأقوال والإحتمالات كثيرة والمعنى واضح لا خفاء فيه.

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى

الظاهر أنه من كلام فرعون للسحرة أمرهم بأن يجمعوا كيدهم، وقيل هو من كلام السحرة بعضهم لبعض، قرأ الجمهور فأجمعوا، بقطع الهمزة وكسر الميم من أجمع، رباعياً أعزموا وأجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا ولا يتخلف واحد منكم كالمسألة المجمع عليها، وقرأ الزهري وأبو عمرو ويعقوب وأبو حاتم بوصل الألف وفتح الميم موافقاً لقوله: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ وقيل، جمع وأجمع لغتان في العزم على الشيء يقال جمعت الأمر وأجمعت عليه وعلى هذا فالقارئان بمعنى واحد.

والظاهر أن المراد بالكيد، السحر، وقوله: ثُمَّ آتُوا صَفًّا، معناه مصطفين، وأتما تناوعوا إلى الإتيان صفّاً لأنه أهيّب في عيون الناظرين وأظهر في التّمويه وانتصب صفّاً على الحال أي مصطفين، أو مفعولاً به إذ هو المكان الذي يجتمعون فيه لعبيدهم.

وقد أفلح وفاز ببغية من طلب العلو في أمره وسعى سعيه وإختلفوا في عدد السحرة فأقل ما قيل أنهم كانوا إثنتين وسبعين ساحراً مع كل ساحر عصي و حبال وأكثر ما قيل تسع مائة ألف.

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى

لَمَّا جَاؤُوا إِلَى السَّحْرَةِ مُصْطَفَيْنَ إِلَى مَكَانِ الْمَوْعَدِ فِي يَوْمِ الزَّيْنَةِ وَبِيدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَصَا وَحَبْلٌ وَجَاءَ مُوسَى وَأَخُوهُ أَيْضاً كَذَلِكَ فَوْقُوا فَقَالُوا: يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ أَوَّلًا وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْإِلْقَاءَ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ آيَةَ مُوسَى فِي إلقاءِ الْعَصَا وَقِيلَ خَيْرُهُ ثَقَّةٌ مِنْهُمْ بِالْغَلْبِ لِمُوسَى وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَقَاوِمُهُمْ فِي السَّحْرِ.

وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَهَذَا التَّسْخِيرُ مِنْهُمْ إِسْتِعْمَالُ أَدَبٍ حَسَنٍ مَعَهُ وَتَوَاضَعٌ لَهُ وَخَفَضُ جَنَاحٍ وَتَبْيِيهِ عَلَى إِعْطَاءِهِمُ النُّصْفَةَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلْهَمَهُمْ ذَلِكَ وَعَلَّمَ مُوسَى إِخْتِيَارَ إلقاءِهِمْ أَوَّلًا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُقَابَلَةِ الْأَدَبِ بِأَدَبٍ حَتَّى يَبْرُزُوا مَا مَعَهُمْ مِنْ مَكَائِدِ السَّحْرِ وَيَسْتَنْفِذُوا أَقْصَى طَرَقِهِمْ وَمَجْهُودِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا أَظْهَرَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ وَقَذَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ وَسُلْطَ الْمَعْجِزَةُ عَلَى السَّحْرِ فَمَحَقَّتْهُ وَكَانَتْ آيَةً بَيِّنَةً لِلنَّاظِرِينَ بَيِّنَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ إِنَّتْهِى.

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى

جِبَالٌ بِكسر الحاء جمع حبل وعصيتهم بكسر العين جمع عصا والمعنى أَنَّهُمْ لَمَّا خَيْرُوا مُوسَى قَالَ لَهُمْ بَلْ أَلْقُوا أَنْتُمْ مَا مَعَكُمْ، فَإِذَا حِبالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى، وَأَمَّا قِيلَ يُخَيَّلُ لِأَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ تَسْعَى حَقِيقَةً وَأَمَّا تَحَرَّكَتْ ظَاهِرًا وَذَلِكَ لَمَّا قِيلَ أَنَّهُ كَانَ جَعَلَ دَاخِلَهَا زَنْبِقٌ فَلَمَّا حَمِيتِ بِالشَّمْسِ طَلَبَ الزَنْبِقُ الصُّعُودَ فَتَحَرَّكَتِ الْحِبَالُ وَالْعَصَى فَظَنَّ مُوسَى أَنَّهَا تَسْعَى وَقَوْلُهُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ، قِيلَ يُخَيَّلُ إِلَى فِرْعَوْنَ أَنَّهَا تَسْعَى وَقِيلَ إِلَى مُوسَى أَيْ أَنَّ مُوسَى يُخَيَّلُ أَنَّهَا تَسْعَى وَإِخْتَارُهُ فِي التَّبْيَانِ لِقَوْلِهِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى.

وَبَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِخْتَارُوا الْأَوَّلَ، وَقَوْلُهُ: فَإِذَا الْفَاءُ جَوَابُ مَا حَذَفَ وَتَقْدِيرُهُ فَأَلْقُوا، وَإِذَا، فِي هَذَا ظَرْفُ مَكَانٍ وَالْعَامِلُ فِيهِ، أَلْقُوا، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ.

قوله
فإنهم لما
خيروا موسى
قال لهم بل
ألقوا أنتم
ما معكم

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

و الْحَقُّ أَنَّ الْفَاءَ لَيْسَتْ فَاءَ جَوَابٍ لِأَنَّ فَاَلْقُوا لَا تَجَابُ وَ أَنَّهَا هِيَ لِلْعَظْفِ عَطَفَتْ جُمْلَةً الْمَاجَاةَ عَلَى ذَلِكَ الْمَحذُوفِ، وَ قَوْلُهُ وَ الْعَامِلُ فِيهِ أَلْقُوا لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ الْفَاءَ تَمْنَعُ مِنَ الْعَمَلِ وَ لِأَنَّ، إِذَا، هَذِهِ أَنَّهَا هِيَ مَعْمُولَةٌ لِخَبَرِ الْمَبْتَدَأِ وَ الَّذِي هُوَ حَبَالَهُمْ وَ عَصِيَّتَهُمْ، وَ قَوْلُهُ يَخِيلُ، فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَ هَذَا نَظِيرُ قَوْلِكَ خَرَجْتَ فَإِذَا الْأَسَدُ رَابِضٌ، وَ رَابِضًا وَ قَدْ أَطَالُوا الْكَلَامَ فِي الْبَابِ بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَ الَّذِي حَصَلَ لَنَا مِنَ الْآيَةِ هُوَ أَنَّ مُوسَى أَمَرَ السَّحْرَةَ بِالْإِلْقَاءِ أَوَّلًا فَلَمَّا أَلْقَوْا مَا أَلْقَوْا إِذَا حَبَالَهُمْ وَ عَصِيَّتَهُمْ أَعْنِي بِهِمَا الْآتِ سَحَرَهُمْ يَخِيلُ أَنَّهَا تَسْعَى لَا أَنَّهَا وَاقِعًا بَلْ كَانَتْ الْحَرَكَةُ فِيهَا بِحَسَبِ الْخِيَالِ وَ الْوَهْمِ فَإِنَّ الْقُوَّةَ الْمُخَيَّلَةَ وَ الْوَاهِمَةَ تَقْدِرَانِ عَلَى إِيجَادِ الْأَشْيَاءِ فِي وِعَاءِ الْخِيَالِ وَ الْوَهْمِ وَ لِذَلِكَ قِيلَ أَنَّهَا لَمْ تَتَحَرَّكْ وَاقِعًا وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ سِحْرِ الْعَيُونِ وَ قَدْ صَرَّحَ تَعَالَى بِهَذَا حَيْثُ قَالَ: سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ أَسْتَرَّهُمْ بُحُورُهُمْ^(١).

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى

قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّ مُوسَى خَافَ بِطَبْعِ الْبَشَرِيَّةِ لِمَا رَأَى مِنْ كَثْرَةِ مَا تُخَيَّلُ مِنَ الْحَيَاتِ الْعِظَامِ، وَ قِيلَ كَانَ خَوْفُ مُوسَى عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَنُوا لَهُوْلَ مَا رَأَوْهُ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى عَصَاهُ، وَ إِلَّا يَحَاسُ هُوَ مِنَ الْهَاجِسِ الَّذِي يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَ لَيْسَ يَتِمَكَّنُ، وَ خِيفَةً بِكَسْرِ الْخَاءِ أَصْلُهُ خَوْفَةٌ قُلِبَتْ الْوَاوُ بَاءً لِكَسَرِ مَا قَبْلَهَا وَ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ أَصْلُهَا خَوْفَةٌ بَفَتْحِ الْخَاءِ قُلِبَتْ الْوَاوُ بَاءً ثُمَّ كَسَرَتْ الْخَاءَ لِلتَّنَاسُبِ فَلَمَّا خَافَ مُوسَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى هَذَا تَقْرِيرٌ لَغَلْبَتِهِ وَ قَهْرُهُ وَ تَوْكِيدٌ بِالِاسْتِثْنَاءِ وَ بِكَلِمَةِ التَّوَكُّيدِ وَ تَكْرِيرِ الضَّمِيرِ وَ لَامِ التَّعْرِيفِ وَ بِالْأَعْلَوِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّفْضِيلِ.

وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى

أمر الله موسى بإلقاء ما في يمينه لما في لفظ اليمين من معنى اليمن و البركة و المعنى ألق ما في يمينك من العصا، تلقف ما صنعوا، قرأ ابن عامر، تَلَقَّفَ بتشديد القاف و رفع الفاء و قرأ حفص عن عاصم ساكنة الفاء مجزومة خفيفة القاف و قرأ الباقون مشددة القاف مجزومة لفاء و قرأ الكسائي، كيد سحر، و الباقون، ساحر، على فاعل، و المعنى ألق ما في يمينك و هو العصا و هى تأخذها فيها إبتلاءً، ما صنعوا، ما، بمعنى، الذي، و تقديره تلقف و تبتلع الذي صنعوا فيه و ذلك إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ لا أصل له.

وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى أي لا يفوز السَّاحِرُ بفلاح أي بنجاة.

قال الزمخشري و قوله: فِي يَمِينِكَ و لم يقل عصاك جائز أن يكون تصغيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم و عصيهم و ألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدره الله يتلقفها على حدته و كثرتها و صغره و عظمها، و جائز أن يكون تعظيماً لها أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فأَنْ في يمينك شيء أعظم منها كلها و هذه على كثرتها أقل شيء و أنزرها عندها فألقه تتلقفها بإذن الله و تمحقها إنتهى.

أقول هذا الذي ذكره أشبه بشئ بالخطابة و لا يستفاد من ظاهر الآية ذلك و مع ذلك لا بأس به و فى قوله: وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى إشارة الى نقطة و هى أَنَّ السَّحَرَ باطل في نفسه إذ لا حقيقة له و الباطل لا يدوم و الحق يدوم قال رسول الله: للحق دولةٌ وللباطل جولةٌ فمن أتى بالحق فهو مقروءٌ بالفلاح و من أتى بالباطل فلا فلاح له و هذا أصلٌ يعتمد عليه في جميع الأفعال و الأقوال و لا اختصاص له بالسَّحَر فقط فَأَنَّ السَّحَرَ أحد مصاديق الباطل و لذلك لا يفلح فاعله و هذا هو السر في بقاء الأديان السماوية لأنها كانت مطابقة للواقع بخلاف المالك و المذاهب المخترعة التي لا حقيقة لها فأَنَّها تزول

بموت صاحبها وكيف يفلح من أغفل النَّاسَ و أظهر الباطل بلباس الحق و
أصل النَّاس به فهو كَسْرُ ابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظُّنَّاءُ مَاءً^(١).

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى

أي لما رأوا ما فعله الله على يد موسى من قلب العصا ثعباناً وإبطال
سحرهم بتلقف الثعبان ما صنعوا من السحر علموا أنه ليس من سنخ السحر و
أنه معجزة أتى بها موسى من قبل الله فألقوا نفوسهم ساجدين لله مقرنين بنبوة
موسى مصدقين له و قالوا آمناً، أي صدقنا ربَّ هارون و موسى أو آمناً بالربِّ
الذي يدعوا اليه هارون و موسى قال بعض المفسرين لما زال إيجاس الخيفة
من موسى و ألقى ما في يمينه و تلقفت حبالهم و عصيهم ثم إنقلبت عصا، و
فقدوا الحبال و العصي و علموا أن ذلك معجز ليس في طوق البشر فألقى
السحرة سجداً و أنما قال سجداً ولم يقل فسجدوا لأنهم أي السحرة لما رأوا ما
رأوا من قلب العصا ثعباناً إلى آخر القصة لم يتمالكوا أنفسهم من سرعة ما
تأثروا لذلك الخارق العظيم و لذلك خرّوا ساجدين كأنهم خرجوا عن حدّ
الإعتدال و دهشت عقولهم، و أنما قالوا ذلك لأنهم علموا أن فعل موسى ليس
من سنخ السحر إذ لو كان كذلك لقدروا على إبطاله فلما لم يقدروا أذعنوا بأنه
أي ما فعله موسى من سنخ الإعجاز فصاروا خاضعين في جنب عظمة الله
فقالوا: آمناً بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى، قيل قدّم هارون لأنه كان أكبر من موسى،
و قيل أن فرعون كان ربّي موسى فبدوا بهارون ليزول تمويه فرعون أنه ربّي
موسى فيقول أنا ربّيته، و قالوا ربّ هارون و موسى ولم يكتبوا بقولهم ربّ
العالمين للنص على أنهم آمنوا برّب هذين فرعون فيما قيل يزعم أنه ربّ
العالمين.

أقول يحتمل أن يكون تقديم هارون على موسى في الآية لأجل الفواصل و هو الأظهر و لذلك ترى قدّم موسى في الأعراف و أخر هارون أيضاً لذلك

قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلِّبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ
وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى

لَمَّا أَلْقَى السَّحْرَةَ سَجَدَ لِلَّهِ وَأَمَنُوا بَرَبَ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ فِرْعَوْنُ لَهُمْ
أَمَنْتُمْ لَهُ أَيَّ صَدَقْتُمُوهُ وَاتَّبَعْتُمُوهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ الْإِذْنَ فِي الشَّيْءِ إِعْلَامُ
بِإِجَازَتِهِ وَالرُّخْصَةِ فِيهِ أَيَّ بِإِرَادَتِهِ وَ أَمْرِهِ، وَ هَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْإِذْنِ
وَالْأَمْرِ لِأَنَّ فِي الْأَمْرِ دَلَالَةً عَلَى إِرَادَةِ الْفِعْلِ الْمَأْمُورَةِ وَ لَيْسَ فِي الْإِذْنِ دَلَالَةٌ عَلَى
إِرَادَةِ الْمَأْدُونِ فِيهِ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ، أَمَنْتُمْ عَلَى الْخَبَرِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ عَلَى لَفْظِ
الِاسْتِفْهَامِ فَعَلَى الْأَوَّلِ كَانَ فِرْعَوْنُ أَخْبَرَ بِإِيمَانِهِمْ قَبْلَ الْإِذْنِ وَ عَلَى الثَّانِي كَأَنَّهُ
اسْتَفْهَمَ عَنْ إِيْمَانِهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
أَيَّ أَنَّ إِيْمَانَكُمْ بَرَبَ هَارُونَ وَمُوسَى قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ مِمَّا عَلَّمَكُمْ كَبِيرَكُمْ وَ
رَبِّكُمْ الَّذِي تَعَلَّمْتُمُ السِّحْرَ مِنْهُ ثُمَّ هَدَّاهُمْ وَ قَالَ: فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ
مِنْ خِلَافٍ يَعْنِي قَطَعَ الْيَدَ الْيُمْنَى وَ الرَّجْلَ الْيُسْرَى وَ قَطَعَ الْيَدَ
الْيُسْرَى وَ الرَّجْلَ الْيُمْنَى.

قِيلَ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَلَا صَلِّبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ قِيلَ، فِي،
بِمَعْنَى، عَلَى، أَيَّ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ وَ قِيلَ نَقَرَ فِرْعَوْنُ الْخَشَبَ وَ صَلَّبَهُمْ فِي
دَاخِلِهِ فَصَارَ ظَرْفًا لَهُمْ حَقِيقًا حَتَّى يَمُوتُوا فِيهِ جُوعًا وَ عَطْشًا وَ مِنْ تَعْدِيهِ
صَلَبَ، بِفِي. قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَهُمْ صَلَّبُوا الْعَبْدِي فِي جَذَعِ نَخْلَةٍ فَلَا عَطَسْتَ شَيْئَانِ إِلَّا بِأَجْدَعَا
وَ قِيلَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ صَلَبَ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ أَيْضًا أَرَادَ فِرْعَوْنُ بِالنَّقْطِيعِ وَ

التَّصْلِيبِ فِي الْجَذُوعِ التَّمَثِيلِ بِهِمْ وَلَمَّا كَانَ الْجَذْعُ مَقْرَأً لِلْمَصْلُوبِ وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ اشْتِمَالُ الظَّرْفِ عَلَى الْمَظْرُوفِ عَدَيَ الْفِعْلِ، بَقِيَ، الَّتِي لِلْوَعَاءِ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى الْخَطَابُ لِلشَّجَرَةِ وَ أَيُّنَا أَشَدُّ جُمْلَةً إِسْتِفْهَامِيَّةً مِنْ مَبْتَدَأٍ وَ خَبَرٍ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ لِقَوْلِهِ، وَلَتَعْلَمَنَّ، سَدَّتْ مَسَدَ الْمَفْعُولَيْنِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، أَيُّنَا، مَوْصُولَةٌ وَ الْجُمْلَةُ بَعْدَهَا صِلَةٌ وَ التَّقْدِيرُ وَلَتَعْلَمَنَّ مَنْ هُوَ أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى، وَ التَّقْدِيرُ مَنْ هُوَ أَشَدُّ عَذَابًا مِنَ الْآخِرَةِ أَنَا أَوْ أَنْتُمْ وَ مَنْ يَكُونُ أَبْقَى فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرِ أَنَا أَوْ أَنْتُمْ.

وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَظْلُومَ أَشَدُّ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا مِنَ الظَّالِمِ كَمَا أَنَّ الظَّالِمَ أَبْقَى مِنْهُ فِيهَا.

قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْجَذْعُ بِكَسْرِ الْجِيمِ جَمْعُهُ جَذُوعٌ جَذَعْتَهُ، قَطَعْتَهُ قَطَعَ الْجَذْعُ وَ الْجَذْعُ بَفَتْحِ الْجِيمِ مِنَ الْإِبِلِ مَا أَتَتْ لَهَا خَمْسُ سَنِينَ وَ مِنَ الشَّاةِ مَا تَمَّتْ لَهُ سَنَةٌ إِنْتَهَى.

أَنْ قُلْتُ مَا ذَنْبُ السَّحَرَةِ وَ بِأَيِّ شَيْءٍ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الْعَذَابَ.

قُلْتُ ذَنْبُهُمْ إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ وَ قَوْلُهُمْ الْحَقُّ وَ لَيْسَ جَزَاءُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقُولُ بِالْحَقِّ عِنْدَ الظَّالِمِ الْعِنُودَ إِلَّا الْقَتْلَ وَ حَيْثُ أَنْ فَرَعُونَ كَانَ ظَالِمًا فَفَعَلَ مَا فَعَلَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَ تَبِعَهُ عَلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْعَذَابِ أَشْيَاعُهُ وَ أَتْبَاعُهُ بَعْدَهُ كَمَا فَعَلَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَعَنَهُمَا اللَّهُ ذَلِكَ بَزِيدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ كَثِيرَةً.



قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ
 الَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي
 هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧١) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا
 خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ
 خَبِيرٌ وَابْقَى (٧٢) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ
 جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٣) وَمَنْ يَأْتِهِ
 مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ
 الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ (٧٤) جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
 تَزَكَّى (٧٥) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ
 بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا
 تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٦) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
 بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ (٧٧) وَ
 أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٨) يَا بَنِي
 إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ
 جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ
 أَلْسَلَوْنَا (٧٩) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ
 لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ
 عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨٠) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ
 تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨١) وَمَا
 أَغْنَاكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٢) قَالَ هُمْ
 أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ

﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الْشَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾

◀ اللغة

نُؤْتِرُكَ: الإيثار الاختيار تَفَضُّلاً.
فَأَقْضُ: أمرٌ من قضى أي أحكم.
خَطَايَانَا: الخطايا جمع خطيئة وهي الذنب.
يَبْسَأُ: اليبس اليابس وجمعه، أيباس، و جمع اليبس بسكون الباء، ييوس، و
قال أبو عبيدة، اليبس بفتح الباء المكان الجاف.
دَرَكَ: الدَّرَك بفتح الدَّال و الرَاء ما يلحق الإنسان من تبعه كالدَّرَك في البيع.
غَشِيَهُمْ: أي سترهم.
الْمَنَ وَالسَّلْوَى: المَن هو الذي يقع على بعض الأشجار، و السَّلْوَى طائرٌ
أكبر من السَّمان.
هَوَى: أي سقط.
أَثَرِي: أثر الشَّيْ حصول ما يدل على وجوده.
فَتَنَّاكَ: الفتنة الاختبار.

◀ الإعراب

مَا أَنْتَ قَاضٍ مَا، بمعنى الَّذِي و قيل هي زمانية أي أقض أمرك مدة ما
أنت قاض هذه الْحَيَوةَ الدُّنْيَا منصوب بتقضي، وما، كافة أي تقضي أمور
الحياة الدنيا، و يجوز أن يكون ظرفاً و المفعول محذوف مَا أَكْرَهْتَنَا قِيلَ، ما،
بمعنى، الَّذِي، معطوفة على الخطايا و قيل في موضع رفع على الإبتداء و
الخبر محذوف أي و ما أكرهتنا عليه مسقطٌ مِنَ السَّحْرِ حال من، ما، أو من الهاء
و قيل هي، ما، نافية و في الكلام تقديم تقديره ليغفر لنا خطايانا من السَّحَر و لم

تكرهنا عليه إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ الضَّمِيرُ هُوَ الشَّانُ وَالْقِصَّةُ جَنَاتٌ عَدْنٍ هِيَ بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ هِيَ نَبَاتٌ لِأَنَّ خَالِدِينَ فِيهَا حَالٌ وَلَا يَكُونُ فِي الْكَلَامِ مَا يَعْمَلُ فِي الْحَالِ طَرِيقًا مَفْعُولٌ بِهِ يَسَّافَتُحُ الْبَاءُ مُصَدَّرٌ أَيِ ذَاتُ يَبَسٍ، لَا تَخَافُ قِيلَ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ وَقِيلَ هُوَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي إِضْرَبَ، وَقِيلَ هُوَ صِفَةٌ لِلطَّرِيقِ وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ أَيِ وَلَا تَخَافُ فِيهِ وَيَقْرَأُ بِالْجَزْمِ عَلَى النَّهْيِ أَوْ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ بِجُنُودِهِ هُوَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَالْمَفْعُولِ الثَّانِي مَحْذُوفٌ أَيِ فَاتَّبَعَهُمْ فَرَعُونَ عِقَابَهُ وَمَعَهُ جُنُودُهُ جَانِبَ الطُّورِ هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ فَيَحِلُّ جَوَابُ النَّهْيِ مَا أَعْجَلَكَ مَا، إِسْتِفْهَامِيَّةٌ مُبْتَدَأٌ وَأَعْجَلَكَ الْخَبَرُ هُمْ مُبْتَدَأٌ وَأَوَّلَاءِ بِمَعْنَى الَّذِي عَلَى أَثَرِي صَلْتَهُ.

التفسير

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

لَمَّا هَدَّوْهُمْ فَرَعُونَ بِالْقَتْلِ قَالُوا فِي جَوَابِهِ لَنْ نُؤْثِرَكَ، أَيِ لَنْ نَخْتَارَ إِتِّبَاعَكَ وَكُونَنَا مِنْ حِزْبِكَ وَسَلَامَتَنَا مِنْ عَذَابِكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْمَعْجَزَاتُ الَّتِي أَتَيْنَا وَعَلَّمْنَا صَحَّتْهَا، وَكَلِمَةُ لَنْ، لِنَفْيِ الْأَبَدِ أَيِ لَا نَخْتَارُكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ أَبَدًا، قَوْلُهُ هَذَا لِفَرَعُونَ تَوْهِيئٌ لَهُ وَإِسْتِصْغَارٌ لَمَّا هَدَّوْهُمْ بِهِ وَاعْدَمَ إِكْتِرَافٌ بِقَوْلِهِ وَفِي نِسْبَةِ الْمَجْئِ إِلَيْهِمْ وَأَنْ كَانَتِ الْبَيِّنَاتُ جَاءَتْ لَهُمْ وَغَيْرِهِمْ، إِشْعَارٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْرَفَ بِالسَّحَرِ وَالْفِرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْجَزَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيْسَ بِسِحْرٍ فَكَانُوا عَلَى جَلِيَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ بِالْمَعْجَزِ وَغَيْرِهِمْ يَقْلِدُهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَيْضًا فَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ النَّفْعُ بِهَا فَكَانَتِ بَيِّنَاتٌ وَاضِحَةٌ فِي حَقِّهِمْ وَالْوَاوُ فِي وَالَّذِي فَطَرْنَا وَاعْظَفَ عَلَى مَا جَاءَنَا أَيِ وَعَلَى الَّذِي فَطَرْنَا.

قِيلَ لِمَا لَاحَتْ حِجَّةُ اللَّهِ فِي الْمَعْجِزَةِ بِدَاوُا بِهَا ثُمَّ تَرَقُّوا إِلَى الْقَادِرِ عَلَى خَرْقِ الْعَادَةِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَذَكُرُوا وَصَفَ الْإِخْتِرَاعَ وَهُوَ قَوْلُهُمْ، الَّذِي فَطَرْنَا، تَبَيَّنَ لِعَجْزِ فِرْعَوْنَ وَتَكْذِيبِهِ فِي إِدْعَاءِ رَبِّيَّتِهِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ سَرَفِ ذِبَابَةِ فَضْلًا عَنْ إِخْتِرَاعِهَا إِنْتَهَى وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

أقول في الآية مسائل:

الأولى: قوله قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَقِينَاتِ.

الثانية: قوله وَ الَّذِي فَطَرْنَا.

الثالثة: قوله فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ.

الرابعة: قوله إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ فِيهَا عَلَى

سَبِيلِ الْإِخْتِصَارِ.

أَمَّا الْمَسْئَلَةُ الْأُولَى: فَحَاصِلُهَا أَنَّهُ لَا شَكَّ لَنَا أَنَّ مَا جَاءَنَا بِهِ مُوسَى لَيْسَ مِنْ سِنَخِ السُّحْرِ وَأَنَّمَا هُوَ مُعْجِزَةٌ يَعْجِزُ الْبَشَرَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِهَا وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ لَنَا الْعُدُولُ عَنْهَا عَقْلًا فَأَمَرْنَا بِدَوْرٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

أحدهما: متابعة العقل.

الثاني: متابعتك و الجمع بينهما محال لأنَّ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعًا وَ نَحْنُ نُؤْثِرُ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَقْلِ السَّلِيمِ وَلَنْ نُؤْثِرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ أَبَدًا وَ فِي هَذَا الْكَلَامِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ أَيْ السُّحْرَةُ كَانُوا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَلَمْ يَكُونُوا مُعَانِدِينَ لَهُ وَ أَنَّ فِرْعَوْنَ أَجْبَرَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْمُنَازَرَةِ أَوْ أَغْفَلَهُمْ عَلَيْهِ أَوْ كَانُوا جَاهِلِينَ وَ أَنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُعَانِدَ وَ هُوَ الَّذِي يَنْكُرُ الْحَقَّ وَ يَرِيدُ إِطْفَاؤَهُ مَعَ الْعِلْمِ بِكَوْنِهِ حَقًّا مِثْلَ كَفَّارٍ قَرِيشٍ لَا يَقُولُ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَ لَا يَنْقَادُ لِلْحَقِّ أَصْلًا وَ حَيْثُ أَنَّهُمْ أَيْ السُّحْرَةُ صَارُوا سَجْدًا لِلَّهِ تَعَالَى وَ إِخْتَارُوا الْمَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ مَعَ الظَّالِمِينَ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا طَالِبِينَ لِلْحَقِّ وَاقِعًا وَ هُوَ كَاشِفٌ عَنْ حَسَنِ سَرِيرَتِهِمْ.

المسألة الثانية: قوله **وَ الَّذِي فَطَرَنَا**، أي خلقنا وأوجدنا وفيه إشارة الى أن الخالق الموجد يستحق أن يعبد لا غيره و أن التوحيد راجع الى الفطرة قال الله تعالى: **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ^(١) فمن أنكر الفاطر أنكر الفطرة و من كان كذلك فهو خارج عن ذوي العقول و لا كلام لنا معه.

المسألة الثالثة: قوله **فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ** وفيه إشارة الى أن الحاكم الظالم يحكم بما يشاء و العادل لا يحكم إلا بالحق.

المسألة الرابعة: قوله **إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** وهي الحياة التي لا بقاء لها و أما الحياة التي لا موت فيها و لا زوال فهي الحياة الآخرة و العاقل لا يؤثر الفاني على الباقي.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى

و أنه قيل لهم لم آمنتُم ربَّ هارون و موسى، فقالوا **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا** لأمرين **أحدهما:** أن يغفر لنا ذنوبنا و ما أكرهتنا عليه من السحر، قال ابن عباس أن فرعون رفع غلماناً الى السحرة يعلمونهم الحر بالعزائم.

و قيل أن فرعون حملهم على معارضة موسى، و عليه فقوله ما أكرهتنا عليه من السحر معناه أكرهتنا عليه من أعمال السحر، و قيل كان فرعون يأخذ ولدان الناس و يجربهم على ذلك فأشارت السحرة على ذلك و لا شك أن أعمال السحر من أشد الذنوب إذا كان في تقوية الباطل.

والوجه الثاني: قوله **وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**، أي **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا** لأنه خير و أبقي من كل شيء بحيث لا فناء له وإختيار الخير على الشر و الباقي على الفاني مما يحكم به العقل.

بَابُ الْفِرْقَانِ فِي تِلْكَ الْقُرْآنِ

جزء ١٦

الْعِلَّةُ الْعَادِلَةُ

و قال بعض المفسرين معناه والله خيرٌ لنا منكم وأبقى لنا ثواباً من ثوابك و على هذا فهو في الحقيقة ردٌّ على قول فرعون **أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى** ^(١) رَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا لفرعون أرنا موسى نائماً فوجدوه يحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحرٍ السَّاحِرِ إذا قام بطل سحره فأبى فرعون إلا أن يعارضوه و يظهر من قولهم، أنن لنا لأجراً عدم الإكراه.

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى.

في هذا الكلام إشارة إلى أن المذنب العاصي ينبغي أن يتوب و يرجع إلى الله قبل موته ليدخل على ربه تائباً منقاداً، فمن عصى ربه و مات على العصيان بغير توبة فإنَّ له جهنم و ذلك لأنَّ الأخرة ليست بدار التَّكْلِيف فلا توبة فيها، و لأجل ذلك رجع السَّحرة عما كانوا عليه من المعصية و قوله: **لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى**، إشارة إلى الموت و الحياة من خواصِّ الدنْيَا الفانية و أما الأخرة فهي دار الحياة ثمَّ أنَّ قوله: **لَا يَمُوتُ فِيهَا** لا خفاء فيه و أما قوله: **وَلَا يَحْيَى** فقبل في معناه أي لا حياة فيها راحة بل هو معاقب بأنواع العقاب، و قيل و لا يحيا، أي يعذب عذاباً ينتهي به إلى الموت ثمَّ لا يجهز عليه فيستريح بل يعاد جلده و يجدد عذابه و لا يحيا حياة طيبة.

و قال الرَّاظي الجسم لا بدَّ و أن يبقى أما حياً أو يصير ميتاً فخلَّوه عن الوصفين محال فمعناه في الآية أنه أي المجرم يكون في جهنم بأسوء حالٍ لا يموت موتةً مريحة و لا يحيا حياةً ممتعة إنتهى.

أَقُولُ نفى الله تعالى الموت و الحياة في الأخرة على الإطلاق فتقييد الموت بالمريحة و الحياة بالمتعة لا دليل عليه فالإشكال باقٍ بحاله، و الَّذي يختلج بالبال هو أنَّ الموت لا يصدق إلا بعد الحياة بل هو عدم الحياة، كما إنَّ الحياة أيضاً لا تصدق إلا بعد الموت بل هي عدم الموت إذا عرفت هذا فنقول:

أما أنه لا يموت في الآخرة فلا خلاف فيه لأنها أي الآخرة دار البقاء ومن لا يموت فهو لا يحيا قطعاً فأَنَّ السَّالِبَةَ تَنْتَقِي بِانْتِفَاعِ الْمَوْضُوعِ مَوْضُوعَ الْحَيَاةِ الْمَوْتِ فِانْتِفَاءِ الْمَوْتِ يَسْتَلْزِمُ انْتِفَاءَ الْحَيَاةِ وَأَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا حَيَاةً حَتَّى يَحْتَاجَ الْكَلَامَ إِلَى التَّقْيِيدِ وَالتَّوْبِيلِ بَلْ قَالَ لَا يَمُوتُ وَلَا يَحْيَا أَي لَا يَتَّصِفُ بِهِمَا لِأَنَّ الْإِنْتِصَافَ مِنْ شَيْءٍ الْحَادِثُ.

هذا ويحتمل أن يكون المعنى في قوله: لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا، إشارة أو كناية عن بقاء العذاب وعدم زواله والله أعلم بما أراد منه فأَنَّ عقولنا قاصرة عن درك كلامه والبلوغ إلى غاية مرامه.

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ أَلْعَلَى
 الواو للعطف والضمير في، يأت، عائد على الرَّبِّ في الآية السابقة في قوله:
 إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا والمعنى ومن يأت ربه مؤمناً معتقداً بالله ورسوله
 وجميع ما جاء به الرسول ومع ذلك قد عمل الصالحات في دار الدنيا فأولئك
 الذين كانوا كذلك لهم الدرجات العلى في الآخرة وقوله قد عمل الصالحات
 بعد قوله: مُؤْمِنًا يدل على أَنَّ مجرد الاعتقاد القلبي لا يكفي في تحقق الإيمان
 بل لابد له من العمل الصالح على أساس الاعتقاد وهو صريح في أَنَّ الإيمان
 عبارة عن الاعتقاد والعمل الناشئ منه كما نقول به وقد وردت الأخبار بذلك
 عن المعصومين خلافاً لأكثر العامة حيث ذهبوا إلى أَنَّ الإيمان مجرد الاعتقاد،
 وفي قوله: لَهُمُ الدَّرَجَاتُ أَلْعَلَى إشارة إلى أَنَّ مراتب الإيمان متفاوتة ولكل
 مرتبة منها درجة عالية في الآخرة فلو كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص كما زعم
 بعضهم كان حق العبارة أن يقال لهم درجة عالية على حدٍّ سواءٍ فالدرجات من
 جهة الثواب كاشفة عن درجات الأسباب واختلافها فأَنَّ لكل مرتبة من مراتب
 الإيمان درجة من حيث الثواب وعبارة أخرى معنى الكلام أَنَّ للمؤمنين
 درجات عالية متفاوتة بحسب مراتب إيمانهم.

إِنْ قُلْتَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَهُم الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَأَمَّا أَنَّ الدَّرَجَاتِ مُتَفَاوِتَةً مُخْتَلِفَةً فَلَا تَدُلُّ الْآيَةَ عَلَيْهَا حَتَّى تَكُونَ كَاشِفَةً عَنْ تَفَاوُتِ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ.

قُلْتَ لَفْظُ الْجَمْعِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُن بَيْنَهَا تَفَاوُتٌ وَإِخْتِلَافٌ فَلَا تَصْدُقُ الدَّرَجَاتُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ بَلْ يُقَالُ لَهُمْ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ وَهَذَا ظَاهِرٌ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْأَسَاسُ فِي الدِّينِ وَلَا شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي بَابِ الْعِبَادَةِ وَمَعَ ذَلِكَ لَهُ مَرَاتِبٌ مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ الْإِسْتِعْدَادَاتِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ فَلَا بُاسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى شَطَرٍ مِمَّا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي الْبَابِ فَالْكَلَامُ يَقَعُ فِي مَقَامَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ مُشْرُوطٌ بِالْعَمَلِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمَرَاتِبَ فِيهِ مُتَفَاوِتَةٌ مِنْ حَيْثُ الزِّيَادَةُ وَالتَّقْيِصَةُ.

فَنَقُولُ أَمَّا الْمَقَامُ الْأَوَّلُ وَهُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ مُشْرُوطٌ بِالْعَمَلِ، وَأَنَّهُ أَخْصَصَ مِنَ الْإِسْلَامِ.

فَقَدْ رَوَى فِي الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ سَمَاعَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ أَهْمَا مُخْتَلِفَانِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْبِرْنِي أَنَّ الْإِيمَانَ يَشَارِكُ الْإِسْلَامَ وَالْإِسْلَامَ لَا يَشَارِكُ الْإِيمَانَ فَقُلْتُ فَصَفَهُمَا لِي فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالتَّصْدِيقُ بِرَسُولِ اللَّهِ بِهِ حَقَّقْتُ الدِّمَاءَ وَعَلَيْهِ جَرَتِ الْمَنَاحِكُ وَالْمَوَارِيثُ وَعَلَى ظَاهِرِهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ، وَالْإِيمَانُ الْهُدَى وَمَا يَثْبُتُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ صِفَةِ الْإِسْلَامِ وَمَا ظَهَرَ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ وَالْإِيمَانُ أَرْفَعُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِدَرَجَةٍ أَنَّ الْإِيمَانَ يَشَارِكُ الْإِسْلَامَ فِي الظَّاهِرِ وَالْإِسْلَامَ لَا يَشَارِكُ الْإِيمَانَ فِي الْبَاطِنِ وَأَنْ يَجْتَمِعَا فِي الْقَوْلِ وَالصِّفَةِ انْتَهَى.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ حِمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَمِعْتَهُ يَقُولُ الْإِيمَانُ مَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَأَفْضَى بِهِ إِلَى اللَّهِ وَصِدْقُهُ الْعَمَلُ بِالطَّاعَةِ وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامُ مَا ظَهَرَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ.

وبأسناده عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله أن الإيمان يشارك الإسلام و ساق الحديث إلى أن قال أن الإيمان ما وقر في القلوب الحديث.

وبأسناده عن أحدهما قال الإيمان إقرار وحمل والإسلام إقرار بلا حمل إنتهى.

وبأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: دين الله إسمه الإسلام و هو دين الله قبل أن تكونوا حيث كنتم و بعد أن تكونوا فمن أقر بدين الله فهو مسلم ومن عمل بما أمر الله تعالى به فهو مؤمن إنتهى.

وبأسناده عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد الله عن الإيمان فقال عليه السلام: شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمّد رسول الله قال قلت ليس هذا عمل قال بلى قلت فالحمل من الإيمان قال لا يثبت له الإيمان إلا بالعمل والعمل منه إنتهى.

و الأحاديث كثيرة و لا نحتاج إلى إطالة الكلام في الباب لأنّه من المسلّمات التي لا خلاف فيه في مذهبنا، و أمّا المقام الثّاني و هو أن الإيمان درجات و مراتب.

فقد روي في الكافي عن عمّار بن أبي الأحوص عن أبي عبد الله قال عليه السلام: أن الله تعالى وضع الإيمان على سبعة أسهم على البرّ و الصدق و اليقين و الرضا و الوفاء و العلم و الحلم ثمّ قسّم ذلك بين النّاس فمن جعل فيه هذه السّبعة الأسهم فهو كاملٌ محتملٌ و قسّم بعض النّاس السّهم ولبعض السّهمين ولبعض الثّلاثة حتّى إنتهوا إلى سبعة ثمّ قال عليه السلام لا تحملوا على صاحب السّهم سهمين وعلّى صاحب السّهمين ثلاثة فتبعضوهم ثمّ قال عليه السلام كذلك حتّى ينتهي إلى سبعة إنتهى.

باب القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

و بأسناده عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا عبد العزيز أن الإيمان عشرة درجات بمنزلة السلم يصعد منه مراقبة بعد مراقبة الحديث.

و بأسناده عن سدير قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام أن المؤمنين على منازل منهم على واحدة و منهم على اثنتين و منهم على ثلاث و منهم على أربع و منهم على ست و منهم على سبع الحديث و الأحاديث نقلناها عن الوافي، الجزء الثاني أبواب تفسير الإيمان و الإسلام^(١).

إذا عرفت هذا فقد علمت أن الدرجات العلى في الثواب ناظرة إلى الدرجات في الإيمان و هو المطلوب.

جَنَاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَمِنَ بِاللَّهِ وَ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى قَالَ وَ لَهُمْ جَنَاتٌ عَدْنٍ أَيُّ بَسَاتِينَ إِقَامَةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، أَوَّلًا ثُمَّ قَالَ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى، وَ التَّزَكَّى طَلَبُ الزَّكَا بِإِرَادَةِ الطَّاعَةِ وَ الْعَمَلِ بِهَا وَ الزَّكَا النَّمَاءُ فِي الْخَيْرِ وَقِيلَ مَعْنَى (تَزَكَّى) نَظَرُ مِنَ الذُّنُوبِ بِالطَّاعَةِ بَدَلًا مِنْ تَدْنِيسِهَا بِالْمَعْصِيَةِ وَ الْخُلُودِ الْمَكْثُ فِي الْمَشْيِ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ، قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ.

أَقُولُ أَصْلُ الزَّكَاةِ النَّمُو الْحَاصِلُ عَنْ بَرَكَةِ اللَّهِ وَ يُعْتَبَرُ ذَلِكَ بِالْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَ الْآخِرَوِيَّةِ يُقَالُ زَكَّى الزَّرْعُ إِذَا حَصَلَ مِنْهُ نَمُوٌّ وَ بَرَكَةٌ، وَ قَوْلُهُ تَعَالَى أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا، إِشَارَةٌ إِلَى مَا يَكُونُ حَلَالًا لَا يَسْتَوْحَمُ عَتَبَاهُ وَ مِنْهُ الزَّكَاةُ لَمَّا يُخْرَجُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَ تَسْمِيَتُهُ بِذَلِكَ مِنْ رَجَاءِ الْبَرَكَةِ وَ لِتَزَكِيَةِ النَّفْسِ

أي تتميها بالخيرات و البركات أو لهما جميعاً، و بزكاء النفس و طهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة و في الآخرة الأجر و المثوبة و هو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره و ذلك تارة إلى العبد لكونه مكتسباً لذلك نحو قوله تعالى: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْهَا**^(١) و تارة ينسب إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو: **اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ** و تارة إلى النبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو: **تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا**^(٢) و قوله: **يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيْكُمْ**^(٣) و تارة إلى العباد التي هي آله في ذلك نحو: **وَ خَلَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً**^(٤) ثم أن تزكية الإنسان نفسه ضربان:

أحدهما: بالفعل و هو محمود و إليه قصد بقوله: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْهَا**^(٥).

الثاني: بالقول كتزكية العدل غيره و ذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه و قد نهى الله عنه فقال: **فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ** و نهيه عن ذلك تأديبٌ بقبح مدح الإنسان نفسه عقلاً و شرعاً و لهذا قيل لحكيم، مألذي لا يحسن و أن كان حقاً فقال مدح الرجل نفسه إذا عرفت ماتلوناه عليك فاعلم أن قوله ذلك جزء من تزكى، معناه من تزكى نفسه بسبب العمل لا بالقول فقط و ذلك مثل السحرة فأنهم بفعلهم تزكوا أنفسهم حيث أذعنوا للحق و صاروا سجداً له و خالفوا فرعون، و بالقول أيضاً حيث قالوا آمناً برّب هارون و موسى، بل الحق أن قولهم هذا كان إقراراً منهم لا تزكية لنفسهم كما هو ظاهر على المتأمل فدخلوا في المؤمنين حقاً.

في تفسير القرآن

**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَبْسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى**

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

٢- التوبة = ١٠٣

٤- مريم = ١٣

١- الشمس = ٩

٣- البقرة = ١٥١

٥- الشمس = ٩

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أوحى إلى موسى عليه السلام أن أسر بعبادي أي بني إسرائيل والإسراء السير بالليل أي أسر بهم ليلاً.
فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، أي فأضرب بعصاك البحر تجعل طريقاً لهم في البحر وهو النّيل على ما قيل، يبساً.

قال في المفردات اليبس المكان فيه ماء فيذهب وفي الثّبات ما كان فيه رطوبة فذهبت، قال بعض المفسرين لما إنقضى أمر السّحرة و غلب موسى وقوى أمره وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل فأقام موسى على وعده حتّى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه فبعث الله حينئذ الأيات المذكورة في غير هذه الأيات الجراد والقمل إلى آخرها كلّما جاءت أية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند إنكشاف العذاب فإذا إنكشف نكث حتّى تأتي أخرى فلمّا أكملت الأيات أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل في الليل سارباً والسريّ مسير الليل فقلوه: أَنْ أُسْرٍ يحتمل أن تكون، أن، مفسّرة وأن تكون ناصبة وقوله لعبادي، إضافة تشريف لقوله: نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وإختلفوا في وقت الإيحاء هل كان متقدماً على وقت إتباع فرعون موسى وقومه بجنوده أو حين قارب فرعون لحاقه وقوى فزع بني إسرائيل والظاهر هو الثاني وكيف كان يروى أَنَّ موسى نهض ببني إسرائيل وهم ستة مائة ألف على ما قيل فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم وإتصل الخبر فرعون فجمع جنوده وحشّهم ونهض وراءه فأوحى الله إلى موسى أن يقصد البحر فجزع بنو إسرائيل و رأوا أنَّ العدو من وراءهم والبحر من أمامهم وموسى يثق بصنع الله فلمّا رأهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم وكان مقصدهم إلى موضع ينقطع فيه الفحوص والطُرق الواسعة قيل وكان في خيل فرعون سبعون ألف أدهم ونسبته ذلك من سائر الألوان وقيل أكثر من هذا فضرب موسى بعصاه البحر فأنفرك أثنتي عشرة فرقة طرقات واسعة بينها حيطان

الماء واقفة و يدلّ عليه قوله فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم و قيل بل هو طريق واحد لقوله: **فَاضْرِبْ لَهُم مَّطَرِيقًا** في البحر يبساً و قد يراد بقوله طريقاً الجنس فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله ريح الصّبا فجفّت تلك الطّرق حتّى ييسر و دخل بنو إسرائيل و وصل فرعون إلى المدخل و بنو إسرائيل كلّهم في البحر فرأى الماء على تلك الحال فجزع قومه و إستعظموا الأمر فقال لهم فرعون أنما إنفلق الماء من هيبتي حتّى أدرك أعدائي و عبيدي ولم تكن في خيل فرعون أنثى فجاء جبرئيل على فرس أنثى و عليه عمامة سوداء و تقدّمهم و خاض البحر و ظنّ أصحاب فرعون أنّه منهم فلمّا سمعت الخيول ريحها إقتحمت البحر و أثرها و جاء ميكائيل على فرس خلف القوم يشحذهم و يقول لهم ألحقوا بأصحابكم فلمّا أراد فرعون أن يسلك طريق البحر نهاه وزيره هامان و قال إنّي قد أتيت بهذا الموضع مراراً و مالي عهدٌ بهذه الطّرق و إنّي لا أمن أن يكون هذا مكرّاً من الرّجل يكون فيه هلاكنا و هلاك أصحابنا فلم يطيعه فرعون و ذهب حاملاً على حصانه أن يدخل البحر فإقنع و نفر حتّى جبرئيل على رمكة بيضاء فخاض البحر فتبعها حصان فرعون فلمّا توافوا في البحر و هم أولهم بالخروج فإلتطم عليهم فغرقهم جميعاً بمرأى من بني إسرائيل قالوا فلمّا سمعت بنو إسرائيل صوت إلتظام البحر قالوا لموسى ما هذه الوجبة فقال موسى لهم أنّ الله سبحانه قد أهلك فرعون و كلّ من كان معه فقالوا أنّ فرعون لا يموت ألم تر أنّه كان يلبث كذا و كذا يوماً لا يحتاج إلى شيء ممّا يحتاج إليه الإنسان فأمر الله سبحانه البحر فألقاه على نجوة من الأرض و عليه درعه حتّى نظر إليه بنو إسرائيل و يقال لو لم يخرج الله تعالى ببدنه لشكّ فيه بعض النّاس فبعث موسى جندين عظيمين من بني إسرائيل كلّ جنديّ أثنى عشر ألفاً إلى مدائن فرعون وية يومئذ خالية من أهلها لم يبق منهم إلّا النّساء و الصّبيان و الزّمني و المرضي و أقرّ على الجندين يوشع بن نون و كالب

بن يوفنا فدخلوا بلاد فرعون فغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم وحملوا من ذلك بقدر الطاقة وما لم يطبقوا حملها باعوه من قوم آخرين فذلك قوله تعالى: **كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ^(١) الْأَيَاتِ وَ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ أَشَارَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ:**

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَيمٍ مَا غَشِيَهُمْ
فَأَنْ الْغَشَاءَ السَّتْرَ وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ غَرَقَهُمْ فِي الْمَاءِ عَلَى مَا مَرَّ بِيَانِهِ.

وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى

أَي أَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى الضَّلَالِ وَ أَغْوَاهُمْ وَ لِذَلِكَ نَسَبَ إِلَيْهِ الضَّلَالِ وَ قَوْلُهُ وَ مَا هَدَى، أَي مَا هَدَى فِرْعَوْنُ إِلَى الْحَقِّ بِسُوءِ سِرِيرَتِهِ وَ خَبَثِ ذَاتِهِ مَعَ أَنَّهُ رَأَى مِنَ الْمَعْجَزَاتِ مَا رَأَى فَقَدْ تَمَّتِ الْحُجَّةُ بِذَلِكَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَمْهَلْهُ اللَّهُ وَ أَهْلَكَهُ وَ أَرَاخَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ.

يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَاعِدْنَاكُمْ جَانِبَ الْطُّورِ
الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّاءَ وَ أَلْسَلَوْا

لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَ جُنُودَهُ وَ غَرَقَهُمْ فِي الْبَحْرِ عَدَدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَعْمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَ بَدَأَ بِإِزَالَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِّ مِنَ الْإِذْلَالِ وَ الْخِرَاجِ وَ الذَّبْحِ وَ هِيَ آكِدٌ أَنَّ تَكُونُ مَقْدَمَةً عَلَى الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِأَنَّ إِزَالََةَ الضَّرَرِّ أَعْظَمُ فِي النُّعْمَةِ مِنْ إِیْصَالِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةِ وَ لِذَلِكَ قَالُوا دَفَعَ الضَّرَرِّ مَقْدَمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ: **قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ثُمَّ أَعْقَبَ** ذَلِكَ بِذِكْرِ الْمَنْفَعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَوْجِبُ الْإِرْتِقَاءَ إِلَى مَقَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَ الْخُرُوجِ عَنْ الشُّثُونِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: **وَ وَاعِدْنَاكُمْ جَانِبَ الْطُّورِ** **الْأَيْمَنَ** إِذْ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ مُوسَى التَّوْرَةَ وَ فِيهَا بَيَانُ أَحْكَامِ دِينِهِمْ وَ شَرَحَ

شريعته، ثم أعقب ذلك بذكر المنفعة الدنيوية وهو قوله: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ
 اَلْمَنَّ وَ اَلسَّلْوَى فَالْمَنُّ بفتح الميم هو الذي يقع على بعض الأشجار و
 السَّلْوَى طائر أكبر من السَّمان و الظَّاهر أنَّ الخطاب كان لمن نجامع موسى.
 من بني إسرائيل بعد إغراقهم فرعون فخاطب الجميع بقوله واعدناكم و أن
 كان الموعودون هم السَّبعين الذين إختارهم موسى و لسماع كلام الله كما قال
 تعالى: وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا^(١) وَ ذَلِكَ لِأَنَّ سماع أولئك السَّبعين
 تعود منفعتة على جميعهم فكأنهم خوطبوا بذلك جميعاً مضى الكلام في
 الطُّور الأيمن و المَنَّ و السَّلْوَى في سورة البقرة و مريم.

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ
 يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى

و الطَّيبَات قيل المراد بها هنا الحلال اللذيذ كلوا، صورته صورة الأمر و
 المراد به الإباحة أي أباح الله لكم الطَّيبَات من الرِّزْق ثُمَّ نهاهم عن الطُّغْيَان
 فيما رزقهم الله و الطُّغْيَان هو التَّعدي عن حدود الله في الطَّيبَات بأن يكفروها
 و يشغلهم اللُّهُو و النُّعم عن القيام بشكرها و أن ينفقوها في المعاصي و يمنعوا
 الحقوق الواجبة فيها.

و قال ابن عباس في قوله: وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ أي لا يكلم بعضكم بعضاً
 يأخذه من صاحبه بغير حقٍّ و قال الضَّحَّاك معناه لا تجاوزوا حدَّ الإباحة و
 قيل معناه لا تسرفوا فيها.

أقول ما ذكروه في معنى الكلام لا بأس به لأنَّه من مصاديق الطُّغْيَان إلَّا أَنَّهُ
 خروجٌ عن ظاهر اللفظ و ذلك لِأَنَّ قوله: وَ لَا تَطْغَوْا خطاب لبني إسرائيل بأن
 لا يطفخوا فيما رزقهم الله من النُّعم و ذلك لِأَنَّ كثيراً ما يصير الإنسان طاغياً

فصل القرآن في تفسير القرآن



المجلد الحادي عشر

بسبب إقبال الدنيا عليه و يصرف نعم الله في غير رضئ الله فيخرج بذلك عن حد الاعتدال و ذلك هو الطغيان ألا ترى أن أكثر الأنبياء و الأمراء يكونون كذلك و حيث أن الطغيان يوجب سخط الله و غضبه قال تعالى: **فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي** فَأَنْ الطَّاعِي مَبْغُوضٌ لِلَّهِ تعالى و من المعلوم أن من يحلل عليه غضب الله فقد هلك و سقط و اليه الإشارة بقوله: **وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى** و أتما أشار الله تعالى الى ذلك في هذا المقام لأن فرعون الذي يكون مدار البحث عليه من أكبر مصاديق الطَّاغِينَ و أظهر المتمردين العاصين و منشأ طغيانه لم يكن إلا ما ذكره في الآية من أنه إستعان بنعمة الله على مخالفة الله ثم أن قراءة الجمهور، **فَيَحِلُّ** بكسر الحاء و من يحلل بكسر اللام من حلَّ يحلُّ، أي فيجب و يلحق و قرأ الكسائي، بضمَّ الحاء و ضمَّ اللام في، يحلُّ، من حلَّ يحلُّ، أي ينزل، و هي قراءة قتادة أيضاً و قرأ بعضهم بضمَّ الباء و كسر الحاء من أحلَّ و مصدره الإحلال و عليه فهو متعدِّ بنفسه و الفاعل فيه مقدَّر ترك لشهرته و تقديره فيحلَّ به طغيانكم غضبي عليكم، و دلَّ على ذلك و لا تطفؤا، فيصير غضبي في موضع نصب مفعول به و لما حذَّر تعالى من الطُّغْيَانِ و تَوَعَّد عليه بحلول غضبه على الطَّاغِي فتَح باب الرِّجَاء للتائبين النَّادِمِينَ و أتى بصيغة المبالغة فقال:

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى

الغفر في اللغة السَّتر و فيه قيل لجنة الرأس مغفر، ثم أن الألفاظ المشتقة من المغفرة في حقَّ الله تعالى ثلاثة:

أحدها الغافر:

قال الله تعالى: **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ** ^(١).

ثانيها الغفور:

قال الله تعالى: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ^(١).

قال الله تعالى: وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ^(٢).

قال الله تعالى: نَبِيٌّ عَبْدِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(٣) و هكذا غيرها من الآيات.

ثالثها الغفار:

قال الله تعالى: أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا^(٤).

قال الله تعالى: وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَزِيرِ الْغَفَّارِ^(٥).

قال الله تعالى: رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْغَزِيرُ الْغَفَّارُ^(٦).

قال الله تعالى: فَقُلْتُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا^(٧).

و هكذا فقد ثبت أن هذه الأسماء بنص الكتاب ثلاثة قال بعضهم أن العبد أيضاً له أسماء ثلاثة مشتقة من المعصية.

أحدها الظالم:

قال الله تعالى: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ^(٨).

ثانيها الظلوم:

قال الله تعالى: إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا^(٩).

ثالثها: الظلام:

قال الله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ^(١٠).

و من أسرف في المعصية كان ظلاماً فكأن الله تعالى قال عبدي لك ثلاثة أسماء في الظلم بالمعصية ولي ثلاثة أسماء في الرحمة بالمغفرة فأن كنت

في آيات القرآن في تفسير

جزء ١٦

العبد العاصي

١- الكهف = ٥٨

٢- البروج = ١٤

٣- الحجر = ٤٩

٤- نوح = ١٠

٥- غافر = ٤٢

٦- ص = ٦٦

٧- فاطر = ٣٢

٨- نوح = ١٠

٩- الأحراب = ٧٢

١٠- الزمر = ٥٣

ظالمًا فأنا غافر، وأن كنت ظلومًا فأنا غفورٌ وإن كنت ظالمًا فأنا غفارٌ أن صفاتك متناهية و صفاتي غير متناهية كما يليق بي و غير المتناهي يغلب المتناهي فلا تكن من القانطين وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ^(١) إنتهى كلامه.

وإعلم أن الغفور أبلغ من الغافر لأن هذا البناء للمبالغة و الغفار أبلغ من الغفور لأنه للتكثير و معناه أنه يغفر الذنب بعد الذنب أبدًا و لرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فنقول:

قوله: وَ إِيَّيَ لَعَفَّارٍ لِمَنْ ثَابَ قَالَ ابن عباس من الشُّرك، و أمن، أي وَّحد الله، و عمل صالحًا، أي أدَّى الفرائض، ثم إهتدى، أي لزم الهداية و أدامها إلى الموافاة على الإسلام، و قيل معناه لم يشك في إيمانه، و قيل ثم إستقام معناه ثم حفظ معتقداته من أن يخالف الحق في شيء من الأشياء فأن الإهتداء على هذا الوجه غير الإيمان و غير العمل.

و قال صاحب الكشف الإهتداء الإستقامة و الثبات على الهدى المذكور و هو التوبة و الإيمان و العمل الصالح و نحوه: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا^(٢) و كلمة التآخي دلّت على تباين المنزلتين أعني منزلة الإستقامة على الخبر بيانية لمنزلة الخبر نفسه لأنها أعلى منه و أفضل إنتهى.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه من حيث الألفاظ فأن التوبة و الإيمان و العمل الصالح قد مرّ الكلام في كلّ واحد منها غير مرّة و قلنا سابقاً أن ذكر العمل الصالح بعد الإيمان دليل على أن الإيمان في تحققه مشروط به فمن لا عمل له لا إيمان له و هو ظاهر أنما الكلام في قوله: ثُمَّ أَهْتَدَى بعد التوبة و الإيمان و أنه تعالى لم يقل و إهتدى أو فإهتدى بل قال: ثُمَّ أَهْتَدَى المعلوم أن كلمة، ثم، تفيد التراخي و لذلك تراهم حيارى في فهم الكلام و كلّ واحد منهم يقول في معنى المراد منه من عند نفسه على أساس تخيله و توهمه و لا سيما رئيس المفسرين و علماتهم أعني به صاحب الكشف فأن مفسري العامة يأخذون

الألفاظ بعضهم من بعض من غير تعمقٍ و تدبرٍ فيها و ليت شعري ما الذي دعا الرّمخشري على أن يفسر الإهتداء بالإستقامة و الثّبات على الهدى مع عدم مساعدة اللّغة عليه ولو كان المراد بالإهتداء ما قال الرّمخشري لقال ثمّ إستقام على الهدى و حيث لم يقل ذلك علمنا أنّ الإهتداء غير الإستقامة و الثّبات على الهدى إذا عرفت هذا فنقول:

معنى قوله: **ثُمَّ أَهْتَدَى**، أي إهتدى بعد التّوبة و الإيمان إلى ولاية أولياء الله الذين أوجب الله طاعتهم و الإنقياد لأمرهم ففيه إشارة إلى أنّ الإيمان و العمل الصّالح لا يكفي إلّا بالولاية أي ولاية أهل بيت النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما ورد في الأخبار الواردة من طريق العامة و الخاصّة.

أمّا العامّة:

فقد روى الحافظ الحسكاني في كتابه المسمّى بشواهد التنزيل في هذه الآية بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **ثُمَّ أَهْتَدَى** قال عليه السلام: إلى و لايتنا أهل البيت إنتهى.

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى** قال عليه السلام: إلى و لايتنا أهل البيت إنتهى.

و بأسناده عن عمر بن شاعر البصري عن ثابت البناني في قوله: **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى** قال: إلى ولاية أهل البيت إنتهى.

و بأسناده عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جدّه قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذات يوم فقال أنّ الله تعالى يقول: **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى** ثمّ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لعليّ بن أبي طالب إلى و لايتك إنتهى.

و بأسناده عن زيد بن أسلم عن أبيه عن جدّه عن أبي ذرّ في قول
 الله تعالى: **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ** قال: لمن أمن بما جاء به محمّد ﷺ و
 أدّى الفرائض ثمّ إهتدى قال إهتدى إلى حبّ آل محمّد ﷺ
 إنتهى^(١).

و أمّا الخاصّة:

و أمّا الأخبار من طريق الخاصّة فكثيرة جدّاً مضافاً الى أنّ الموضوع عندهم
 من المسلّمات و أنّه لا يقبل الله عمل العبد إلا بولاية أمير المؤمنين والأئمة
 المعصومين و مع ذلك نشر الى شطرٍ منها تيمناً و تبركاً.

فنقول في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: **أَنَّ**
اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الْوَفَاءَ
بِالشُّرُوطِ وَ الْعَهْدِ فَمَنْ وَفَى لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَرْطِهِ وَ اسْتَعْمَلَ مَا
وَصَفَ فِي عَهْدِهِ نَالَ مَا عِنْدَهُ وَ اسْتَكْمَلَ وَ عَدَهُ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ
تَعَالَى أَخْبَرَ الْعِبَادَ بِطَرِيقِ الْهُدَى وَ شَرَعَ لَهُمْ فِيهَا الْمَنَارَ وَ أَخْبَرَهُمْ
كَيْفَ يَسْلُكُونَ فَقَالَ: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ أَهْتَدَى وَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُ
لَقِيَ اللَّهَ مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ إِنْتَهَى.

عليّ ابن إبراهيم بأسناده عن سدير قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام و هو
 داخلٌ و أنا خارجٌ و أخذ بيدي ثمّ إستقبل البيت فقال يا سدير أنما
 أمر النَّاسُ أَنْ يَأْتُوا هَذِهِ الْأَحْجَارَ فَيَطُوفُوا بِهَا ثُمَّ يَأْتُونَا فَيَعْلَمُونَا
 وَ لَا يَتَّهِمُونَا وَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ**
صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى ثمّ بيده الى صدره، الى ولايتنا و الحديث طويل.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

العبد العادي عشر

و في تفسير علي بن إبراهيم في قوله: لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى قَالَ عليه السلام: الى الولاية إنتهى.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى قَالَ عليه السلام: ألا ترى كيف إشتراط ولم ينفع التوبة و الإيمان و العمل الصالح حتى إهتدى و الله لو جهد أن يعمل ما قبل منه حتى يهتدي، قل قلت الى من، قال عليه السلام الينا إنتهى.

و في أمالي الصدوق بأسناده الى النبي، الحديث طويل، وفيه يقول لعلي عليه السلام و لقد ضلّ من ضلّ عنك و لن يهتدي الى الله من لم يهتد اليك و الى ولايتك و هو قول ربي وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى يعني إلى ولايته إنتهى.

و في كتاب المناقب لابن شهر آشوب بأسناده عن ابى الصباح الكنانى عن الصادق و عن أبي حمزة عن السّجاد عليه السلام في قوله: ثُمَّ أَهْتَدَى إِلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إنتهى.^(١) فقد إنّضح الأمر بحمد الله.

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى

قيل كانت المواعدة أن يوافي هو و قومه فلما نهض موسى ببني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل و الآجل رأى على وجه الإجتهد أن يقدم وعده مبادراً إلى أمر الله و حرصاً على القرب منه و شوقاً إلى مناجاته فليستخلف هارون على بني إسرائيل و قال لهم موسى تسيرون إلى جانب الطور فلما إنتهى موسى إلى الطور و ناجى ربه زاده في الأجل عشرأ و حينئذ وقفه على يستعجاله دون القوم ليخبره موسى أنهم على الأثر فيقع الإعلام له بما صنعوا و، ما، في قوله ما أعجلك إستفهامية أي أي شيء عجّل بك عنهم فقال موسى في الجواب كما حكى الله عنه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَىٰ أَثَرِيَّ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ

قرأ الجمهور على أثري بفتح الهمزة والناء وعليها المصاحف وحكى الكسائي، أثري، بضم الهمزة وسكون الناء وقرأ عيسى ويعقوب وزيد بن علي أثري بكسر الهمزة والناء وأولاء، بالمد والهمزة بالإتفاق، أي قال موسى هم أولاء، أتى بإسم الإشارة لقربهم منه أجاب مشيراً إليهم أنهم على أثره جاءوا للموعد وذلك على ما كان عهد إليهم أن يجيئوا للموعد ثم ذكر السبب الذي حمله على العجلة وهو طلبه رضا الله تعالى في السبق إلى ما وعده ربّه و معنى، إليك، أي إلى مكان وعدك ولتَرْضَى أي ليدوم رضاك ويستمر لأنه تعالى كان عنه راضياً.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ

أصل الفتن إدخال الذّهب النّار لتطهر جودته من رداءته وأستعمل في إدخال الإنسان النّار أيضاً قال الله تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ^(١) و تارة يُستعمل في الاختبار كقوله تعالى: وَ فَتَنَّاكَ فَتُونًا^(٢) و ما نحن فيه من هذا القبيل والمعنى أنا إختبرنا قومك من بعدك وأضلهم السامري، وقوله: مِنْ بَعْدِكَ أي من بعد فراقك لهم.

قال الزّمخشري أراد الله بالقوم المفتونين الذين خلفهم موسى مع هارون و كانوا ست مائة ألف ما نجى من عبادة العجل إلا اثني عشر ألفاً.

فإن قلت في القصّة أنهم أقاموا بعد مفارقة موسى عشرين ليلة و حسبوا أربعين مع أيامها و قالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك فكيف التوفيق بين هذا و بين قوله لموسى عند مقدمه أَنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ: قلت قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترتبة بلفظ الموجودة الكائنة على

عادته وافتراض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غبب إنطلاقه و أخذ في تدبير ذلك فكان بدأ الفتنة موجوداً إنتهى.

و قرأ الجمهور، و أضلَّهُم فعلاً ماضياً، و قرأ أبو معاذ و فرقة أخرى، و أَضْلَهُمْ بِضَمِّ اللَّامِ مبتدأ و السامري خبره و على هذا فمعنى الآية أَنَا قد إختبرنا قومك بعدك و أضلَّهُم، أي أضلَّ القوم السامري، و ذلك لأنَّ السامري كان داخلاً في المفتونين و حاصل الكلام كان السامري أشدَّهم ضللاً، لأنَّه كان ضالاً في نفسه مضلاً لغيره.

و أما على قراءة المشهور فالمعنى أَنَا إختبرنا قومك فأضلَّهُم السامري فأسند الضلال إلى السامري لأنَّه كان السبب فيه، و السامري قيل إسمه موسى بن ظفر و قيل منجا و هو ابن خالة موسى أو ابن عمه أو كان من أعظم بني إسرائيل على إختلاف الأقوال فيه ولو كان من قبيلة تعرف بالسامرة أو علع من كرمان أو من باجرما أو من اليهود أو من القبط هكذا قيل قالوا أَنه أمن بموسى و خرج معه و كان جاره وقع في مصر فدخل في بني إسرائيل بظاهره و كان من عبّاد البقر و لذلك كان في قلبه عبادة البقر و أمّا أمن بموسى ظاهراً و كان سبب ذلك أَنَّ موسى لمّا وعده الله تعالى أن ينزل عليه التّوراة و الألواح الى ثلاثين يوماً، كما قال تعالى: **وَاعْزِزْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً** ^(١) أخبر موسى بني إسرائيل بذلك و ذهب إلى الميقات و خلّف أخاه هارون على قومه فلمّا جاء الثّلاثون يوماً و لم يرجع موسى إليهم عصوا و أرادوا أن يقتلوا هارون قالوا أَنَّ موسى كذب و هرب منّا فجاءهم إبليس في صورة رجل فقال لهم أَنَّ موسى قد هرب منكم و لا يرجع إليكم أبداً فأجمعوا لي حليكم حتّى أتخذ لكم إلهاً تعبّدونه و كان السامري على مقدّمة قوم موسى يوم أغرق الله فرعون و أصحابه فنظر إلى جبرئيل و كان على حيوانٍ في صورة رمكة، (الرّمكة) الفرس تتخذ للنّسل، و كانت كلّما وضعت حافرهما على موضع من الأرض تُحرك ذلك

الموضع فنظر إليه السّامري و كان من خيار أصحاب موسى فأخذ التّراب من حافر رمكة جبرئيل و كان يتحرّك فصرّه في صرّة و كان عند يفتخر به على بني إسرائيل فلمّا جاءهم إبليس و اتّخذوا العجل قال للسّامري هات التّراب الّذي معك فجاء به السّامري فألقاه في جوف العجل فلمّا وقع التّراب في جوفه تحرّك و خار و نبت عليه الوبر و الشّعر فسجد له بنو إسرائيل عدد الّذين سجدوا له سبعين ألفاً منهم فقال لهم هارون كما حكى الله عنه: **يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي** ^(١).

و سيأتي الكلام فيها فهموا بهارون فهرب منهم و بقوا في ذلك حتّى تمّ ميقات موسى أربعين ليلة فلمّا كان يوم عشرة من ذي الحجّة أنزل الله علم الألواح فيها التّوراة و ما يحتاج اليه من أحكام السّير و القصص فأوحى الله الى موسى أنّا قد فتّنا قومك من بعدك و أضلّهم السّامري، و عبدوا العجل وله خوار، فقال **عليه السلام** يا ربّ العجل من السّامري، فالخوار ممّن، فقال منّي إنّني لما رأيتهم قد ولّوا عني الى العجل أحببت أن أزيدهم فتنة.



فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٥) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٦) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمُ وَالْإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٧) أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٨) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَاطِيعُوا أَمْرِي (٨٩) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩٠) قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩١) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٢) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٣) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٤) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّكْتُ لِي نَفْسِي (٩٥) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا

لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٦) إِنَّمَا
 إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ
 عِلْمًا (٩٧) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ
 سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٨) مَنْ أَعْرَضَ
 عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا (٩٩) خَالِدِينَ
 فِيهِ وَ سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (١٠٠) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي
 الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا حِمْلًا
 (١٠١) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٢)
 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً
 إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٣)

◀ اللغة

غَضَبَانِ أَسْفًا: الغضب ضد الرضا والأسف شدة الغضب وقد يكون

بمعنى الحزن.

بِمَلَكُنَا: أي بطاقتنا.

أَوْزَارًا: الأوزار الأثقال.

فَقَذَفْنَاهَا: القذف الطرح.

خُورًا: الخور الصوت الشديد كصوت البقرة.

فُتِنْتُمْ: أي إختبرتم.

نَبْرَحَ: أي لن نذهب.

عَاكِفِينَ: والعكوف اللزوم.

وَلَمْ تَرْقُبْ: أي لم تحفظ.

خَطْبُكَ: أي شأنك وأصل الخطب الجليل من الأمر.

لَنَنْسِفَنَّهُ: يقال نسف فلان الطعام بالمنسف إذا رآه يشطر عنه قشوره.
وَزُرًّا: الوزر بكسر الواو الإثم.
زُرْقًا: أي عميًّا، وقيل أزرق عيونهم من العطش.

الإعراب

بِمَلَكِنَا بِكسر الميم وفتحها وضمُّها والجميع مصدر بمعنى القدرة
فَكَذَلِكَ صفة لمصدر محذوف أي إلقاء مثل ذلك أَلَّا يَرْجِعُ أن مخففة عن
الثقيلة و (لا) كالعوض عن اسمها المحذوف أَلَّا تَتَّبِعِنِ، قيل، لا زائدة، مثل
قوله ما منعك أن لا تسجد فَقَبِضْتُ بالضاد بملا الكف والضاد بأطراف الأصابع
و قد قرئ به قَبْضَةً فصدر بالضاد والضاد لا مساس يقرأ بكسر الميم وفتح السين و
هو مصدر، ماسة و يقرأ بفتح الميم وكسر السين وهو للفعل أي لا تمسني ظَلَّتْ
بفتح الظاء وكسرها وهما.

لعتان والأصل ظلت بكسر اللام الأولى فحذفت و نقلت كسرتها الى الظاء و
من فتح لم ينتقل لَنَنْسِفَنَّهُ بكسر السين و ضمُّها وهما لعتان قد قرأ بهما عِلْمًا
تميز كَذَلِكَ صفة لمصدر محذوف أي قصصنا كذلك خَالِدِينَ حال من
الضمير في يحمل زُرْقًا حال يَتَخَفَتُونَ حال أخرى بدل من الأولى أو حال من
الضمير في زرقاً إِنْ لِبِشْمٍ إِنْ نافية

التفسير

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا

و ذلك بعد ما إستوفى الأربعين أي رجع موسى من الطور بعد سماعه قوله
تعالى: قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّامِرِيُّ^(١) غَضْبَانَ أي حال
كونه غضبان على قومه ممَّا فعلوا من عبادتهم العجل و قوله أسفًا، صفة

في القرآن: في تفسير القرآن



المجلد العاشر عشر

لغضبان و هو أي الأسف أشدّ الغضب و إنتصب غضبان أسفاً على الحال و قيل الأسف الحزن قيل كان غضبه من حيث له قدرة على تغيير منكرهم و أسفه و حزنه من حيث علم أنّه موضع عقوبة.

قال ابن عطية الأسف في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب و متى كان من الأضعف على الأقوى فهو حزن وكيف كان لما رجع موسى الى قومه كان يوبخهم على إضلالهم و لذلك قال لهم يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدْآً حَسَنًا و الوعد الحسن ما وعدهم من الوصول الى جانب الطور الأيمن و ما بعد ذلك من الفتوح في الأرض و المغفرة لمن تاب و امن و غير ذلك ممّا وعد الله أهل طاعته.

و قال الزمخشري وعدهم الله بعد ما إستوفى الأربعين أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى و نور و لا وعد أحسن من ذلك و أجمل، و قال الحسن الوعد الحسن الجنة و قيل أن يسمعهم كلامه و العهد الزمان يريد مفارقتهم لهم يقال طال عهدي بكذا أي حال زماني بسبب مفارقتك و عدوه أن يقيموا على أمره و ما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا مواعده بعبادتهم العجل و إنتصب وعداً على المصدر و المفعول الثاني ليعدكم محذوف أو أطلق الوعد و يراد به الموعود فيكون هو المفعول الثاني، و الحق أنّ المراد بالوعد الحسن هو أنّ الله تعالى كان وعد موسى بالنجاة من عدوهم و مجيئهم إلى جانب الطور الأيمن و أنّه تعالى غفارٌ لمن تاب و أمن و عمل صالحاً ثم إهتدى.

في القرآن في تفسير القرآن



العهد الحادي عشر

أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي

قيل في قوله: أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ إلى آخره توقيف على أذار لم تكن و لا تصحّ لهم و هو طول العهد حتّى يتبين لهم خلّف في الموعد و إرادة حلول غضب الله و ذلك كلّه لم يكن، إذ لم يطل العهد ولم يريدوا غضب الله قطعاً و

على هذا لا وجه لخلف الموعد ولا عذر لهم في ذلك إلا متابعة الشيطان و قيل المعنى، أفضال عليكم العهد ولقائي فنسيتموه أم أردتم أن يحلّ عليكم أي يجب عليكم، غضب، أي عقاب من ربكم فأخلفتم موعدى أي أخلفتم ما وعدتموني من المقام على الطاعات.

و قال الحسن ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، في الآخرة على التمسك بدينه في الدنيا وقيل الذي وعدهم الله به التوراة وفيها الثور والهدى ليعلموا بما فيها ويستحقوا عليه الثواب وكانوا وعدوه أن يقيموا على أمرهم فأخلفوا ثم أنهم أجابوا فقالوا.

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ تَفَنِيهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ

أي أنهم قالوا في جواب موسى ما أخلفنا موعدك بملكنا أي بطاعتنا. قال بعض المفسرين أي قال المؤمنون أن نرد عن ذلك السفهاء وقال ابن زيد معناه لم نملك أنفسنا للبلية التي وقعت بنا، فمن فتح الميم أراد المصدر ومن كسرهما أراد ما يتملك ومن ضمّ أراد السلطان والقوة به وقد قرئ بالوجه الثلاثة والظاهر أنها لغات فيه والمعنى واحد وقال الرّمخشري أي ما خلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا و ضلينا و رأينا لما أخلفناه ولكن غلبنا من جبهة السامري وكيدة إنتهى.

و نقل القرطبي في تفسيره عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، بملكنا، بكسر الميم قال وإختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأنها اللّغة العالية وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف كأنه قال بملكنا الصواب بل أخطأنا فهو إعتراف منهم بالخطأ إنتهى كلامه.

أَقُول قوله: **قَالُوا** عام يراد به الخاص أي قال الذين تَبَّعُوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطُور، ما أخلفنا موعدك، وكانوا أثنى عشر ألفاً جميع

بني إسرائيل ست مائة ألف وقوله: **وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ**، بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بفتح الحرفين خفيفة وإختار أبو عبيد وأبو حاتم لأنهم حملوا على القوم معهم حملوها كرهاً، أوزاراً، أي أثقالاً من زينة القوم أي من حلّهم وكانوا يستعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام وقيل هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل وسميت أوزاراً بسبب أنها كانت أثاماً أي لم يحلّ لهم أخذها ولم تحلّ لهم الغنائم وأيضاً فالأوزار هي الأثقال في اللغة وقال بعض المفسرين المراد بالصوم هنا القبط وأنهم كانوا يستعاروها في القبط برسم التزين وقيل أمرهم بالإستعارة موسى عليه السلام وقيل أمر الله موسى به وقيل الأوزار التي هي الأثام من جهة أنهم لم يردوها إلى أصحابها ومعنى أنهم حملوا الأثام وقذفوها على ظهورهم كما جازهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وقوله فقذفناها فكذلك ألقى السامري، فالقذف الرمي، أي ثقل علينا حمل معنا من الحلّي فقذفناها في النار ليزوب أي طرحناه فيها وقيل طرحناه إلى السامري لترجع فترى فيها رأيك، وقيل أي قذفناها على أنفسنا وأولادنا، والحق أنهم قذفوا الحلّي في النار وكان أشار عليهم بذلك السامري فحفرت حفرة وسجرت فيها النار وقذف كلّ من معه شيء ما عنده من ذلك في النار وقذف السامري أيضاً ما معه فيها، فقله: **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ** أي مثل قذفنا إياها ألقى السامري ما كان معه وظاهر هذه الألفاظ أن العجل لم يصنعه السامري، وقال الزمخشري في قوله: **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ**، أنه أراهم أنه يلقي حلّياً في يده مثل ما ألقوا وأتما ألقى التربة التي أخذها من موطي حيزوم فرس جبرئيل عليه السلام أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتاً صار حيواناً فأخرج لهم السامري من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحلّي التي سبكتها النار تخور كخور العجاجيل والمراد بقوله أنا قد فتّنا قومك هو خلق العجل

لِلإِمْتِحَانِ أَيِ إِمْتِحَانِهِمْ بِخَلْقِ الْعَجَلِ وَ حَمَلِهِمُ السَّامِرِي عَلَى الضَّلَالِ وَ أَوْقَعَهُمْ فِيهِ حِينَ قَالَ لَهُمْ هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَهُ مُوسَى إِنْتَهَى.

وَ قَالَ الْآخَرُونَ أَنَّ السَّامِرِي قَالَ لَهُمْ حِينَ اسْتَبْطَأَ الْقَوْمُ مُوسَى أَنَّمَا إِحْتَبَسَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَجْلِ مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْحَلِيِّ فَجَمَعُوهُ وَ دَفَعُوهُ إِلَى السَّامِرِي فَرَمَى بِهِ فِي النَّارِ وَ صَاغَ لَهُمْ مِنْهُ عَجَلًا ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ جَبْرِئِيلِ وَ قَالَ مَعْمَرُ الْفَرَسِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَبْرِئِيلُ هُوَ الْحَيَاةُ فَلَمَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِ الْقَبْضَةُ صَارَ عَجَلًا حَسَدًا لَهُ خَوَارِ وَ الْخَوَارِ صَوْتُ الْبَقْرِ.

وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمَّا انْسَبَكَ الْحَلِيُّ فِي النَّارِ جَاءَ السَّامِرِي وَ قَالَ لَهُارُونَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَلْقِيَ مَا فِي يَدِي وَ هُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ كَبْعُضُ مَا جَاءَ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْحَلِيِّ فَغَذَفَ التَّرَابَ فِيهِ وَ قَالَ كُنْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارِ فَكَانَ كَمَا قَالَ لِلْبَلَاءِ وَ الْفِتْنَةِ فَخَارُ خَوْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَتَّبِعْهَا مِثْلُهَا وَ قِيلَ خَوَارُهُ وَ صَوْتُهُ كَانَ بِالرَّيْحِ لِأَنَّهُ كَانَ عَمَلٌ فِيهِ خَرُوقًا فَإِذَا دَخَلَتِ الرَّيْحُ فِي جَوْفِهِ خَارَ وَ لَمْ تَكُنْ فِيهِ حَيَاةٌ وَ هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ.

وَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ كَانَ عَجَلًا مِنْ لَحْمٍ وَ دَمٍ وَ هُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَ قَتَادَةَ وَ السُّدِّيِّ.

وَ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ، مَرَّ هَارُونَ بِالسَّامِرِي وَ هُوَ يَصْنَعُ الْعَجَلَ فَقَالَ مَا هَذَا قَالَ يَنْفَعُ وَ لَا يَضُرُّ فَقَالَ لَهُمْ أَعْطَهُ مَا سَأَلْتُكَ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ أَنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ يَخُورَ وَ كَانَ إِذَا خَارَ سَجَدُوا وَ كَانَ الْخَوَارِ مِنْ أَجْلِ دَعْوَةِ هَارُونَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ خَارَ كَمَا يَخُورُ الْحَيُّ مِنَ الْعَجُولِ.

رَوَى أَنَّ مُوسَى قَالَ يَا رَبِّ هَذَا السَّامِرِي أَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارِ مِنْ حَلِيِّهِمْ فَمَنْ جَعَلَ الْجَسَدَ وَ الْخَوَارِ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى، أَنَا، قَالَ مُوسَى وَ عَزَّتْكَ وَ جَلَّالُكَ وَارْتِفَاعُكَ وَ عُلُوكُ وَ سُلْطَانُكَ مَا أَضْلَلَهُمْ غَيْرُكَ قَالَ صَدَقْتَ يَا حَكِيمَ الْحُكَمَاءِ.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ
 أَي لَمَّا أَخْرَجَ السَّامِرِيُّ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ عَلَى مَا مَرَّ بَيَانُهُ قَالَ هُوَ وَ
 أَتْبَاعُهُ الَّذِينَ كَانُوا قَائِلِينَ بِالتَّشْبِيهِ، إِذْ قَالُوا اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَ قَبْلَ
 الضَّمِيرِ فِي، فَقَالُوا، عَائِدٌ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَي ضَلُّوا حِينَ قَالَ كِبَارُهُمْ
 لَصُغَارِهِمْ، وَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: فَنَسِيَ قِيلَ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى السَّامِرِيِّ أَي فَنَسِيَ
 إِسْلَامَهُ أَوْ فَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ.

وَ قِيلَ عَائِدٌ عَلَى مُوسَى أَي فَنَسِيَ مُوسَى أَنْ يَذْكُرَ لَكُمْ أَنَّ هَذَا إِلَهُكُمْ أَوْ
 فَنَسِيَ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ، أَوْ فَنَسِيَ مُوسَى إِلَهَهُ عِنْدَكُمْ وَ خَالَفَهُ فِي طَرِيقٍ آخَرَ وَ
 عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ يَكُونُ قَوْلُهُ: فَنَسِيَ مِنْ كَلَامِ السَّامِرِيِّ.

أَقُولُ قَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ وَ كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا وَعَدَهُ
 اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةُ وَ الْأَلْوَحُ إِلَى ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَخْبَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِذَلِكَ وَ
 ذَهَبَ إِلَى الْمِيقَاتِ وَ خَلَفَ هَارُونَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمَّا جَاءَتِ الثَّلَاثُونَ يَوْمًا وَلَمْ
 يَرْجِعْ مُوسَى إِلَيْهِمْ غَضِبُوا وَ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوا هَارُونَ قَالُوا أَنَّ مُوسَى كَذَبَنَا وَ
 هَرَبَ مِنَّا فَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ فَقَالَ لَهُمْ أَنَّ مُوسَى قَدْ هَرَبَ مِنْكُمْ وَ
 لَا يَرْجِعُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا فَاجْمَعُوا لِي حَلِيكُمْ حَتَّى أَتُودَّ لَكُمْ إِلَهًا تَعْبُدُونَهُ السَّامِرِيُّ
 عَلَى مَقْدَمَةِ مُوسَى يَوْمَ أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَ أَصْحَابَهُ فَنَظَرَ إِلَى جِبْرِئِيلَ عَلَى
 حَيَوَانٍ فِي صُورَةِ رَمَكَةٍ فَكَانَتْ كُلَّمَا وَضَعَتْ حَافِرَهَا عَلَى مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ
 تَحْرُكُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّ وَ كَانَ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ مُوسَى فَأَخَذَ
 التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ حَافِرِ رَمَكَةِ جِبْرِئِيلَ وَ كَانَ يَتَحَرَّكُ فَصَّرَهُ فِي صِرَّةٍ وَ كَانَ عِنْدَهُ
 يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ إِبْلِيسُ وَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ قَالَ لِلْسَّامِرِيِّ
 هَاتِ التُّرَابَ الَّذِي مَعَكَ فَجَاءَ بِهِ السَّامِرِيُّ فَأَلْقَاهُ إِبْلِيسُ فِي جُوفِ الْعِجْلِ فَلَمَّا
 وَقَعَ التُّرَابُ فِي جُوفِهِ تَحَرَّكَ وَ فَارَ وَ بَنَتْ عَلَيْهِ الْوَبَرُ وَ الشَّعْرُ فَسَجَدَ لَهُ بَنُو
 إِسْرَائِيلَ وَ كَانَ عِدَدُ الَّذِينَ سَجَدُوا سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنْتَهَى مَوْضِعُ
 الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى فسادَ إعتقادهم و قال:

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا

قيل أن المراد بالرؤية رؤية البصر رؤية القلب فعلى الأول يكون الإستفهام للإنكار و على الثاني للتوبيخ، و المعنى أفلا يرون إتباع السامري أن العجل لا يكلمهم و لا يملك لهم نفعاً و لا ضرراً و إذا كان كذلك فكيف يعبدونه و هذا كقول إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر و الحق أن الرؤية هنا بمعنى العلم و لذلك جاء بعدها المخففة من الثقلية كما جاء ألم يروا أنه لا يكلمهم و قرأ أبو حية، أن لا يرجع بنصب العين، و المقصود أن الإله هو الذي يضّر و ينفع و يعطي و يمنع كالذي يعبد موسى و قوله: **أَلَّا يَرْجِعُ** تقديره فلذلك إرتفع الفعل فخففت أن، و حذف، الضمير و هو المختار في الرؤية و العلم و الظن.

قال الشاعر:

في فتنه من سيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى و ينتعل
و قد يحذف مع التشديد أيضاً كقوله:
فلو كنت جنياً عرفت قرابتي و لكن زنجي عظيم المشافر
أي ولكنك.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي

أخبر الله عز وجل أن هارون قد كان قال لهم في أول حال العجل إنما هي فتنة و بلاء و تمويه من السامري و إنما ربكم الرحمن الذي له القدرة و العلم و الخلق و الإختراع فأتبعوني الى الطور الذي واعدكم الله إليه و أطيعوا أمري فيما ذكرته لكم و ما على الرسول إلا البلاغ لكنهم لم يسمعوا قوله ولم.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

يطيعوه بل خالفوه، و الضَّمير في (به) عائد على العجل زجرهم هارون عن الباطل أولاً بقوله: إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ثُمَّ نَبَّهْهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ بقوله: إِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ الْخُفْيُ و إِنَّمَا ذكر وصف الرِّحمة حيث قال: إِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ، ولم يقل و أَنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ مثلاً تنبيهاً على أَنَّهُمْ متى تابوا و رجعوا عما كانوا عليه من عبادة العجل شملتهم الرِّحمة الإلهية لأنَّ رحمته وسعت كلَّ شيءٍ و مع ذلك هي سبقت غضبه، و فيه أيضاً تذكيرٌ من تخليصهم و نجاتهم من فرعون قبل أن يوجد العجل ثمَّ أمرهم بإتباعهم تنبيهاً على أَنَّهُ مفترض الطاعة في زمان غيبة موسى بأمرٍ من الله و رسوله و قرأت فرقة، إِنَّمَا و أَنَّ رَبَّكُمْ، بفتح الهمزتين و تخريج هذه القراءة على لغة سليم حيث يفتحون، أن، بعد القول مطلقاً، و الجمهور على كسر الهمزة فيهما ولما وعظهم هارون و نَبَّهْهُمْ على ما فيه رشدهم إِتَّبَعُوا سَبِيلَ الْغَيِّ كما حكى الله عنهم بقوله:

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى

أي قالوا في جواب هارون حين نهاهم عن عبادة العجل لن نزال لازميين لهذا العجل مقيمين على عبادته حَتَّى يرجع إلينا موسى من الطَّور فننظر ما يقول، والعُكُوف بضم العين و الكاف لزوم الشَّيْء مع القصد إليه على مرور الوقت و منه الإعتكاف في المسجد و غيِّروا ذلك برجوع موسى للدلالة على أن، لن، لا تقتضي التأييد خلافاً للزمخشري إذ لو كان من موضوعها التأييد لما جازت التَّقيَّة، يَجْتَبِي، لأنَّ التَّغْيَةَ لا تكون إلا حيث يكون الشَّيْء محتملاً فيزيل ذلك الإحتمال بالتَّغْيِية و محصل الكلام أَنَّهُمْ عكفوا على عبادة العجل ولم يطيعوا هارون الى أن رجع موسى من التيات فلمَّا جاء موسى و رأى من قومه ما رأى من عبادة العجل قال لأخيه هارون ما حكى الله عنه بقوله:

قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي
 قيل في الكلام حذف و تقديره فرجع موسى و وجدهم عاكفين على عبادة
 العجل فقال يا هارون، و كان ظهور العجل في سادس و ثلاثين يوماً و عبوده و
 جاءهم موسى بعد إستكمال الأربعين فغضب موسى على عدم إتباعه لَمَّا
 رآهم قد ضَلُّوا و، لا، في أن لا، زائدة كما في قوله: مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ، و
 قال بن عيسى، دخلت، (لا) هنا لِأَنَّ المعنى ما دعاكَ الى أَنْ لَا تَتَّبِعَنِي و ما
 حملك على أَنْ لَا تَتَّبِعَنِي بمن معك من المؤمنين أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، يريد قوله
 أَخْلَفَنِي الآية إنتهى.

و عليه فليست بزايدة و قال صاحب الكشَّاف معناه، ما منعك أَنْ تَتَّبِعَنِي
 في الغضب لله و شدَّة الزَّجَر عن الكفر و المعاصي هَلَّا ما قلت من كفر بمن
 آمَن و مالك لم تبأشر الأمر كما كنت أبأشره أنا لو كنت شاهداً أو مالك فلحقنني
 إنتهى.

أقول ما ذكره الزَّمَخْشَرِي لا يستفاد من ألفاظ الآية و أَمَّا قال ما قال من عند
 نفسه و لا سِيَمَا قوله هَلَّا قاتلت من كفر بمن آمن، أَلَمْ يَعْلَمْ موسى أَنَّ من بقى
 على الإيمان كان قليلاً بالنسبة الى من كفر و عبد العجل فكيف أمكن لهم
 القتال مع عبدة العجل.

و الحق في المعنى أَنَّ قوله: أَلَّا تَتَّبِعَنِي حيث لم يذكر متعلِّقه كان الظَّاهر أن
 لا تَتَّبِعَنِي الى جبل الطُّور بني إسرائيل أَلَا ترى أَنَّ هارون إعتذر بقوله: إِنِّي
 خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ. و ذلك لِأَنَّ هارون لو اتَّبَعَ
 موسى مع المؤمنين فَرَّقَ بينهم لا محالة إذ كان لا يتبعه إلا المؤمنون و يبقى
 عبَاد العجل عاكفين عليه كما قالوا لن نبرح عليه عاكفين، و يحتمل أن يكون
 المعنى في تَتَّبِعَنِي، أي تسير بسيري في الإصلاح و التَّسديد و على هذا فيجئ
 إعتذاره أَنَّ الأمر تفاقم فلو تقوَّيت عليه تقاتلوا و إختلفوا فكان تفريقاً بينهم و

أَمَّا لِأَيِّتْ جَهْدِي. وَأَمَّا قَوْلُهُ: أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي. فَصُورَتُهُ صُورَةُ الْإِسْتِفْهَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ التَّقْرِيرُ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ هَارُونَ لَمْ يَعِصِهِ فِي أَمْرِهِ.

قَالَ يَابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَكَمْ تَرْفُثُ قَوْلِي

قِيلَ كَانَ مُوسَى شَدِيدَ الْغَضَبِ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ فَلَمَّا رَجَعَ عَنِ الطُّورِ وَرَأَى قَوْمَهُ عَبَدُوا عَجَلًا مِنْ دُونِ اللَّهِ بَعْدَ مَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ لَمْ يَتِمَالِكْ أَنْ أَقْبَلَ عَلَى أَخِيهِ قَابِضًا عَلَى شَعْرِ رَأْسِهِ وَكَانَ هَارُونَ كَثِيرَ الشَّعْرِ وَعَلَى شَعْرٍ وَجْهَهُ يَجْرُهُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ أَخَذَ مُوسَى بِلِحْيَتِهِ وَرَأْسَهُ وَذَكَرَ فِي التَّبْيَانِ فِي وَجْهِ ذَلِكَ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ عَادَةَ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنَّ الْوَاحِدَ إِذَا خَاطَبَ غَيْرَهُ قَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ كَمَا يَقْبِضُ عَلَى يَدِهِ فِي عَادَتِنَا وَالْعَادَاتُ تَخْتَلِفُ فَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِخْفَافِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ أَجْرَاهُ مَجْرَى نَفْسِهِ إِذَا غَضِبَ، فِي الْقَبْضِ عَلَى لِحْيَتِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ عَلَيْهِ كَمَا لَا يَهْتَمُّ عَلَى نَفْسِهِ إِنْ تَهَيَّأَ.

قَالَ أَيُّ قَالَ هَارُونَ لِمُوسَى لَمَّا أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَرَأْسَهُ، يَا بَنُ أُمَّ بَفَتْحِ الْمِيمِ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عَمْرٍو وَعَاصِمٍ فِي رِوَايَةِ حَفْصٍ وَكَسْرِ الْمِيمِ عَلَى قِرَاءَةِ غَيْرِهِمْ فَمَنْ فَتَحَ الْمِيمَ جَعَلَ ابْنَ أُمَّ، إِسْمًا وَاحِدًا وَبَنَاهُمَا عَلَى الْفَتْحِ مِثْلَ خَمْسَةِ عَشَرَ، إِلَّا أَنَّهَا تَضُمُّنَ مَعْنَى الْوَاوِ وَتَقْدِيرُهُ خَمْسَةُ وَعَشْرَةٌ، وَابْنُ أُمَّ، بِمَعْنَى اللَّامِ وَتَقْدِيرُهُ لِأُمِّي وَكِلَاهُمَا عَلَى تَقْدِيرِ الْإِصْطِلَاقِ بِالْحَرْفِ عَلَى جِهَةِ الْحَذْفِ، وَيَجُوزُ يَابْنَ أُمَّ، عَلَى الْأُضَافَةِ وَلَمْ يَجِئْ هَذَا الْبِنَاءُ إِلَّا فِي يَابْنَ أُمَّ وَ يَابْنَ عَمَّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ يَابْنَ أُمَّاهُ، فَرَّخَمَ، وَمَنْ كَسَرَ الْمِيمَ أَرَادَ يَابْنَ أُمِّي، لِأَنَّ الْعَرَبَ يَقُولُ يَابْنَ أُمَّاهُ بِمَعْنَى يَابْنَ أُمِّي، وَ يَابْنَ أُمَّاهُ بِمَعْنَى يَابْنَ أُمِّي وَ عَلَى هَذَا فَمَنْ كَسَرَ أَرَادَ يَابْنَ أُمِّي، فَحَذْفُ الْيَاءِ وَأَبْقَى الْكُسْرَةَ تَدَلُّ عَلَيْهَا إِنْ تَهَيَّأَ.

ما قاله في التَّيَّان والمعنى قال هارون لموسى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي،
واللَّحْيَةُ بفتح اللّام لغة أهل الحجاز وبكسرهما لغة غيرهم والمشهور على كسر
اللام وعليه المصاحف ولو قلنا أَنَّ القرآن أنزل بلغة أهل الحجاز فالفتح أولى.
ثم قال هارون له إِنِّي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، وذلك لأنَّ
هارون لو فعل ذلك على وجه العنف والإكراه اختلفت كلمتهم وتفرقت
أحزابهم فكان بعضهم يلحقون بموسى مع هارون وبعض آخر يقيمون مع
السَّامري، وبعض آخر يقيمون على الشك في أمره ولا نعني بالاختلاف إلاَّ
هذا وقوله: وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي، من كلام هارون أي إِنِّي خفت أن تقول لم
ترقب قولي، أي لم تحفظ قولي وذلك لأنَّ موسى نهاه عن الاختلاف حين
استخلفه ولمَّا اعتذر له أخوه رجع موسى إلى مخاطبة السَّامري الَّذي أوقع
القوم في الضلال كما حكى الله عنه بقوله: فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ أي ما
شأنك وما دعاك إلى ما صنعت من إضلال القوم وأصل الخطب الجليل من
الأمر فكأنَّه قيل ما هذا الأمر العظيم الَّذي دعاك إلى ما صنعت.

قال ابن عطية لفظه الخطيب تقتضي إنتهاراً لأنَّ الخطب يستعمل في المكاره
فكأنَّه قال ما نحسك وما شؤمك وما هذا الخطب الَّذي جاء من قبلك.
أقول ما ذكره ليس بشيء فإنَّ الخطب يستعمل في المكاره وغيرهما قال الله
تعالى فما خطبكم أيَّها المرسلون، وهو قول إبراهيم لملائكة الله فليس هذا
إنتهاراً ولا شيئاً ممَّا ذكره وقال الزمخشري، خطب مصدر خطب الأمر إذا
طلبه فإذا قيل لمن يفعل شيئاً ما خطبك فمعناه ما طلبك له إنتهى.

ومنه خطبة النكاح وهو طلبه وقيل هو مشتق من الخطاب كأنَّه قال له ما
حملك على أن خاطبت بني إسرائيل بما خاطبت وفعلت معهم ما فعلت و
كيف كان لا شك أنَّ إضلال القوم أمرٌ عظيمٌ فصَحَّ أن يقال له ما خطبك يا
سامري، قيل أنَّه كان من خيار أصحاب موسى وكان عظيماً في بني إسرائيل
من قبيلة يقال لها سامرة ولكن نافق بعد ما قطع البحر مع موسى فلمَّا مرَّت بنو

إسرائيل بالعمالة و هم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فإغتنمها السامري و علم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فأتخذ العجل على ما مرّ بيانه فلما قال له موسى ما قال السامري مجيباً له كما حكى الله تعالى عنه بقوله:

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّكْتُ لِي نَفْسِي

المراد بالرسول هو جبرئيل عليه السلام والمعنى قال السامري في جواب موسى لما قال له ما خطبك يا سامري، بصرت بما لم يبصروا، أي رأيت ما لم يروه، رأيت جبرئيل على فرس الحياة فألقى في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيته على شيء إلا صار له روح و لحم و دم فلما سألوك أن تجعل لهم إلهاً زينّت لي نفسي ذلك، و قيل قال السامري رأيت جبرئيل على الفرس و هي تلقي خطوها مدّ البصر فألقي في نفسي أن أقبض من أثرها ممّا ألقيته على شيء إلا صار له روح و دم.

و قيل رأى جبرئيل نزل على رمكة وديق (وهي الفرس التي تشتهي الفحل) فتقدم خيل فرعون في ورود البحر و يقال أن أم السامري جعلته حين وضعته في غار خوفاً من أن يقتله فرعون فجاء جبرئيل فجعل كف السامري في فم السامري فوضع العسل و اللبن فإختلف إليه فعرفه من حينئذ.

أقول أنظر إلى هذه الأباطيل التي ذكروها في تفاسيرهم و حملوا كلام الله عليها، ثم أنهم إختلفوا في قراءة هذين الحرفين أعني بهما قوله: **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا** فأهل المدينة و البصرة قرأوا بالياء و قرأ قراء الكوفة بالتاء على وجه المخاطبة لموسى فعلى القراءة الأولى معنى الكلام **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرْ بِهِ** بنو إسرائيل و على الثانية معناه بصرت بما لم تبصروا، أنت و أصحابك قال الطبري بعد نقله ما نقلناه عنه ما لفظه.

و القول في ذلك عندي أَنَّهُما قراءتان معروفتان قد قرأ بكل واحدة منها علماء من القراء مع صحّة معنى كلّ واحدة منها وذلك أَنَّهُ جائز أن يكون السّامري رأى جبرئيل فكان عنده ما كان بأن حدّثته نفسه بذلك أو بغير ذلك من الأسباب أن تراب حافر فرسه الذي كان عليه يصلح لما حدث عنه حين نبذه في جوف العجل ولم يكن علم ذلك عند موسى ولا عند أصحابه من بني إسرائيل فلذلك قال لموسى بصرت بما لم تبصروا به أي علمت بما لم تعلموا به و أمّا إذا قرئ بصرت بما لم تبصروا به بالياء فلا معونة فيه لأنّه معلوم أن بني إسرائيل لم يعلموا ما الذي يصلح له ذلك التراب إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره في توجيه القراءة بالتاء لا وجه له بل نقول أَنَّهُ باطلٌ عاطلٌ و ذلك لأنّ موسى كان من أعظم الأنبياء فكيف يعقل أن يكون السّامري أعلم منه ولو كان كذلك فينبغي أن يكون السّامري نبياً لا موسى بقبح تقديم المفعول على الفاعل عقلاً نعم ما ذكره الطّبري صحيحٌ على مسلك القوم حيث جوّزوا تقديم المفضول على الفاضل و لذلك قدّموا أبا بكر و بعده عمر و بعده عثمان و حتّى معاوية على عليّ بن أبي طالب إذ لا قبح عندهم في هذا التّقديم، و على هذا فقراءة التاء لا وجه لها و قراءة الياء هي الأصحّ المصاحف أيضاً فالمخاطب بهذا الكلام في الحقيقة بنو إسرائيل و أمّا موسى فهو خارجٌ عن المراد و المعنى بصرت أي رأيت ما لم يبصروا أي ما لم يروه و هذا ممّا لا إشكال فيه.

و أمّا قوله: **فَقَبِضْتُ قَبْضَةً** فالمشهور على قرائته بالضاد من القبض الأخذ أي فأخذت بكفّي كلّها تراباً من تراب أثر فرس الرّسول و عن الحسن أَنَّهُ قرأها بالضاد، قالوا القبضه عند العرب الأخذ بالكفّ كلّها، و القبضه بالضاد الأخذ بأطراف الأصابع و أنت ترى أن المعنى واحدٌ إذ لا فرق بين الأخذ بالكفّ و الأخذ بأطراف الأصابع إلاّ بالإعتبار، و قوله: **فَنَبَذْتُهَا** أي طرحتها و قد مرّ بيانه و قوله: **وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي**، أي حدّثني نفسي و قيل زيّنت لي نفسي.

بسم الله الرحمن الرحيم
في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

قال الزاغب التَّسْوِيلُ تزيين النَّفْسِ لما تحرص عليه و تصوير القبيح منه بصورة الحسن:

قال الله تعالى: **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً^(١)**.

قال الله تعالى: **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ^(٢)**.

و قد إنَّقَ أهل اللغة على أَنَّ التَّسْوِيلَ هو تزيين النَّفْسِ لما تحرص عليه.

قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا

قال موسى عند ذلك، **فَادْهَبْ**، يا سامري، فَأَنْ لَكَ في الحياة أن تقول لا مساس، وإختلفوا في معناه فقال قومٌ معناه تقول لا أمس و لا أمس و كان موسى أمر بني إسرائيل أن لا يواكلوه و لا يخالطوه يبايعوه.

و قال الجبائي معناه لا مساس لأحدٍ من النَّاسِ لأنه جعل يهيم في البرية مع الوحش و السَّبَاعِ و قوله لا مساس بالكسر و الفتح فأن كسرت فمثل لا رجال فتحت بنيت على الكسر مثل نزال، قال الشاعر:

تميمٌ كرهط السَّامري و قوله ألا لا يريد السَّامري مساساً و كلّه بمعنى المماسّة و المخالطة إنتهى ما ذكره في التَّبيان.

و قيل كان موسى لا يقتل بني إسرائيل إلا في حدٍّ أو وحي فعاقبه بإجتهاد نفسه بأن أبعدته و نحّاه عن النَّاسِ و أمر بني إسرائيل بإجتنابه و إجتناب قبيلته و أن لا يواكلوا و لا يناكحوا و جعل له أن يقول مدّة حياته لا مساس أي لا مماسة مخالطة.

و قال الزَّمَخْشَرِيُّ، عوقب في الدُّنْيَا بقوّةٍ لا شيء أعلم منها و أوحش أنّه منع من مخالطة النَّاسِ منعاً كلياً و حرّم عليهم ملاماته و مكالمته و مبايعته و

مواجهته وكل ما يعيش به الناس بعضهم بعضاً وإذا إتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة حمّ المماس والممسوس فتحامى في الناس و تحافوه و كان يصيح لا مساس و يقال أن قومه باق فيهم ذلك الى اليوم إنتهى.

ثم أن الفاء دخلت للتعقيب أثر المحاورة و طرده بلا مهلة زمانية و أنما عبر بالمماسّة عن المخالطة لأنها أدنى أسباب المخالطة فنسبه بالأدنى على الأعلى و على هذا فالمعنى لا مخالفة بينك و بين الناس ما دمت حياً فنفر السامري من الناس و لزم البرية و بقي مع الوحوش الى أن إستوحش و صار إذا رأى أحداً يقول لا مساس أي لا تمسني و لا أمسك و قيل إبتلى بعذاب قيل له لا مساس بالواسواس و هو الذي عناه الشاعر بقوله:

فأصبح ذلك التسمري إذ قال له موسى لا مساساً

و قيل أن موسى أراد قتله فمنعه الله عنه لأنه كان شيخاً.

و أعلم أن الجمهور قرأوا لا مساس بفتح السين و كسر الميم و مساس مصدر ماس كقتال من، قاتل، و هو منفي بلا التي لنفي الجنس و هو نفي أريد به النهي أي لا تمسني و لا أمسك و قرأ بعضهم بفتح الميم و كسر السين على صورة، نزال، و نظار، من أسماء الأفعال بمعنى أنزل و أنظر، و قوله: **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ** قيل المراد بالموعد القيامة و قرأ الجمهور، تخلفه، بالتاء المضمومة و فتح اللام على معنى لن يقع فيه خلف بل ينجزه لك الله في الآخرة على الشرك و الفساد بعد ما عاقبك في الدنيا.

و قرأ أبي كثير و الأعمش و أبو عمر و بضّم التاء و كسر اللام أي لن تستطيع الروغان عنه و الحيدة فتزول عن موعد العذاب، و قرأ ابن مسعود و الحسن نحلفه بالنون و كسر اللام أي لا ننقص ممّا وعدناك من الزمان شيئاً **وَ أَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا** ثم قال موسى للسامري و أمطر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً، قيل أصله ظلمت، فحذف اللام المكسورة للتخفيف و كراهيته التضعيف و للعرب فيها مذهبان، و

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٦

المجلد العاشر

فتح الظاء وكسرها فممن تركها على حالها ومن كسرها نقل حركة اللام اليها للإشعار بأصلها مثله ومست ومست في مَسَتْ وأنما خاطبه وحده وقال: وَ أَنْظُرْ، ولم يقل وأنظروا إذ لو كان هو رأس الضلال وهو ينظر لقولهم لن نبرح عليه عاكفين واللام في قوله: لَنْحَرِّقَنَّهُ وقوله: لَنْنُسِفَنَّهُ، قيل لام القسم فأقسم موسى لنحرقنه وهو أعظم فساد الصورة ثم للنسفه في اليم وهو البحر حتى تتفرق أجزاءه فلا يجتمع.

قيل أنه حرّقه ثم ذراه في البحر، قيل لما كان قد أخذ السامري القبضة من أثر فرس جبرئيل وهو داخل البحر حاله تقدّم فرعون و تبعه فرعون في الدخول ناسب أن ينسف ذلك العجل الذي صاغه السامري من الحلّي الذي كان أصله للقبط وألقى فيه القبضة في البحر ليكون ذلك تنبيهاً على أن ما كان به قيام الحياة آل الى العدم وألقى في محلّ ما قامت به الحياة وأن أموال القبط قدفها الله في البحر بحيث لا ينتفع بها كما قدف الله أشخاص مالكها في البحر وغرقهم فيه إنتهى.

و فتح الظاء و سكون اللام هو المشهور في قراءة الجمهور و عليه المصاحف و قرأ بعضهم بكسر الظاء و ضمّها كما قرأ بعضهم ظللت بلامين على الأصل و حاصل معنى الكلام أن موسى قال للسامري الذي صنع العجل و جعله معبوداً لهم أن هذا المعبود الذي إتخذته معبوداً و عكفت أنت و من تبعك عليه لنحرقنه بالنار ثم لننسفه في البحر حتى تتفرق أجزائه و فيه إشعار بعدم كونه إلهاً معبوداً إذ لو كان إلهاً لما قدرنا على إحراقه و إعدامه، ثم أن في قوله: لَنْحَرِّقَنَّهُ ثلاث قرأت.

الأولى: لنحرقنه مشدداً مضارع، حرّق مشدداً و على هذا القراءة تكون الحاء في، لنحرقنه، مكسورة.

الثانية: قرأ قتادة و أبو جعفر و الحسن مخففاً، من أحرق رباعياً، و على هذه بقراءة تكون الحاء ساكنة.

الثالثة: فتح النّون من حرق يحرق مخفّفاً و عليها تكون الحاء أيضاً ساكنة و الزّاء في المضارع مضمومة و الظّاهر أنّ حرّق و أحرّق هو بالنّار.

و أمّا القراءة الثالثة فمعناها لنبرّدنه بالمبرّد يقال حرق يحرق بضمّ راء المضارع وكسرها و ذكر أبو عليّ أنّ التّشديد قد يكون مبالغة في، حرق، إذا برد بالمبرّد.

قال السّدي أمر موسى بذبح البقرة فذبحت و سال منه الدّم ثمّ أحرقت و نسفت رمادها إنتهى.

و هو بعيد قال الجمهور أنّ موسى تعجل وحده فوق أمر العجل ثمّ جاء موسى و صنع به ما صنع ثمّ خرج بعد ذلك بالسّبعين على معني الشّفاعاة في ذنب بني إسرائيل و أن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة فكان لموسى عليه السلام نهضتان و قيل أنّ موسى عليه السلام كان مع السّبعين في المناجاة و حينئذٍ وقع أمر العجل و أنّ الله أعلم موسى بذلك فكتمه و جاء بهم حتّى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل فحينئذٍ أعلمهم موسى إنتهى.

و كيف كان لمّا أحرق العجل و فرغ من إبطال ما عمله السّامري عاد إلى بيان دين الحقّ كما حكى الله تعالى عنه بقوله:

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
كلمة، أمّا تفيد الحصر والمعنى أنّ إلهكم منحصر في الله الذي لا إله إلا هو، و هو الواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات إذ قد ثبت أن كلمة، الله، علم على الأصحّ للذّات الواجب الوجود و لا يطلق على غيره و هذا أي قوله: لا إله إلا الله يعبر عنه بكلمة التّوحيد و عليها كان شعار الأنبياء في جميع الأديان فإنّ أوّل الدّين معرفته تعالى: **وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** قرأ الجمهور وسع، مخفّفاً و قرأ مجاهد و قتادة بفتح السّين مشدّدة.

قال الزّمخشري وجهه أنّ، وسع، متعدي إلى مفعول واحد و هو كلّ شيء، و

أَمَّا عِلْمًا فَإِنْ تَصَابَه عَلَى التَّمْيِيزِ وَهُوَ فِي الْمَعْنَى فَاعِلٌ فَلَمَّا ثَقُلَ نَقَلَ إِلَى التَّعْدِيَةِ إِلَى مَفْعُولَيْنِ فَنَصَبَهُمَا مَعًا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ لِأَنَّ الْمُمِيزَ فَاعِلٌ فِي الْمَعْنَى. وَ قَالَ إِبْنُ عَطِيَّةٍ، وَسَّعَ، بِمَعْنَى خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَ كَثَّرَهَا بِالْإِخْتِرَاعِ فَوَسَّعَهَا مَوْجُودَاتِ إِنْتَهَى.

أَقُولُ أَمَّا قَالَ مُوسَى هَذَا الْكَلَامَ فِي هَذَا الْمَقَامِ لَوْجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَعْبُودَ الَّذِي يَسْتَحَقُّ أَنْ يُعْبَدَ هُوَ الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِي الْوُجُودِ مِثْلُهُ فَلَا شَبَهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ فِي ذَاتِهِ وَ صِفَاتِهِ، وَ أَمَّا الْعَجَلُ الَّذِي صَنَعَهُ السَّامِرِيُّ فَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَهًا.

ثَانِيًا: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ لِغَيْرِهِ وَكُلُّ مَخْلُوقٍ لَا يَكُونُ مُنْحَصِرًا لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُ فَهُوَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهَا فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا، وَ فِي قَوْلِهِ: وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا إِنْشَاءً إِلَى أَنَّ الْمَعْبُودَ لَا يَكُونُ جَاعِلًا وَ الْعَجَلُ حَيَوَانٌ لَا عِلْمَ لَهُ فَكَيْفَ يَكُونُ مَعْبُودًا لِلْإِنْسَانِ الْعَالِمِ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مِنْ عِبْدِ الْجَاهِلِ فَهُوَ أَجْهَلُ مِنْهُ وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ذَلِكَ إِنْشَاءً إِلَى نَبَأِ مُوسَى وَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ فِي فِرْعَوْنَ أَيْ كَقَصَصْنَا هَذَا النَّبَأَ الْغَرِيبَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَ هَذَا فِيهِ ذِكْرُ نِعْمَةِ عَظِيمَةٍ الْإِعْلَامِ بِأَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ لِيَتَسَلَّى بِذَلِكَ وَ يَعْلَمَ أَنَّ مَا صَدَرَ مِنَ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ وَ مَا قَاسَتْ الرُّسُلُ مِنْهُمْ لَيْسَ بِقَلِيلٍ وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الذِّكْرَ هُنَا هُوَ الْقُرْآنُ أَتَيْنَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ وَ ذَكَرَ فِيهِ الْأَخْبَارَ وَ الْقِصَصَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرَادِ بِالذِّكْرِ هُوَ الْعِلْمُ، أَيْ أَعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِنَا عِلْمًا بِأَخْبَارِ الْمَاضِيَيْنِ.

أَقُولُ يُمْكِنُ مَجْمَعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِأَخْبَارِ الْمَاضِيَيْنِ قَدْ حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ الْقُرْآنِ فَإِنَّ قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ هُوَ الْقُرْآنُ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ السَّبَبِ وَ أَنَّ قُلْنَا

به العلم فهو من ذكر المسبب وإرادة السبب فمرجع القولين إلى شيء واحد أطلق الذكر على القرآن في كثير من الآيات فحمل الذكر على القرآن أولى:

قال الله تعالى: **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**^(١).

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ**^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**^(٣).

قال الله تعالى: **قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**^(٤).

والآيات كثيرة وأما إرادة العلم من الذكر فلا تكون إلا على ما ذكرناه من ذكر السبب وأرادوا المسبب.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا

أي من أعرض عن القرآن بكونه لم يؤمن به ولم يتبع ما فيه فإنه يحمل يوم القيامة أي عذاباً ثقیلاً فأَنَّ الوزر، بكسر الواو وهو ثقل العذاب.

وقال مجاهد أي إثمًا، وقال الثوري شركًا، والظاهر أنه عبّر عن العقوبة بالوزر لأنه سببها.

إن قلت كيف يكون المعرض عن القرآن حاملاً للوزر يوم القيامة وأية ملازمة بينهما.

قلت لأن المعرض عن القرآن هو في الحقيقة معرض عن الله تعالى ضرورة أنَّ الإعراض عن الكلام هو الإعراض عن المتكلم ومن أعرض عن الله فقد أقبل على الشيطان من حيث لا يحتسب إذ لا واسطة بين الحق والباطل والإقبال إلى الشيطان متابعته وأيُّ إثم أو وزر أشنع وأفظع من متابعته ظاهر.

خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا

أي خالدين في العذاب والعقوبة، وأنما جمع، خالدين و الصّميم في، لهم، حملاً على معنى من، بعد الحمل على لفظها في، أعرض، و في، فأثّه، و المخصوص بالذم محذوف أي وزرهم، و قوله: خَالِدِينَ، نصب على الحال و العامل فيه العذاب الذي تقدّم ذكره من الوزر و المعنى خالدين في عذاب الإنم و قوله: حِمْلًا، نصب على التمييز و فاعل ساء، مضمر و تقديره ساء الحمل حملاً و المعنى ساء لهم يوم القيامة حملاً الوزر فقوله: لَهُمْ للبيان كهي في، هيت لك، لا متعلّقة، بساء، و ساء بمعنى بشس لا بمعنى أحزن و أهمّ، لفساد المعنى.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا

قوله يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ بدل من يوم القيامة، كأنه قيل ما يوم القيامة قال تعالى يوم ينفخ في الصور و النفخ إخراج الرّيح من الجوف بالدفع من الغم فهذا أصله و قد يطلق على إحداث الرّيح من الرّق أو البوق للمشابهة لأنّه كالنفخ المعروف و في الصُّور قولان:

أحدهما: أنّه جميع صورة كلّ حيوانٍ تنفخ فيه الرُّوح فتجري في جسمه و يقوم حيّاً بإذن الله.

والثاني: أنّه قرنٌ ينفخ فيه النفخة الثانية ليقوم النّاس من قبورهم عند تلك النفخة، و المراد به في المقام هو صور إسرائيل لإحياء الأموات.

قال الزّاغب في المفردات قيل هو مثل قرنٍ ينفخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لعود الصُّور و الأرواح إلى أجسامها.

و روي في الخبر أنّ الصُّور فيه صورة النّاس كلّهم و أمّا قوله: وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا، قيل المراد بالزُّرق زرقه العيون و الزُّرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب و العرب تتشأم بالزُّرقة قال الشّاعر:

لقد زرقت عيناك يابن مكعبٍ كما كلّ ضبّيٍّ من اللّؤم زرقُ

ولذلك قيل أن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف و يوم القيامة كذلك بالنسبة إلى الكفار والمعرضين عن الحق.

يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا

أصل الخفت السكون ثم قيل لمن خفض صوته خفته ومعنى، يتخافتون، يتسادون لهول المطلع و شدة ذهاب أذهانهم فقد عذب عنهم قدر المدة التي لبثوا فيها و قوله إن لبثتم إلا عشراً، أي ما أقمتكم في قبوركم إلا عشرة أيام لأن المذكر إذا حذف وأبقى عدده قد لا يأتي بالتاء وقد يأتي بها.

و قد حكى الكسائي عن أبي الجراح صمنا من الشهر خمساً، ومنه ما جاء في الحديث، ثم أتبعه بست من شوال، يريد ستة أيام و حسن الحذف هنا لتناسب الآية قبلها و بعدها.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا

أي و ذكر أعدلهم وأصلحهم طريقة و أوفرهم عقلاً أقل العدد و هو اليوم الواحد و قال ما لبثتم إلا يوماً واحداً و نحن أعلم بما يقولون و أننا يقولون ذلك لشدة ما يرونه يوم القيامة من الهول و الخوف فكأنهم نسوا ما لبثوا في الدنيا أعادنا الله من هول المطلة بمحمد و آله.



وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا
 (١٠٤) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٥) لَا تَرَى فِيهَا
 عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٦) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا
 عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا
 تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ
 إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٨)
 يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
 بِهِ عِلْمًا (١٠٩) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ
 قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١٠) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ
 الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا
 هَضْمًا (١١١) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ
 لَهُمْ ذِكْرًا (١١٢) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا
 تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ
 قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٣) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ
 مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٤) وَإِذْ قُلْنَا
 لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
 (١١٥) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ
 فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٦) إِنَّ لَكَ
 أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٧) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ
 فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٨) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ
 قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ

لَا يَبْلَى (١١٩) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا
وَوَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ
عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢٠) ثُمَّ أَجْتَبِيَهُ رَبُّهُ فَتَابَ
عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢١) قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ
هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ
عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٣) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى
وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٤) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا
فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٥) وَكَذَلِكَ
نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ
لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٦)

◀ اللغة

يَنْسِفُهَا: السَّفَ الإِقْتِلَاعَ وَ الإِزَالَةَ يُقَالُ نَسَفَتِ الرِّيحُ الشَّيْءَ أَيِ إِقْتَلَعَتْهُ وَ
أَزَالَتْهُ وَ السَّافَةُ مَا تَتَوَرَّ مِنْ غَبَارِ الْأَرْضِ.
قَاعًا صَفْصَفًا: القَاعُ قِيلَ هُوَ الْأَرْضُ الْمَلْسَاءُ وَ قِيلَ مُسْتَنْقَعُ الْمَاءِ وَ جَمْعُهُ
أَقْوَاعُ وَ الصَّفْصَفُ الْمَوْضِعُ الْمُسْتَوِي الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ وَ قِيلَ مَا لَا تَرَابَ فِيهِ.
عَوَجًا: أَيِ صَدْعًا.
وَلَا أَمْتًا: أَيِ أَثَرًا وَ قِيلَ أَكْمَةً وَ قِيلَ الْعَوَجُ الْمِيلُ وَ هُوَ مُصْدَرٌّ مَا أَعْوَجَ مِنْ
الْمَجَارِيِّ وَ الْمَسَائِلِ وَ الْأُودِيَةِ وَ الْإِرْتِفَاعِ يَمِينًا وَ شِمَالًا.
خَشَعَتِ: الْخُشُوعُ الْخُضُوعُ.
هَمْسًا: الْهَمْسُ صَوْتُ الْأَقْدَامِ وَ قِيلَ هُوَ إِخْفَاءُ الْكَلَامِ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر

وَعَنْتَ آلُجُوهٍ: أي خضعت وذلّت خضوع الأسير في يد القاهر والعاني الأسير.

وَقَدْ خَابَ: أي خسر.

هَضْمًا: المهضم النقص العزم.

عَزَمًا: الإرادة المتقدمة لتوطين النفس على الفعل.

تَظْمَأُ: أي لا تعطش فأَنَّ الظَّمَاء العطش والظَّمَان العطشان.

وَلَا تَضْحَى: ضحى الرّجل يضحى إذا برز للشمس.

لَا يَبْلَى: أي لا يهلك.

ضَنْكًا: الضَّنك الضيق،

◀ الإعراب

فَاعًا حال و صَفْصَفًا صفة للحال لَا تَرَى مستأنف و يجوز أن يكون حالاً أيضاً أو صفة للحال لَا عِوَجَ لَهُ حال من الداعي أو هو مستأنف على ما قيل إِلَّا مَنْ أَذِنَ مَنْ فِي مَوْضِعٍ نصب بتنفع، و قيل في موضع رفع أي إلا شفاعة من أذن فهو بدل و وَقَدْ خَابَ يجوز أن يكون حالاً و أن يكون مستأنفاً فَلَا يَخَافُ هو جواب الشرط فمن رفع إستأنف و من جزم فعل النهي وَ كَذَلِكَ الكاف نعت لمصدر محذوف أي إنزالاً مثل ذلك يُقْضَى على ما لم يسم فاعله وَحِيَهُ مرفوع به عَزَمًا هو مفعول، نجد بمعنى نعلم وَ أَنْتَ بفتح الهمزة معطوف على موضع، أَلَّا تجوع، فَوَسْوَسَ عَدَى بالي لأنه بمعنى أشر.

◀ التفسير

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا

ضمير الغائب في و يسألونك، عائد على قريش منكري البعث أو على المؤمنين الذين سألوا عن ذلك أو على رجل من ثقيف و جماعة من قومه أقوال ثلاثة و الكاف خطاب للرسول ﷺ و الظاهر وجود السؤال و قيل لم

يكن سؤال بل المعنى إن يسألك عن الجبال فقل كذا فضمن معنى الشرط
فلذلك أجيب بالفاء و روعي أن الله يرسل ريحاً على الجبال فيدكها كالعهن
المنفوش ثم يتوالى عليها حتى يعيدها كالهباء المنبث فذلك هو النّسف و
الظاهر عود الضمير في، فيذرها، على الجبال في قوله:

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا

أي فيذر الجبال بعد النّسف تبقى قاعاً، أي مستوياً من الأرض معتدلاً و قيل،
فيذر مقرها و مراكزها الضمير يعود على الأرض و أن لم يجر لها ذكر لدلالة
الجبال عليها و قوله صفصفاً، أي ما لا تراب فيه أو ما لا نبات فيه.

لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا

أي لا ترى في الجبال أو في الأرض ميلاً و لا أمّتا أي و لا أثراً و قال ابن
عبّاس معناه لا ترى فيها وادياً و لا أمّتا رابية و عنه أيضاً الأمّ الإرتفاع، و قيل
الأمّ الشقوق في الأرض و قال قتادة لا عوجاً أي صدعاً و لا أمّتا أي أكمة.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا

أي يوم إذ ينسف الله الجبال، يتبعون، الخالق الدّاعي أي داعي الله الى
المحشر و هو إسرافيل الذي ينفخ في الصور قيل يقوم على صخرة بيت
المقدس يدعوا الناس فيقبلون من كلّ جهة يضع الصور في فيه و يقول أيتها
العظام البالية و الجلود المتّمزقة و اللحوم المتفرقة هلُم إلى العرض على
الرّحمن.

و قال محمّد بن كعب يجمعون في ظلمة قد طويت السّماء و إنتشرت
النجوم فينادي مناد فيموتون موتةً، و قيل الدّاعي هنا الرّسول ﷺ كان

يدعوهم إلى الله فيعوجون على الصراط يميناً وشمالاً ويميلون عنه ميلاً عظيماً فيومئذ لا ينفعهم إيتاعه و قوله: لَا عِوَجَ لَهُ لَا عِوَجَ لدعاء الداعي يسمع جميعهم فلا يميل إلى ناسٍ دون ناسٍ وقيل هو على القلب أي لا عوج لهم عنه بل يأتون مقبلين إليه متبعين لصوته من غير إنحرافٍ وقال الزمخشري أي لا يعوج له مدعواً بل يستون إليه، وقيل معناه لا معدل لهم عنه أي عن دعاءه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون.

وقيل يتبعون الداعي إتباعاً لا عوج له فالمصدر مضمر والمعنى يتبعون صوت الداعي للحشر والأقوال متقاربة المعنى وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ أَي ذَلَّتْ وَسَكَتَتْ وخضعت قال الشاعر:

لَمَّا أَتَى خَيْرَ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سور المدينة و الجبال الخشع

و الخشوع في الأصل التَّطَامُنُ وَالتَّوَاضَعُ وَهُوَ فِي الْأَصْوَاتِ إِسْتِعَارَةٌ بِمَعْنَى الْخَفَاءِ الْأَشْرَارِ لِلرَّحْمَنِ أَي لِهَيْبَتِهِ وَسُطُوته وَقِيلَ هُوَ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ أَي وَخَشَعَ أَهْلُ الْأَصْوَاتِ، وَالهَمْسُ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالْهَمْسِ الْمَسْمُوعَ، تَخَافَتُهُمْ بَيْنَهُمْ وَكَلَامُهُمُ السَّرُّ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ صَوْتَ الْأَقْدَامِ وَأَنَّ أَصْوَاتَ النَّطْقِ سَاكِنَةٌ.

وقال الزمخشري هو الركن الخفي ومنه الحروف المهموسة وعن ابن عباس وابن جبير الهمس وطبي الأقدام والعلة في كل ذلك هي الخوف والهول في المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا أخبر الله تعالى أن ذلك اليوم لا تنفع شفاعاة أحدٍ في غيره من أذن الله له أن يشفع و رضي قوله فيها من الأنبياء والأولياء والصُّلَحَاءِ والمؤمنين فالمنفي في الآية هو الشَّفَاعَةُ بغير إذن الله لا مطلق الشَّفَاعَةُ لأنها ثابتة في الشريعة في حق من أذن له.

قال رسول الله ﷺ: أُنَّ من أمتي سيدخل الله الجنة بشفاعتي أكثر من مضر إنتهى.

قال رسول الله ﷺ: لكل نبي دعوة قد دعا بها و قد سأل سؤالاً أخبات دعوتي لشفاعتي لأمتي يوم القيامة إنتهى.

قال ﷺ: ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون، الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء إنتهى.

قال ﷺ: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ثم قال ﷺ: أنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي و أما المحسنون فما عليهم من سبيل. إنتهى و الأحاديث في الباب كثيرة.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد و هم حفاة عراة فيوقفون في المحشر حتى يعرقوا عرقاً شديداً و تشتد أنفاسهم فيمكثون في ذلك خمسين عاماً قول الله و خشعت الأصوات الآية. قال عليه السلام: ثم ينادي مناد من تلقاء العرش أين النبي الأمي فيقول الناس قد سمعت فسّم بإسمه فينادي أين نبي الرحمة أين محمد بن عبد الله الأمي فيقدم رسول الله ﷺ أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله ما بين إيلة و صنعاء فيقف عليه فينادي بصاحبكم فيقدم علي عليه السلام أمام الناس فيقف معه ثم يؤذن للناس فيمرون فبين وارد الحوض يومئذ و بين مصروف عنه فإذا رأى رسول الله من يصرف من محبين يبيكي و يقول يارب شيعة علي قال عليه السلام: فيبيعث الله ملكاً فيقول له ما يبكيك يا محمد فيقول أبكي لأناس من شيعة علي أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار و منعوا

ورود حوضي قال **عَلَيْهِ** فيقول الملك **أَنْ** الله يقول قد وهبتهم لك
يامحمد و صفحت لهم عن ذنوبهم بحبهم لك و لعترتك و ألحقتهم
بك و بمن كانوا يتولون به و جعلنا هم في زمرك فأوردهم
حوضك فقال أبو جعفر فكم من باك يومئذ و باكية ينادون يا
محمداه إذا رأوا ذلك و لا يبقى أحد يومئذ يتولانا و يحبنا و يتبرأ من
عدونا و يبغضهم إلا كانوا في حزبنا و معنا و يردون حوضنا
إنتهى.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا
أي يعلم ما بين أيدي الخلاق من أمور القيامة و أحوالهم و يعلم ما سبقهم
فيما تقدمهم و قيل يعود الضمير على الملائكة و قيل على الناس لا بقيد
الحشر و الأتباع و الأظهر هو أول الأقوال و أما الضمير في، به، فهو عائد على،
ما، أي يحيطون بعلوماته علماً، و هو كذلك لأن معلوماته غير متناهية و علم
المخلوق متناه و المتناهي لا يحيط بغير المتناهي.

وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا
الظاهر عموم الوجوه أي خضعت وجوه الخلاق في جنب عظمته قيل و
خصّ الوجوه من بين سائر الأعضاء لأن أثار الدل أنما تظهر في أول الوجوه.
و قال صاحب الكشف المراد بالوجوه وجوه العصاة و أنهم إذا عاينوا يوم
القيامة الخيبة و الشقوة و سوء الحساب صارت وجوههم عانية أي ذليلة
خاضعة مثل وجوه العناة و هم الأسارى و نحوه قوله: **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَبَيْتَ**
وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا^(١) و قوله: **وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ**^(٢) إنتهى.

أقول لا دليل لتخصيص الوجوه بالعصاة فحمل الكلام على العموم أولى كما هو ظاهر الآية ومقتضى العقل فأدّ المخلوق خاضع في جنب الخالق قهراً وأما القيوم فلا يطلق على غير الله تعالى لأنه عبارة عن الموجود الذي يكون قائماً بذاته وما سواه كائناً ما كان قائماً به والله تعالى كذلك فلا يتّصف بالقيومة غيره تعالى وقيل القيوم الموجود الذي لا فناء له وعلى هذا التغير أيضاً لا يطلق على غيره تعالى.

وأما قوله: وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا، فمعناه لم ينجح أي لا ظفر بمطلوبه والظلم يعمّ الشُّرك والمعاصي وخيبة كلّ حاملٍ بقدر ما حمل من الظلم فخيبة المشرك تكون دائماً وخيبة المؤمن مقيّدة بوقتٍ من الأوقات في العقوبة إن عوقب ولما خصّ الزّمخشري الوجوه بوجوه العصاة كما مرّ.

قال في المقام أنّه اعتراض كقولك خابوا وخسروا حتّى تكون الجملة دخلت بين العصاة وبين من يعمل من الصّالحات فهذا عنده قسم لقوله: وَعَنْتِ الْوُجُوهُ، والحق أنّ الواو في قوله: وَقَدْ خَابَ، للإستئناف وعلى هذا فالكلام مستأنف وأن شئت قلت أنّه حكمٌ كلّيّ يشمل كلّ من حمل ظلماً سواء كان الظالم كافراً أم مسلماً إلّا أنّ مراتب الظلم متفاوتة مختلفة وهذا ظاهر لا يحتاج إلى مزيد بيان والآيات الواردة في ذمّ الظلم كثيرة والأخبار فيه متواترة.

قال رسول الله ﷺ: من إقتطع حقّ إمريّ مسلمٍ أوجب الله له النّار وحرّم عليه الجنّة فقال له رجل يا رسول الله ولو كان شيئاً يسيراً قال ﷺ: ولو كان قضييًّا من أراك إنتهى.

قال رسول الله ﷺ: أوحى الله تعالى إليّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحدٍ من عبادي عند أحدٍ منهم مظلمة فأنيّ ألعنه مادام قائماً يصلي بين يديّ حتّى

يَرِدَ تِلْكَ الظَّلَامَةَ إِلَى أَهْلِهَا فَأَكُون سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ وَبَصَرُهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ وَيَكُون مِنْ أَوْلِيَائِي وَأَصْفِيَائِي وَيَكُون جَارِي مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ إِنَّتَهُى.
وَلَنَعْمَ مَا قِيلَ:

وَحَقَّ اللَّهُ أَنَّ الظَّلْمَ لَوْثٌ وَ أَنَّ الظَّلْمَ مَرْتَعَةٌ وَخِيمٌ
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمِضِي وَ عِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا أَنَّ الظَّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظَلْمٌ لَا يَغْفَرُ، وَظَلْمٌ لَا يَتْرَكَ، وَظَلْمٌ غَفُورٌ لَا يَطْلُبُ فَأَمَّا الظَّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفَرُ فَالشَّرْكُ بِاللَّهِ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١).

وَأَمَّا الظَّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرَكَ فَظَلَمَ الْعِبَادَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.
وَأَمَّا الظَّلْمُ الْمَغْفُورُ الَّذِي لَا يَطْلُبُ فَظَلَمَ الْعَبْدَ نَفْسَهُ إِنَّتَهُى.
وَالْأَخْبَارُ فِي ذِمِّ الظَّلْمِ كَثِيرَةٌ فَقَوْلُهُ: وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا يَشْمَلُ
جَمِيعَ أَنْوَاعِهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَنْكِيرُ الظَّلْمِ فِي قَوْلِهِ ظُلْمًا أَيُّ أَيُّ نَوْعٍ كَانَ مِنْهُ وَ
مَحْصَلُ الْكَلَامِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَكَمَ عَلَى الظَّلَامِ بِالْخِيْبَةِ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِ
الظَّلْمِ وَلَا إِسْتِنَاءَ فِيهِ وَلَا تَخْصِيصَ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا.
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الظَّلْمُ مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي عَظِيمِ سَيِّئَاتِهِ وَالهَضْمُ نَقْصٌ مِنْ
حَسَنَاتِهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ الظَّلْمُ أَنْ يَزَادَ مِنْ ذَنْبٍ غَيْرِهِ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ الظَّلْمُ أَنْ لَا يَجْزَى
بِعَمَلِهِ وَقِيلَ الظَّلْمُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ صَاحِبِهِ فَوْقَ حَقِّهِ وَالهَضْمُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ حَقِّ

أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين يسترجعون لأنفسهم إذا إكتالوا و يخسرون إذا كالوا، و الظلم و الهضم متقاربان، و قال الماوردي و الفرق أنَّ الظلم منع الحقَّ كلّه و الهضم منع بعضه.

و قرأ الجمهور على الخبر أي فهو لا يخاف، و قرأ ابن كثير و حميد فلا يخف على النهي قال الرّازي يعني و من يعمل شيئاً من الصّالحات و المراد به الفرائض فكان عمله مقروناً بالإيمان و هو كقوله و من يأتيه مؤمناً قد عمل الصّالحات فقوله: **فَلَا يَخَافُ** في موضع جزم لكونه في موضع جواب الشرط و التقدير فهو لا يخاف و نظيره و من عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخساً و لا رهقاً.

و قرأ ابن كثير فلا يخف على النهي و هو حسن لأنّ المعنى فليأمن و النهي عن الخوف أمرٌ بالأمن، و الظلم هو أن يعاقب لا على جريمةٍ أو يمنع من الثواب على الطّاعة و الهضم أن ينقص من ثوابه و الهزيمة النقيصة و منه هضم الكشح إنتهى كلامه.

و قال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب و الهضم أن لا و في حقّه من الأعظام لأنّ الثواب مع كونه من اللّغات لا يكون ثواباً إلّا إذا قارنه التّعظيم يدخل النقص في بعض الثواب و يدخل فيما يقارنه من التّعظيم فنفي الله تعالى كلا الأمرين عن المؤمنين إنتهى.

هذا ما قالوه في تفسير الكلام و الذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ المؤمن الذي عمل الصّالحات لا يخاف ظلماً أي مجاوزةً عن الحدّ الذي هو سبب العقاب و لا هضماً أي و لا تقصيراً في العمل و أن كان القصور ثابتاً في حقّه فإنّ القصور لا يوجب العقاب و بعبارة أخرى أنّه عمل بوظيفته فلا خوف عليه من هول القيامة و أنّما قلنا ذلك لأنّ عدم الخوف من الظلم يوم القيامة ثابتٌ في حقّ الكافر و المؤمن فإنّ الكافر أيضاً لا يخاف ظلماً و لا هضماً و هذا

لا إختصاص له بالمؤمن وذلك لأنَّ الله تعالى عادل ولا يظلم على أحدٍ وأما العذاب الثابت للكافر فهو عين العدل لكونه مستحقاً به وما ربك بظلام للعبيد نعم لو قلنا معنى الكلام أنَّ المؤمن لا يخاف ظملاً على نفسه ولا هضمًا فله وجهٌ وأما على ما فسره القوم من أنَّ المؤمن لا يخاف ظملاً أي من أن يظلم عليه ولا هضمًا أي ينتقص من حقه دون الكافر فلا نفهم معناه والله أعلم.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا

وكذلك أنزلناه عطف على قوله: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ^(١) أي ومثل ذلك الإنزال أو كما أنزلنا عليك هذه الآيات المتضمنة الوعيد القرآن كله على هذه الوتيرة مكررين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة، والذكر يطلق على الطاعة والعبادة، وقيل كما قدرنا هذه الأمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد كذلك حذرنا هؤلاء أمرها وأنزلناه قرآنًا عربيًّا وتوعدنا فيه بأنواع من الوعيد لعلهم بحسب توقع الشر وترجيهم يتقون الله ويخشون عقابه فيؤمنون ويتذكرون نعمه عندهم وما حذرهم من أليم عقابه هذا تأويل فرقة في قوله: أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا.

وقال الرازي أما قوله: أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ففيه وجهان:

الأول: أن يكون المعنى أننا أنزلنا القرآن لأجل أن يصيروا متقين أي محترزين عما لا ينبغي أو يحدث القرآن لهم ذكراً يدعوهم إلى الطاعات وفعل ما ينبغي.

الوجه الثاني: أن يقال: أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِيَتَّقُوا فإن لم يحتمل ذلك فلا

أَقْلَ مِنْ أَنْ يَحْدُثَ الْقُرْآنَ لَهُمْ ذِكْرًا وَ شَرَفًا وَصِيئًا حَسَنًا فَعَلَى هَٰذِينَ التَّقْدِيرِينَ يَكُونُ إِنْزَالُهُ تَقْوَىٰ إِنْتَهَىٰ.

أَقُولُ الْآيَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ هَذِهِ التَّكْلُفَاتِ الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْأَكْلِ مِنَ الْقَفَا، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** بِلِسَانِ قَوْمِكَ لِيَقْرَؤَهُ وَ يَتْلُوهُ وَ يَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ وَ صَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ كَالطَّوْفَانِ وَ الصَّيْحَةِ وَ الرَّجْفَةِ وَ الْمُنْحَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْعَذَابِ أَوْ يَحْدُثَ الْقُرْآنَ لَهُمْ ذِكْرًا أَوْ عِظَةً وَ فِكْرًا وَ إِعْتِبَارًا.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

قِيلَ أَيُّ ذُو الْحَقِّ، وَ لَمَّا كَانَ فِيهِمَا سَبَقُ ذِكْرِ تَعْظِيمِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: **وَ قَدْ أَتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا** أَوْ قَوْلِهِ **وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ذَكَرَ عَظَمَةَ مَنْزِلَتِهِ تَعَالَى ثُمَّ ذَكَرَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ وَ هُمَا صَنَعَتَا الْمَلِكِ الَّتِي تَضَمَّنَتِ الْقَهْرَ وَ السُّلْطَنَةَ وَ صِفَةَ سُلْطَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ عَظَمَ قُدْرَتَهُ فَالْصِّفَةُ الْأُولَى دَلَّتْ عَلَىٰ بَطْلَانِ كُلِّ إِلَهٍ غَيْرِهِ تَعَالَى وَ أَنَّ كُلَّ مَا يَدْعَىٰ بِهِ غَيْرُهُ بَاطِلٌ لَا سِيَّمَا إِلَهُ الَّذِي صَاغُوهُ مِنْ الْحَلِيِّ وَ الصِّفَةِ الثَّانِيَةِ دَلَّتْ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ وَ ذَلَّةِ عِبِيدِهِ وَ حَسَنَ تَلَطُّفِهِ بِهِمْ فَنَاسِبَ تَعَالِيهِ وَ وَصْفِهِ بِالصِّفَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ وَ لَمَّا ذَكَرَ الْقُرْآنَ وَ إِنْزَالَهُ قَالَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِسْتِطْرَادِ طَالِبًا مِنْهُ الثَّانِي فِي تَحْفَظِهِ فَقَالَ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ^(١).

وَ قِيلَ مَعْنَاهُ لَا تَبْلُغْ مَا كَانَ مِنْهُ مَجْمَلًا حَتَّىٰ يَأْتِيكَ الْبَيَانُ وَ قِيلَ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا أَنَّ إِمْرَأَةً شَكَتَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ زَوْجَهَا لَطَمَهَا فَقَالَ ﷺ **بَيْنَكُمَا الْقِصَاصُ** ثُمَّ نَزَلَتْ: **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ^(٢) وَ نَزَلَتْ هَذِهِ بِمَنْزِلَةِ الْأَمْرِ

فِي الْقُرْآنِ
فِي تَعْظِيمِ الْقُرْآنِ

جزء ١٦

الجلد العاشر عشر

بالتَّبَيُّتِ فِي الْحُكْمِ بِالْقُرْآنِ، وَ قِيلَ كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ أَمْرٌ بِكُتُبِهِ لِلْحَيِّينَ
فَأَمْرٌ أَنْ يَتَأَنَّى حَتَّى يَفْسِّرَ لَهُ الْمَعْنَى وَيَتَقَرَّرَ عِنْدَهُ.

و قَالَ الْمَاورِدِي مَعْنَاهُ وَ لَا تَسْأَلْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ الْوَحْيُ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ وَ
أَسْقَفَ نَجْرَانَ قَالُوا يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنْ كَذَا وَ قَدْ ضَرَبْنَا لَكَ أَجْلاً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَأَبْطَأَ
الْوَحْيُ عَلَيْهِ وَ فَشَتِ الْمَقَالَةَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَ قَدْ غَلَبَ مُحَمَّدٌ فَنَزَلَتْ وَ لَا تَعْجَلْ
بِالْقُرْآنِ أَيَّ بَنْزُولِهِ.

وَ قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ أَيُّ وَ لَا تَعْجَلْ بِقِرَاءَتِهِ فِي نَفْسِكَ أَوْ فِي تَأْدِيتِهِ إِلَى غَيْرِكَ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ أَوْ بَيَانُهُ وَ قَوْلُهُ: قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً قِيلَ
أَيُّ قُرْآنًا، وَ قِيلَ أَيُّ فَهْمًا وَ قِيلَ حِفْظًا قَالَ بَعْضُهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِطَلَبِ
الزِّيَادَةِ فِي شَيْءٍ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِنْتَهَى.

وَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْعِلْمُ هُوَ النُّورُ الَّذِي يَقْذِفُهُ فِي قَلْبٍ مِنْ إِيَّاهُ وَ هُوَ الْعِلْمُ
الْحَاضِرِيُّ الْأَنَاصِي مِنْ مَبْدَأِ الْفِيضِ لَا الْعِلْمَ الْحَصُولِي الْكُتُبِي الَّذِي يَحْصُلُ
بِسَبَبِ التَّعْلِيمِ وَ التَّعَلُّمِ مِنَ الْغَيْرِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ عُلُومَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ مِنْ نَسْخِ
الْعِلْمِ الْحَاضِرِيِّ كَعِلْمِ النَّفْسِ بِذَاتِهَا.

وَ قَدْ رَوَى فِي أَصُولِ الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي يَحْيَى الصَّنْعَانِيِّ عَنْ
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَا أَبَا يَحْيَى أَنْ لَنَا فِي لَيَالِي
الْجُمُعَةِ لَشَأْنًا مِنَ الشَّأْنِ قَالَ قُلْتَ جَعَلْتَ فِدَاكَ وَ مَا ذَاكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يُؤْذَنُ لِأَرْوَاحِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَوْتَى وَ أَرْوَاحِ الْأَوْصِيَاءِ الْمَوْتَى وَ رُوحِ
الْوَصِيِّ الَّذِي بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ يَعْرِجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى تَوَافِيَ عَرْشَ
رَبِّهَا فَتُطَوَّفُ بِهِ إِسْبُوعًا وَ تُصَلِّيَ عِنْدَ كُلِّ قَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ
رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ تَرُدُّ إِلَى الْأَبْدَانِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا فَتُصْبِحُ الْأَنْبِيَاءُ وَ
الْأَوْصِيَاءُ قَدْ مَلَأُوا سُرُورًا وَ يُصْبِحُ الْوَصِيُّ الَّذِي بَيْنَ أَظْهَرَانِيكُمْ وَ
قَدْ زِيدَ فِي عِلْمِهِ مِثْلُ جَمِّ الْغَفِيرِ إِنْتَهَى.

و بأسناده إلى الفضل قال: قال أبو عبد الله ذات يوم و كان لا يُكْفِينِي قَبْلَ ذَلِكَ، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قُلْتَ لَبَّيْكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ لَنَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ سُرُورًا قَالَ قُلْتَ زَادَكَ اللَّهُ وَ مَا ذَاكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ وَافَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْعَرْشَ وَ وَافَى الْأُئِمَّةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ وَافَيْنَا مَعَهُمْ فَلَا تُرَدُّ أَرْوَاحُنَا بِأَبْدَانِنَا إِلَّا بِعِلْمٍ مُسْتَفَادٍ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَنْفَدْنَا إِنْتَهَى.

و بأسناده إلى صفوان بن يحيى قال: سمعت أبا الحسن يقول كان جعفر بن محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لولا أنا نرُداد لأنفدنا إِنْتَهَى.

و بأسناده عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: لولا أنا نرُداد لأنفدنا، قلت ترُدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ أما أَنَّهُ إِذَا كَانَ عَرَضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ عَلَى الْأُئِمَّةِ ثُمَّ إِنْتَهَى الْأَمْرُ إِلَيْنَا إِنْتَهَى^(١).

أقول الآيات والأخبار الواردة في فضيلة العلم كثيرة قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ منهومان لا يشبعان منهوم علم و منهوم مال، وكفى في فضيلة العلم أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ^(٢) ولتفصيل الكلام في هذا الباب مقام آخر.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا

قال ابن عباس و مجاهد معناه عهد إليه بأن أمر به و وصّاه به، فنسي أي ترك، و قيل أنما أخذ الإنسان من أَنَّهُ عهد إليه فنسي، و قوله: لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا أي عقداً ثابتاً.

و قال قتادة، صبراً، و قال عطية، حفظاً، و العزم الإرادة المتقدمة لتوطين النفس على الفعل، هذا ما ذكره الشيخ قُدْسُ سِرِّهِ في التبيان.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

و قال الطبري المعنى إن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي و يخالفوا رسلي و يطيعوا إبليس فقدماً فعل ذلك أبوهم آدم.

قال ابن عطية و هذا ضعيف و ذلك أن كون آدم مثلاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشئ و آدم عليه السلام أنما عصى بتأويل ففي هذا فضاضة عليه و أنما الظاهر في هذه الآية أما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله و أما أن يجعل تعلقه أنما هو لما عهد إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه أن لا يعجل بالقرآن مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي ليكون أشد في التحذير و أبلغ في العهد إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه إنتهى.

و قال صاحب الكشف يقال في أوامر الملوك و وصايهم تقدم الملك إلى فلان و أوعز عليه و عزم عليه و عهد إليه، عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله: **وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** و المعنى و أقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم و وصينا أن لا يقرب الشجرة و توعدناه بالدخول في جملة الظالمين أن قربها و ذلك من قبل وجودهم و من قبل أن تتوحدهم فخالف إلى ما نهى عنه و توعد في إرتكابه مخالفتهم و لم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون كأنه يقول أن أساس أمر بني آدم على ذلك و عرفهم راسخ فيه إنتهى.

قال الطبرسي رحمته الله في وجه اتصال قوله: **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ** الآية بما قبله أنه لما ذكر تصريف الآيات و القرآن و أن بها يتذكر أمره سبحانه بالتذكر و أن لا يكون مثل آدم في نسيان العهد و قيل أنه اتصل بقوله و لا تعجل خوف النسيان للفظه و لكن تؤكل على الله وسله التوفيق لحفظه فأبأك آدم نسي ما عهد إليه إنتهى.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه و هو أننا أمرناه و أوصينا إليه أن لا يقرب الشجرة و لا يأكل منها فترك الأمر فالمراد بالعهد في الآية هو ما عهد الله إليه أن لا يقرب الشجرة و العهد حفظ الشئ و مراعاته حالاً بعد حال و سمى الموثق

الَّذِي يَلِزَمُ مَرَاعَاتَهُ عَهْدًا وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ عِنْدَ الْجَمِيعِ وَ أَتَمَّا الْكَلَامَ فِي قَوْلِهِ (فَنَسِيَ) حَيْثُ أَنَّ النَّسْيَانَ يَنَافِي الْعَصْمَةَ وَ قَدْ ثَبَتَتْ عَصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَقْلًا وَ شَرْعًا، فَقَالَ قَوْمٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّسْيَانِ فِي الْآيَةِ التَّرْكَ أَي تَرَكَ آدَمُ مَا عَاهَدَ إِلَيْهِ، وَ بِذَلِكَ أَجَابُوا عَنِ الْإِشْكَالِ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْإِشْكَالَ بَاقٍ بِحَالِهِ فَأَنَّ تَرَكَ الْمَأْمُورَ بِهِ أَوْ فَعَلَ الْمَنْهَى عَنْهُ أَيْضًا يَنَافِي الْعَصْمَةَ.

أَمَّا الْعَامَّةُ فَقَدْ إِسْتَرَحَوْا عَنِ الْجَوَابِ لِعَدَمِ وَجُوبِ الْعَصْمَةِ عِنْدَهُمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنِ الْأَوْصِيَاءِ وَ لَا كَلَامَ لَنَا مَعَهُمْ فِي الْمَقَامِ.
وَ أَمَّا الشَّيْعَةُ فَلَا خِلَافَ عِنْدَهُمْ فِي وَجُوبِ الْعَصْمَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ وَ عَلَى هَذَا فنقول:

يُظْهِرُ مِنْ بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْعَصْمَةَ لَازِمَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ أَمَّا فِي الْجَنَّةِ فَلَا. فَفِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ بِأَسْنَادِهِ إِلَى أَبِي الصَّلْتِ الْهَرَوِيِّ قَالَ لَمَّا جُمِعَ الْمَأْمُونُ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَ الدِّيَانَاتِ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ وَ الصَّابِيِّينَ وَ سَائِرِ الْمَقَالَاتِ فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَلْزَمَهُ حُجَّتُهُ كَأَنَّهُ أَلْقَمَ حَجْرًا قَلَمَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ جَهْمٍ فَقَالَ لَهُ يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَقُولُ بِعَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَعَمْ، قَالَ فَمَا تَعْمَلُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ حُجَّتَهُ فِي أَرْضِهِ وَ خَلِيفَتَهُ فِي بِلَادِهِ وَلَمْ يَخْلُقْهُ لِلْجَنَّةِ، وَ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ مِنْ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَا فِي الْأَرْضِ لَتَمَّ مَقَادِيرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمَّا أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ وَ جَعَلَ حُجَّةَ وَ خَلِيفَةَ عَصَمَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ^(١) إِنْتَهَى وَ يَظْهَرُ مِنْ بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ النَّهْرَ لَمْ يَكُنْ نَهْيَ تَحْرِيمٍ وَ أَتَمَّا هُوَ نَهْيُ تَنْزِيهٍِ وَ عَلَى هَذَا يَحْمِلُ الْعَصِيَانِ عَلَى تَرَكَ الْأُولَى وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ سَابِقًا بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

قد مرَّ الكلام في كيفية سجدة الملائكة و قلنا أنها لم تكن للعبادة بل كانت للخضوع والتَّعظيم عند قوله:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ^(١).

وقال الله تعالى: لَا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ^(٢).

فلا نعيد الكلام حذراً من الإطالة والذي نقول في المقام هو أنَّ قوله: أَبَى متعلِّقة محذوف و أنه يقدر هنا ما صرَّح به في الآية الأخرى بقوله: أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ و بذلك يعلم أنَّ الكلام قد تمَّ على قوله إلا إِبليس، و قوله: أَبَى جملة مستأنفة بنيته أنَّ إمتناعه من السُّجود أتما كان عن إباء منه وإمتناع و به قال الرَّمخسري حيث قال، أبى، جملة مستأنفة كأنه جواب قائلٍ قال لِمَ لم يسجد الخ.

وقد قلنا أنَّ أمر الله للملائكة بالسُّجود لآدم يدل على تفضيله عليهم و أن كان السُّجود في الحقيقة لله تعالى لا لآدم لأنَّ السُّجود عبادة و المخلوق لا يستحقُّ شيئاً منها بحالٍ قالوا لأنَّ العبادة تستحقُّ بأصول النُّعم و قيل أنَّ سجودهم لآدم كان كما يسجد الى جهة الكعبة يعني أنَّ آدم كان في قبلتهم مثل الكعبة بالنسبة اليها، و الحقُّ الحقيق بالإتباع هو القول الأول لأنَّ التَّعظيم الَّذي هو في أعلى المراتب حاصل لله تعالى لا لآدم بإسجاد الملائكة له ولو لم يكن الأمر على ما قلناه من أنَّ في ذلك تفضيلاً لآدم عليهم لما كان لإمتناع إِبليس من السُّجود له وجهٌ ولما كان لقوله: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ^(٣) وجهٌ فلمَّا احتجَّ إِبليس بأنَّه أفضل من آدم علمنا أنَّ موضوع الأمر بالسُّجود لآدم على جهة التَّفضيل.

أقول الأمر أوضح من أن يخفى على المتأمل في كلام الله ولا نحتاج الى الإستدلال وذلك أن إبليس أبى من السجود لآدم لا من السجود لله تعالى ظاهر.

فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجَكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى

المشار اليه بقوله (هذا) هو إبليس أي قلنا لآدم أن إبليس عدو لك و لزوجك و هو، حواء، فلا يخرجكما بإغواءه و وسوسته من الجنة فتشقى بذلك أي بسبب متابعتك آياه و أنما قال فتشقى ولم يقل فتشقى مراعاة للسمع في الآيات.

لا شك في عداوة إبليس لآدم ولأولاده بعده الى يوم القيامة و كان سبب عداوته لآدم أن الله طرده و لعنه و رجمه بعد إمتناعه من السجود و العدو يطلق على الواحد و المثني و المجموع عرف تعالى آدم عداوة إبليس له و لزوجيه ليحذرهم فلم يغن الحذر عن القدر.

و قيل أن إبليس كان حسوداً فلما رأى آثار نعم الله على آدم حسده و عاداه، و قيل العداوة حصلت من تنافي أصليهما إذ إبليس من النار و آدم من الماء و التراب و النّهي في قوله: فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا و أن كان متوجهاً اليهما في الظاهر إلا أنه متوجه الى أولاده أيضاً.

فالنّهي له و المراد غيره و أنما أسند الإخراج اليه أي الى إبليس مع أن المخرج هو الله تعالى لأن إبليس كان سبباً له فكأنه المخرج واقعاً فتشقى، يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار أن في جواب النّهي و أن يكون مرفوعاً على تقدير فأنت تشقى قيل و أسند الشقاء اليه وحده بعد إشتراكه مع زوجته في الإخراج من حيث كان هو المخاطب أولاً و المقصود بالكلام و لأن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله فإختصر الكلام بإسناده اليه مع المحافظة على

الفاصلة، و قيل أراد بالشَّقاء التَّعب في طلب الرِّزق والقوت وذلك راجع الى الرِّجل لأنَّ الرِّجل يكدُّ علىء زوجته.

قال بعضهم قد يوضع الشَّقاء موضع التَّعب نحو شقيت في كذا وكلِّ شقاوة تعب وليس كلِّ تعبٍ شقاوة فالتَّعب أعمُّ من الشَّقاوة.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى، وَ أَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَى
هذه الأوصاف للجنَّة والمعنى ما دمت على طاعتك لي و الإمتثال لأمرى
لا تجوع فيها أي في الجنَّة و لا تعرى، فيها من الكسوة و أَنْتَ لَا تَظْمَأُ، فيها، أي
لا تعطش و لَا تَضْحَى أي لا يصيبك حرُّ الشَّمس.

قيل لما كان الشَّبع و الرِّي و الكسوة و الكنَّ هي الأمور الَّتِي هي ضرورة
للإنسان إقتصر عليها لكونها كافية له و إلَّا ففي الجنَّة ضروبٌ، من النِّعم ما هذه
بالنسبة إليها إلَّا كالعدم، فمنها الأمن من الموت الَّذِي هو مكدرٌ لكلِّ لذَّة، ومنها
رضى الله تعالى عن أهلها و أن لا سقم و لا حزن و لا ألم و لا كبر و لا هرم غلٌّ و
لا غضب و لا حدث و لا مقادير و لا تكليف و هكذا، و ذكرت هذه الأربعة
بلفظ النَّفي و هو الجوع و العري و الظَّمأ و الضحو ليطلق سماعه بأسامي
أصناف الشَّقوة الَّتِي حذرَ منها حتَّى يتحامى السَّبب الموقع فيها كراهةً لها
إنتهى.

و أعلم أَنَّهُ ليس في الجنَّة شمس و لا قمر و أَنما فيها نورٌ و ضياء و الشَّمس
و القمر و الكواكب في سماء الدُّنيا خاصَّة فقلوله: وَ لَا تَضْحَى، أي لا تبرز
للشَّمس هناك يقال ضحى الرِّجل يضحى إذا برز للشَّمس و لا يبعد أن تكون
هذه الأمور كالتفسير لقلوله فتشقى، كأنَّه قال فتتعب بعد الخروج عن الجنَّة و
الهبوط الى الأرض بتحصيل هذه الأمور في الدُّنيا و من المعلوم أنَّ في
تحصيلها تعبٌ و مشقَّة كما هو محسوسٌ عندنا.

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَا يَبُلَى

قال الزاغب، الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت
الحلي والهمس الخفي ويقال لهمس الصائد وسواس إنتهى.
قال بعض المحققين في قوله تعالى: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، أي ألقى
الى قلبه المعنى بصوتٍ خفيٍّ لكنَّ العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل
يقال لما يقع في النفس من عمل الخير إلهامٌ وما لا خير فيه وسواس ولما يقع
من الخوف إيجاسٌ ولما يقع من تقدير الخير، أملٌ، ولما يقع ممَّا لا يكون
للإنسان ولا عليه، خاطر، إنتهى.

و في الدعاء أعوذ بك من وسواس الشيطان و قال بعض الأعلام وسواس
الشيطان غير متناهية فمهما عارضة فيما يوسوس بحجّة أتاه من باب آخر
بوسوسةٍ ولا تدبير في إبطال ما يأتي به من الفساد أقوى وأحسن من اللجأ الى
الله والإعتصام بحوله وقوته إنتهى.

قيل لمّا وسوس الشيطان اليه ناداه بإسمه ليكون أقبل عليه و أمكن
للإجتماع ثم عرض عليه ما يلقي بقوله: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ الَّذِي
يشعر بالنصح و يؤثر قبول من يخاطبه كقول موسى هل لك الى أن تزكى،
عرض فيه مناصحة و كان آدم قد رغبه الله في دوام الراحة و إنتظام المعيشة
بقوله: فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا وَرَغْبَةُ إِبْلِيسَ فِي دَوَامِ الرَّاحَةِ بقوله: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى
شَجَرَةِ الْخُلْدِ فجاءه إبليس من الجهة التي رغبه الله فيها ومعنى شجرة الخلد
أي الشجرة التي من أكل منها خلد و حصل له ملكٌ لا يخلق، الشجرة التي نهاه
الله عن تناولها و قد تقدّم الكلام في ماهية تلك الشجرة و إختلافهم فيها فلا
وجه لإعادته.

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الحادي عشر

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى

أي فأكَل آدم و زوجه حواء منها أي من الشجرة المنهيّة عنها، فبدت، أي
ظهرت لهما أي لآدم و حواء، سواتهما، أي عوراتهما لأنّ ما كان عليهما من
لباس الجنّة نزع عنهما، و إنّما جمع سواتهما و هو الإثنين، لأنّ كلّ شيئين من
شيئين فهو من موضع التثنية جمع لأنّ الإضافة تثنية و قوله: طَفِقَا، يعني ظلّاً و
جعلاً يفعلان و قوله: يَخْصِفَانِ فالخصف خيط الشّي بقطعة من غيره إنهما كانا
يطبقان ورق الجنّة بعضه على بعض و يخيطان بعضه الى بعض ليسترا به
سواتُهُما، و قوله: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى العصيان هنا ترك الأولى و قوله:
فَغَوَى، أي خاب و خسر يقال غوى يغوي غوايةً و غيًّا إذا خاب قال الشاعر:
فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره و من يغو لا يلوم على التّي لانماً
أي من يخب، و أمّا البحث في ماهيّة الشجرة و الجنّة و المعصية ذلك فقد مرّ
في البقرة مفصلاً.

ثُمَّ أَجْتَبِيَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى

الإجتماع الإصطفاء أي أنّ الله تعالى إصطفاه على غيره بعد ذلك و قبل
توبته و هداه الى معرفته و الى الثواب الذي عرضه له و قيل هداه الى نبوته أو
الى كيفة التوبة أو هداه رشده حتّى رجع الى النّدم و يدلّ على ذلك قوله: إنّ
الله اصطفى آدم و نوحاً و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين^(١).

قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ
اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى

لَا شَكَّ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي، إهْبَطَا، ضَمِيرُ تَنْثِيَةٍ وَهُوَ أَمْرٌ لِآدَمَ وَحَوَاءَ، جَعَلَ هَبْوَطَهُمَا عَقُوبَتَهُمَا، وَجَمِيعاً حَالُ مِنْهُمَا، وَالضَّمِيرُ فِي بَعْضِكُمْ وَيَأْتِيَنَّكُمْ ضَمِيرُ جَمْعٍ فَكَيْفَ التَّوْفِيقُ بَيْنَهُمَا، قُلْتُ ذَكَرُوا فِي جَوَابِهِ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو مُسْلِمٍ وَهُوَ أَنَّ الْخَطَابَ فِي قَوْلِهِ: **أَهْبِطَا لِآدَمَ** وَمَعَهُ ذَرْيَتُهُ وَلاِبْلِيسَ وَمَعَهُ ذَرْيَتُهُ فَلَكُونَهَا جَنْسَيْنِ صَحَّ قَوْلُهُ: **أَهْبِطَا** وَلِأَجْلِ إِشْتِمَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجَنْسَيْنِ عَلَى الْكَثْرَةِ صَحَّ قَوْلُهُ **فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ**.

ثانيهما: مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْكَشَافِ وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ آدَمُ وَحَوَاءُ أَصْلًا لِلْبَشَرِ وَالسَّبَبُ اللَّذِينَ مِنْهُمَا تَفَرَّعُوا جَعَلَا كَأَنَّهُمَا، الْبَشَرُ أَنْفُسَهُمْ فَخُوطَبَا مُخَاطَبَتَهُمْ فَقَالَ **فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ** عَلَى لَفْظِ الْجَمَاعَةِ إِنْتَهَى.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** فَيَقُلُ يَكْفِي فِي تَوْفِيقِهِ هَذَا الظَّاهِرُ حَقَّهُ أَنْ يَكُونَ إِبْلِيسَ وَالشَّيَاطِينُ أَعْدَاءُ لِلنَّاسِ وَالنَّاسُ أَعْدَاءُ لَهُمْ فَإِذَا إِنْصَافَ إِلَى ذَلِكَ عِدَاوَةُ بَعْضِ الْفَرِيقَيْنِ لِبَعْضٍ لَمْ يَمْتَنِعْ دُخُولُهُ فِي الْكَلَامِ إِنْتَهَى.

فَهَذَا مَا قَالُوهُ فِي حُلِّ الْإِشْكَالِ وَلَنَا فِي الْمَقَامِ جَوَابٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: **أَهْبِطَا** دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَقْلَ الْجَمْعِ هُوَ إِثْنَانٌ وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: **أَهْبِطَا** هُوَ الْجَمِيعُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: **جَمِيعًا**، بَعْدَ ذَلِكَ وَقَوْلِهِ: **بَعْضُكُمْ** وَقَوْلِهِ: **فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ** كُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَقْلَ الْجَمْعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَعْنَى الْإِثْنَيْنِ وَمَا زَادَ عَلَيْهِمَا هَذَا مُضَافًا إِلَى قَوْلِهِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **قُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ^(٢).

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْقُرْآنَ تَفْسِيرَهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٦

المجلد العاشر

و قوله: **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ قِيلٌ وَالْأَصْلُ وَأَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ**، و، ما، فريدة للتأكيد أي معنى الشرط و، ما، هذه مثل لام القسم في دخول التثنية المؤكدة معها، قالوا و إنما جيء بكلمة الشك إيداناً بأن إتيان الهدى بطريق الكتاب و الرسول ليس بقطعي الوقوع و أنه تعالى أن شاء هدى و أن شاء ترك لا يجب عليه شيء ولك أن تقول إتيان الكتاب و الرسول لما لم يكن لازم التحقق و الوقوع أبرز في معرض الشك و أكد صرف الشرط و الفعل بالتثنية للدلالة على رجحان جهة الوقوع و التحقق إنتهى.

و قال بعض المفسرين معناه أن أتاكم هدى مني بأن أكلفكم و أنصب لكم الأدلة على ما أمركم به من معرفتي و توحيدي و العمل بطاعتي فمن أتبع أدلتي و عمل بما أمره به فإنه لا يضل في الدنيا و لا يشقى في الآخرة. و نقل عن ابن عباس أنه قال، فمن الله تعالى لمن قرأ القرآن و عمل به ألا يضل في الدنيا و لا يشقى في الآخرة إنتهى.

أَقُولُ دَلَّ الْكَلَامُ عَلَى مَنْ إِتَّبَعَ هَدَى اللَّهِ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، و هذا مما لا كلام فيه لأحد و إنما الكلام في كيفية المتابعة فأً الهدى يحتاج الى الهادي و الهادي هو الإمام في كل عصر و زمان قال الله تعالى مخاطباً لرسوله: **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**^(١) أثبت الإنذار له ﷺ و الهداية لمن بعده من الأوصياء و لذلك لم يقل إنما أنت منذرٌ و هادٍ والواو في قوله ولكل قوم للإستئناف لا للعطف و إلا يلزم أن يكون الرسول حياً الى يوم القيامة.

أن قلت يمكن أن يكون المراد بالهادي سنة الرسول و هي باقية بعده.

قلت تفسير السنة و تبينها يحتاج الى مبين و مفسر و لا نعني بالهادي بعد الرسول إلا هذا فثبت و تحقق أن متابعة هدى الله أي دينه لا يمكن بدون الهادي أعني به الوحى.

قال رسول الله ﷺ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة
الجاهلية.

و لنعم ما قال العطار بالفارسية:

به عقل أين راه مسپر کاندین ره جهانی عقل چون خر در خلال است
ولذلك إلتفت الشيعة على أنَّ الهداية لا تحصل إلا بواسطة الإمام المعصوم و
قد خاب من إفتري.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى

قيل المراد بالذكر هو القرآن والأدلة المصوبة على الحق والمعنى من لم
ينظر في ذكري الذي هو القرآن والأدلة المنصوبة على الحق و صدف عنها فأَنَّ
له عيشةً ضنكاً و الظنك الضيق الصعب يقال منزل ضنكٍ أي ضيق و عيش
ضنك و هو لا يثنى و لا يجمع و لا يؤنث لأن أصله المصدر ثم وصف به قال
الشاعر:

أن يلحقوا أكدر و أن تستلحموا أشدد و أن يلفوا بضنك أنزل
و قال الآخر:

أَنَّ المنيّة لو تمثّل مثليّت مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
و قال الحسن و ابن زيد المعيشة الضنك هو الضريع و الرقوم في النار، الضريع
شوك من النار و قال عكرمة و الضحاك هو الحرام في الدنيا الذي يؤدي الى
النار، و قيل أنه عذاب القبر رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ و به قال أبو سعيد
و ابن مسعود و السدي و عن ابن عباس نزلت هذه الآية في الأسود بن عبد
الأسد المخزومي و المراد ضغطة القبر تختلف فيه أضلاعه و قال عطاء،
المعيشة الضنك معيشة الكافر لأنه غير مؤمن بالثواب و العقاب، و قال ابن
جبير يسلب القناعة حتّى لا يشبع، و الأقوال كثيرة و قوله: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ

أَلْقِيْمَةِ أَعْمَى، قيل أعمى البصر وقيل أعمى الحجة وقيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إليها والقول الأول أظهر وأنسب بإطلاق الكلام، وقيل المراد به هو عمى البصيرة، وعلى هذا حملوا الكلام وهو الحق بدليل قوله تعالى: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا^(١).

ومن المعلوم المسلم عند الكل أن المراد به ليس هو عدم البصر فالمراد عدم البصيرة، وهو المطلوب وإنما قلنا ليس المراد به عدم البصر إذ لا دليل لنا عقلاً ولا نقلاً على إثبات ذلك بل الدليل ثابت على خلافه فإن النبل إلى مقدمات الآخرة مترتب على الإيمان والعمل الصالح وأما البصر والسمع فلا دخل لهما ولا لغيرهما من الأعضاء في الوصول إليها وهذا واضح وإطلاق الأعمى على عمى القلب وهو عدم البصيرة كثير في القرآن بل هو أكثر على إطلاقه على فاقد البصر:

قال الله تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى^(٢).
أي فاستحبوا الضلالة والكفر على الهداية والسعادة:

قال الله تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ^(٣).

قال الله تعالى: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا^(٤).

قال الله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ^(٥).

قال الله تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ^(٦).

و الآيات كثيرة بل نقول أي ذنب للأعمى الذي خلقه الله كذلك حتى يقال أنه أعمى في الآخرة أيضاً والحاصل أن العقل والنقل لا يساعدان على إرادة

الظاهر من الآية هذا، و قد دلت الأخبار أيضاً أن المراد ما ذكرناه من عمى البصرة من العامة والخاصة فمن العامة ما رواه الحافظ الحسكاني وهو من أعيان العامة في شواهد التنزيل.

بأسناده عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ للمهاجرين والأنصار أحبوا علياً لحبي إياه وأكرموا لكرامتي والله ما قلت لكم هذا من قبلي ولكن الله أمرني بذلك ويا معشر العرب من أبغض علياً من بعدي حشره الله يوم القيامة أعمى أليس له حجة إنتهى.

وبأسناده عن جابر بن عبد الله فآخطبنا رسول الله فسمعته يقول من أبغضنا أهل البيت حشره الله يوم القيامة يهودياً إنتهى.

ومن الخاصة ما رواه علي بن إبراهيم بأسناده عن معاوية بن عمار قال قلت لأبي عبد الله قول الله: إِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، قال هي والله للنصاب قال قلت جعلت فداك قد نراهم دهرهم الأطول في كفاية حتى ماتوا قال عليه السلام ذاك والله في الرجعة يأكلون الغدرة إنتهى.

وعن أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، قال عليه السلام: نعني ولاية أمير المؤمنين عليه السلام قلت ونحشره يوم القيامة أعمى، قال عليه السلام: يعني أعمى البصر في الآخرة أعمى القلب في الدنيا عن ولاية أمير المؤمنين قال وهو متحيز في القيامة يقول لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا، يعني الأئمة، وكذلك اليوم تنسى الحديث.

وعن الفقيه بأسناده عن معاوية بن عمار قال سألت أبا عبد الله عن رجل لم يحج قط وله مال فقال: هو ممن قال الله عز وجل: وَنَحْشُرُهُ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ أَعْمَى فَقَالَ عَالِيًا أَعْمَاهُ اللَّهُ عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ انْتَهَى.

و في حديثٍ آخر رواه في الكافي، أعماه الله عن طريق الحق، و في حديث آخر عن طريق الجنة و يحتمل أن يكون المراد بقوله و نحشره يوم القيامة معناه الظاهر جزاء بما أعرض عن ذكر الله في الدنيا ولكنه بعيداً عن مساق الآيات المذكورة و الله أعلم بما أراد.

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى

قال مجاهد معنى قول لم حشرني أعمى، أي لا حجة لي كنت عالماً بحجتي بصيراً بها أحاج عن نفسي في الدنيا إنتهى.

و قيل سأل العبد ربه عن السبب الذي إستحق به أن يحشر أعمى لأنه جهله و ظن أنه لا ذنب له فقال له جل ذكره كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، أو أعرضت عنها و كذلك اليوم تنسى، أي تترك في العذاب و المقصود أن آياتنا أتتك واضحة مستبصرة فلم تنظر إليها بعين المعبر و لم تتبصر و عميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك و لا نزيل غطاؤه عن عينيك قاله الرّمخشري

و يظهر من كلامه أنه حمل الأعمى على فاقد البصر يوم القيامة لا على فاقد البصيرة بدليل قوله (عن عينيك) و لا مشاحة فيه و أما الآيات في قوله: أَتَتْكَ آيَاتُنَا، فالجمهور على أن المراد بها الأدلة و الحجج التي أتى بها النبي من القرآن و المعجزات و الكرامات و بالجملة جميع الدلائل الواضحة المرشدة إلى طريق الحق من التشريعات و التكوينيات و قوله: فَنَسِيتَهَا فالنسيان هو ترك الإنسان ضبط ما إستودع، أما لضعف قلبه، و أما عن غفلة، و أما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره و على هذا فالمعنى تركها أي تركت الآيات ولم تتبصر فيها فكذلك اليوم تترك و يستفاد من هذا الكلام أن الإنسان مأمورٌ عقلاً

بالتفكر والتدبر في الآيات ليحصل له التبصر في دينه وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان لا الرؤية بالبصر لأنها موجودة في الحيوان أيضاً إذا عرفت هذا فنقول:

المراد بالآيات في قوله: **أَيَاتُنَا** وأن كان على قول الجمهور معناها العام الشامل للتشريعات والتكوينيات إلا أنه يظهر من الأخبار أن في رأس الآيات أوصياء النبي وهم الأئمة الاثني عشر بل هم المرادون في الحقيقة منها فمن ترك ولايتهم ومتابعتهم في الدنيا ينسى ويترك في الآخرة وأن لم يترك ينسى سائر الآيات في الدنيا.

روي في الكافي بأسناده عن داود الرقي قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله تعالى: **وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** (١) قال **عليه السلام**: الآيات الأئمة والنذر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين إنتهى.

وبأسناده عن أبي جعفر **عليه السلام** في قول الله تعالى: **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا** يعني الأوصياء كلهم إنتهى.

وبأسناده عن أبي جعفر **عليه السلام** قال: قلت له جعلت فداك أن الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية: **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ** (٢) قال **عليه السلام**: ذلك إلی إن شئت أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم قال **عليه السلام** لكنني أخبرك بتفسيرها قلت عم يتسائلون قال فقال هي في أمير المؤمنين يقول ما لله تعالى آية هي أكبر مني ولا لله من نبي أعظم مني إنتهى.

أقول والسّر في ذلك هو أن جميع الآيات في صدورهم فمن لم يعرفهم لم يعرفها.

فقد روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام عن تفسير قوله تعالى: **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ^(١) قال عليه السلام أما والله يا أبا محمد ما قال بين دفتي المصحف قلت من هم جعلت فداك قال عليه السلام من عسى أن يكونوا غيرنا إنتهى والأحاديث نقلناها عن الكافي أبواب الحجج.

أقول ولذلك لا تقبل الأعمال إلا بولايتهم وهذا الذي ذكرناه هو تأويل الآية فافهم.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى

عد الله تعالى من لم يؤمن بالآيات من المسرفين على أنفسهم وهددهم بقوله ولعذاب الآخرة أشد، أنواع العذاب، وأبقى، لأنه لا زوال له هذا تفسير ألفاظ الآية وأما تأويلها فقد ظهر مما ذكرناه في معنى الآيات وقلنا أن المراد بها الأوصياء وأنما قلنا ذلك لأن الإيمان والإعتقاد بظواهر الآيات كان ثابتاً في صدر الإسلام لأكثر المسلمين ومن أظهر مصاديقهم الخوارج، ولتفصيل الكلام فيه موضع آخر فأنا لا نشك في أن الإيمان لا يتحقق إلا بالولاية.



أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ
يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي النَّهْيِ (١٢٧) وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
لَكَانَ لِرِزَامٍ أَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا
يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ
النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٢٩) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ
إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى
(١٣٠) وَ أَمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا
نَسْتَلِكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى
(١٣١) وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ
تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٢) وَ لَوْ
أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نَذِلَّ وَ نَخْزَى (١٣٣) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ
أَهْتَدَى (١٣٤)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

اللغة

مِنَ الْفُقَرَاءِ: هي جمع قرن و القرن القوم المقترنون في زمن واحد و جمعه
قرون.

أَلْتُنْهَى: بَضَمُ التَّوْنِ واحدها نهية بَضَمُ التَّوْنِ أيضاً و هي العقل النَّاهِي عن القبائح.

أَنَايَ اللَّيْلِ: ساعاته واحدها إنى.

زَهْرَةٌ: بفتح الهاء و سكونها الأنوار التي تروق عند الرُّؤية و من ذلك قيل الكوكب يزهر و الباقي واضح.

◀ الإعراب

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ في فاعله وجهان:

أحدهما: ضمير إسم الله أي أفلم يبين الله لهم.

الثاني: أن يكون الفاعل ما دلَّ عليه.

أَهْلَكْنَا، أي إهلاكنا و كَمْ في موضع نصب بأهلكنا أي كم قرناً أهلكنا يَمْشُونَ حال من الضمير المجرور في لهم، أو حال من المفعول في، أهلكنا، أي أهلكنا في حال غفلتهم و أَجَلٌ مُّسَمًّى هو معطوف على كلمة و اللّزام مصدر في موضع إسم الفاعل و يجوز أن يكون جمع لازم مثل قائم و قيام و من أَنَايَ اللَّيْلِ هو في موضع نصب بسبب الثانية زَهْرَةٌ في نصبه أوجه:

أحدها: أن يكون بفعل محذوف دلَّ عليه، متّعنا، أي جعلنا لهم زهرة.

الثاني: أن يكون بدلاً من موضع، به.

الثالث: أن يكون بدلاً من أزواج و التقدير ذوي زهرة محذوف المضاف مَنْ أَصْحَابٌ من مبتدأ و خبر و الجملة في موضع نصب و لا تكون بمعنى الذي، إذ لا عائد عليها.

◀ التفسير

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى

قرأ الجمهور، يهد، بالياء وقرأ فرقة منهم ابن عباس بالنون وبخهم الله تعالى وذكّرهم العبر بما تقدّم من القرون والأمم السالفة قيل أنّ قرشاً كانت تتبخر إلى الشام فتتمر بمساكن عاد وثمود فتري أثار إهلاك الله إياهم فنبههم الله بذلك على معرفته وتوحيده وأعلمهم أنّ إهلاكهم لم يكن إلا بتكذيبهم الرّسل وتركهم الإيمان بالله وإتباع رسله، فقله: كم أهلكتنا، قد دلّ على هلاك القرون فالتقدير أفلم نبيّن لهم هلاك من أهلكتنا من القرون ومحو أثارهم فيتعظوا بذلك، يمشون في مساكنهم، والضّمير في يمشون عائد على الكفار الذين وبّخهم الله في الآية فأنّهم كانوا يمشون في مساكنهم أي في مساكن الذين أهلكتهم الله لأنّ في ذلك لآيات وعلامات لذوي العقول السليمة وذلك لأنّ الله تعالى لم يهلكهم إلا لتكذيبهم الرّسل وترك الإيمان وفعل المعاصي وحكم الأمثال واحد.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًاوَأَجَلٌ مُّسَمًّى

قيل في الكلام تقديم وتأخير وتقديره ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلّ مسمّى كان لزاماً، معناه لولا ما سبق من وعد الله بأنّ الساعة تقوم في وقت بعينه وأنّ المكلف له أجل مقدّر معيّن كان هلاكهم لازماً أي لازماً أبداً وقيل معناه فيصلاً يلزم كلّ إنسان طائره أن خيراً فخيئراً وأن شراً فشرّاً وقال قوم عذاب اللّزام كان يوم بدر قتل الله في الكفار ولولا ما قدّر الله من آجال الباقي وعدهم من عذاب الآخرة لكان لازماً لهم أبداً في سائر الأزمان.

أقول بيّن الله تعالى الوجه الذي لأجله أخر العذاب عن هذه الأمة والكلمة السابقة هي المعدّة بتأخير جزائهم قال تعالى: **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ** هكذا قيل، **وَالَّذِي يَقُولُ فِي النَّفْسِ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْكَلِمَةِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** (١).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي سَبَقَتْ هُوَ قَوْلُهُ: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ فَهُوَ إشارة إلى عذاب الآخرة وهو يشمل جميع الناس ولا اختصاص له بمن خالف النبي في الدنيا فَأَنَّ الْمُسْلِمَ الْفَاسِقَ أَيْضاً يَعْذَّبُ فِي الْآخِرَةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ بِصَدَدِ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يَقُولُ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وَأَجَلٌ مُسَمًّى لَكَانَ ذَلِكَ الْإِهْلَاكُ لَازِمًا لَهُمْ أَيْ لِكِفَارِ قَرِيشٍ أَيْضاً، فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي سَبَقَتْ مِنْهَا هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ قَوْلُهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَلَأَجَلَ هَذَا لَمْ يَنْزَلْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَخْبِثَ وَأَفْسَقَ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُ مُشْرِكُوا قَرِيشَ وَهُمْ الَّذِينَ عَادَ الضَّمِيرُ فِي قَلْبِهِ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ، عَلَيْهِمْ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَشْيَاءَ قَبِيحَةٍ مِمَّا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ وَالْإِحْتِمَالِ لِمَا يَصْدُرُ مِنْ سُوءِ أَخْلَاقِهِمْ فَقَالَ.

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَيَحِبُّ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى أَمْرُهُ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُونَ مِنْ كُفْرِهِمْ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَجَحْدِهِمْ لِنَبِيِّتِهِ وَأَذَاهُمْ إِيَّاهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ثُمَّ أَمْرُهُ بِتَسْبِيحِ رَبِّهِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ، يَعْنِي الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ يَعْنِي صَلَاةَ الظُّهْرِ وَقَدْ أَجْمَعَ الْمَفْسَّرُونَ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ مِنَ الْآيَةِ إِقَامَةُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَهِيَ الصُّبْحُ وَالظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى سَعَةِ الْوَقْتِ وَعَدَمِ الْإِخْتِصَاصِ بِأَوَّلِ الْوَقْتِ أَوْ آخِرِهِ إِلَّا أَنَّ الرُّوَايَاتِ وَالشُّهُرَةَ خَصَّصَتْ الظُّهْرَ مِنْ أَوَّلِهِ وَالْعَصْرَ مِنْ آخِرِهِ وَكَذَا الْعِشَاءَيْنِ بِمَقْدَارِ إِدَائِهِمَا وَعَلَى أَنَّ آخِرَ وَقْتِ صَلَاةِ الْفَجْرِ طُلُوعُ

الشَّمْسُ وتَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِي الْفَقْهِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَمِنْ أَنَايَ اللَّيْلِ**، مِنْ، ظَرْفِيَّةٌ بِمَعْنَى، فِي، أَوْ إِبْتِدَائِيَّةٌ وَقَدْ جَاءَ هُنَا لَزِيذَةُ التَّحْرِيصِ وَالتَّرْغِيبِ لِإِخْتِصَاصِهِ بِمَزِيدِ الْفَضْلِ فَأَنَّ الْقَلْبَ فِيهِ أَجْمَعُ لَتَفَرُّغِهِ مِنْ هُمُومِ الْمَعَاشِ أَوْ أَنَّ النَّفْسَ أَمِيلٌ إِلَى طَلَبِ الْإِسْتِرَاحَةِ مِنْ تَعَبِ الْكَدِّ فِي النَّهَارِ فَكَانَتِ الْعِبَادَةُ فِيهِ أَحْمَزُ وَأَصْعَبُ وَلِذَلِكَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا** ^(١).

وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ الْمُرَادُ مِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ صَلَاةُ اللَّيْلِ كُلِّهَا، وَأَمَّا قَوْلُهُ وَ اطَّرَافُ النَّهَارِ، قِيلَ الْمُرَادُ صَلَاةُ الْفَجْرِ وَالْمَغْرَبِ عَلَى التَّكَرُّارِ فِي الْفَجْرِ لَشِدَّةِ الْإِهْتِمَامِ فِيهَا، وَجَعَلَ الْمَغْرِبَ طَرَفَ النَّهَارِ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْمَجَازِ لَشِدَّةِ قُرْبِهَا مِنْهُ لِأَنَّ مَبْدَأَ وَقْتِهَا إِسْتِتَارَ الْقُرْصِ كَمَا قِيلَ أَوْ لِأَنَّ مَا قَبْلَ ذَهَابِ الشَّفَقِ دَاخِلٌ فِي النَّهَارِ وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِاطَّرَافِ النَّهَارِ صَلَاةُ الظُّهْرِ وَذَلِكَ لِأَنَّ وَقْتَهَا عِنْدَ الزَّوَالِ طَرَفُ النِّصْفِ الْأَوَّلِ نِهَآيَةً وَطَرَفُ الثَّانِي بَدَايَةً وَقِيلَ صَلَاةُ الْعَصْرِ لِأَنَّهَا الْوَسْطَى وَإِنَّمَا قَالَ اطَّرَافُ النَّهَارِ بِصِغَةِ الْجَمْعِ لِأَنَّهُ يَصْدُقُ عَلَى كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ النِّصْفِ الْآخِرِ أَنَّهَا طَرَفٌ، وَقِيلَ فَالنَّهَارُ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ، وَقِيلَ أَنَّهُ أَرَادَ طَرَفَ أَوَّلِ النِّصْفِ الْأَوَّلِ وَآخِرَ النِّصْفِ الْأَوَّلِ أَوَّلِ النِّصْفِ الْآخِرِ وَآخِرَ النِّصْفِ الْآخِرِ جَمْعٌ، وَقَوْلُهُ: **لَعَلَّكَ تَرْضَى** مَعْنَاهُ سَبَّحَ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ يُعْطِيكَ رَبُّكَ مَا تَرْضَى بِهِ نَفْسَكَ وَقِيلَ مَعْنَاهُ إِفْعَلْ يَا مُحَمَّدُ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ لَكِي تَرْضَى بِمَا يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى ذَلِكَ.

فِي تَفْصِيلِ الْقُرْآنِ فِي تَفْصِيلِ الْقُرْآنِ

حِزْءُ ١٦

الْمَجْلَدُ الْعَادِي عَشْرٌ

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَبِالتَّسْبِيحِ نَهَاہُ عَنْ مَدِّ الْبَصْرِ إِلَى مَا مَتَّعَ بِهِ الْكَفَرَةَ، يُقَالُ مَدَّ نَظْرَهُ إِلَيْهِ إِذَا أَدَامَ النَّظَرَ إِلَيْهِ، الْمَعْنَى لَا تَعْجَبْ يَا مُحَمَّدٌ مِمَّا مَتَّعْنَاهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ وَمَنَازِلَ وَمَرَكَابٍ وَمَلَابِسٍ وَمَطَاعِمٍ فَإِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ كَالزَّهْرَةِ الَّتِي لَا بَقَاءَ لَهَا وَلَا دَوَامَ وَأَنَّهَا عَمَّا قَلِيلٍ تَفْنَى وَتَرْتَوِلُ وَالْخُطَابُ وَأَنْ كَانَ ظَاهِرًا لِلرَّسُولِ إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْأُمَّةَ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ النَّظَرِ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَزَخْرَفِهَا بَلْ نَقُولُ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا بَعِينَ الْحِسْرَةِ أَبَدًا وَهُوَ الْقَائِلُ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ النَّهْيِ عَنِ الْإِغْتِرَارِ بِهَا وَالنَّظَرِ إِلَى زَخْرَفِهَا وَقَوْلُهُ: وَلَا تَمُدَّنَّ، أْبْلَغَ مِنْ، لَا تَنْظُرْ، لِأَنَّ مَدَّ الْبَصْرِ يَقْتَضِي الْإِدَامَةَ وَالِاسْتِحْسَانَ بِخِلَافِ النَّظَرِ فَإِنَّهُ قَدْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مَعَهُ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعَيْنَ لَا تَمُدُّ، فَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ لَا تَمُدَّنْ بِنَظَرِ عَيْنَيْكَ وَالنَّظَرُ غَيْرُ الْمَمْدُدِّ مَعْقُودٍ عَنْهُ وَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ فَاجَأَ الشَّيْءُ ثُمَّ غَضَّ بَصَرَهُ وَقَوْلُهُ: أَرْوَاجًا مِنْهُمْ أَيَّ أَشْكَالًا مِنَ الْمَزَاجَةِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَهِيَ الْمَشَاكِلَةُ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَشْكَالٌ فِي الذَّهَابِ عَنِ الصُّوَابِ زَهْرَةً الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْجُمْهُورُ عَلَى سَكُونِ الْهَاءِ وَأَجَازَ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي الْهَاءِ الْفَتْحَ بِنَاءً عَلَى أَنْ تَكُونَ جَمْعُ زَاهِرٍ نَحْوُ كَفَرَةٍ وَكَافِرٍ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ زَاهِرٌ وَهَذِهِ الدُّنْيَا لَصِفَاءُ أَلْوَانِهِمْ مِمَّا يَلْهَوْنَ وَيَتَنَعَّمُونَ وَتَهْلُلُ وَجُوهَهُمْ وَبِهَاءِ زَهْمٍ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالصُّلَحَاءُ مِنْ شُحُوبِ الْأَلْوَانِ وَالتَّقَشُّفِ فِي الثِّيَابِ وَمَعْنَى (لِنَقْنِئَنَّهُمْ) أَيَّ لِنَبْلُوهُمْ وَنَخْتَبِرُهُمْ حَتَّى يَسْتَوْجِبُوا الْعَذَابَ لَوْجُودِ الْكُفْرَانِ مِنْهُمْ أَوْ لِنَعَذِّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِسَبَبِهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى يَعْنِي الَّذِي وَعَدَكَ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِمَّا مَتَّعَنَاهُ بِهِ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مَعْنَاهُ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى لَهُؤُلَاءِ الْكَفَّارُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَيْ مَا ذَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْمَوَاهِبِ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا مَتَّعَ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا وَأَبْقَى وَأَدْوَمُ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَأَنْ كَانَ قَلِيلًا خَيْرٌ

مما جمعوا وإن كان كثيراً لحلية ذلك و حرمة هذا و أول الأقوال أحسنها و يدل عليه سياق الكلام كما لا يخفى على المتأمل.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى

قيل المراد به أهل بيتك و أهل دينك فدخلوا كلهم في الجملة، (و أصطبر عليها) بالاستعانة بها على الصبر عن محارم الله لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا الخطاب للنبي و المراد به جميع الخلق فَأَنَّ الله تعالى يرزق خلقه و لا يسترزقهم فيكون أبلغ في المنّة، و العاقبة للتقوى، يعني العاقبة المحمودة لمن إتقى معاصي الله و اجتنب محارمه قاله الشيخ في التبيان.

أقول ظاهر الآية وجوب أهله خاصة بالصلاة و لا يبعد أن يفهم من الآية وجوبها على الأمر فيها أيضاً و لكن ترك التصريح بذلك إعتقاداً على ظهور كونه مأموراً بالإصطبار عليها أي أقبل أنت و أهلك على الصلاة و عبادة الله و استعينوا بها على قضاء حوائجكم كما قال تعالى: وَ اسْتَغِيثُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ^(١) و لا تهتم بالرزق و المعيشة فإنه يأتيك من عندنا و نحن نسوقه إليك ففرغ بالك لأمر الآخرة.

و يدل على ذلك ما رواه في غوالي اللثالي عن الباقر عليه السلام أنه قال: أمر الله أن يخص أهله دون الناس ليعلم الناس أن لأهله منزلة ليست للناس فأمرهم مع الناس عامة ثم أمرهم خاصة إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم في هذه الآية، فإن الله أمره أن يخص أهله دون الناس ليعلم الناس أن لأهل محمد صلى الله عليه وآله عند الله منزلة خاصة ليست للناس إذ أمرهم مع الناس ثم أمرهم خاصة، فلما

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

العباد العبادي عشر

أنزل هذه الآية كان رسول الله ﷺ يجي كل يوم عند صلاة الفجر حتى يأتي باب علي و فاطمة فيقول السلام عليكم ورحمة الله و بركاته فيقول علي و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام و عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله و بركاته ثم يأخذ بعضادتي الباب فيقول الصلوة الصلوة يرحمكم الله أنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً فلم يزل يفعل ذلك كل يوم إذا شهد المدينة حتى فارق الدنيا و قال أبو حمراء خادم النبي أنا شهدته يفعل ذلك إنتهى.

و فيه أيضاً و أمر أهلك بالصلوة أي أمتك و إصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك و العاقبة للتقوى، قال للمتقين إنتهى.

و في عيون الأخبار مثل ذلك و لكن فيه و كان يجي إلى بابهم بعد نزول الآية تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات إنتهى و الأخبار في الباب كثيرة و فضيلة الصلوة معلومة.

قال بعض العلماء، أعلم أنه يحتمل أن يكون المقصود ترك التكسب بالكلية و التوجه إلى الأمر بالمعروف و التصبر على مشاققة الصلوة و الأمر بها و عدم تكليفه برزق نفسه و عياله و يكون ذلك من خصائصه ﷺ لأنه قد جعل له في الأموال سهماً.

و يحتمل على بعد أن يكون هذا عام لكل من توجه إلى الله و أقبل إلى عبادة ربه و يرشد إليه قوله تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ^(١).

و روي عنه ﷺ أنه قال: من طلب العلم تكفل الله برزقه و أمثال ذلك من الأحاديث إنتهى.

أقول هذه الأخبار لا يمكن المساعدة عليها على إطلاقها لأن ترك طلب الرزق مرجوحٌ سيما بالنسبة إلى من ليس له وجه معيشة بالكلية بل يوشك أن يكون حراماً.

وقد ورد عنهم عليهم السلام أنه تعالى لا يستجيب دعاء الرجل يجلس في بيته ويقول رب أرزقني ولا يخرج ولا يطلب الرزق رواه في الكافي.

و روي الشيخ عليه السلام عن علي بن عبد العزيز قال قال ما فعل عمر بن مسلم قلت جعلت فداك قد أقبل على العبادة وترك فقال ويحه أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له أن قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت و من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا قد يكفينا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليهم ما حملكم على ما صنعتم فقالوا يارسول الله تكفل الله لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنه من فعل ذلك لم يستجيب له عليكم بالطلب إنتهى.

و الأخبار الواردة في الحث على الطلب وتحصيل المعيشة بالتكسب أكثر من أن تحصى مضافاً إلى أن الطلب من سنن الأنبياء عليهم السلام.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: كان أمير المؤمنين يضرب بالمر و يستخرج الأرضين و أعق عليه السلام ألف مملوك من ماله و الآيات و الأخبار المتضمنة لكون الرزق من الله و أنه هو المقدر له لا تنافي الرجحان الطلب كما لا يخفى.

نعم الحرص في طلب الرزق مدمومٌ لأن الرزق مقسوم قسّمه عادل بين الخلق و ضمنه فالحرص لماذا، و الأظهر في معنى الآية أن

المراد بها ليس ترك الطلب و التَّكْسِبُ بالكِيةِ لأنَّه مرجوحٌ في الجملة قطعاً فالمعنى لا تهتَّم لطلب الرِّزق بل يكفيك أدنى طلبٍ و الله تعالى هو الَّذي يسوق الرِّزق إليك و لا تطلب الفضول كما يفعله من أقبل على الدُّنيا حرصاً عليها و لكن إهتَم لطلب الآخرة سيِّما الأمور الواهية قال عليه السلام ليس ممَّا من ترك دنياه لأخرته و لا أخرته لدنياه. و روي عن أبي عبد الله عليه السلام أَنَّهُ قال: وليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضئع و دون طلب الحريص الرَّاضي بدنياه المطمئن إليها و لكن أنزل نفسك بمنزلة المنصف المتعفف ترَفَّع عن منزلة الواهن الضعيف و تكتسب ما لا بدَّ منه إنتهى.

أقول و بهذا الحديث و امثاله يجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين فأَنَّ الله تعالى قد جعل هذه الآية وسطاً في جميع الأمور المتعلقة بالنشأتين.

و قالوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَآيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى.

قالوا، أي قال الكفار قيل المراد بهم كفرا مكّة، لولا يأتينا بآية من ربه، أي لولا يأتينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بآية و علامة توجب العلم الضروري بنبوته أو بآية ظاهرة كالناقة و العصا، أو هلاً يأتينا بالآيات التي نقترحها كما أتى الأنبياء من قبله فقال تعالى في جوابهم.

أَوْ لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى يريد التّوراة و الإنجيل و الكتب المتقدّمة و الإستفهام للإنكار أي بلى أتتهم بيّنة ما في الكتب السماوية الدّالة على نبوّته و لكنهم أخفوها و أنكروها بألستهم كما هو شأن المنافق معناه، أولم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا و إقترحوا الآيات فما يؤمنهم أن أتتهم الآيات إن يكون حالهم حال أولئك، و الأوّل أنسب بقوله: مَا فِي

الصُّحُفِ الْأُولَى، لَأَنَّ فِيهَا الْبَشَارَةَ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ كَانُوا عَالَمِينَ بِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ لِعِنَادِهِمْ أَنْكَرُوهَا لِسَانًا مَعَ عِلْمِهِمْ بِهَا قِطْعًا كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَعَانِدِ وَآيَةٌ آيَةٌ أَظْهَرَ وَأَجْلَى مِمَّا فِيهَا مِنَ الْبَشَارَةِ صَرِيحًا هَذَا مِضْيًا إِلَى الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي أَتَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ ظَاهِرًا لَهُمْ.

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى

أي ولو أهلكنا الكفار بعذاب كعذاب عاد و ثمود و قوم نوح و غيرهم، من قبله، أي من قبل نزول القرآن، أو من قبل أن نبعث الرسول إليهم، لقالوا، غداً يوم القيامة ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً، يدعونا إلى الله و يأمرنا بتوحيده، فننتبع، أولئك و آياتك من قبل أن نذل و نخزي، في الدنيا و الآخرة.

قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مَنْ اهْتَدَى

التربص الإنتظار و الصراط السوي هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه خاطب الله نبيه ظاهراً و المراد به الأمة باطناً أمره الله أن يقول لهؤلاء الكفار المعاندين الذين أنكروا التوحيد و النبوة، كل متربص، أي كل واحد منا ومنكم متربص دوائر الزمان ولمن يكون النصر و الغلبة فتربصوا أنتم أي فانتظروا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي و من إهتدى، أي فستعلمون بالنصر من إهتدى إلى دين الحق، و قيل فستعلمون يوم القيامة من إهتدى إلى طريق الجنة و في هذا ضرب من الوعيد و التهديد و التخويف، و كلمة من، هاهنا إستفهام في موضع رفع بالإبتداء و المعنى فستعلمون أصحاب الصراط السوي أم أنتم.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

و قال الفراء أن معنى، من أصحاب الصراط السوي، من لم يضلّ و أن معنى
وَمِنْ أَهْتَدَى من ضلّ ثم إهتدى إنتهى وكيف كان فالمقصود من الآية نحن
نتربص بكم وعد الله لنا فيكم و أنتم تتربصون بنا أن نموت فتستريحوا،

وقد روي الحافظ الحسكاني بأسناده عن أبي صالح عن ابن عباس
أنه قال عليه السلام: أصحاب الصراط السوي، هو والله محمّد وأهل بيته، و
الصراط الطريق الواضح الذي لا عوج فيه، و من إهتدى فهم
أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى.

و في كتاب كشف المحجّة لابن طاووس رحمته الله حديث طويل، عن
أمير المؤمنين وفيه قيل و من الولي يارسل الله قال وليكم في هذا
الزمان أنا بعدي وصيتي و من وصي لكل زمان حجج الله لكيلا
يقولون كما قال الضلال من قبلكم فارقمهم نبيهم، رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا و أنما كان تمام ضلالتهم جهالتهم بالآيات و هم
الأوصياء فأجابهم الله بقوله: قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام: و
الله نحن السبيل الذي أمركم الله بإتباعه و نحن و الله الصراط
المستقيم و نحن و الله الذين أمر الله بطاعتهم فمن شاء فليأخذ هنا
و من شاء فليأخذ هنا لا تجدون و الله عنا محيصاً إنتهى.

أقول ختامه مسك و فى ذلك فليتنافس المتنافسون هذا آخر الكلام في تفسير
الجزء السادس عشر من هذا السفر الجليل.



الجزء

السابع عشر

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ
مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ
مُخَدَّتٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَا هِيَ
قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ
(٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ
بَلْ آفْتَرِيهْ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
أَفْهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا
نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْدَ
فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)
لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ

أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسُوا
بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَ
أَرْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)
فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَامِدِينَ (١٥) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ
مَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا
لَا تَخَذَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ
بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ
لَكُمْ أَلْوَيْلٌ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ
الَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)

◀ اللغة

أَقْتَرَبَ: الإقتراب قصر مدّة الشيء بالإضافة الى ما مضى زمانه و حقيقة
القرب قلّة ما بين الشيئين يقال قرب ما بينهما تقريباً إذا قلل ما بينهما من مدّة
أو مسافة أو أيّ فاصلة و القرب قد يكون في الزّمان، و في المكان، و في
الحال، و قد قيل كلّ آتٍ قريب.

فِي غَفَلَةٍ: الغفلة ذهاب المعنى عن النّفس و نقيضها اليقظة.
مُحَدِّثٌ: بتنزيل القرآن سورة بعد سورة و آية بعد آية و الذّكر القرآن.
لَا هَيْهَةَ: اللّهُ الهزل الممتّع أي طالبة للّهو.
أَسْرُوا: أي أخفوا.

أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ: أي تخاليط رؤيا رآها في المنام.
 أَفْتَرِيهِ: يقال إفتري أي تخرصه وافتعله.
 فَقَصَمْنَا: القصم كسر الشيء الصلب.
 بَأْسًا: البأس الشدة والعذاب.
 يَرْكُضُونَ: الرُّكْض ضرب الدابة بالرجل.
 خَامِدِينَ: خمدت النار طفتت.
 فَيَكْمُمُهُ: دمهغ أصاب دماغه نحو كبده و رأسه.
 زَاهِقٌ: يقال ذهب أي هلك.

◀ الإعراب

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ هَمْ، مبتدأ و مُعْرِضُونَ الخبر و في غفلة حال في، معروضون و يجوز أن يكون خبراً ثانياً مُحَدَّثٍ محمول على لفظ، ذكر، ولو رفع على موضع من ذكر، جاز، مِنْ رَبِّهِمْ صفة لذكر أو حال من الضمير في محدث لأهية حال من الضمير في، يلعبون، وقيل حال من الواو في إستمعوه الَّذِينَ ظَلَمُوا موضعه الرفع لأنه بدل من الواو في، وَ أَسْرُوا، أو هو مبتدأ والخبر، هل هذا، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين ظلموا، أو منصوب على إضمار، أعني، أو مجرور على أنه صفة للناس في أَسْمَاءٍ حال من القول أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ أي هذا أضغاث أحلام أَهْلُكُنَاهَا صفة لقربة إما على اللفظ أو على الموضع جَسَدًا هو مفرد في موضع الجمع و المضاف محذوف أي ذوي أجساد فيه ذِكْرُكُمْ الجملة صفة لكتاب و ذكركم، مضاف الى المفعول أي ذكرنا أيّاكم إِذَا هُمْ مبتدأ و يَرْكُضُونَ الخبر، وإذا، ظرف للخبر، تِلْكَ دَعْوَاهُمْ تلك في موضع رفع إسم زالت و دعواهم الخبر و يجوز العكس حَصِيدًا مفعول ثان خَامِدِينَ صفة لحصيد لِأَعْيُنٍ حال من الفاعل في، خلقنا، و، ما، في مِمَّا تَصِفُونَ بمعنى الذي و نكرة موصوفة موصوفة أو مصدرية يُسَبِّحُونَ

يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون حالاً من ضمير الفاعل قبلها وَلَا يَفْتَرُونَ
حال من ضمير الفاعل في، يسحبون.

◀ التفسير

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ

قيل أنه لما ذكر قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا^(١) قال مشركوا قريش أن محمداً يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس بصحيح وأن صحَّ فيه بعدُ فأنزل الله تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ الآية وإقترَبَ إفتعل بمعنى الفعل المجرد وهو، قرب، كما تقول إرتقب و رقب، وقيل هو أي إفتعل أبلغ من قرب للزيادة في البناء، والمراد بالناس مشركوا مكة، وقيل عامٌّ في منكري البعث وإقتراب الحساب إقتراب وقته والحساب في اللغة إخراج الكمية من مبلغ العدد وقد يطلق على المحسوب وجعل ذلك إقتراباً لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ وأن طال وقت إنتظاره فهو قريب لتحقُّق وقوعه ولذلك قيل أنَّ المستقبل المحقَّق الوقوع في حكم الماضي وأنما البعيد هو الذي إنقضى أو هو مقترَّب عند الله كقوله: وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ^(٢) أو بإعتبار ما بقى من الدنيا فأَنَّهُ أقصر وأقلَّ ممَّا مضى وفي الحديث قال رسول الله ﷺ بعثت أنا و السَّاعة كهاتين، قال الشاعر:

فما زال من يهواه أقرب من غدٍ و زال من يخشاه أبعد من أمس

وقوله: لِلنَّاسِ، متعلِّق بإقترَب و هذه اللَّام إمَّا أن تكون صلة لإقتراب أو تأكيداً لإضافة الحساب اليهم كما تقول أزعف للحَيِّ رحيلهم والأصل أزعف رحيل الحقِّ، والواو في وَهُمْ واو الحال أخبر الله تعالى عنهم بخبرين ظاهرهما التَّنافي لأنَّ الغفلة عن الشَّيْء والإعراض عنه متنافيان لكن يجمع بينهما باختلاف حالين أخبر عنهم أولاً أَنَّهُمْ لَا يَتَفَكَّرُونَ في عاقبته بل هم غافلون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

الجلد العادي غفلة

عَمَّا يُؤَلِّهُ إِلَهُ أَمْرُهُمْ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ ثَانِيًا أَنَّهُمْ إِذَا نَبَّهُوا مِنْ سَنَةِ الْغَفْلَةِ وَذَكَرُوا بِمَا يُؤَلِّهُ إِلَهُ أَمْرَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يَبَالُوا بِذَلِكَ قَالَ الطَّبْرَسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ، إِقْتَرَبَ أَفْتَقَلَ مِنَ الْقَرَبِ وَالْمَعْنَى إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ وَقْتُ حِسَابِهِمْ يَعْنِي الْقِيَامَةَ كَمَا قَالَ: إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، أَي دَنَا وَقْتُ مُحَاسَبَةِ الْعِبَادِ وَ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ نِعْمِهِ هَلْ قَابَلُوهَا بِالشُّكْرِ، وَ عَنْ أَوَامِرِهِ هَلْ إِمْتَثَلُوهَا وَ عَنْ نَوَاهِيهِ هَلْ اجْتَنَبُوهَا وَ أَمَّا وَصْفُ ذَلِكَ الْقَرَبِ لِأَنَّهُ أَتَى وَكُلُّ مَا هُوَ أَتَى قَرِيبٌ وَ لِأَنَّ أَحَدَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ مَبْعَثُ رَسُولِ اللَّهِ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ دُئُورِهَا وَ كَوْنِهَا مُعْرَضُونَ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهَا وَ التَّأَهُبِ لَهَا وَ قِيلَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَ تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ الْحَثَّ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْتَهَى.

أَقُولُ: أَلْفَاظُ الْآيَةِ ظَاهِرَةٌ لَا خَفَاءَ فِيهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَ هِيَ أَيُّ الْآيَةِ تَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِجَمِيعِ النَّاسِ لِأَنَّ قَوْلَهُ: لِنَّاسٍ، يَشْمَلُ الْكُلَّ فَيَدْخُلُ تَحْتَ ذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ أَيْضًا وَ الْآيَاتُ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ كَمَا لَا يَخْفَى:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَا لَهُ الْخُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ^(٥) وَ غَيْرَهَا.

بالأسانيد عن الرضا عن أبائه قال رسول الله ﷺ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحَاسِبُ كُلَّ خَلْقٍ إِلَّا مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَا يَحَاسِبُ وَ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ إِنَّتْهِى.

بأسناد التميمي عن الرضا عن أبائه عن عليٍّ عليه السلام قال: النَّبِيُّ أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ حُبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّتْهِى.

المفيد رحمه الله بأسناده في أماليه عن ابن عينية قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول ما من عبدٍ إلا والله عليه حجةٌ إما في ذنبٍ إقترفه وإما من نعمةٍ قصر عن شكرها إِنَّتْهِى.

وبالأسناد عن أبي بردة قال: قال رسول الله ﷺ لَا تَزَلْ قَدَمُ عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ حُبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَامَةُ حُبِّكُمْ، قَالَ فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكَبٍ عَلَى إِنَّتْهِى.

وبالأسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: أَنَّمَا يَلَاقِي اللَّهَ الْعِبَادُ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا أَتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا إِنَّتْهِى^(١).

و لا شك أنَّ الحِسَابَ حَقٌّ نَطَقَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَ الْأَخْبَارُ فَيَجِبُ الْإِعْتِقَادُ بِهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ.

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ
 قيل المراد بالذكر هنا ما ينزل من القرآن شيئاً بعد شيءٍ و قيل المراد به أقوال النبي في أمر الشريعة و وعظه و تذكيره و وصفه بالحدوث لنزول القرآن بعد وقت و قيل سورة بعد سورة و آية بعد آية و الحدوث وجود الشيء بعد أن لم يكن و هو دليل على أنَّ القرآن مخلوقٌ كما هو شأن الحادث و لا قديم سوى الله تعالى و للبحث فيه مقام آخر و سئل عن بعض الصحابة عن الآية فقال

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

فحدث النزول فحدث المقول، ثم أن الجمهور على أن محدث بالجر صفة،
لذكر على اللفظ، وقرأ بعضهم بالرفع صفة، لذكر، على الموضع.

و قرأ زيد بن علي بالنصب على الحال من ذكر، إذ قد وصف بقوله: مِنْ
رَبِّهِمْ وقوله: إِلَّا أَسْمَعُوهُ جملة حالية و ذوا الحال المفعول في، ما يأتيهم، و
هم يلعبون جملة حالية من ضمير إستمعوه، و المعنى ما يأتيهم أي ليس
يأتيهم من ذكر، أي آية أو سورة من ربهم بعد أن لم يكن إلا إستمعوه و الحال
أنهم يلعبون و يستهزئون بها و حاصل الكلام أنهم يستمعون الآيات ثم يلعبون
بها و ينكرونها و بعبارة أخرى كل ما جدد لهم الذكرا ستمروا على الجهل و أنت
ترى أن هذا لا يختص بقوم دون قوم بل هو سار في كثير من الناس أو أكثرهم و
هذا دليل على أن المراد بالناس في قوله: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ، العموم فمن استمع
إلى آية الزنا ثم يزني أو آية السرقة ثم يسرق أو آية الظلم ثم يظلم وهكذا سائر
الآيات الواردة في باب الأوامر والنواهي فهو يلعب بها فأف الفاعل إذا كان غير
قاصد بفعله مقصداً صحيحاً فهو لاعب.

قال في المفردات لعب فلان إذا كان فاعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً.

قال الله تعالى: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوَاً وَ غَرَّتْهُمْ الْخَيَوةُ
الْأُتُنِيَا^(١).

قال الله تعالى: وَ مَا هَذِهِ الْخَيَوةُ الْأُتُنِيَا إِلَّا لَهْوَاً وَلَعِبٌ^(٢).

و حاصل الكلام أن من استمع إلى كلام الله ثم ترك العمل به من غير عذر
إستخفافاً به فهو من اللاعبين بكلام الله كأننا من كان بل لا يبعد أن تكون الآية
مختصة بالمسلمين وذلك لأن الكافر منكراً لها والمسلم مقتصد بها و لا يعمل
بها فترك الكافر العمل بها لا يبعد لعباً بخلاف ترك المسلم فاللاعبون بالآيات
هم المسلمون لا غيرهم.

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

لاهيّة، بالنّصب على الحالية و قرئ بالرفع على أنّه خبر لقوله (وهم) و
النّجوى من التّناجي و لا يكون إلا خفية فمعنى، وَ أَسْرُوا، بالغوا في إخفائها
أو جعلوها بحيث لا يظن أحد لتناجيهم و لا يعلم أنّهم متناجون.
و قال أبو عبيدة أسروا، هنا من الأضداد يحتمل أن يكون أخفوا كلامهم و
يحتمل أن يكون أظهره و منه قول الفرزدق:

فلما رأى الحجاج جرد سيفه أسروا الحروري الذي كان أضمر
و قال التبريزي لا يستعمل في الغالب إلا في الإخفاء و إنّما أسروا الحديث
لأنّه كان ذلك على طريق التّشاور و عادة المتشاورين كتمان سرهم عن
أعدائهم و أسروها ليقولوا للرّسول ﷺ و للمؤمنين أنّ ما ندعونه حقاً
فأخبرونا بما أسرنا فموضع، الذين ظلموا، من الإعراب يحتمل أن يكون
رفعاً على البدل من الضمير في قوله: وَ أَسْرُوا كما قال تعالى: ثُمَّ عَمُوا وَضَمُّوا
كثيرٌ منهم^(١) و يجوز أن يكون رفعاً على الإستئناف و تقديره و هم الذين
ظلموا، و يجوز خفضاً بدلاً من النّاس. و قوله: هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ،
إستفهام معناه التّعجب أي كيف خصّ بالنبوة دونكم مع مماثلته لكم في
البشريّة وإنكارهم و تعجّبهم من حيث كانوا يرون أنّ الله لا يرسل إلا ملكاً،
و قوله: أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ، إستفهام معناه التّوبيخ و عوا بالسّحر ما ظهر على
يدي الرّسول من المعجزات التي أعظمها القرآن و الذّكر المتلو عليهم أي
أفتحضرون السّحر و أنتم تبصرون أنّه سحر و أن من أتى به هو بشرٌ مثلكم
فكيف تقبلون ما أتى به و هو سحر و كانوا يعتقدون أنّ الرّسول من عند الله لا
يكون إلا ملكاً و أنّ كلّ من إدعى الرّسالة من البشر و جاء بمعجزة فهو ساحر و

في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

معجزته سحرًا، ومعنى الآية أَنَّ قلوبهم ذاهلة غافلة عن الْحَقِّ ولذلك أُسْرُوا النَّجْوَى وَ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ مَا أَضْمَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
قرأ حمزة والكسائي وحفص والأحمش وأيوب وخلف وابن جرير وغيرهم، قال رَبِّي، على معنى الخبر عن نَبِيِّهِ ﷺ وقرأ باقي السبعة، قل رَبِّي، على الأمر لَنَبِيِّهِ، وكيف كان قال النَّبِيُّ لهؤلاء الكُفَّار وغيرهم من المنافقين والمنكرين لعلم الله بِالْخَفِيَّاتِ، رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْقَوْلِ ظَاهِرًا وَخَفِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْلَمْ يَعْلَمْ لَزِمَ الْجَهْلُ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَالْجَهْلُ نَقْصٌ وَهُوَ مُنْزَعٌ عَنِ النَّقَائِصِ.

و ثانيًا: أَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ وَذَاتِهِ عِلَّةٌ لَوْجُودِ الْمَمَكِّنَاتِ وَالْعِلْمُ بِالْعِلَّةِ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِالْمَعْلُولِ تَفْصِيلًا وَقَوْلُهُ هُوَ وَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ، مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِالْمَسْمُوعَاتِ مُطْلَقًا، وَالسَّمِيعُ مَبَالِغَةٌ فِي السَّمْعِ وَالْعَلِيمُ مَبَالِغَةٌ فِي الْعِلْمِ، قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ، الْقَوْلُ عَامٌّ يَشْمَلُ السَّرَّ وَالْجَهْرَ فَكَانَ فِي الْأَخْبَارِ بَعْلَمُهُ الْقَوْلُ عِلْمُ السَّرِّ وَزِيَادَةُ وَكَانَ أَكْثَرُ فِي الْإِطْلَاعِ عَلَى نَجْوَاهُمْ مِنْ أَنْ يَقُولَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ ثُمَّ يَبَيِّنُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، مَعْنَاهُ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ الْكُفَرِ الْعَلِيمُ بِمَا إِنْطَوَتْ عَلَيْهِ ضَمَائِرُهُمْ.

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرِيهِ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا أَنَّ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ سِحْرٌ ذَكَرَ إِضْطِرَابَهُمْ فِي مَقَالَاتِهِمْ فَذَكَرَ أَنَّهُمْ أَضْرَبُوا عَنْ نَسْبَةِ السَّحَرَةِ وَقَالُوا مَا يَأْتِي بِهِ أَنَّمَا هُوَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، ثُمَّ أَضْرَبُوا عَنْ هَذَا فَقَالُوا بَلْ إِفْتَرَاهُ أَيْ إِخْتَلَقَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ ثُمَّ أَضْرَبُوا عَنْ هَذَا فَقَالُوا بَلْ هُوَ شَاعِرٌ وَهَكَذَا وَ

فيه إشارة الى أَنَّ المبطل الكاذب لا يثبت على قولٍ واحدٍ بل يبقى متحيراً لا يعلم ما يقول فَأَنَّ الغريق يَثْبُتُ بِكُلِّ حَشِيْشٍ وَّ الآيَة تدلُّ على أَنَّهُمْ قالوا هذه الأقوال المختلفة أَمَا أَنَّهُ صدرت من قائلين متفقين إنتقلوا من قولٍ الى قولٍ أو مختلفين قال كلُّ منهم مقالةً فالآيَة ساكتة عنه.

قال الرّمخشري و يجوز أن يكون تنزيلاً من الله لأقوالهم في درج الفساد و أَنَّ قولهم الثاني أفسد من الأول و الثالث أفسد من الثاني، و كذلك الرابع من الثالث إنتهى.

أقول: إضطرابهم في الأقوال يدلُّ على إضطرابهم في المقولات و أَنَّهُمْ لا كانوا كاذبين في دعاويهم و أي ربط بين قولهم **أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ** و قولهم **بَلْ أَفْتَرِيْهِ** و قولهم **بَلْ هُوَ شَاعِرٌ** و أَمَا قوله: **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ** فالكاف في أرسل يجوز أن يكون في موضع النعت لآيَة، و ما أرسل في تقدير المصدر و المعنى بآيَة مثل آيَة إرسال الأولين، و يجوز أن يكون في النعت لمصدرٍ محذوف أي إتياناً مثل إرسال الأولين أي مثل إتيانهم بالآيات و هذه الآية التي طلبوها هي على سبيل إقتراحهم و لم يأت الله بآيَة مقترحة إلا أتى بالعذاب بعدها و أراد تعالى تأخير هؤلاء و في قولهم هذا دليل على معرفتهم بإتيان الرُّسل، و قولهم: **بِآيَةٍ عَلَى سَبِيلِ التَّنْكِيرِ** أي آيَة كانت و لم يبينوا المراد منها فلا يبعد أن يكون إقتراحهم منها من قبيل قولهم: **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا**^(١) و أمثال ذلك ثم أجاب الله تعالى عن قولهم: **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ** بقوله:

بِ
رَبِّكَ
فِي
قُرْآنِهِ
رَبِّكَ

جزء ١٧

البعيد
والعادي
عن

مَا أَمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ

ما، في قوله: **مَا أَمَنْتَ** نافية و قوله: **مِنْ قَرْيَةٍ** بتقدير مضاف أي من أهل قرية، و الهمزة في قوله: **أَفَهُمْ** للإنكار و معنى الآية و المعنى إِنَّا أظهرنا الآيات

التي إقترحوها على الأمم الماضية فلم يؤمنوا عندها فأهلكناهم بتكذيبهم و إنكارهم، فهؤلاء أيضاً لا يؤمنون أو أنزلنا ما أرادوه فأَنّ حكم الأمثال واحد ولم يعلموا هؤلاء الكفار أنه لو أظهرنا عليهم ما إقترحوه من الآيات ثم لم يؤمنوا بها بعد نزولها لوجب عليهم العذاب كما وجب على من قبلهم بعد نزول الآيات إذ لا إمهال بعد الآيات:

قال الله تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَ
اتَّبَعْنَا ثُمَّ دُ الْعَاقَةُ مُبْصِرَةٌ^(١).

و قال بعض المفسرين أراد الله بهذا الإجتماع عليهم أن يبين أن سبب مجي الآيات ليس لأنه سبب يؤدي الى إيمان هؤلاء و أنما مجيها على أساس اللطف و المصلحة بدلالة أنها لو كانت سبباً لإيمان هؤلاء لكانت سبباً لإيمان أولئك قبلهم فلما بطل كونها سبباً لإيمان أولئك بطل أن تكون سبباً لإيمان هؤلاء على هذا الوجه.

أقول: و الذي يقوي في النظر هو أن سنة الله جرت على نزول العذاب و الهلاك بعد تمامية الحجة كما في قوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و غيرهم و هؤلاء الكفار الذين يقترحون الآية كأنهم لم يعلموا بذلك و أن عدم نزول الآية التي إقترحوها لطف في حقهم و عناية من ربهم لأنه يمنع العذاب عنهم في الدنيا.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

لما تقدّم من قول الكفار، هل هذا إلا بشر مثلكم، أجاب الله تعالى في هذه الآية فقال ما أرسلنا قبلك إلا بمحمد إلا رجالاً أي بشرأ ولم نرسل ملكاً إلى الناس

قَطَّ أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ وَ قُلْ لَهُمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَ اِخْتَلَفُوا فِي الْمَرَادِ بِأَهْلِ الذِّكْرِ، فَقَالَ قَوْمٌ هُمْ أَحْبَابُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ أَعْنِي بِهِمَا التَّوْرَةُ وَ الْإِنْجِيلُ فَإِنَّ شَهَادَتَهُمْ تَقُومُ بِهَا الْحُجَّةُ فِي إِرْسَالِ اللَّهِ الْبَشَرَ.

وَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ أَنَا أَهْلُ الذِّكْرِ، وَ قِيلَ الْمَرَادُ بِهِ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ التَّوْرَةِ، وَ قِيلَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالسَّيْرِ وَ قِصَصِ الْأُمَمِ الْبَائِدَةِ وَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ فَأَنْتَهُمْ كَانُوا يَفْصَحُونَ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَ إِذَا كَانَ أَهْلُ الذِّكْرِ أَرِيدَ بِهِمُ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى فَأَنْتَهُمْ لَمَّا بَلَغَ خَبَرَهُمْ حَدُّ التَّوَاتُرِ جَازَ أَنْ يَسْأَلُوا وَ لَا يَقْدَحَ فِي ذَلِكَ كَوْنُهُمْ كَفَّارًا.

وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ

الجسد يقع على ما لا يتغذى من الجمداد و قيل يقع على المتغذي فعلى الأول يكون النفي قد وقع على الجسد و على الثاني مثبتاً و النفي أنما وقع على صفته و وحّد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال ذوي ضرب من الأجساد و هذا ردُّ لقولهم، مال هذا الرسول يأكل الطعام، و هذه الجملة من تمام الجواب للمشركين الذين قالوا هل هذا إلّا بشر مثلكم.

لأنَّ البشريّة تقتضي الجسميّة الحيوانيّة و هذه لا بدّ لها من مادّة تقوم بها خرجوا بذلك في قولهم: هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يأكل ممّا تأكلون منه و يشرب ممّا تشربون ولما أثبت أنّهم كانوا أجساداً يأكلون الطّعام بيّن أنّهم ما لهم إلى الفناء و التّفاد و نفى عنهم الخلود و هو البقاء السّرمدى و الحاصل أنّ هؤلاء الرُّسُلَ يموتون كغيرهم من البشر و يجري عليهم ما يجري عليهم من الأكل و الشُّرب و الحياة و البقاء و غير ذلك ممّا هو ثابت للبشر و الذي صاروا به رسلاً هو ظهور المعجزة على أيديهم و عصمتهم من الصّفات القادحة في التّبليغ و غيره و في قوله: وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ أي ما كانوا خالدين في الدنّيا إشارة إلى أنّ الخلود فيها لا يمكن لأحدٍ من المخلوق كائناً من كان مصيره إلى الفناء.

فصل القرآن في خلقهم

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

قال الله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(١).

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ
ذكر الله تعالى سيرته مع أنبيائه فقال ثُمَّ صَدَقْنَاهُم الْوَعْدَ مِنَ النَّصْرِ وَالنَّجَاةِ وَالظُّهُورِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، و يحتمل أن يكون المراد بالوعد ما وعدهم الله تعالى من نزول العذاب على الكفار المعاندين و قول الكفار لأنبيائهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين و في الآية إشارة إلى أَنَّ اللَّهَ تعالى لا يخلف الميعاد و قد صرَّح بذلك في قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا^(٢).

و قوله: فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ معناه فَأَنْجَيْنَا الْأَنْبِيَاءَ وَمَنْ نَشَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ كَمَا فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَأَنْجَى اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْهُ وَ فِي قَوْلِهِ: وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ إشارة إلى أَنَّ الْعَذَابَ حَقٌّ لِمَنْ أَسْرَفَ فِي الْعَصْيَانِ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى مَجْرَدُ الْعَصْيَانِ لَا يُوجِبُ نَزُولَ الْعَذَابِ وَ أَمَّا يُوجِبُهُ الْإِسْرَافُ فِيهِ وَلَعَلَّهُ لِهَذِهِ النِّقْطَةِ لَمْ يَقُلْ وَأَهْلَكْنَا الْكَافِرِينَ وَ الْإِسْرَافُ هُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ الْحَدِّ وَ هُوَ مَذْمُومٌ فِي الْعَقْلِ وَ الشَّرْعِ أَيْنَمَا وَجَدَ وَإِذَا كَانَ الْإِسْرَافُ فِي الْمَعْصِيَةِ وَ الطَّغْيَانِ سَبَباً لِنَزُولِ الْعَذَابِ فَفِي الْحَقِيقَةِ يَكُونُ الْمُسْرِفُ سَبَباً وَ بَاعِثاً لِلْعَذَابِ فَهُوَ الَّذِي أَهْلَكَ نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ كَمَا:

قال الله تعالى: وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ^(٣).

قال الله تعالى: أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ^(٤).

و قال قتادة المسرفون هم المشركون، و الحق ما ذكرناه فَأَنْ مَجْرَدُ الشَّرْكِ لَا يَعْدُ مُسْرِفاً وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

قال المفسرون المراد بالكتاب هو القرآن وإختلفوا في معنى الذكر فقال الحسن معناه فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، وقيل فيه شرفكم أن تمسكتكم به و عملتم بما فيه، وقيل ذكر، لما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وقيل فيه ذكركم، أي فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب.

وقال صاحب التحرير الذي يقتضيه سياق الآيات أن المعنى فيه ذكر مشائنكم وما عاملتم به أنبياء الله من التكذيب والعناد فعلى هذا تكون الآية ذمًا لهم وليست من تعداد النعم عليهم ويكون الكلام على سياقه إنتهى.

والحق أن الذكر في الآية بمعنى الشرف والمعنى أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه فيه شرفكم و فضيلتكم و خيركم في الدنيا والأخرة أفلا تعقلون ذلك.

وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ

كلمة، ما، تستعمل للكثرة، وهى ضد رب فإنها تستعمل للتعليل أي، كم، في موضع نصب، قَصَمْنَاو الْقَصْمُ بفتح القاف و سكون الميم كسر الصلب قهراً يقال قصمه يقصمه قصماً فهو قاصم الجابرة فمعنى قوله: وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ، أي كثيراً و المراد بالقرية أهلها إذ لا توصف القرية بالظلم و هذا كقوله من هذه القرية الظالم أهلها، فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و التقدير من أهل قرية و هم ساكنوها من البشر و قوله: وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا أي أوجدنا بعد هلاك أهل القرية قوماً آخرين و أنما قال و أنشأنا ولم يقل و أوجدنا أو خلقنا، لأن الإنشاء إحداث الشيء و تربيته و فيه نشأ السحاب لحدوثه في الهواء و تربيته شيئاً فشيئاً فالإنشاء إيجاد الشيء و تربيته لا مجرد الإيجاد و أكثر ما يقال ذلك في الحيوان:

قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ^(١).
قال الله تعالى: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا^(٢).

وقال بعضهم أكثر ما يقال ذلك في الحيوان ومعنى الآية أن كثيراً من أهل القرى أهلكتناهم إهلاكاً شديداً وأوجدنا بعدهم قوماً آخرين.

نقل عن ابن عباس أنه قال المراد بالقرية حضواء قرية باليمن وعن ابن وهب أنهما قريتان باليمن بطرا أهلهما، والحق أن ما ذكرناه على سبيل التمثيل لا على التعيين في القرية لأنكم، تقتضي التكاثر.

قال القرطبي في تفسير الآية يريد مدائن كانت باليمن وقال أهل التفسير والأخبار أنه أراد أهل حضواء وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مهديم وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له، كثير الثلج وليس بشعيب صاحب مدين لأن قصّة حضواء قبل مدة عيسى عليه السلام وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرّس في ذلك التاريخ نبياً اسمه حنظلة بن صفوان وكانت حضواء بأرض الحجاز من ناحية الشام فأوحى الله إلى إرميا أن أت بخت النّصر فأعلمه أنني سلطته على أرض العرب و أنني منتقم بك منهم وأوحى الله إلى إرميا أن أحمل معد بن عنان (عدنان) على البراق إلى أرض العراق كي لا تصيبه النّعمة والبلاء معهم فأنتي مستخرج من صلبه نبياً في آخر الزّمان اسمه محمّد فحمل معدّ وهو ابن اثنتي عشرة سنة فكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة اسمها معانة ثم أن بخت نصر نهض و كمن للعرب في مكان وهو أول من اتخذ المكامن فيما ذكروا ثم شنّ الغارات على حضور فقتل وسبى وخرب العامر ولم يترك بحضواء أثر ثم إنصرف راجعاً إلى السّود إنتهى والعلم عند الله.

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ

و الضَّمير في، و أحسُّوا، عائد على أهل المحذوف من قوله وكم قصمنا من قرية و لا يعود، على قوله قوماً آخرين، لأنَّه لم يذكر لهم ذنب يركضون من أجله و الضَّمير في، منها، عائد على القرية و يحتمل أن يعود على، بأسنا، لأنَّه في معنى الشُّدة فأثَّث على المعنى، و الرُّكض، العدو بشدَّة الوطئ يقال ركض فرسه إذا حثَّه على المَرِّ السَّريع فمعنى يركضون، يهربون من العذاب سراعاً كالمنهزم من عدوِّ، قيل أن بخت نصر بعث إليهم جيشاً فهزموه ثم بعث آخر فهزموه أيضاً ثم خرج إليهم بنفسه فهزمهم في الثالثة فلما أخذ القتل منهم ركضوا، هاربين فيقول الله تعالى:

لَا تَرْكُضُوا وَ أَرْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ
أي لا تهربوا من الهلاك و أرجعوا إلى ما كنتم فيه من منازلكم لعلكم تفيقوا
بالمسألة، المترف المنعم و التَّرف التَّعَمُّر.

قال ابن عطية يحتمل أن يكون هذا من قول رجال بخت نصر على الرواية المتقدمة فالمعنى على هذا أنهم خدعوه و إستهزؤا بهم بأن قالوا للهاربين منهم لا تقروا و أرجعوا إلى منازلكم لعلكم تسألون صلحاً أو جزية أو أمراً يتفق عليه فلما إنصرفوا أمر بخت نصر أن ينادي فيهم يا لثارات النُّبي المقتول فقتلوا بالسيف من آخرهم.

و قال قومٌ يحتمل أن يكون قوله: لَا تَرْكُضُوا إلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب.

و قال الزَّمخشرى يحتمل أن يكون القائل بعض الملائكة، و الأقوال كثيرة لا فائدة في نقلها إذ لا فائدة في تعيين القائل و أنما الكلام في المعنى و هو حاصل في المقام و هو أنَّ الفرار و الهزيمة لا ينفعكم و أنما النَّافع هو التَّوجه في سبب الحادثة و أنَّه كيف وقعتم فيما وقعتم فيه من القتل و الدَّلة.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ

الويل الوقوع في الهلكة والمعنى أنهم قالوا ليس لنا إلا الهلاك وذلك لأننا ظلمنا أنفسنا بترك معرفة الله وتصديق أنبيائه وركوب معاصيه وفي ذلك إقرارهم على نفوسهم بالخطأ ولم يعلموا أن الإقرار بعد الإنكار لا فائدة فيه فأنهم لما أنكروا معرفة الله وكذبوا أنبيائه بعد ظهور الأيان والمعجزات منهم قضى الله عليهم بالهلاك والفناء ولا راد لقضائه وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ أي ما زالوا يقولون ذلك حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ الحصيد قتل الإستئصال كما يحصد الزرع بالمنجل والخمود كخمود النار إذا طفيت وقيل أي موتى دون أرواح مشبهين بالنار إذا أطفأت، هذا.

أقول: يستفاد من الآية أن سبب القصيم والعذاب هو الظلم والظاهر أن المراد من الظلم هو جميع أقسام الظلم أعني بها الظلم على النفس والظلم على الغير والظلم على الله تعالى فالظلم على النفس كترك الواجبات وفعل المحرمات والظلم على الغير كقتل النفس بغير حق و غصب أموال الغير ومثال ذلك والظلم على الله هو الشرك به قال لقمان لابنه وهو يعظه يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(١) وقد صرح الله بذلك في كثير من الآيات: قال الله تعالى: فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(٣) والأيات كثيرة.

وأما قوله: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ الخ فالمعنى كانوا يكررون تلك الكلمة فلم تنفعهم وفيه إشارة إلى أن الندم بعد وقوع الحادثة لا فائدة فيه يسمى بتوبة فإن التوبة هي الرجوع عما كان عليه قبل وقوع العذاب:

قال الله تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ^(٢).

قال الله تعالى: فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٣).

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلَاتٍ تَحْذَرُهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَمَ تِلْكَ الْقُرَى الظَّالِمَةِ أَهْلِهَا أَتَبَعَ ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْهُ وَمَجَازَةً عَلَى مَا فَعَلُوا وَأَنَّهُ تَعَالَى أَنَّمَا أَنْشَأَ هَذَا الْعَالَمَ الْعُلُويَّ الْمَحْتَوِيَّ عَلَى عَجَائِبِ صَنْعِهِ وَغَرَائِبِ فِعْلِهِ وَهَذَا الْعَالَمَ السَّفْلِيَّ وَمَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجِمَادَاتِ وَالْمِعَادِنِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْهَوَاءِ وَالسَّحَابِ وَالرِّيَّاحِ عَلَى سَبِيلِ اللَّعِبِ بَلْ لِفَوَائِدٍ دِينِيَّةٍ تَقْضِي بِسَعَادَةِ الْأَبَدِ أَوْ بِشَقَاوَتِهِ وَقَدْ أَشَارَ بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

قال الله تعالى: مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَاجَلٍ مُسَمًّى^(٤).

قال الله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا^(٥).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ^(٦).

قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ^(٧) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

٢- الأنعام = ١٤٧

٤- الرُّوم = ٨

٦- المؤمنون = ١٧

١- غافر = ٨٥

٣- الأعراف = ٥

٥- ص = ٢٧

٧- إبراهيم = ١٩

قال الكرمانى فى، اللَّعْب، فعل يعدو إليه الجهل يروق أوله و لا ثبات له، فالمعنى أنما خلقنا هما لنجازي المحسين و المسي و ليستدل بهما على الوحداية و القدرة، و قوله: لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوَاً، أصل اللهو ما تسرع إليه الشهوة و يدعو إليه الهوى فعن ابن عباس و السدي هو الولد.

و قال الزجاج هو الولد بلغة حضر موت و على هذا فهو ردُّ على من قال إِتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا و قيل اللهو هنا اللَّعْب و قيل هو المرأة

قال قتادة هذا فى لغة أهل اليمن و تكون ردأ على من إدعى أن لله زوجة و معنى، من لدنا، من عندنا بحيث لا يطلع عليه أحد لأنه نقص فستره أولى.

قال الزمخشري بيّن أن السبب فى ترك إِتَّخَاذَ اللَّهِو اللَّعْب و إنتفاه عن أفعالي أن الحكمة صارفة عنه و إلا فأنا قادر على إِتَّخَاذه أن كنت فاعلاً لأنى على كل شيءٍ تقدير إنتهى.

أقول: ما ذكره الزمخشري لا بأس به على قول من قال اللهو هو اللَّعْب، و أما من فسره بالولد و المرأة فذلك مستحيل فى حقّه تعالى إذ لا تتعلّق به القدرة و الظاهر أن، إن، هنا شرطية و جواب الشرط محذوف يدلّ عليه جواب، لو، أي أن كنّا فاعلين إِتَّخَذْنَاهُ أن كنّا ممّن يفعل ذلك ولسنا ممّن يفعله.

و قال الحسن و قتادة، إن، نافية أي ما كنّا فاعلين.

و قال بعض المفسرين الإنكار على من أضاف ذلك إلى الله و حاجته بأنّه لو كان جائزاً فى صفته لم يتّخذ به حيث يظهر لكم أو لغيركم من العباد لما فى ذلك من خلاف صفة الحكيم الذي يقدر أن يستر النقص فيظهره و أنما إستحال اللهو على الله لأنّه غنى بنفسه عن كل شيءٍ سواه يستحيل عليه المرح، فى قوله: مِنْ لَدُنَّا، معناه فى السماء من الملائكة و قيل معناه ممّا نخلقه إنتهى.

و قال القرطبي معناه أي من عندنا لا من عندكم، و قال ابن جريح أي من أهل السماء لا من أهل الأرض، و قيل أراد الرّد على من قال أنّ الأصنام بنات الله أي كيف يكون منجوتكم ولدنا و قال ابن قتيبة الآية ردّ على النصارى.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ

القذف الرّمي وكلمة، بل، للإضراب أي بل نرمي بسرعة بالحقّ و هو القرآن على الباطل و هو شبههم و وصفهم الله بغير صفاته من الولد و غيره و قيل الحقّ عامّ في القرآن و الرّسالة و الشرع و الباطل أيضاً عامّ كذلك و المعنى أنّه تعالى يدحض الباطل بالحقّ و إستعار لذلك القذف و الدّفع تصويراً لإبطاله و إهداره و محقه فجعله كأنّه جرم صلب كالصّخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه أي أصاب دماغه و ذلك مهلك في البشر فكذلك الحقّ يهلك الباطل، يقال دفع الرّجل إذا شجّ شجّة تبلغ أمّ الدّماغ فلا يحيا صاحبها بعدها، و قوله: فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، أي هالكٌ مضمحلّ يقال زهق زهوفاً أي هلك، ولكم الويل، يعني الوقوع في العقاب جزاءً على ما تصفون الله به من إتخاذ الولد.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْثُونَ

اللام في قوله: لَهُ، للملك أو للإختصاص أي هو تعالى مالك من في السموات و الأرض من أصناف المخلوقات و أمّا قال من ولم يقل، ما، تغليبا لذوي العقول على غيرهم و هذا ممّا لا كلام فيه لأنّه تعالى خلقهم و أوجدهم و الخالق مالك لمخلوقه فهراً و أمّا قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ فالمراد بهم الملائكة أي يملكهم بالتّصرف فيه أيضاً، لا يستكبرون، هؤلاء عن عبادة الله، و لا يستحسرون، قال قتادة معناه لا يعيون، و قيل لا يملّون هكذا قيل في تفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

الكلام فأنهم عطفوا قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عَلَى قَوْلِهِ: مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أي له من في السموات والأرض ومن عنده، من الملائكة وكلهم لا يستكبرون عن عبادته، والذي يختلج بالبال هو أَنَّ الواو في قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ، ليست للعطف بل هي للإستئناف والدليل هو أَنَّ قوله: وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يشمل الكل من الملائكة وغيرهم وذلك لِأَنَّ الملائكة داخلون في قوله: مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، فلا يحتاج إلى قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ، وهو واضح لا خفاء فيه عند التأمل، فالحقُّ أَنَّ الكلام تمَّ عند قوله والأرض ثم إستأنف الكلام لإفادة معنى آخر وهو أَنَّ من عنده، من الملائكة لا يتكبرون عن عبادته ولا يستحسرون بخلاف من في الأرض من عباده فَأَنَّ منهم من لا يعبد ثم وصف الله تعالى الملائكة بأنهم يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أي ينزهونه عمَّا أضافه هؤلاء الكفار إليه من إتخاذ الصَّاحِبَةِ والولد وغير ذلك من القبائح لا يفترون، أي لا يملؤون بل هم دائمون على التَّسْبِيحِ والتَّزْيِينِ وفي هذا الكلام إشارة بل تنبيه على عصمة الملائكة وأنهم لا يعصون الله بخلاف الإنسان فَأَنَّهُ قد يطيع وقد يعصي وليس في هذا الكلام ما يدل على أفضلية الملائكة على الإنسان بقولٍ مطلقٍ وذلك لأنهم أي الملائكة خلقوا كذلك بخلاف الإنسان فَأَنَّ دواعي المعصية من الشَّهْوَةِ والغضبِ وحبِّ الأولاد وغيرها فيهم موجودة وهذا بخلاف الملائكة فَأَنَّهَُا متفية فيهم نعم أفضلية الملائكة ثابتة على كثيرٍ من النَّاسِ بل على أكثرهم بل أفضلية الحيوان أيضاً ثابتة عليهم فضلاً عن الملائكة وقد مرَّ الكلام فيه سابقاً بما لا مزيد عليه والحاصل أَنَّ الإنسان أفضل من الملائكة إذا وجد وأما البشر فلا.

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١)
 لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ
 رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا
 يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
 إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ
 مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ
 مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
 رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ
 (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ
 عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ
 بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
 خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ
 خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ
 مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ
 جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)
 وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ
 جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَ
 جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
 مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
 وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ
الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

◀ اللّٰغَة

الْهَيْئَةُ: واحدها، إله، و هو المعبود مطلقاً يقال آله إذا تحيّر وأنما سَمِيَ الله تعالى به لتحير العقول في كنه ذاته و قيل سَمِسَ به لإلتجاء الخلق اليه.
و قيل، آله، بمعنى عبد يقال آله فلان يأله، عبد، و قيل أصله، ولاه، فأبدل الهمزة من الواو تسميته به لكون كل مخلوقٍ و الهاً نحوه.
يُنْشَرُونَ: أي يحيون يقال أنشر الله الموتى فنشروا أي أحياهم فحيوا.
رَتَقًا: أي ملتصقين و قيل مسندتين لا فرج بينهما.
فَفَتَقْنَاهُمَا: الفتق ضد الرّتق.
رَوَاسِي: واحدها راسية و هي الجبل.
تَمِيدُ: الميد الإضطراب بالذهاب في الجهات.
فِجَاجًا: الفَجّ الطريق الواسع و جمعه الفجاج.
يَسْبَحُونَ: أي يجرون.
نَبْلُوكُمْ: البلاء الإختبار.

◀ الإعراب

مِنْ الْأَرْضِ صفة لألّٰهة إِلَّا آلَ اللَّهِ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنْ، إِلَّا، صفة بمعنى، غير، فَذَلِكَ الْجُمْهُورُ عَلَى النَّصْبِ بِالْفِعْلِ قَبْلَهُ وَ قَرَأَ بِالرَّفْعِ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ مُبْتَدَأِ الْحَقِّ فِي رَفْعِ الْإِبْتِدَاءِ وَ قِيلَ فِي مَوْضِعِ نَصْبِ بِفِعْلِ دَلَّ عَلَيْهِ نَجْزِيهِ وَ الْجُمْلَةُ جَوَابُ الشَّرْطِ فِجَاجًا حَالِ مَنْ، سَبَلَ، وَ قِيلَ، سَبَلًا، بَدَلَ، فِتْنَةً مُصْدَرِ مَفْعُولٍ لَهُ أَوْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ عَلَى الْمَصْدَرِ بِمَعْنَى نَبْلُوكُمْ أَيْ نَفْتَنُكُمْ بِهَا فِتْنَةً.

◀ التفسير

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرونَ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الدَّلَالَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَأَنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّهِمْ مَلِكٌ لَهُ وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُكْرَمِينَ هُمْ فِي خِدْمَتِهِ لَا يَفْتَرُونَ عَنْ تَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ تَوْبِيخِ الْمُشْرِكِينَ وَذَمِّهِمْ وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ، وَأَمْ، هُنَا مَنْقُطَةٌ تَقْدِرُ بَلْ وَالْهَمْزَةُ فِيهَا إِضْرَابٌ وَإِنْتِقَالٌ مِنْ خَبَرٍ إِلَى خَبَرٍ، وَاسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ وَالْإِنْكَارُ أَيْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ يَتَّصِفُونَ بِالْأَحْيَاءِ وَيَقْدِرُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الْإِمَامَةِ أَيْ لَمْ يَتَّخَذُوا إِلَهَةً بِهَذَا الْوَصْفِ بَلْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً جَمَادًا لَا تَتَّصِفُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى شَيْءٍ فَهِيَ عَيْنُ آلِهَةٍ لِأَنَّ مِنْ صِفَةِ الْإِلَهَةِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَامَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي مَعْنَاهُ، أَنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا كَانُوا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِحْيَاءِ الَّذِي مِنْ قَدْرِ عَلَيْهِ قَدْرٌ عَلَى أَنْ يَنْعَمَ بِالنَّعَمِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا الْعِبَادَةُ فَكَيْفَ يَسْتَحَقُّونَ الْعِبَادَةَ، وَحَكَى عَنِ الرَّجَاجِ أَنَّهُ قَرَأَ، يَنْشُرُونَ بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى هَلْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً لَا يَمُوتُونَ أَبَدًا وَبِقَوْلِهِمْ أَحْيَاءٌ أَبَدًا أَيْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِنْتَهَى.

أقول: فَمَعْنَى الْآيَةِ وَاضِحٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِلَهَ مِنْ يَقْدِرُ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَامَةِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِحْيَاءِ كَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا، وَأَمْ، اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ أَيْ لَمْ يَتَّخَذُوا إِلَهَةً تَقْدِرُ عَلَى الْإِحْيَاءِ أَوْ بِمَعْنَى، هَلْ، أَيْ هَلْ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ يَحْيُونَ الْمَوْتَى.

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

الضَّمِيرُ فِي، فِيهِمَا، عَائِدٌ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيْ لَوْ كَانَ، فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَهَةٌ كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ لَفَسَدَتَا أَيْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَعٌ عَمَّا يَقُولُونَ فِي حَقِّهِ مِنْ إِثْبَاتِ الشَّرِيكِ لَهُ.

المجلد الحادي عشر

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ قَدْ أَطَالُوا الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَلَا بَدَّ لَنَا أَيْضاً مِنْ الْبَحْثِ حَوْلَ الْآيَةِ لِأَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدَلَّةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَحَاصِلُ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَقَامِ هُوَ أَنَّ الْقَوْلَ بِوُجُودِ إِلَهَيْنِ يَفْضِي إِلَى الْمَحَالِّ وَمَا يَفْضِي إِلَى الْمَحَالِّ مَحَالٌّ فَالْقَوْلُ بِوُجُودِ إِلَهَيْنِ مَحَالٌّ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ تَقْرِيرُهُ إِنَّا لَوْ فَرَضْنَا وَجُودَ إِلَهَيْنِ فَلَا يَخْلُو حَالَهُمَا، إِمَّا أَنْ يَكُونَا قَادِرَيْنِ عَلَى كُلِّ الْمَقْدُورَاتِ بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَادِراً عَلَى كُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآخَرُ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَا غَيْرَ قَادِرَيْنِ كَذَلِكَ بَأَنْ يَكُونَا عَاجِزَيْنِ ضَعِيفَيْنِ عَنْ إِعْمَالِ الْقُدْرَةِ مَعاً، وَفِي الْمَقَامِ إِحْتِمَالٍ ثَالِثٍ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَادِراً عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ وَالْآخَرُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَيْهِ فَالشَّقُوقُ الْعَقْلِيَّةُ فِي الْمَقَامِ ثَلَاثَةٌ.

قُدْرَتُهُمَا مُطْلَقاً، وَعَدَمُ قُدْرَتِهِمَا مُطْلَقاً، وَوُجُودُ الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ لِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ فَهَذِهِ هِيَ الشَّقُوقُ الْمَحْتَمَلَةُ عَقْلاً فِي الْمَقَامِ وَلَا رَابِعَ لَهَا إِذَا عُرِفَتْ هَذَا.

فَنَقُولُ أَمَّا كَوْنُهُمَا عَاجِزَيْنِ عَنِ الْقُدْرَةِ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْبَحْثِ لِأَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَكُونُ إِلَهاً لِأَنَّ الْعَجْزَ نَقْصٌ وَالتَّقْصُ مِنْ شَتَّى الْإِمْكَانِ وَالْوَاجِبُ مَنْزَعٌ عَنْهُ سِوَاءَ كَانُ وَاحِداً أَوْ أَكْثَرَ، وَبِهَذَا الْبَيَانِ خَرَجَ أَيْضاً كَوْنُ أَحَدِهِمَا عَاجِزاً عَنِ الْبَحْثِ وَهُوَ ظَاهِرٌ فَإِنَّ الْعَاجِزَ مُضَافاً إِلَى أَنَّهُ نَاقِصٌ وَالتَّقْصُ لَا يَلِيْقُ بِالْوَاجِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، مَقْهُورٌ مَغْلُوبٌ لِشَرِيكَهِ قَهْراً فَإِنَّ إِلَهَهُ الْقَادِرَ غَالِبٌ عَلَى الْعَاجِزِ فَكَيْفَ يَصْدُرُ الْفَعْلُ عَنِ الْعَاجِزِ مَعَ وَجُودِ الْقَادِرِ، بَقِيَ فِي الْمَقَامِ كَوْنُهُمَا قَادِرَيْنِ أَوْ أَحَدَهُمَا قَادِرٌ وَالْآخَرُ غَيْرُ قَادِرٍ، فَنَقُولُ لَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا قَادِراً وَالْآخَرُ غَيْرُ قَادِرٍ فَالْقَادِرُ هُوَ إِلَهٌ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ فَثَبِتَ أَنَّ إِلَهَهُ وَاحِداً قَادِراً وَمَا فَرَضْنَاهُ شَرِيكاً لَهُ خَارِجٌ عَنِ الْأُلُوهِيَّةِ وَلَا نَعْنِي بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا هَذَا.

وَأَمَّا كَوْنُهُمَا، قَادِرَيْنِ عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ بِحَيْثُ كَانَ قُدْرَتُهُمَا عَلَى حَدٍّ سِوَاءٍ فَهَذَا هُوَ مَحَلُّ الْبَحْثِ وَالْآيَةُ نَازِلَةٌ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ فَسَادُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَقْرِيرُهُ مِنْ وَجْهِ:

أحدهما: أنه لو كان كل واحدٍ منهما قادراً على تحريك الفلك و تدبيره مثلاً فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه و الآخر تسكينه و المفروض أن كلاً واحدٍ منهما قادر على إنفاذ قدرته يلزم حركة الفلك و سكونه في آنٍ واحدٍ و هو محال و لا نغنى بالفساد إلا هذا.

إن قلت: يمكن إتفاقهما على التَّحريك أو التَّسكين فلا يلزم الفساد.

قلت: ليس البحث في تحريك الفلك أو تسكينه فقط بل البحث في كلِّ المقدورات و أنما ذكرنا الفلك بعنوان المثل لأنَّ قوله لفسدتا أي فسدت السموات و الأرض جميعاً فيدخل في البحث جميع ما بينهما من المقدورات مثل أن أراد أحدهما حياة زيد و الآخر موته أو أراد أحدهما نزول المطر و الآخر عدمه أو أحدهما أراد وقوع العذاب و الآخر عدمه و هكذا في جميع المقدورات و هذا ظاهر.

إن قلت: يمكن إتفاقهما في جميع المقدورات بحيث لا يكون بينهما اختلاف من جهة الإرادة و بعبارة أخرى نفرض فيهما أو في جميع الآلهة وحدة الإرادة و بذلك يرتفع الإشكال.

قلت: وحدة الإرادة في الإلهين أو الآلهة لا يعقل بل هو مجرد فرض لا يمكن القول به إذا تكثر المريد يوجب تكثر الإرادة فأنَّ لكلِّ موجودٍ إرادةً مخصوصةً به هذا، مضافاً إلى أنَّ الإرادة لو كانت واحدة في جميع الآلهة فلا نحتاج إلى القول بكثرة الآلهة إذ المفروض أنَّ الإرادة في الجميع واحدة بمعنى أنَّ ما أراد أحدهم أَرادَه الجميع ففي هذه الصُّورة أيَّ إحتياج بتعدد الآلهة و المفروض أنَّ الفرض يحصل بوجود واحدٍ منهم فالواحد هو الإله و هو المطلوب.

و قد يقرَّر هذا الدليل بوجهٍ آخر و هو أنَّ الإلهين أو أكثر إذا اختلفت الإرادة فيهما فأمَّا أن يقع مراد كلِّ واحدٍ منهما و هو محال لإستحالة الجمع بين الضدين، أو لا يقع واحدٍ منهما و هو أيضاً محال لإستحالة ارتقاء المرادين و المفروض أنَّهما قادرين على كلِّ شيءٍ مضافاً إلى أنَّ المانع من وجود أحد

المرادين هو مراد الآخر كما هو المفروض فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو إمتنعاً معاً وذلك محال، وأما أن يقع مراد أحدهما دون الآخر فهو أيضاً محال لأن المفروض تساوي قدرتهما فوقوع المراد من أحدهما دون الآخر يحتاج الى مرجح وكل محتاج الى مرجح ناقص في ذاته من حيث القدرة وقد فرضناه قادراً على كل مقدور هف.

هذا مضافاً الى أن الذي لم يقع مراده عاجزٌ ضعيفٌ والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً وهو ظاهر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه فإن قيل الفساد أنما يلزم عند إختلافهما في الإرادة وأنتم لا تدعون وجوب الإختلاف فيها بل أقصى ما تدعونه أن إختلافهما فيها ممكنٌ فإذا كان الفساد مبنياً على الإختلاف في الإرادة وهذا الإختلاف ممكنٌ والمبني على الممكن ممكنٌ، فكان الفساد ممكنًا لا واقعاً فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد.

قلنا لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناءً على الظاهر من حيث أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب.

والثاني: وهو الأقوى أن يبين لزوم الفساد لا من الوجه الذي ذكرناه بل من وجه آخر.

فنقول: لو فرضنا ألّهين لكان كل واحدٍ منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضي الى وقوع مقدورٍ من قادرين مستقلّين من وجهٍ واحدٍ وهو محال لأن إستناد الفعل الى الفاعل لإمكانه فإذا كان كل واحدٍ منهما مستقلاً بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده الى هذا لكونه حاصلًا منهما جميعاً فيلزم إستغنائه عنهما معاً وإحتياجه اليهما معاً محال و هذه حجة تامّة في مسألة التوحيد فنقول القول بوجود الإلهين يفضي الى إمتناع وقوع المقدور لواحدٍ منهما وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع ألبته و حينئذٍ يلزم الفساد قطعاً.

أو نقول لو قدرنا الهين فأما أن يتفقا أو يختلفا فإن إتفقا على الشئ الواحد مقدورٌ لهما و مرادٌ لهما فيلزم وقوعه بهما و هو محال و إن اختلفا فأما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر و الكل محال فثبت أن الفساد لازمٌ على كل التقديرات إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول: ما ذكره لا بأس به إلا أنه يتم على مذهب من يقول باستحالة توارد العلتين على معلولٍ واحدٍ و هو مذهب كثير من الفلاسفة لولا أكثرهم لذهابهم الى أن الواحد لا يصدر إلا من الواحد كما أن الواحد لا يصدر منه إلا الواحد فمن ذهب الى صحة هذه القاعدة وتماميتها يقول بِلستحالة صدور معلولٍ واحدٍ من علتين مستقلتين و من أنكر القاعدة لا يقول بالاستحالة و قد رأيت في بعض تأليفات الرّازي على ما يبالي إنكاره لصحة القاعدة فكيف إستدل بها في المقام و لنا أيضاً في صحة القاعدة و تماميتها كلام في محلّه و لذلك لم نحتجّ بما احتجّ به الرّازي في المقام و محصل الكلام أن النظم الكلّي في نظام عالم الوجود ممّا في السموات و الأرض يقتضي عقلاً أن يكون خالق العالم و مدبره واحداً إذا لشركه في الخلقية و تدبير أمور الخلق توجب إختلال النظام و فساد الأركان مضافاً الى أن تعدد الآلهة أمرٌ غير معقول في نفسه مع قطع النظر عن فساد العالم على ما مرّ بيانه و ذلك لأن الإلهين أو الإله أما أن يكونا موجودين أو معدومين لا سبيل الى الثاني لأنّ المعدوم لا يكون ألهاً فلا يكون خالقاً.

و هو معلوم و إذا كانا موحودين كما هو المفروض فلا بدّ و أن يشتركا في الوجود و يمتاز كلّ واحدٍ منهما عن الآخر بنفسه.

و من المعلوم أن ما به الإشتراك غير ما به الإمتياز إذ لولا ذلك لأنتفت الأثنية، و إذا كان ما به الإشتراك غير ما به الإمتياز يلزم أن يكون كلّ واحدٍ منهما مركباً ممّا به يشارك الآخر و ممّا به إمتاز عنه و كلّ مركبٍ فهو مفتقر الى أجزاءه و كلّ مفتقرٍ ممكن الوجود لذاته فيلزم أن يكون الواجب لذاته ممكن الوجود لذاته هف.

فإذاً واجب الوجود لا يكون إلا واحداً و ما عداه ممكن مفقود اليه المطلوب.

ثانياً: نقول أنَّ أحد الإلهين أو الإله أَمَا أن يكون كافياً في خلق العالم و تدبيره أو لا يكون إلا بمشاركة الغير فعلى الأول هو الإله و ما سواه عبث ضائع غير محتاج اليه.

و على الثاني فالكل متَّصف بالضعف و العجز و ما كان عاجزاً ضعيفاً فهو مخلوق و المخلوق لا يكون واجب الوجود و هو أيضاً ظاهر و الدلائل العقلية في المقام كثيرة و فيما أشرنا إليه كفاية لأولى الدرایة و الى هذا المعنى أشار الله بقوله: فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ أَيَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنزَةً عَنِ الشَّرِّكَ فَإِنَّ الشَّرْكَ بِاللَّهِ مِنْ أَظْظَمِ الظُّلْمِ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ لَقْمَانَ حَيْثُ قَالَ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(١).

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ

إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء و ليس لغيره من المخلوق أن يفعل ما يشاء فهو تعالى لا يسئل عما يفعل لأنَّه فعل ما فعل في ملكه و غيره مسئولٌ عن فعله لأنَّه فعل ما فعل في ملك غيره أي في ملك الله فهو عاص متجاوزٌ عن حدِّه فلا جرم يسئل المالك الحقيقي عنه و قد أطلال الرّازي البحث في هذا الكلام و نحن نذكر شرطاً ممّا ذكره.

قال المسئلة الثانية: في الدلالة على أنَّه سبحانه لا يسئل عما يفعل إمّا أهل السُّنة فأنَّهم استدلوا عليه بوجوه.

أحدها: أنَّه لو كان كلُّ شيء معتلاً بعلّةٍ لكانت علّة تلك العلّة معللة بعلّةٍ أخرى و يلزم التّسلسل فلا بدّ في قطعه من الإنتهاء الى ما يكون غنيّاً عن العلّة و أولى الأشياء بذلك ذات الله و صفاته و كما أنَّ ذاته منزّهة عن الإفتقار الى

المؤثر و العلة و صفاته مبرأة عن الإفتقار الى المبدع و المخصّص فكذا فاعليّته يجب أن تكون مقدّسة عن الإستناد الى الموجب و المؤثر إنتهى.

أقول: أمّا أنّ كلّ شيء معلّل بعلة فهو قاعدة عقلية كلية لا تقبل التّخصيص إذ لا تخصيص في العقليّات و إلّا يلزم وجود المعلول بدون العلة و هو غير معقول بل من المحالات و أمّا قوله لكانت عليّة تلك العلة معللة بعلة أخرى، فهو كلامٌ عابر عن التّحصيل كيف و العليّة من الأمور الإنتزاعيّة التي تنتزع عن ذات العلة و الأمر الإنتزاعي يدور مدار منشأ الإنتزاع يوجد بوجوده و يعدم بعدمه وليست العليّة من الأمور المتحصّلة الموجودة في الخارج حتّى يقال فيها ما يقال في غيرها فهي تقطع بقطع الإنتزاع.

فقوله لا بدّ في قطعه من الإنتهاء الى ما يكون غنيّاً عن العلة، لا نفهم معناه و كيف يعقل أن يكون المعلول غنيّاً عن العلة و أعجب من ذلك كلّ قوله و كما أنّ ذاته منزّهة عن الإفتقار الى المؤثر و العلة و صفاته كذلك، فكذا فاعليّته يجب أن تكون مقدّسة عن الإستناد الى الموجب و المؤثر، وجه التّعجب أنّه لم يفرّق بين الذات و الفعل الصّادر عنه ففاس أحدهما بالآخر ولم يعلم أنّ الفعل يحتاج الى الفاعل و هو المؤثر في إيجادّه لأنّه أثر الفاعل و الأثر مفتقرٌ الى المؤثر قطعاً و هذا بخلاف الذات الواجبي فأنّه ليس أثراً لشيء آخر حتّى يحتاج إلى المؤثر.

قال الزّبي و ثانيهما: أنّ فاعليّته، لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة أمّا أن تكون واجبة أو ممكنة فإن كانت واجبة لزم من وجوبها كونه فاعلاً و حينئذ يكون موجباً بالذات لافاعلاً بالإختيار و أن كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلاً لله تعالى أيضاً فتفتقر فاعليّة لتلك العلة إلى علةٍ أخرى و لزم التّسلسل محال إنتهى.

و الجواب أنّ فاعليّته معللة بعلة هي ذاته تعالى قوله أنّ العلة أمّا أن تكون واجبة أو ممكنة، نقول أنّها واجبة، و قوله لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلاً فيكون موجباً بالذات لا فاعلاً بالإختيار.

نقول في جوابه لا ملازمة بين وجوب العلة و وجوب كونه فاعلاً بل هي أي العلة و هي الذات المقدسة فاعل بالإختيار أن شاء فعل و أن لم يشاء لم يفعل و ليس فاعلاً بالإيجاب كما هو ثابت في محله.

قال الرّازي و ثالثها: أنّ علة فاعلية الله تعالى للعالم أن كانت قديمة لزم أن تكون فاعلية للعالم قديمة فيلزم قدم العالم و أن كانت محدثة إفتقرت إلى علة و لزم التسلسل إنتهى.

و الجواب أنّ الفاعلية غير الفعل لأنّها منتزعة عن الفعل فوجودها يدور مدار وجود الفعل فما لم يوجد الفعل لا يقال لموجده أنّه فاعلٌ فقلوه أنّ علة فاعلية الله أن كانت قديمة لزم أن تكون فاعلية قديمة فيلزم قدم العالم أن كان مراده بالفاعلية القدرة على الفعل فهي قديمة و لا يلزم منه قدم العالم كما زعم الرّازي لأنّ العالم لم يوجد بعد و أن كان مراده منها مفهومه المنتزع عن الفعل فهو حادث و لا إشكال فيه و هكذا الكلام في سائر أدلّته التي ذكرها في المقام فأنك بعد إمعان النّظر فيها تقدر على الجواب عنها هذا كلّ مع أنّ البحث في الآية أجبتني عن هذه الأمور فأنّ الله تعالى يقول لا يسأل الله عمّا يفعل، و أيّ ربط بينه و بين ما ذكره الرّازي من كون الشّيء معلّ أو غير معلّل إلى آخر ما ذكره، فمعنى الكلام أنّ الله تعالى خالق لجميع الموجودات فكلّ ما سواه مخلوق له و ليس للمخلوق أن يسأل خالقه عن خلقه إياه و غيره فيقول لخالقه لم خلقتني أو لم خلقت العالم فأنّ هذا السّؤال قبيح عقلاً و هذا لا يحتاج إلى الإستدلال و لا سيّما عن الخالق العالم بجميع الأمور و هذا ظاهر.

و أمّا قوله: **وَهُمْ يُسْأَلُونَ**، فأنّه حقّ لا مرية فيه لأنّه تعالى خلقهم و أعطاهم النّعم الكثيرة التي لا تعدّ و لا تحصى كما قال تعالى: **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا** فله أن يسألهم عن كيفية مصرفها في الدنّيا ثمّ كلّفهم بالتكاليف الشرعية من الواجبات و المحرّمات و هو تعالى سائلهم عنها أيضاً و حقّ له أن يسأل عقلاً.

نعم ورد في الأخبار الواردة عن الأئمة أن الله يسألهم عما عهد إليهم يسألهم عما قضى عليهم و سيأتي الكلام في هذا الباب عند قوله تعالى: وَقِفُوهُمْ أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ فإنتظره فأَنَّ الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدى:

قال الله تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ^(١).

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ

ثم كرر تعالى عليهم الإنكار والتوبيخ فقال أَمْ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ دُونَ اللَّهِ، أَلَهُةَ إِسْتِفْظَاعاً لِسَانِهِمْ وَإِسْتِعْظَاماً لِكُفْرِهِمْ وَزَادَ فِي هَذَا التَّوْبِيخِ قَوْلَهُ: مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَكَأَنَّهُ وَبَّخَهُمْ عَلَى قَصْدِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِتْيَانِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ عَلَى مَا اتَّخَذُوا فَقَالَ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ تَقُومُ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى شَرِيكاً لَا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ وَلَا مِنْ جِهَةِ النُّقْلِ بَلْ كَتَبَ اللَّهُ السَّابِقَةَ شَاهِدَةً بِتَنْزِيهِهِ تَعَالَى عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالْأُنْدَادِ كَمَا فِي الْوَحْيِ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، ثُمَّ قَالَ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ، أَيِ عِظَّةٍ لِلَّذِينَ مَعِيَ وَهُمْ أُمَّتُهُ، وَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِي وَهُمْ أُمَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فَالذِّكْرُ فِي الْآيَةِ يَرَادُ بِهِ الْكُتُبُ الْإِلَهِيَّةُ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، هَذَا، إِشَارَةً إِلَى الْقُرْآنِ وَالْمَعْنَى فِيهِ ذِكْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ فَذِكْرُ الْآخَرِينَ بِالذِّعْوَةِ وَبَيَانِ الشَّرْعِ لَهُمْ وَ ذِكْرُ الْأَوَّلِينَ بِقِصَصِ أَخْبَارِهِمْ وَ ذِكْرُ الْغُيُوبِ فِي أُمُورِهِمْ وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا عَرَضَ الْقُرْآنُ فِي مَعْرِضِ الْبُرْهَانِ أَيِ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَهَذَا بُرْهَانِي فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ، وَقِيلَ مَعْنَى، مَعِيَ، هُنَا، عِنْدِي، وَ الْمَعْنَى هَذَا ذِكْرٌ مِنْ عِنْدِي وَ مِنْ قَبْلِي أَيِ أَذْكُرْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي عِنْدِي كَمَا ذَكَرَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي أَقْمَهُمْ وَ قَرَأَتْ فِرْقَةٌ، ذِكْرٌ مِنْ بِالْإِضَافَةِ، وَ ذَكَرْتُ مَنْوَنًا مَنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

الجلد العادي عشر

قبلي بكسر الميم، من، و عليه فالمعنى هذا القرآن ذكر من معي من أمتي و هو أي القرآن ذكر من قبلي من الأنبياء أيضاً ثم قال تعالى بل أكثرهم لا يعلمون الحق، أي أصل شرهم و فسادهم هو الجهل و عدم التمييز بين الحق و الباطل و من ثم جاء الإعراض عنه و على هذا فالحق نصب على المفعول به و قال ابن عطية حكم الله تعالى عليهم بأن أكثرهم لا يعلمون الحق لإعراضهم عنه و ليس المعنى فهم معرضون لأنهم لا يعلمون بل المعنى فهم معرضون و لذلك لا يعلمون الحق إنتهى.

أقول: ما ذكره هذا القائل من قبيل الأكل من القفا و ذلك لأن الإعراض عن الشيء عن الجهل به لا أن الجهل مسبب عن الإعراض ولو كان كذلك لقال بل أكثرهم أعرضوا عن الحق لعدم علمهم به و الحق أن الفاء للتفريع و المعنى أنهم لا يعلمون فهم معرضون عنه فعلة الإعراض هي الجهل، ثم أن في الآية إشعار بل دلالة على أن العاقل لا يسلك مسلكاً لا دليل على صحته في جميع أموره و لا سيما في دينه و عبادته فكيف إتخذوا الأصنام و الأخشاب و غيرها من الجمادات ألهة و لا برهان لهم على صحة ذلك قل يامحمد لهم عاتوا برهانكم، و حيث لا برهان لهم فهم خارجون عن العقلاء و هو ظاهر.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

لما ذكر الله تعالى علمهم بالحق و إعرضهم عنه أخبر في هذه الآية أنه ما أرسل من رسولٍ إلا جاء مقررّاً لتوحيد الله و إفراده بالإلهية و الأمر بالعبادة و لما كان قوله: مِنْ رَسُولٍ عاماً لفظاً و معنى أفرد على اللفظ في قوله: إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ، ولم يقل نوحى إليهم، ثم جمع على المعنى في قوله: فَاعْبُدُونِ بكسر النون أي فاعبدوني، حذفت الياء و بقيت الكسرة للدلالة عليه و يحتمل أن يكون الأمر له ﷺ و لأمته و هذه العقيدة من توحيد الله لم تختلف فيها

بالتبوت و أتما و مع الاختلاف في أشياء من الأحكام، ثم أن القراءة المشهورة في الآية نُوحِيْ بِاللُّوْنِ و قرأ بعضهم بالياء و فتح الحاء بصيغة المجهول.

قال الرُّمَانِي: إِيَّا، في قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، صفة وليست بإستثناء لأنك لا تقول لو كان معنا إِيَّا زيد لهلكنا على الإستثناء لأن ذلك محال من حيث أنك لم تذكر ما تستثنى منه كما لم تذكر في قولك كان معنا إِيَّا زيد فهلكنا، قال الشاعر:

و كلَّ أخٍ مفارقة أخوه لعمر أبيك إِيَّا الفرقدان

أراد و كلَّ أخ يفارقه أخوه غير الفرقدين، إنتهى.

أقول: و على هذا فمعنى قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لا إله غير الله ثم أن الله تعالى نزّه نفسه عما نسبوا إليه من الولد فقال:

و قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ

قيل نزلت الآية في خزاعة حيث قالوا أن الملائكة بنات الله و قالت النصارى نحو هذا في عيسى و قالت اليهود في عزيز أو المسيح و القائل بنزول الآية في خزاعة صاحب الكشاف و تبعه على ذلك القرطبي و الرازي ممن تأخر عنه و المشهور بين القدماء من المفسرين أنها نزلت في جميع الكفار القائلين بهذه المقالة السخيفة وكيف كان فالأمر سهل فإن الله حكى عن هؤلاء الكفار الذين تقدّم ذكرهم أنهم قالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا من ملائكة أو من غيرهم فقال جلّ ثناؤه إستعظاماً ممّا قالوا و تَبَرُّياً ممّا وصفوه به، سبحانه، أي أنه تعالى منزّه عن ذلك بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ أي هؤلاء الذين جعلوهم أولاد الله هم عبيد له مكرمون لديه.

نقل الطبري عن قتادة في هذه الآية أنه قال قالت اليهود أن الله تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة و أتما نزّه الله نفسه من ذلك لأنه لا يجوز عليه التبني لأن التبني إقامة المتخذ لولد غيره مقام ولده لو كان له فإذا إستحال أن يكون له تعالى ولد على الحقيقة إستحال أن يقوم ولد غيره مقام ولده و لذلك

لا يجوز أن يشبه بخلقه على وجه المجاز لما لم يكن مشبهاً على الحقيقة قاله الشيخ في التبيان.

وقال الرازي ثم أنه تعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله: **سُبْحَانَهُ** لأن الولد لابد وأن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ثم لابد وأن يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب في ذات الله وكل مركب ممكن فإتخاذه للولد يدل على كونه ممكناً غير واجب يخرج عن حد الإلهية ويدخله في حد العبودية ولذلك نزه نفسه عنه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول: ما ذكره الرازي لا بأس به في الأصل إلا أنه خارج عن مورد البحث في المقام لأن الآية ليست بصدد بيان نفي الولد عن الله تعالى وأنه يمكن أن يكون له ولد أو لا بل الآية ناظرة إلى نفي إتخاذ الولد لنفسه بمعنى أنه تعالى إتخذ ولد غيره ولداً لنفسه مثل عيسى عليه السلام وعزير وبعبارة أخرى أنهم قالوا إتخذ الرحمن ولداً لنفسه ولم يقولوا أن لله ولد والفرق واضح نعم لو قالوا للرحمن ولد لثم ما ذكره الرازي فكأنه غفل عن هذه الدقيقة وكيف كان أنه تعالى نفي ذلك بقوله: **سُبْحَانَهُ** أي أنه منزّه ومبرأ عما يقولون من إتخاذ الولد سواء كان الولد من الملائكة أم من البشر فما قاله الزمخشري من أنه مخصوص بالملائكة لا دليل عليه بل هو عام يشمل الملائكة وغيرهم ثم قال تعالى بل عباداً مكرمون، الجمهور على التخفيف وقرأ عكرمة بالتشديد، وكلمة (بل) للإضراب أي أن الذين زعمتم أنهم أولاد لله تعالى عباد له ومن المقربين فضّلوا على غيرهم لمكان عبوديتهم وكيف يكون العبد ولداً ثم وصفهم.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

بقوله: **لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**

أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله: **وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** فكما أن قولهم تابع لقوله كذلك فعلهم مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم

يؤمروا به وهذه عبارة عن تَوَغُّلهم في طاعته و الإِمْتثال لأمره فَأَنْ كان قوله تابعاً لقول الله و فعله و عمله تابعاً لأمره و نهيه فهو في كمال الطَّاعة، إذ لا نعني بالمطيع إلَّا هذا قال الإمام الهادي عليه السلام في الزَّيَّارة المشهورة بالجامعة الكبيرة: «السَّلام على الدُّعاة إلى الله و الأدِّلاء على مرضاة الله و المسْتقرين في أمر الله و التَّامين في محبة الله و المخلصين في توحيد الله و المظهرين لأمر الله و نهيه و عباده المكرمين الَّذِينَ لا يسبقونه بالقول وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ».

و هذا الكلام منه عليه السلام دليل على أَنَّ المراد بالعباد المكرمين في الآية ليس الملائكة أو لا يختص بهم كما ذهب إليه بعض المفسرين بل لو قلنا أَنَّ العباد ظاهرٌ في الإنسان و لا تطلق على الملائكة إلَّا بضربٍ من المجاز لا إشكال فيه و أنما وصفهم الله تعالى بالمكرمين لأنَّ التَّقَرُّب إلى الله تعالى لا يحصل إلَّا بالطَّاعة و الإِتياد على وجه الأتَمِّ الأَكْمَل و الطَّاعة كذلك لا تحصل إلَّا بالقول و العمل معاً لا بواحدٍ منهما لأنَّ الطَّاعة بالقول فقط دون العمل نفاق، و العمل دون القول جهل، و الجاهل و المنافق مطرودان مردودان عن ساحة القرب و المتَّصف بهما معاً هو المطيع المقرب عند الله و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ

قال ابن عباس معناه، يعلم ما قَدَّموا و ما أَخَرُوا من أعمالهم و قال الكلبي ما بين أيديهم، يعني القيامة و أحوالها و ما خلفهم، يعني من أمر الدُّنيا.

أقول: ما ذكره ابن عباس في تفسير الكلام أقرب بسياق الكلام و ظاهر اللَّفْظ ممَّا ذكره الكلبي و غيره، و قيل معناه يعلم ما كان قبل أن خلقهم و ما كان بعد خلقهم و لمَّا كانوا مقهورين تحت أمره و ملكوته و هو محيطٌ بهم لم يجسروا على أن يشفعوا إلَّا لمن إرتضاه الله ثمَّ هم مع ذلك من خشيته أي من خشية ربِّهم مشفقون أي خائفون حذرون لا يأمنون.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره ما هذا لفظه:

فقلوه: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ، إستئناف في مقام التعليل لما تقدّمه من قوله، لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون، كأنه قيل أنما لم يقدموا على قولٍ أو عملٍ بغير أمره تعالى لأنه يعلم ما قدّموا من قولٍ و عملٍ و ما أخرّوا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث أنهم يعلمون ذلك و هو معنى جيد في نفسه لكنه إنّا يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصية لا لتعليل قصر عملهم على مورد الأمر و هو المطلوب.

على أن لفظ الآية لا دلالة فيه على أنهم يعلمون ذلك و لو لا ذلك لم يتمّ البيان إنتهى كلامه.

و قال في قوله: وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ تَضَى، تعرّض لشفاعتهم لغيرهم و هو الذي تعلّق به الوثنيون في عبادتهم الملائكة كما بينى عنه قولهم، هؤلاء شفعاؤنا عند الله و أنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، فردّ الله تعالى عليهم بأنّ الملائكة أنما يشفعون لمن إرتضاه الله و المراد به إرتضاء دينه لقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١) فالإيمان بالله من غير شرك هو الإرتضاء و الوثنيون مشركون، و قال في قوله: وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ هي الخشية من سخطه و عذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصية و ذلك لأنّ جعله تعالى إياهم في أمنٍ من العذاب بما أفاض عليهم من العصمة لا يحدّد قدرته تعالى و لا ينتزع الملك من يده فهو يملك بعد الأمن كما كان يملكه من قبله و هو على كلّ شيء قدير و بذلك يستقيم معنى الآية التالية إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: يظهر ممّا ذكره رحمته في تفسير الآية أنّها نزلت في قوم إتخذوا الملائكة معبودين لأنفسهم و جعلوهم شفعاء عند الله و ليس في الآية من الملائكة عينٌ و لا أثر فأُن.

قوله: **قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا** لا دليل فيه على أنهم إتخذوا الملائكة للرحمن ولداً فحمل الآية على العموم أولى مضافاً الى أنهم لم يثبتوا الولد لله تعالى بل أثبتوا له أنه إتخذ الولد أي أنه تعالى إتخذ عيسى مثلاً أو عزيزاً ولداً لنفسه و هو واضح فمعنى الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم كان محاطاً بعلمه تعالى لا يكون إلهاً و لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن إرضاه و هو أيضاً دليل على ضعفهم و إحتياجهم الى إذن الله في الشفاعة و من كان كذلك لا يكون إلهاً و هم من خشية الله مشفقون خائفون و الإله لا يكون خائفاً فقد ثبت بهذه الدلائل أن ما جعلوه ولداً له تعالى أو بمنزلة الولد ثم عبوده مخلوق له و كل مخلوق، لا ينبغي أن يعبد بل المعبود الذي ينبغي أن يعبد هو الذي خلق الأشياء و ما سواه مفتقر إليه لم يتخذ صاحبةً و لا ولداً ولم يكن له شريك في الملك و هو الواحد القهار.

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

أي و من يقل من هؤلاء المعبودين لهؤلاء الكفار إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ أي من دون الله فنجزيه جهنم لكونه ظالماً و يستفاد من قوله: **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ** أنه إن لم يقل بذلك أي لم يقر ولم يعترف بالوهمية نفسه فلا حرج عليه و لا نجزيه جهنم لأنه ليس ظالماً، و هو كذلك و بعبارة أخرى يثبت الظلم لمن إدعى الربوبية و رضى بها و أمّا من لم يدّعه فلا ذنب له و إنما الذنب ثابت لمن إتخذة ربّاً، من الجهال الذين وضعوا الشيء في غير موضعه و أداة الشرط تدخل على الممكن و الممتنع نحو قوله: **لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ** (١).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ
جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ

الهمزة، في قوله: أَوْ لَمْ يَرَ إِسْتِفْهَامٌ لِلتَّوْبِيخِ لِمَنْ إِدْعَى مَعَ اللَّهِ إِلَهُ مِنَ الْكُفَّارِ
و فيه دلالة على تنزيهه عن الشُّرْكِ و مع ذلك تأكيد لما تقدّم من أدلة التَّوْحِيدِ
و رَدُّ عَلَى عبدة الأوثان و الأصنام و كُلِّ مَنْ إِتَّخَذَ لِنَفْسِهِ إِلَهًا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ الْوَاحِدِ
الْأَحَدِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْإِلَهَ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَّصِرِ فِيهَا
كَيْفَ يَشَاءُ كَيْفَ يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ أَنْ يَعْدَلَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ حَجَرٍ أَوْ صَنِمٍ
أَوْ كُلِّ مَخْلُوقٍ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

و الرُّؤْيَا، في قوله: أَوْ لَمْ يَرَ قِيلَ هِيَ رُؤْيَا الْقَلْبِ وَ قِيلَ رُؤْيَا الْبَصَرِ عَلَى
الِإِخْتِلَافِ فِي الرُّتْقِ وَ الْفَتْقِ وَ قَوْلُهُ: أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَالَ الزَّجَاجُ
السَّمَوَاتِ جَمْعٌ لِفَتْحٍ وَ لَكِنْ أُرِيدَ بِهِ الْوَاحِدُ وَ لِهَذَا قَالَ كَانَتَا رَتْقًا، لِأَنَّهُ أَرَادَ
السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ، وَ مِنْهُ إِنَّ اللَّهَ يُفْسِكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا^(١) جَعَلَ
السَّمَوَاتِ نَوْعًا وَ الْأَرْضِينَ نَوْعًا فَأَخْبَرَ عَنِ النَّوعَيْنِ كَمَا أَخْبَرَ عَنِ الْإِنْسَانَيْنِ كَمَا
تَقُولُ أَصْبَحْتَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَ مَرَّبْنَا غَنَمَانِ أَسْوَدَانِ لِقَطِيعِي غَنَمٍ إِنْتَهَى.

و قال: الحوفي قال كَانَتَا رَتْقًا، وَ السَّمَوَاتِ جَمْعٌ لِأَنَّهُ أَرَادَ الصَّنَفَيْنِ وَ مِنْهُ قَوْلُ
الشَّاعِرِ:

أَنْ الْمَنِيَّةُ وَ الْحَتُوفُ كِلَاهُمَا يُوْفِي الْمَحَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي

لأنه أراد النوعين و قال أبو البقاء الضمير يعود على الجنسيتين.

و قال الزَّمَخْشَرِيُّ وَ أَنَّمَا قَالَ كَانَتَا دُونَ، كَرًّا، لِأَنَّ الْمُرَادَ جَمَاعَةَ السَّمَوَاتِ وَ
جَمَاعَةَ الْأَرْضِ وَ نَحْوَهُ قَوْلُهُمْ لِقَاعَانِ سَوَادٍ أَوْ إِنْ، أَرَادَ جَمَاعَتَانِ، فَعَلَ فِي
الْمُضْمَرِ مَا فَعَلَ فِي الْمَظْهَرِ إِنْتَهَى.

وقال ابن عطية وقال كانتا من حيث هما نوعان ونحوه قول الشاعر:
 ألم يحزنك أن جبال قيس و تغلب قد تباينت إنقطاعاً
 وقال ابن عباس والحسن وقناة وغيرهم كانتا شيئاً واحداً ففصل الله
 بينهما بالهواء وقال كعب، خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم
 خلق ريحاً بوسطها ففتحتها بها وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً.
 وقال مجاهد والسدي وأبو صالح، كانت السموات والأرض مؤتلفة طبقةً
 واحدة ففتقها سبع سموات وكذلك الأرضون كانت مرتقة طبقةً واحدة ففتقها
 وجعلها سبعاً.

وقالت فرقة، السموات والأرض رتق بالظلمة وفتقها الله بالضوء وقالت
 فرقة أخرى، السماء قبل المطر رتق والأرض قبل النبات رتق ففتقهما بالمطر و
 النبات كما قال: **وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ، وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ** ^(١).

قال ابن عطية هذا قول حسن بجمع العبرة وتعدد النعمة والحنة
 للمحسوس بين ويناسب قوله: **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** أي من
 الماء الذي أوجده الفتق إنتهى.

وعلى هذين القولين تكون الرؤية من البصر وعلى ما قبلها من رؤية القلب
 وجاء تقريرهم بذلك لأنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام
 المرئي المشاهد ولأن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في
 العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص وهو الله سبحانه.

وإعلم أن الجمهور قرأوا رتقاً بسكون التاء وهو مصدر يوصف به كروز عدل
فوقع خبراً للمثنى.

وقرأ الحسن وزيد وأبو حية وعيسى رتقاً بفتح التاء وهو اسم المرتوق
 كالقبض والنفض فكان قياسه أن يبنى ليطابق الخبر الاسم.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

و قال الرّمخشري هو على تقدير موصوفٍ أي كانتا شيئاً رتقاً، و أمّا قوله و جعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ، قال المفسّرون جعلنا أن تعدّت لواحدٍ كانت بمعنى و خلقنا من الماء كلّ حيوانٍ أي مادّته النّطفة قاله قطرب و جماعة أو لما كان قوامه الماء المشروب و كان محتاجاً إليه لا يصبر عنه جعل مخلوقاً كقوله خلق الإنسان من عجلٍ، قاله الكلبي و غيره و تكون الحياة على هذا حقيقة و يكون كلّ شيءٍ عامّاً مخصوصاً إذ خرج منه الملائكة و الجنّ إذ ليسوا مخلوقين من نطفة و لا محتاجين للماء.

و قال قتادة أي خلقنا كلّ نامٍ من الماء فيدخل فيه النّبات و المعدن و تكون الحياة فيهما مجازاً و عبّر بالحياة عن القدر المشترك بينهما و بين الحيوان النّمّو و يكون أيضاً على هذا عامّاً مخصوصاً هذا إن قلنا أن، جعلنا، تعدّت لواحدٍ و أمّا أن قلنا تعدّت لأثنين فالمعنى صيّرنا كلّ شيءٍ حيٍّ بسبب من الماء لابتدأ له منه.

و قرأ الجمهور حيٍّ، بالخفض و عليه المصاحف و هو على هذا صفة لشيءٍ، و قرأ حميد، حيّاً بالنّصب مفعولاً ثانياً لجعلنا، و الجارّ و المجرور لغو أي ليس مفعولاً ثانياً لجعلنا قوله، أفلا يؤمنون إستفهام إنكارٍ و فيه معنى التّعجب من ضعف عقولهم و المعنى أفلا يتدّبرون هذه الأدلّة فيعلموا بمقتضاها و يتركوا طريقة الشّرك و أطلق الإيمان على سببه و قد انتظمت هذه الآية دليلين من دلائل التّوحيد و هي من الأدلّة السماوية و الأرضيّة، هذا ما ذكره في تفسير الآية ملخصاً و حيث أنّ الآية الشّريفة حاوية لأسرارٍ يجب التّنبية عليها لابتدأ لنا من البحث فيها بوجه أبسط.

فنقول قال الرّاغب في المفردات، الرّتق الضّم و الإلتحام خلقه كان أم صفة قال تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما، أي منضمّتين و الرّتقاء الجارية المنضمّمة الشّفرتين، و فلاّ راتق و فاتق في كذا أي هو عاقدٌ و حال إنتهى.

و قال في لسان العرب، الرَّتَق ضِدُّ الفتق و قال ابن سيده، الرَّتَق إلحام الفتق وإصلاحه رتقه رتقاً فإرتق أي إلتأم إذا عرفت هذا فالبحث حول الآية يقع في فصول:

أحدها: في قوله: **أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى قَوْلِهِ: فَفَتَقْنَاهُمَا.**
 الثاني: في تفسير قوله: **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ.**
 الثالث: في قوله: **أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.**

الفصل الأول: فيه أبحاث:

أحدها: أن الهمزة في **أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**، للتوبيخ والتقرير ويحتمل أن تكون للإنكار فعلى الأول وبَّخ الله الكفار على عدم رؤيتهم ما ذكره في الآية أو قرَّر لهم ذلك.

على الثاني: أنكر عليهم عدم الرؤية.

ثانيها: أن الرؤية في المقام قيل هي الرؤية بالبصر وقيل الرؤية بالقلب بمعنى العلم.

و الثاني أولى لأن الرَّتَق و الفتق في السماوات و الأرض ممَّا يتعلَّق به العلم دون النَّظَر إذ لم ير أحد من البشر بعينه رتق السماوات و الأرض و ذلك لأن الرؤية بالبصر فرع وجود المبصر و من المعلوم عدم وجود البشر حين الرَّتَق و أمَّا الرؤية بالقلب المعبر عنه بالرؤية العلمية فأنها تحصل للإنسان من طريق الآثار و على هذا فقوله: **أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**، معناه أولم يعلموا.

ثالثها: قوله: **رَتَقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**، قد مضى الكلام في معنى الرَّتَق و أنه ضِدُّ الفتق و معنى الكلام أن أطباق السموات كانت رتقاً يتصل بعضها ببعض بنحو الالتصاق ففتقها سبعا و هي السموات قال أمير المؤمنين عليه السلام و كان من إقتدار جبروته و بديع لطائف صنعه أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد إرتقاها

فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرٍ أَوْ قَامَتْ عَلَى حَدِّهِ وَ أَرَسَى أَرْضاً يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ
الْمُشْعَنَجِرُ وَالْقِمَامُ الْمُسَخَّرُ قَدْ ذُلَّ لِأَمْرِهِ وَأَذْعَنَ لَهْيَيْتِهِ وَ وَقَفَ الْجَارِي عَلَى
أَخْرِ كَلَامِهِ^(١).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي^(٢) وَفَقَّ بَعْدَ الْإِزْتِنَاقِ صَوَامِيتِ أَبْوَابِهَا، وَ أَقَامَ رَصْدًا مِّنَ الشُّهُبِ
الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا الْخ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي وَصْفِ الرَّسُولِ ﷺ: أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ وَقَدَّمَهُ فِي الْإِضْطِفَاءِ
فَرَتَّقَ بِهِ الْمَفَاتِيحَ الْخ^(٣).

وَقَالَ فِي^(٤) فَلَمْ يَلَمْ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعُ وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ الْخ.

إذا عرفت معنى الرَّتَقِ و الفتق فنقول يظهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ
السَّمَوَاتِ و الأرض كانتا قبل الفتق يبساً جامداً ثُمَّ خلق الله منه أطباقاً أَوًى
جعلها أطباقاً و أما كَيْفِيَّةُ خَلْقِ السَّمَوَاتِ و الأرض فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام
في الخطبة الأولى في فصل خلق العالم ما هذا لفظه:

ثُمَّ أَنْشَاءً سُبْحَانَهُ فَتَقَّى الْأَجْوَاءَ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ، وَسَكَّنَاكَ الْهَوَى، فَأَجْزَى فِيهَا مَاءً
مُّتَلَاظِماً تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِماً رَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَالزَّرْعُزَعِ
الْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ وَ سَاقَ الْكَلَامَ إِلَى أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ، وَرَمَى
بِالزَّبِيدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوَّ مُنْفَتِقٍ فَسَوَى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ إِلَى
أَخْرِ مَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و قد أشبعنا الكلام في هذا الباب في شرحنا على التَّهَجُّجِ بما لا مزيد عليه
أَنْ شَتَّتْ فَرَاغَهُ.

وابعها: قوله: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، قلنا أن في الحيّ قراءتان، قراءة الخفض و قراءة النَّصْب فمن قرأه بالخفض جعله صفة، و من قرأ بالنَّصْب (حيّاً) جعله مفعولاً ثانياً لجعلنا و الجار و المجرور لغو أي ليس مفعولاً ثانياً لجعلنا، و أمّا على القراءة الأولى فهو أي الجارّ و المجرور يكون مفعولاً ثانياً له و التّقدير و جعلنا كلّ شيء حيّاً من الماء، ثمّ أنّ جعلنا إن تعدّت لواحد كانت بمعنى، و خلقنا أي و خلقنا من الماء كلّ حيوانٍ أي مادّة النّطفة قاله قطرب أو لمّا كان قوامه الماء المشروب و كان محتاجاً إليه لا يصبر عنه جعل مخلوقاً منه كقوله خلق الإنسان من عجلٍ و على هذا فتكون الحياة حقيقية و يكون كلّ شيء، عامّاً مخصوصاً إذ خرج منه الملائكة و الجنّ و كلّ ما ليس مخلوقاً من نطفة محتاجين إلى الماء.

و قال قتادة أي خلقنا كلّ نام من الماء فيدخل فيه النّبات و المعدن على التّبّع و تكون الحياة فيهما مجازاً.

و أن تعدّت لأثنين فهو أي جعلنا بمعنى صيّرنا أي صيّرنا كلّ شيء حيّ بسبب من الماء لا بدّ له منه، و إختار الجمهور الخفض و عليه المصاحف فعلاً و إختار حميد النَّصْب و هو شاذّ، و على مذهب الجمهور فالمعنى جعلنا من الماء كلّ شيء أي كلّ موجودٍ متصفّ بالحياة أو صيّرنا من الماء كلّ موجودٍ كذلك و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أنما الكلام في معنى الحياة هل المراد بها الحياة حقيقةً أو مجازاً فالإحتمالات في المقام ثلاثة:

الحياة حقيقةً في الكلّ.

الحياة مجازاً في الكلّ.

الحياة حقيقةً بالنّسبة إلى بعض و مجازاً بالنّسبة إلى آخر.

و لتوضيح المقام لا بدّ لنا من معنى الحياة فنقول الحياة نقيض الممات هي الوجود فإذا قلنا أنّ الشّيء موجود معناه له حياةٌ و هذا بحسب اللّغة و العقل

واضح لا خفاء فيه و إذا كان الْحَقُّ نقيض الميت فمعناه أَنَّهُ موجود إذا عرفت هذا.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَسْتَعْمَلُ عَلَى أَوْجِهٍ.

الأول: للْقُوَّةُ النَّامِيَةُ الموجودةُ فِي النَّبَاتِ وَ الْحَيَوَانِ وَ مِنْهُ قِيلَ نَبَاتٌ حَيٌّ أَوْ حَيَوَانٌ حَيٌّ.

قال الله تعالى: **إِغْلُظُوا أَنَّ اللَّهَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ^(١).

الثانية: للْقُوَّةُ الْحَاسَّةُ وَ بِهِ سَمِّيَ الْحَيَوَانُ حَيَوَانًا.

قال الله تعالى: **وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِي أَخْيَاهَا لَمْخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ^(٣).

الثالثة: للْقُوَّةُ الْعَاقِلَةُ.

قال الله تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ** ^(٤).

قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي
الزابعة: الحياة عبارة عن إرتفاع الغم.

قال الشاعر:

ليس من مات و إستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
و على هذا قوله تعالى: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا**
بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ^(٥) أي هم متلذذون.

الخامسة: الْحَيَاةُ الْأُخْرَوِيَّةُ الْأَبَدِيَّةُ:

قال الله تعالى: **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ^(٦).

السادسة: الحياة التي يوصف بها البارئ تعالى فأنه إذا قيل أنه تعالى، حَيٍّ، معناه لا يصح عليه الموت وليس ذلك إلا لله عز وجل و الحياة باعتبار الدنيا و الأخرة ضربان، الحياة الدنيا و الحياة الأخرة و قد أشار الله تعالى إليها في القرآن في موارد كثيرة كما لا يخفى إذا عرفت معاني الحياة و موارد إستعمالاتها.

فَاعْلَمْ أَنْ قَوْلَهُ: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، يمكن أن يراد بالحياة في الآية جميع أقسامها المذكورة إلا السادس منها و هو حياة الله تعالى التي هي عين ذاته و ذلك لأن الحياة بالمعنى الأول و هو القوة النباتية الموجودة في النبات لاشك أن حياتها بسبب الماء فأن حياة النبات بدون الماء غير ممكن و هكذا المعنى الثاني فأن القوة الحساسة التي بها سمى الحيوان حيواناً لا توجد إلا بالماء أعني به النطفة و لا يمكن لها إستمرار الحياة إلا بالماء أيضاً.

و أما المعنى الثالث و هو القوة العاملة العاقلة فهو أيضاً يوجد بالماء أعني بها النطفة و هو الإنسان فإحتياجه إلى الماء واضح.

و المعنى الرابع: و هو إرتفاع الغم فهو أيضاً مخصوص بالإنسان و قد ثبت أنه محتاج إلى الماء في حدوثه.

و هكذا الخامس فأن الحياة الأبدية الأخروية لا تكون إلا للإنسان فهذه المعاني الخمسة كلها حياتها بالماء أعني بها النباتات و الحيوانات و الإنسان بقي منها الجماد و حياته أيضاً بالماء كالأرض فأن حياة كل شيء بحسبه و على هذا فمعنى جعلنا أي خلقنا أو صيرنا كل شيء متّصف بالحياة بسبب الماء بمعنى أن الماء سبب لوجودها و حياتها حدوثاً و بقاءً إذ لا يقاء للحياة بدون الماء ثم أن الحياة على قسمين:

ذاتية و عرضية، فالذاتية منها لا تحتاج إلى سبب لأنها عين ذات الموجود و ذلك كحياة الله تعالى.

و العَرَضِيَّة تحتاج إلى السَّبَب لأنها لم تكن ثمَّ كانت فلا محالة تحتاج إلى سببٍ من الأسباب و أن شئت قلت أنَّ العَرَضِيَّة داخلة في سلسلة الممكنات لأنها قد تعرض و قد لا تعرض و نسبة الممكن في حدِّ ذاته إلى الموجود و العدم على حدِّ سواء و لذلك يحتاج إلى مخرج و المخرج لا يكون ممكناً و إلاَّ يلزم التَّسلسل و لا ممتنعاً لأنَّ ممتنع الوجود كيف يكون مخرجاً و قد ثبت أنَّ معطي الشَّي لا يكون فاقداً له فإذا هو الواجب لإحصار المفهوم في هذه الثلاثة فثبت أنَّ المخرج هو الله تعالى سبب الماء إذ أبى الله أن يجري الأمور إلاَّ بأسبابها و هذا معنى قوله: وَ جَعَلْنَا، فالحياة العارضة على الأحياء من الله تعالى و هو المطلوب.

و قد ظهر لك ممَّا ذكرناه أنَّ الحياة إذا كانت عارضة على الشَّي بعد أن لم تكن فهي محتاجة إلى المؤثِّر و السَّبَب و أمَّا إذا لم تكن عارضة بل كانت عين ذات الشَّي فلا تحتاج إلى مؤثِّر و حيث أنَّ الحياة في الله تعالى كذلك فلا تحتاج إلى المؤثِّر و لأجل هذا قلنا أنَّ حياته تعالى ليست من مصاديق الآية فإنَّ الآية ناظرة إلى الحياة العارضة على الشَّي بعد أن لم تكن كذلك لا الحياة التي هي عين ذات الشَّي من غير عروضٍ فلا يتعلَّق بها الجعل و الخلق أصلاً فليس لقائل أن يقول أنَّ الله تعالى أيضاً حيٌّ و كلَّ حيٍّ حياته من الماء أو بالماء فحياته تعالى بالماء إذ يقال له أنَّ الحياة فيه تعالى غيرها في غيره فأنَّها فيه ذاتية و في غيرها عرضية و المجعول هو الثاني دون الأوَّل فثبت المطلوب.

الفصل الثالث: في تفسير قوله: أَفَلَا يُؤْمِنُونَ الهمزة للإستفهام الإنكاري و فيه معنى التَّعجب من ضعف عقولهم و المعنى أفلا يتدبرون في هذه الأدلة الدالة على وجود الصَّانع القدير فيعملوا بمقتضاها و يتركوا طريقة الشُّرك و الإنكار و على هذا فأطلق الإيمان على سببه، و قيل معنى الكلام، أفلا يصدِّقون بما أخبرتهم أو أفلا يصدِّقون بما يشاهدونه من أفعال الله الدالة على

أنَّه المستَحَقُّ للعبادة المختَصَّ بها لا غير و أنَّه لا يجوز عليه إتِّخاذ الصاحبة و الولد و لنعم ما قال الشاعِر:

تَفَكَّر في نبات الأرض و أنظر إلى آثار ما صنع المليك
ففي رأس الزُّبرجد شهادات بأنَّ الله ليس له شريك
ثم ذكر الله تعالى دليلاً آخر من الدلائل الأرضية الدالة على قدرته و حكمته فقال.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا
لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

الرَّوَاسِي هي الجبال واحدها راسية و هي الثابتة كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة في وقوفها و المِيد، بفتح الميم الإضطراب بالذهاب في الجهات يقال ماد يميد ميلاً فهو مائد، وقوله: أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ، أي أَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ، كما في قوله: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا^(١) والمعنى أَلَّا تَضَلُّوا، وقوله: فِجَاجًا، الفَجَّ الطريق الواسع بين الجبلين و الفجاج جمعه و معنى الآية و جعلنا أي خلقنا في الأرض رواسي أي جبالاً ثابتات، أن تميد بهم، أي منع الأرض أن تميد أي لهذا خلقت الجبال و بعبارة أخرى جعلنا في الأرض رواسي لأجل أن لا تميد بكم الأرض و تضطرب و قيل أنَّ الأرض كانت تميد و ترجف فثقلها الله بالجبال الرواسي لتمتنع من رجوفها و الوجه في تثقيل الأرض بالرواسي مع قدرته على إمساك الأرض بدون الجبال، هو ما فيه من المصلحة و الاعتبار و قوله: وَ جَعَلْنَا فِيهَا أي في الأرض و قيل في الجبال فجاجاً أي طرقاً واسعة بين الجبال أو في الأرض لعلهم يهتدون أي لكي يهتدون بها إلى البلاد أو إلى وحدانية الله تعالى بالاستدلال و قيل لعلكم تهتدون، أي لكي تهتدوا فيها إلى

بَابُ التَّوْقَاتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

حوائجكم و مواطنكم و بلوغ أغراضكم و يحتمل أن يكون المراد لتهدتوا فتستدلوا بذلك إلى توحيد الله و حكمته، و قيل معناه ليظهر شكركم فيما تحبون و صبركم فيما تكرهون.

أقول الظاهر أن قوله: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ المراد به الإهداء تكوينياً و تشريعياً، فإن الهداية تارة تكون تكوينية و هي ظاهرة لا خفاء فيها و تارة تكون تشريعية و هي التي تنتهي إلى معرفة الله و معرفة رسوله أن أردنا بها الإيصال إلى المطلوب و أما إذا أردنا بها إراءة الطريق فقد تنتهي و قد لا تنتهي:

قال الله تعالى: وَ أَمَّا فُتُوذٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا آلَ عَمِيٍّ عَلَىٰ آلِهِمْ^(١).

و من المعلوم أن الله تعالى هو الذي يهدي إلى الحق فمن إهتدى فأنما يهتدي إلى نفسه و من ضلّ فعليها:

قال الله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ^(٢).

قال الله تعالى: مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا^(٣).

و الحاصل أن الإهداء إلى الحق مطلوب عقلاً و شرعاً لأن سعادة الدارين فيه و حلاوة الشأنتين لا تحصل إلا به و المغفرة تتوقف عليه:

قال الله تعالى: وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ^(٤).

فهذه الآيات تشير إلى هذه الدقيقة التي هي الأصل في الباب.

وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ

١- يونس = ١٠٨

٢- طه = ٨٢

١- فصلت = ١٧

٣- الإسراء = ١٥

إِعلم أنّ جعل، لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتّصرف على خمسة أوجه:

الأول: يجري مجرى صار و طفق فلا يتعدى نحو جعل زيدٌ يقول كذا، قال الشاعر:

فقد جعلت قلوب بني سهيل من الأكوار مرتعها قريبٌ

الثاني: يجري مجرى أوجد فيتعدى إلى مفعولٍ واحدٍ:

قال الله تعالى: **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ.**

قال الله تعالى: **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** ^(١).

الثالث: يجري في إيجاد الشئ من شئٍ وتكوينه منه و يسمى بالجعل المركب على قول الفلاسفة نحو قوله:

قال الله تعالى: **جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا** ^(٣).

وهكذا أي أوجدنا الأزواج من أنفسكم و أوجدنا الأكنان من الجبال.

الرابع: في تصيير الشئ على حالةٍ دون حالةٍ:

قال الله تعالى: **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا** ^(٤).

قال الله تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ^(٥).

الخامس: الحكم بالشئ على الشئ حقاً كان أو باطلاً فأما الحق:

قال الله تعالى: **إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ^(٦).

و أما الباطل:

قال الله تعالى: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا** ^(٧).

٢- النَّحْل = ٧٢

٤- البقرة = ٢٢

٦- القصص = ٧

١- النَّحْل = ٧٨

٣- النَّحْل = ٨١

٥- الزَّخْرَف = ٣

٧- الانعام = ١٣٦

قال الله تعالى: **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ** ^(١).

قال الله تعالى: **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ^(٢).

ذكر هذه الوجوه في المفردات و أنت ترى أنَّ الذي يناسب ما نحن فيه هو الوجه الرابع أعني به تصوير الشيء على حالة دون حالة و على هذا فالمعنى صيرنا السماء على هذه الحالة دون غيرها، ثم أنَّ السماء من أسماء الجنس الذي يذكر و يؤنث و يخبر عنه بلفظ الواحد و الجمع و ذلك كالنخل في الشجر.

قال في المفردات سماء كل شيء أعلاه و قال بعضهم كل سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء و بالإضافة إلى ما فوقها فأرض إلا السماء العليا فأنها سماء بلا أرض و على هذا حمل قوله: **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ^(٣) ذكره في المفردات أيضاً إذا عرفت هذا.

فنقول معنى الآية إننا جعلنا السماء أي صيرناه سقفاً محفوظاً و إنما ذكرها لأنه أراد السقف ولو أنت و قيل محفوظة كان جائزاً أيضاً و معنى قوله **مَحْفُوظًا** قيل أي حفظها الله من السقوط على الأرض، و قيل حفظها من أن يطمع أحد أن يتعرض لها بنقض و من أن يلحقها ما يلحق غيرها من الهدم أو الشعث على طول الدهر، و قيل هي محفوظة من الشياطين بالشهب التي يرمون بها، و الحق أن يقال أنها محفوظة بقدرة الله من الآفات كلها ثم قال تعالى: **وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ** أي أنَّ الكفار و المنكرين لتوحيد الله عن آياتها أي عن الاستدلال بأدلتها على توحيده معرضون و الضمير في آياتها عائد على السماء و فيه إشارة إلى أنَّ في السماء آيات و علامات دالة على توحيده و قدرته و حكمته لمن كان له قلب.

وقال بعض المفسرين في قوله: وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ أي عن ما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومساييرها وطلوعها وغروبها على الحساب القديم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.

وقال الزمخشري: هم يتفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والإعتداء بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها وهم عن كونها آية مبنية على الخالق معرضون والتَّوْنين في كل عوض عن المضاف إليه، ثم أن الجمهور قرأوا عن آياتها بالجمع وعليها المصاحف وقرأ مجاهد وحמיד عن آياتها بالأفراد، وعليه فالمراد بالآية هي السماء التي تحوي الآيات كلها ويجوز أنه أراد بها أي بالآية الجمع فجعلها إسم الجنس ودل على ذلك كثرة ما في السماء من الآيات وهم عن الإعتبار بها معرضون، والمراد بإعراضهم عنها عدم التفكير فيها والتدبر في كيفية خلقتها وقد أشار الله تعالى بذلك في كثير من الآيات الواردة في الكتاب.

قال الله تعالى: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ^(١).

قال الله تعالى: قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ^(٢).

قال الله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ^(٣).

قال الله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ^(٤).

وفي مدح المؤمنين الموحدين:

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

١- يُونس = ١٠١

٢- البقرة = ٢١٩

١- الأعراف = ١٨٥

٣- الزُّوم = ٢٢

٥- آل عمران = ١٩١

قال الله تعالى: **وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ^(١) و
الآيات في البحث على التفكير في الآيات كثيرة جداً بل نقول:
و في كل شيء له آيةٌ
و قد مرَّ الكلام في هذا الباب وسيأتي البحث فيه بوجهٍ أبسط.

**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ**

قيل الفلك هو المجرى الذي تجري فيه الشمس والقمر بدورانها عليه و
قيل برجٌ مكفوف تجريان فيه وقيل هو طاحونة كهينة فلك المغزل والفلك في
اللغة كلشيٍّ دائرٍ وجمعه أفلاك قال الشاعر:

باتت تناصي الفلك الدُّوارا حتى الصُّباح تعمل الأفتارا

ومعنى يسبحون، يجرون في قول ابن جريح و قال ابن عباس يسبحون،
بالخير والشر والشدَّة والرِّخاء وإِنما قال يسبحون، على فعل ما يعقل لأنَّه
أضاف إليها الفعل الذي يقع من العقلاء كما قال: **وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايتُهُمْ لِي
سَاجِدِينَ** ^(٢) و قال بعضهم الفلك الجسم الدَّائر دورة اليوم واللييلة وعن ابن
عبَّاس الفلك السَّماء و قال قتادة الفلك إستدارة بين السَّماء والأرض يدور
بالنَّجوم مع ثبوت السَّماء، و قيل الفلك القطب الذي تدور عليه النُّجوم قطب
السَّمال، و قيل لكل واحدٍ من السَّيَّارات فلك و فلك الأفلاك يحركها حركةٌ
واحدة من المشرق الى المغرب.

و قال الزَّمَخْشَرِيُّ الضَّمِيرُ لِلشَّمْسِ والقمر والمراد بهما جنس الطَّوَالع كلَّ
يوم و ليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السَّبب في جمعها بالشُّموس و
الأقمار وإلا فالشَّمْسُ واحدة والقمر واحدٌ إنتهى.

و قال الرَّاعِب في المفردات الفلك مجرى الكواكب و تسميته بذلك لكونه كالفلك قال تعالى: **وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** و فلكة المغزل و منه و منه إشتق فلك ثدي المرأة إنتهى.

و قالوا في تفسير قوله: **كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** بصيغة الجمع، أراد الشَّمْس و القمر و النُّجُوم لأنَّ قوله، اللَّيْل، دَلَّ عَلَى النُّجُوم فمعنى الآية أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ، **كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**، أي كُلِّ واحدٍ مِنَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ النُّجُومِ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، أي يَجْرُونَ فَالتَّنْوِينُ فِيهِ، كُلٌّ، فَرَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ هَذَا مَا ذَكَرُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَ نَحْنُ نَقُولُ فِي الْآيَةِ أَبْحَاث.

الأول: أَنَّ الْفَلَكَ مَا هُوَ فَقَالَ السَّيِّدِي وَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الْفَلَكَ السَّمَاءُ. و قال أكثر المفسرين الفلك موجٌّ مكفوف تحت السماء تجري فيه الشَّمْس و القمر.

و قال قتادة الفلك إستدارةٌ بين السماء و الأرض يدور بالنُّجُوم مع ثبوت السماء.

و قيل الفلك القطب الذي تدور عليه النُّجُوم و هو قطب الشمال لكلِّ واحدٍ مِنَ السِّيَّارَاتِ فَلَكٍ وَ فَلَكٍ الْأَفْلَاكُ يَحْرُكُهَا حَرَكَةً وَاحِدَةً مِنَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ. و قال الضَّحَّاكُ الْفَلَكَ لَيْسَ بِجَسَمٍ وَإِنَّمَا هُوَ مَدَارٌ هَذِهِ النُّجُومُ، ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فَقَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ كَلَامًا يَسْبَحُ فِي فَلَكٍ وَاحِدٍ وَ قَالَ الْآخَرُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ فَلَكٌ يَخْتَصُّهُ فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ كَسَاهُمُ الْأَمِيرُ حُلَّةً أَيْ كَسَى كُلَّ وَاحِدٍ حُلَّةً.

أقول: الْحَقُّ فِي مَعْنَى الْفَلَكَ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ مَدَارِ هَذِهِ النُّجُومِ فَلَا وَجُودَ لَهُ فِي الْخَارِجِ مُسْتَقْلَالًا وَ أَنَّمَا هُوَ يَنْتَزِعُ مِنْ حَرَكَاتِ النُّجُومِ وَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَثْبَتَهُ الْعِلْمُ فِي زَمَانِنَا هَذَا وَ أَمَّا الْفَلَكَ بِمَعْنَى أَنَّهُ جَسَمٌ يَغْرِ قَابِلٌ لِلخَرْقِ وَ الْإِلْتِثَامِ مَا زَعَمَهُ أَتْبَاعُ بَطْلِيمُوسَ فَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلِ الدَّلِيلُ ثَابِتٌ عَلَى خِلَافِهِ وَ يَظْهَرُ أَنَّ فِي الْآيَةِ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فَلَكٌ يَخْصُهُ بِدَلِيلٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: **كُلُّ فِي**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

فَلَكِ يَسْبَحُونَ أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فَالتَّنْوِينُ فِي كُلِّ عَوْضٍ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ الْمَحذُوفِ وَأَمَّا عَدَدُ النُّجُومِ فَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى فِي إِثْبَاتِ الْمَدْعَى أَنَّ عَدَدَ النُّجُومِ كَانَ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ (١٠٢١) وَ قَدْ ثَبِتَ فِي زَمَانِنَا هَذَا مِنْهَا أَكْثَرُ مِنْ ١٦٠٠٠/٠٠٠ مِلْيُونٍ وَ يَزِيدُ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ وَ كُلِّ يَوْمٍ وَ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْبَابِ خَارِجٌ عَنْ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ.

الثاني: قوله: يَسْبَحُونَ، بَوَاوُ الْجَمْعِ الْعَاقِلِ، أَمَّا الْجَمْعُ فَقِيلَ ثُمَّ مَعْطُوفٌ مَحذُوفٌ وَ هُوَ وَ النُّجُومُ، وَ لِذَلِكَ عَادَ الضَّمِيرُ مَجْمُوعاً وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ مَعْطُوفٌ مَحذُوفٌ لَكَانَ، يَسْبَحَانِ، مَثْنً.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الضَّمِيرُ لِلشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ الْمَرَادُ بِهِمَا جِنْسُ الطَّوَالِعِ كُلِّ يَوْمٍ وَ لَيْلَةٍ جَعَلُوها مَتَكَاثِرَةً لِتَكَاثُرِ مَطَالِعِهَا وَ هُوَ السَّبَبُ فِي جَمْعِهَا بِالشَّمُوسِ وَ الْأَقْمَارِ وَ إِلَّا فَالشَّمْسُ وَاحِدَةٌ وَ الْقَمَرُ وَاحِدٌ قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ثُمَّ قَالَ وَ أَنَّمَا جَعَلَ الضَّمِيرُ وَاوُ الْعَقْلَاءِ لِلْوَصْفِ بِفَعْلِهِمْ وَ هُوَ السَّبَاحَةُ إِنْتَهَى.

أقول: قوله فالشَّمْسُ وَاحِدَةٌ وَ الْقَمَرُ وَاحِدٌ لَيْسَ شَيْءٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فَأَنَّ الشَّمُوسَ وَ الْأَقْمَارَ كَثِيرَةٌ كَمَا ثَبِتَ فِي الْهَيْئَةِ وَ قَدْ وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ أَيْضاً مَا يُؤَيِّدُهُ قَالَ عَالِيًا أَنَّ مِنْ وَرَاءِ شَمْسِكُمْ هَذِهِ أَرْبَعِينَ شَمْساً وَ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ قَمْرِكُمْ هَذَا أَرْبَعِينَ قَمِراً وَ قَدْ ذَكَرَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ عَدَدَ الْأَرْبَعِينَ جِيءَ بِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْكَثَرَةِ لَا أَنَّ الْعَدَدَ مَنْحَصَرٌّ بِالْأَرْبَعِينَ فَأَنَّ الشَّمُوسَ وَ الْأَقْمَارَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ أَوْضَعَاءً، وَ عَلَى هَذَا فَالْحَقُّ أَنَّ اللَّامَ فِي الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ لِلْجِنْسِ وَ هُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْقَلِيلِ وَ الْكَثِيرِ فَقَوْلُهُ: يَسْبَحُونَ أَيِ يَسْبَحُ جَمِيعُ الشَّمُوسِ وَ الْأَقْمَارِ فِي أَفلاكِهِمْ فَالتَكَاثُرُ لَيْسَ بِحَسَبِ مَطَالِعِهَا كَمَا زَعَمَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ بَلْ بِحَسَبِ أَنْفُسِهَا وَ ذَوَاتِهَا فَالْمَعْنَى أَنَّ جَمِيعَ الشَّمُوسِ وَ الْأَقْمَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي فَلَكٍ تَخَصُّ بِهِ يَدُورُ وَ يَسْبَحُ وَ أَنَّمَا قَالَ: يَسْبَحُونَ بَوَاوُ الْجَمْعِ الثَّابِتُ لِلْعَقْلَاءِ لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ أَعْنِي بِهِ السَّبَاحَةَ وَصَفْتُ لَهُمْ لَا لَهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ

يوسف الصديق رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ^(١) و ذلك لَأَنَّ السَّجْدَةَ من أفعال الأُدْمِيين و لذلك قال رأيتهم ولم يقل رأيتها هذا كله على مسلك المشهور من أَنَّ النُّجُوم و الأفلاك لا شعور لها و أمّا على مسلك من أثبت لها الشُّعُور بزعمه الفاسد فالكلام على حقيقته و هو ظاهر.

الثالث: قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ بتقديم اللَّيْلِ فيه إشارة إلى تقدّم اللَّيْلِ و هو كذلك لَأَنَّ اللَّيْلَ عَدَمِيّ و النَّهَارَ جُودِيّ و العدم مقدّم على الوجود و أنما قلنا أَنَّ اللَّيْلَ عَدَمِيّ لَأَنَّهُ عبارة عن عدم النَّهَار و ليس عدماً محضاً ولذلك صار مخلوقاً و توضيح ذلك إجمالاً هو أَنَّ العدم تارة يكون محضاً أي خالصاً لا حظّ له للوجود و قد يعبر عنه بالمتنع أيضاً كشريك الباري و إجتماع النقيضين و إجتماع الضدين و أخرى لا يكون محضاً بل له حظّ من الوجود و هذا هو الذي قد يعبر عنه بالعدم و الملكة، أي له شأنيّة الوجود و بعبارة أخرى أنّه يكون قابلاً للوجود و بهذا الاعتبار يقال، له حظّ من الوجود فيتعلّق به الجعل و الخلق، إذا عرفت فقد علمت أَنَّ اللَّيْلَ ليس عدماً مطلقاً بل هو عدم النَّهَار عَمّا من شأنه أن يكون نهاراً و باعتبار هذه الشأنيّة و القابليّة صار مخلوقاً أي تعلّق به الخلق و أنما قلنا بتقديمه على النَّهَار لَأَنَّ العدم مقدّم على الموجود فاللّيل مقدّم على النَّهَار ذاتاً و لذلك قدّمه عليه في الآية و أُنّ بها على عبادته بأنّه تعالى هو الَّذي أخرجهم من ظلمة العدم إلى نور الوجود في أصل الخلقة و من ظلمة اللَّيْلِ إلى النَّهَار في هذا العالم بسبب الشَّمْس و القمر و غيرهما من النُّجُوم و بذلك ظهر لك أَنَّ إسناد الخلق إلى اللَّيْلِ و النَّهَار أنما هو على سبيل المجاز دون الحقيقة لَأَنَّهُما ليسا من الأمور المتأصلة بل هما من الأوصاف المترتبة على وجود الشَّمْس و القمر إن لم تقل بانتزاعيتهما بل على وجود الشَّمْس فقط لَأَنَّ القمر لا نور له ذاتاً و أنما يستنير

في القرآن تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

بِالشَّمْسِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مَعْنَاهُ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ أَسْبَابَهُمَا وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَآئِينَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَتْهُ الْمَوْتَ وَتَبْلُوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تُرْجِعُونَ
قِيلَ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنْ يَمُوتَ وَآتَمَّا هُوَ مَخْلَدٌ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ الرَّسُولُ ﷺ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ وَقِيلَ طَعَنَ كَفَّارُ مَكَّةَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ بَشَرٌ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمُوتُ فَكَيْفَ يَصَحُّ إِرسَالُهُ.

وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ كَانُوا يَقْدِرُونَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ، فَيَشْتَمُونَ بِمَوْتِهِ فَنَفَى اللَّهُ عَنْهُ الشُّمَاتَةَ بِهَذَا أَيِ قَضَى اللَّهُ أَنْ لَا يَخْلُدَ فِي الدُّنْيَا بَشَرًا، فَلَا أَنْتَ وَلَا هُمْ إِلَّا عَرْضَةٌ لِلْمَوْتِ فَإِنَّ مَتًى أَبْقَى هَؤُلَاءِ.

أَقُولُ: قَالَ الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْخُلُودُ هُوَ تَبَرُّي الشَّيْءِ مِنْ إِعْتِرَاضِ الْفَسَادِ وَبَقَاةِ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا وَكُلُّ مَا يَتَّبِطِي عَنْهُ التَّغْيِيرُ وَالْفَسَادُ تَصِفُهُ الْعَرَبُ بِالْخُلُودِ كَقَوْلِهِمْ لِلْأَثَافِي خَوَالِدٍ وَذَلِكَ لِطَوْلِ مَكْثِهَا لِادْوَامِ بَقَاةِهَا إِلَى أَنْ قَالَ وَاصِلُ الْمَخْلُودِ الَّذِي يَبْقَى مَدَّةً طَوِيلَةً وَمِنْهُ قِيلَ رَجُلٌ مَخْلَدٌ لِمَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ الشَّيْبُ إِنْتَهَى.

أَقُولُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الدَّوَامِ وَالْخُلُودِ هُوَ أَنَّ الدَّائِمَ يُقَالُ لِلْمَوْجُودِ الْأَزَلِيِّ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ فَالدَّوَامُ عِبَارَةٌ عَنْ شُمُولِ الْأُزْمَنَةِ بِخِلَافِ الْخُلُودِ وَلِذَلِكَ يُطْلَقُ الدَّائِمُ عَلَى اللَّهِ وَيُقَالُ يَا دَائِمُ الْفَضْلِ عَلَى الْبَرِيَّةِ وَلَا يُطْلَقُ الْخَالِدُ عَلَيْهِ تَعَالَى وَيُمْكِنُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ الدَّائِمَ أَزَلِيٌّ فِي الْمَاضِي بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا أَوَّلَ لَهُ بِخِلَافِ الْخَالِدِ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ نَفَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْبَشَرِ الْخُلُودَ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ عَقْلًا فَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ ثَابِتًا لِكُلِّ الْبَشَرِ كَمَا هُوَ الْمَفْرُوضُ بِحَسَبِ الْآيَةِ وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ الرَّسُولَ بَشَرٌ فَقَوْلُ الرَّسُولِ بَشَرٌ وَكُلُّ بَشَرٍ لَا مَخْلَدَ فَالرَّسُولُ لَا يَخْلُدُ أَمَّا الصُّغْرَى فثَابِتَةٌ لِقَوْلِهِ: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

و أما الكبرى فهي أيضاً ثابتة بحكم الآية فالنتيجة ثابتة قطعاً وإذا ثبت أن الرسول مخلّد في الدنيا ثبت هذا الحكم في حق غيره أيضاً بطريق أولى وإلى هذا المعنى أشار بقوله أفان متّ فهم الخالدون ثم قال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ الموت هنا عبارة عن زوال القوّة الحيوانيّة وإبادة الرّوح عن الجسد وذلك لأنّ الموت له أنواع كثيرة بحسب أنواع الحياة و بعبارة أخرى حياة كلّ شيء بحسبه فكذلك موته وقد تقدّم الكلام في هذا المعنى غير مرّة وكيف كان لا شكّ أنّ الموجود الحادث مصيره إلى الموت انّاً فأنّاً وهذا لا يختصّ بالإنسان فقط بل كلّ مخلوق كذلك.

روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سمع إنساناً يقول، إنّ الله وإنّا إليه راجعون، فقال عليه السلام قولنا إنّنا لله إقرارٌ منّا له بالملك و قولنا إنّنا إليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلك ولنعم ما قيل:

وإذا المنيّة أنشبت أظافرها
وقال الآخر:

ننافس في الدنيا ونحن نعيها
وما نحسب الساعات نقطع مدّة
كأنّي برهطي يحملون جنازتي
و باكية حرى تنوح و إنّي
أيا هادم اللذات ما منك مهرب
رأيت المنايا قسّمت بين أنفس
وقال الآخر:

وكم من صحيح بات للموت أمناً
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة
فأصبح ييكيه النساء مكفناً
وقرب من لحدٍ فصار مقيمته مقيلاً

في القبر
في القبر
في القبر

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

قال الله تعالى: **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ** ^(١).
 قال الله تعالى: **قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلْأَقِبُكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ غَالِمٍ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ تَحِيدُونَ** ^(٣) و
 الآيات كثيرة.

وأما قوله تعالى: **وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشَرِّ وَالْأَخَيْرِ فَتَنَّا وَ إِنَّا تُرْجِعُونَ** ففيه
 إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أَنَّ الدُّنْيَا دار بلاء واختبار.

ثانيهما: الحساب بعد الموت فقوله: **نَبَلُوكُمْ بِالْأَشَرِّ وَالْأَخَيْرِ فَتَنَّا** إشارة
 إلى الأول وقوله وإلينا ترجعون إشارة إلى الثاني فالبحث يقع في مقامين:

المقام الأول: قوله: **نَبَلُوكُمْ بِالْأَشَرِّ وَالْأَخَيْرِ فَتَنَّا**، أي نختبركم بها وقدّم
 الشر على الخير لأن الإبتلاء به أكثر ولأن العرب تقدّم الأقل والأردء ومنه لا
 يغادر صغيرة ولا كبيرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
 بالخيرات وهكذا قيل في وجه تقديم الشر على الخير.

وعن ابن عباس الخير والشر عام في الغنى والفقير والصحة والمرض و
 الطاعة والمعصية والهدى والضلال.

وقال ابن عطية أَنَّ المراد من الخير والشر هنا كلّ ما صحَّ أن يكون فتنة و
 إبتلاء.

وعن ابن عباس أيضاً بالشدّة والرخاء أي أتصبرون على الشدّة وتشكرون
 على الرخاء أم لا.

وقال ابن زيد المراد بهما المحبوب والمكروه وانتصب فتنة على أنّه
 مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو مصدر من معنى، **نَبَلُوكُمْ**.

أقول: الشرّ الذي يرغب عنه الكلّ كما أنّ الخير هو الذي يرغب فيه الكلّ قولاً وعملاً وهو أي الخير على ضربين، خيرٌ مطلق وهو أن يكون مرغوباً فيه بكلّ حالٍ وعند كلّ أحدٍ كما وصف عليه السّلام به الجنّة.

فقال **عليه السلام** لا خير بخيرٍ بعده النّار ولا شرّ بشرٍ بعده الجنّة، وقد يكون الخير مقيداً وهو أن يكون خيراً لواحدٍ وشرّاً لآخر كالمال الذي ربّما يكون خيراً لزيد وشرّاً لعمره، هذا التّقسيم بالنّسبة إلى الخير لا كلام فيه وأمّا الشرّ فلا يكون إلّا مقيداً لأنّ الشرّ المطلق لم يوجد ولن يوجد أبداً كشريك الباري ومن المعلوم أنّ أعمال الإنسان وأقواله لا تخلو منهما فإنّ ما يصدر منه أن كان ممّا يرغب فيه الكلّ فهو خير والآفهو شرٌّ وحيث أنّ الإنسان مختار في فعله بمعنى أنّه قادرٌ على فعل الخير والشرّ فصّح إختباره فيهما فالمعنى أنّا نبلو الإنسان بهما لأجل الإختبار والإمتحان وقوله: **نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** إشارة إلى قوله تعالى: **إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** فإنّ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله فيسأل عمّا يفعل في دار الدنّيا ويجزى عليه وما ربك بظلام للعبيد.



وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
 أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُونَ الرَّحْمَنَ هُمْ
 كَاْفِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ
 آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا
 الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا
 عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ
 بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ
 يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ
 فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
 (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُو كُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ
 بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمُ الْهَيْةُ
 تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ
 لَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ
 آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا
 نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ
 (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمْعُ
 الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ
 مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِيَقُولُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
 (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا
 تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
 أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

◀ اللغة

هَزُّوْا: أي سخرِيَّهٖ وإستهزاء.
يَكْفُون: الكَفَّ المنع أي لا يمنعون.
بَغْتَةً: البغته الغفلة.
فَتَبَهُتْهُمْ: أي تحيرَهُم والمبهوت المتحير.
فَحَاقَ: أي حَلَّ، حاق يحقّ حيقاً.
يَكْلُوْكُمْ: يقال كَلَاهُ أي حفظه.
نَفْحَةً: النَّفْحَةُ الدَّفْعَةُ اليسيرة يقال نفخ ينفخ نفخاً فهو نافخ.
وَيَلْنَا: الويل الهلاك.

◀ الإعراب

إِلَّا هَزُّوْا أي مهزّوْأ به وهو مفعول ثانٍ مِنْ عَجَلٍ في موضع نصب بخلق على المجاز كما تقول خلق من طينٍ و قيل هو حال أي عَجَلًا و جواب، لو، محذوف و حينَ مفعول به لا ظرف، و بَغْتَةً مصدر في موضع الحال مِنْ أَلْرَحْمَنِ أي من أمر الرَّحْمَنِ فهو في موضع نصب، يَكْلُوْكُمْ، إِذَا مَا يُنْذَرُونَ إذا، منصوبة بيسمع أو بالدُّعَاءِ مِنْ عَذَابٍ صفة لنفحة أو في موضع نصب بمسْتَهْمِ أَلْقَسَطَ أتما أفرد وهو صفة لجمع لأنّه مصدر وصف به و قيل التّقدير ذوات القبط شيئاً بمعنى المصدر ومثقال بالنّصب على أنّه خبر كان و يقرأ بالرفع على أن تكون، كان، تامة مِنْ خَرَدٍ صفة لحبة أو لمثقال.

◀ التفسير

وَ إِذَا رَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا

قيل مرّ رسول الله ﷺ بأبي جهل و أبي سفيان فقال أبو جهل هذا بني عبد مناف فقال أبو سفيان و ما تنكرون أن يكون نبياً في بني عبد مناف

بَابُ
فِي
قَدْ
فِي
قَدْ
فِي
قَدْ

جزء ١٧

الجدل
الجدل
الجدل
الجدل

فسمعهما الرسول فقال لأبي جهل ما تنتهي حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة و أما أنت يا أباسفيان فأتما قلت ما قلت حمية فنزلت الآية و لما كان الكفار يغمهم ذكر آلهتهم بسوء شرعوا في الإستهزاء و تنقيص من يذكرهم على سبيل المقابلة و (إن) نافية بمعنى، ما، أي ليس يتخذونك إلا هزواً.

أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهَتَكُمْ وَ هُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ أَي أَنَّ الْكَفَّارَ يَقُولُونَ هَكَذَا وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ، أَي بتوحيد الرحمن كافرين و من هذه حاله لا ينبغي أن ينكر على من يعيب آلهتهم.

و قال الزمخشري و الجملة في موضع الحال أي يتخذونك هزواً و هم على حالٍ هي أصل الهزو و السخرية و هي الكفر بالله إنتهى.

و قد إتفقوا على أن تكرار هُمْ في الآية للتوكيد، و قيل أنها نزلت حين أنكروا لفظة الرحمن و قالوا ما نعرف الرحمن إلا في اليمامة، وكيف كان ففي الآية تسلية لكل محققٍ يلحقه أذى من جاهلٍ مبطلٍ.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ

لَمَّا كَانُوا هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ يَسْتَعْجِلُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ الْمُلَجَّةُ إِلَى الْإِقْرَارِ وَ الْعِلْمِ نَهَاَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْإِسْتَعْجَالِ وَ قَدَّمَ أَوَّلًا ذَمَّ الْإِنْسَانِ عَلَى إِفْرَاطِ الْعَجَلَةِ وَ أَنَّهُ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا إِسْمُ الْجِنْسِ وَ كَوْنُهُ خَلْقٌ مِنْ عَجَلٍ وَ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ لَمَّا كَانَ يَصْدُرُ مِنْهُ كَثِيرًا كَمَا يَقَالُ لِمَكْثَرِ اللَّعْبِ أَنْتَ مِنْ لَعِبٍ وَ قَوْلُهُ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي أَي آيَاتِ الْوَعِيدِ فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ فِي رُؤْيَاكُمْ الْعَذَابَ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ وَ إِدْعَى أَبُو عَمْرٍو الْقَلْبَ فِي الْكَلَامِ وَ أَنَّ التَّقْدِيرَ خَلَقَ الْعَجَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ كَذَا قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ جَعَلَ طَبِيعَةَ مَنْ طَبَائِعُهُ وَ جِزْءٌ مِنْ أَخْلَاقِهِ.

أقول: هذا الكلام منه مطرودٌ ممنوعٌ لأنَّ القلبَ الصَّحيحَ فيه أن لا يكون في الكلام الفصيح وأنَّ بابه الشُّعر ثمَّ أنَّ الكلبِيَّ ومقاتلَ والصَّحاكَّ والسُّديَّ وغيرهم قالوا المراد بالإنسان هنا آدم أبو البشر.

قال مجاهد لما دخل الرُّوح رأسه وعينه رأى الشَّمْسَ قاربت الغروب فقال يا ربَّ عَجَلْ تمام خلقي قبل أن تغيب الشَّمْس.

و قال سعيد لما بلغت الرُّوح ركبته كان يقوم، فقال الله خلق الإنسان من عجلٍ.

و قال ابن زيد خلقه الله يوم الجمعة على عجلةٍ في خلقه.

و قال الأخفش في قوله: مِنْ عَجَلٍ، لأنَّ الله قال له كم فيكون.

و قال الحسن من عجلٍ أي ضعيف يعني النُّطفة، وقيل خلق بسرعةٍ و تعجيلٍ على غير ترتيب الأدميين من النُّطفة والعلة والمضغة، وقيل من عجلٍ، أي من طينٍ فإنَّ العجل الحمير الطين قال الشاعر:

التَّبَع في الصَّخرة الصَّماء منبةً و التَّنَخَّل منبته في الماء و العجل

وقيل الآيات هنا الهلاك المعجل في الدُّنيا والعذاب في الآخرة ولمعنى يأتيكم العذاب في وقته وقيل أدلة التَّوحيد وصدق الرُّسول وقيل آثار القرون الماضية بالشَّام واليمن، والقول الأول أليق بسياق الكلام أي سيأتي ما يسؤوكم إذا دمتم على كفركم.

قال الرَّمْخسري، فأن قلت لم نهاهم عن الإسْتعجال مع قوله: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ، وقوله: وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً أليس هذا من تكاليف ما لا يطابق.

قلت هذا كما ركب فيه من الشَّهوة وأمره أن يغلبها لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشَّهوة وترك العجلة إنتهى.

أقول: الإستعجال طلب الشئ قبل وقته الذي حقّه أن يكون فيه دون غيره، والعجلة تقديم الشئ قبل وقته وهو مذموم ولذلك يقال العجلة من الشيطان، ومعنى الآية لا تطلبوا نزول الآيات قبل وقته وأنما قال ذلك لأنهم كانوا يطلبونه وقد أراهم الله العذاب في الدنيا يوم بدر بالقتل والأسر وفي الآخرة بالخلود في النار وفي الآية إشارة إلى أن لكل شئ أجل وكتاب وهو مما لا يخفى على أحد من العقلاء.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

وهذا الكلام الذي حكاه الله عنهم دليل على إستعجالهم فإن المراد بالوعد هنا العذاب الذي وعدهم الله على لسان رسوله في صورة بقاءهم على الكفر والعناد فالمعنى **إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ** ومحققين فيما تقولون من نزول العذاب متى يكون ما وعدتموه فقلوه: **مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**، إستفهام على جهة الهزاء وكان الرسول والمسلمون يتوحدونهم على لسان الشرع و**مَتَى**، في موضع الجر، لهذا، فموضعه رفع.

ونقل عن بعض الكوفيين أن موضعه النصب على الظرف وتقديره يكون يجيئ والعامل فيه مقدّر وجواب، لو، محذوف لدلالة الكلام عليه أي، يعلموا صدق ما وعدوا به من الساعة وأنما حذف الجواب لأنه أبلغ وأهيب من النص عليه.

وقال بعضهم تقدير الكلام، **لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** الخ، لما إستعجلوا، وقدره الزمخشري، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والإستهزاء والإستعجال، وقيل التقدير، لعلوا صحة البعث، أو صحة الموعد.

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

معناه لو علم الكفار الوقت الذي يستعجلون عنه بقولهم: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ هو وقتٌ صعبٌ شديد تحيط بهم النار من وراء وقدام وليس لهم ناصِرٌ ولا معين لما إستعجلوه وكلن جهلهم به هو الذي هوَّنه عندهم وعلى هذا، حين، منصوب بمضمَر أي حين لا يكفون ولا يمنعون عن وجوههم النار وكذا عن ظهورهم، يعلمون أنهم كانوا على الباطل و يتنفي عنهم هذا الجهل العظيم والذي يظهر من الكلام هو أنَّ مفعول، يعلم، محذوف لدلالة ما قبله عليه أي لو يعلم الذين كفروا مجيئ الموعود الذي سألوا عنه وإستنبطوه و حين منصوب بالمفعول الذي هو مجيئ ثم أشار الله تعالى أنَّ الموعود يأتيهم بغتةً.

فقال: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ أي بل تأتيهم الساعة والقيامة بغتةً وفجأةً فتبتهتهم، أي تحيرهم والمبهوت المتحير فلا يستطيعون ردَّها أي ردَّ الساعة ومعناه لا يقدرُونَ على دفعها، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ، أي ولا هم يؤخرون إلى وقتٍ آخر.

وقال بعض المفسرين أنما ذكر الوجوه من بين الأعضاء لأنها أشرف ما في الإنسان ومحل حواسه والإنسان أحرص على الدفاع عنه من غيره من أعضائه ثم عطف عليه الظهور والمراد عموم النار لجميع أبدانهم ولا أحد يمنعهم من العذاب بل تأتيهم الساعة بغتةً أي تفجؤهم، وقيل أنَّ الضمير في تأتيهم عائد على النار في قوله عن وجوههم النار، وقيل إلى العقوبة وما ذكرناه من رجوعه إلى الساعة أو القيامة أولى و قرأ الأعمش بل يأتيهم بالياء بَغْتَةً بفتح الغين، فَيَبْهَتُهُم بالياء والضمير عائد إلى الوعد أو الحسين ولنعم ما قيل:

ليت شعري إذ القيامة قامت
و دعي بالحساب أين المصير
و حيث أنَّ الإستهزاء بالرُّسل كان ديدن الكفار في جميع الأزمنة ولم يكن
مختصاً برسولٍ دون رسول قال الله تعالى لرسوله ﷺ

وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

فهذا الكلام في الحقيقة تسلية للنبي ﷺ في استهزاء الكفار إياه و الأخبار بأن أتباع الباطل لا يزالون كذلك و قد أخبر الله تعالى بذلك في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(١).
قال الله تعالى: يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(٣).
قال الله تعالى: وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

و الآيات كثيرة و يستفاد من جميع الآيات أن العذاب ثابت للمستهزي واقع عليه في الدنيا و الآخرة و ذلك لأن الإستهزاء بالرّسول يرجع إلى إستهزاء الدّين و هو إلى إستهزاء الله تعالى و المستهزي بالله حاله معلوم.

أقول و هذا الإستهزاء الذي أشار الله تعالى إليه في كتابه بالنسبة إلى رسله هو الذي نراه في زماننا هذا بالنسبة إلى العلماء الدّين هم ورثة الأنبياء ولم يعلموا أن العلماء لا ذنب لهم و أنّما هم دعاة إلى الله و هكذا الأنبياء و الأوصياء فأن جميعهم يدعون النّاس إلى دين الله الذي إرضاه لهم و حيث أن الإستهزاء ضرب من الإنكار بل أقبح منه عقلاً فلا جرم حاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

وإِعلم أَنَّ الإِسْتِهْزَاءَ دَاخِلٌ فِي اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَلِذَلِكَ لَا يَصَحُّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَقِيقَةِ لَتَنْزِهِ عَنْهُمَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُعْنَانِهِمْ يَعْفَهُونَ** ^(١) معناه يجازيهم جزاء الهزؤ أي أمهلهم مدّة ثم أخذهم مغافصة فسَمِيَ لَهُ أَبَاحُهُمُ إِسْتِهْزَاءً مِنْ حَيْثُ أَتَاهُمْ إِغْتَرَا بِهِ إِغْتَرَاهَهُمُ بِالْهَزْؤِ فَيَكُونُ ذَلِكَ كَالِإِسْتِدْرَاجِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، أَوْ لِأَنَّهُمْ إِسْتَهْزَوْا فَعَرَفَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَصَارَ كَأَنَّهُ يَهْزَأُ بِهِمْ كَمَا قِيلَ مِنْ خَدَعَكَ وَفُطِنْتَ لَهُ وَلَمْ تَعْرِفْهُ فَيَا حَتْرَزْتَ مِنْهُ فَقَدْ خَدَعْتَهُ.

وَقَدْ رَوَى أَنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ فِي الدُّنْيَا، يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ الْجَنَّةِ فَيَسْرِعُونَ نَحْوَهُ فَإِذَا إِنْتَهَوْا إِلَيْهِ سَدَّ عَلَيْهِمْ وَعَلَى هَذِهِ الْوُجُوهُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ** ^(٣).

وَبِمَا ذَكَرْنَاهُ يُعْلَمُ مَعْنَى:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَمَكَّرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ^(٤).

أَيَّ يَجَازِيهِمْ عَلَى مَكْرِهِمْ وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ فِيمَا مَضَى

قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ أَنْ يَسْأَلَهُمْ مِنَ الَّذِي يَحْفَظُكُمْ فِي أَوْقَاتِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَهُوَ إِسْتِفْهَامٌ تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ وَفِي آخِرِ الْكَلَامِ تَقْدِيرٌ مَحْذُوفٌ كَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مَانِعٌ وَلَا كَالِيٍّ وَعَلَى هَذَا التَّفْهِيمِ تَرْكِيبٌ، بَلْ، فِي قَوْلِهِ: **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تفسير القرآن في

جزء ١٧

المجلد العاشر

و قال الرّمخشري بل هم معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتّى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالي و صلحوا للسؤال عنه و المراد أنّه تعالى أمر رسوله بسؤالهم عن الكالي و الحافظ ثمّ يبين لهم أنّهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلّوهم إنتهى.

أقول معنى الآية ظاهر لا خفاء فيه و هو أنّ الله تعالى أمر نبيّه أن يسألهم من يحفظكم بالليل و النهار أي في الليل و النهار من الرّحمن أي من عذاب الرّحمن.

و أمّا قوله: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ فكأنّه قال ما يلتفتون الى شيء من المواعظ بل هم عن ذكر ربّهم معرضون، أو أنّهم لا يلتفتون الى أنّ الله هو الذي يحفظهم عن الآفات و البليات و ذلك لأنّهم أعرضوا عن ذكر ربّهم و قيل معنى الكلام، من يحفظكم ممّا يريد الله إحلاله بكم من عقوبات الدّنيا و الآخرة ثم قال الله تعالى على وجه التّوبيخ لهم و التّقرّيع:

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ

و المعنى، أم لهم آله تمنعهم، من عذابنا و عقوباتنا، من دوننا، ثمّ أخبر أنّهم، أي آلهتهم، لا يقدرّون على نصر أنفسهم فكيف يقدرّون على نصر غيرهم، و قيل أنّ الكفّار لا يستطيعون نصر أنفسهم، أي لا يقدرّون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم و لا هم ممّن يصحبون، معناه لا يصحبهم صاحب يمنعهم ممّن، و قيل و لا هم ممّن يصحبون، بأن يجيرهم مجيرٌ علينا.

و قال قتادة معناه، و لا هم ممّن يصحبون، بخير هكذا قيل في تفسير الآية.

و الظاهر أنّ، أم، بمعنى، ب، و الهمزة كأنّه قيل، بل ألّهم آلّهة فاضرب ثمّ إستفهم تمنعهم من العذاب فالمعنى، ألهم آلّهة تجعلهم في منعة و عزّ من ان

ينالهم مكروه من جهتنا، و قال ابن عباس في الكلام تقديم و تأخير تقديره أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم إستأنف الإخبار عن آلهتهم فبين أن ما ليس بقادر على نفسه و منعها و لا بمصحوب من الله بالنصر و لتأييد كيف يمنع غيره و ينصره ثم قال يصحبون أي يمنعون و قال مجاهد ينصرون إنتهى.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ

هؤلاء، إشارة الى المخاطبين قيل و هم كفار قريش و من إتخذ آلهة من دون الله أخبر الله تعالى في الآية أنه متع هؤلاء الكفار و آباءهم من قبلهم بما رزقهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء و نعمة و تدعوا في الضلالة بامهالهم و تأخيرهم الى الوقت الذي يأخذهم فيه فحسبوا أن لا يزلوا على ذلك لا يغلبون و لا ينزع عنهم ثوب آفتهم و إستماعهم و إقتدت بهم أيام الروح و الطمأنينة ولم يعلموا أن ذلك طمع فارغ و أمد كاذب ثم قال تعالى: أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا.

قال الزمخشري أي نقص أرض الكفر و دار الحرب و نحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها و إظهارهم على أهلها و ردّها دار إسلام.
فأن قلت أي فائدة في قوله: نَأْتِي الْأَرْضَ.

قلت الفائدة فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين و أن عساكرهم و سرايهم تغزوا أرض المشركين و تأتيا غالباً عليها ناقصة من أطرافها إنتهى كلامه.

و قال بعض المفسرين في معنى الكلام، أي نقصها بسبب خرابها، بموت أهلها، و قيل بموت العلماء، و قوله: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ فهو إستفهام فيه تقييع و توبيخ حيث لم يعتبروا بما يجري عليهم.

و قال الرّازي في تفسير النقصان وجوه:

أحدها: قال ابن عباس ومقاتل والكلبي نقصها بفتح البلدان.

وقال ابن عباس في رواية أخرى يريد نقصان أهلها وبركتها.

ثالثها: قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها.

رابعها: بموت العُماء الى أن قال فالأظهر من الأقاويل ما يتعلّق بالغلبة فلذلك قال **أَفْهَمُ الْغَالِبُونَ** والذي يليق بذلك أنه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الإسلام قال القفال نزلت هذه الآية في كفّار مكّة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبيّن تعالى أن كلّ ذلك من العبر التي لو إستعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم إنتهى.

أقول قال الله تعالى في سورة الرّعد:

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَخْكُمُ لَا مَعْصِيَةَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ^(١)

وقد تكلمنا حول الآية هناك بقدر فهمنا وإستطاعتنا و نزيدك ها هنا أنه لا يبعد أن يكون المراد بنقص الأرض نقص بركاتها و ثمارها أو نقصها بجور ولايتها، وذلك لأنّ المعاصي والظلم والشرك بالله توجب زوال البركات قال الله تعالى: **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** و زوال البركات من الأرض هو نقصها بلا كلام والله أعلم بما أراد منه و قوله: **أَفْهَمُ الْغَالِبُونَ** فيه إشارة الى ضعف الإنسان وأنه مغلوب في جنب الحقّ وهو ظاهر.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



العبد العادي عشر

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ
ثم أخبر الله تعالى أنهم أي الكفار مع إنذارهم بواسطة النبي معروضون عمّا أُنذروا به فالإنذار لا يجديهم فقال مخاطباً لنبيه قل لهم يا محمد أتما أنذركم

بسبب الوحي من الله تعالى لا من قبل نفسي و مع ذلك لا ينفعكم النصح كما لا ينفع النداء الصم و هو الذي لا يسمع الصوت شبَّههم الله تعالى بالصم الذين لا يسمعون النداء إذا نودوا مجازاً و توسعاً مع أنهم لم يكونوا كذلك واقعاً بل كانوا يقدرّون على السَّماع و الإستماع و وجه الشُّبه ظاهرٌ فإنَّ السَّامع إذا لم ينتفع بسماعه فهو كمن لا يسمع و قد عبّر الله تعالى عن هؤلاء بالصم في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ^(١).

قال الله تعالى: صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ^(٣).

قال الله تعالى: أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ^(٤).

قال الله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ^(٥).

قال الله تعالى: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ^(٦).

و الآيات كثيرة و حاصل الكلام هو أنَّ من يسمع و لا ينتفع بسماعه بمعنى عدم ترتيب الآثار عليه فهو خارج عن طور الإنسانية و داخل في صنف الحيوانات بل الجمادات و منشأ ذلك قد يكون الجهل كما في أكثر العوام يكون العناد و اللجاج كما في أكثر الخواص و من زعم أنَّ السَّبب في ذلك هو الجهل في جميع الموارد فقد أخطأ فإنَّ العالم أيضاً قد يكون كذلك فإنَّ أكثر الناس عبيد الدنيا، و الذين شقَّ على ألسنتهم فإذا محصوا بالبلاء قلَّ الديانون و لنعم ما قيل:

فإنَّ
الفرقان في
فهم الخلق
والله أعلم

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

١- البقرة = ١٧١

٢- يونس = ٤٢

٣- الروم = ٥٢، التمل = ٨٠

١- البقرة = ١٨

٢- الأنعام = ٣٩

٣- الأنفال = ٢٢

لقد أسمعت لو ناديت حَيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي
و قد حكى الله تعالى ذلك في جميع الأنبياء في كتابه بألفاظٍ مختلفة متفاوتة تصريحاً أو كنايةً والحاصل أنَّ اللجاج والعناد وعدم قبول الحق لم يكن مختصاً بكفار مكة بل كان عاماً شاملاً لجميع الكفار في جميع الأزمنة والآن أيضاً كذلك والسّر فيه ما ذكرناه من أنَّ النَّاس عبيد الدُّنْيَا فكلُّ كلام من أي شخص صدر إذا كان على خلاف أميالهم وشهواتهم النَّفسانية مانعاً عن وصولهم الى ما يشتهون لا يقبلونه و قد حكى الله تعالى عن صالح النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال:

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ^(١).

و فى حكاية عن شعيب النَّبِيِّ:

قال الله تعالى: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ^(٢).

و فى حكاية عن نوح النَّبِيِّ:

قال الله تعالى: أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ^(٤).

و فى حق الجميع:

قال الله تعالى: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٥).

١- الأعراف = ٧٩

٢- الأعراف = ٩٣

٣- الأعراف = ٦٢

٤- هود = ٣٤

٥- النحل = ٦٣

قال الله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ خَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ^(١) والآيات في الباب كثيرة جداً.

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
المس بفتح الميم و سكون السين مصدر كاللمس لكن للمس قد يقال لطلب الشيء و أن لم يوجد كما قال الشاعر: و المس فلا أجده، و المس يقال فيما يكون معه إدراك حاسة اللمس و كني به عن النكاح ف قيل مسها و ما مسها:
قال الله تعالى: وَ إِن طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ^(٢).
قال الله تعالى: أَتَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَفْسَسْنِي بَشَرٌ^(٣).
والمراد باللمس في الآية هو معناه اللغوي و من قبيل:
قال الله تعالى: وَ لَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٤).
قال الله تعالى: لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ^(٥).
قال الله تعالى: وَ لَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ^(٦).

و أما النَّفْحَةُ بفتح النون و سكون الفاء و فتح الحاء ف قيل هي الدفعة اليسيرة يقال نفح ينفح نفحاً فهو نافح و المعنى لو لحقهم و أصابهم دفعة يسيرة من عذاب ربك، ليقولن هؤلاء الكفار يا ويلنا، أي الهلاك علينا، أنا كنا ظالمين لنفوسنا بإرتكاب المعاصي إعترافاً منهم بذلك و الحاصل أن الله تعالى أخبر في هذه الآية بأن هؤلاء الذين صموا عن سماع ما أنذروا به إذا نالهم شيء مما أنذروا به ولو كان يسيراً نادوا بالهلاك و أفروا بأنهم كانوا ظالمين ففي الحقيقة نبهوا على العلة التي أو سبب لهم العذاب و هو ظلم الكفر ففي قوله: وَ لَئِنْ

بَابُ
الْمَسِّ
وَالْمَسَّ
بِشَيْءٍ
يَعْنِي
الْمَسَّ
بِشَيْءٍ
يَعْنِي
الْمَسَّ
بِشَيْءٍ

جزء ١٧

بَابُ
الْمَسِّ
وَالْمَسَّ
بِشَيْءٍ
يَعْنِي
الْمَسَّ
بِشَيْءٍ

٢- البقرة = ٢٣٧

٤- الأعراف = ٧٣

٦- هود = ١١٣

١- غافر = ٨٣

٣- آل عمران = ٤٧

٥- آل عمران = ٢٤

مَسْتَتِهِمْ ثَلَاثَ مَبَالِغَاتٍ، لَفْظُ الْمَسِّ، وَ مَا فِي مَدْلُولِ النَّفْحِ مِنَ الْقَلَّةِ إِذْ هُوَ الرِّيحُ السَّيْرُ أَوْ مَا يَرْضَحُ مِنَ الْعَطِيَّةِ، وَ بِنَاءِ الْمَرَّةِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ نَفْحٌ فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ بِأَدْنَى مِنْ أَقْلِ الْعَذَابِ أَذْعَنُوا وَ خَضَعُوا وَ أَقْرَبُوا بِأَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ ظَلَمُهُمُ السَّابِقَ وَ لَمَّا ذَكَرَ حَالَهُمُ السَّابِقَ فِي الدُّنْيَا وَ أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ فِيهَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَشَارَ إِلَى عَدْلِهِ وَ أَسَدَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ بِنُورِ الْعِظَمَةِ.

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ
الوزن معرفة قدر الشيء وزنه وزناً والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط والقبان:

قال الله تعالى: وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمِ^(١).

قال الله تعالى: وَاقِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا أَلْمِيزَانَ^(٢).

وَالْمِيزَانُ بِكسر الميم ألة الوزن فهو إسمٌ ألة وأصله الموازن بالواو فأبدلت الواو ياء لكسرة ما قبلها ولذلك يجمع على الموازين ثم أن الميزان كما يكون في المحسوسات كذلك يكون في المعقولات فأَنَّ الميزان في كل شيء بحسبه فكما يوزن الشعير والحنطة وغيرهما من الأجناس بالميزان المحسوس كذلك توزن الأفعال والأقوال بالميزان المعقول.

قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ

أَلْمِيزَانَ لِيَقُومَ أَلْنَّاسُ بِالْقِسْطِ^(٣).

قال الله تعالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ أَلْمُفْلِحُونَ^(٤).

قال الله تعالى: **وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** (١).

فالمراد بالميزان في هذه الآيات ونظائرها هو الميزان العقلي وقد ورد في زيارة أمير المؤمنين (السلام على ميزان الأعمال) وذلك لأن قبول الأعمال وعدمه يدور مدار ولاية علي عليه السلام وعدمها كما وردت به الأخبار وكيف كان فالميزان يوم القيامة إشارة إلى العدل في محاسبة الناس.

قال بعضهم وذكر في مواضع من الكتاب الميزان بلفظ الواحد إعتباراً بالمحاسب، وفي مواضع بلفظ الجمع إعتباراً بالمحاسبين، وقوله: **لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ**، معناه لأهل يوم القيامة وقيل معناه في يوم القيامة، وقوله: **وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ إِلَى قَوْلِهِ: خَاسِبِينَ**، ففيه إشارة إلى أنه لا يضيع لديه قليل الأعمال والمجازاة عليه طاعة كانت أو معصية وكفى المطيع أو العاصي بمجازاة الله وحسبه ذلك وفي ذلك غاية التهديد كما لا يخفى والصّмир في قوله: **بِهَا** يرجع إلى الميثقال أي أتينا بالميثقال وأتينا قال، بها، بلفظ التأنيث مع أن الميثقال مذكر، لأنّ ميثقال الحبة وزنها ومثله قراءة الحسن (تلتقطه بعض السيارة) لأنّ بعض السيارة سيارّة.

وقال الزّمخشري وأنّ ضمير الميثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم ذهب بعض أصابعه وإعلم أنّهم اختلفوا في المراد بالميزان فقال الطبرسي رحمه الله فيه أقوال:

أحدها: أنّ الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وأنه لا ظلم فيها على أحد.

ثانيها: أنّ الله ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة فتوزن به أعمال العباد الحسنات والسيئات عن ابن عباس والحسن وبه قال الجبائي واختلفوا في كيفية الوزن لأنّ الأعمال أعراض لا تجوز عليها الإعادة ولا يكون لها وزن ولا تقوم بأنفسها ففيل توزن صحائف الأعمال عن ابن عمر وجماعة.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

و قيل تظهر علامات للحسنات و علامات للسيئات في الكفَّتَانِ فتراها
النَّاسُ عن الجبائي.

و قيل تظهر للحسنات صورة حسنة و للسيئات صورة سيئة عن ابن عباس.
و قيل توزن نفس المؤمن و الكافر عن عبيد بن عمير.
قال يؤتى بالرجل العظيم الجثة فلا يزن جناح بعوضة.

ثالثها: أنَّ المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العظيم و مقدار الكافر في
الدَّلة كما قال سبحانه: **فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا**^(١) فمن أتى بالعمل الصالح
الَّذِي يثقل وزنه أي لعظيم قدره فقد أفلح و من أتى بالعمل السيِّ الذي لا وزن
له و لا قيمة فقد خسر فمن ثقلت موازينه أنما جمع الموازين لأنه يجوز أن
يكون الكل نوع من أنواع الطاعات يوم القيامة ميزان و يجوز أن يكون كل
ميزان صنفًا من أصناف أعماله و يؤيد هذا ما جاء في الخبر أنَّ الصَّلاة ميزان
فمن و في إستوفى هذا.

و قال بعضهم أنَّ المراد من الميزان العدل و القضاء و كثير من المتأخرين
ذهبوا إلى هذا القول أما بيان أنَّ حمل لفظ الوزن على هذا المعنى جائز في
اللغة، فلأنَّ العدل في الأخذ و الإعطاء لا يظهر إلا بالكيل و الوزن في الدنيا فلم
يبعد جعل الوزن كناية عن العدل ألا ترى أنَّ الرجل إذا لم يكن له قدر و لا قيمة
عند غيره فقال أنَّ فلاناً لا يقيم لفلان وزناً قال تعالى فلا نقيم له يوم القيامة
وزناً، قال الشاعر:

قد كنت قبل لقاءكم ذا قوّة
عندي لكلّ مخاصم ميزانه

أراد عندي لكلّ مخاصم كلام يعادل كلامه فجعل الوزن مثلاً للعدل قالوا و
على هذا يجب أن يكون المراد من الآية هذا المعنى فقط و الدليل عليه أنَّ
الميزان أنما يراد ليتوصل به إلى معرفة مقدار الشئ و مقادير الثواب و العقاب

لا يمكن إظهارها بالميزان لأن أعمال العباد أعراض و قد فנית و عدمت و وزن المعدوم محال و أيضاً فتقدير بقاءها كان وزنها محالاً.

أقول قد أطالوا الكلام في المقام في معنى الميزان و كيفية وزن الأعمال بما لا فائدة في نقلها و من أراد الإطلاع عليها فعليه بمراجعة التفسير و الذي يظهر من الأخبار هو أن الميزان كناية عن العدل.

روي هشام بن الحكم أنه سأل الزنديق أبا عبد الله فقال أو ليس توزن الأعمال قال **عليه السلام** لا، لأن الأعمال ليست بأجسام و أنما هي صفة ما عملوا و أنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء و لا يعرف ثقلها و خفتها و أن الله لا يخفى عليه شيء قال فما معنى الميزان قال **عليه السلام** العدل قال فما معناه في كتابه، **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ،** قال **عليه السلام** فمن رجح عمله الخير.

و عن كتاب التوحيد عن علي **عليه السلام** و قد سأله رجل عما إشتبه عليه من الآيات و أما قوله تعالى و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة يدين الله تعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين إنتهى.

و في بعض الأخبار أن المراد بالموازين هم الأنبياء و الأوصياء.
فعن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله **عليه السلام** في قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ قال **عليه السلام** الأنبياء و الأوصياء عليهم السلام إنتهى.

و قد ورد في زيارة أمير المؤمنين **عليه السلام** (السلام على ميزان الأعمال) أن الأعمال توزن يوم القيامة بميزان الولاية.

و ليعلم أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين و لا تنشر لهم الدواوين لأهل الإسلام و قد صرحت الأخبار به.

قال الشيخ المفيد رحمته الله: الحساب هو المقابلة بين الأعمال و الجزاء عليها و الموافقة للعبد على ما فرط منه و التوبيخ على سيئاته و الحمد على حسناته و معاملته في ذلك بإستحقاقه وليس كما هو ذهب العامة اليه من مقابلة الحسنات بالسيئات و الموازنة بينهما على حسب إستحقاق الثواب و العقاب عليها إذ كان التحابط بين الأعمال غير صحيح و مذهب المعتزلة فيه باطلٌ غير ثابت و ما يعتمد الحشوية في معناه غير معقول و الموازين هي التعديل بين الأعمال و الجزاء عليها و وضع كلِّ جزءٍ في موضعه و إيصال كلِّ ذي حقٍّ الى حقه فليس الأمر في معنى ذلك على ما ذهب اليه أهل الحشو من أن في القيامة موازين كموازين الدنيا لكلِّ ميزان كفتان توضع الأعمال فيها إذ الأعمال أعراض و الأعراض لا يصحّظ وزنها و أنما توصف بالثقل و الخفة على وجه المجاز و المراد بذلك أن ما ثقل منها هو ما كثر و إستحق عليه عظيم الثواب خفَّ منها ما قلَّ قدره و لم يستحق عليه جزيل الثواب و الخبر الوارد أن أمير المؤمنين و الأئمة من ذريته عليهم السّلام الموازين فالمراد أنهم المعدّلون بين الأعمال فيما يستحق عليها و الحاكمون فيها بالواجب و العدل.

و يقال فلان عندي في ميزان فلان و يراد به نظيره و قال كلام فلان لو وزن من كلام فلان و المراد به أن كلامه أعظم و أفضل قدراً و الذي ذكره الله تعالى في الحساب و الخوف منه أنما هو الموافقة على الأعمال لأن من وقف على أعماله لم يتخلص من تبعاتها و من عفي الله تعالى عنه في ذلك فاز بالنجاة و من ثقلت موازينه بكثرة إستحقاقه الثواب فأولئك هم المفلحون و من خفت موازينه بقلة أعمال الطّاعات فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون و القرآن أنما أنزل بلغة العرب و حقيقة كلامها و مجازه و لم ينزل على ألفاظ العامة و ما سبق الى قلوبها من الأباطيل إنتهى كلامه رفع مقامه.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا
 حَاسِبِينَ فهو إشارة الى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَضِيعُ عَمَلُ عَامِلٍ وَإِنْ كَانَ قَلِيلاً كَمَا
 هُوَ مُقْتَضَى الْعَدْلِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ تَعَالَى يَكْفِي فِي الْحِسَابِ وَلَا يَحْتَاجُ
 إِلَى غَيْرِهِ كَمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْخَلْقِ وَالْإِبْجَادِ فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُمْ
 يَحَاسِبُهُمْ وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ مُضَافاً إِلَى أَنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ وَالْإِحْتِيَاجُ
 مُسَاوِقٌ لِلْإِمْكَانِ فَلَوْ إِحْتِيَاجُ إِلَى غَيْرِهِ كَانَ مُمْكِناً وَكُلُّ مُمْكِنٍ مُخْلُوقٌ لَغَيْرِهِ وَ
 هَذَا كَمَا يَرَى يَنَافِي الْوُجُوبَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَحَلِّهِ.



وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَ
 ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
 وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرُ
 مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠) وَلَقَدْ
 آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ
 (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي
 أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا
 عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي
 ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
 الْأَلْعَابِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ
 الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنْ
 الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ
 أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا
 لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا
 بِالْهَيْئَةِ إِنَّا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى
 يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأَتُوا بِهِ
 عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا
 ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ
 فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ
 (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ
 الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
 عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ
 (٤٦) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ (٤٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٤٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
 عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٤٩) وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ
 الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

◀ اللغة

الْفَرْقَانُ: بَضَمُ الْفَاءِ مُصَدَّرٌ، كُلُّ مَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَفِي الْحَدِيثِ
 الْفَرْقَانِ الْمَحْكَمِ الْوَاجِبِ الْعَمَلُ بِهِ وَالْقُرْآنُ جُمْلَةُ الْكِتَابِ.

ضِيَاءٌ: الضَّيَاءُ الضُّوءُ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الضَّيَاءِ وَالنُّورِ هُوَ أَنَّ الضَّيَاءَ مَا كَانَ مِنْ
 ذَاتِ الشَّيْءِ كَالشَّمْسِ، وَالنُّورُ مَا كَانَ مَكْتَسَبًا مِنْ غَيْرِهِ كِاشِتَارَةَ الْجُرْدَانِ
 بِالشَّمْسِ.

مُسْتَفْقُونَ: أَيِ خَائِفُونَ.

عَاكِفُونَ: الْعُكُوفُ اللَّزُومُ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ.

الْأَلْعَيْنِ: اللَّعْبُ الْمَزَاحُ جُذَادًا بَضَمُ الْجِيمِ وَفَتْحُهَا وَكُسْرُهَا، الْمَكْسَرُ، مَا
 تَكْسَرُ مِنَ الشَّيْءِ يُقَالُ عِنْدِي، جُذَاذَاتٍ مِنَ الْفَضَّةِ أَيِ قِرَاضَاتٍ مِنْهَا.

نُكِسُوا: يُقَالُ نَكَسَ رَأْسَهُ طَاطَاهُ مِنْ ذُلٍّ.

أُفٍّ: بَضَمُ الْأَلْفِ إِسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَتَجَرَّ وَأَتَكْرَهَ.

◀ الإعراب

وَ ضِيَاءٌ قِيلَ دَخَلَتْ الْوَاوُ عَلَى الصِّفَةِ كَمَا تَقُولُ مَرَرْتُ بِزَيْدِ الْكَرِيمِ وَالْعَالَمِ
 فَعَلَى هَذَا يَكُونُ حَالًا أَيِ الْفَرْقَانِ مُضِيئًا وَقِيلَ هِيَ عَاطِفَةٌ أَيِ أَتَيْنَاهُ ثَلَاثَةَ

أشياء، الفرقان، والضياء، والذكر الَّذِينَ يَخْشَوْنَ فِي مَوْضِعٍ جَزَعًا عَلَى الصِّفَةِ أَوْ
نَصَبٍ بِإِضْمَارٍ أَعْنِي، أَوْ رَفَعَ عَلَى إِضْمَارِهِمْ وَبِالْغَيْبِ حَالٌ إِذْ قَالَ ظَرْفٌ،
لِعَالَمِينَ، أَوْ لِرُشْدِهِ، أَوْ لَاتِينَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ مَوْضِعٍ، مِنْ قَبْلِ، وَأَنْ
يَنْتَصِبُ بِإِضْمَارٍ، أَعْنِي، أَوْ بِإِضْمَارٍ، أَذْكَرُ، لَهَا عَاكِفُونَ، قِيلَ اللَّامُ بِمَعْنَى عَلَى،
وَقِيلَ أَفَادَتْ مَعْنَى الْإِخْتِصَاصَ جُذَاذًا يَقْرَأُ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَالْكَسْرِ وَهِيَ
لُغَاتٌ وَقِيلَ الضَّمُّ عَلَى أَنَّ وَاحِدَةَ جُذَاذَةٍ وَالْكَسْرُ عَلَى أَنَّ وَاحِدَهُ جُذَاذَةٌ
بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحُ عَلَى الْمَصْدَرِ كَالْحِصَادِ وَالتَّقْدِيرُ ذَوِي جُذَاذٍ وَيَقْرَأُ بَضْمٍ الْجِيمُ
مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ وَوَاحِدَهُ جَذَهَ كَقَبَةٍ وَقَبٌ مَنْ فَعَلَ هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، مَنْ،
إِسْتِفْهَامًا وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ إِنَّهُ إِسْتِثْنَاءٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى، الَّذِي، فَيَكُونُ إِنَّهُ
وَمَا بَعْدَهُ الْخَبَرُ يَذْكُرُهُمْ مَفْعُولٌ ثَانٍ، لِسَمْعِنَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مَسْمُوعًا
كَقَوْلِكَ سَمِعْتُ زَيْدًا يَقُولُ كَذَا وَالْمَعْنَى سَمِعْتُ قَوْلَ زَيْدٍ وَيُقَالُ صِفَةٌ وَيَجُوزُ
أَنْ يَكُونَ حَالًا إِرْتِفَاعٍ إِبْرَاهِيمُ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ:

أحدها: أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَيُّ هَذَا وَهَذَا، وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَالْخَبَرُ
مَحذُوفٌ أَيُّ إِبْرَاهِيمُ فَاعِلٌ ذَلِكَ وَالْجُمْلَةُ مَحْكِيَّةٌ مَحْكِيَّةٌ.

الثاني: هُوَ مُنَادِيٌّ مُفْرَدٌ فَضَمَّتْهُ بِنَاءٌ أَيُّ أَنَّهُ مُبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ.

الثالث: هُوَ مَفْعُولٌ وَيُقَالُ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَذْكُرُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَسْمِيَّتِهِ فَالْمُرَادُ
الِاسْمُ لَا الْمُسَمَّى عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ آيَةٌ عَلَى رُؤْيِهِمْ أَيُّ
ظَاهَرًا لَهُمْ بَلْ فَعَلَهُ الْفَاعِلُ كِبِيرُهُمْ هَذَا، وَصَفٌّ أَوْ بَدَلٌ وَقِيلَ الْوَقْفُ عَلَى فَعَلِهِ
وَالْفَاعِلُ مَحذُوفٌ أَيُّ فَعَلَهُ مِنْ فَعَلِهِ وَهَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّ حَذْفَ الْفَاعِلِ لَا يَسُوغُ
عَلَى رُءُوسِهِمْ مُتَعَلِّقٌ بِنَكْسَاوٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا فَيَتَعَلَّقُ.

بِمَحذُوفٍ مَا هُوَ لَا يَنْطِقُونَ الْجُمْلَةُ تَسُدُّ مَسَدَ مَفْعُولِي عِلْمَتِ كَقَوْلِهِ وَ
ظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ، وَشَيْئًا فِي مَوْضِعِ مَصْدَرٍ أَيُّ نَفْعًا أَفْ لَكُمْ أَيُّ
أَنْتَضَجَرُ وَأَتَكْرَهُ لَكُمْ مِنْ فَعْلِكُمْ هَذَا بَرْدًا أَيُّ ذَاتُ بَرْدٍ وَ(عَلَى) يَتَعَلَّقُ بِسَلَامٍ أَوْ
عَلَى صِفَةٍ لَهُ وَالباقِي وَاضِحٌ لَا خُفَاءَ فِيهِ.

◀ التفسير

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ.

قال مجاهد و قتادة هو التّوراة التي تفرّق بين الحقّ و الباطل و به قال أكثر المفسّرين و قال ابن زيد هو البرهان الذي فرق به حقّه و باطل فرعون كما قال تعالى: وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ أَتَقَىٰ الْأَجْمَعُونَ^(١) قوله و ضياءً اي و أتيناه ضياءً يعني أذلة يهتدون بها كما يهتدون بالضياء و ذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ أي و أتيناه ذكراً أي مذكراً لهم يذكرون الله به و من جعل الضياء و الذكر حالاً للفرقان، قال دخلته واو العطف لإختلاف الأحوال كقولك جائني زيد الجواد و الحليم و العالم و إضافة إلى المتّقين لأنّهم المشفقون به دون غيرهم و قال بعضهم الفرقان التّوراة و هو الضياء و الذكر أي كتاباً هو فرقان و ضياءً و ذكرٌ يدلّ على هذا المعنى قراءة ابن عبّاس و عكرمة و الضّحّاك ضياءً و ذكر بغير واو في ضياءً.

و قال قوم الضياء التّوراة و الذكر التّدكر و الموعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم و مصالحهم و العطف بالواو يؤذن بالتّغاير.

و عن ابن عبّاس الفرقان الفتح لقوله يوم الفرقان، و عن الضّحّاك هو فلق البحر و عن ابن كعب المخرج من الشّبهات و قال ابن زيد الفرقان هنا هو النّصر على الأعداء و دليله قوله تعالى: وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يعني يوم بدر.

قال التّعلبي هذا القول أشبه بظاهر الآية لدخول الواو في ضياءً فيكون معنى الآية و لقد آتينا موسى و هارون النّصر و التّوراة التي هي الضياء و الذكر أقول ما ذكره لا بأس به فإنّ المرجع و المأل في جميع الأقوال واحد كون الشّيء فارقاً بين الحقّ و الباطل و من المعلوم أنّ مصاديقه كثيرة متفاوتة واضح.

ضياء الفرقان في تفسير القرآن



المجلد العاشر

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ

ثم وصف المتقين بأنهم يخشون ربهم بالغيب.

و قال في المفردات الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و لذلك خصّ العلماء بها في قوله تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ^(١) إنتهى.

و أما الغيب فقال الجبائي معناه يؤمنون بالغيب الذي أخبرهم به و هم من مجازاة يوم القيامة مشفقون أي خائفون إنتهى.

و عليه فالمراد بالسَّاعَةِ القيامة و الإشفاق هو الخوف و قال الجمهور من العامة معناه يخافونه ولم يروه و قال الزجاج يخافونه من حيث لا يراهم أحد. و قال بعضهم معناه يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس و الإشفاق شدة الخوف.

و قال القرطبي في قوله **بِالْغَيْبِ** أي غائبين لأنهم لم يروا الله تعالى بل عرفوه بالنظر و الإستدلال فعلموا أن لهم رباً يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم و خلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس و هم من السَّاعَةِ أي من قيامها قبل التَّوبَةِ مشفقون أي خائفون وجلون.

و قال الرّازي في معنى الغيب وجوه:

أحدها: يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره و يستهون عن نواهيه و إيمانهم بالله يسمّى إستدلالاً فالعباد يعملون لله في الغيب و الله لا يغيب عنه شيء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ثانيها: يخشون ربهم و هم غائبون عن الآخرة و أحكامها.

ثالثها: يخشون ربهم في الخلوات إذا غابوا عن الناس و هذا الأقرب و المعنى أن خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم إلا أن ذلك ممّا يظهرهونه في

الملا دون الخلاً و هم من عذاب السّاعة و سائر ما يجري فيها من الحساب و السّؤال مشفقون فعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية الله إنتهى.

أقول: قلنا الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم و بهذا يفرق بينهما و بين الخوف و من المعلوم أنّ المتّقين لما عرفوا الله ملئت من عظمتهم قلوبهم فلا يخشون بهذا إلا الله و إذا كان كذلك فهم من السّاعة أيضاً مشفقون ثمّ أنّ الله تعالى أخبر عن القرآن.

وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ

و المشار إليه هو القرآن أي هذا القرآن و ذكرٌ مبارك أما أنّه ذكرٌ فلا خفاء منه سواء أريد من الذكر ذكر اللّساني أم ذكر القلبّي و أمّا كونه مباركاً فلا منافع كثيرة جدّاً لمن كان أهلاً له و الهمزة في قوله، إمّا أَفَأَنْتُمْ للإستفهام الإنكاري أي لا ينبغي إنكاره و إمّا للتوبيخ أي كيف ينكرون هذا و قد علمتم واقعاً أنّا أنزلناه على محمدٍ ﷺ كما أنزلنا التّوراة و الإنجيل على موسى و عيسى و كيف كان فيه تسليّة للرّسول إذ أنكر ذلك المشركون كما أنكر أسلاف اليهود ما أنزل الله على موسى و عيسى و فيه أشار إلى أنّ هذا ليس أوّل قارورة كسرت في الإسلام فإنّ كثيراً من النّاس ينكرون بالسّنتهم ما هو ثابتٌ في قلوبهم كما أنّهم يقولون بالسّنتهم ما ليس في قلوبهم.

في القرآن
في تفسير القرآن

وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ

الرّشد هو الحقّ الذي يؤدّي إلى نفع يدعو إليه و نقيضه الغي.

قال قتادة و مجاهد معنى آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ هديناه صغيراً و قال قوم المراد به النّبوة و قوله من قبل يعني من قبل موسى و هارون و قوله: كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ أي كنّا به عالمين بأنّه موضعٌ لإيتاء الرّشد و قيل معناه كنّا نعلم أنّه يصلح للنّبوة.

جزء ١٧

المجلد العاشر

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ
 قد مرَّ الكلام سابقاً عند قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي مَا
 ابْنَعْتُ مِنَ الْبَنَاتِ (١) أَنْ أَرَى كَانَ عَمُّ إِبْرَاهِيمَ وَقَدْ يَطْلُقُ الْأَبَ عَلَى الْعَمِّ وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ
 تَفْصِيلاً هُنَاكَ وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ أَيُّ قَالَ لِعَمِّهِ فَأَبَاهُ كَانَ تَارِخُ
 وَلَمْ يَكُنْ حَيًّا حِينَ بَعَثَ إِبْرَاهِيمَ لِلنَّبُوءَةِ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا
 آلِهَةً كَمَا قَالَ فِي الْمَقَامِ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، وَ
 الْمُرَادُ بِالتَّمَاثِيلِ الْأَصْنَامُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَالتَّعْبِيرُ بِالتَّمَاثِيلِ لِلتَّحْقِيرِ أَيْ أَنَّهَا
 صُورٌ بِلَا رُوحٍ مِنْ نَسْخِ الْجَمَادَاتِ وَكَلِمَةٌ مَا، لِلِاسْتِفْهَامِ، وَالمَعْنَى أَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ
 التَّمَاثِيلُ فَهُوَ لِلتَّوْبِيخِ وَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ
 عَارِفًا بِحَالِ التَّمَاثِيلِ فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُمْ مَا قَالَ عَلَى
 سَبِيلِ التَّوْبِيخِ وَالتَّنْذِيرِ فَأَنَّ الْمَوْجُودَ الْعَاقِلَ إِذَا عَبْدَ الْجَمَادَ فَهُوَ يَسْتَحِقُّ
 لِلتَّوْبِيخِ وَالمُرَادُ بِالعُكُوفِ اللَّزُومَ لِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ.

وَقِيلَ مَعْنَى، لَهَا، عَاكِفُونَ، لِأَجْلِهَا ثُمَّ أَنَّهُمْ أَجَابُوا بِمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ
 بِقَوْلِهِ: قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ إِسْتَدْلَوْا عَلَى صِحَّةِ عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ
 بِعَمَلِ آبَائِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ فَقَالُوا فِي جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا أَيْ
 لِلْأَصْنَامِ عَابِدِينَ فَنَحْنُ أَيْضًا نَعْبُدُهُمْ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ التَّقْلِيدَ فِي الْأَصُولِ
 الْإِعْتِقَادِيَّةُ بَاطِلٌ لَا سِيَّمَا التَّقْلِيدُ عَنْ مُشْرِكٍ أُخَرِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي الْأَبَاءِ
 كَالْكَلَامِ فِي الْأَبْنَاءِ مِنَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَلِذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فِي جَوَابِ إِسْتِدْلَالِهِمْ.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

حزء ١٧

المجلد الحادي عشر

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
 فَإِنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ أَيْ أَنَّ الْأَبَاءَ كَانُوا عَلَى الضَّلَالَةِ كَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِا
 فَذَمُّهُمْ عَلَى تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَنَسْبِ الْجَمِيعِ إِلَى الضَّلَالَةِ وَالْعُدُولِ عَنِ الْحَقِّ ثُمَّ

أنهم أجابوا ثانياً حيث قالوا أجتئنا بالحق أم أنت من اللّاعبين، أي قالوا في جواب إبراهيم عليه السلام على سبيل الإستفهام أجتئنا بالحق أي أنت محقّ فيما تقول في ذمّ عبادة الأصنام أم أنت لاعبّ بنا و أنما قالوا ذلك له لأن إبراهيم عليه السلام كان قد نشأ بينهم فجّزوا أن ما قاله لهم بترك عبادة الأصنام على سبيل المزاح لا الجدّ فاستفهموه أهذا جدّ أم لعب و الضمير في قوله، قالوا، عائذ على أبيه و قومه و بالحق، متعلّق بقولهم أجتئنا ولم يريدوا حقيقة المجي لأنه لم يكن عنهم غائباً فجاءهم ثم أنّ الحقّ هنا ضدّ الباطل و هو الجدّ ولذلك قالوا باللّعب و جاءت الجملة إسميّة لكونها أثبتت كأنهم حكموا عليه بأنّه لاعبّ هازل في مقالته لهم بزعمهم الفاسد و ذلك أنهم كانوا يستبعدون منه إنكار عبادتها عليه و لذلك أضرب إبراهيم عن قولهم و أخبر عن الجدّ كما حكاه الله تعالى بقوله:

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ

كلمة، بل، للإضراب ومعنى الآية أنّ المالك لهم و المستحقّ للعبادة هو ربّهم و ربّ هذا العالم العلوي و العالم السفلي المندرج فيه أنتم و معبوداتكم من الأصنام و فيه تنبيه على أنّ المستحقّ للعبادة هو منشي هذا العالم و مخترعه من العدم الصرف إلى الوجود و الظاهر أنّ الضمير في (فطرهنّ) عائذ على السّموات و الأرض ولما لم تكن السّموات و الأرض تبلغ في العدد الكثير منه جاء الضمير ضمير القلّة و قيل الضمير في فطرهنّ عائذ إلى التّماتيل التي كانوا يعكفون عليها و يعبدونها.

و قال الزّمخشري عوده على التّماتيل أدخل في تضليلهم و أثبت للإحتجاج عليهم إنتهى.

و قال ابن عطية فطرهّن، عبارة عنها كأنها تعقل و هذه من حيث لها طاعة و إنقياد و قد وضعت في مواضع بما يوصف به من يعقل.

أقول كأن ابن عطية و غيره تخيل أن ضمير هُنّ، من الصّمائير التي تخصّ من يعقل من المؤنثات ولم يعلموا أنّه لفظٌ مشترك بين من يعقل و ما لا يعقل من المؤنث المجموع و من ذلك قوله: **فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** ^(١) و الصّمير عائدٌ على الأربعة الحرم و الإشارة بقوله ذلكم، إلى ربوبيّته تعالى و وصفه بالإختراع لهذا العالم و من، للتبعض أي الذين يشهدون بالربوبية كثيرون و أنا بعضٌ منهم و على ذلكم، متعلّق بمحذوف تقديره و أنا شاهد على ذلكم من الشّاهدين.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية عني بقوله: **وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ**، إذعاء أنّه قادرٌ على إثبات ما ذكره بالحجّة أو أنّي نسبت مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجّة كما لا تقدروا على الإحتجاج لمذاهبكم و لم تزيدوا على أنّكم وجدتم عليه أبأؤكم إنتهى موضع الحاجة منه.

وَ تَاللّٰهِ لَا كَيْدَٓنَ أَصْنَامَكُمۡ بَعْدَٓ أَنۡ تَوَلَّوۡا مُدْبِرِينَ

ثمّ أقسم إبراهيم عليه السلام و قال و تالله و ذلك قسمٌ و التاء في القسم لا تدخل إلّا في إسم الله لأنّها بدل من الواو والواو بدل من الباء فهي بدل من بدل فلذلك اختصت بإسم الله.

و قرأ معاذ بن جبل و أحمد بن حنبل، بالله، بالباء بواحدة من أسفل.

قال الزّمخشري فإن قلت ما الفرق بين التاء والباء.

قلت أنّ الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو و أنّ التاء فيها زيادة معني التعجّب كأنّه تعجّب من تسهل الكيد على يده لأنّ ذلك كان أمراً مقنوطاً منه

لصعوبته و تَعَذُّره و لعمرى أن مثله صَعْبٌ مُتَّعِذِرٌ فِي كُلِّ رِمَانٍ خُصُوصاً فِي زَمَنِ نَمْرُودَ مَعَ عَثْوِهِ وَ إِسْتِكْبَارِهِ وَ قُوَّةِ سُلْطَانِهِ وَ تَهَالِكِهِ عَلَى نَصْرِ دِينِهِ وَلَكِنْ إِذْ بِاللَّهِ شَيْءٌ عَقْدٌ شَيْءٌ تَيْسَرٌ إِنَّتَهَى.

أقول: قيل في وجه إصالة الباء للقسم أنها أوسع حروف القسم إذ تدخل على الظاهر والمضمر ويَصْرَحُ بفعل القسم معها وتحذف وأما قولهم أن التاء بدل من الواو الذي أبدل من باء القسم فهو قول لا دليل عليه وقد رواه السُّهيلي والذي يقتضيه النقل أنه ليس شيئاً منها أصلاً لآخر وأما قول الزمخشري أن التاء فيه زيادة معنى وهو التّعجب فهو أيضاً غير مسلم لأن التاء يجوز أن يكون معها التّعجب وأن لا يكون واللام هي التي يلزمها التّعجب في القسم هذا ثم أن الكيد معناه الإحتيال في وصول الضرر إلى المكيد والظاهر أن هذه الجملة خاطب بها عمه وقومه وقيل قال ذلك سراً من قومه و سَمِعَهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ سَمِعَهُ قَوْمٌ مِنْ ضَعْفَائِهِمْ مِمَّنْ كَانَ يَسِيرُ فِي آخِرِ النَّاسِ يَوْمَ خَرَجُوا إِلَى الْعِيدِ وَكَانَتِ الْأَصْنَامُ سَبْعِينَ وَ قِيلَ اثْنِينَ وَ سَبْعِينَ.

روي أن أزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤا ببیت الأصنام فدخلوه و سجدوا لها و وضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم و قالوا لن ترجع بركة الألهة على طعامنا فذهبوا فلما كان في الطريق ثنى عزمه عن المسير معهم فقعدها قال: **إِنِّي سَقِيمٌ.**

و قال الكلبي كان إبراهيم من أهل بيت ينظرون في النجوم وكانوا إذا خرجوا الى عيدهم لم يتركوا إلا مريضاً فأتاهم إبراهيم بالذي هم فيه فنظر قبل يوم العيد إلى السماء و قال لأصحابه أني أشتكى غداً و أصبح معصوب الرأس فخرجوا و لم يتخلف أحد غيره و قال تالله لأكيدنَّ إلى آخره فسمعه رجل فحفظه ثم أخبر به فانتشر إنتهى.

قِيلَ وَ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ فَتَوَلَّوْا إِلَىٰ عِبَادِهِمْ فَأَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ الْأَصْنَامَ فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا.

قال ابن عباس و حطاماً و قال الضَّحَّاك أخذ من كل عضو من عضواً كانت الأصنام مصطفةً و صنمٌ منها عظيم مستقبل الباب من ذهب و في عينه درتان مضيتان فكسرها بفأسٍ إلا ذلك الصنم و علّق الفأس في عنقه و قيل في يده و قرأ الجمهور، جذاذاً بضَم الجيم و الكسائي و ابن محيص و ابن مقسم بكسرها و ابن عباس و أبو السَّمَاك و أبو نهيك بفتحها و هي لغات أجودها الضَّم كالخطام و الرُّفَات قال اليزيدي، جذاذ بالضَّم جمع جذاذة كزجاج و زجاجة و بالكسر جمع جذيد مثل كريم و كرام و بالفتح مصدر كالحصاد بمعنى المحصود فالمعنى مجذوذين.

و قال قطرب في لغاته الثلاث هو مصدر لا يثنى و لا يجمع و إلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله:

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

و أما قال، فجعلهم ولم يقل فجعلها لأنها كانت تعد و محصل الكلام أن إبراهيم عليه السلام جعل الأصنام جذاذاً و قوله: إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ إستثناء من الضمير في، فجعلهم، أي فلم يكسر الكبير من الأصنام فالضمير في، لهم، يحتمل أن يعود على الأصنام و أن يعود على عباده أي لم يكسر الكبير من أصنامهم و المراد بالكبير هنا العظيم الجثة و قيل كبير في المنزلة عندهم لكونهم صاغوه من ذهب و جعلوا في عينيه جوهرتين تضيئان بالليل و الضمير في إليه، عائدٌ على إبراهيم أي فعل ذلك إبراهيم بأصنامهم ترجياً منه أن يرجعوا إليه و إلى شرعه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

قيل في الكلام محذوف تقديره فلما رجعوا من عيدهم إلى ألهتهم و رأوا ما فعل بها إستفهموا على سبيل البحث والإنكار فقالوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا أَيِ مِنْ كَسَرِهَا وَ جَذَّهَا أَنَّهُ لَظَالِمٌ فِي إِجْتِرَائِهِ عَلَى الْإِلَهِةِ الْمُسْتَحَقَّةِ لِلتَّعْظِيمِ وَ التَّوْقِيرِ وَ الظَّاهِرِ أَنَّهُمْ إِسْتَفْهَمُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَسْتَفْهَمُوهُ قِيلَ لَهُمْ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

بقوله: قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ.
أَيِ قَالَ الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا قَالَ: وَ تَاللَّهِ لَاكَيْدَنَّ أَصْنَامَكُمْ وَ قوله: يَذْكُرُهُمْ أَيِ يَذْكُرُهُمْ بِسُوءٍ وَ قَدْ مَرَّ أَنَّ بَعْضَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْقَوْمِ سَمِعُوا مِنْ إِبْرَاهِيمَ هَذَا فَقَوْلُهُ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ لَمَّا قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ وَ أَتَوْا بِهِ مُنْكَرًا قِيلَ مِنْ يُقَالُ لَهُ فَقِيلَ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِرْتِفَاعُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ مُبْتَدَأَ مُحذوف أَيِ هُوَ إِبْرَاهِيمَ لَهُ وَ عَلَى أَنَّهُ مُفْرَدٌ مفعولي لما لم يسم فاعله و عليه فيكون من الأسناد للفظ لا مدلوله أَيِ يطلق عليه هذا اللفظ.

قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ

لَمَّا قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ سَمِعَ إِبْرَاهِيمَ يَعْيبُ أَلْهَتَهُمْ وَ يَذْكُرُهَا بِسُوءٍ قَالُوا جِئُوا بِهِ أَيِ أَحْضَرُوهُ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ وَ أَنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَرِهُوا أَنْ يَأْخُذُوهُ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَ لِذَلِكَ قَالُوا جِئُوا بِهِ بِحَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ وَ يَكُونُ بِمَرَاءٍ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، بِمَا قَالَ أَنِّي أَكِيدُ أَصْنَامَهُمْ شَهَادَةً يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ يَشْهَدُونَ عِقَابَهُ، يَشْهَدُونَ حُجَّتَهُ وَ مَا يُقَالُ لَهُ مِنَ الْجَوَابِ وَ عَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ وَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَ عَلَى، مَعْنَاهَا الْإِسْتِعْدَادُ الْمَجَازِي قِيلَ الْمُرَادُ بِالنَّاسِ هُنَا خَوَاصُّ الْمَلِكِ وَ أَوْلِيَائِهِ وَ فِي الْكَلَامِ حَذَفَ تَقْدِيرُهُ فَأَتُوا بِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ.

قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ

لَمَّا أَحْضَرُوا إِبْرَاهِيمَ قَالُوا أَيُّ قَوْمٍ لَكَ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا أَيُّ أَنْتَ كَسَّرْتَ الْأَلْهَةَ وَجَعَلْتَهَا جِذَاذًا يَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ فِي جَوَابِهِمْ.

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ

قال بعض المفسرين وأما جاز أن يقول بل فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا والمفروض أنه ما فعل شيئاً لأحد أمرين:

أحدهما: أنه قيَّده بقوله، إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم وقالوا فإسألوهم إعتراض بين الكلامين كما يقول القائل عليه الدرهم فإسأله أن أقترن.

الثاني: أنه خرج مخرج الخبر وليس بخبرٍ وأما هذا إلزامٌ دلَّ على تلك الحال كأنه قال بل ما تكرون فعله كبيرهم هذا فالإلزام تارة يأتي بلفظ السؤال وتارة بلفظ الآخر كقوله تعالى: فَاتَّبَعُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَتَارَةً بلفظ الخبر والمعنى فيه أنه من إعتقد كذا لزمه كذا وقد قرئ في الشعراء فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ بتشديد اللام يعني فلعل كبيرهم فعلى هذا لا يكون كذباً خيراً فلا يلزم أن يكون كذباً والكذب قبيح لكونه كذباً فلا يحسن على وجه سواء كان فيه نفع أو دفع ضرر وعلى كل حال فلا يجوز على الأنبياء والقبايح ولا يجوز عليهم التعمية في الأخبار ولا التقييد في أخبارهم لأنه يؤدي إلى التشكيك في أخبارهم فلا يجوز ذلك عليهم على وجه فأمّا ما روي عن النبي بأن قال، لم يكذب إبراهيم إلا بثلاث كذبات كلها في الله، فإنه خبرٌ لا أصل له ولو حسن الكذب على وجه كما يتوهم بعض الجهال لجاز عن القديم تعالى ذلك وزعموا أن الثلاث كذبات هي قوله: فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا وما كان فعله وقوله: إِنِّي سَقِيمٌ ولم يكن كذلك وقوله في سارة لما أراد الجبار أخذها أنها أختي وكانت زوجته حتى قال بعضهم كان الله أذن له في ذلك وهذا باطلٌ لأنه لو أذن الله فيه لكان

الكذب حسناً، قد بينا أنه قبيحٌ على كلِّ حالٍ و قيل معنى قوله: إِنِّي سَقِيمٌ إِنِّي سَأَسْقِمُ، لأنه لما نظر الى بعض الكواكب علم أنه وقت نوبة حمى كانت تجيئه فقال إِنِّي سَقِيمٌ و قيل معناه إِنِّي سَقِيمٌ، أي غمّاً بضلالكم، قيل معناه إِنِّي سَقِيمٌ عندكم فيما أدعوكم إليه من الدين و قيل أن من كانت عاقبته الموت جاز أن يقال فيه سَقِيمٌ مثل المريض المشرف على الموت و أمّا قوله في سارة أنها أختي فإنه أراد في الدين و أمّا قول يوسف لإخوته أَنْكُمْ لَسَارِقُونَ فقد قال قومٌ هو من قول مودن يوسف على ظنه فيما يقتضيه الحال من الظن الذي يعمل عليه و قيل معناه أَنْكُمْ لَسَارِقُونَ، يوسف إنتهى ما ذكره الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّانِ في تفسيره لهذه الآية و إنما نقلنا كلامه لما فيه من الفائدة التي ينبغي التَّوجُّه إليها.

و أنا أقول: أصل الإشكال هو أن قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ مِنْ الْكُذْبِ و الكذب قبيحٌ ذاتاً و هو لا يصدر عن النَّبِيِّ لِمَكَانِ عَصَمَتِهِ فَلَوْ قُلْنَا بِجَوَازِ الْكُذْبِ عَلَيْهِ نَفِينَا عَنْهُ الصَّحَّةُ و لا شك أن إبراهيم عليه السَّلام من أعظم الأنبياء فكيف يجوز عليه الكذب و هذا الإشكال هو الذي صار سبباً و باعثاً على إحالة الكلام في المقام و حيث إنجَرَّ الكلام الى هنا فلا بد لنا من التَّكَلُّمِ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الْإِعْتِقَادَاتِ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ و الْأَوْصِيَاءِ عَلَى مَذْهَبِ الْحَقِّ و قبل الخوض في البحث نشير الى بعض الأقوال من المفسرين قال الرَّمَحْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَا هَذَا لَفْظُهُ.

هذا من معاريض الكلام و لطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الرَّاضة من علماء المعاني و القول فيه أن قصد إبراهيم، لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصَّنَمِ و إنما قصد تقريره لنفسه و إثباته لها على أسلوب تعريضي يعني يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجَّة و تبكيتهم و هذا كما لو قال لك صاحبك و قد كتبت كتاباً بخَطِّ رَشِيقٍ و أنت مشهور بحسن الخط أنت

كتبت هذا و صاحبك أُمِّي لا يحسن الخَطَّ و لا يقدر إلَّا على خرمشة فاسدة فقلت، بل كتبت أنت كان قصدك بهذا الجواب تقديره لك مع الإستهزاء به لا نفسه عنك و إثباته للأُمِّي أو المخرمش لأنَّ إثباته و الأمر دائرٌ بينكما للعاجز عنكما إستهزاءً به و إثباتٌ للقادر و القائل أن يقول غاضته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة و كان غيظه كبيرها أكبر و أشدَّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنَّه هو الَّذي تَسَبَّب لإستهاتته بها و حطمه لهما و الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه و يجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنَّه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فأَنْ من حقَّ من يعبد و يدعى إليه بأنَّه إله أن يقدر على هذا و أشدَّ منه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية لمَّا لم يكن السَّماع عامًّا و لا تثبت الشهادة إستفهموه هل فعل أم لا و فى الكلام محذوف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا أنت فعلت هذا بألهة فقال لهم إبراهيم على جهة الإحتجاج عليهم **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** هذا أي أنَّه غار و غضب من أن يعبد هو و يعبد الصَّغار معه ففعل هذا بها لذلك أن كانوا ينطقون فإسألوهم فعَلَّق فعل الكبير بنطق الآخرين تنبيهًا لهم على فساد إعتقادهم كأنَّه قال بل هو الفاعل أن نطق هؤلاء.

و قيل بيَّن أنَّ من لا يتكلَّم و لا يعلم لا يستحقُّ أن يعبد و كان قوله من المصاريفي مندوحة من الكذب أي سلوهم إن نطقوا فأنَّهم ليصدقون و أن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل و فى ضمن الكلام إعتراَف بأنَّه هو الفاعل و هذا هو الصَّحيح لأنَّه عدَّده على نفسه فدَلَّ أنَّه خرج مخرج التعريض إنتهى.

و قال الرَّاзи فأن قيل، قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** كذب.

و الجواب للنَّاس فيه قولان، ثمَّ ذكر أقوالاً كثيرة في القول الأوَّل و نحن نقلناها عنهم فلا نعيدها ثمَّ قال القول الثَّاني و هو قول طائفة من أهل

الحكايات أن ذلك كذب واحتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات في ذات الله تعالى، قوله: **إِنِّي سَقِيمٌ** وقوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** وقوله لسارة هي أختي وفي خبر آخر أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال إنني كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقلوا أن الكذب ليس قبيحاً لذاته فإن النبي ﷺ إذا ضرب من ظالم واختفى في دار إنسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب فيه وإذا كان كذلك فأبى بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو ثم قال الرّازي ويعلم أن هذا القول مرغوب عنه أمّا الخبر الأول وهو الذي روه فلاّن يضاف الكذب إلى رواية أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم السلام والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة وبأذن الله فيه فلنَجُوز هذا الإحتمال في كلّ ما أخبروا عنه وفي كلّ ما أخبر الله تعالى عنه وما ذلك يبطل الموثوق بالشرائع والطرق التهمة إلى كلّها ثم أن ذلك الخبر لو صحّ فهو محمول على المعارض على ما قال **عَلَيْهِ السَّلَام** أن في المعارض لمندوحة عن الكذب وأما قوله تعالى: **إِنِّي سَقِيمٌ** فلعله كان به سقم قليل وإستقصاء الكلام فيه يجي في موضعه وأما قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** فتحق ظهر الجواب عنه.

وأما قوله لسارة أنها أختي فالمراد بها أخته في الدين وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء فلا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره حق لا مرية فيه ويظهر من كلامه أن الحديث الذي روه عن رسول الله أنه قال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات بأن لا أجعل له بل هو من المجعولات وقد صرح بذلك من العصيان كما مرّ وهو أي الشيخ **فِيهِ** أعرف بالأنبياء من غيره والعجب من الطبري وهو من أعظم أهل السنة أنه حكم بصحة الخبر في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه:

و قد زعم بعض من لا يصدّق بالأثار و لا يقبل من الأخبار إلّا ما إستعاص به النّقل من العوام أنّ معنى قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** أنّما هو، بل فعله كبيرهم هذا أن كانوا ينطقون فإسألوهم أي أن كانت الألهة المكسورة تنطق فأنّ كبيرهم هو الَّذي كسرهم و هذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّ إبراهيم لم يكذب إلّا ثلاث كذبات كلّها في الله، قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**، وقوله: **إِنِّي سَقِيمٌ** وقوله لسارة هي أختي و غير مستحيل أن يكون الله تعالى أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به و يحتجّ به عليهم و يعرفهم موضع خطأهم و سوء نظرهم لأنفسهم كما قال مؤدّن يوسف أيتها العير أنك لسارقون ولم يكونوا سرقوا شيئاً إنتهى كلامه.

بألفاظه و عباراته إذا عرفت هذا فنقول:

الحقّ أنّ النّبي لا يكذب لكان عصمته و عدم وجوب التّقيّة عليه و أنّ جواز الكذب فيه يوجب سلب الإعتداد بقوله و احتمال المصلحة في كذبه يجري في جميع أقواله و أمّا وجود المصلحة في الكذب في غير النّبي فهو ممّا لا إشكال فيه بل قد يجب الكذب و يحرم الصدق في بعض الموارد كما إذا تزدت على الصدق مفسدة عظيمة و السرّ في ذلك أنّ النّبي يخبر عن الله تعالى بالوحي و الإلهام و يجب على الأئمة قبول قوله في جميع الأمور فلو فرضنا جواز الكذب عليه بأيّ نحو كان يلزم نقض الفرض و إمّا غير النّبي فليس كذلك و لأجل ذلك لم يجوّزوا التّقيّة عليه و هذا ثابت في حقّه إجماعاً عقلاً و نقلاً ولم يخالف فيه أحداً إلّا شرذمة قليلة فمن لا يعتنى بقولهم و لا تضرّ مخالفتهم في المقام.

و العجب من الطّبري حيث أنكر ذلك و تمسّك بما لا أصل له من الأخبار الموضوعية و ليس هذا أول قارورة تكسر في الإسلام.

إن قلت: فما معنى الآية.

قلت: معنى الآية لا خفاء فيه ولا يحتاج إلى ما ذكره وذلك لأن إبراهيم لم يقل ما فعلت صريحاً حتى يلزم الكذب بل قال: **فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** ثم علق الفعل على نطق الأصنام فقال فإسألوهم إن كانوا ينطقون ومن المعلوم المسلم عند الكل أن المشروط ينتفي بإتفاء شرطه وحيث أن السؤال علق على النطق فإذا إنتفى النطق إنتفى السؤال ولا شك أن الجماد لا يصدق على النطق فلا يسأل منه فلم يفعل الفعل فالكلام يدل على أن الفعل لم يصدر من الكبير وهو حق لا مرية فيه واقعاً وأما أن الفعل صدر من إبراهيم أو لم يصدر منه فالكلام ساكت عنه فأين الكذب في كلامه هذا حتى نبحت فيه والذي أوقفهم في الإشكال هو قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ومن المعلوم أنه لم يفعل ولم يعلموا أن إسناد الفعل إلى الكبير ليس على إطلاقه حتى يلزم الكذب بل مشروطاً بالنطق المستحيل وما علق على المحال فهو محال فبإسناد الفعل إليه بقول كان محال ولعمري هذا واضح لمن تدبر في الكلام وأنصف من نفسه، نعم لو كانت الآية هكذا قال لم أفعله بل فعله كبيرهم يلزم الكذب حيث نفى الفعل عن نفسه والمفروض أنه فعله ولما لم يقل لم أفعله فلم يكذب وهذا ظاهر.

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ

أي عادوا إلى نفوسهم يعني بعضهم إلى بعض وقال بعضهم لبعض أنكم أنتم الظالمون في سؤاله لأنها لو كانت ألهة لم يصل إبراهيم إلى كسرها، وقيل معنى الكلام أنتم الظالمون بعبادة من لا ينطق بلفظة ولا يملك لنفسه لحظة وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس.

وقال بعض المفسرين في معنى الكلام أي أنتم الظالمون في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه ولم يسألوها أو حين عبدتم ما لا ينطق وقال ابن عباس أنتم الظالمون حين لم تحفظوا ألهتكم، أو في عبادة الأصاغر مع هذا الكبير، وقيل أنتم الظالمون حقيقة حيث نسبتهم إبراهيم إلى الظلم في قولكم أنه لمن الظالمين إذ هذه الأصنام مستحقة لما فعل بها.

بَابُ التَّوْقَاتِ فِي تَفْهِيمِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

النَّكْسُ هُوَ جَعْلُ الشَّيْءِ أَسْفَلَ أَعْلَاهُ وَ مِنْهُ النَّكْسُ فِي الْعَلَّةِ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَوَّلِ حَالِهِ وَ الْمَعْنَى أَدْرَكْتَهُمْ حَيْرَةً سَوْءَ فَنَكَسُوا لِأَجْلِهَا رُءُوسَهُمْ ثُمَّ أَقْرَأُوا بِمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ فَأَقْرَأُوا بِالْحَيْرَةِ الَّتِي لَحَقَتْهُمْ فَكُلَّ ذَلِكَ دَلَالَةً عَلَى خَطَأِهِمْ لَكِنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى الْعِنَادِ قَالَهُ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ أَيِ إِرْتَبَكُوا فِي ضَلَالِهِمْ وَ عَلِمُوا أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَنْطِقُ فَسَاءَهُمْ ذَلِكَ حِينَ نَبَّهَ عَلَى قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِاسْتِعَارَةِ لِلَّذِي يَرْتَطِمُ فِي غِيَّهِ كَأَنَّهُ مَنكُوسٌ عَلَى رَأْسِهِ وَ هِيَ أَقْبَحُ هَيْئَةٍ لِلْإِنْسَانِ فَكَأَنَّ فَعْلَهُ مَنكُوسٌ أَيِ مَغْلُوبٌ لِإِنْقِلَابِ شَكْلِهِ وَجَعَلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَ فَرَجَّوْهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ كَنَايَةً عَنْ إِسْتِقَامَةِ فِكْرِهِمْ وَ نَكَسَهُمْ كَنَايَةً عَنْ مُجَادَلَتِهِمْ وَ مَكَابَرَتِهِمْ وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَكَسَ الرُّؤُوسِ كَنَايَةً عَنْ تَنكِيسِهَا إِلَى الْأَرْضِ عَلَى سَبِيلِ الْخَجَلِ وَ الْإِنْكَارِ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِحَيْثُ لَمْ يَطِيقُوا جَوَاباً وَ أَمَّا قَوْلُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْتَ أَيِ لَقَدْ عَلِمْتَ يَا إِبْرَاهِيمَ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى النَّطْقِ فَكَيْفَ يَقُولُ لَنَا فَاسْأَلُوهُمْ أَمَّا قَصِدْتَ بِذَلِكَ تَوْبِيخاً.

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

لَمَّا قَالَ الْقَوْمُ لَهُ: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً، وَلَا تَدْفَعُ عَنْكُمْ ضَرّاً لِأَنَّهُ لَوْ قَدَّرْتَ عَلَى نَفْعِكُمْ وَ ضَرِّكُمْ لَدَفَعْتَ عَنْ نَفْسِهَا حَتَّى لَا تَكْسِرَ، هَكَذَا فَسَّرَ الْكَلَامَ فِي التَّبْيَانِ وَ لِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ.

قَوْلُهُ: وَلَا يَضُرُّكُمْ لَيْسَ مَعْنَاهُ لَا تَدْفَعُ عَنْكُمْ ضَرّاً وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى نَفَى عَنْهَا النَّفْعَ وَ الضَّرَّ أَيِ لَا نَفْعَ فِي عِبَادَتِهَا وَ لَا ضَرَرَّ فَهِيَ فِي عِبَادَتِهَا وَ عَدَمِهَا سَيِّانٌ.

و من المعلوم أنَّ الضرَّ في عبادتها موجود و أيَّ ضرَّ أقبح و أعظم من عبادة الصنم و فيه خسران الدنيا و الآخرة فكيف قال و لا يضرَّكم.

و أمَّا تفسير الشَّيْخ فلا يساعده ظاهر الكلام إذ فرَّق بين عدم الضرَّ و عدم دفع الضرَّ و المتَّفي في الآية هو الأوَّل دون الثَّاني فالإشكال باقٍ على حاله لوجود الضرَّ في عبادة الأوثان في الدَّارين و بعبارة أخرى لا نفع في عبادة الأصنام و لكن الضرَّ فيها موجود فكيف قال و لا يضرَّكم و العجب أنَّ أكثر المفسِّرين لم يفتنوا لهذه الملاحظة و فسَّروا الكلام على خلاف ظاهره و أتى بعد الرُّجوع الى تفاسيرهم الموجودة عندي لم أر ما يرفع الإشكال إلَّا الطَّبْرسي رحمته الله في المجمع حيث قال و لا يضرَّكم أن تركتموها أي إن تركتم العبادة.

و بهذا يندفع الإشكال و عليه ففي الكلام حذف و هو أن تركتموها و ما كان كذلك فعبادته لغو و وجوده كعدمه.

و أمَّا قوله تعالى: أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. ثمَّ أبدى لهم الضَّجْر منهم و من معبوداتهم فأنَّ هذه الكلمة ف الحقيقة صوت المتَّصجر و معناه قبحاً، و اللام لبيان المتأفِّ له أي أف لكم و لآلهتكم و بعبارة أخرى هذا المتأفِّ لكم و لآلهتكم ثمَّ قال أفلا تعقلون تنبيه على إرشادهم الى العقل الَّذي يدرك الأشياء به أي قبح ما أنتم عليه من عبادة الأصنام و أنتم من ذوي العقول و عليه فالإستفهام في قوله: أَفَلَا تَعْقِلُونَ توبيخ و إنكار و ما أقبح لمن يدَّعي العقل و هو يعبد الجماد.

و قال بعض المفسِّرين أفلا تعقلون، أفلا تتفكرون بعقولكم، في أنَّ هذه الأصنام لا تستحقَّ العبادة إذ لا تقدر على جلب النِّفع و دفع الضرِّ فلمَّا سمعوا من إبراهيم هذه المقالة قال بعضهم لبعض حرِّقوه كما قال تعالى عنهم:

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ

أي قال بعضهم لبعض آخر حرّقه بالنار فإنّ الإحراق ليس إلّا بها وَ
 أَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ، أي عظموها وأدفعوا عنها ومن عبادتها، إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ
 أي أن كنتم ناصريها ولم تريدوا ترك عبادتها، قيل أنّ الذي أشار بتحريق
 إبراهيم رجلٌ من أكراد فارس قيل الكلام حذفٌ و التّقدير أوثّقوا إبراهيم و
 أطرحوه في النّار و قيل أشار بإحراقه نمرود.

روي أنّهم حين همّوا بإحراقه حبسوه ثمّ بنو ابتيا الحظيرة و اختلفوا في
 مدّة حبسه و في عرض الحظيرة و طولها و مدّة جمع الحطب و مدّة الإيقاد و
 مدّة سنّة إذ ذاك و مدّة إقامته في النّار و كيفية ما صارت أماكن النّار و نحن
 عرضنا عن نقل أقوالهم لعدم الفائدة فيه مضافاً الى أنّه لا دليل على صحّة
 للأقاويل و الذي صرّح به القرآن و إنّفق الكلّ عليه هو الإلقاء في النّار و كيف
 كان.

روي أنّهم إنّخذوا منجنيقاً بتعليم إبليس إذ كان لم يصنع قبل فشّد إبراهيم
 رباطاً و وضع في كفّه المنجنيق و رمى به فرفع في النّار، روى أنّ إبراهيم لمّا
 احتجّ عليهم في عبادتهم الأصنام فلم ينتهوا حضر صيدّ لهم و خرج نمرود و
 جمع أهل مملكته الى صيدٍ لهم وكره أن يخرج إبراهيم معه فوكله بيت
 الأصنام فلمّا ذهبوا عمد إبراهيم الى طعام و أدخله بيت الأصنام فكان يدنوا
 من صنم الى صنم و يقول كل و تكلم فإذا لم يجبه أخذ القدوم فكسر يده و
 رجله حتّى فعل ذلك بجميع الأصنام ثمّ علّق القدوم في عنق الكبير منهم
 الذي كان في الصّدر فلمّا رجع الملك و من معه من الصيد نظروا الى الأصنام
 مكسرة فقالوا من فعل هذا بآلهتنا أنّه لمن الظّالمين فقالوا ها هنا فتى يذكرهم
 يقال له إبراهيم و هو ابن آزر فجاءوا به الى نمرود فقال نمرود آزر خنتني كتمت
 هذا الولد عنّي فقال أيّها الملك هذا عمل أمّه و ذكرت أيّها تقوم بحجّته فدعا

نمرود أم إبراهيم فقال لها احملك على ان امر هذا الغلام حتى فعل بالهتنا ما فعل أيها الملك نظراً مني لرعيّتك قال وكيف ذلك فرأيّتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل فقلت أن كان هذا الذي يطلبه دفعته اليه ليقتله و يكف عن قتل أولاده وإن لم يكن ذلك فيبقى لنا ولدنا و قد ظفرت به فشأنك فكف عن أولاد الناس فصوّب رأيها ثم قال لإبراهيم من فعل هذا بالهتنا يا إبراهيم قال إبراهيم فعله كبيرهم هذا فأسألوهم إن كانوا ينطقون.

قال الصادق عليه السلام واللّه ما فعل كبيرهم و ما كذب إبراهيم فليل له كيف ذلك فقال عليه السلام أنما قال فعله كبيرهم هذا إن نطق وإن لم ينطق فهو أي كبيرهم لم يفعل شيئاً فاستشار نمرود و قومه في إبراهيم فقالوا حرّقه و أنصروا ألّهتكم إن كنتم فاعلين قال الصادق عليه السلام كان فرعون إبراهيم لغير رشدة فأنهم قالوا لنمرود حرّقه و أنصروا ألّهتكم إن كنتم فاعلين و ان فرعون موسى و أصحابه و شدة فأنه لما إستشار أصحابه في موسى قالوا أرجه و أخاه و أرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكلّ سحارٍ عليم فحبس إبراهيم و جمع له الحطب حتى إذا كان اليوم الذي ألقى فيه نمرود إبراهيم في النار برز نمرود و جنوده و قد كان بنى لنمرود بناءً ينظر منه الى إبراهيم كيف تأخذه النار فجاء إبليس و إتخذ لهم المنجنيق لأنّه لم يقدر أحد أن يتقارب من النار و كان الطائر إذا مرّ في الهواء يحترق فوضع إبراهيم في المنجنيق و جاء آزر و لطمه لطمه و قال له إرجع عمّا أنت عليه و لم يبق شيء إلّا طلب الى ربّه و قالت الأرض يا ربّ ليس على ظهري أحد يعبدك غيره فيحرق و قالت الملائكة يا ربّ خليلك إبراهيم يحرق بالنار فقال أسكت أنما نقول أهذا عبدٌ مثلك يخاف الموت هو عبدي أخذه إذا شئت فأن دعاني أجبته فدعا إبراهيم ربّه بسورة الإخلاص يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد نجّني من النار برحمتك قال فألتقى معه جبرائيل في الهواء و قد وضع في المنجنيق فقال

يا إبراهيم هل لك إلّي من حاجة فقال إبراهيم أمّا اليك فلا و أمّا الى ربّ العالمين فنعم فدفع اليه خاتماً عليه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ألجأت ظهري الى الله و إستندت أمري الى الله و فوضت أمري الى الله فأوحى الله الى النار كوني برداً فإضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتّى قال و سلاماً على إبراهيم و إنحط جبرائيل و جلس معه يحدثه في النار و هم في روضة خضرة و نظر اليه نمرود فقال من إنَّخذ إلهاً فليتَّخذ مثل إله إبراهيم فقال عظيم من عظماء أصحاب نمرود أني عزمت على النار أن لا تحرقه فخرج عمودٌ من النار نحو الرّجل فأحرقتة و نظر نمرود الى إبراهيم في روضة خضراء في النار مع شيخ يحدثه فقال لآزر ما أكرم ابنك على ربّه إنتهى موضع الحاجة من الخبر^(١).

أقول الى هذا أشار الله تعالى بقوله:

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

و عن ابن عباس لو لم يقل و سلاماً على إبراهيم لهلك إبراهيم من البرد ولو لم يقل على إبراهيم لما أحرقت نار بعدها و لا إنقادت. قال بعضهم لما كانت النار تنفعل لما أراد الله منها كما ينفعل من يعقل عبّر عن ذلك بالقول لها و النّداء و الأمر.

قال الزّمخشري إن قلت كيف بردت النار و هي نار.

قلت نزح الله عنها طبعها الذي طبعها الله عليه من الحرّ و الإحراق و أكفأها على الإضاءة و الإشراف و الإشتعال كما كانت و الله على كلّ شيء قدير و يجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم أدنى حرّها و يذيقه فيها عكس ذلك كما يفعل بخزنة جهنّم و يدلّ عليه قوله على إبراهيم إنتهى.

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ

قيل هو العائد في النار فجعلناهم الأخسرين أي المبالغة في الخسران و هو
ابطال ما رائوه و قيل سلط عليهم ما هو من أهون خلقه و أضعفه و هو البعوض
يأكل من لحومهم و يشرب من دماءهم و سلط الله على نمrod بعوضة و
اختلف في كيفية اذيتها له و في مدة إقامتها تؤذيه الى أن مات منها.
و الحاصل أن نمrod و أشياعه أرادوا بإبراهيم كيداً و هي إحراقهم أياه فلم
يقدروا عليه و هذا واضح.



وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً
 يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ
 إِقَامَ الصَّلَاةِ وَاتِّبَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا غَابِرِينَ
 (٧٣) وَلُوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
 الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا
 قَوْمَ سَوْءٍ فَاسَقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا
 إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ
 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئَيْنَاهُ وَآهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
 (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَ
 دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ
 نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ
 (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا
 وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَ
 كُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ
 لِتُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)
 وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَاصِقَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى
 الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
 غَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ
 وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

◀ اللغة

وَلُوطًا: هو إسمٌ علمٌ وإستقامة من لاط الشَّيْ لوط لوطاً وليطاً وفي الحديث الولد أي العتق بالكبد.

نَافِلَةً: النفل الزيادة أي فضلاً و زيادة.

الْجَبَائِثُ: جمع خبيثة وهى المنكرة من كل شيء.

سَوْءٌ: فتح السَّين الفساد.

وَنُوحًا: نوح إسم نبي وهو مصدر من نَاحَ يَنُوحُ أي مناح بعويل.

الْكَرْبُ: بفتح الكاف و سكون الرءاء والباء الضم.

فِي الْحَرْثِ: الحرث الزرع وهو مصدر يقال حرث حرثاً.

نَفَسَتْ: يقال نفث نفثاً الأبل أو الغنم رعت ليلاً بلا راع.

لَبُوسٌ: بفتح اللام و ضم الباء الدرع و قيل هو السلاح كله درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمي.

لِتُحْصِنَكُمْ: الإحصان الإحراز والبأس شدة القتال.

◀ الإعراب

نَافِلَةً حال عن يعقوب و قيل هو مصدر كالعاقبة والعافية والعامل فيه، يعني وهبنا كلاً المفعول الأول لقوله، جعلنا إِقَامَ الصَّلَاةِ والأصل فيه إقامة عوض من حذف إحدى الألفين و جعل المضاف اليه بدلاً من الهاء وَلُوطًا أي وأتينا لوطاً و أَيْتَنَاهُ مفسر للحذوف ومثله داوود و نوح و سليمان و أيوب بعده من أسماء الأنبياء و قيل التقدير و أذكر لوطاً الخ.

و قيل التقدير و أذكر خبر لوط و الخبر محذوف و هو العامل في، إذا، والله أعلم.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

إِذْ نَفَسَتْ ظَرْفٌ لِيَحْكُمَ مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ العامل في، مع، يُسَبِّحْنَ و هو حال من الجبال أَلرَّيْحَ نصب على تقدير و سَخَرْنَا لسليمان و دَلَّ عليه و

سَخَّرْنَا الْأَوَّلَىٰ غَاصِفَةً ۖ حَالٌ وَتَجَرِّي ۖ حَالٌ أُخْرَىٰ ۖ أَمَّا بَدَلًا مِنْ عَاصِفَةٍ أَوْ مِنْ الضَّمِيرِ فِيهَا مَنْ يَغْوِضُونَ لَهُ مِنْ، فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَطْفًا عَلَى الرِّيحِ أَوْ رَفَعَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ وَ هِيَ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ دُونَ ذَلِكَ صِفَةً لِعَمَلٍ.

◀ التفسير

وَنَجِّنَاهُ ۖ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ

يقول الله تعالى إِنَّا نَجَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَ لُوطًا مِنَ الْكُفَّارِ وَ حَمَلْنَاهُمَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ اختلف المفسرون في المراد بالأرض فقال قوم هي أرض الشَّام أرض مَكَّة، وَ قِيلَ أرض بيت المقدس، وَ قِيلَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَ الْمُرَادُ بِالْبَرَكَةِ الَّتِي فِيهَا لِلْعَالَمِينَ هِيَ كَثْرَةُ الْأَشْجَارِ وَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَنْتَفِعُ جَمِيعُ الْخَلْقِ بِهَا إِذَا خَلَّوْا بِهَا وَ قِيلَ فِي وَجْهِ كَوْنِهَا مَبَارَكَةً أَنَّ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ يَعِيشُوا مِنْهَا فَلِذَلِكَ كَانَتْ مَبَارَكَةً وَ عَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِالْبَرَكَةِ وَ الْبَرَكَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ فِيهَا.

روي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَرَجَ مِنْهَا مُهَاجِرًا إِلَى رَبِّهِ وَ مَعَهُ لُوطٌ وَ كَانَ ابْنُ أَخِيهِ فَأَمْنَتْ بِهِ سَارَةَ وَ هِيَ ابْنَةُ عَمِّهِ فَأَخْرَجَهَا مَعَهُ فَأَرَا بَدِينَهُ وَ فِي هَذِهِ الْخُرْجَةِ لَقِيَ الْجَبَّارَ الَّذِي رَامَ اخْتِدَامَتَهُ فَنَزَلَ حِرَانَ وَ مَكَثَ زَمَانًا بِهَا، وَ قِيلَ سَارَةُ ابْنَةُ مَلِكِ حِرَانَ تَزَوَّجَهَا إِبْرَاهِيمَ وَ شَرَطَ عَلَيْهِ أَبُوهَا أَنْ لَا يَغْيِرَهَا وَ لِقَوْلِ الْأَوَّلِ أَصَحَّ وَ كَيْفَ كَانَ ثُمَّ قَدِمَ مِصْرَ ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى الشَّامِ فَنَزَلَ السَّيْعَ مِنْ أَرْضِ فَلَسْطِينَ وَ نَزَلَ لُوطٌ بِالْمُؤْتَفَكَةِ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَ لَيْلَةٍ مِنَ السَّيْعِ أَوْ أَقْرَبَ فَبَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا هَذَا مَا قَالَهُ الْمَفْسَّرُونَ مِنَ الْعَامَةِ.

أَقُولُ: رَوَى فِي الْبَحَارِ نَقْلًا عَنِ الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ الْكَرْخِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مَوْلَدَهُ بِكُوثَارِيَا وَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِهَا وَ كَانَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ وَ أُمُّ لُوطٍ سَارَةَ وَ وَرَقَةً وَ فِي نَسْخَةٍ، رَقَبَةٌ اخْتَيْنِ وَ هُمَا بَنَتَانِ لِلْحَجِّ نَبِيًّا مُنْذَرًا

ولم يكن رسولاً وكان إبراهيم ^{عليه السلام} في شببته على الفطرة التي فطر الله عز وجل الخلق عليها حتى هداه الله الى دينه و إجتباؤه وأنه تزوج سارة ابنة لاجج وهي ابنة خالته وكانت سارة صاحب ماشية كثيرة و أرض واسعة و حال حسنة وكانت قد ملكت إبراهيم جميع ما كانت تملكه فقام فيه و أصلحه و كثرت الماشية و الزرع حتى لم يكن بأرض كوثاريا رجلاً أحسن مالاً منه و أن إبراهيم لما كسر أصنام نمrod و أمر به و أمر به نمrod فأوثق و جمع له حيراً (أي حظيرة) و جمع له من الحطب و ألهب فيه النار ثم قذف إبراهيم في النار لتحرقه ثم اعتزلوها حتى خمدت النار ثم أشرفوا على الحيرة فإذا هم بإبراهيم سليماً مطلقاً من وثاقه فأخبروا نمrod و خبره فأمرهم أن ينفوا إبراهيم من بلاده و أن يمنعوه من الخروج بماشيته و ماله فجاءهم إبراهيم عن ذلك فقال إن أخذتم ماشيتي و مالي فأنت حقى عليكم أن تردوا علي ما ذهب من عمري في بلادكم و إختصموا الى قاض نمrod فيقضى على إبراهيم أن يسلم اليهم جميع ما أصاب في بلادهم و قضى على أصحاب نمrod أن يردوا على إبراهيم ما ذهب من عمره في بلادهم و أخبر بذلك نمrod فأمرهم أن يخلو سبيله و سبيل ماشيته و ماله و أن يخرجوه و قال أنه أن بقى في بلادكم أفسد دينكم و أضرب بالهتكم فأخرجوا إبراهيم و لوطاً معه من بلادهم الى الشام فخرج إبراهيم و معه لوط لا يفارقه و سارة و قال لهم (أنى ذاهب الى ربى سيهدين) يعني الى بيت المقدس فيحمل إبراهيم ماشيته و ماله و عمل تابوتاً و جعل فيه سارة و شد عليه الأغلاق غيرة منه عليها و مضى حتى خرج من سلطان نمrod و سار الى سلطان رجل من القبط يقال له غرارة فسّر بعاشر له عنه العاشر ليعشروا معه فلما

إِنْتَهَى إِلَى الْعَاشِرِ وَمَعَ التَّابُوتِ فَقَالَ لَهُ الْعَاشِرُ إِفْتَحْ هَذَا التَّابُوتَ حَتَّى نَبْعَثَ مَا فِيهِ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ حَتَّى نَعْطِيَ عَشْرَهُ وَ لَا نَفْتَحَهُ فَأَبَى الْعَاشِرُ إِلَّا فَتَحَهُ قَالَ وَ غَضِبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى فَتْحِهِ فَلَمَّا بَدَتْ لَهُ سَارَةُ وَ كَانَتْ مَوْصُوفَةً بِالْجَمَالِ قَالَ لَهُ الْعَاشِرُ مَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ هَذِهِ حَرَمْتِي وَ ابْنَةُ خَالَتِي فَقَالَ لَهُ الْعَاشِرُ فَمَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ خَبَيْتَهَا فِي هَذَا التَّابُوتِ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْغِيْرَةُ عَلَيْهَا أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ فَقَالَ لَهُ الْعَاشِرُ لَسْتُ أَدْعُكَ تَبْرَحَ حَتَّى أَعْلَمَ الْمَلِكُ بِحَالِهَا أَوْ حَالِكَ فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَى الْمَلِكِ فَأَعْلَمَهُ فَبَعَثَ الْمَلِكُ رَسُولًا مِنْ قَبْلِهِ لِيَأْتُوهُ بِالتَّابُوتِ قَالُوا لِيَذْهَبُوا بِهِ فَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ إِنِّي لَسْتُ أَفَارِقُ التَّابُوتَ حَتَّى يَفَارِقَ رُوحِي جَسَدِي فَأَخْبَرُوا الْمَلِكَ بِذَلِكَ فَأَرْسَلَ الْمَلِكَ أَنْ أَحْمِلُوهُ وَ التَّابُوتَ مَعَهُ فَحَمَلُوا إِبْرَاهِيمَ وَ التَّابُوتَ وَ جَمِيعَ مَا كَانَ مَعَهُ حَتَّى أَدْخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ إِفْتَحِ التَّابُوتَ فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ فِيهِ حَرَمْتِي وَ بِنْتُ خَالَتِي وَأَنَا مُعْتَرِفٌ بِجَمِيعِ مَا مَعِيَ فَغَضِبَ الْمَلِكُ عَلَيَّ فَتَحَهُ فَلَمَّا رَأَى سَارَةَ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ أَنْ مَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَا فَأَعْرَضَ إِبْرَاهِيمُ وَجْهَهُ عَنْهَا وَ عَنْهُ غَيْرَتَا مِنْهُ وَ قَالَ اللَّهُمَّ أَحْبَسْ يَدَهُ عَنْ حَرَمْتِي وَ ابْنَةَ خَالَتِي فَلَمْ تَصِلْ يَدُهُ إِلَيْهَا وَلَمْ تَرْجِعْ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَنْ إِلَهَكَ هُوَ الَّذِي فَعَلَ بِكَ هَذَا فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَنْ إِلَهِي غَيُورٌ وَ يَكْرَهُ الْحَرَامَ وَ هُوَ الَّذِي حَالَ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ مَا أَرَدْتَ مِنَ الْحَرَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ فَأَدْعُ إِلَهَكَ يُرُدُّ عَلَيَّ يَدِي فَإِنْ أَجَابَكَ فَلَمْ أَعْرِضْ لَهَا فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ إِلَهِي رُدَّ إِلَيْهِ يَدُهُ وَ لِيَكْفَ عَنْ حَرَمْتِي فَرَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَدَهُ فَأَقْبَلَ الْمَلِكُ نَحْوَهَا بِبَصَرِهِ ثُمَّ عَادَ بِيَدِهِ نَحْوَهَا فَأَعْرَضَ إِبْرَاهِيمُ عَنْهُ بِوَجْهِهِ غَيْرَةً مِنْهُ وَ قَالَ اللَّهُمَّ أَحْبَسْ يَدَهُ عَنْهَا فَيَبْسُتْ يَدَهُ وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا فَقَالَ الْمَلِكُ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ

إِلَهَكَ لَغَيُورٌ وَأَنْتَ لَغَيُورٌ فَادْعِ إِلَهَكَ يَرُدُّ عَلَيَّ يَدِي فَإِنَّهُ أَنْ فَعَلَ لَمْ أَعُدْ
فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ وَسُئِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّكَ أَنْ عَدْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي أَنْ أَسْأَلَهُ
فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ نَعَمْ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ صَادِقًا فَرُدَّ يَدَهُ عَلَيْهِ
فَرَجَعَتْ يَدُهُ إِلَيْهِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمَلِكُ مِنَ الْغِيَرَةِ مَا رَأَى وَرَأَى الْآيَةَ
فِي يَدِهِ عَظُمَ إِبْرَاهِيمُ ذَهَابَهُ وَأَكْرَمَهُ وَنَقَّاهُ وَقَالَ إِلَيْهِ قَدْ أَمَنْتَ مِنْ
أَنْ أَعْرِضَ لَهَا أَوْ بَشِيٍّ مِمَّا مَعَكَ فَأَنْطَلِقْ حَيْثُ شِئْتَ وَلَكِنْ لِي إِلَيْكَ
حَاجَةٌ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَمَا هِيَ فَقَالَ لَهُ الْعَيْنَاتُ تَأْذُنُ لِي أَنْ أَخْذُمَهَا
قَبْطِيَّةً عِنْدِي جَمِيلَةً عَاقِلَةً تَكُونُ لَهَا خَادِمًا فَأَذْنُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ فَعَدَا بِهَا
فَوَهَبَهَا لِسَارَةَ وَهِيَ هَاجِرٌ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَسَارَ إِبْرَاهِيمُ بِجَمِيعِ مَا
مَعَهُ وَخَرَجَ الْمَلِكُ مَعَهُ يَمْشِي خَلْفَ إِبْرَاهِيمَ إِعْظَامًا لِإِبْرَاهِيمَ وَهَيْبَةً
لَهُ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ قِفْ وَلَا تَمْشِي قَدَامَ الْجَبَّارِ
الْمُتَسَلِّطِ وَيَمْشِي وَهُوَ خَلْفَكَ وَلَكِنْ اجْعَلْهُ أَمَامَكَ وَأَمْشِ خَلْفَهُ وَ
عَظَّمْهُ فَإِنَّهُ مُسَلِّطٌ وَلَأَبْدُ مِنْ أَمْرَةٍ فِي الْأَرْضِ بَرَّةً أَوْ فَاجِرَةً فَوَقَفَ
إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ لِلْمَلِكِ أَمْضِ فَأَنَّ إِلَهِي أَوْحَى إِلَيَّ السَّاعَةَ أَنْ أَعْظَمَكَ وَ
أَهَابَكَ وَأَنْ أَقْدَمَكَ أَمَامِي وَأَمْشِ خَلْفَكَ إِجْلَالًا لَكَ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ
أَوْحَى إِلَيْكَ بِهَذَا فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ نَعَمْ فَقَالَ الْمَلِكُ أَشْهَدُ أَنَّ إِلَهَكَ لَرَفِيقٌ
حَلِيمٌ كَرِيمٌ وَأَنْتَ تَرْغِبُنِي فِي دِينِكَ وَدَعَا الْمَلِكُ فَسَارَ إِبْرَاهِيمُ
حَتَّى نَزَلَ بِأَعْلَى الشَّامَاتِ وَخَلْفَ لُوطًا فِي أَدْنَى الشَّامَاتِ ثُمَّ أَنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ الْوَلَدُ قَالَ لِسَارَةَ لَوْ شِئْتَ لَبِعْتَنِي هَاجِرٌ لَعَلَّ
اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنَا مِنْهَا وَلَدًا فَيَكُونُ لَنَا خَلْفًا فَاتَّبَعَ إِبْرَاهِيمُ هَاجِرَ مَنْ
سَارَةَ فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَوَلَدَتْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّتَهُ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ

الهبّة، بكسر الهاء وفتح الباء أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض يقال وهبته و موهبةً و موهباً، قاله في المفردات ف قوله: وَ هَبْنَا لَهُ، معناه جعلنا ملكنا لغيرنا بغير عوض وفيه إشارة إلى أَنَّ الولد في الحقيقة مملوك لله تعالى فَأَنَّ العبد و ما في يده كان لمولاه و هو مملوكٌ لأبيه أو لسيده مجازاً لا حقيقةً فإذا قلنا أَنَّ الأب مالكٌ لولده أو أَنَّ السَّيدَ مالكٌ لعبده ليس معناه إِنَّهُمَا يملكونه واقعاً بل المالك الحقيقي هو الله تعالى و محصلُ الكلام أَنَّ المالك الحقيقي لجميع ما سوى الله هو الله تعالى و السَّرُّ فيه أَنَّ مالكيّة الخالق لمخلوقه ذاتيٌّ و هي لغيره عرضيٌّ و كلُّ ما هو ذاتيٌّ للموجود فهو له حقيقة و كلُّ ما هو عرضيٌّ له بمعنى أَنَّهُ موعوبٌ من غيره فهو ليس له واقعاً و أَنَّمَا عرض له في مدّةٍ معيّنةٍ محدودةٍ و هذا هو السَّرُّ في قول الفلاسفة العرض ماهيةٌ إذا وجدت وُجدت في الموضوع و الجوهر بخلافه فَأنَّهُ لا في الموضوع و حيث أَنَّ العطايا من الواهب المعطي أعني به الله فهي من الأعراض فلا بقاء لها و لا قوام لها بذاتها و هذا من المسلّم المقطوع الذي لا كلام فيه و لأجل ذلك جميع ما سوى الله محكومٌ بالفناء و الدُّثور كما هو شأن العرض فإفهم.

قال المفسرون أَنَّ إبراهيمَ لَمَّا سأل الله تعالى ولداً و قال رَبِّ هب لي من الصّالحين، فأجاب الله دعاءه و وهب له إسحاق من سارة إجابةً لدعائه و وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاءه ولذلك قال تعالى، نَافِلَةً، لأنَّ النَّافِلَةَ في اللُّغة الزيادة كالصَّلَاة النَّافِلَةُ الَّتِي هي زيادة على الفرض و على هذا فالمراد بالنَّافِلَةِ، يعقوب خاصّة و المعنى و وهبنا لإبراهيم أي أعطيناه ولداً بدعائه و هو إسحاق ثُمَّ زدنا عليه و وهبنا لإسحاق يعقوب زيادةً على الطَّلَب فضلاً ممَّا.

و قال بعض المفسرين أَنَّ النَّافِلَةَ تتعلّق بهما و ذلك لعدم الفرق بين قوله: وَ هَبْنَا عَلَى سبيل العطيّة و الفضل من غير إستحقاقٍ و أَنَّ شئت قلت لا فرق

بين قوله و وهبنا له هبةً عظيمةً و فضلاً أو إستحقاقاً و على هذا فمعنى الآية و وَهَبْنَا أَي أعطينا إسحاق و بعده يعقوب على سبيل العطية و الفضل قالوا هذا الوجه أقرب بسياق الكلام لأنه تعالى جمع بينهما ثم ذكر قوله، نافله، فإذا صلح أن يكون وصفاً لهما فهو أولى ثم قال تعالى و كلاً جعلنا صالحين أي و كلاً من إبراهيم و إسحاق و يعقوب جعلنا أنبياء مرسلين، و قيل المراد أنهم جميعاً من الصالحين أي عاملين بطاعة الله محتسبين عن محارمه.

أقول: لفظ الصلاح يتناول الكل و أعلى مراتبه النبوة و هى متفرقة على طاعة الله و الإجتنا ب عن محارمه و المراد بالجعل التوفيق لا الخلق و الإيجاد و بعبارة أخرى جعلنا صالحين أي وفقناهم كذلك كما زعمه بعض المجبرة و من المعلوم أن الإنسان قادرٌ على الصلاح كما أنه قادرٌ على الفساد في حدّ نفسه و هو ظاهرٌ لا خفاء فيه و قد مرّ الكلام فيه.

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ

في هذه الآية أبحاث نشير إليها حسبما يقتضيه المقام:

البّحث الأول: في تفسير قوله: وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَمَةً و أنه ما المراد بهذا الجعل و الأئمة فنقول قد صرّح الله تعالى في هذه الآية أنه جعل إبراهيم و إسحاق و يعقوب أئمة للناس أي كلّ واحد منهم كان إماماً في زمانه للناس و الإمام هو الإنسان الذي يقتدى به في أمر الدين و الدنيا و يظهر من الآية الشريفة أن هذا المنصب الإلهي بمعنى أنه مجعولٌ من قبل الله تعالى و يدلّ عليه قوله: وَ جَعَلْنَاهُمْ، حيث نسب الجعل إلى نفسه ولم يقل، جعلوا أئمة للناس و إذا كان كذلك فالإمام منصوبٌ من الله و من لم يجعله إماماً فليس بإمام قطعاً و ليس المراد بالإمام أوصياء الأنبياء فقط بل الإمام يطلق على النبي و الوصي ففي الآية دلالة على أن المجعول من قبل الناس للإمامة فليس بإمام و هو المطلوب.

الثاني: أَنَّ الإمام وظيفته هداية النَّاسِ إلى أمر الله تعالى و حكمه في عباده و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **يَهْدُونَا بِأَمْرِنَا** و الهداية هي إراءة الطريق إلى معرفة الله و معرفة أنبيائه و رسله و أحكامه الشرعية التي يجب على المكلف الإتيان بها و يعبر عنها بالدين فمن لم يكن كذلك ليس بإمام.

الثالث: أَنَّ قلب الإمام موضع الوحي و الإلهام أي أَنَّ الله تعالى يوحي إليه أو يلهم في قلبه الخيرات من الأقوال و الأفعال فالإمام لا يقول إلا حقاً و لا يعمل إلا خيراً فهو مبرء عن الشرور و الأفات قولاً و فعلاً و السر فيه أَنَّ الإمام مقتدى الخلق و يجب على الخلق التأسى به في جميع شئونه:

قال الله تعالى: **لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَمَا آتَيْنَاكَ الرَّسُولُ فَخُذْهُ وَمَا نَهَيْكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا** ^(٢).

قال الله تعالى: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ** ^(٣).

أعني به وصي الرسول، و من كان كذلك فينبغي له أن لا يقول إلا حقاً و لا يفعل إلا خيراً أي عملاً صالحاً و إلا يلزم إغواء الناس و إضلالهم و هو خلاف المقصود و هذا ظاهر و إلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله **وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ** و أما قوله تعالى: **وَ أَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ** فهما داخلان في فعل الخيرات لأنَّ الصَّلَاةَ و الزَّكَاةَ من الأفعال و أتما خصهما بالذكر لعظم شأنهما و أنهما من أركان الدين فهو في الحقيقة من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

الزابع: أَنَّ الإمام مَنزَّة عن الشُّرك جلياً كان أو خفياً فتكون عبادته خالصاً

لوجه الله فلا يشرك بعبادة ربه أحداً و إذا كانت العبادة لله تعالى على وجه الإخلاص فهو في جميع شئونه كذلك فلا يعمل إلا لله و لا يقول إلا له فيكون جميع أفعاله و أقواله و عبادته لخالقه و إلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **وَ**

كَأَنَّا غَائِدِينَ فَتَحَصَّلَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَاسْتَبْطَنَاهُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِالْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ فَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مَدَارِ الْإِمَامَةِ قَانُونِ كُلِّيٍّ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ إِذْ حُكِمَ الْأَمْثَالُ وَاحِدٌ فِيهِمْ وَإِغْتَنِمَ.

وَلَوْ طَأَّ أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٍ فَاسْقِينَ

قلنا عند شرح اللغات والإعراب لوطاً نصب بأتينا والتقدير وأتينا لوطاً أتيناه، والمراد بالحكم الحكمة والعلم علم النبوة وفيه إشارة إلى أن علوم الأنبياء من الله تعالى ولذلك يقال أن العلم فيهم حضوري، أعطاه الله من منبع الفيض وليس من العلوم الكسبية البشرية ولذلك كانت الحقائق عندهم منكشفة.

ولم يكن في علومهم غطاء ولا سهو ولا نسيان وهذا بخلاف العلوم البشري فأنها ليست كذلك وقيل المراد بالحكم النبوة وقيل حسن الفصل بين الخصوم في القضاء وقيل حفظ صحف إبراهيم.

وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الَّتِي أُشِيرَ إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ فَقِيلَ أَنَّهَا سَدُومُ، وَكَانَتْ قَرَاهِمَ سَبْعًا وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْوَحْدَةِ لِإِتِّفَاقِ أَهْلِهَا عَلَى الْفَاحِشَةِ وَكَانَتْ مِنْ كُورَةِ فِلَسْطِينَ إِلَى حَدِّ السَّرَاةِ إِلَى حَدِّ نَجْدٍ بِالْحِجَازِ قَلْبٌ مِنْهَا تَعَالَى سِتًّا وَأَبْقَى مِنْهَا وَاحِدَةً وَهِيَ، زَعْرُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مَحَلًّا لُوطَ وَأَهْلُهُ وَمِنْ أَمْنٍ بِهِ وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ آيَةً خَلَّصْنَاهُ مِنْهُمْ أَوْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ وَنَسَبَ عَمَلِ الْخَبَائِثِ إِلَى الْقَرْيَةِ مَجَازًا وَهُوَ لِأَهْلِهَا وَالْمَرَادُ بِالْخَبَائِثِ فِي الْآيَةِ هُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ الذِّكْرَانَ فِي أَدْبَارِهِمْ وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي قِصَّةِ لُوطَ وَنَزُولِ الْعَذَابِ عَلَى قَوْمِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَغَيْرِهَا وَلِذَلِكَ ذَمُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ وَعَبَّرَ عَنْهُمْ فِي الْمَقَامِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٍ فَاسْقِينَ، وَأَيُّ فَسْقٍ أَشْنَعُ مِنَ الْلُوطِ.

بَابُ
الْفَرْقَةِ
فِي
تَقْدِيرِ
الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

أَيَّ ادْخَلْنَا لَوْطًا بَعْدَ أَنْ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ فِي رَحْمَتِنَا الْوَاسِعَةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَيُظْهِرُ مِنَ التَّعْلِيلِ أَنَّ الصَّالِحَ يَدْخُلُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَ هُوَ كَذَلِكَ.

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
 أَيَّ أَذْكَرَ يَا مُحَمَّدُ، نُوحًا، إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِ أَيَّ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَ النَّدَاءِ هُنَا الدُّعَاءُ وَ الْمَعْنَى إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَ لَعَلَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: رَبَّهُ أَتَى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرُ^(١)
 مَفْصَلًا بِقَوْلِهِ: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(٢) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، أَيَّ أَجَبْنَا دَعْوَتَهُ فَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَ الْكَرْبُ أَقْصَى الْعَمِّ وَ الْأَخْذِ بِالنَّفْسِ وَ هُوَ هُنَا الْفَرْقُ عَبَّرَ عَنْهُ بِأَوَّلِ أَحْوَالِ مَا يَأْخُذُهُ الْغَرِيقُ وَ كَيْفَ كَانَ فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ الطُّوفَانِ عَلَى مَا مَرَّ شَرْحُهُ تَفْصِيلًا فِيمَا مَضَى.

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

قِيلَ الْمُرَادُ مَنَعْنَاهُ مِنْهُمْ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بِسَوْءٍ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، مَنْ، بِمَعْنَى، عَلَى، أَيَّ وَ نَصَرْنَاهُ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا، فَأَغْرَقْنَاهُمْ، أَيَّ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْفَرْقِ وَ أَجْمَعِينَ تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ.

وَدَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ

أَيَّ وَ أَذْكَرَ يَا مُحَمَّدُ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ، وَ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ مَعْطُوفِينَ عَلَى قَوْلِهِ: وَ نُوحًا، وَ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: وَ لُوطًا فَيَكُونُ ذَلِكَ مُشْتَرَكًا فِي الْعَامِلِ الَّذِي هُوَ أَتَيْنَا، الْمَقْدَرَةُ النَّاصِبَةُ لِلْوَطِ الْمَفْسُورَةِ بِأَتَيْنَا، وَ عَلَيْهِ فَالْتَّقْدِيرُ، وَ أَتَيْنَا لُوطًا وَ نُوحًا، وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ كَذَا وَ كَذَا وَ لَا يَبْعُدُ ذَلِكَ وَ تَقْدِيرُ، أَذْكَرَ قَالَهُ

جماعة الزَّرعِ وَ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ وَ داود عليه السلام كان ملكاً نبياً يحكم بين النَّاسِ ف وقعت هذه الواقعة وكان ابنه سليمان إذ ذاك قد كبر و كان يجلس على الباب الَّذي يخرج منه الخصوم و كانوا يدخلون على داود من بابٍ آخر فتخاصم إليه رجلٌ له زرعٌ و قيل كرم، و الحرث يقال فيهما و هو في الزَّرع أكثر و أبعد عن الإستعارة دخلت حرثه غنم رجلٍ فأفسدت عليه فرياً داوود دفعها إلى صاحب الحرث فخرجها على سليمان فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال يا نبي الله أني أرى ما هو أرفق بالجميع أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه و يصلحه حتّى يعود كما كان و يأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة يستفيع بمرافقتها من لبنٍ و صوفٍ و نسل و إذا أعاد الحرث إلى حاله صرف كل مال صاحبه إليه فرجعت الغنم إلى ربها فقال داود وَفَّقْتَ يَا نبي و قضى بينهما بذلك.

قال بعض المفسرين من العامة الظاهر أنَّ كلاً من داود و سليمان حكم بما ظهر له و هو متوجّه عنده فحكمها بإجتهدٍ و هو قول الجمهور و استدّل بهذه الآية على جواز الإجتهد و قيل حكم كل واحدٍ منهما بوحى من الله و نسخ حكم داود بحكم سليمان و أنَّ معنى ففهمناها سليمان أي فهمناه القضاء الفاصل النَّاسخ الَّذي أراد الله أن يستقر في النَّازلة و قرأ، لحكمهما ابن عباس فالضمير لداود و سليمان إنتهى ما ذكره ملخصاً، أقول ما ذكره في تفسير الآية لا بأس به إلا أنَّ قوله و استدّل بهذه الآية على جواز الإجتهد و أن حكمهما كان بإجتهدٍ منهما، ليس في موضعه و ذلك لأنَّ أحكام الأنبياء كانت مستندة إلى الوحي و الإلهام لا إلى الإجتهد و كأنَّ هذا القائل لم يعرف معنى الإجتهد و أنّه لا يفيد إلا الظنّ دون القطع فيقول هذا ما أدّى إليه ظنيّ و كل ما أدّى إليه ظنيّ فهو حكم الله في حقّي مقلدي فهذا حكم الله في حقّي مقلدي و لا يقول هذا ما أدّى إليه قطعي و يقيني و أين هذا من أحكام الأنبياء التي صدرت منهم على سبيل القطع و ذلك لأنَّ النبي و هكذا الوصي معصوم عن الخطأ و

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

النَّسِيانَ فَقَوْلَ النَّبِيِّ قَوْلَ اللَّهِ وَحُكْمَهُ حُكْمَهُ وَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِمُتَابَعَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا يَجُوزُ لَنَا مُخَالَفَتُهُمْ قَطْعاً وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَحْمِلُ حُكْمَهُمْ عَلَى الْإِجْتِهَادِ الَّذِي لَا يَفِيدُ إِلَّا الظَّنَّ وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ^(١) وَإِذَا تَبَّتْ هَذَا فِي قَوْلِ نَبِيِّنَا ﷺ ثَبَتَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَيْضاً لَعَدَمِ الْقَوْلِ بِالْفَصْلِ، وَاعْجَبَ مِنْهُ قَوْلُهُ أَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى جَوَازِ الْإِجْتِهَادِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْآيَةَ لَا دَلَالَתَ لَهَا عَلَيْهِ أَصلاً وَكَأَنَّهُ تَخَيَّلَ أَنَّ سَلِيمَانَ إِجْتَهَدَ بِخِلَافِ مَا إِجْتَهَدَ بِهِ دَاوُدَ وَلَمْ يَتَّفِقْ أَنَّ سَلِيمَانَ لَمْ يَجْتَهِدْ كَمَا أَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَجْتَهِدْ بَلْ هُمَا كَانَا نَبِيَّانَ وَعِلْمُهُمَا مِنْ عِلْمِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمَا أَوْ إِجْتِهَادِهِمَا وَاللَّهُ تَعَالَى فَهْمٌ وَعِلْمٌ سَلِيمَانَ فِي هَذَا الْحُكْمِ مَا لَمْ يَعْلَمْ دَاوُدَ وَهَذَا مِمَّا لَا إِشْكَالَ فِيهِ فَأَنَّ مَرَاتِبَ الْعِلْمِ مُتَفَاوِتَةٌ حَتَّى فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ فَيُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا أَوْ نَبِيًّا غَيْرَ مَا عِلْمُ الْآخَرِ كَمَا أَنَّ نَبِيَّ الْإِسْلَامِ كَانَ أَعْلَمَ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَعَلَّهُ لِأَجْلِ هَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ^(٢) وَحَاصِلُ الْكَلَامِ لَا إِشْكَالَ فِي كَوْنِ نَبِيِّ أَعْلَمَ مِنْ نَبِيٍّ آخَرَ كَلَامًا أَوْ بَعْضًا وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ بَعْدَ حُكْمِهِمَا.

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ

فَأَنَّ قَوْلَهُ: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ مِنْ سَلِيمَانَ كَانَ بِتَفْهِيمِ اللَّهِ إِلَيْهِ لَا بِإِجْتِهَادِهِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ مَا هَذَا لَفْظُهُ:

فَأَنْ قُلْتُ: مَا وَجْهُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُكُومَتَيْنِ.

قُلْتُ: أَمَّا وَجْهُ حُكُومَةِ دَاوُدَ فَلَأَنَّ الضَّرْرَ لَمَّا وَقَعَ بِالْغَنَمِ سَلِمَتْ بِجَنَائِثِهَا إِلَى

المَجْنَى عليه كما قال أبو حنيفة في العبد إذا جنى على النَّفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه و عند الشَّافعي يبيعه في ذلك أو يفديه و لعلَّ قيمة الغنم كانت على قدر النَّقصان في الحرث، و وجه حكومة سليمان أنَّه جعل الإنتفاع بالغنم بأزاء ما فات من الإنتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم و أوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتَّى يزول الضَّرر و النَّقصان مثاله ما قال أصحاب الشَّافعي فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنَّه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بأزاء ما فوَّته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر تراداً.

فَأَنْ قُلْتَ فَلَوْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ فِي شَرِيعَتِنَا مَا حَكَمَهَا.

قلت: أبو حنيفة و أصحابه لا يرون فيه ضماناً بالليل أو بالنَّهار إلَّا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد و الشَّافعي يوجب الضَّمان بالليل و في قوله فَفَهَّمْنَاهَا سليمان دليل على أنَّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام و في قوله: وَ كَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَ عَلِمْنَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّهُمَا جَمِيعًا كَانَا عَلَى الصَّوَابِ إنتهى كلامه.

أقول: و قد أطال المفسرون من العامَّة الكلام بما لا فائدة فيه و نحن أعرضنا عن نقل كلماتهم و من أراد الإطلاع عليها فعليه بالمراجعة إلى تفاسيرهم فأنهم قالوا فيها ما شاؤوا و أرادوا في بيان المراد من الآيات من عند أنفسهم و أمَّا نحن فلا نقول في تفسير كلام الله إلَّا ما ورد من أهل البيت لأنهم أدرى بما في البيت.

فنقول: في الكافي بأسناده عن أبي بصير قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ فَقَالَ عليه السلام: لَا يَكُونُ النَّفْثُ إِلَّا بِاللَّيْلِ أَنَّ عَلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ أَنْ يَحْفَظَ الْحَرْثَ بِالنَّهَارِ وَلَيْسَ عَلَى صَاحِبِ الْمَاشِيَةِ حِفْظُهَا بِالنَّهَارِ أَمَّا رَعَاها بِالنَّهَارِ وَ إِرْزَاقُهَا فَمَا أَفْسَدَتْ فَلَيْسَ عَلَيْهَا وَ عَلَى صَاحِبِ الْمَاشِيَةِ حِفْظُ الْمَاشِيَةِ بِاللَّيْلِ عَنْ حَرْثِ النَّاسِ فَمَا أَفْسَدَتْ بِاللَّيْلِ فَقَدْ ضَمِنُوا وَ هُوَ النَّفْثُ وَ أَنَّ

داود حكم للذي أصاب زرعه رقاب الغنم وحكم سليمان الرّسل و
 الثلاثة و هو اللّبن و الصّوف في ذلك العام إنتهى.
 وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له قول الله عزّ وجلّ
 وَ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ قلت حين حكما في
 الحرث كان قضيّة واحدة فقال عليه السلام أنّه كان أوحى الله عزّ وجلّ إلى
 النّبيين قبل داود إلى أن بعث الله داود أيّ غنم نفشت في الحرث
 فلصاحب الحرث رقاب الغنم و لا يكون النّفش إلّا بالليل فأنّ على
 صاحب الزّرع أن يحفظ بالنّهار و على صاحب الغنم حفظ الغنم
 بالليل فحكم داود بما حكم به الأنبياء عليهم السّلام من قبله و
 أوحى الله عزّ وجلّ إلى سليمان عليه السلام و أيّ غنم نفشت في زرع فليس
 لصاحب الزّرع إلّا ما خرج من بطونها و كذلك جرت السّنة بعد
 سليمان و هو قول الله عزّ وجلّ و كلاً أتيناها حكماً و علماً فحكم كلّ
 واحدٍ منهما بحكم الله عزّ وجلّ إنتهى.

أقول: يظهر من هذا الحديث أنّ داود حكم بالصّواب على سيرة الأنبياء و لم
 يعلم أنّ الحكم صار منسوخاً و سليمان أيضاً حكم بالحقّ على ما فهمه الله
 تعالى و صار هذا الحكم ناسخاً لما كان قبل ذلك و بهذا يرتفع الإشكال و
 يصدق على كلّ واحدٍ منهما أنّه حكم بحكم الله فلا تناقض في المقام إجتهد
 و هذا هو الحقّ الحقيقي بالإتباع في تفسير الآية هذا.

إن قلت: ما وجه تخصيص التّفهيم بأحدهما دون الآخر و بعبارة أخرى لم
 قال تعالى فهّمناها سليمان و لم يقل فهّمناها داود.

قلت: يظهر من الأخبار أنّ التّخصيص كان لمصلحة و هي.

مارواه في الكافي بأسناده عن معاوية ابن عمّار عن أبي عبد الله
 قال عليه السلام: أنّ الإمامة عهدٌ من الله عزّ وجلّ معهود لرجالٍ مسمّين
 ليس للإمام أن يزويها عن الذي يكون من بعده أنّ الله تبارك و

تعالى أوحى إلى داود أن إتخذوا وصياً من أهلك فإنه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبياً إلا و له وصي من أهله و كان لداود عليه السلام أولاد عدّة و فيهم غلامٌ كانت أمّه عند داود و كان لها محباً فدخل داود حين أتاه الوحي فقال لها أن الله عزّ وجلّ أوحى إليّ يأمرني أن أتخذ وصياً من أهلي فقالت له إمراة فليكن إبني قال ذاك أريد و كان السّابق في علم الله المحتوم عنده أنّه سليمان فأوحى الله تعالى إلى داود أن لا تجعل دون أن يأتيك أمري فلم يلبث داود أن ورد عليه رجلا ن يختصمان في الغنم و الكرم فأوحى الله عزّ وجلّ إلى داود أن أجمع ولدك فمن قضى بهذه القضية فأصاب فهو وصيك من بعدك فجمع داود ولده فلما أن قصّ الخصمان قال سليمان يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرّجل كرمك قال دخلته ليلاً قال قد قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك و أصوافها في عامك هذا ثمّ قال له داود فكيف لم تقض برقاب الغنم و قد قوم ذلك علماء بني إسرائيل فكان ثمن الكرم قيمة الغنم فقال سليمان أن الكرم لم تجتث من أصله و أنما أكل حملة و هو عائد في قابل فأوحى الله عزّ وجلّ إلى داود أن القضاء في هذه القضية ما قضى سليمان به يا داود أردت أمراً و أردت أمراً غيره فدخل داود على إمراة فقال أردنا أمراً و أراد الله أمراً غيره ولم يكن إلا ما أراد الله عزّ وجلّ فقد رضيينا بأمر الله و سلّمنا و كذلك الأوصياء ليس لهم أن يتعدوا بهذا الأمر فيجاوزن صاحبه إلى غيره إنتهى.

و عن تفسير عليّ بن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل رجل و كان له كرم و نفشت فيه الغنم بالليل و قضّمته و أفسدته فجاء صاحب الكرم إلى داود

فَإِسْتَعْدَى عَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ فَقَالَ دَاوُدُ إِذْهَبَا إِلَى سُلَيْمَانَ لِيَحْكَمَ بَيْنَكُمَا فَذَهَبَا إِلَيْهِ فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ كَانَ الْغَنَمُ أَكَلَتْ الْأَصْلَ وَ الْفَرْعَ فَعَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى صَاحِبِ الْكَرَمِ الْغَنَمَ وَمَا فِي بَطْنِهَا وَأَنْ كَانَتْ ذَهَبَتْ بِالْفَرْعِ وَلَمْ تَذْهَبْ بِالْأَصْلِ فَأَنَّهُ يَدْفَعُ وَلَهَا إِلَى صَاحِبِ الْكَرَمِ وَكَانَ هَذَا حُكْمُ دَاوُدَ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ سُلَيْمَانَ وَصِيَّهُ بَعْدَهُ وَلَمْ يَخْتَلَفَا فِي الْحُكْمِ وَلَوْ اِخْتَلَفَ حُكْمُهُمَا يَقَالُ كُنَّا لِحُكْمِهِمَا شَاهِدِينَ إِنَّتَهُي^(١).

وَأَنْتِ إِذَا تَأَمَّلْتِ فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ لَعَلِمْتَ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ.

قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبَيَانِ مَعْنَاهُ سِيرَ اللَّهُ تَعَالَى الْجِبَالَ مَعَ دَاوُدَ حَيْثُ سَارَ فَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّسْبِيحِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَدْعُو لَهُ بِتَعْظِيمِ اللَّهِ وَ تَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ لَهُ وَ لَا يَجُوزُ وَصْفُهُ بِهِ وَ كَذَلِكَ سَخَّرَ لَهُ الطَّيْرَ وَ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّسْخِيرِ بِأَنَّهُ تَسْبِيحُ مِنَ الطَّيْرِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى مَنْ سَخَّرَهَا قَادِرٌ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْعُجْزُ كَمَا يَجُوزُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَقَوْلُهُ: وَ كُنَّا فَاعِلِينَ أَيُّ وَ كُنَّا قَادِرِينَ عَلَى مَا نُرِيدُهُ ثُمَّ نَقَلَ عَنِ الْجَبَائِثِ أَنَّهُ قَالَ أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى عُقُولَ الطَّيْرِ حَتَّى فَهَمَّتْ مَا كَانَ سُلَيْمَانُ يَأْمُرُهَا بِهِ وَ يَنْهَاهَا عَنْهُ إِنَّتَهُي.

وَ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكِتَابِ رَوَى أَنَّهُ كَانَ يُمْرُ بِالْجِبَالِ مَسْبُحاً وَ هِيَ تَجَاوِبُهُ وَ قِيلَ كَانَتْ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ فَأَنْ قَلَّتْ كَيْفَ تَنْطِقُ الْجِبَالُ وَ تُسَبِّحُ، قُلْتُ بِأَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ فِيهَا الْكَلَامَ كَمَا خَلَقَهُ فِي الشَّجَرَةِ حِينَ كَلَّمَ مُوسَى إِنَّتَهُي.

وَأَمَّا غَيْرِ هَٰذَيْنِ الْعُلَمَاءِ أَعْنِي بِهِمَا الشَّيْخُ رَضِيَّ فِي التَّبَيَّنِ وَالزَّمْخَشَرِي فِي الْكَشَافِ فَقَدْ أَخَذُوا مَا أَخَذُوا مِنْهُمَا وَلَمْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ جَدِيدٍ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِهِمَا أَنَّ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ كُنَّا تَحْتَ تَسْخِيرِ دَاوُدَ وَالْآيَةُ الشَّرِيفَةُ تَدُلُّ عَلَى أَمْرٍ آخَرَ غَيْرَ مَا ذَكَرُوهُ ضَرُورَةً وَجُودَ الْفَرْقِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ وَقَوْلِهِمْ فِي الْآيَةِ إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرُوهُ لَقَالَ وَ سَخَّرْنَا لِدَاوُدَ الْجِبَالَ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ قَالَ مَعَ دَاوُدَ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقَالَ بَعْدَ الْفَرْقِ بَيْنَ قَوْلِهِ لِدَاوُدَ، وَقَوْلِهِ: مَعَ دَاوُدَ وَهُوَ كَمَا تَرَى هَذَا كُلَّهُ مُضَافاً إِلَى أَنَّ تَسْخِيرَ الْجِبَالَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْجَمَادَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ ثَابِتٌ لَغَيْرِ دَاوُدَ أَيْضاً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الْآيَةَ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ، وَلَٰذِي يَقْتَضِيهِ النَّظَرُ بَعْدَ التَّمَلُّكِ فِي الْآيَةِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِصَدَدِ إِثْبَاتِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسُورُونَ وَهُوَ أَنَّ التَّسْبِيحَ لَا يَخْتَصُّ بِدَاوُدَ مِنْ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ بَلْ هُوَ ثَابِتٌ عَقْلاً وَشُرْعاً وَنَقْلاً فِي حَقِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ^(٢).

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَسْبِيحَ كُلِّ مَوْجُودٍ بِحَسَبِهِ فَالْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ التَّسْبِيحِ فِي الْكُلِّ حَتَّى الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ تَسْبِيحَ الْمَوْجُودِ مِنْ حَيْثُ مَخْلُوقٌ لَخَالَقِهِ شَيْءٌ وَتَسْبِيحُهُ بِتَسْبِيحِ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ آخَرَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْإِنْسَانِ وَفَضْلِهِ وَالْآيَةُ نَازِلَةٌ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فَالْمَرَادُ بِالتَّسْخِيرِ فِي الْآيَةِ لَيْسَ مَعْنَاهُ اللَّغْوِيُّ بَلْ الْمَرَادُ بِهِ مَتَابَعَةُ الْجِبَالِ أَوِ الطَّيْرِ أَوْ غَيْرِهَا لِدَاوُدَ وَهَذَا لَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَمَعَ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ بَنِي آدَمَ وَأَنَّهُ أَفْضَلُ الْمَخْلُوقِ وَلَا سِوَا الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ الَّذِي لَهُ مَظْهَرِيَّةُ الْأَتَمِّ لَخَالَقِهِ وَ

سُبْحَانَ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

حيث أَنَّ داود عليه السَّلام كان كذلك خص بالذكر في الآية و هذا معنى قوله:
وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ هَذَا مَا فَهَمْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ
قرأ بالثَّوْن أبوبكر عن عاصم و قرأ ابن عامر و حفص عن عاصم بالتَّاء، و الباقر
بالياء، الضَّمير في قوله: وَ عَلَّمْنَاهُ، راجع الى داود أي عَلَّمْنَا داود النَّبِيَّ
صَنْعَةَ لبوس قيل اللُّبُوس الملبوس فعول بمعنى مفعول كالرَّكُوب بمعنى المركوب
و هو الدَّرْع هنا و قيل اللُّبُوس كُلُّ آلَةِ السِّلَاح من سيفٍ و رمحٍ و درعٍ و بيضةٍ و
ما يجري مجرى ذلك و داود أَوَّل من صنع الدروع قيل نزل ملكان من السَّمَاء
فَمَرَّا بـداود فقال أحدهما للآخر نعم الرَّجُل إِلَّا أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ فَسَأَلَ
اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ مِنْ كَسْبِهِ فَأَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ فَصَنَعَ مِنْهُ الدَّرْعَ و روي عن
الصَّادِق عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّهُ قَالَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ أَنَّكَ
لنعم العبد لولا أَنَّكَ تَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَ لَا تَعْمَلُ بِيَدِكَ شَيْئاً قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَكَى
دَاوُدَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الْحَدِيدِ أَنْ، لَنْ، لِعَبْدِي دَاوُدَ
فَأَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ فَكَانَ يَعْمَلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ دِرْعاً فَيَبِيعُهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَعَمِلَ ثَلَاثَ
مِائَةٍ وَ سِتِّينَ دِرْعاً فَبَاعَهَا بِثَلَاثِ مِائَةٍ وَ سِتِّينَ أَلْفٍ وَ اسْتَغْنَى عَنْ بَيْتِ الْمَالِ إِنْتَهَى.

و كيف كان فقد إِمْتَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِإِيَّائِهِ حَكْماً وَ عِلْماً وَ تَسْخِيرِ الْجِبَالِ وَ الطَّيْرِ
مَعَهُ وَ تَعْلِيمِ صَنْعَةِ اللُّبُوسِ وَ فِي ذَلِكَ فَضْلُ هَذِهِ الصَّنْعَةِ إِذَا سَنَدَ تَعْلِيمُهَا إِيَّاهُ
إِلَيْهِ تَعَالَى ثُمَّ إِمْتَنَ عَلَيْنَا بِهَا بِقَوْلِهِ: لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ أَي لِيَكُونَ وَقَايَةً لَكُمْ
فِي حَرْبِكُمْ وَ سَبَبَ نَجَاةٍ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ: فَهَلْ أَنْتُمْ
شَاكِرُونَ.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ
كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ غَالِمِينَ

والتقدير وسخرنا لسليمان الرّيح لما ذكر الله تعالى ما خصّ به نبيه داود عليه السلام
 ذكر ما خصّ سليمان عليه السلام فقال لسليمان الرّيح قال بعض المفسرين ذكر تسخير
 الرّيح لسليمان باللام فقال وللسليمان الرّيح و ذكر تسخير الجبال لداود بلفظ،
 مع، فقال وسخرنا مع داود الجبال في موضع آخر، يا جبال أوبي معه، وفي
 سليمان فسخرنا له الرّيح تجري بأمره وذلك أنّه لما اشتركا في التسبيح ناسب
 ذكر، مع، الدّالة على الإصطحاب ولما كانت الرّيح مستخدمة لسليمان
 أضيفت إليه بلام التّمليك لأنّها في طاعته و تحت أمره إنتهى.

أقول: ما ذكره لا يسمن ولا يغني ثم أنّ الله تعالى وصف الرّيح بالعصف و
 هو الشّدة والمراد بالأرض قيل أرض الشّام وقيل أرض فلسطين وقيل بيت
 المقدّس قيل وصفت الأرض بالبركة لأنّه إذا حلّ أرضاً أصلحها بقتل كفّارها و
 إثبات الإيمان فيها و بئّ العدل و لا بركة أعظم من هذا قيل في الآية تقديم و
 تأخير يعني أنّ أصل التّركيب وللسليمان الرّيح التي باركنا فيها عاصفة تجري
 بأمره إلى الأرض فعلى هذا تكون، عاصفة صفة الرّيح و قوله باركنا فيها صفة
 بعد صفة و أنت ترى أنّ الآية لا تحتاج إلى هذه التّكلفات التي لا يقبلها العقل
 السّليم.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
 حَافِظِينَ

أي وسخرنا لسليمان قوماً من الشّياطين يغوصون له في البحر و يعملون عملاً
 دون ذلك أي سوى ذلك، وكنا لهم حافظين، من الإفساد لما عملوه.

أقول: و سيجي الكلام في قصّة داود و سليمان في سورة، سبأ إن شاء الله
 تعالى و نذكر هناك ما وصل إلينا من الأخبار في حقّهما.

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَادْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَالتِّي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَتَقَفْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

◀ اللغة

الضُّرُّ: بالضَّم الضَّرر في النَّفس من مرضٍ و هزالٍ وبالفتح الضَّرر في كُلِّ شَيْءٍ.
وَذَا النُّونِ: النُّونُ الحوت و ذو بمعنى صاحب، أي صاحب الحوت يونس النبي.

نَقْدَرُ: أي نضيق.

لَا تَذَرْنِي: أي لا تتركني أو لا تبقيني.

أَخَصَّنْتُ: الإحصان إحراز الشيء من الفساد والباقي واضح.

الإعراب

رَحْمَةً وَ ذِكْرَى مفعول له وقوله مُعَاضِبًا حال رَغَبًا وَ رَهَبًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو على المعنى وَ الَّتِي أَخَصَّنْتُ في موضع رفع وَ آيَةً مفعول ثانٍ.

التفسير

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

قيل كان أيوب رومياً من ولد إسحاق بن يعقوب وكان من الأنبياء و قد بسط الله عليه الدنيا و كثر أهله و ماله و كان له سبع بنين و سبع بنات وله أصناف البهائم و خمس مائة فدان يتبعها خمس مائة عبيد لكل عبد امرأة و ولد و نخيل فابتلاه الله بذهاب ولده إنهدم عليهم البيت فهلكوا و بذهاب ماله و بالمرض في بدنه ثمان عشرة سنة و قيل دون ذلك فقالت له امرأته يوماً لو دعوت الله فقال لها كم كانت مدة الرِّخاء فقالت ثمانين سنة فقال أنا أستحي من الله أن أدعوه بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه أحيا ولده و رزقه مثلهم و نوافل منهم.

و روي أن امرأته ولدت بعد سنة و عشرين ابناً و ذكروا كيفية ذهاب ماله و أهله و تسليط إبليس عليه و غير ذلك من الأباطيل و الخرافات و نحن نذكر قصته من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام الذين عصمهم الله عن الخطأ و النسيان فنقول:

لا شك في أصل القضية و هو أن أيوب النبي مسَّه الضر و ابتلى بالمصائب

و النّوائب و أنّما قلنا لا شكّ فيه لأنّ القرآن صرّح به و من أصدق من الله قليلاً و
أمّا كيفة القضية:

فقد روى المجلسي رحمته الله في البحار عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه
قال: أنّ أيّوب إبتلى سبع سنين بغير ذنبٍ و أنّ الأنبياء لا يذنبون
لأنّهم معصومون مطهرون لا يذنبون و لا يزيغون و لا يرتكبون
ذنبا صغيراً و لا كبيراً و أنّ أيّوب من جيمع ما إبتلى به لم تنتن له
رائحة قبحت له صورة و لا خرجت منه مدّة من الدّم و لا قيح و لا
إستعذره أحد رآه و لا إستوحش منه أحد شاهده و لا تدّود شيء من
جسده و هكذا يصنع الله عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبياءه و
أوليائه المكرمين عليه و أنّما إجتنبه النّاس لفقره و ضعفه في ظاهر
أمره لجهلهم بما له عند ربّه تعالى ذكره من التأييد و الفرج و قد قال
النبي صلّى الله عليه وآله أعظم النّاس بلاء الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل و أنّما
إبتلاه الله عزّ وجلّ بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع النّاس
يدّعوا له الرّبوبية إذا شاهدوا ما أراد أن يوصله إليه من عظام نعمه
تعالى متى شاهدوه و ليستدلّوا بذلك على أنّ الثّواب من الله تعالى
على ضربين:

إستحقاق، وإختصاص، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه و لا فقير
لفقره و لا مريضاً لمرضه و ليعلموا أنّه تعالى يسقم من يشاء و
يشفي من يشاء متى شاء وكيف شاء بأيّ سبب شاء و يجعل ذلك
عبرة لمن شاء و شقاوة لمن شاء و سعادة لمن شاء و هو عزّ وجلّ
في جميع ذلك عدل في قضاءه حكيم في أفعاله لا يفعل بعبادة إلاّ
الأصلح لهم و لا قوّة لهم إلاّ به إنتهى.

قال المجلسي رحمته الله بعد نقل الحديث هذا الخبر أوفق بأصول متكلمي الإمامية من كونهم منزّهين عمّا يوجب تنفّر الطّباع عنهم فتكون الأخبار الأخر محمولة موافقة للعامة لكن إقامة الدليل على نفي ذلك عنهم مطلقاً ولو بعد ثبوت نبوتهم و حجّتهم لا يخلو عن الإشكال مع أنّ الأخبار الدّالة على ثبوتها أكثر وأصحّ وبالجملة للتّوقف فيه مجال.

قال السيّد المرتضى رحمته الله في كتاب تنزيه الأنبياء فإن قيل أفصحون ماروي من أنّ الجذام أصابه حتّى تساقطت أعضاءه.

قلنا أمّا العلل المستقدرة التي تنفّر من رآها و توحّشه كالبرص و الجذام فلا يجوز شيء فيها على الأنبياء و لما تقدّم ذكره لأنّ التفور ليس بواقفٍ على الأمور القبيحة بل قد يكون من الحسن و القبح معاً و ليس ينكران أن يكون أمراض أيّوب و أوجاعه و محتته في جسمه ثمّ في أهله و ماله بلغت مبلغاً عظيماً تزيد في الغمّ و الألم على ما ينال المجذوم و ليس ينكر تزايد الألم فيه و أنّما ينكر ما إقتضى التّنكير إنتهى.

أقول: هذا هو الحقّ الحقيق بالإتباع في قصّة أيّوب و أمّا ما ذكرته العامة فلا دليل على صحّته أمّا أولاً فلا لأنّ العقل السليم لا يقبله لشناعته و قبحه

ثانياً: أنّهم نقلوا ما نقلوا عن وهب ابن منبه و كعب الأحبار و أمثالهما مثل ما ذكره الثعلبي في العرائس عنهما و حالهما معلومٌ في عدم الوثوق بنقلهما و كيف كان فمن أراد الإطلاع على ما ذكره فعليه بمراجعة كتبهم و تفاسيرهم.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرُنَا لِلْعَابِدِينَ

دلّت الآية على أنّ الله أجاب دعوة أيّوب فرفع عنه المرض و غيره ممّا كان فيه و أعاد عليه أهله و ماله و كلّ ما فات منه فقد روى عليّ بن إبراهيم في تفسيره لهذه الآية:

بأسناده عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل، وَ أَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مثلهم معهم، قال عليه السلام: أحيا الله له أهله الذين كانوا قبل البلية و أحيا له الذين ماتوا و هو في البلية إنتهى.

و عن روضة الكافي بأسناده عنه عليه السلام قال: أحيا الله له من ولده الذين كانوا ماتنا قبل ذلك بأجلهم مثل الذين هلكوا يومئذ إنتهى.

و قال الطبري في تفسيره لهذه الآية أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأتوب و أتيناها أهله و مثلهم معهم، فقال قيل له أن أهلك لك في الآخرة فأن شئت عجلناهم لك في الدنيا و أن شئت كانوا لك في الآخرة و أتيناك مثلهم في الدنيا فقال يكونون لي في الآخرة و أوتي مثلهم في الدنيا قال فرجع إلى مجاهد فقال أصاب و قال آخرون بل ردّهم إليه بأعيانهم و أعطاه مثلهم معهم.

و نقل عن ابن عباس أنه قال لما دعا أيوب إستجاب له و أبدله بكل شيء ذهب له ضعفين ردّ إليه أهله و مثلهم معهم إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أما قوله تعالى: رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ، معناه ليتذكروا و يعلموا أن الله يبتلي أوليائه ثم يؤتيهم أجرهم و لا يضيع أجر المحسنين، و قيل في معناه، أي عظة يتذكر به العابدون لله تعالى مخلصين.

أقول: و سيجي الكلام في قصّة أيوب في سورة، ص.

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ

و المراد بإسماعيل على ما قيل هو إسماعيل بن إبراهيم و أنما جعله الله من الصّابرين لأنّه صبر ببلد لا زرع به و لا ضرع و هو أرض مكّة و مع ذلك قام ببناء الكعبة مع أبيه إبراهيم و أمّا إدريس النّبي فأنّه صبر على الدّعاء الى الله و كان أوّل من بعث الى قومه فدعاهم الى الدّين فأبوا فأهلكهم الله و رفعه الى السّماء السادسة و أمّا ذو الكفل فإختلف فيه فقيل أنّه كان رجلاً صالحاً ولم

يكن نبياً و لكنّه تكفل لنبى بصوم النهار وقيام الليل و قيل أنّه كان نبياً و اسمه ذو الكفل و قيل هو الياس و قيل غير ذلك و كيف كان فقد وصفهم الله بالصبر و فيه إشارة بأنّ الصبر من أحسن الصفات و لذلك مدح الله الصابرين في كثير من الآيات لأنّه مفتاح الفرج.

و روي المجلسي رحمته الله في البحار عن ابن طاوس رحمته الله في سعد السعود أنّه قال في وجه تسميته ذي الكفل به، أنّه تكفل لله تعالى جلّ جلاله أن لا يغضبه قومه فسمي ذا الكفل قيل تكفل لنبى من الأنبياء أن لا يغضب فاجتهد إبليس أن يغضبه بكلّ طريق فلم يقدر فسمي ذا الكفل لوفاءه لنبى زمانه أنّه لا يغضب إنتهى.

وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ

أي أدخلنا هؤلاء و هم إسماعيل و إدريس و ذالكفل، في رحمتنا أي في نعمتنا و قيل المعنى، غمرناهم بالرحمة لكونهم من الصالحين.

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ

ذو النون هو يونس صاحب الحوت سمى به لذلك فألّ النون الحوت قيل أنّه غضب على قومه فذهب و خرج من قومه مغاضباً فظنّ أنّ الله لا يضيق عليه فوقع فيما وقع من بطن الحوت فنادى هناك أن لا إله إلا أنت الى آخر الآية.

كيفية القضية على ما يظهر من الأخبار هو أنّ الله تعالى بعث يونس بن متى رسولا الى أهل نينوى فكان يونس يدعوهم الى الإسلام فيأبوا ذلك فهم أن يدعو عليهم و كان فيهم رجلان عابد و عالم و كان إسم أحدهما مليخا و الآخر إسمه روبيل و كان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم و كان العالم ينهاه و يقول لا تدعن عليهم فألّ الله يستجيب لك و لا يحب هلاك عباده فتقبل قول

العابد ولم يقبل قول العالم فدعا عليهم فأوحى الله اليه يأتيهم العذاب في سنة
 كذا في شهر كذا في يوم كذا فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد
 وبقى العالم فيها فلما كان اليوم الذي نزل العذاب قال العالم لهم يا قوم إفرعوا
 الى الله فلعله يرحمكم فيرد العذاب عنكم فقالوا كيف نصنع قال إجتمعوا و
 أخرجوا الى المفازة و فرقوا بين النساء والأولاد و بين الإبل و أولادها و بين
 البقر و أولادها و بين الغنم و أولادها ثم إبكوا و إدعوا فذهبوا و فعلوا ذلك و
 ضجّوا و بكوا فرحمهم الله و صرف عنهم العذاب و فرق العذاب على الجبال
 و قد كان نزل و قرب منهم فأقبل يونس كيف أهلكهم الله فرأى الزّارعين
 يزرعون في أرضهم فقال لهم ما فعل قوم يونس قالوا و لم يعرفوه أنّ يونس دعا
 عليهم فاستجاب الله له و نزل العذاب عليهم فاجتمعوا و بكوا فرحمهم الله و
 صرف عنهم و فرق العذاب على الجبال فهم إذا يطلبون يونس ليؤمنوا به
 فغضب و مرّ على وجهه مغاضباً كما حكى الله عنه.

و أما قوله: فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَمَعْنَاهُ ظَنَّ أَنْ لَا نَضِيقَ عَلَيْهِ.

و قيل، ظَنَّ، هنا بمعنى إستيقن أي أنّ الله لن يضيق عليه رزقه كما قال
 تعالى و أما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيق عليه رزقه ولو ظنّ أحد أنّ الله
 لا يقدر عليه لكان قد كفر بالله، و قوله: فَتَنَادِي فِي الظُّلُمَاتِ فالمراد ظلمات
 بطن الحوت لما وقع فيها فقال: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
 الظَّالِمِينَ على نفسي حيث ذهبت مغاضباً فهذا الظلم منه، عَلَيْهِ كَالظُّلْمِ مِنْ
 أَبِيهِ آدَمَ حيث قال ظلمنا أنفسنا، و يعبر عنه بترك الأولى فَأَنَّ النَّبِيَّ لَا يَذْنِبُ
 لمكان عصمته و قد فرغنا عن البحث في عصمة الأنبياء في قصّة آدم و حواء
 بما لا مزيد عليه و قلنا هناك ما ينبغي أن يقال به فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ
 النَّعَمِ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أي فاستجبنا دعوته و نجّيناه من الغم بطن
 الحوت و كذلك ننجي المؤمنين، أي كما نجّينا يونس من الغم بعد دعائه
 ننجي كلّ مؤمن إذا دعانا مخلصاً:

قال الله تعالى: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَخْشِفُ السُّوءَ** ^(١).

و الحاصل على العبد الدعاء و على الله الإجابة:

قال الله تعالى: **أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**.

و هذا ممّا لا شكّ نعم إجابة الدعاء مشروطة بوجود المصلحة و للبحث فيه مقام آخر.

و زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ قد مرّ قصّة زكريّا في سورة آل عمران عند قوله تعالى: **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ^(٢) إلى آخر الآيات فلانعيد الكلام بذكرها ثانيًا.

و أمّا قوله في هذه الآية **رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا**، أي وحيداً بلا وارث سأل ربّه أن يرزقه ولداً يرثه ثمّ ردّ أمره إلى الله فقال و أنت خير الوارثين أي إن لم يرزقني من يرثني فأنت خير وارث.

أقول: في المقام سؤال و هو أن الآية صرّحت بأنّ زكريّا دعا ربّه و طلب منه الولد لأن يكون وارثاً له بدليل قوله تعالى في موضع آخر **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا** ^(٣) و لا شكّ أنّ زكريّا كان من الأنبياء فيعلم منها أنّ الأنبياء يورثون كغيرهم من أحاد الناس و على هذا فما معنى ما نقله أبو بكر عن رسول الله ﷺ أنّه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث، فإن كان أبو بكر صادقاً في قوله و نقله الحديث عنه ﷺ فهو مخالف لما صرّح به القرآن وكيف حكم الرسول بخلاف ما حكم به الله في كتابه مع أنّ الرسول مأمورٌ بتبليغ أحكام الله بل لا معنى للرّسالة إلّا هذا و أن كان كاذباً في قوله كما هو كذلك قطعاً فعليه وزره مضافاً إلى أنّ نسبة الكذب إلى الرسول في

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد اعادى عشر

الحقيقة نسبة الكذب إلى الله تعالى فيرجع المعنى إلى أَنَّ اللَّهَ تعالى كَذَّبَ قوله في الحكم لَأَنَّهُ تعالى حكم بثبوت الإِثْر في حقِّ الأنبياء وكَذَّبَهُ ثانياً في حقِّهم وهذا كما ترى.

فَأَنْ قُلْتَ لَعَلَّ اللَّهَ تعالى نسخ حكم التَّوَارِث بين الأنبياء في شريعة الإسلام. قلت الحديث الذي رواه أبو بكر ينادي بعدم النَّسخ لَأَنَّهُ لم يقل أنا لا أؤرث بل قال نحن معاشر الأنبياء وعليه فكان حقَّ واضع الحديث وجاعله أن يقول قال رسول الله ﷺ أنا لا أؤرث بصيغة المفرد ليصحَّ النَّسخ بناءً على صحَّة نسخ الكتاب بالسُّنَّة بل بخبرٍ واحدٍ فاعتبروا يا أولي الأبصار والعجل من أشياع أبو بكر وأتباعه أَنَّهُم تلقَّوه بالقبول وأن كان مخالفاً لحكم الله وهذا معنى لهم قلوبٌ لا يفقهون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَةً إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ

اختلفوا في معنى المراد بقوله وأصلحناه زوجه، على أقوالٍ: فقال قتادة أَنَّهُا كانت عقيماً فجعلها الله ولوداً.

وقيل كانت سيئة الخلق فرزقها الله حسن الخلق.

وقيل إصلاحها ردَّ شبابها إليها، والضَّمير في قوله، أَنَّهُم عائد على الأنبياء السَّابِق ذكرهم أي إستجابتنا لهم في طلباتهم كان لمبادرتهم الخير ولدعائهم لنا رغباً ورهَباً أي وقت الرَّغبة ووقت الرَّهبة وقيل الضَّمير يعود إلى زكريّا وزوجته وإينهما يحيى وقوله: لَنَا خَاشِعِينَ أي متواضعين خاضعين.

قال الزَّاغِب في المفردات الخشوع الضَّرَاعَة وأكثرها ما يستعمل الخشوع فيما يستعمل على الجوارح والضَّرَاعَة أكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب ولذلك قيل إذا ضرع القلب خشعت الجوارح إنتهى.

أقول: الخشوع من شئون العبودية لأنها لا تتحقق إلا به فمن كان عبداً واقعاً يكون خاشعاً.

وَأَلَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَتَنَقَّخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ

الإحصان إحراز الشيء من الفساد و المراد بقوله: وَأَلَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا، هو مريم بنت عمران، قيل أحصنت فرجها بمنعه عن الفساد و لما كانت كذلك أنشئ الله عليها و رزقها ولداً عظيم الشأن لا كالأولاد المخلوقين من حيث النطفة و جعله نبياً و هو عيسى بن مريم وقوله: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ، قيد أنما أفرد، آية، لأنه حالهما أي حال مريم و عيسى لمجموعهما آية واحدة و هي ولادتها إياه من غير فعلٍ و أن كان في مريم آيات و في عيسى آيات منه لكنه هنا لحظ أمر الولادة من غير ذكرٍ و ذلك هو آية واحدة و قوله: لِلْعَالَمِينَ، أي لمن اعتبر من عالمي زمانها فمن بعدهم.

قال صاحب الكشف أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا إحصاناً كلياً من الحلال و الحرام جميعاً كما قال: وَلَمْ يَفْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا^(١).

فأن قلت نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحياءه قال الله تعالى فإذا سويته و نفخت فيه من روحي، أي أحييته و إذا ثبت ذلك كان قوله: فَتَنَقَّخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ظاهر الإشكال لأنه يدل على إحياء مريم.

قلت: معناه نفخنا الروح في عيسى فيها أي أحييناه في جوفها ونحو ذلك أن يقول الزنار نفخت في بيت فلان أي نفخت في المزمар في بيته و يجوز أن يراد و فعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا و هو جبرئيل عليه السلام لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها إنتهى ما ذكره.

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد العاشر عشر

وَأَنَا أَقُولُ: ليس في الآية إشكال كما زعمه حتى نحتاج إلى هذه التكلفات الباردة.

أَمَّا أَوَّلًا: فهو أَنَّ النَّفْخَ ليس معناه الإحياء فقلوه أَنَّ نفخ الرُّوح في الجسد عبارة عن إحياءه، أَوَّلُ الكلام ولا دلالة في الآية التي إستدلَّ بها على مدَّعاه على أَنَّ النَّفْخَ بمعنى الإحياء بل قوله تعالى و نفخت فيه من روحي، يدلُّ على أصل النفخ.

وَأَمَّا أَنَّهُ بمعنى الإحياء فلا يستفاد من الآية نعم لا يبعد أن يكون للإحياء والسَّبَب لا يكون بمعنى المسبَّب بل يكون وسيلةً و ألةً للوصول إلى المسبَّب فالقول بأنَّ النَّفْخَ بمعنى الإحياء لا معنى له.

قال الرَّاغِب في المفردات نفخة الرِّبيع حين أعشب و رجلٌ منفوخ أي سمينٌ إنتهى.

ثانيًا: على فرض التسليم و أَنَّ النَّفْخَ بمعنى الإحياء و هو يدلُّ على إحياء مريم، نقول لا إشكال فيه لأنَّ الإحياء تارةً يقال و يراد به الإيجاد في الخارة و تارةً يقال و يراد به ترتب الآثار على الموجود بل الموجود الخارجي مع قطع النظر عن الآثار المترتبة عليه ليس متصفاً بالحياة و أن كان متصفاً بالوجود فكلُّ حيٍّ موجود و لا عكس.

إذا عرفت هذا فنقول على فرض كون النَّفْخَ بمعنى الإحياء يلزم إحياء مريم بالنَّفْخ و أمَّا قبله فلا لأنَّ الأثر المترتب على الأنثى هو الولد فمن لا ولد له لا حياة له واقعاً و ان كان موجوداً فقلوه: فَفَقَّحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا، يعني أحييناها بالولد و هذا ممَّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً فلا نحتاج الى القول بأنَّ أحييناه أي عيسى في جوفها، بل المعنى أحيينا مريم بالنَّفْخ هذا أولاً.

و ثانياً كيف تعلَّق الإحياء بعيسى بسبب النَّفْخ و الآية ظاهرة في أَنَّ النَّفْخَ كان في مريم و ما ذكره من المزمار في البيت، فهو من المعجاز في الكلام و حمل

الآية على المجاز من غير دليلٍ خلاف الأصل فتَّحَصَّلَ ممَّا ذكرناه أنَّ الأصل يقتضي حمل الآية على معناها الحقيقي وهو إحياء مريم فتأمل جيداً.

وأمَّا قوله في وجه إفراد الآية حيث لم يقل، آيات بصيغة الجمع، فالظاهر أنَّ المراد بها في الكلام جنس الآية وهو يشمل المفرد و الجمع و لعلَّه لذلك نكرَّها و الأمر واضح على المتأمل النَّفْخُ في مريم فقد مرَّ الكلام فيها مفصَّلاً فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً.



إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
 (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ
 (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
 كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى
 قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا
 فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ
 يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فِإِذَا هِيَ
 شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي
 غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
 وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُّوَهَا وَ
 كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا
 لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
 الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا
 يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ
 خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَ
 تَتَلَقَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ
 تُوعَدُونَ (١٠٣)

◀ اللغة

أُمَّتُكُمْ: الأمة الجماعة التي على مقصد واحد و قيل معناه جماعة واحدة
 في إنها مخلوقة مملوكة لله.

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ: هما إسمان أعجميان و هم قبيلان ولو كانا عربيين لكانا من أج النار أو الماء الأجاج.

حَدَّب: الحدب الأكم و قيل هو الإرتفاع من الأرض بين الإنخفاض.
يَسْأَلُونَ: النَّسُول الخروج عن الشئ الملابس يقال نسل ريش الطائر إذا سقط.

حَصَبُ جَهَنَّمَ: أي وقودها و قيل حطبها و الباقي واضح.

◀ الإعراب

أَمْتَكُمْ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ، إِنَّ، وَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ عَطْفٌ بَيَانٌ، وَ أُمَّةٌ، بِالنَّصْبِ حَالٌ وَ بِالرَّفْعِ بَدَلٌ مِنْ، أَمْتَكُمْ، أَوْ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ وَ تَقَطَّعُوا أَمْرُهُمْ قِيلَ عَذِيْ بِنَفْسِهِ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى قَطَّعُوا وَ قِيلَ هُوَ تَمْيِيزٌ أَيْ تَقَطَّعَ أَمْرُهُمْ حَرَامٌ مَرْفُوعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ وَ الْخَبَرُ أَنََّّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ وَ لَا زَائِدَةٌ أَيْ مَمْنَعٌ رَجُوعُهُمْ وَ قِيلَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ تَوْبَتُهُمْ فَإِذَا هِيَ إِذَا لِلْمُفَاجَأَةِ وَ هِيَ مَكَانٌ وَ الْعَامِلُ فِيهَا وَ هِيَ شَاخِصَةٌ ضَمِيرُ الْقِصَّةِ وَأَبْصَارُ الَّذِينَ مُبْتَدَأٌ وَ شَاخِصَةٌ، خَبَرُهُ يَا وَ لَكُنَّا فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بِقَالُوا الْمَقْدَرَةُ لَا يَسْمَعُونَ بَدَلٌ مِنْ مُبْعَدُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي، مَبْعَدُونَ، وَ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا ثَانِيًا.

◀ التفسير

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونَ.

قيل، هذه، إشارة إلى ملّة الإسلام أي أنّ ملّة الإسلام هي ملّتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ملّة واحدة غير مختلفة و على هذا فقلوه: أَمْتَكُمْ خطاب لمعاصري الرسول ﷺ و قيل، إشارة إلى الطريقة التي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد الله تعالى فالمعنى هي طريقتكم و ملّتكم طريقة واحدة لا إختلاف فيها في أصول العقائد بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمد ﷺ.

و قيل معنى أمة واحدة مخلوقة له تعالى مملوكة له فالمراد بالأمة الناس كلهم.

و قيل أَنَّ الكلامَ مُتَّصِلٌ بِقَصَّةِ مَرْيَمَ وَابْنِهَا أَي وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ بِأَنْ بَعَثَ لَهُمْ بِمَلَكَةٍ وَكِتَابٍ وَقِيلَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ أَمَتُكُمْ أَي دَعَا الْجَمِيعَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَقَوْلُهُ: **وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** بِكسر التَّوْنِ فَإِنَّ الْأَصْلَ فِيهِ فَاعْبُدُونِي، حَذَفَتْ الْبَاءُ لِدَلَالَةِ الْكُسْرَةِ عَلَى حَذْفِهَا رِعَايَةً لِلتَّسْجِعِ فِي الْآيَاتِ وَ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلرَّبِّ أَدَاءً لِحَقِّ الرَّبَوِيَّةِ فَالْمَرْبُوبُ يَعْبُدُ الرَّبَّ وَ لَا يَعْبُدُ مَرْبُوباً آخَرَ لَعَدَمِ التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْمَرْبُوبِينَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ.

وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ

أَي أَنَّهُمْ إِخْتَلَفُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ الْمَرَادُ بِالْأَمْرِ الدِّينُ أَي إِخْتَلَفُوا فِي الدِّينِ بِمَا لَا يَسُوغُ وَ لَا يَجُوزُ وَ الضَّمِيرُ فِي **وَ تَقَطَّعُوا** عَائِدٌ عَلَى ضَمِيرِ الْخُطَابِ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْتِفَاتِ أَي وَ تَقَطَّعْتُمْ وَ لَمَّا كَانَ هَذَا الْفِعْلُ مِنْ أَقْبَحِ الْقَبَائِحِ عَدَلَ عَنِ الْخُطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ كَأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مَا صَدَرَ مِنَ الْمَخَاطَبِ ثُمَّ قَالَ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ وَ الْمَرَادُ بِذِكْرِ الرَّجُوعِ فِي الْمَقَامِ لَيْسَ مَجْرَدَ الْأَخْبَارِ عَنْهُ لَوْضُوحِهِ وَ أَنَّ مَا الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ تَعَالَى هُوَ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ لِلْحِسَابِ وَ السَّوَالِ.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ

الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَقَالُ لِكُلِّ عَمَلٍ يُوَيْدُهُ الْعَقْلُ وَ الشَّرْعُ وَ يَحْكُمَانِ بِحَسَنِهِ إِلَّا أَنَّهُ تَارَةً يَصْدُرُ مِنْ فَاعِلِهِ لِأَجْلِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ وَ تَارَةً يَصْدُرُ مِنْهُ رِيَاءً لَغَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَإِنَّ كَانَ الْعَامِلُ مُؤْمِناً بِاللَّهِ حَقِيقَتاً فَلَا مُحَالَةَ يَعْمَلُ لِلَّهِ وَ إِلَّا فَلَا وَ إِلَى هَذَا أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: **وَ هُوَ مُؤْمِنٌ**.

و الظَّاهِر أَنَّ الواو وللحال أي حال كونه مؤمناً وإذا كان كذلك فلا كفران لسعيه في عمله و الكفران لحرمان الثَّواب كما أَنَّ الشُّكر مثلٌ في إعطاءه إذا قيل لله شكور والمعنى أَنَّ المؤمن لا يحرم عن الثَّواب على عمله و قوله: وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ، أي إِنَّا لعمله و سعيه كاتبون بواسطة الملك الموكَّل عليه فقوله لا كفران لسعيه في الحقيقة كناية عن حسن عمله و أَنَّهُ مقبول عند الله و قوله: كَاتِبُونَ، معناه إثبات عمله الصَّالح في صحيفة الأعمال ليثاب عليه يضيع، و الكفران مصدر كالكفر قال الشَّاعر:

رأيت أناساً لا تنام جدودهم و جدي و لا كفران لله نائم

وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

قوله: وَ حَرَامٌ بفتح الحاء و تنوين الميم قراءة الجمهور و عليها المصاحف و قرأ الكسائي و طلحة و الأعمش و غيرهم، حرماً، بكسر الحاء و سكون الراء و قرأ قتادة بفتح الحاء و سكون الراء و قرأ عكرمة، بكسر الراء و التَّنوين. و قرأ ابن عباس و قتادة أيضاً بكسر الراء و فتح الحاء والميم على المضْي، و قرأ زيد بن عليّ و من تبعه بضمّ الراء و فتح الحاء والميم على المضْي أيضاً و في قراءة أخرى لابن عباس فتح الحاء والراء والميم على المضْي أيضاً.

قيل أن الحرام في الآية أستعير للممتنع وجوده و منه قوله: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ^(١) و معنى، أهلكتناها، قَدَرْنَا إهلاكها على ما هي عليه من الكفر فالإهلاك هنا إهلاكٌ عن كفر، و، لا، في لا يرجعون، صلةٌ كقولك ما منعك أن لا تسجد، أي يرجعون الى الإيمان و المعنى و ممتنعٌ على أهل قريةٍ قَدَرْنَا عليهم إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدُّنيا الى الإيمان الى أن تقوم القيامة فحينئذٍ، يرجعون.

فصل: الفرقان في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

قال الرّمخسري ومعنى أهلكتناها عزمنا على إهلاكها أو قدّرنا إهلاكها ومعنى الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة ومجاز الآية أنّ قومًا عزم الله على إهلاكهم غير متّصور أن يرجعوا وينبوا إلى أن تقوم القيامة فحينئذٍ، يرجعون إنتهى موضع الحاجة من كلامه وقال الرازي، في تفسير الكلام ما هذا لفظه.

أما قوله: **وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**. فأعلم أنّ قوله: **وَحَرَامٌ** خبرٌ فلا بدّ له من مبتدأ وهو إمّا قوله: **أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** أو شيء آخر أمّا الأول فالتقدير أنّ عدم رجوعهم حرام، أي ممتنع وإذا كان عدم رجوعهم ممتنعاً كان رجوعهم واجباً فهذا الرجوع أمّا أن يكون المراد منه الرجوع إلى الآخرة أو إلى الدنيا.

أما الأول: فيكون المعنى أنّ رجوعهم إلى الحياة في الدار الآخرة واجباً ويكون الغرض منه إبطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدّم أنّه لا كفران لسعي أحد فإنّه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبي مسلم بن بحر.

أما الثاني: فيكون المعنى أنّ رجوعهم إلى الدنيا واجب لكنّ المعلوم أنّهم لم يرجعوا إلى الدنيا فعند ذلك ذكر المفسّرون وجهين:

الأول: أنّ الحرام قد يجي بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر أمّا الآية فقوله تعالى: **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^(١)** وترك التّرك واجب وليس بمحرّم.

وأمّا الشعر فقول الخنساء:

و أنّ حراماً لا أرى الدهر باكياً
على شجوه إلا بكيت على عمرو
يعني وأنّ واجباً وأمّا الاستعمال فإنّ تسمية أحد الضدّين بإسم الآخر مجاز مشهور كقوله: **وَجَزَأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا^(٢)** إذا ثبت هذا فالمعنى أنّه واجب

على أهل كل قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون، ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين:

أحدهما: أنهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولّون عنه وهو قول مجاهد والحسن.

ثانيهما: لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل.

الوجه الثاني: أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل، لا في قوله: **لَا يَرْجِعُونَ** صلة زائدة كما أنه صلة في قوله: **مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ** والمعنى وحرام على قرية أهلكتها رجوعهم الى الدنيا إنتهى.

ما أردنا نقله منه وأما نقلناه بطوله لتعلم أنهم وقعوا في تفسير الآية من الحيرة ومع ذلك لم يأتوا بشئ يعتمد ولسنا بصدد بيان موارد النقص في كلام هذين العلمين عند أهل السنة فإذا كانا كذلك فما ظنك بمقلديهم ممن جاؤوا بعدهما فأنهم كل ما ذكروه في تفاسيرهم أخذوه من الطبري والكشاف وتفسير الكبير للرازي والطبري أيضاً لم يأت بشئ في.

و أن شئت فراجع تفسير الطبري حتى تعلم صدق ما قلناه، وأما وقعوا في الضلالة والحيرة وتثبتوا بكل حشيش في فهم المراد منها لأنهم لم يرجعوا الى تفاسير أهل البيت وما ورد عنهم في حل مشكلات الآيات فلا جرم ضلّوا وأضلّوا كثيراً.

إذا عرفت هذا فنقول، الآية من أعظم الدلائل على إثبات الرجعة والعامة ينكرون الرجعة أشد الإنكار ولذلك صاروا حيارى في قوله: **أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**، ولم يعلموا أن المراد أنه لا رجعة لهم أي لمن أهلكه الله ومعنى الآية كل قرية أهلك الله عز وجل أهلها بالعذاب لا يرجعون في الرجعة الى الدنيا.

وقد روى أبو بصير عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله وأبي جعفر **عليهما السلام** قالوا كل قرية أهلك الله أهلها بالعذاب لا يرجعون في

الرَّجْعَةَ فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَةِ فِي الرَّجْعَةِ لِأَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ
الإِسْلَامِ لَا يَنْكَرُ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْقِيَامَةِ مِنْ هَلَكٍ وَ مِنْ
لَمْ يَهْلِكْ إِنْتَهَى.

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ
قرأ ابن عامر، فَتَحَتْ مُشَدَّدةً عَلَى التَّكْثِيرِ وَ الْبَاقُونَ بِالتَّخْفِيفِ وَ عَلَيْهِ
المصاحف، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ حَرَامٌ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا أَيَّ حَرَامٍ عَلَى
أَهْلِهَا رَجُوعُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أَيَّ يَنْفِرُ السَّدَانِ
وَ يَظْهَرُونَ فَعَلَى الْمَشْهُورِ مِنْ أَنَّ، حَتَّى، يَدْخُلُ مَا بَعْدَهَا فِي مَا قَبْلَهَا نَحْوُ أَكَلَتْ
السَّمَكَةَ حَتَّى رَأْسَهَا، فَالْمَعْنَى أَنَّ رَجُوعَهُمْ أَيَّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ حَتَّى
إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أَيَّ بَعْدَ الْفَتْحِ أَيْضًا لَا رَجُوعَ لَهُمْ هَكَذَا قِيلَ وَ
إِخْتَلَفُوا فِي الْمَرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عَلَى.
أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا.

فَقَالَ الطَّبْرِيُّ أَنَّهُمَا أُمَّتَانِ مِنَ الْأُمَمِ ثُمَّ رَوَى فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ رُبْعِي
بْنِ حِرَاشٍ قَالَ: سَمِعْتُ حَذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ أَوَّلُ الْآيَاتِ الدَّجَالِ وَ نَزُولُ عِيسَى وَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ
عَدْنٍ وَ سَاقُ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ قَالَ
حَذِيفَةُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ قَالَ ﷺ يَأْجُوجُ وَ
مَأْجُوجُ أُمَّمٌ كُلُّ أُمَّةٍ أَرْبَعٌ مِائَةٌ أَلْفٌ لَا يَمُوتُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَرَى
أَلْفَ عَيْنٍ تَطْرَفُ بَيْنَ صُلْبِهِ وَ هُمْ وَلَدُ آدَمَ فَيَسِيرُونَ إِلَى خَرَابِ الدُّنْيَا
يَكُونُ مَقْدَمَتُهُمْ بِالشَّامِ وَ سَاقَتُهُمْ بِالْعِرَاقِ فَيَمْرُؤُونَ بِأَنْهَارِ الدُّنْيَا
فَيَشْرَبُونَ الْفَرَاتَ وَ الدَّجْلَةَ وَ بِحِيرَةَ الطَّبْرِيةِ حَتَّى يَأْتُوا بَيْتَ
الْمَقْدَسِ فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ الدُّنْيَا فَقَاتَلُوا مِنْ فِي السَّمَاءِ فَيَرْمُونَ
بِالشَّابِ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ نَشَابُهُمْ مَخْضَبَةً بِالدَّمِ فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنَا

من في السَّمَاءِ و عيسى و المسلمون بجبل طور سينين فيوحى الله عزَّ و جلَّ الى عيسى أن أحرز عبادي بالطَّور وما يلي إيلَه ثمَّ أنَّ عيسى يرفع رأسه الى السَّمَاءِ و يؤمن المسلمون فيبعث الله عليهم دابةً يقال لها النُّعُف ف تدخل من مناخرهم فيصبحون موتى من حاق الشَّام الى حاق العراق حتَّى تنتن الأرض من جفتهم و يأمر الله السَّمَاء فتمطر كأفواه القرب فتغسل الأرض من جيفتهم و تنتهم فعند ذلك طلوع الشَّمس من مغربها إنتهى.

أقول روي الطَّبْرِي في الباب روايات كثيرة من أراد الوقوف بها فعليه بكتابه و أمَّا نحن فلم نفهم شيئاً مما رواه و العلم عند الله.

و قال الرِّزِّي في تفسيره لهذه الآية قوله حتَّى فتحت، المَعْنَى فتح سدَّ يأجوج و مأجوج فحذف المضاف و أدخلت علامة التَّأْنِيث في، لأنَّ يأجوج و مأجوج مؤنَّتان بمنزلة القبلتين و قيل حتَّى، فتحت جهة يأجوج ثمَّ قال هما قبيلتان من جنس الإنس يقال النَّاس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج و مأجوج يخرجون حين يفتح السدَّ ثمَّ قال، قيل السدَّ يفتحهُ الله تعالى ابتداءً و قيل بل إذا جعل الله تعالى الأرض دكاً زالت الصَّلاية عن أجزاء الأرض فحينئذٍ ينفتح السدَّ، و قال في قوله تعالى: وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فحشَوْ في أثناء الكلام و المعنى إذا فتحت يأجوج و إقرب الوعد الحقَّ شخصت أبصار الذين كفروا و الحدب النَّشْر من الأرض و منه حدة الأرض و منه حدة الظَّهر الى أن قال، قال أكثر المفسِّرين أنَّه كناية عن يأجوج و مأجوج و قال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أي يخرجون من قبورهم من كلِّ موضع إنتهى.

و قد صرَّح صاحب الكشَّاف قبله بأنَّهما قبيلتان من جنس الإنس يقال النَّاس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج و مأجوج و قد أخذ الرَّايزي هذا الكلام منه و قد مرَّ النَّقْل عن الطَّبْرِي أنَّه قال هما رجلا ن إسمهما يأجوج و مأجوج و قد تبعهم المفسِّرون على هذه الأقوال و نقلوا في تفاسيرهم ذلك.

في
القرآن
في
في
في

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

وَأَنَا أَقُولُ: أَنَّ السَّدَّ أَشَارُوا فِي كَلِمَاتِهِمْ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَ قَدْ مَرَّ
الكلام فيه في سورة الكهف:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَاْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا^(١).

وهذا ممّا لا كلام فيه إلّا أنّ البحث في ماهيّة القضية فما قيل أو يقال في تفسير
الآية لا يعتمد عليه و بعبارة أخرى القرآن حاكٍ عن وجود القرنين و السدّ و
يأجوج و مأجوج و لم يفصل لنا كَيْفِيَّةَ الْقَضِيَّةِ و أنّ من هو ذِي الْقَرْنَيْنِ و يأجوج
و مأجوج و أين السدّ المعرّج به القرآن و هل كان يأجوج و مأجوج من جنس
البشر أو من الجنّ و هل هما إسمان لرجلان أو لقبيلتان موجودان أو معدومان
و غير ذلك ممّا نحتاج إليه في معرفتها و حيث أنّ القرآن سكّت عن هذه
الخصوصيّات لمصلحة لا يعلمها إلّا الله و قد ورد في الأثر، أنّ إسكتوا عمّا
سكت الله عنه فالعقل السليم يحكم بعدم الخوض في أمثال هذه الأمور الّتي
لا تصل إليها أيدي الأفكار و حاصل الكلام أنّ هذه الآية و أمثالها من
متشابهات القرآن و مشكلاته و الّذي يجب علينا عقلاً و شرعاً هو الإقرار بأن ما
بين الدقيقتين كلام الله المنزل على النّبي و الإعتقاد به و نحن لا ننكر ذلك و
نعتقد به و أمّا العلم بما في الكتاب تفصيلاً علماً قطعياً من غير شكّ فيه فهو لم
يُتَسَّرَ لأحدٍ إلّا للزاسخين الّذين أمرنا بمتابعتهم و الرجوع إليهم في فهم كتاب
الله و لم نجد في آثارهم المروية عنهم ما يكشف الإيهام عنها و قد ثبت أنّ من
فسّر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار.

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ
كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ

قيل المراد بالوعد الحق، القيامة و التقدير حتّى إذا فتحت و إقترّب الوعد الحق قالوا يا ويلنا قد كنّا في غفلة بل كنّا ظالمين على أنفسنا و الضمير في **فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ** قيل أنّه عائد إلى معلوم بيّنه عليه، أبصار الذين كفروا وقوله: **يَا وَيْلَنَا**، أي يقول الكفّار الذين شخصت أبصارهم الويل لنا من غفلتنا عن هذا اليوم و هذا المقام بل كنّا ظالمين على نفوسنا بل تكاب معاصي الله فيقول الله تعالى:

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ
و المعنى أنتم أيها الكافرون و الأصنام و الأوثان التي عبدتموها في النار ترمون فيها كما ترمى بالحصاء.
و قرأ بعضهم، حطب جهنّم، و قرأ الحسن حضب بالضاد و المأل في المعنى واحد ثم.

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ
أي لو كان هذه الأصنام و الأوثان ألهة لم يردوا جهنّم ولم تخلد فيها و ذلك لأنّ الإله خالق جهنّم فكيف يدخلها و يخلد فيها فورودها فيها دليل على هجرها و ضعفها و ما كان كذلك ليس بمستحقّ للعبودية و بعبارة أخرى من لا يقدر على دفع الضر عن نفسه لا يكون معبوداً ثم أخبر الله تعالى أنّ لهم في جهنّم زفيراً و هو شدة التنفس و قيل هو الشهيق لهول ما يرد عليهم من النار و هم فيها لا يسمعون ما ينتفعون به و أن سمعوا ما يسؤهم و قيل أنّهم في توابيت من نار فلا يسمعون لشدة العذاب.

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ
اختلفوا في معنى المراد بالحسنى فقيل يعني الوعد بالجنة و قيل الحسنى الطاعة لله تعالى يجازون عليها في الآخرة بما وعدهم الله و قيل غير ذلك من الأقوال التي لا فائدة في نقلها.

قال بعض المفسرين أَنَّ سبب نزولها قول ابن الزبيري حين سمع قول الله تعالى، أنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال لرسول الله قد خصمتك و رب الكعبة أليس اليهود عبدوا وعزيراً والنصارى عبدوا والمسيح بنو مليح عبدوا الملائكة فقال ﷺ عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا مُّهِينًا. وابن الزبيري قيل لهم أستم قوماً عرباً أو ما تعلمون أن، من، لمن، يعقل و، ما، لما لا يعقل فعلى القول الأول يكون ابن الزبيري قد فهم من قوله: مَا تَعْبُدُونَ، العموم فلذلك نزل قوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمُ، الآية تخصيصاً لذلك العموم وعلى هذا القول الثاني يكون ابن الزبيري رام مغالطة فأجيب بأن، من، لمن يعقل، و ما، لما لا يعقل فبطل إعتراضه، ثم أن الحسنی بضم الحاء والخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن إما السعادة وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة، والضمير في، عنها، يرجع إلى جهنم والمعنى أن الذين سبقت الآية مبعدون عن جهنم والورود فيها.

قال بعض المفسرين من العامة، روي أن علياً كرم الله وجهه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول لا يسمعون حسيبها إنتهى.

ما ذكره أقول لا عجب منهم في نقل هذا الحديث المجعول عن علي عليه السلام فأن من ينسب الكذب على رسول الله في قولهم عنه عليه السلام نحن معاشر الأنبياء لا نورث لا يبال عن نسبته الكذب لغيره وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام وذلك لأن هؤلاء الأشخاص إن كانوا ممن سبقت لهم الحسنی و لذلك مبعدون عن جهنم فلا يدخل فيها إلا المشرك بالله وأما من قال بالشهادتين ظاهراً و أن كان منافقاً بل كافراً واقعاً فهو لا يدخل الجنة ولا يقول به إلا الملحد في دينه.

ثُمَّ نَقُولُ هَلْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِمْ مَعَاوِيَةُ وَيَزِيدُ وَغَيْرُهُمَا مَعَ أَتْهَمَا وَأَمْثَلُهُمَا مِنَ الْخُلَفَاءِ كَانُوا مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَشَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَدِيثِ وَمَحْصُلُ الْكَلَامِ أَنَّ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَهُ مَعْنٍ سَبَقَتْ لَهُمُ الْحُسْنَى فَعَلَى الْإِسْلَامِ السَّلَامُ.

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ أَوْلَئِكَ عَنْهَا مَبْعُدُونَ، يَعْنِي عَيْسَى وَعَزِيرُ وَالْمَلَائِكَةُ نَقَلَهُ عَنْ مُجَاهِدٍ ثُمَّ أَطَالَ الْكَلَامَ فِي الْبَابِ وَنَقَلَ أَقْوَالاً كَثِيرَةً إِلَى أَنَّ قَالَ وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ، عَنِي بِقَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى مَا كَانَ مِنْ مَعْبُودٍ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهُ وَالْمَعْبُودُ لِلَّهِ مُطِيعٌ وَعَابِدُوهُ بِعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ بِاللَّهِ كَقَارٍ لِأَنَّ قَوْلَهُ: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ، الْآيَةُ إِبْتِدَاءُ كَلَامٍ مُحَقَّقٍ لِأَمْرٍ كَانَ يَنْكَرُهُ قَوْمٌ عَلَى نَحْوِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الْخَبَرِ عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ فَكَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لَنْ بِي اللَّهَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَسْبَ جَهَنَّمَ مَا الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ لِأَنَّا نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَيَعْبُدُ آخَرُونَ الْمَسِيحَ وَعَزِيرُ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ رَدًّا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى هُمْ عَنْهَا مَبْعُدُونَ، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَعْنِيَيْنِ بِقَوْلِنَا أَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَسْبَ جَهَنَّمَ فَأَمَّا قَوْلُ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ إِبْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ: مَا تَعْبُدُونَ حَسْبَ جَهَنَّمَ، فَقَوْلٌ لَامَعْنَى لَهُ لِأَنَّ الْإِبْتِثْنَاءَ أُنْمَا هُوَ إِخْرَاجُ الْمُسْتَنْثَى مِنَ الْمُسْتَنْثَى مِنْهُ وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ، الْآيَةُ أُنْمَا هُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ إِنْسٌ أَوْ جَانٌّ وَكُلُّ هَؤُلَاءِ إِذَا ذَكَرَتْهَا الْعَرَبُ فَأَنَّ أَكْثَرَ مَا تَذَكَّرَهَا، بِمَنْ، لَا، بِمَا، وَسَاقَ الْكَلَامَ إِلَى أَنَّ قَالَ أُنْمَا أُرِيدُ بِهِ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَلْهَةِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْخَشَبِ لَا مَنْ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ إِنْتَهَى مَوْضِعُ الْحَاجَةِ مِنْهُ.

وَقَدْ أَطَالَ الرَّازِيُّ أَيْضاً الْكَلَامَ بِمَا لَا حَاجَةَ لَنَا فِي نَقْلِهِ فَأَنْتَهُمْ فَسَّرُوا الْكَلَامَ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ أَخَذَ عَنْ بَعْضٍ مَعَ تَغْيِيرٍ فِي الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ وَأُنْمَا نَقَلْنَا كَلَامَ الطَّبْرِيِّ بِطَوْلِهِ لِأَنَّ تَفْسِيرَهُ أَسَاسَ تَفَاسِيرِ الْعَامَّةِ وَالْكُلِّ أَخَذُوا مِنْهُ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَتَقُولُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

أَتَمَّا نَشَأُ الْإِشْكَالَ بِزَعْمِهِمْ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أَلَا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ قَوْلِهِ بِالْحُكْمِ فَلَا يَسْمَعُونَ وَلَذَلِكَ وَقَعُوا فِي الْحِصِّ وَالْبَيْصِ وَتَشَبَّهُوا بِكُلِّ حَشِيشٍ لِّحْلِ الْإِشْكَالِ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ مَا زَعَمُوهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ إِذْ لَوْ كَانَتِ الْآيَةُ مُرْتَبِطَةً بِمَا قَبْلُهَا فَحَقَّ الْكَلَامُ أَنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ عَلَىٰ سَبِيلِ الْعُطْفِ، أَوْ يُقَالُ وَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ وَقَدْ أَطْبَقَ الْبُلْغَاءُ وَالتُّحَاةُ عَلَىٰ أَنَّ لَهَا أَيَّ (إِنَّ) صَدَرَ الْكَلَامِ وَعَلَىٰ هَذَا فَلَا يَبْدُو لِبَيَانِ حُكْمِ آخِرِ أَنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ، مَبْعُدُونَ عَنْ جَهَنَّمَ وَبِعِبَارَةِ قَسَمِ النَّاسِ عَلَىٰ قَسَمَيْنِ، مُشْرِكٌ، وَمُؤْمِنٌ ثُمَّ حُكْمٌ عَلَىٰ الْمُشْرِكِ يَكُونُهُ مَعَ مَعْبُودِهِ فِي النَّارِ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَسَنُ الْعَمَلِ وَالْإِعْتِقَادِ، وَحُكْمٌ عَلَىٰ الْقِسْمِ الْآخَرِ وَهُوَ الَّذِي سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ حَسَنُ الْعَمَلِ بِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ جَهَنَّمَ وَعَلَىٰ هَذَا فَمَعْنَى الْآيَةِ.

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أَيَّ سَبَقَ فِي عِلْمِنَا الْأَزَلِيِّ حَسَنَ إِعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ فَهَمَّ عَنْ الْعَذَابِ مَبْعُدُونَ، وَهَذَا مِمَّا لَا إِشْكَالَ فِيهِ بَلْ هُوَ الْحَقُّ الْحَقِيقَةُ بِالْإِتِّبَاعِ لَا مَا لَفَقُوهُ فِي تَفْسِيرِهِمْ مِنَ الْإِسْتِنَاءِ وَغَيْرِهِ هَذَا مَا ظَهَرَ لَنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِبْسَهَا وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ

الْحَسِيسُ الصَّوْتُ أَيَّ لَا يَسْمَعُونَ صَوْتَهَا الَّذِي يَحْسُ مِنْ حَرَكَةِ الْأَجْرَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ صَوْتُ جَهَنَّمَ لِأَنَّ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ أَوْ صَوْتُ النَّارِ فِيهَا وَقَوْلُهُ: فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ، فَالشَّهْوَةُ طَلَبُ النَّفْسِ لِلذَّوِّ وَنَقِيضُ الشَّهْوَةِ تَكْرَهُ النَّفْسِ فَالْغَدَاءُ تَشْتَهِي وَالدَّوَاءُ تَكْرَهُ وَالمَقْصُودُ أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَفِي قَوْلِهِ: خَالِدُونَ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ دَوَامِ اللَّذَّةِ وَبَقَائِهَا.

لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

في هذه الآية نفى الله عنهم الحزن و الخوف و أثبت لهم البشارة بواسطة الملائكة و بهذه الأمور الثلاثة فقد أكمل الله تعالى عليهم النعمة و أتمها لأنّ تمامية النعمة بحصولها أي وجودها أولاً، و هو أي وجود النعمة حصل لهم في الآية السابقة و بعدم كونها مشوباً بالخوف و الغم ثانياً و بالبشارة ببقائها لصاحب النعمة ثالثاً و هذا هو العيش الكامل و اللذة الحقيقية التي لا يتصور فوقها لذة و لا عيش و لمثل هذا فليعمل العاملون.



يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
 بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
 (١٠٤) وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ
 الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي
 هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ غَابِظِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
 إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ
 أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ
 الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ
 أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١)
 قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ
 الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)

◀ اللّٰغَةُ

نَطْوِي: طَيَّ مصدر مضاف إلى المفعول أي ليكتب فيه و قيل يكتب فيه من
 المعاني الكثيرة و الأصل كَطَيَّ الطَّاوِي السَّجِلِّ فحذف الفاعل و قدره
 الزَّمْخَشَرِي مَبْنِيًّا لِّلْمَفْعُولِ أي كما يطوي السَّجِلُّ و عن ابن عَبَّاس و جماعة أَنَّ
 السَّجِلَّ مَلِكٌ يَطْوِي كُتُبَ آدَمَ إِذَا رَفَعَتْ إِلَيْهِ.

السَّجِلِّ: قيل أَنَّهُ فَاتَرَسَى مَعْرَبٌ و قيل أَصْلُهُ مِنَ الْمَسَاجِلَةِ وَ هِيَ مِنَ
 السَّجَلِ وَ هُوَ الدَّلُّو مَلَأْمَاءٌ وَ قَالَ الزَّجَّاجُ هُوَ رَجُلٌ بِلِسَانِ الْحَبَشِ.

فِي الزَّبُورِ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ زَبُورُ دَاوُدَ وَ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ، زَبَرَ، بِمَعْنَى كَتَبَ يُقَالُ
 زَبَرْتُ الْكِتَابَ كَتَبْتَهُ كِتَابَةً عَظِيمَةً وَ كُلُّ كِتَابٍ غَلِيظٍ الْكِتَابَةُ يُقَالُ لَهُ زَبُورٌ وَ خَصَّ

الرَّبُّور بِالْكَتَابِ الْمَنْزَلِ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ تَعَالَى: وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا قَالَه الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ.

أَلِذْ كَر: قِيلَ الذِّكْرُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.
تَوَلَّوْا: التَّوَلَّى الْإِعْرَاضَ وَالْبَاقِي وَاضِحٌ.

◀ الإعراب

يَوْمَ نَطْوِي يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنَ الْعَائِدِ الْمَحذُوفِ مِنْ قَوْلِهِ، يُوعَدُونَ، أَوْ عَلَى إِضْمَارٍ، أَعْنِي، أَوْ ظَرْفًا لِلَّا يَحْزَنُهُمْ، أَوْ بِإِضْمَارٍ أَذْكَرَ، وَنَطْوِي بِالْثَّوْنِ عَلَى التَّعْظِيمِ وَبِالْيَاءِ عَلَى الْغَيْبَةِ وَبِالتَّاءِ وَتَرَكَ تَسْمِيَةَ الْفَاعِلِ أَلَسَّمَاءَ بِالرَّفْعِ وَالتَّقْدِيرِ طَيًّا كَطَيٍّ وَهُوَ مُصَدَّرٌ مضافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ أَنْ قُلْنَا السَّجَلِ الْقُرْطَاسُ وَأَنْ قُلْنَا أَنَّهُ إِسْمٌ مُلْكٌ أَوْ كَاتِبٌ فَيَكُونُ مضافًا إِلَى الْفَاعِلِ وَفِيهِ قَرَاءَاتٌ، كَسَرِ السَّيْنِ وَالْجِيمِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ وَيَقْرَأُ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ بِتَخْفِيفِ اللَّامِ، وَيَقْرَأُ بِفَتْحِ السَّيْنِ وَسُكُونِ الْجِيمِ وَتَخْفِيفِ اللَّامِ وَبُضْمِ السَّيْنِ وَالْجِيمِ مُخَفَّفًا وَمَشْدَدًا كَمَا بَدَأْنَا الْكَافَ نَعَتْ لِمُصَدَّرٍ مَحذُوفٍ أَيَّ نَعِيدُهُ عَوْدًا مِثْلَ بَدْءِهِ وَفِي نَصَبِ أَوَّلٍ وَجْهَانِ:

أحدهما: أَنَّهُ مَنْصُوبٌ بِيَدَانَا.

الثَّانِي: هُوَ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي نَعِيدِهِ وَعَدَدًا مُصَدَّرٌ أَيَّ وَعَدْنَا ذَلِكَ وَعَدًا مِنْ بَعْدِ أَلِذْ كَرِ ظَرْفٌ لِلزُّبُورِ بِمَعْنَى الْمَزْبُورِ أَيَّ الْمَكْتُوبِ إِلَّا رَحْمَةً هُوَ مَفْعُولٌ لَهُ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا أَيَّ ذَا رَحْمَةٍ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا أَنْ مُصَدَّرِيَّةٌ وَمَا الْكَافَةُ لَا تَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَوَاءٍ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ وَالْبَاقِي لَا خَفَاءَ فِي إِعْرَابِهِ.

◀ التفسير

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجَلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا وَ تَفْسِيرُهَا مَا أَعَدَّ لِلْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَبَقَتْ مِنْهُمْ الْحَسَنَى الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ وَ الْبَعْدُ مِنَ النَّارِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَوْمَ الْوَعْدِ وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَقَالَ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ، أَيِ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا يَقَعُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ أَيِ كَطَيِّ الدَّرَجِ وَ مِنْهُ طَوِيتِ الْفَلَاةَ وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ وَ السَّمَوَاتِ مَطْوِيَاتٍ بِيَمِينِهِ أَيِ مَهْلَكَاتٍ وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنْ فَنَائِهَا وَ إِضْمَحْلَالِهَا كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ وَ قَوْلُهُ: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، إِشَارَةٌ إِلَى الْمَعَادِ وَ أَنَّ الْإِعَادَةَ لَيْسَتْ بِأَصْعَبَ مِنَ الْإِبْجَادِ فَمَنْ خَلَقَ الْمَخْلُوقَ أَوَّلًا قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ وَ قَوْلُهُ: وَ عَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ وَ لِذَلِكَ قَالَ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ، أَيِ فَاعِلِينَ مَا وَعَدْنَاهُ مِنَ الْبَعْثِ وَ قِيلَ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُ كَمَا إِخْتَرَعْنَا الْخَلْقَ أَوَّلًا عَلَى غَيْرِ مَثَالٍ كَذَلِكَ نَنْشَأُهُمْ تَارَةً أُخْرَى فَنَبْعَثُهُمْ مِنَ الْقُبُورِ.

وَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ الَّتِي خَرَجَ بِهَا إِلَى الدُّنْيَا وَ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْشُرُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَفَاةَ عَرَاءَ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ إِنْتَهَى.

أَقُولُ: وَ يُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرَ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَايِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا^(١) غَشِيَ عَلَيْهِ وَ حَمَلَ إِلَى حَجْرَةٍ أَمْ سَلَمَةَ فَإِنْتَظَرَهُ أَصْحَابُهُ وَ قَتَّ الصَّلَاةَ فَلَمْ يَخْرُجْ فَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ فَقَالُوا مَا لِنَبِيِّ اللَّهِ فَقَالَتْ أَمْ سَلَمَةُ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ عَنْكُمْ مَشْغُولٌ ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَقَى الْمَنْبِرَ فَقَالَ، أَيُّهَا النَّاسُ أَنْكُمْ تَحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ كَمَا خَلَقْتُمْ حَفَاةَ عَرَاءَ ثُمَّ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ثُمَّ قَرَأَ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَ عَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ إِنْتَهَى.

و فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنَاءً، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا حُفَاءَ عُرَاءَ، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ، وَالْدَارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)^(١).

و عن مجمع البيان، و يروى عن النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ تَحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاءَ عُرَاءَ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ إِنْتَهَى.

أَقُولُ: هَذَا مِمَّا لَا بَأْسَ بِهِ وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْآيَةِ هُوَ إِثْبَاتُ أَصْلِ الْمَعَادِ وَأَمَّا أَنَّهُمْ حُفَاءَ عُرَاءَ فَهِيَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ وَ الْجَمْعُ مَهْمَا أَمَكْنَ أَوَّلَى مِنَ الطَّرْحِ وَ سَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

و لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ

إِنَّمَّا الْمُفَسَّرُونَ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالزَّبُورِ هُوَ كِتَابُ دَاوُدَ النَّبِيِّ أَنزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ قِيلَ الْمَرَادُ بِهِ كِتَابُ الْأَنْبِيَاءِ وَ قَوْلُهُ: مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ، أَيِ مَنْ بَعْدَ كِتَابِهِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ وَ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَ قِيلَ الْمَرَادُ بِالذِّكْرِ تَوْرَةُ مُوسَى مَعْنَاهُ قَبْلَ الذِّكْرِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ حَكَاهُ ابْنُ خَالَوَيْهِ، وَ الْمَرَادُ بِالْأَرْضِ قِيلَ أَرْضُ الْجَنَّةِ الَّتِي يَرِثُهَا الصَّالِحُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ أَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ^(٢).

وَ قِيلَ هِيَ الْأَرْضُ فِي الدُّنْيَا الَّتِي تُصَوِّرُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ بَعْدِ إِجْلَاءِ الْكَفَّارِ عَنْهَا، وَ قِيلَ أَرْضُ الشَّامِ يَرِثُهَا الصَّالِحُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ذَكَرَهُ الْكَلْبِيُّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

حزء ١٧

الجلد العادي عشر

أقول: ما ذكروه في الأرض لا دليل عليه و أنما قالوا ما قالوا من عند أنفسهم و الله تعالى لم يقيد بها بشي من الجنة و الشام و غيرهما و التقييد يحتاج إلى الدليل و إذ ليس فليس فالحق أن المراد بالأرض هو أرض الدنيا كما هو مقتضى الإطلاق في الآية هذا مضافاً إلى أن قوله تعالى يرثها لا يساعد أرض الجنة إذ لا إرث فيها و بعبارة أخرى أرض الجنة لا توارث فيها و الأرض التي يرثها بعض الناس عن الآخرين هي أرض الدنيا لا أرض الجنة فقوله تعالى يرثها عبادي الصالحون بعد ظهور المهدي و تطهيره الأرض الأرجاس من الكفار و المنافقين و إذا كان ذلك فلا يبقى فيها غير الصالح.

و عن مجمع البيان في هذه الآية قال أبو جعفر عليه السلام: هم أصحاب المهدي في آخر الزمان و يدل على ذلك ما رواه الخاص و العام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً و عدلاً كما ملأت ظلماً و جوراً إنتهى.

و روى الشيخ في التبيان عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: إن ذلك وعد للمؤمنين بأنهم يرثون جميع الأرض إنتهى.

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ غَابِدِينَ

أي أن في هذا المعنى الذي أخبركم به مما توعدنا به الكفار من النار و الخلود فيها و ما وعدنا به المؤمنين من الجنة و الكون فيها، لبلاغاً، و قيل أن في هذا القرآن لبلاغاً، و البلوغ الوصول إلى الحق ففي البرهان بلاغ و القرآن دليل و برهان، و قيل معناه أنه يبلغ رضوان الله و محبته و جزيل ثوابه، لقوم غابدين لله مخلصين له قاله في التبيان.

و قال صاحب الكشاف الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار و الوعد و الوعيد و المواعظ البالغة و البلاغ الكفاية و ما تبلغ به البغية إنتهى.

أقول: و الذي ظهر لي من الآية هو أنَّ المشار إليه بقوله: **هَذَا** هو الوعد الأخير في الآية السابقة أعني قوله أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون فأن هذا الوعد يكفي لقوم عابدين و ذلك لأنه كالبشارة لهم بالفرج و أنَّ الغاية من خلق الأرض و من عليها هي الصالحون لا غيرهم من حشرات الأرض و أنَّ لكلِّ عسرٍ يسرٍ و لكلِّ ضيقٍ وسعةٍ قال رسول الله ﷺ أفضل أعمال أمتي إنتظار الفرج ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

دور گردون گر دو روزی بر مراد مانگشت

دائماً يكسان نماند حال دوران غم مخور

و أنما قلنا ذلك لأنَّ هذا الكلام وقع بعد قوله: **أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**، فحملة على ما ذكرناه أولى و الله أعلم.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ

قيل في معناه أي ما أرسلناك إلا نعمة عليهم و لأن ترحمهم، و قيل خاص بمن آمن به و قيل عامٌ لمن آمن و من لم يؤمن من الكفار و معنى كونه ﷺ رحمة لهم أنه أخر الله عقوبة الكفار ولم يستأصلهم بالعذاب في الدنيا و قال عوفي ممّا أصاب غيرهم من الأمم من مسخٍ و خسفٍ و غرقٍ و قذفٍ و أخر أمره إلى الآخرة.

و قال الزمخشري في الكشف كونه رحمة للفجار من حيث أنَّ عقوبتهم أخرت بسببه و أمنوا من عذاب الإستئصال.

أقول: ما ذكروه لا بأس به إلا أنَّ الآية يستفاد منها شيء آخر و هو أنه ﷺ كان مظهراً لرحمته التي وسعت كلَّ شيءٍ لأنَّه الغاية في الإيجاد و التشريع إمّا الإيجاد فلقوله تعالى في حقِّه لولاك لما خلقت الأفلاك و قال ﷺ **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورِي** و أمّا في التشريع فلقوله ﷺ **كُنْتُ نَبِيًّا** و آدم بين الماء و الطين و من المعلوم أنَّ

العلّة الغائيّة مقدّمة في الوجود العلمي و مؤخّرة في الوجود الخارجي.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أمينك المأمون و شهيدك يوم الدين و بعبثك نعمة و رسولك بالحقّ رحمةً إلى آخر كلامه.

و الحاصل أنّ وجود الرّسول من أعظم النّعم لقوله تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا ^(١) وحيث أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان بنفسه رحمة من عند الله قال في حقّ من أذاه من النّاس اللّهم أهد قومي فإنّهم لا يعلمون، بعد ما قال له جبرئيل أدع عليهم.

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

قد مرّ الكلام في معنى الوحي و أنّه في الأصل الإشارة السّريّة و ذكر أقسام الوحي و كلمة، إنّما، لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشّيء على حكم كقولك أنّما زيد قائم و أنّما يقوم زيد و قد اجتمع المثالان في هذه الآية لأنّ قوله: إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ، بمنزلة إنّما يقوم زيد و إنّما إلهم إلّه واحد، بمنزلة إنّما زيد قائم و فائدة اجتماعهما الدّلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقصود على إستثثار الله بالوحدانيّة و في قوله، فهل أنتم مسلمون، أنّ الوحي الوارد على هذا السّنن موجب أن تخلصوا التّوحيد لله و أن تخلصوا الأنداد و فيه أنّ صفة الوحدانيّة يصحّ أن تكون طريقها السّمع و يجوز أن يكون المعنى أنّ الذي يوحى إليّ فتكون ما موصولة إنتهى ما حقّقه صاحب الكشّاف.

أقول: ما ذكره صاحب الكشّاف من الحصر في، إنّما، لا يصحّ إلّا على مسلكه و أمّا على مسلك غيره من النّحاة فلا.

قال بعض المحققين أنها لا تكون للحصر و أن، ما، مع، إن، مثل، ما، مع كأن
و لعل فكما أنها لا تفيد الحصر في التشبيه و لا الحصر في الترجي فكذلك لا
تفيدة مع، إن، و إما، جعله، إنما، المفتوحة مثل مسكورتها يدل على القصر فلا
نعلم الخلاف إلا في، إنما، بالكسر و أما بالفتح فحرف مصدري ينسك منه مع
ما بعدها مصدر فالجملة بعدها ليست جملة مستقلة و أنت ترى أنه أي صاحب
الكشاف لم يفرق بين مكسورها و مفتوحها في إفادة الحصر مع أن المفتوح لا
يفيده قطعاً بلا خلاف و إنما الاختلاف في المكسور فقط و لو كانت، إنما، دالة
على الحصر لزم أن يقال أنه لم يوح إلى النبي شيء إلا التوحيد مع أن الأمر ليس
كذلك إذ قد أوحى إليه ﷺ أشياء كثيرة غير التوحيد ففي الآية دليل على
تظافر المنقول للمعقول و أن النقل أحد طريقي التوحيد و طريقه الآخر العقل.
و أما قوله: **فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** فالإستفهام يتضمن الأمر بإخلاص التوحيد
و الإلتقياد إلى الله تعالى و كيف كان فالآية تدل على أن مسألة التوحيد أصل
الدين و أساسه و أن الأنبياء أنما بعثوا لدعوة الناس إليه و أما غيره من الأحكام
فمتفرع عليه قال رسول الله ﷺ **قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا**.

**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا
تُوعَدُونَ**

آذنتكم أي أعلمتكم فأذن الإيذان الإعلام و كلمة، إن، بالكسر مخففة نافية
بمعنى بمعنى ليس أي لا أدري و قوله: **آذَنْتُكُمْ** يتضمن معنى التحذير و
الذارة و التولي، الإعراض و معنى الآية قل يا محمد أنما يوحى إلي كذا فأن
تولوا و أعرضوا عما قلت لهم فقل لهم آذنتكم أي أعلمتكم بالتوحيد على
سواء و لم أخص أحداً به دون أحد و هذا الإيذان هو أحلام بما يحل بمن
تولى و أعرض عنه من العقاب في الآخرة و غلبة الإسلام على الكفر و لكني لا
أدري متى يكون ذلك أي ما توعدون، و الله أعلم به.

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ

أي أنه تعالى لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه والله هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء فيعلم ما تعلنون وما تخفون في ضمائركم والدليل عليه من النقل فكثير من الآيات من أنه يعلم السرّ وما يخفى وأما العقل، فلاّته تعالى لو خفي عليه شيء من الأشياء يلزم جهله به والجهل نقص من شؤون الممكن وأما الواجب فهو كامل بالذات والصفات ومن صفاته العلم وكمال العلم بقول مطلق ينافي الجهل بقول مطلق وقد مرّ الكلام في علمه تعالى وأنه بكلّ شيء محيط وسيأتي الكلام فيه بوجه أبسط في موضعه.

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ

أي لعل تأخير هذا الموعد إمتحان لكم، وقوله: **مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**، أي ليتمتعون الى الوقت الذي قدّره الله لعقابكم في الآخرة أو هلاككم في الدنيا والمقصود لا تغتروا بما أنتم فيه من النعم إذ من المحتمل أن يكون ذلك إستدراجاً وإمهالاً

قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ

قيل الضمير في، قال، للنبي ﷺ والآية حكاية قوله ﷺ عن دعوتهم الى الحقّ و ردّهم دعوته وتوليهم عنه وتقييد الحكم بالحقّ توضيحي لا إحترازي فإنّ حكمه تعالى لا يكون إلّا حقّاً فكأنّه قيل ربّ أحكم بحكمك الحقّ ومعنى الآية واضح فأنّه تعالى هو الرحمن الذي يستعان به في جميع الأمور والحمد لله ربّ العالمين.

سُورَةُ الْحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغْهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَي لَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

بَهِيَج (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ
 الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ
 السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ
 فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
 بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي
 عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
 وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا
 قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

◀ اللغة

تَذَهَّلُ: ذهل ذهولاً، اِشْتَغَلَ عنه قاله قطرب و قيل معناه غفل و قيل مع
 دهشة.

مَرِيدٌ: المرید المتَّجِد للفساد يقال صخرةٌ مرداء أي ملساء.
 السَّعِيرُ: النار الذي يستعر و يلتهب.

مُضْغَعَةٌ: المضغعة اللحمية الصَّغِيرَة قدر ما يَمْضَغ.

مُحَلَّفَةٌ: المسوأة الملساء لا نقص و لا عيب فيها من قوله صخرةٌ خلقاء أي
 ملساء.

يُنْقَرُ: أي نثبت.

هَامِدَةٌ: يقال همدت الأرض إذا يبست و درست.

بَهِيَج: البهيج الحسن السَّار للناظر يقال فلان ذو بهجة أي حسن.

عَطْفُهُ: العطف بكسر العين الجانب و عطفا الرجل يمينه و شماله و أصله

من العطف و هو اللين و يسمَّى الرِّدَاء العطف.

◀ الإعراب

زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ الزَّلْزَلَةُ مصدر يجوز أن يكون من الفعل اللازم أي تزلزل السَّاعَةُ و أن يكون متعدياً أي أَنَّ زلزال السَّاعَةِ النَّاسُ فيكون المصدر مضافاً الى الفاعل في الوجهين و يجوز أن يكون المصدر مضافاً الى الظرف يَوْمَ تَوَفَّيْهَا هو منصوب بتذهل، و يجوز أن يكون بدلاً من السَّاعَةِ أو ظرفٌ لعظيم، أو على إضمار، أذكر، فعلى هذه الوجوه يكون تَذْهَلُ حالاً من ضمير المفعول والعائد محذوف أي تذهل فيها مُرْضِعَةٌ جاء على الفعل من أَرْضَعِ والتاء علامة التأنيت مثل مكرمة ولو كان على النَّسَبِ لقال مرضع، و، ما، بمعنى، من، و يجوز أن تكون مصدرية بِسْكَارَى بضم السين حالٌ و الضَّمّ والفتح فيه لغتان مَنْ يُجَادِلُ هي نكرة موصوفة و بغيرِ عِلْمٍ في موضع المفعول أو حال.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ

قال في المفردات التزلزل الإضطراب و تكرير حروف لفظه تنبيهٌ على تكرير معنى الزَّلَلِ فيه و هو من الزَّلَّةِ يقال زَلَّتْ رَجُلٌ تَزَلُّ و الزَّلَّةُ المكان الزَّلِقُ و قيل للذنب من غير قصدٍ زَلَّةٌ تشبيهاً بزَلَّةِ الرَّجُلِ و المراد بالسَّاعَةِ قيل القيامة و قيل عند النَّفْخَةِ الأولى و قيل عند الثَّانِيَةِ، قيل في وجه مناسبة أَوَّلِ هذه السُّورَةِ لما قبلها أَنَّهُ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فيما قبلها حال الأَشْقِيَاءِ و السُّعْدَاءِ و ذَكَرَ الْفِرْعَ الْأَكْبَرَ و كان مشركو مَكَّةَ قد أنكروا المعاد و كَذَّبُوهُ بسبب تأخُّرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تَحْذِيرًا لَهُمْ و تَخَوُّفًا لِمَا إِنطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذَكَرِ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ و شِدَّةِ هَوْلِهَا و ذَكَرَ مَا أَعَدَّ لِمَنْكُرِهَا و تنبيههم على البعث بتطويعهم في خلقهم و وبهمود الأرض و إهتزازها بعد اللَّبَنَاتِ و الظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عامٌ يشمل جميع النَّاسِ و قيل المراد أهل مَكَّةَ و نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَبَبِ إِتْقَانِهِ وَهُوَ مَا يُؤَلِّهِ مِنْ أَهْوَالِ السَّاعَةِ وَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

إِتَّقُوا عَذَابَ رَبِّكُمْ وَ الزَّلْزَلَةَ الْحَرَكَةَ الْمَزْعَجَةَ وَ هِيَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى وَ قِيلَ عِنْدَ الثَّانِيَةِ الْجُمْهُورُ فِي الدُّنْيَا آخِرَ الزَّمَانِ وَ يَتَّبِعُهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَ أُضِيفَتْ إِلَى السَّاعَةِ لِأَنَّهَا مِنْ أَشْرَاطِهَا وَ الْمَصْدَرُ مُضَافٌ لِلْفَاعِلِ فَالْمَفْعُولُ الْمَحْذُوفُ الْأَرْضُ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا^(١) وَ نِسْبَةُ الزَّلْزَلَةِ إِلَى السَّاعَةِ مُجَازٌ.

قَالَ الْحَسَنُ أَشَدُّ الزَّلْزَالِ مَا يَكُونُ مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَ قِيلَ الزَّلْزَلَةُ إِسْتِعَارَةٌ وَ الْمُرَادُ شِدَّةُ السَّاعَةِ وَ أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الشَّيْءَ هُنَا يَدُلُّ عَلَى إِطْلَاقِهِ عَلَى الْمَعْدُومِ لِأَنَّ الزَّلْزَلَةَ لَمْ تَقَعْ بَعْدَ وَ مِنْ مَنَعِ إِيقَاعِهِ عَلَى الْمَعْدُومِ جَعَلَ الزَّلْزَلَةَ شَيْئاً لَتَبَيَّنَ وَجُودُهَا وَ وَقُوعُهَا فِي وَقْعَةٍ وَ الْمَعْنَى إِذَا وَقَعَتْ فَهِيَ شَيْءٌ عَظِيمٌ وَ سَتَتَكَلَّمُ فِيهَا فِي سُورَةِ الزَّلْزَالِ.

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَهْوَالَ الصِّفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَرَوْنَهَا الْآيَةَ لِيَنْظُرُوا إِلَى تِلْكَ الصِّفَةِ بِبَصَائِرِهِمْ وَ يَتَصَوَّرُوهَا بِعُقُولِهِمْ لِيَكُونَ ذَلِكَ حَامِلاً عَلَى تَقْوَاهُ تَعَالَى إِذْ لَا نَجَاةَ مِنْ تِلْكَ الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ.

وَ رَوَى أَنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ نَلْنَا لِبِلَالٍ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَقَرَأَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَلَمْ يَرَى أَكْثَرَ بَاكِياً مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَ اخْتَلَفُوا فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ فِي، تَرَوْنَهَا، فَقَالَ قَوْمٌ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الزَّلْزَلَةِ لِأَنَّهَا الْمَحْدُثُ عَنْهَا وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَجُودُ الذَّهُولِ لِلْمَرْضِعَةِ وَ وَضْعُ الْحَمْلِ هَذَا إِذَا أُرِيدَ الْحَقِيقَةُ وَ هِيَ الْأَصْلُ فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا.

وقال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام و تضع الحامل ما في بطنها لغير تمام.

و قالت فرقة الصّميم يعود على السّاعة فيكون الذّهول و الوضع عبارة أو كناية عن شدّة الهول في ذلك اليوم و لا ذهول و لا وضع هناك كقولهم يوم يشيب فيها الوليد و جاء لفظ مرضعة دون مرضع لأنّه أريد به الفعل لا النّسب بمعنى ذات رضاع، كما قال الشّاعر:

كمرضعة أولاد أخرى وضّعت بني بطنها هذا الضلال عن القصد و «ما» في قوله: عَمَّا أَرْضَعْتُ، قيل بمعنى، الذي، أي عن الذي أرضعت و العائد محذوف أي أرضعته و يقوّيه تعدّي، وضع، إلى المفعول به في قوله: حَمَلُهَا، لا إلى المصدر، و قال بعضهم، ما، مصدرية أي عن إرضاعها. و قال صاحب الكشف فأن قلت، لم قيل مرضعة دون مرضع.

قلت: المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصّبي و المرضع التي شأنها أن ترضع و أن لم تباشر الإرضاع حال وصفها به فقيل مرضعة ليدلّ على أنّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه و قد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدّهشة، عَمَّا أَرْضَعْتُ، عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته و هو الطّفل إنتهى.

ثم أنّ قوله: تَذْهَلُ بفتح التّاء و الهاء و قرأ بعضهم بضّم التّاء و كسر الهاء من أذهل إذهالاً، أي تذهل الزلّلة أو السّاعة و على هذه القراءة يكون، كلّ منصوباً، أي تذهل السّاعة كلّ مرضعة عَمَّا أَرْضَعْتُ و الجمهور على فتح التّاء و الهاء و عليه المصاحف فعلاً و أن كانت القراءة الثانية أيضاً لا تخلو عن قوّة و قوله: وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلُهَا، فالحمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو على رأس شجرة و قوله: وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى، بضّم التّاء و فتحها أثبت أنّهم سكارى على سبيل التّشبيه ثم نفى عنهم الحقيقة و هي السّكر من الخمر فقال: وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى أي ليسوا بسكارى حقيقة وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

شَدِيدٌ ذَلِكَ لَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحَيَرَةِ وَتَخْلِيطِ الْعَقْلِ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَإِخْتَلَفُوا فِي، سَكَارَى، أَهْوِ جَمْعٌ أَوْ إِسْمٌ جَمْعٌ، وَ قَرَأَ أَبُو نَهْيَكٍ وَعِيسَى بِفَتْحِ السِّينِ فِيهِمَا جَمْعٌ تَكْسِيرٍ وَاحِدَهُ سَكَرَانٌ.

وَقَالَ أَبُو تَمِيمٍ هِيَ لُغَةٌ تَمِيمٌ وَقَالَ سَيَبَوِيهٌ قَوْمٌ يَقُولُونَ، سَكَرَى جَعَلُوهُ مِثْلَ، مَرْضَى، وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ هُوَ إِسْمٌ مَفْرَدٌ كَالْبَشْرَى وَبِهَذَا أَفْتَانِي أَبُو عَلَى. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَهُوَ غَرِيبٌ، أَقُولُ الْأَمْرَ سَهْلٌ وَالْمُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ هُوَ ذَهَابُ عَقُولِهِمْ مِنَ الْحُزَنِ وَالْفِرْعِ وَتَحْيِيرِهِمْ فِيهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَاتَّبَعَ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ مِنْ، لِلتَّبَعِضِ أَيِ بَعْضِ النَّاسِ كَذَلِكَ، وَ الْجِدَالُ، بِكَسْرِ الْجِيمِ الْمَفَاوِضَةُ عَلَى سَبِيلِ الْمَنَازَعَةِ وَالْمَغَالِبَةِ وَأَصْلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الْحَبْلَ أَيِ أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ الْجَدِيلَ وَجَدَلْتُ الْبِنَاءَ أَحْكَمْتُهُ وَقِيلَ الْأَصْلُ فِي الْجِدَالِ الصُّرَاعُ وَإِسْقَاطُ الْإِنْسَانِ صَاحِبَهُ عَلَى الْجِدَالَةِ وَهِيَ الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّ الْجِدَالَ فِي حَدِّ نَفْسِهِ لَيْسَ بِمَذْمُومٍ بَلْ هُوَ مَمْدُوحٌ عَقْلًا وَنَقْلًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ جَادِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ^(١).

وَأَمَّا الْمَذْمُومُ مِنْهُ هُوَ الْجِدَالُ الْبَاطِلُ كَمَا إِذَا كَانَ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْأَحْقَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا

كِتَابٍ مُنِيرٍ^(٣).

قِيلَ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ، وَقِيلَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَنِي خَلْفٍ وَالتَّنْصُرُ بَنُ الْحَارِثِ كَانَ يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ وَالْقُرْآنُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَلَا يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى إِحْيَاءِ مَنْ بَلَى وَصَارَ تَرَابًا.

أقول الحقّ أنّ الآية عامّة في كلّ من تعاطى الجدل ولا يرفع إلى علم برهان ولا نصفه وهذا ممّا لا يحتاج إلى الاستدلال لوضوحه وأمّا قوله: وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ أي يتّبعه في جداله لجهله قيل المراد به هو شيطان الجنّ وقيل المراد معناه العامّ الشّامل لشيطان الجنّ والإنس والمريد بفتح الميم المرتفع الأملس يقال صخرة مرداء أي ملساء.

أقول: يظهر من قوله: كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ، معنى العامّ لدلالة لفظ الكلّ عليه وهو ظاهر على المتأمل.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ
قيل أي كتب في اللوح المحفوظ أنّ من تولى الشيطان وإتبعه وأطاعه فيما يدعوه إليه فإنّه يضلّه والظاهر أنّ الضمير في، عليه، عائذ على، من، لأنّه المحدث عنه وفي، لأنّ، وتوّلاه، وفي، فإنّه، عائذ إليه أيضاً وقيل الضمير في، عليه، عائذ على كلّ شيطان مريد قاله قتادة وهذا هو الحقّ وذلك لأنّ معنى الآية أنّ من تولى الشيطان فإنّ الشيطان يضلّه ويهديه إلى عذاب السّعير مضافاً إلى أنّ عود الضمير على ما تأخر عنه لا يجوز إلّا بضرب من التّأويل وفي المقام لا مجوّز له وأمّا عوده على ما تقدّم عليه فهو مطابق للأصل فالحقّ أنّه يرجع إلى قوله كلّ شيطان مريد والمعنى كتب على الشيطان أنّه يضلّ من إتّبعه وتوّلاه ومن كان كذلك ينبغي طرده ولعنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ
مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ
نُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ
أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكِنِّي لَا
يَعْلَمُ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
أَهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

في هذه الآية مسائل:

الأولى: أَنَّ الخطاب لجميع النَّاس من المؤمن والكافر والرجل والمرأة وذلك لأنَّ البعث لا يختص بقوم دون قوم:

قال الله تعالى: **وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا** ^(٣).

و غيرها من الآيات والعقل أيضاً يحكم به لوجود الملاك في الكل.

الثانية: قوله: **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**، وهذا أيضاً مقطوع به وفيه إشارة إلى أَنَّ مَادَّةَ خلقته الأصلية هي التراب ومن المعلوم أَنَّ هذا الحكم ثابت لجسده لا لروحه فَإِنَّ الإنسان مركَّب من الرُّوح من عالم الملكوت والجسد من عالم الملك فقوله: **خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** أي أجسادكم وقد مرَّ الكلام فيه في قصَّة آدم وحواء مفصلاً.

الثالثة: قوله: **مِنْ نُطْفَةٍ**، النطفة الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل ومن المعلوم أَنَّ النطفة تحصل من الغذاء والغذاء ينبت من التراب والماء فكان أصلهم من التراب وإن شئت قلت المعنى خلقنا آدم من تراب الذي هو أصلكم وأنتم نسله فصَحَّ أن يقال إِنَّا خلقناكم من تراب.

وقال قومٌ أراد بقوله: **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** جميع الخلق من الإنسان والحيوان والنبات والجماد وهذا لا ينافي قوله يا أَيُّهَا النَّاس وذلك لأنَّ ثبوت الشَّيْءِ لشيءٍ لا ينافي ثبوته لشيءٍ آخر وأما خاطب النَّاس لأنَّ الشكَّ في البعث يحصل لهم لا لغيرهم وبعبارةٍ أخرى مورد البحث في البعث هو الإنسان وأما قوله: **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** فلا يختص بهم بل هو ثابت لهم ولغيرهم و

كيف لا شك أن النطفة توجد من الغذاء وه من الماء و التراب فكان أصل جميع الخلق في الأرض من التراب و الماء أي من التراب و الماء الذي يعبر عنه بالنطفة.

الرابعة: قوله: **ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** وهي القطعة من الدم جامدة و أنما قال ذلك لأن النطفة تصير علقه فالخلق حصل من التراب أولاً و من النطفة ثانياً.

الخامسة: قوله: **ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ** قيل وهي شبه قطعة من اللحم مضوغة و المضغة مقدار ما يمضغ من اللحم وفيه إشارة الى أن العلقه تصير مضغة و قوله: **مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** إشارة الى أن المضغة قد تكون تام الخلقه تكون ناقصاً و هذا مراد من فسّر المخلقة و غيرها بتامة الخلق و غير تامة في معناه المصورة و غيرها أي أن المضغة قد تكون مستعدة لقبول الصورة و قد لا تكون و يعبر عنه بالسقط هكذا قيل في تفسير الكلام و قيل المضغة اللحم الصغيرة قدر ما يمضغ و المخلقة المسواة للمساء السالمة من النقصان و العيب وهي التي تمت في أحوال الخلق و غير المخلقة من لم تتم فكأنه سبحانه قسم المضغة الى قسمين:

أحدهما: تامة الصورة و الحواس و التخاطيط.

وثانيهما: الناقصة في هذه الأمور فيبين أن بعد أن صيره مضغة، منها خلقه إنساناً تاماً بلا نقص و منها ما ليس كذلك فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقه أملس من العيوب و منها ما هو على العكس ذلك و لذلك نرى تفاوت الخلق في صورهم و طولهم و قصرهم و تمامهم و نقصانهم، و قيل المخلقة الولد الذي يخرج حياً و غير حياً و غير المخلقة السقط.

و عن القفال أنه قال التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار و توارد عليه الخلق لعد الخلق فذاك هو المخلق لتتابع الخلق عليه و الأقوال كثيرة جداً.

و عن الكافي بأسناده عن سلام بن المستنير قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ مخلَّقة و غير مخلَّقة، قال عليه السلام: المخلَّقة هم الذَّرَّ الذين خلَقهم الله في صلب آدم عليه السلام أخذ عليهم الميثاق ثمَّ أجراهم في أصلاب الرِّجال و أرحام النِّساء و هم الذين يخرجون الى الدُّنيا حتَّى يسألوا عن الميثاق.

و أمَّا قوله: غَيْرُ مُخَلَّقةٍ فهم كلَّ نسمةٍ لم يخلقهم الله تعالى في صلب آدم حين خلق الذَّرَّ و أخذ عليهم الميثاق و هم النُّطف من العزل و السَّقَط قبل أن ينفخ فيه الرُّوح و الحياة و البقاء إنتهى.

و عن قرب الأسناد للحميري بأسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: سألته أن يدعوا الله عزَّ وجلَّ لأمرأةٍ من أهلنا لها حملٌ فقال عليه السلام قال أبو جعفر عليه السلام الدعاء ما لم تمض أربعة أشهر فقلت له أنما لها أقلُّ من هذا فدعا لها ثمَّ قال أنَّ النُّطفة تكون في الرَّحم ثلاثين يوماً و يكون علقه ثلاثين يوماً و يكون مضغة ثلاثين يوماً و يكون مخلَّقة و غير مخلَّقة ثلاثين يوماً فإذا تمتَّ الأربعة أشهر بعث الله تبارك و تعالى إليها ملكين خلَّاقين يصوِّرانه و يكتبان رزقه و أجله و شقيّاً أو سعيداً إنتهى^(١).

أقول: و الذي يظهر لنا من الأخبار و الأقوال الواردة في الباب مضافاً الى الأدلة العقلية هو أنَّ التَّخْلِيق لا يصدق إلا بعد نفخ الرُّوح في المضغة ضرورة أنَّها قبله ليست إلا قطعة من اللحم و على هذا فالمخلَّقة هي الحيِّ المخلَّقة هي التي لم تلج الرُّوح فيه و بقي على كونه مضغة فهي تسقط لا محالة و أنما قلنا ذلك لأنَّ الخلق عبارة عن الإيجاد و إن شئت توضيح ذلك فنقول الخلق أصله التَّقْدِير المستقيم و هو على ضربين: إبداعيٌّ و غير إبداعيٍّ.

فالإبداع عبارة عن إبداع الشيء من غير أصل ولا إحتذاء كما قال تعالى:
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَي أَبْدَعَهُمَا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

والثاني: يقال لإيجاد الشيء من الشيء:

قال الله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ^(١).

قال الله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ^(٢).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ^(٣).

قال الله تعالى: وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ^(٤) وغيرها منها.

ثم أَنَّ الخلق الإبداعي ليس إلا لله تعالى ولهذا قال في الفصل بينه تعالى و
بين غيره: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٥) أي أفمن يخلق على سبيل
الإبداع وهو الله تعالى كمن لا يخلق كذلك ولا يقدر عليه إذا عرفت هذا فقد
علمت أَنَّ الخلق معناه الإيجاد سواء كان على سبيل الإبداع أم غيره من إيجاد
الشيء عن الشيء وإذا كان كذلك فالمخلقة عبارة عن الموجودة ولا تكون
موجودة إلا بفنخ الروح فيها و غير المخلقة عبارة عما لم يوجد وبقى على ما
كان عليه فتفسير المخلقة بتأم الخلقة و غيرها بناقص لا معنى له فإِنَّ الناقص
أيضاً مخلقة أي موجودة و على هذا فيصير معنى الكلام أَنَّ المضغة تارة تصير
إنساناً موجوداً في عالم الرحم و تارة لا تكون كذلك أي لا تصير موجوداً بل
تسقط قبل ذلك.

السادسة: قوله: لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ

مُسَمًّى قيل في معناه أي لنذلكم على مقدورنا بتصريفه في ضروب الخلق و
نصره الى وقت تمامه، فعلى هذا قوله، لنبيِّن لكم، متعلق بخلقناكم أي خلقناكم
كذلك لنذلكم على مقدورنا وهذا هو الذي إختاره الجمهور من المفسرين.

بَابُ
فِي الْقُرْآنِ
فِي تَعْلِيلِ
الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

١- النساء = ٢- النحل = ٤

٢- المؤمنون = ٤- الرحمن = ١٥

١- النساء = ٢- النحل = ٤

٢- المؤمنون = ٤- الرحمن = ١٥

١- النساء = ٢- النحل = ٤

و قيل أَنَّهُ متعلِّقٌ بالبعث أَي لنبيِّن لكم أمر البعث، و ردّه إِبْن عطيةَ بأنّه إعتراض بين الكلامين و قال الكرابيئي معناه، لنبيِّن لكم رشدكم و ضلالكم، و قيل لنبيِّن لكم أَنَّ التَّخْلِيْق هو إختيار من الفاعل المختار و لولاه ما صار بعضه غير مخلوق و غير ذلك من الأقوال و المختار هو القول الأوّل.

و على هذا فقوله: **و تُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى** مستأنف و لذلك رفع فمن قرأه بالنَّصْب عطفاً على، لنبيِّن، لا معنى له كما لا يخفى على المتأمل فهو أي قوله، و نقرّ في الأرحام أوّل الكلام و معناه و نثبت في الأرحام ما نشاء الى أجلٍ مسمّى أي مدّة مضروبة.

قال صاحب الكشّاف هو وقت الوضع و ما لم يشاء إقراره محبة الأرحام أو أسقطته و قال بعض المفسّرين أَنَّ القراءة بالنَّصْب تعليلٌ معطوف على تعليلٍ و المعنى خلقناكم مدرجين هذا التدرّج لغرضين: أحدهما: أَن نبيِّن قدرتنا.

الثاني: أَن نقرّ في الأرحام من نقر حتّى يولدوا و ينشؤوا و يبلغوا حدّ التَّكْلِيْف، فأكلّفهم و يعضده هذه القراءة قوله: **ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ** إنتهى. أقول: هذا أيضاً مردودٌ فإنّه من قبيل الأكل من القفا، و الآية لا تحتاج إلى هذه التَّكْلِفات.

السابعة: قوله: **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ**، يعني نخرجكم من بطون أمهاتكم بعد طَيِّ المراحل المذكور من النُّطفة و العلقة و المضغة و أنتم أطفال، و الطُّفْل بكسر الطاء الصَّغير من النَّاس و نصب طِفْلاً، على المصدر و هو في موضع جمع و قيل نصب على التَّمْيِيز و تقديره نخرجكم أطفالاً و قيل الطُّفْل قبل مقاربة البلوغ و قوله: **لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ**، يعني وقت كمال عقولكم و تمام خلقكم و قيل وقت الإحتلام و البلوغ.

قال الزَّمَخْشَرِي، الأشدُّ كمال القوّة و العقل و التَّمْيِيز و هو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد.

الثامنة: قوله: **وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** أي ومنكم من يتوفى قبل بلوغ الأشد قبل أن يبلغ أَرْدَلِ العمر ومنكم من يُرَدُّ إلى أَرْدَلِ العمر، قيل معناه أهونه وأخسّه عند أهله، وقيل أحقره وقيل هو حال الخرف، وأنما قيل أَرْدَلِ العمر لأن الإنسان لا يرجو بعده صحّة وقوّة وأنما يتّربق الموت والفناء بخلاف حال الطفولية والضّعف الذي يرجوا معها الكما والتّمام والقوّة فلذلك كان أَرْدَلِ العمر قاله في التّبيان.

قال الرّاغب في المفردات الرّذَلُ والرّذال المرغوب عنه لردائته قال تعالى: **وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ** إنتهى.

فعلى هذا معنى الكلام وانكم من يرّد الى حالة يرغب عنها كإنحناء القامة وقبح المنظر وتقل السّامعة وعدم القدرة في جميع الأعضاء، وقيل معناه أنّه يصير كما كان أوّل الطفوليّة ضعيف البنيّة سخيّف العقل قليل الفهم لا يقدر على القيام والعود بسهولة ولا زمان لذلك محدود بل ذلك بحسب ما يقع في النّاس وقد ترى من قارب المائة سنّاً أو بلغها وهو مع ذلك في غاية جودة الذّهن والإدراك مع قوّة ونشاط ونرى من هو في سنّ الإكّهال وقد ضعفت بنيته وقوله: **لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** لكيلا يتعلّق بقوله: **يُرَدُّ أَي يُرَدُّ** الى أَرْدَلِ العمر لكيلا يعقل من عقله الأوّل شيئاً. وقيل لكيلا يستفيد علماً وينسى ما علمه.

وقال الرّازي المراد أنّه يزول عقله فيصير كأنّه لا يعلم شيئاً لأنّ مثل ذلك قد يذكر.

في النّفي لأجل المبالغة إنتهى.

أقول: الذي يخطر بالبال في معنى الكلام هو أنّ السّهو والنسيان والخطأ في الكلام، وأمثال ذلك من العوارض تغلب عليه وهذا معنى قوله: **لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** أي يعلم ثمّ ينسى كأنّه لم يعلم فإذا قيل له مثلاً: أنّك

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

قلت كذا وكذا يقول ما قلت ذلك و يحتمل أن يكون المراد أنه يصير جاهلاً بعد كونه و قد رأينا بعض العلماء في أواخر عمره أنه إعترف بأنه لا يعلم شيئاً أعاذنا الله منه.

و لكن حمل الآية على هذا المعنى بعيدٌ إذ قلماً يتفق ذلك.

و أما المعنى الأول و هو غلبة النسيان فليس كذلك.

التاسعة: قوله: **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** أعلم إن هذا أعني قوله: **وَتَرَى الْأَرْضَ** الخ.

هو الدليل الثاني الذي تضمنه الآية على صحة البعث فكأنه سبحانه و

تعالى أثبت البعث بدليلين:

أحدهما: من طريق الحيوان و تطوراته في الخلقة و قد مرّ الكلام فيه.

ثانيهما: من طريق الأرض و ما ينبت فيها، و لما كان الدليل الأول بعض مراتب الخلقة فيه غير مرئيين قال تعالى: **إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ كَذَا وَكَذَا فَلَمْ يَحِلْ فِي جَمِيعِ مَرَاتِبِهِ عَلَى الرُّوْيَةِ.**

و أما الدليل الثاني فلما كان مشاهداً للإبصار لأن الأرض و ما ينبت فيها من المحسوسات أحوال ذلك على الرُّوْيَةِ، فقال في الأول، **خَلَقْنَاكُمْ**، و في الثاني و ترى الأرض أي أن لا تقدر على التّعقل في خلقه الحيوان من نشأته و تطوراته فأنظر الى الأرض فأنها محسوسة و هي لا تقبل الإنكار إذا عرفت هذا فنقول قوله: **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً**، أي دراسة دائرة يابسة يقال همد يهمد هموداً إذا درسه و دثرته و يعبر عنها بالأرض الميتة التي لا حياة لها، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت أي تحرّكت في الجهات بشدة، و ربت، أي تزيد بما يخرج منها من النبات، و أنتبت، يعني الأرض، من كلّ زوج بهيج، أي حسن الصورة الذي يتمتع في الرُّوْيَةِ ولنعم ما قيل.

تَفَكَّر في نبات الأرض و أنظر
الى آثار ما صنع الملك
ففي رأس الزَّبرجد شاهداتُ
بأنَّ الله ليس له شريكُ

و لأجل ذلك قال تعالى و ترى الأرض أيها السَّامع أو المجادل في البعث
هامدة أي ميتة لا نبات فيها فإذا أنزلنا عليها الماء أي ماء المطر و الأنهار و
العيون، إهتزت أي تخلخلت و اضطربت لأجل خروج النِّبات و ربت أي
زادت و إنتفخت و أنبتت من كلِّ زوج بهيج و حاصل الكلام أنَّ الَّذي ذكرنا من
خلق بني آدم و تطوَّره في تلك المراتب و من إحياء الأرض عبدة لمن إعتبر
به و دليل على أنَّه تعالى هو القادر على إحياء الموتى و على كلِّ مقدورٍ و قد
وعد بالبعث و هو قادرٌ عليه لأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير هذا تمام الكلام في الآية.
إن قلت: كيف تكون الآية دالة على البعث و هو إحياء الموتى و ليس فيما
ذكره في الآية دليلٌ عليه ظاهرًا.

قلت: صيرورة الغذاء الحاصل من التُّراب نطفة و النُّطفة علقة و العلقة مضغة
هي بعينها الإمامة و الإحياء لأنَّ النُّطفة مثلاً ما دام كونها نطفة لا تصير علقة و
بعبارة أخرى صيرورة النُّطفة علقة معناها موت النُّطفة و إحياء العلقة فحياة
العلقه تتوقف على فوت النُّطفة كما أنَّ حياة المضغة بعد موت العلقه و هكذا
و من المعلوم أنَّ المحيي و المميت في جميع المراتب هو الله تعالى و هكذا
الكلام في الأرض و محصل الكلام هو أنَّ البعث عبارة عن الإحياء بعد الموت و
هذا سارٍ في جميع مراتب الإنسان و الأرض فإذا كان كذلك فلا مجال للعاقل إنكار
البعث يعني الإحياء بعد الإمامة بعد التأمّل في الآية و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

از جمادی مردم و نامی شدم از نما مردم ز حیوان سر زدم
مردم از حیوانی و آدم شدم پس چه ترسم کی ز مردن کم شدم
بار دیگر من بمیرم از بشر چون ملائک من در آرم بال و پر
بار دیگر از ملک پیران شوم آنچه آندر وهم ناید آن شوم
پس عدم چون ارغنون گویدم آنا الیه راجعون

بل الإنسان في كل لحظة يموت ويحيى كما هو شأن الحارث فأن الحارث لا يبقى على حالة واحدة في زمانين وللبحث فيه مقام آخر وسيأتي تفصيل الكلام في البعث والمعاد في المستقبل إن شاء الله.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
أَيُّ أَنَّ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ تَطَوُّرَاتِ الْإِنْسَانِ فِي عَالَمِ الرَّحْمِ وَ
إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِسَبَبِ الْمَاءِ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْحَقِيقَ بِالْعِبَادَةِ وَ
أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَمَّا أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْحَقُّ لِأَنَّ الْحَقَّ يَقَالُ لِلْمَوْجُودِ الَّذِي لَا
سَبِيلَ لِلْبَطْلَانِ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ الْحَقُّ يَقَالُ لِمَوْجِدِ الشَّيْءِ بِسَبَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ
تَعَالَى حَقٌّ لِأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْعِبَادَةِ وَحَقٌّ لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْبَطْلَانِ إِلَيْهِ، وَحَقٌّ لِأَنَّهُ
الْمَوْجُودُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ، وَحَقٌّ لِأَنَّهُ مَوْجِدُ الْأَشْيَاءِ بِسَبَبِ مَا تَقْتَضِيهِ
الْحِكْمَةُ بَلِ الْحَقُّ الْمَطْلُوقُ لَيْسَ إِلَّا هُوَ وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ عَاطِلٌ.

إِلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ
وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هُنَالِكَ أَوْلَايَةٌ لِلَّهِ الْحَقِّ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
أَبْطِلٌ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ^(٥) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

٢- الكهف = ٢٤

٤- الحج = ٦٢

١- يونس = ٣٢

٣- طه = ١١٤

٥- التور = ٢٥

فإذا كان الله تعالى هو الحقّ بقولٍ مطلقٍ فقلوه و فعله أيضاً حقّ لأنّ الحقّ لا يقول ولا يفعل إلّا حقّاً:

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**^(١).

قال الله تعالى: **وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**^(٢).

قال الله تعالى: **مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**^(٣).

وأما أنّه يحيي الموتى، فهو مورد البحث و يدلّ عليه عموم قدرته كما قال أنّه على كلّ شيء قدير، فكأنّه تعالى أثبت إحياء الموتى بعموم قدرته و كيفية الإستدلال أنّه أمّا يقدر على إحياء الموتى أو لا يقدر فإن كان قادراً على إحياء الموتى فهو المطلوب و إن لم يقدر فأمّا أن يكون عدم القدرة مسبباً عن ضعفه و عجزه فالضعيف و العاجز لا يكون موجداً و خالفاً و مع ذلك هو مخالف لعموم قدرته و قد ثبت عقلاً و نقلاً.

و أمّا أن يكون عدم القدرة مستنداً بوجود المانع و في هذه الصورة أمّا أن يقدر على دفع المانع و رفعه أو لا يقدر فإن لم يقدر فيعود الضعف والعجز خلاف الفرض فثبت أنّه تعالى قادرٌ على إحياء الموتى كما أنّه قادرٌ على إيجادهم فإنّ الإحياء ليس بأصعب من الإيجاد أولاً بل هو أسهل منه لأنّ الإيجاد على سبيل الإبداع أي أنّه أوجد الأشياء لا من مادّة و الإحياء هو الإيجاد ثانياً من مادّة، و ذلك لأنّ المادّة الأصليّة باقية في الموتى و لأجل ذلك.

إلى القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ
المراد بالسّاعة القيامة، بعد ما ثبت عموم القدرة بقوله: **وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** قال و أنّ السّاعة آتية، كما هو مقتضى عموم قدرته و أمّا قوله: **لَا**

رَيْبٌ فِيهَا فَالرَّيْبُ هُوَ أَقْبَحُ الشَّكِّ أَيْ أَنَّ الشَّكَّ فِي السَّاعَةِ لِلْعَاقِلِ قَبِيحٌ.
 أَنْ قُلْتُ كَيْفَ نَفَى الرَّيْبَ عَنِ السَّاعَةِ وَ قَدْ أَنْكَرَهَا أَكْثَرُ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.
 قُلْتُ نَفَى الرَّيْبَ عَنْهَا فِي الْوَاقِعِ وَنَفَسُ الْأَمْرِ أَيْ لَا رَيْبَ فِيهَا وَاقِعًا وَ أَنْ
 أَنْكَرَهُ ظَاهِرًا لِأَنَّ إِنْكَارَ الشَّيْءِ ظَاهِرًا لَا يَنَافِي ثُبُوتَهُ وَاقِعًا وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْكَارَ قَدْ
 يَكُونُ مُسْتَنْدَأً إِلَى عَدَمِ التَّأَمُّلِ وَ التَّقْدِيرِ وَ قَدْ يَكُونُ مُسْتَنْدَأً إِلَى الْجَهْلِ يَكُونُ
 مُسْتَنْدَأً إِلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الدَّوَاعِي كَالْعِنَادِ وَ الْكُفْرِ وَ الْبَغْيِ وَ حُبِّ الدُّنْيَا وَ
 زَخَارِفِهَا أَلَا تَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَ مَعَ ذَلِكَ يَنْكُرُونَهُ ظَاهِرًا،
 قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَا وَ اللَّهُ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا إِبْنُ أَبِي قَحَافَةَ وَ أَنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ
 مُحَلِّيَ مِنْهَا مُحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَ لَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ الْخ.
 وَ قَدْ أَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِيهِ فِي شَرْحِنَا عَلَى نَهْجِ الْبَلَاغَةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَ
 هَكَذَا كَانَ عَمْرُ وَ عُثْمَانُ وَ مَعَاوِيَةُ وَ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ خَالَفُوهُ وَ غَضِبُوا حَقَّهُ وَ هَذَا
 أَوَّلُ قَارُورَةٍ كَسَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ وَ نَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَ زَمَانٍ وَ لَا يَحْتَاجُ
 ذَلِكَ الْإِتْبَاتَ لَوْضُوحِهِ عَلَى مَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ وَ يَكْفِيكَ فِي هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى
 حَيْثُ قَالَ:

الَّذِينَ آمَنَّا هُمْ أَلْكَتَابُ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
 لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الَّذِينَ آمَنَّا هُمْ أَلْكَتَابُ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمْ
 الْكَافِرُونَ^(٣).

وَ أَمَّا قَوْلُهُ: وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ وَ هُوَ مِنْ تَمَّةِ الْكَلَامِ وَ
 تَخْصِصِ الْبَعْثِ بَمَنْ فِي الْقُبُورِ، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْبَعْثَ مُخْتَصٌّ

بالإنسان لأنه يجعل بعد الموت في القبر و يدفن فيه و أما غيره من الحيوانات فلا يدفن في القبر، و يحتمل أن يكون الوجه فيه هو أن البحث في بعث الإنسان في هذا المقام و من المعلوم أن إثبات الشيء لا ينافي إثباته فيما عداه و ستكلم في هذا الباب فيما يأتي عند قوله تعالى و إذا الوحوش حشرت.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ
إِعلم أن هذه الآية قد مرّت سابقاً في أوائل السّورة إلا أنه تعالى قال هناك و يتّبع كلّ شيطانٍ مريد، و قال هاهنا و لا هدى و لا كتابٍ منير، و المقصود في كليهما هو الذّم للمجادل بغير علم و أما الجدل مع العلم فلا ذّم فيه بدلالة المفهوم و أن الجدل بالعلم يدعو إلى اعتقاد الحقّ و إليه الإشارة بقوله تعالى: وَ جَادِلْهُمْ بَالْتِ هِيَ أَحْسَنُ^(١).

أن بعض المفسّرين فرّق بينهما بأن الآية الأولى واردة في إتباع المقلّدين و هذه الآية وردت في المتبوعين المقلّدين فأَنَّ كلا المجادلين جادل بغير علم و إن كان أحدهما تبعاً و الآخر متبوعاً و بيّن ذلك قوله: وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ فَأَنَّ مثل ذلك لا يقال للمقلّد و أنما يقال فيمن يخاصم بناءً على شبهةٍ إنتهى.

و قال بعضهم في الفرق أن الأولى نزلت في النّضر بن الحرث و هذه الآية في أبي جهل، و قيل فائدة التّكرير المبالغة في الذّم عن الجدل بغير علم، و قوله: وَ لَا هُدًى، أي و لا حجة، و لا كتابٍ منير، أي و لا حجة كتابٍ ظاهر هكذا قيل في تفسير الكلام و لا مشاحة فيه فأَنَّ المعنى واضح لا خفاء فيه.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ

ثاني عطفه نصب على الحال يعني أَنَّ المجادل بغير علمٍ يثني عطفه أي يلوي عنقه كبراً.

قيل إنها نزلت في النَّضْر بن الحارث بن كلدة وقوله: **لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** معناه أَنَّهُ يجادل لأجل الإضلال عن طريق الحقِّ المؤدِّي إلى توحيد الله ثُمَّ أشار الله تعالى إلى عقابه فقال، له خزيٌّ في الدُّنيا قيل المراد بالخزي ما لحقه يوم بدر من الأسر والقتل والهزيمة وقد أسر النَّضْر فيه وقوله ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق أي العذاب الَّذي يحرق بالنَّار وقيل الحريق طبقة من طباق جهنَّم، وقد يكون من إضافة الموصوف إلى صفته أي العذاب الحريق أي المحرق كالسَّميع بمعنى المسمع وهو كما ترى.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ

أي يقول الله عند نُزول العذاب به، ذلك، أي ذلك العذاب بسبب ما قَدَّمْتَ يداك وَأَنَّ الله ليس بظَلَّامٍ للعبيد، أي ما ظلمناك و لكنَّكَ ظلمت نفسك وعدوت طورك وحَّدكَ.



وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ
بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ
مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)

◀ اللغة

الْعَشِيرُ: الصَّاحِبُ الْمَخَالِطُ وَالْمَعَاشِرُ وَقِيلَ الْمَرَادُ بِهِ ابْنُ الْعَمِّ.
يَغِيْظُ: الْغَيْظُ الْغَضَبُ.

الْصَّابِئِينَ: قَوْمٌ كَانُوا عَلَى دِينِ نُوْحٍ، وَقِيلَ لِكُلِّ خَارِجٍ مِنَ الدِّينِ إِلَى دِينٍ
آخَرَ صَابِئِيٍّ مِنْ قَوْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ صَبَأُ نَابِ الْبَعِيرِ إِذَا طَلَعَ.
مَقَامِعٌ: جَمْعُ مَقْمَعَةٍ وَهِيَ مَدَقَةُ الرَّأْسِ وَبَاقِي اللُّغَاتُ وَاضِحٌ.

◀ الإعراب

عَلَى حَرْفٍ هُوَ حَالُ أَيِّ مُضْطَرَباً مَتَرَلِزاً خَسِرَ الدُّنْيَا هُوَ أَيْضاً حَالُ أَيِّ
إِنْقَلَبَ قَدْ خَسِرَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفاً وَ يَقْرَأُ خَاسِرَ الدُّنْيَا مَنْ كَانَ هُوَ شَرْطُ وَ
الْجَوَابُ فَلْيَمْدَدْ يُصَبُّ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خَبِراً ثَانِياً وَ أَنْ تَكُونَ
حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي، لَهُمْ، وَ يُصْهِرُ بِالْتَّخْفِيفِ وَ قَرِئَ بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّكْثِيرِ وَ الْجُمْلَةُ
حَالٌ مِنَ الْحَمِيمِ كُلَّمَا الْعَامِلُ فِيهَا، أُعِيدُوا مِنْ غَمٍّ بَدَلَ بِإِعَادَةِ الْخَافِضِ بَدَلَ
الِإِشْتِمَالِ وَ ذُوقُوا أَيِّ وَقِيلَ لَهُمْ فَحَذَفَ الْقَوْلُ.

◀ التفسير

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ
إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ

كلمة، من، للتَّبَعِضُ أي بعض النَّاسِ كذلك و قوله من يعبد الله على حرفٍ، إختلفوا في معناه ف قيل هو المنافق يعبد بلسانه دون قلبه.
و قال ابن عيسى على ضعف يقين، و قال أبو عبيد على شك و قال ابن عطية على حرفٍ، أي على إنحرافٍ منه عن العقيدة البيضاء.
و قال الزَّمخشرى على حرفٍ، أي على طرفٍ من الدين لا في وسطه و قلبه و هذا مثل لكونهم على قلقٍ و اضطرابٍ في دينهم لا على سكونٍ و طمأنينةٍ كالذي يكون على طرفٍ من العسكر فأن أحسَّ بظفرٍ و غنيمة، قرَّ و إطمأن و إلاَّ فرَّ و طار على وجهه إنتهى.

أقول: ما ذكروه لا بأس به لأنهم فهموا من الكلام بقدر إستعدادهم و الحق أنه أي كلمة الحرف كناية عن عدم المعرفة أي أنهم يعبدونه و لا يعرفونه، فأن أصابه خيرٌ إطمأن به، أي يصير مطمئناً و أن أصابته فتنة أي محنة بضيق المعيشة و تَعَذَّرَ المراد من أمور الدنيا إنقلب على وجهه خسر الدنيا و الآخرة و ذلك أي خسرانها معاً هو الخسران المبين الذي لا خفاء فيه.
إن قلت: كيف يدل هذا على أنه يعبد الله على حرفٍ.

قلت: لأنه لو كان عارفاً بالله كان راضياً بقضائه و قدره و إذ ليس فليس كان كذلك فهو يعبد الله على حرفٍ أي لا يدري من يعبد واقعاً و لذلك.

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ
قيل المراد بقوله من دون الله، الأصنام و الأوثان لأنها جماد لا تُصَرُّ و لا تنفع.

إن قلت: كيف يقال لا يضره و لا ينفعه مع أنَّ الضرر ثابت قطعاً.
قلت: معناه لا يضره ترك عبادته و لا ينفعه فعل العبادة أي أنَّ الأوثان و الأصنام لا تقدر على الإضرار و النَّفْعُ لأنها جماد و ما كان كذلك فهو لا يستحق العبادة.

يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبُئْسَ الْمَوْلَى وَلِبُئْسَ الْعَشِيرُ
قال الزمخشري فأن قلت، الضرر والنفع متغايران عن الأصنام مثبتان لها في
الآيتين وهذا تناقض.

قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سَفَّه الكافر
بأنه يعبد الجماد وهو لا يملك نفعاً ولا ضرراً وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه
يستنفع به حين يستشفع به ثم قال يو ما لقيامه هذا الكافر بدعاء و صراخ حين
يرى إستضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي
إدعاهلها، لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير، أو كرّر يدعو
كأنه قال يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال لمن ضره، بكونه
معبوداً له أقرب من نفعه بكونه شافعياً لبئس المولى وفي حرف عبد الله من
ضره بغير لام، المولى الناصر والعشير الصاحب كقوله فبئس القرين إنتهى
كلامه بألفاظه وعباراته.

أقول: يظهر من كلامه أنه جعل المدعو في الآيتين الأصنام وأزال التعارض
بإختلاف القائلين بالجملة الأولى من قول الله تعالى إخباراً عن الأصنام و
الجملة الثانية من كلام عبّاد الأصنام يقولون ذلك في الآخرة وحكى الله عنهم
ذلك وأنهم أثبتوا ضرراً بكونهم عبدوه وأثبتوا نفعاً بكونهم إعتقدوه شافعياً
فالتأني هناك غير المثبت فزال التعارض على زعمه، والذي نقول أن الصنم
ليس له نفع أصلاً حتّى يقال ضره أقرب من نفعه فما ذكره في الجواب لا يرجع
إلى محصل الحق في الجواب.

أنه لا تعارض في الآيتين أصلاً حتّى نحتاج إلى الجواب وذلك لتغاير
الموضوعين في الآيتين ألم يعلم الزمخشري أن التناقض لا يتحقق إلا في
موضوع واحد وأما إذا كان التأني في الحكم في موضوعين فلا يصدق
التناقض كما يقال زيد قائم وعمر وليس بقائم فالحكمان أعني القيام وعدمه

متناقضان في الواقع إلا أن في الكلام لا يتحقق التناقض لإختلاف الموضوع فأَنَّ الموضوع في الحكم بالقيام هو زيد و في عدم القيام هو عمر و فلا تناقض أصلاً نعم يتحقق التناقض إذا قلنا زيدٌ قائمٌ و ليس بقائمٌ و إلى هذا المعنى أشار علماء المنطق و الفلسفة في المتناقضين و إتفقوا عليه و لم يختلف فيه أحد و شروط التناقض ثمانية منها وحدة الموضوع و هى أصلها و أساسها و بعدها وحدة المحمول و بعدها وحدة المكان و هكذا فإذا قلنا زيدٌ قائمٌ و زيدٌ ليس بنائم ليس من التناقض لإختلاف المحمول و إن قلنا زيدٌ قائمٌ في الدار و زيدٌ ليس بقائم في السوق ليس من التناقض لإختلاف المكان و هكذا بقيّة الشروط و ينبغي للزّمخشري أن لا يذكر الإشكال حتّى يحتاج إلى الجواب و ذلك لأنّه من علماء الأدب و المعاني و البيان و قوله فيها حجةٌ و ليس من علماء المنطق و الفلسفة بل هو أجنبى عن علوم العقلية بالكلية و ما أقبح للمرء أن يدخل فيما لا علم له به إذا عرفت هذا فنقول:

لا تناقض أصلاً و ذلك لأنّ الموضوع في إحديهما غيره في الأخرى فلا يصدق التناقض و توضيحه أنّ الحكم في الآية و هى قوله: **يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ** ثابت لغير ذوي العقول أعني به الأصنام و الأوثان فحكم الله تعالى في الآية بأنها لا تضرّ و لا تنفع بل وجودها كالعدم لأنها لا تقدر على إيصال النفع و الضر إلى من عبدها لكونها جماداً لا قدرة لها و هو واضحٌ و هذا بخلاف الآية الثانية و هى قوله، يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه فأَنَّ الحكم ثابت لذوي العقول و من المعلوم أنّ المعبود إذا كان من ذوي العقول مثل فرعون و نمرود و غيرهما فقد يتّصور لعبادتهم و أخذهم من المعبودين نفعٌ ما في الدنيا من الدرهم و الدينار و المقام و أمثالها من الحطام الدنيوية إلا أنّ هذا النفع القليل الحقير لا يعبأ به في جنب الضرر الكثير في الدارين لأنّ متاع الدنيا قليل و مع ذلك في معرض الفناء بخلاف الضرر

المترتب على عبادتهم فأنه يوجب الخلود في نار جهنم والعاقلة لا يختار القليل الفاني على الدائم الباقي وهذا معنى ضره أقرب من نفعه وإنما قلنا ذلك، لأن كلمة (ما) تستعمل لغير ذوي العقول، وكلمة، (من) تستعمل لذوي العقول وملخص الكلام أن الذي إتخذوه معبوداً لا يخلو من قسمين: قسم من غير ذوي العقول كالأصنام والأوثان.

وقسم من ذوي العقول كالإنسان، أما الأول فلا يضّر ولا ينفع أصلاً واضح، وأما الثاني وأن كان له نفع ما في الدنيا إلا هذا النفع في مقابل الضرر الكثير ليس بشيء لأن عبادة المخلوق لمخلوق آخر مثله توجب خسران الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ومعنى كونه أقرب أي أقرب إلى الإنحطاط والسقوط من مقام الإنسانية هذا ما فهمناه من الآيتين والله أعلم ولعل الله تعالى أشار بذلك حيث قال في الآية **لَيْسَ الْمَوْلَى وَ لَيْسَ الْعَشِيرُ** أي الصاحب أي ما إتخذوه معبوداً من الإنس وزعموا أنه مولاهم وصاحبهم ليس كذلك فإنه بشس المولى وبشس الصاحب لهم، ولم يذكر ذلك في الآية الأولى إذ لا يصدق على الصنم والوثن وغيرهما من الجمادات المولى والصاحب فتأمل في المقام لعلك تفهم من كلام الله غير ما ذكرناه وفهمناه.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

أي أن الله تعالى يدخل الجنة من آمن به وعمل صالحاً وفيه إشارة إلى أن مجرد الاعتقاد لا يكفي بل لا بد معه من العمل بالإيمان لا يتحقق بدون العمل كما هو الحق عندنا تبعاً لأهل البيت عليهم السلام وخلافاً للجامعة القائلين بأن الإيمان الذي يوجب الدخول إلى الجنة هو الاعتقاد فقط والدليل على صحة ما ذكرناه وإخترناه هو أن الآثار تترتب على الوجود الخارجي لا الذهني والإعتقاد بدون العمل لا وجود له في الخارج فلا أثر له أصلاً، هذا وأما قوله: **إِنَّ**

اللَّهُ يَقَعْلُ مَا يُرِيدُ معناه أَنَّهُ تعالى فعَّال لما يشاء و لا يقدر أحد على منعه عما أراد و هو كذلك و لا خلاف فيه.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ

إختلف المفسرون في مرجع الضمير من (ينصره الله) على أقوال: أحدها: أَنَّ مرجعه النبي ﷺ والمعنى من كان يظنُّ أَنَّ الله لا ينصر نبيّه يعينه على عدوّه و يظهر دينه فليمت غيظاً.

ثانيها: أَنَّهُ يرجع الى (مَنْ) في قوله: مَنْ كَانَ يَظُنُّ، وعليه فالمعنى أَنَّ مَنْ ظنَّ أَنَّ لا ينصره الله، أي لا يرزقه الله قاله ابن عباس.

الثالث: أَنَّهُ عائد على الدين و الإسلام، و، ما، في ما يغيب بمعنى الذي و العائد محذوف، أو مصدرية فهذه هي الأقوال في الآية و أحسن الأقوال أوسطها و هو أَنَّهُ عائد على، مَنْ، و ذلك لأنَّ النبي و الدين و الإسلام لم يذكر فيما تقدّم حتّى يصحّ عود الضمير إليه و المذكور هو، مَنْ، فعود الضمير إليه أولى من عوده إلى غير المذكور و علي هذا فالمعنى من كان يظنُّ أَنَّ لَنْ ينصره الله في الدنيا و الآخرة فيغتاز لانتفاء نصره فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع الحبل فلينظر هل يذهب كيده، ما يغيب، قيل المراد بالسماء سقف البيت، و السبب الحب، و قيل السماء سماء الدنيا و السبب الوحي إلى النبي، ثم ليقطع الوحي عن النبي و المعنى من ظنَّ أَنَّ لا يرزقه الله على وجه السخط لما أعطى فليمدد بحبل إلى سماء بيته واصفاً له في حلقه و على طريق كيد نفسه ليذهب غيظه به و هذا مثل ضرب به الله لهذا الجاهل و المعنى مثله مثل من فعل بنفسه هذا فما كان إلّا زائداً في بلاءه.

و قال الزمخشري و المعنى أَنَّ الله ناصر رسوله في الدنيا و الآخرة فمن كان يظنُّ من حاسديه و أعاديهِ أَنَّ الله يفعل خلاف ذلك و يطمع فيه و يغيبه أَنَّهُ

يظفر بمطلوبه فليقتص وسعه و ليتفرع مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدَّ حبلاً إلى سماء بيته فإختنق فليظنوا و يَصُور في نفسه أنه أن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه و ساق الكلام إلى أن قال و قيل فليمدد بحبلٍ إلى السماء المظلة و ليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه إنتهى.

أقول: و قد أكثروا الكلام حول الآية في تفاسيرهم و الذي نفهم من الآية شيء آخر و هو أن الله تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فقد ينصر و قد لا ينصر فإن إقتضت المصلحة ينصر و إلا فلا فليس فعل الله موافقاً لميل العبد في جميع الموارد و تابعاً له فمن يفتاظ في صورة عدم نصره الله إياه أو يظن أن لن ينصره الله و يفتاظ لذلك فليمدد بسببٍ إلى السماء ثم ليقطع السبب أي يختنق فليظن هل يذهب كيده ما يغيظ أي فليظن أن هذا الفعل هل يذهب غيظه و المقصود أنه باقٍ على غيظه فعل ذلك أو لا يفعل هذا على المختار من أن مرجع الضمير هو المذكور أعني به، من، و أما على مسلك القوم من رجوعه إلى النبي فالمعنى ما ذكره كما إختاره صاحب الكشف.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ

الظاهر أن الضمير في أنزلناه، عائد على القرآن و هذا ممّا لا خلاف فيه فإن إزال الأيات في القرآن و البينات الواضحات و قوله و أن الله يهدي من يريد، معناه واضح فإن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً هياً له أسبابه لأنه على كل شيء قدير.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

الفصل هو التمييز بين الحقّ والباطل وإظهار أحدهما من الآخر والمعنى أنّ الله يفصل بين الخصوم في الدّين يوم القيامة والمراد بقوله، هادوا، اليهود، وبالصّابئين، عبدة الكواكب، وقيل المراد بهم من كان على دين نوح، و بالتّصارى أتباع عيسى وبالمجوس قتل عبدة الشّمس أو النّار.

وأما الذين أشركوا فهم جميع المشركين وقوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** أي أنّه تعالى عالمٌ بما من شأنه أن يشهد فأنت تعلمه قبل أن يكون لأنّه علام الغيوب وأما يفصل بينهم يوم القيامة، لأنّ القيامة يوم الفصل:

قال الله تعالى: **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** (١).

قال الله تعالى: **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ** (٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا** (٣).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

السّجود أصله التّطامن والتّذلّل وجعل ذلك عبارة عن التّذلّل لله وعبادته وهو عامٌ في الإنسان والحيوان والجماد قاله الرّاغب في المفردات ثمّ أنّ السّجود على ضربين، سجودٌ بإختيار، وسجودٌ بغير إختيار وقد يعبر عنه بالتّسخير.

أما الأول: وهو السّجود باختيار فهو ليس إلّا للإنسان وبه يستحق الثّواب.

الثّاني: وهو السّجود بالتّسخير فلا يختصّ بالإنسان بل يكون للحيوان والنّبات أيضاً وعلى ذلك:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا^(١)**.

و هو سجود تسخير و هو الدلالة الثابتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة و أنها خلق فاعل حكيم:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ^(٢)**.

ينطوي على النوعين من السجود بالإختيار و التسخير و أمّا قوله: **وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ^(٣)** فذلك على سبيل التسخير، إذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ** يشمل كلا القسمين من التسخير و الإختيار و ذلك لأنَّ سجود الإنسان بالإختيار و سجود الشمس و القمر و الجبال و الدواب سجود تسخير، المعلوم أنَّ سجود كل شيء بحسبه و أن شئت قلت سجود الإنسان سجود تشريع و سجود الشمس و القمر و الجبال و غيرها سجود تكوين، فأنها تقول بلسان التكوين.

ما سميع و بصير و خوشيم با شما نامحرمان ما ناخوشيم و حاصل الكلام في الآية أنَّ المخلوق كائناً ما كان خاضعٌ مُتَذَلِّلٌ لخالقه تكويناً و يدخل فيه الإنسان أيضاً علم به أو لا يعلم لأنه معلول و المعلوم رشح من رشحات وجود العلة و لا قوام له بذاته و أنما قائمٌ بغيره فكيف يعقل أن لا يكون خاضعاً لمن يقوم به و هذا بلسان التكوين ممّا لا كلام و أنما الكلام في الإنسان الذي هو أشرف الموجودات و أنه كيف لا يتذلل لربه و خالقه تشريعاً و حيث أنَّ الثواب متوقف على السجود التشريعي الذي يصدر عن فاعله

إختياراً فقال تعالى ما قال في هذه الآية و غيرها مشعراً بأنَّ الله لا يحتاج إلى هذا السَّجود من الإنسان لأنَّه غَنِيٌّ بذاته عن كلِّ شيءٍ فلا تنفعه طاعة من أطاعه كما لا تُضرُّه معصية من عصاه إلاَّ أنَّه تعالى أوجبه عليه لأجل أن يثاب عليه فهو لَطِيفٌ منه تعالى في حقِّ عباده و من كفر فأَنَّ الله غَنِيٌّ عن العالمين فقلوه و كثيرٌ من النَّاسِ، معطوف على من في السَّمَوَاتِ و الأرضِ إلى قوله و الدَّوَابُّ أي أنَّ الله يسجد له من في السَّمَوَاتِ و من في الأرضِ و الشَّمْسُ و القمر و كثيرٌ من النَّاسِ أية أنَّهم يسجدون معها، ثمَّ و كثيرٌ حقٌّ عليه العذاب، و هو الَّذي لا يسجد ولذلك حقٌّ عليه العذاب.

قال بعض المفسرين قوله: مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ كان ظاهره العموم فالمراد به الخصوص إذا حملنا السَّجود على العبادة و الخضوع لأنَّا علمنا أنَّ كثيراً من الخلق كافرون به فلذلك قال و كثيرٌ من النَّاسِ حقٌّ عليه العذاب، إرتفع كثير بفعلٍ مقدَّر كأنَّه قال و كثيرٌ أبى السَّجود فحقٌّ عليه العذاب إنتهى ما ذكره.

و أنا أقول: ما ذكرناه من حمل الآية على العموم أولى إذ لا دليل على حمل السَّجود على العبادة و الخضوع فأَنَّ السَّجود و القمر و النُّجُوم و الدَّوَابُّ ليس من هذا القبيل بل الحقُّ أن يحمل السَّجود على معناه العامِّ الشَّامِل للعبادة كما يشعر به صدر الآية و أما قوله: مَنْ يُهِنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ فَقيل في معناه أي من يهينه الله بالشَّقْوَة بإدخاله جهنَّم فما له من مكريمٍ، بالسَّعادة بإدخاله الجنة لأنَّه الَّذي يملك العقوبة و المثوبة.

و قال الزَّمَخْشَرِي و من أهانه الله كتب عليه الشَّقَاوَة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه فقد بقى مهاناً لَن يجد به مكرماً أنَّه يفعل ما يشاء من الإكرام و الإهانة و لا يشاء من ذلك إلاَّ ما يقتضيه عمل العاملين و إعتقاد المعتقدين إنتهى.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، يعني يكرم من يشاء ويهين من يشاء إذا استحق ذلك فإنه تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فهو كناية عن عموم القدرة وتعليل لما تقدم من إثبات العذاب للمستكبرين عن السجود وإهانتهم إهانة لا إكرام بعده فالمعنى والله أعلم أن جميع الموجودات العلوية والسفلية يخضعون ويتذللون له تكويناً وأما تشريعاً فالناس على صنفين، صنف يسجدون وصنف لا يسجدون وهؤلاء أي من لا يسجد تشريعاً حق عليه العذاب وأهانه الله إهانة لا إكرام بعده والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ

اختلفوا في المشار إليه بقوله: هَذَانِ فقال قوم يعني الفريقين من المؤمنين والكفار يوم بدر وهم حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن أبي ربيعة وعلي بن أبي طالب عليهما السلام قتل الوليد بن عتبة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب قتل شيبة بن ربيعة، وقيل هم أهل الكتاب وأهل القرآن، وقيل هم المؤمنون والكافرون إختصموا في ربهم لأن المؤمنين قالوا بتوحيد الله وأنه لا يستحق العبادة والكفار أشركوا معه غيره وأما قال إختصموا بصيغة الجمع لأن الخصم مصدر وأريد به هنا الفريق فلذلك جاء إختصموا مراعاةً للمعنى إذ تحت كل خصم أفراد، وقيل أراد بالخصمين القبيلتين وخصومهم ثم قال تعالى: فَالَّذِينَ كَفَرُوا يعني بالله.

قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ قِيلَ معناه أن النار تحيط بهم كإحاطة الثياب التي يلبسونها وقرأ الزعفراني في إختياره قطعت بتخفيف الطاء كأنه تعالى يقدر لهم ميزاناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الملابس، سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس شيء إذا حمى أشد حرارة منه فالتقدير من نحاس محمى بالنار.

يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ أَيِ الْمَاءِ الْمَغْلَى يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ الصَّهَرُ الإذابة والمعنى يذاب بالحميم الذي يَصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ مَا فِي بُطُونِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فَقَطَّعْ أَمْعَانَهُمْ، وَقَوْلُهُ: أَلْجُلُودُ فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى، مَا، فِي قَوْلِهِ: يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَأَنَّ الْجُلُودَ تَذَابُ كَمَا تَذَابُ الْأَحْشَاءُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ فَالْمَقَامِعُ جَمْعُ مَقْمَعَةٍ مَدَقَّةُ الرَّأْسِ يُقَالُ قَمَعَهُ قَمْعًا إِذَا رَدَعَهُ عَنِ الْأَمْرِ.

كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ

قِيلَ أُعِيدُوا فِيهَا بِضَرْبِ الزَّبَانَةِ إِيَّاهُمْ بِالْمَقَامِعِ وَذُوقُوا أَيِ وَيُقَالُ لَهُمْ وَذُوقُوا، وَقِيلَ كُلُّ مَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ضَرَبُوا بِالْمَقَامِعِ حَتَّى يَهْوُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَالذُّوقُ طَلَبُ إِدْرَاكِ الطَّعْمِ فَأَهْلُ النَّارِ يَجِدُونَ أَلْمَهَا وَجِدَانِ الطَّالِبِ لِإِدْرَاكِ الشَّيْءِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الْآيَةِ مِنَ الْعَذَابِ حَالُ أَحَدِ الْخَصْمِينَ فِي الْقِيَامَةِ وَهُمْ الْكَفَّارُ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا وَصَفَهُمْ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ، الْحَرِيقُ فِي الْآيَةِ الْغَلِيظُ مِنَ النَّارِ الْمُنْتَشِرِ الْعَظِيمِ الْإِهْلَاكِ.



إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا
 مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا
 حَرِيرٌ (٢٣) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا
 إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ
 يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ
 وَ مَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِخَادِ بَظْلَمٍ نُذِقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ
 (٢٥) وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا
 تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ
 الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أَذِّنْ فِي
 النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
 يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ
 لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى
 مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ
 أَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ
 لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)
 ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ
 رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
 فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ
 الزُّورِ (٣٠) حُتَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ
 يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ

الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ (٣١)
 ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى
 الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
 ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)

◀ اللغة

أَسَاوَرٌ: بفتح الألف وكسر الواو واحدها سوار، مثل كراع وأكارع.
 وَلَوْلُؤًا: اللؤلؤ الكبار والمرجان الصغار ويجوز أن يكون اللؤلؤ مرصعاً
 بالذهب.

يَصُدُّونَ: الصّد المنع.

أَلْعَاكِفُ: المقيم.

أَلْبَادُ: الباد الطَّارِي.

بِالْحَادِ: الإلحاد الميل عن الحق.

بَوَّأْنَا: أي وطأنا.

ضَامِرٌ: الضَّامِر المَهْزُول.

فَجَّ عَمِيقٍ: الفَجَّ الطريق والعميق، البعيد.

بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ: البهيمة كلّ ذات أربع في البر والبحر والأنعام هي الإبل و
 البقر والضأن والمعز.

أَلْبَائِسُ: الَّذِي بِهِ ضَرَّ الْجُوعُ وَأَصْلُ الْبُؤْسِ الشَّدَّة.

أَلْفَقِيرٌ: الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ.

تَفَثُهُمْ: التَفَثُ مناسك الحجّ وقيل هو مشف الإحرام.

أَلْعَتِيقُ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتِ بَنِي سَمِي بِهِ لِأَنَّهُ أَعْتَقَ مِنْ أَنْ تَمْلِكُهُ الْجَبَابِرَةُ.

حُنَفَاءَ: أَصْلُ الْحَنْفِ الْإِسْتِقَامَةُ وَقِيلَ أَصْلُهُ الْمِيلُ وَالْحَنِيفُ الْمَائِلُ إِلَى

العمل بما أمر الله وجمعه حنفاء.

في القرآن: في غدير الخندق

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

سَحِيقٍ: السَّحِيقُ البعيد.

◀ الإعراب

مِنْ الْقَوْلِ حال من الطَّيِّبِ أو من الضَّمِيرِ فِيهِ يَصُدُّونَ حال من الفاعل في، كفروا جَعَلْنَاهُ يَتَعَدَّى إلى مفعولين فالضَّمير هو الأول و في الثاني ثلاثة أوجه: أحدها: للنَّاسِ.

الثَّاني: أن يكون للنَّاسِ حالاً و الجملة بعده في موضع المفعول الثَّاني
الثَّالث: أن يكون المفعول الثَّاني، سواءً، على قراءة النَّصْبِ أَلْعَاكِفُ فاعل سواء و قرأ بالجرِّ على أن يكون بدلاً من النَّاسِ بِالْحَادِ حال أي متلبَّسٌ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ أيضاً حال أي إلحاداً ظالماً مَكَانَ آيَتِ ظَرْفٍ لَا تُشْرِكُ أن مفسرة للقول المقدَّر تقديره قائلين له لا تشرك و قيل هي مصدرية أي فعلنا ذلك لئلا تشرك و جعل النَّهي صلة لها رَجَالاً حال و هو جمع راجلٍ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ في موضع الحال أيضاً أي و ركبناً يَأْتِينَ صفة، لضامر حُنَفَاءَ حال.

◀ التفسير

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَعَدَّ لِأَحَدِ الْخَصَمِينَ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي مَرَّتْ ذِكْرُهَا، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ مَا بَعْدَهَا مَا أَعَدَّ مِنَ الثَّوَابِ لِلْخَصْمِ الْآخَرِ وَ هُوَ الْمُؤْمِنُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، مِنْ الْأَعْمَالِ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا، أَيِ فِي الْجَنَّاتِ الْمَشْهُورِ فِي الْقُرْآنِ، ضَمَّ الْبَاءَ وَ فَتَحَ الْحَاءَ وَ تَشْدِيدُ اللَّامِ بِصِیْغَةِ الْمَجْهُولِ مِنْ حَلٍّ يَحُلُّ، مِنَ التَّحْنِیَةِ بِالْحَلِّ، وَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِفَتْحِ الْبَاءِ وَ اللَّامِ وَ سَكُونِ الْحَاءِ مِنْ قَوْلِهِمْ

حلى الرّجل و حليت المرأة إذا صارت حلى و كيف كان فالمعنى إنهم أي أهل الجنة يلبسون فيها الحلي، من أساور من ذهب، أي أنّ الحلي من أساور من ذهب، فقوله: مِنْ ذَهَبٍ، نعتٌ لأساور وقوله: لَوْ لَوْ، معطوف على أساور لأنّ السّوار لا يكون من لؤلؤ، ثمّ قال و لباسهم فيها حرير، فحرّم الله على الرّجال لبس الحرير في الدّنيا و شوقهم اليه في الآخرة.

و الظاهر أنّ، من، في مِنْ أَسَاوِرَ، للتّبعض، و في مِنْ ذَهَبٍ لأبتداء الغاية أي أنشئت من ذهب و قيل، من، في أساور لبيان الجنس أي يحلّون فيها من هذا الجنس.

هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ

قيل الطّيب من القول أن كانت الهداية في الدّنيا فهو قول لا إله إلا الله و غيره من الأقوال الطّيبة من الأذكار و غيرها و يكون الصّراط طريق الإسلام و أن كان إخباراً عمّا يقع منهم في الآخرة فهو قولهم الحمد لله الذي صدّقنا وعده و ما أشبه ذلك من محاورة أهل الجنة و يكون الصّراط الطّريق الى الجنة، و قيل معنى الكلام هدوا الى البشارات من عند الله بالنّعيم الدّائم و قيل معناه القرآن و قيل الى الإيمان و قيل هو القول الذي لا مخش فيه، و صراط الحميد، قيل هو الإسلام، و قيل الى الجنة فالحميد هو الله المستحقّ للحمد و قيل غير ذلك من الأقوال، هذا ما قالوا في تفسير الآية.

أقول: الظاهر أنّ المراد بالهداية في قوله: هُدُوا ليس هو الهداية الى الإيمان و الإسلام و القرآن و غيرها و ذلك الآية تحكي عن الهداية في الآخرة لا في الدّنيا و الآخرة ليست بدار التّكليف بل هي دار الثّواب و العقاب نعم ما ذكروه يصحّ لو كانت الآية ناظرة الى الدّنيا و سياق الكلام يأباه و ذلك لأنّ الله تعالى في هذه الآية و قبلها بصدّد بيان ما أعدّه للمؤمنين في الآخرة من النّعم ظاهر و على هذا فالمراد بالهداية ليس معناها المصطلح في الدّنيا بل معناها الدّلالة

بِقَوْلِهِ
الْقُرْآنَ
فِي
الْجَنَّةِ
وَالْجَنَّةِ

جزء ١٧

الجلد العاشر في تفسير القرآن

الى ما هو أحسن في القول والعمل وذلك لأنَّ الْجَنَّةَ أعدت للصالحين من الأنبياء والمرسلين والتابعين لهم بإحسان ومن كان كذلك لا يقول إلا طيباً فـقوله: هُدُّوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، هـدوا الى مكان ليس فيه إلا الطيبين من القول وقوله: هُدُّوْا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ، أي طريق الحق أو طريق المحمود والحاصل أن ما ذكره في الآية هو أوصاف الجنة والله تعالى يهدي المؤمن الى الجنة التي تكون كذلك.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ

المضارع قد لا يلحظ فيه زماناً معين من حال أو إستقبال فيدل إذ ذاك على الإستمرار ومنه قوله تعالى: وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وهذا مثل قوله تعالى: الَّذِينَ أَمْنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وقيل هو مضارع أريد به الماضي عطفاً على كفروا، وقيل هو على إضمار مبتدأ أي وهم يصدون وخبر إن، محذوف وهو، خسروا، أو هلكوا، وقدره الزمخشري بعد قوله الحرام، نذيقهم من عذاب أليم ومعنى الآية أن الذين كفروا، بالله وبرسوله، أو بوحدانيته واختصاصه بالعبادة، و يصدون، أي يمنعون غيرهم، عن سبيل الله، أي من إتباعه والمسجد الحرام، أي يمنعونهم منه أيضاً أن يجيئوا اليه حجاً جاً و عمّاراً، الذي، أي المسجد الذي، جعلناه للناس، كافة قبلةً لصلواتهم ومنسكاً لحجهم، سواء العاكف، المقيم به، والباد الطاري أعني به غير المقيم ومن يرد فيه، أي في المسجد الحرام، بالحادٍ بظلم، أي منعاً بالحادٍ أي يميل بظلم وعن ابن عباس المعنى من يرد إستحلال ما حرّم الله والإلحاد هو الميل عن الحق، نذقه من عذاب أليم، يعني مؤلم موجه.

أقول: يستفاد من الآية أنه لا يجوز لأحدٍ منع النَّاس عن المسجد الحرام إذا أرادوا زيارة البيت بالحجِّ والعمرة وهو كذلك والظاهر من الشَّرْع أنَّ المراد بالنَّاس في الآية هو المسلمون لا جميع النَّاس حتَّى يشمل الكفَّار أيضاً فلا يجوز للكافر أن يدخل فيه حال الكفر لأنَّه رجسٌ ونجسٌ وهو ممَّا لا خلاف بإجماع المسلمين ويؤيِّده من قرأ، يرد، بفتح الياء أي من يرد في المسجد بالحادٍ بظلم نذقه من عذابٍ أليم.

وأنما قلنا يؤيِّده ولم نقل يدلُّ عليه لأنَّ الورد في المسجد بظلم وإلحادٍ لا يختصُّ بالكافر بل قد يكون المسلم أيضاً من مصاديقه كما أنَّ الحجاج لعنه الله دخل فيه بالحادٍ وظلم و قتل فيه كثيراً من النَّاس في فتنة ابن الزبير.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

قال في المفردات أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافات الأجزاء يقال مكانٌ بواء إذا لم يكن نابياً بنازله، وبوأت له مكاناً سوَّيته فَبَّوأت، قال الشاعر:

لها أمرها حتَّى إذا ما تبوأت بأخفافها مأوىً تبوأت مضجعاً
وقال غيره أصل بوأنا من قوله تعالى: وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ^(١) أي رجعوا بغضبٍ منه وتقول بوأته منزلاً أي جعلت له منزلاً يرجع إليه والبيت مكان مهياً للبناء للبيوتة فهذا أصله وجعل البيت الحرام على هذه الصُّورة فقولوه تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ، معناه جعلنا له علاقة يرجع إليها.
أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا أي أمرناه أن لا تشرك بي شيئاً في العبادة والظاهر أنَّ هذا أي قوله: لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا خطاب لإبراهيم وقال بعضهم أنه خطاب

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

لرسول الله ﷺ و أن مخففة من الثَّقِيلَة و هو بعيد و ذلك لأنَّ شرطها أن يتقدَّمها جملة في معنى القول، و بؤانا، ليس فيه معنى القول و الأولى أنَّها ناصبة للمضارع (وطَّهر بيتي) عن عبادة الأوثان، و قيل من الأنداس و قيل من الدِّماء و الفرث و الأقدار التي كانت ترمى حول البيت و يلطخون به البيت إذا ذبحوا و قوله: لِلطَّائِفِينَ، يعني الطَّائِفِينَ حول البيت (والقائمين) أي للذين يقومون هناك للصَّلاة (والرُّكَّع السُّجُود) أي الذين يركعون و يسجدون للصَّلاة. قال في التَّبيان و في الآية دلالة على جواز الصَّلاة في الكعبة، قال الحسن أمر الله رسوله أن يفعل ذلك في حجة الوداع، و قلنا أنه بعيدٌ و مع ذلك خلاف المشهور و الجمهور على أنَّه خطاب لإبراهيم عليه السَّلام و هو الحقَّ الموافق لسياق الآية.

قال بعض المفسرين قوله: أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، أن مفسروه بفعلٍ دلَّ عليه، بؤانا، لأنَّ التَّبَوَّعَ لأجل العبادة فكأنه قيل و أمرناه و تعبدناه و قلنا له لا تشرك بي شيئاً في العبادة و طَّهر بيتي من الشُّرك و عبادة الأوثان

و قد روى علي بن إبراهيم في تفسيره عن الصادق يعني نَحْ عنه المشركين و عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أَنْ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ وَ طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ، فينبغي للعبد أن لا يدخل مكة، إلّا، و هو طاهر و قد غسل عرقه و الأذى و تطَّهر.

و روى الشيخ في الصحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام نحوه و أراد بالقائمين و الرُّكَّع السُّجُود المصلين، و في رواية معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى حَوَّلَ الْكُعْبَةَ عَشْرِينَ وَ مِثَّةَ رَحْمَةٍ مِنْهَا سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَ أَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَ عَشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ وَ فيه دلالة على رجحان الطَّواف على الصَّلاة

إنتهى....

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ أَيِ مَرْهَمٍ بِالْحَجِّ رَجَالاً، وَهُوَ جَمْعُ رَاجِلٍ مِثْلُ صَحَابٍ جَمْعُ صَاحِبٍ وَالمَعْنَى مَرْهَمٌ أَنْ يَأْتُوكَ رَجَالاً أَيْ مَشَاءً عَلَى أَرْجُلِهِمْ وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ الضَّامِرُ مِنَ الْإِبِلِ الْمَهْزُولِ مِنَ السَّيْرِ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ فَالْعَمِيقُ الْبَعِيدُ وَ الْفَجُّ الطَّرِيقُ وَ الْمَعْنَى يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ بَعِيدٍ مِنْ حَيْثُ الْمَسَافَةِ فَقَوْلُهُ: يَأْتِينَ، فِي مَعْنَى الْجَمْعِ وَ قِيلَ لِأَنَّ الْمَعْنَى وَ عَلَى كُلِّ نَاقَةٍ ضَامِرٍ.

وَقَدْ رَوَى عَمَّارُ بْنُ مُوسَى عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمَّا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ أَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ قَدَمِيهِ وَ هُوَ الْمَقَامُ فَوَضَعَهُ بِحِذَاءِ الْبَيْتِ لاصِقاً بِهِ بِحِيَالِ الْمَوْضِعِ الَّذِي هُوَ فِيهِ الْيَوْمَ ثُمَّ قَامَ عَلَيْهِ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمَّا تَكَلَّمَ بِالْكَلَامِ لَمْ يَحْتَمِلْهُ الْحَجَرُ فَغَرَقَتْ رِجْلَاهُ فِيهِ فَقَلَعَ إِبْرَاهِيمُ رِجْلَهُ مِنَ الْحَجَرِ قَلْعاً حَدِيثٌ.

وَعَنْ تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ وَ لَمَّا فَرَّغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ فَقَالَ يَا رَبِّ مَا يَبْلُغُ صَوْتِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى، أَدِّنْ، عَلَيْكَ الْأَذَانُ وَ عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَ إِرْتَفَعَ الْمَقَامُ وَ هُوَ يَوْمُنْذٍ مَلَصَقٌ بِالْبَيْتِ فِإِرْتَفَعَ بِهِ الْمَقَامُ حَتَّى كَانَ أَطْوَلَ مِنَ الْجِبَالِ فَنَادَى وَ أَدْخَلَ إصْبَعَهُ فِي أُذُنِهِ وَ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ شَرْقاً وَ غَرْباً يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَأَجْبِئُوا رَبَّكُمْ فَأَجَابُوهُ مِنْ تَحْتِ الْبُحُورِ السَّيِّعِ وَ مِنْ بَيْنِ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ إِلَى مُنْقَطِعِ التُّرَابِ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ كُلِّهَا وَ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَ مِنْ أَرْحَامِ النِّسَاءِ بِالتَّلْبِيَةِ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ أَوْ لَا تَرُونَهُمْ يَأْتُونَ يَلْبُونَ فَمَنْ حَجَّ مِنْ يَوْمُنْذٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهُمْ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ يَعْنِي نَدَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَقَامِ إِنْتَهَى.

و روى في المواقف في العلل و فى الكافي و غيرهما عن عبد الله سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ و إِسْمَاعِيلَ بِنَاءَ الْبَيْتِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ أَمَرَهُ أَنْ يَصْعَدَ رُكْنًا ثُمَّ يَنَادِي فِي النَّاسِ هَلُمُّ الْحَجَّ مَلُوا نَادِي هَلُمُوا إِلَى الْحَجِّ لَمْ يَحْجَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَوْمئِذٍ إِنْشِيًّا مَخْلُوقًا وَلَكِنْ نَادَى هَلُمُّ الْحَجَّ فَلَبَّى النَّاسُ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ لِبَيْكَ دَاعِي اللَّهِ لِبَيْكَ دَاعِي اللَّهِ فَمَنْ لَبَّى عَشْرًا حَجَّ عَشْرًا وَمَنْ لَبَّى خَمْسًا حَجَّ خَمْسًا وَمَنْ لَبَّى أَكْثَرَ فَبَعْدَ ذَلِكَ وَمَنْ لَبَّى وَاحِدَةً حَجَّ وَاحِدَةً وَمَنْ لَمْ يَلْبَ لَمْ يَحْجَ إِنْتَهَى.

أقول: و وجه الفرق بين تعلّم و هَلُمُوا أَنَّ الْوَالِدَ لَمَنْ يَعْقِلُ، وَ فِي تَقْدِيمِ الرِّجَالِ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ، إِنْشَاءً، أَوْ إِشْعَارًا بِأَنَّ الْحَجَّ مَاشِيًّا أَفْضَلَ مِنْهُ رَاكِبًا وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ:

مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَنَانٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: مَا عَبْدُ اللَّهِ بِمَشِيٍّ أَشَدَّ مِنَ الْمَشْيِ وَ لَا أَفْضَلَ إِنْتَهَى.

و صحيحه الحلبي فلا سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فضل المشي فقال عليه السلام الحسن بن علي عليه السلام: قَاسَمَ رَبِّي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ نَعْلًا وَ نَعْلًا وَ ثَوْبًا وَ ثَوْبًا وَ دِينَارًا وَ دِينَارًا وَ حَجَّ عَشْرِينَ حَجَّةً مَاشِيًّا عَلَى قَدَمَيْهِ إِنْتَهَى.

و الأخبار في فضل المشي على الركوب كثيرة.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ هِيَ مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ كَمَا رَوَى أَنَّ الْحَجَّ يُكْثِرُ الْمَالَ وَ يَحِطُّ الذَّنُوبَ.

و في عيون الأخبار في باب ذكر ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسأله في العلل، و علة الحج الوفادة إلى الله عزّ وجلّ و طلب الزيادة و الخروج من كلّ ما إقترف و ليكون تائباً ممّا مضى مستأنفاً لما يستقبل و ما فيه من إستخراج الأموال و تعب

الأبدان و حظرهما عن الشّهوات واللذات والتّقرب بالعبادة إلى الله عزّ وجلّ والخضوع والإستكانة والتّذلّل شاخصاً في الحرّ والبرد والأمن والخوف ذائباً في ذلك دائماً وما في ذلك من المنافع لجميع الخلق والرّغبة والرّهبة إلى الله ومنه ترك قساوة القلب وجبارة الأنفس ونسيان الذّكر وإنقطاع الرّجاء والأمل وتجديد الحقوق وحظر الأنفس من الفساد ومنفعة من في شرق الأرض وغربها ومن في البرّ والبحر ممّن يحجّ ومن لا يحجّ من تاجرٍ وجالبٍ وبائعٍ ومشترٍ وكاسبٍ ومسكينٍ وقضاء حوائج أهل الأطراف والمواضع الممكن لهم الإجتماع فيها كذلك ليشهد منافع لهم إنتهى.

وقوله تعالى: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ قال الحسن وقتادة الأيام المعلومات عشريّن ذي الحجة والأيام المعدودات أيام التّشريق وقال أبو جعفر عليه السلام الأيام المعلومات أيام التّشريق والمعدودات العشر لأنّ الذّكر الذي هو التّكبير من أيام التّشريق إنتهى.

و أمّا قيل لهذه الأيام معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحجّ في آخرها.

أقول: روي في كتاب غوالي اللّثالي عن الصادق عليه السلام أنّ الذّكر في قوله: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ هو التّكبير عقيب خمسة عشر صلوات أولها ظهر العيد وعن الباقر عليه السلام مثله إنتهى وقيل الذّكر هو الذّكر المطلق أو الذّكر حال الذّبح.

وفي معاني الأخبار بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال عليّ في قوله عزّ وجلّ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ، قال أيام العشر إنتهى.

و بهذا الإسناد عن أبي عبد الله أَنَّ الأَيَّامَ المعلومات هي أَيَّام التَّشْرِيقِ إنتهى.

و في خبرٍ أخر عنه عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: المعلومات و المعدودات واحدة و قال في الدُّروس الأَيَّامَ المعدودات أَيَّامُ التَّشْرِيقِ و أخرها غروب الشَّمْسِ من الثَّالث و الأَيَّامَ المعلومات عشر ذي الحِجَّة و هو المَرْوِي في الصَّحِيح عن عَلِيِّ عليه السلام و في النِّهَاية بالعكس قوله: عَلَيَّ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ أَلْتَنَعَمَ يَعْنِي مِمَّا يَذْبَحُ مِنَ الْهَدْيِ و هو من إِضافة الصِّفَةِ و البهيم هو الَّذِي لا يفصح و المراد بها في المقام الإبل و البقر و الغنم، و المراد بالتَّسْمِيَةِ أَي يذكروا إسم الله حين النُّحْرِ و الذَّبْحِ و قوله: فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ أَي فكلوا من بهيمة الأنعام و أطعموا البائس و هو الَّذِي به ضُرُّ الجوع و الفقير هو الَّذِي لا شَيْءَ له و المعنى أَمَرْنَا اللَّهَ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ نَطْعَمَ الْبَائِسَ الْفَقِيرَ قَالُوا هَذَا الْأَمْرُ لَيْسَ لِلْجُوبِ بَلْ هُوَ لِلذَّبِّ.

روى في الكافي عن السَّكُونِي عن أبي عبد الله في قول الله عَزَّ وَجَلَّ وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ قَالَ عليه السلام: هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ لَزِمَانَةً إِنْتَهَى.

و في رواية أبي بصير عنه عليه السلام أَنَّ الْفَقِيرَ هُوَ الَّذِي لا يَسْأَلُ النَّاسَ وَ الْمَسْكِينُ أَجْهَدُ مِنْهُ وَ الْبَائِسُ أَجْهَدُهُمْ إِنْتَهَى.

فظهر من هذه الرِّوَايَات أَنَّ الْبَائِسَ هُوَ الْفَقِيرُ الشَّدِيدُ الْحَاجَةُ وَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الدَّلَالَةُ عَلَى لَزُومِهِمُ الذَّبْحَ أَوْ النُّحْرَ عَلَى الْحَاجِّ مُطْلَقاً وَلَكِنْ النَّصُّ وَ الْإِجْمَاعُ خَصَّهُ بِالْمُتَمَتِّعِ وَ الْقَارَنِ.

و من الفقهاء من يقول بَأَنَّ الْأَمْرَ لِلْجُوبِ فَيَجِبُ الْأَكْلُ، وَ الْإِطْعَامُ مِنْ دُونِ تَعْيِينِ مِقْدَارٍ مَا يُوْكَلُ وَ مَا يَتَّصَدَّقُ بِهِ وَ بِذَلِكَ قَالَ إِبْنُ إِدْرِيسَ وَ اسْتَقَرَّ بِهِ فِي

المختلف و تفصيل الكلام فيه موكول إلى الفقه و ذهب بعضهم إلى وجوب قسمته أثلاثاً قوله تعالى:

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ أَلْتَعْتِقِ

قيل التَّفَثُ بفتح التاء و الفاء مناسك الحج من الوقوف و الطواف و السعي و رمي الجمار و الحلق بعد الإحرام من الميقات.

و قال ابن عباس و ابن عمر التَّفَثُ جمع المناسك و قيل التَّفَثُ كشف الإحرام و قضاءه بحلق الرأس و الإغتسال.

في الفقيه بأسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله أنَّ التَّفَثَ هو الحلق و ما في جلد الإنسان إنتهى.

و في رواية البرنطي عن الرضا عليه السلام في تفسير التَّفَثِ أَنَّهُ قَصَّ الشَّارِبِ و الأظافر و طرح الوسخ و طرح الإحرام عنه إنتهى.

و قوله: وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ فالمراد به أنواع البرِّ و ما نذروا من نحر الإبل و غيره و قوله: وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ أَلْتَعْتِقِ أمرٌ من الله تعالى بالطواف بالبيت، و أمّا علّة وجوب الطواف.

فقد روي في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: فِي عِلَّةِ الطَّوَّافِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فَرَدُّوا عَلَى اللَّهِ هَذَا الْجَوَابُ فَندموا فلاذوا بالعرش و استغفروا فأحبَّ الله أن يتعبد بمثل ذلك العباد فوضع في السماء الرابعة بيتاً بحذاء العرش يسمّى الضُّرَاعُ ثُمَّ وَضَعَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بَيْتاً يسمّى المعمور بحذاء الضُّرَاعِ ثُمَّ وَضَعَ هَذَا الْبَيْتَ بِحِذَاءِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ فَطَافَ بِهِ فَتَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فَجَرَى ذَلِكَ فِي وَلَدِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إنتهى.

في حديث آخر رواه في قرب الأسناد بأسناده عن الرضا عليه السلام في تفسير قول الله تعالى: لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ قَالَ يَقْلَمُ الْأَظْفَارَ وَطَرَحَ الْوَسْخَ عَنْكَ وَ الْخُرُوجَ عَنِ الْإِحْرَامِ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ طَوَافَ الْفَرِيضَةِ إِنَّتَهَى.

و الظاهر أن المراد طواف الحج الذي هو ركن فيه بلا خلاف و هو المعبر عنه في أكثر الأخبار بطواف الزيارة و يمكن أن يراد ما يشمل طواف النساء لأنه واجب به يحصل تحليل النساء كما يشعر به صيغة المبالغة.

و روي الشيخ عن أحمد بن محمد قال قال أبو الحسن في قوله تعالى: وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، قال طواف الفريضة و طواف النساء إِنَّتَهَى.

و في حديث آخر عن الصادق عليه السلام في قوله: وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، قال: هو طواف النساء.

و أما وجه التسمية بالعتيق فقد ذكروا فيه وجوهاً:
أحدها: أن لا يملكه أحد من الناس و يدل عليه:

ما رواه في الكافي عن الشمالي قال قلت لأبي جعفر في المسجد الحرام لأي شيء سمي العتيق فقال عليه السلام: أنه ليس من بيت وضعه الله في الأرض إلا له رب و سكان يسكنونه غيره هذا البيت فإنه لا رب له إلا الله تعالى و هو الحرم ثم قال عليه السلام أن الله خلقه قبل الأرض ثم خلق الأرض من بعده فدحاها من تحته و في رواية أخرى أنه سمي بذلك لأنه بين حر عتيق من الناس لا يملكه أحد.

الثاني: أنه أعتق من الغرق و يدل عليه:

ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره في الصحيح عن أبي بصير عن أبي عبد الله قال عليه السلام: لما أراد هلاك قوم نوح و ذكر حديثاً طويلاً

وقال فيه سمّي العتيق لأنه أعتق من الغرق و في رواية رواها في العلل عن أبي خديجة و زاد فيه فقلت له إصعد الى السماء فقال ^{عليه السلام} لا لم يصل اليه الماء و رفع عنه، و في رواية المحاسن عن سعيد الأعرج عتق الحرم معه كفّ عنه الماء إنتهى.

الثالث: لأنه أول بيت وضع للناس كما مرّ فسّمى بذلك لقدم عهده.

الرابع: أنه سمّي بذلك لأنه كريم بناه كريم كما يقال عتاق الخيل للكرام منها.

الخامس: أنه أعتق من الجبابة و حفظه الله منهم كإبرهة و غيره أو لأن من دخله كان عتيقاً من النار:

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ

حرّمات الله ما حرّمه الله في الشرع، و قيل المراد بالحرّمات هنا البيت الحرام و البلد الحرام و الشّهر الحرام، و المراد بتعظيم الحرّمات مراعاتها على ما قرّر في الشرع و قد يستدلّ بهذه الآية على عدم جواز أن يرفع أحد بناءً فوق لكعبة لأن ذلك من الحرّمات و الشّعائر المأمور بتعظيمها و بذلك قال الشّيخ و جماعة و قال الأكثر بالكرهة للأصل و بظهور إرادة الكراهة من الخير في قوله: فَهُوَ خَيْرٌ، و من التّعظيم كذلك و للبحث فيه مقام آخر، و قوله: أَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ، يعني ما يتلى عليكم في كتاب الله من الميتة و الدّم و لحم الخنزير و الموقودة، و المتردية، و النّطيحة، و ما أكل السّبع، و ما ذبح على النّصب، و أمّا أحلت لكم الأنعام قيل المراد بها، الإبل و البقر و الغنم في حال إحرامكم، إلّا ما يتلى عليكم من الصّيد فأنّه يحرم على المحرم قاله الشّيخ في التّبيان، و هو واضح.

في التّفسير
القرآني
في خاتمة
الجزء

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

وقوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، فقال المفسرون من العامة لأنَّ توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات لأنَّ الشَّريك من باب الزُّور لأنَّ المشرك يزعم أنَّ الوثن يستحقَّ العبادة فكأنَّه قال فأجتنبوا عبادة الأوثان الَّتِي هي رأس الزُّور و أجتنبوا قول الزُّور كلَّه و، من، في من الأوثان لبيان الجنس و يقدَّر بالموصول عندهم أي الرِّجس الَّذِي هو الأوثان و به قال صاحب الكشَّاف و تبعه الرَّازي و غيره من المفسرين.

و قال الشَّيْخُ رحمته الله في التَّبيان في تفسير الكلام معنى، من، لتبين الصِّفَّة و التَّقدير فأجتنبوا الرِّجس الَّذِي هو الأوثان و روى أصحابنا أنَّ المراد به اللَّعب بالسُّطرنج و التُّرد و سائر القمار و أجتنبوا قول الزُّور يعني الكذب. و روى أصحابنا أنَّه يدخل فيه الغناء و سائر الأقوال الملهية بغير حقٍّ انتهى.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
أصل الحنف الإستقامة و قيل للمائل القدم، أحنف تفاؤلاً بالإستقامة و قيل أصله الميل.

قال الرَّاغب في المفردات الحنف هو الميل عن الضَّلال الى الإستقامة و جمعه حنفاء و تحنَّف فلان أي تحرَّى طريق الإستقامة و سمَّت العرب كلَّ من حجَّ أو ختن حنيفاً تنبيهاً أنَّه على دين إبراهيم انتهى.

أقول: لعلَّ هذا هو الوجه في ذكره في المقام أي أنَّ من حجَّ ولم يشرك بالله فهو حنيفٌ ثمَّ قال تعالى و من يشرك بالله الخ.

قال صاحب الكشَّاف في المقام و يجوز في هذا التَّشبيه أن يكون من المَرْكَب و المَفْرَق فأن كان تشبيهاً مَرْكَباً فكأنَّه قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السَّمَاء

فإختطفته الطَّير فَنَفَرَقَ فزعاً في حواصلها أو عصفت به الرِّيح حتَّى هوت به في بعض المطاوح البيعة، وإن كان مفزقاً فقد شبَّه الإيمان في علَّوه بالسَّماء و الَّذي ترك الإيمان و أشرك بالله بالسَّاقط من السَّماء و الأهواء التي تنوزع أفكاره بالطَّير المختطفة و الشَّيطان الَّذي يطَّوح به في وادي الضَّلالة بالرِّيح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إلا أنَّ تفسير الكلام لا يحتاج إلى هذه التَّكلفات و ذلك لأنَّ الله شبَّه المشرك بالله بمن خرَّ و سقط من السَّماء و إستلبه الطَّير و رمى به الرِّيح في مكانٍ بعيد و هو كناية عن هلاكه و شقاوته و أنَّه لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضرراً يوم القيامة أو أنَّه تعالى شبَّه أعمال المشرك بأنَّها تذهب فلا يقدر على شيء منها و حاصل الكلام أنَّ الشُّرك بالله لا ينتج إلا السَّقوط في الدُّنيا و الآخرة و الخروج عن مقام الإنسانيَّة.

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ

قيل ذلك إشارة، إلى الأمر المقدر و تقدير الكلام ذلك الأمر من يعظم شعائر الله و الشعائر علامات مناسك الحجِّ كلَّها و هى رمي الجمار و السَّعي بين الصِّفا و المروة ذلك و قيل هى البدن و تعظيمها إستسمانها و إستحسانها. و قال زيد بن أسلم الشعائر ست، الصِّفا و المروة و البدن و الجمار و المشعر الحرام و عرفة و الرُّكن و تعظيمهما إتمام ما يفعل فيها و قيل غير ذلك. **أقول:** لا يبعد أن يكون المراد بالشَّعائر معناها العامَّ الشَّامل شعائر الحجِّ و غيرها من أنواع الشَّعائر المندرجة تحت قوانين الشَّريعة من الواجبات و المندرجات كالصَّلاة و الصَّوم و الجهاد و الأمر بالمعروف و النَّهي عن المنكر و غير ذلك و لذلك قال بعضهم شعائر الله دين الله و قوله فإنَّها من تقوى القلوب، قيل أي من خشيتها.

أقول: و أنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التَّقوى الَّذِي إِذَا ثَبَتَتْ فِيهَا وَ تَمَكَّنَتْ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي سَائِرِ الْأَعْضَاءِ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ قَلْبَ الْمُتَّقِي يَكُونُ خَاشِعاً خَاضِعاً لِلَّهِ تَعَالَى وَ أَنَّمَا قَالَ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ وَلَمْ يَقُلْ مِنَ التَّقْوَى مِثْلَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَظْهَرُ التَّقْوَى وَ قَلْبُهُ خَالٍ عَنْهَا فَلَا يَكُنْ مُجْذِئاً فِي آدَاءِ الطَّاعَاتِ وَ أَمَّا الْمُخْلِصُ، فَالْتَّقْوَى بِاللَّهِ فِي قَلْبِهِ فَيَبَالِغُ فِي آدَائِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِحْلَاصِ وَ قَدَّرَ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي الْكَلَامِ وَ قَالَ تَقْدِيرُهُ مِنْ أَعْمَالِ ذَوِي تَقْوَى الْقُلُوبِ فَحُذِفَتْ هَذِهِ الْمُضَافَاتُ وَ لَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى إِلَّا بِتَقْدِيرِهَا لِأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ رَاجِعٍ مِنَ الْجِزَاءِ إِلَى، مِنْ، إِنْتَهَى وَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ أَيْنَ الرَّاجِعُ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ

الضَّمِيرُ فِي، فِيهَا، عَائِدٌ عَلَى الْبَدَنِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ وَ الْمَنَافِعُ دَرَجَاتُهَا وَ نَسْلُهَا وَ صُوفُهَا وَ رُكُوبُ ظَهَرِهَا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قِيلَ إِلَى أَنْ تَنْحَرُ وَ يَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا وَ يُؤْكَلَ مِنْهَا وَ قِيلَ الْأَجَلُ الْمُسَمًّى الْخُرُوجُ عَنْ مَكَّةَ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ إِلَى الْخُرُوجِ وَ الْإِنْتِقَالِ مِنْ هَذِهِ الشَّعَائِرِ إِلَى غَيْرِهَا وَ قِيلَ لِأَجَلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ قَوْلُهُ، ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، ثُمَّ لِلتَّرَاخِي فِي الْوَقْتِ ثُمَّ أَسْتَعِيرْتُ لِلتَّرَاخِي فِي الْأَفْعَالِ وَ الْمَعْنَى أَنَّ لَكُمْ فِي الْهَدَايَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً فِي دُنْيَاكُمْ وَ دِينِكُمْ وَ أَنَّمَا يَعْبُدُ اللَّهُ بِالْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَ أَعْظَمَ هَذِهِ الْمَنَافِعَ وَ أَبْعَدَهَا فِي النَّفْعِ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ أَيْ وَجُوبَ نَحْرِهَا أَوْ وَقْتِ وَجُوبِ نَحْرِهَا مُنْتَهِيَةً إِلَى الْبَيْتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى هَدِيَاً بَالِغَ الْكَعْبَةِ، وَ الْمُرَادُ نَحْرُهَا فِي الْحَرَمِ الَّذِي هُوَ فِي حَكْمِ الْبَيْتِ لِأَنَّ الْحَرَمَ هُوَ حَرِيمُ الْبَيْتِ وَ هَذَا أَعْنِي قَوْلَهُ وَ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّعَائِرِ لَيْسَ كُلُّهَا بَلِ الْمُرَادُ بَعْضُهَا كَمَا هُوَ أَحَدُ الْأَقْوَالِ فِي الْمَسْأَلَةِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
 عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ
 اللَّهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)
 الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ
 عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُذْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ
 شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
 عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ
 أَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا
 دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ
 سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ
 الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ
 يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ
 لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيًا
 إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
 بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَ
 صُلُواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ
 لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
 عَزِيزٌ (٤٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

◀ اللّٰه

أُمَّةٌ: بَضْمُ الْأَلْفِ وَفَتْحُ الْمِيمِ الْمُشَدَّدَةِ الْجَمَاعَةِ وَالْمَرَادُ بِهِمَا فِي الْآيَةِ أَتْبَاعُ النَّبِيِّ قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْأُمَّةُ كُلُّ جَمَاعَةٍ يَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ مَا، إِمَّا دِينٌ وَاحِدٌ أَوْ زَمَانٌ وَاحِدٌ أَوْ مَكَانٌ وَاحِدٌ سِوَاكَ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْجَامِعِ تَسْخِيرًا أَوْ إِخْتِيَارًا وَجَمْعُهُمَا أُمَمٌ إِنْتَهَى.

مَنْسُكًا: بِفَتْحِ الشَّيْنِ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ وَبِكَسْرِهَا عَلَى قِرَاءَةِ الْكَسَائِي وَهُمَا لَغَتَانِ وَهُوَ الْمَكَانُ لِلْعِبَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ الَّذِي يَقْصِدُهُ النَّاسُ وَقِيلَ الْمَنْسُكُ الْمَنْهَاجُ وَهُوَ الشَّرِيعَةُ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَنْسُكًا أَيَّ شَرِيعَةً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ مَنْسُكًا يَعْنِي عِبَادَةً فِي الذَّبْحِ وَالنَّسَكَةِ الذَّبِيحَةِ. أَلْمُخِيتُ: مِنَ الْخَبْتِ وَهُوَ الْمَكَانُ الْمَطْمَنُ وَقِيلَ الْمُنْخَفَضُ وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ.

وَجَلَّتْ: الْوَجَلُ الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ.

الْبُذْنُ: بَضْمُ الْبَاءِ وَسُكُونُ الدَّالِّ الْمَهْمَلَةِ وَالثُّونُ جَمْعُ، بَدَنَةٍ، وَهِيَ الْإِبِلُ الْمَبْدُوءَةُ بِالسَّمَنِ يُقَالُ بَدَنَتِ النَّاقَةُ إِذَا سَمَنَتْهَا وَقِيلَ أَصْلُ الْبَدَنِ الضُّخْمُ وَكُلُّ ضَخْمٍ بَدَنٌ وَبَدَنٌ بَدَنًا إِذَا ضَخِمَ، وَقِيلَ الْبَدَنُ الْبَقَرَةُ وَالْبَعِيرُ.

صَوَافٍ: بِفَتْحِ الصَّادِ جَمْعُ صَافَةٍ وَهِيَ الْمُسْتَمِرَّةُ فِي وَقُوفِهَا عَلَى مَنَهِاجٍ وَاحِدٍ فَالْصَّفُّ إِسْتِمْرَارُ جِسْمٍ يَلِي جِسْمًا عَلَى مَنَهِاجٍ وَاحِدٍ وَالتَّسْمِيَةُ حَالُ نَحْرِهَا دُونَ حَالِ قِيَامِهَا.

وَجَبَتْ: الْوُجُوبُ الْوُقُوعُ يُقَالُ وَجَبَتِ الشَّمْسُ إِذَا وَقَعَتْ فِي الْمَغِيبِ لِلْغُرُوبِ.

جُنُوبُهَا: أَيُّ نَحْرِهَا وَقِيلَ وَجُوبُ الْجَنُوبِ وَقُوعُهَا عَلَى الْأَرْضِ لِلذَّبْحِ مِنْ وَجِبِ الْحَائِطِ وَجِبَةً إِذَا سَقَطَ.

أَلْقَانِعٌ: الَّذِي لَا يُسَالُ.

وَالْمُعْتَرِّ: الَّذِي يَعْتَرِكُ مِنَ النَّاسِ.

خَوَانٍ: هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ النَّصِيحَةَ وَيُضْمِرُ الْغُشَّ لِلتَّفَاقِ وَقِيلَ هُوَ مَنْ ذَكَرَ
إِسْمَ غَيْرِ اللَّهِ عَلَى الذَّبِيحَةِ.

صَوَامِعُ: بِفَتْحِ الصَّادِ وَكسْرِ المِيمِ جَمْعُ صَوْمِعَةٍ وَهِيَ مَعْبَدُ الْيَهُودِ.
يَبِيعُ: بِكسْرِ البَاءِ وَفَتْحِ البَاءِ مَعَابِدَ النَّصَارَى وَقِيلَ أَنَّ الْبَيْعَ كُنَائِسُ الْيَهُودِ وَ
سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِمَا فِي التَّفْسِيرِ.

◀ الإعراب

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَصَبًا عَلَى الصِّفَةِ أَوْ الْبَدَلِ أَوْ عَلَى
إِضْمَارِ أَعْنِي وَأَنْ يَكُونَ رَفْعًا عَلَى تَقْدِيرٍ، هُمُ الَّذِينَ الْجُمْهُورُ عَلَى النَّصَبِ
بِفِعْلِ مُحذُوفٍ أَيْ جَعَلْنَا الْبَدَنَ وَيَقْرَأُ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ صَوَافَّ حَالٍ مِنْ
الِهَاءِ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ الْجُمْهُورُ عَلَى الْبَاءِ لِأَنَّ اللَّحُومَ وَالدَّمَاءَ جَمْعُ تَكْسِيرٍ فَتَأْنِيثُهُ
غَيْرُ حَقِيقِي، وَيَقْرَأُ بِالتَّاءِ أَيْضًا الَّذِينَ أُخْرِجُوا هُوَ نَعْتُ لِلَّذِينَ الْأَوَّلِ، أَوْ بَدَلٍ
مِنْهُ، أَوْ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ، بِأَعْنِي.

◀ التفسير

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ
بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَنَسَكًا
قَرَأَ الْكِسَائِيُّ بِكسْرِ السِّينِ وَالْجُمْهُورُ بَفَتْحِهَا وَهُوَ الْحَتْ وَذَلِكَ لِأَنَّ قِيَاسَ،
مَفْعَلٍ، مِمَّا مُضَارَعُهُ، يَفْعَلُ بِضَمِّ الْعَيْنِ فَفَعَلَ بَفَتْحِهَا فِي الْمَصْدَرِ وَالزَّمَانِ وَ
الْمَكَانِ نَحْنُ فِي هَكَذَا وَلِذَلِكَ قِيلَ أَنَّ الْكَبِيرَ مِنَ الشَّاذِلِ لِأَنَّهُ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ.
وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ الْفَتْحَ وَالْكَسْرَ فِي السِّينِ لِغَتَانِ، وَقَالَ الْمَجَاهِدُ الْمَنَسَكُ
الذَّبْحُ وَإِرَاقَةُ الدَّمَاءِ يُقَالُ نَسَكٌ إِذَا ذُبِحَ وَالدَّبِيحَةُ نَسِيكَةٌ وَجَمْعُهَا نَسَكٌ،
الْمَنَسَكُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْمَعْتَادُ فِي خَيْرٍ وَبَرٍّ.

نبأ القراء في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

و قال بعضهم منسكاً أي مذهباً من طاعة الله يقال نسكاً نسك قومه إذا سلك مذهبهم.

و قال الفراء منسكاً أي عيداً.

و قال قتادة حجاً، و قال الحسن المنسك المنهاج و هو الشريعة و المعنى جعل الله لكل أمة من الأمم السالفة منسكاً أي شريعة كقوله تعالى: لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ^(١).

أقول: الظاهر أن المراد بالمنسك في الآية هو عبادة الذبح بدليل قوله تعالى: لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فهذا الكلام قرينة على أن المراد به ما ذكرناه في الآية و هذا لا ينافي إطلاقه على غير الذبح في موضع آخر و ذلك لأن المعنى جعلنا ذلك للأمم و تعبدنا هم به ليذكروا إسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام و من المعلوم أن ذكر إسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام لا يكون إلا عند الذبح و أن قيل أن المنسك مطلق العبادة الشاملة للذبح و غيره لا بأس به.

قالوا المراد بالأنعام في الآية الإبل و البقر و الغنم إذا أرادوا تذكيتهما و في ذلك دلالة على وجوب التسمية عند الذبح ثم قال تعالى: فَالِهَكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ، لا شريك له في العبادة و الملك، فله: أَسْلِمُوا و بَشَّرَ المختبين، فقوله أسلموا معناه إستسلموا و إنقادوا له و بَشَّرَ المختبين أي المتواضعين و قيل يعني المطمئنين إلى ذكر ربهم في جميع شئونهم.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

الظَّاهِرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْمُخْبِتِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَكَأَنَّهُ قِيلَ وَ مَا الْمُخْبِتِينَ اللَّاتِقِينَ بِالْبَشَارَةِ، فَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ، وَالْأَوْصَافُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآيَةِ أَرْبَعَةٌ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ وَ سَائِرُ الْأَوْصَافِ مِنْ فُرُوعِهِ وَ الْوَجَلُ إِسْتِشْعَارُ الْخَوْفِ.

ثَانِيهَا: قَوْلُهُ: وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، هَذَا هُوَ الْوَصْفُ الثَّانِي لَهُمْ وَ هُوَ الصَّبْرُ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ فَأَنَّ الدُّنْيَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ وَ الْغَدْرُ مَعْرُوفَةٌ،

وَ قَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الصَّابِرِينَ، عَلَى الْبَلَايَا وَ الْمَصَائِبِ قَالَ تَعَالَى: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ إِلَى قَوْلِهِ: وَ بَشِيرِ الصَّابِرِينَ^(١) وَ الْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

ثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ، أَيِ إِيْتَانِ الصَّلَاةِ بِشَرَائِطِهَا يُقَالُ فَلَانِ أَقَامَ الصَّلَاةَ إِذَا أَتَى بِهَا مَعَ جَمِيعِ شَرَائِطِهَا وَ لِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ سَابِقًا فِي هَذَا الْبَابِ وَ قُلْنَا أَنَّ إِيْتَانِ الصَّلَاةِ غَيْرُ إِقَامَتِهَا وَابِعُهَا: قَوْلُهُ: وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ أَيْضًا غَيْرَ مَرَّةٍ وَ لَا سِيمَا فِي أَوَائِلِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا نَعِيدُ الْكَلَامَ فِي الْمَقَامِ.

وَ الْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوًّا فَاذًا وَ جَبَّتْ جُنُوبُهَا فَكَلُّوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ أَلْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

قَرَأَ الْجُمْهُورُ، الْبَدَنَ بِالنَّصْبِ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ جَعَلْنَاهَا أَيِ وَ جَعَلْنَا الْبَدَنَ وَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ^(٢).

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حزء ١٧

الجلد العادي عشر

و من الفراء من قرأ بضم الدال والجمهور على سكونها، والضم هو الأصل فيها لأنها جمع بدنة وهي الإبل المبدنة بالسمن.

قال الزجاج يقولون بدنت الناقة إذا سمتها ويقال لها بدنة من هذه الجهة وقيل أصل البدن الضخم وكل ضخم بدن والبدنة الناقة وتجمع على بدن وتقع على الواحد والجمع قال عطاء البدن البقرة والبعير وقوله: **جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**.

قيل معناه جعلناها لكم فيها عبادة لله بما في سوقها إلى البيت وتقليدها بما ينبي أنها هدي ثم نحرها للأكل منها وإطعام القانع والمعتّر وقيل، من شعائر الله، معناه من معالم الله، وقيل معنى من شعائر الله، من أعلام الشريعة التي شرعها الله وأضافها إلى إسمه تعظيماً لها، وقوله: **لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ** قال ابن عباس نفع في الدنيا وأجر في الآخرة.

وقال النخعي من إحتاج إلى ظهرها ركب وإلى لبنها شرب وقوله: **فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا**، أي عند النحر والمراد بالذكر التسمية، (صواف) حال من الهاء أي بعضها إلى جنب بعض وقال الزمخشري أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ، صوافن، من صفون الفرس وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سممكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرئ صوافي، أي خوالص لوجه الله إنتهى.

وقوله: **فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا**، وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقطت ووجب الشمس وجبة غربت والمعنى فإذا وجبت جنوبها وسكنت نساؤها حل لكم الأكل منها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتّر، قيل القانع والمعتّر المتعرض بغير سؤال، وقيل القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعاً وقناعة، والمعتّر المتعرض بسؤال، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون، أي مثل ذلك ذللنا هذه

الأنعام لكم تصرفوها على حسب إختياركم لكي تشكروا على نعمه التي أنعم الله بها عليكم.

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ

قال مجاهد أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح و تشريح اللحم منصوباً حول الكعبة و نضح الكعبة حواليتها بالدم تقرباً إلى الله فنزلت هذه الآية.

و عن ابن عباس قريب منه و المعنى لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها و لا الدماء المهرقة بالنحر و المراد أصحاب اللحوم و الدماء و المعنى لن يرضى المضحون و المقربون ربهم إلى بمراعاة النية و الاخلاص و الإحتياط بشروط التقوى في حل ما قرب به و غير ذلك من المحافظات الشرعية و أوامر الورع فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية و التقريب و إن كثر ذلك منهم. و قال بعض المفسرين معنى الكلام لن يتقبل الله اللحوم و لا الدماء و لكن يتقبّل التقوى فيها و فى غيرها بأن يوجب فى مقابلتها الثواب، و قيل لن يبلغ رضا الله لحومها و لا دماؤها و لكن ينالها التقوى منكم هكذا فسّروا الآية بأس به و الذي يخطر بالبال فى معنى المراد هو أنّ الله تعالى بصدد بيان نقطة أخرى و هي أنّ مجرد الذبح و الهدى لا يكفي فى الإمتثال إذا لم يكن بقصد القربة أن يكون العمل لله و بداعي أمره بل اللازم فيه هو مراعاة التقوى و ذلك لقوله تعالى: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** و إنما أتى بكلمة، لن، التي هي لنفس الأبد دون، ما و لا و ليس و غيرها من حروف النفي لدلالة على أنّ هذا الحكم أعني به عدم القبول يستمر الى الأبد و لا يختص بزمان و مكان خاص و السر فيه أنّ الله تعالى غنيّ بالذات لا يحتاج الى غيره فكل نفعه فى الدنيا و الآخرة يرجع الى صاحبه و إذا كان العمل لغير الله فلا نفع فيه فالمعنى أنّ اللحم و

الدِّمَّ لَنْ يَصِلَا إِلَى اللَّهِ وَالَّذِي يَصِلُ إِلَيْهِ وَيَتَرْتَبِ الثَّوَابُ عَلَيْهِ هُوَ الْخُلُوصُ فِي الْعَمَلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِنَّهُ يَضَعُ أَلَكُمُ الطَّيِّبَ وَ أَلْعَمَلَ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ^(١) ولذلك قال: **كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ** أي هداكم إلى الثَّوَابِ وقوله: **وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** معناه بَشِّرْهُمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وقبول الأعمال منهم.

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ
 قيل معنى، يدافع، ينصر، أي أَنْ اللَّهَ يَنْصُرُهُمْ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ تَارَةً بِالْقَهْرِ وَأُخْرَى بِالْحِجَّةِ وقوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** أي أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَوَّانَ وَهُوَ الَّذِي يَظْهَرُ النَّصِيحَةَ وَيُضْمِرُ الْعُشَّ لِلنِّفَاقِ أَوْ لِقُطَاعِ الْمَالِ أَنْ مِنْ ذِكْرِ اسْمِ غَيْرِ اللَّهِ عَلَى الذَّبِيحَةِ فَهُوَ الْخَوَّانُ وَالْكَفُورُ هُوَ الْجَحُودُ لِنِعْمِ اللَّهِ قَالَهُ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ.

أَقُولُ: رَوَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كَثُرُوا بِمَكَّةَ أَذَاهُمْ الْكَفَّارَ وَهَاجَرُوا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ أَرَادَ بَعْضُ مُؤْمِنِي مَكَّةَ أَنْ يَقْتُلَ مِنْ أَمَكْنِهِ مِنَ الْكَفَّارِ وَيَحْتَالُ وَيَغْدِرَ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ قِيلَ قَوْلُهُ: **كَفُورٍ** وَعَدَّ فِيهَا بِالْمُدَافَعَةِ وَنَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالذَّفْعِ عَنْهُمْ وَالنَّصْرَةِ لَهُمْ وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَعْدَائَهُمُ الْخَائِنِينَ.

أَقُولُ: لَمْ يَدَلَّ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الرِّوَايَةِ الَّتِي ذَكَرُوهَا فِي شَأْنِ النُّزُولِ وَعَلَى فَرْضِ صِحَّتِهَا فَالْحُكْمُ عَامٌّ وَأَنْ كَانَ الْمُورِدُ خَاصًّا، فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ الْكَافِرِينَ بِنِعْمِهِ وَهَذَا الْحُكْمُ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكُلَّ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَائِنَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا الْخَائِنُ وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهُ عَنِ الْقُبَاحِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ (يُدَافِعُ) أَيُّ يُدَافِعُ عَنْهُمْ أَعْدَائَهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ مَا يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ لِيَكُونَ أَفْخَمَ وَأَعْظَمَ.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ
 قيل أَنَّ هذه الآية نزلت في المهاجرين الَّذِينَ أخرجهم أهل مَكَّة من
 أوطانهم وهاجروا مع الرَّسُول وبعده إلى المدينة فلمَّا قووا فيها أمرهم الله
 بالجهاد وبيَّن في الآية أَنَّهُ أُذِنَ لَهُمْ فِي قتال من ظلمهم وأخرجهم من أوطانهم
 والمأذون فيه محذوف أي في القتال لدلالة، يقاتلون، عليه وعللٌ للأذن بأنَّهم
 ظلموا قيل كانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروبٍ ومشجوج فيقول
 لهم إصبروا فأني لم أومر بالقتال قيل أَنَّهَا أَوَّل آية أُذِنَ فِيهَا بالقتال بعد مات نهى
 عنه في نَيْفٍ وسبعين آيةً وقال بعضهم نزلت في قومٍ خرجوا مهاجرين
 فأعرضهم مشركوا مَكَّة فأذن لهم في مقاتلتهم وأنَّ الله على نصرهم لقدير،
 وعد بالنصر والأخبار بكونه يدفع عنهم.

الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ
 اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ
 يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ
 بعد الإذن في القتال في الآية السابقة بين حال المأذونين فقال: الَّذِينَ
 أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ بل ظلمًا محضًا، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ و
 المعنى إِلَّا أَنْ يَقُولُوا الْحَقَّ فكأنَّه قَالَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا الْحَقَّ الَّذِي
 هو قولهم: رَبُّنَا اللَّهُ، وقيل، إِلَّا، بمعنى، لكن، وتقديره لَكُنْهُمْ يَقُولُونَ رَبُّنَا اللَّهُ
 فهو إستثناء منقطع فهو كقولك ما غضبت عليَّ إِلَّا إِنِّي منصف، وما تبغض
 فلانًا إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ أي جعلت ذلك ذنبه، وقال القراء تقديره إِلَّا بَأَن يَقُولُوا
 وعلى هذا فتكون، أن، في موضع الجَرِّ وقال بعض المفسرين، الَّذِينَ أَخْرَجُوا
 فِي مَوْضِعٍ جَرٍّ، نَعَتْ، لِلَّذِينَ، أو بدل أو في موضع نصب بأعني، أو في موضع
 رفع على إضمار، هم، وَاَلَّذِينَ يَقُولُوا، إستثناء منقطع، وَاَنْ يَقُولُوا فِي مَوْضِعٍ
 نصب لَأَنَّهُ مَنطُوع لا يمكن توجَّه العامل عليه فهو مقدَّر بَلَكِنْ، من حيث

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

المعنى لأنك لو قلت، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ لَمْ يَصَحَّ بخلاف قولك ما في الدَّارِ إِلَّا حِمَارٌ فَأَنَّ الإِسْتِثْنَاءَ، منقطع ويمكن أَنْ يَتَوَجَّهَ إليه العامل فيقول ما في الدَّارِ إِلَّا حِمَارٌ، فهذا يجوز فيه النَّصْبُ و الرَّفْعُ، النَّصْبُ للمجاز و الرَّفْعُ لیتَمُّ و أجاز أبو إسحاق فيه الجَرُّ على البدل و تبعه الرَّمْخَشَرِيُّ فقال: أَنْ يَقُولُوا، في محلِّ الجَرِّ على الأبدال من حَقِّ أي بغير موجب سوى التَّوْحِيدِ الَّذِي ينبغي أَنْ يكون موجب الإقرار و التَّمَكِينِ لا موجب الإخراج و التَّبْشِيرِ ومثله، هَلْ تَنْقُضُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَّا^(١) إنتهى.

أقول: و ما أجازاه من البدل لا يجوز لأنَّ البدل لا يكون إلا إذا سبقه نفي أو نهى أو إستفهام في معنى النفي نحو ما قام أحد إلا زيد و لا يضرب أحد إلا زيد و هل يضرب أحد إلا زيد و أما إذا كان الكلام موجِباً أو أمراً فلا يجوز البدل لا يقال قام القوم إلا زيد على البدل و لا يضرب القوم إلا زيد على البدل لأنَّ البدل لا يكون إلا حيث يكون العامل يتسلط عليه، و قال البيضاوي، و الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، يعني مكة، بغير حَقِّ، أي بغير موجب إستحقوا به، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ على طريق قول التَّابِغَةِ:

و لا عيب غير أَنْ سيوفهم
بَهَنَ فلولٌ من قراع الكتائب
و قيل منقطع إنتهى.

أقول: هذا ما ذكرناه في تفسير الآية و لا بأس به و الَّذِي يخطر بالبال في حلَّ الإشكال هو أَنَّهُ تعالى لَمَّا ذكر في الآية السَّابِقَةَ الإِذْنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ و عَلَّلَهُ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا فَكَأَنَّهُ قِيلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، فقال تعالى: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ أَي أُخْرِجُوا ظُلماً لأنَّهُمْ لم يصدر منهم ذَنْبٌ إستحقوا به للإخراج من أوطانهم إِلَّا قولهم رَبَّنَا اللَّهُ أَي إِلَّا أَنَّهُمْ قالوا بالتَّوْحِيدِ و هذا ليس ممَّا يوجب الإخراج بل الموجب له هو الفساد في الأرض ففي الآية ذَمٌّ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ عَدَّوْا التَّوْحِيدَ مِنَ الفساد الموجب للإخراج و حاصل الكلام أَنَّهُمْ

أخرجوا بسبب قولهم ربنا الله وهذا مثل قولك قتلوا زيداً بإيمانه، وقولك لا ذنب لزيد إلا أنه مؤمن وأما قوله: **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْذِمَتْ صَوَامِعُ فَقَرَا، نَافِعٌ وَلَوْلَا دَفَاعُ اللَّهِ، وَلَهْدِمَتْ بِالتَّخْفِيفِ، وَالمَعْنَى** لخربت صوامع، أي صوامع الرهبانية وهي للنصارى، وبيع، بكسر الباء وفتح الياء لهم أيضاً، وصلوات، وهي كنائس اليهود سميت بها لأنها يصلي فيها، ومساجد، وهي للمسلمين، **يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، صِفَةٌ لِلأَرْبَعِ وَقِيلَ** لمساجد خاصة خصت بها تفضيلاً، **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ الْبَيْتَ، مَنْ يَنْصُرْ دِينَهُ، أَنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، وَفِي الآيَاتِ أبحاث:**

أحدها: ما أراد بهذا الدفع أو الدِّفاع الَّذِي أضافه الى نفسه، قيل المراد به هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى: **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ أَهْلَ الشُّرْكِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي جِهَادِهِمْ وَيَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ** لأستولى أهل الشُّرك على أهل الأديان و عطلوا ما بينونه من مواضع العبادة و لكنّه دفع عن هؤلاء بأن أمرهم بقتال أعداء الذين ليتفرغ أهل الدين للعبادة و بناء البيوت لها و لهذا المعنى ذكر الصَّوامع و البيع و الصَّلوات و أن كانت لغير أهل الإسلام إنتهى ما ذكره الرّازي في تفسيره ثم نقل عن المفسرين وجوهاً آخر.

أحدها: قال الكلبي يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين و بالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد.

ثانيها: روي أبو الجوزاء عن ابن عباس أنّه قال يدفع الله بالمحسن عن المسي و بالَّذي يصلي عن الَّذي لا يصلي و بالَّذي يتصدق عن الَّذي لا يتصدق و بالَّذي يحج عن الَّذي لا يحج و عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنّ الله يدفع بالمسلم الصالح عن مئة من أهل بيته و من جيرانه ثم تلى هذه الآية.

ثالثها: قال الضحاك عن ابن عباس يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذمة.

وابعها: قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشَّهود و عن النَّفوس بالقصاص إنتهى كلامه.

و قال بعض المفسرين من العامة ما هذا لفظه قال عليّ ابن أبي طالب و لولا دفع الله بأصحاب محمد الكفار عن التّابعين فمن بعدهم و أخذ الزّمخشري قول عليّ و حسنه و ذيل عليه فقال دفع الله بعض النَّاس ببعض إظهاره و تسليط المؤمنين منهم على الكافرين بالمجاهدة و لولا ذلك لأستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمته و على متعبداتهم فهدموها و لم يتركوا للتّصارى بيعاً و لا لرهبانهم صوامع و لا لليهود صلوات و لا للمسلمين مساجد و لغلب المشركون في أمة محمد ﷺ على المسلمين و على أهل الكتاب الذين في ذمتهم و هدموا متعبدات الفريقين إنتهى كلامه.

و قال قوم دفع ظلم الظّلمة بعدل الولاة و قالت فرقة بدعاء الأخيار الأقوال كثيرة و ما نقله عن عليّ عليه السلام و حسنه الزّمخشري هو الحقّ ثمّ أنّ الصّوامع و البيع معانها واضح لا خفاء فيه و أنّما الكلام في الصّلاة فقال الجمهور صلوات جمع صلاة، و قرأ بعضهم، صلّوات، بضمّ الصاد و اللّام و قرأ بعضهم، صلوات، بكسر الصاد و سكون اللّام، و حكى عن الجحدري بضمّ الصاد و فتح اللّام و عن الكلبي بفتح الصاد و سكون اللّام و قيل، صلوات، هي مسجد النّصارى بضمّتين من غير ألف و بئاء منقوطة بثلاث، و قرأ عكرمة، بكسر الصاد و إسكان اللّام و واو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث و قيل أنّها عبرانية و ينبغي أن تكون قراءة الجمهور يراد بها الصّلوات المعهودة في الملل و كيف كان فالصلّوات لليهود و قيل غير ذلك و أمّا قوله: **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** إلى آخر الآية فمعناه واضح لا خفاء فيه و من المعلوم أنّ الله ينصر من نصر دينه.

الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ
 آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَ إِن يُكَذِّبُوكَ
 فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودُ (٤٢)
 وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَ أَصْحَابُ
 مَدْيَنَ وَ كَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ
 أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
 أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا
 وَ بِشَرِّ مُعِطَلَةٍ وَ قَصْرِ مَشِيدٍ (٤٥) أَقَلَمَ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنِ
 تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَ
 يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ
 إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ
 كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ
 أَخَذْتُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
 إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ
 عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

اللغة

فَأَمْلَيْتُ: الإِمْلاء التَّأخِيرُ أَي أَخَّرْتُ عِقَابَهُمْ وَ حَلَمْتُ عَنْهُمْ.
 نَكِيرٌ: بَفَتْحِ النَّوْنِ وَ كَسْرِ الْكَافِ كَالنَّذِيرِ الْمُرَادُ بِهِ الْمَصْدَرُ أَيِ الْإِنْكَارِيِّ.

فَكَأَيِّنْ: لِلتَّكْثِيرِ.

خَاوِيَةٌ: أَي ساقطة.

عُرُوشُهَا: جمع عرش وهو السَّقْف.

مُعْطَلَّةٌ: التَّعْطِيلُ إِبْطَالُ الْعَمَلِ بِالشَّيْءِ.

مَشِيدٌ: الشَّدِيدُ الْجَصِّ وَ قِيلَ رَفِيعٌ وَ هُوَ الْمَرْفُوعُ بِالشَّدِيدِ.

الإعراب

فَكَأَيِّنْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ، أَهْلَكْنَاهَا، أَوْ فِي مَوْضِعٍ رَفْعٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَ بِئْسَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَرِيبَةٍ آتَتْ فِي الصَّدُورِ صِفَةً مُؤَكَّدَةً مَعْجَزِينَ حَالٍ.

التفسير

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ
الظاهر أن قوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ، صفة من تقدّم ذكره من المهاجرين في سبيل الله قيل وتقديره، لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ، أَي أَعْطَيْنَاهُمْ كُلَّ مَا لَا يَصَحُّ الْفِعْلُ إِلَّا مَعَهُ لِأَنَّ التَّمَكِّنَ إِعْطَاءٌ مَا يَصَحُّ مَعَهُ الْفِعْلُ وَ الْمَعْنَى لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ وَ أَعْطَيْنَاهُمْ الْقُدْرَةَ عَلَى الْفِعْلِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ قِيلَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ الْإِتْيَانُ بِهَا بِشَرَائِطِهَا وَ آتَوْا الزَّكَاةَ إِذَا وَجِبَتْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قِيلَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى وَجُوبِهَا إِلَّا أَنْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ نَفْلٌ لِأَنَّ الْإِحْتِيَاطَ يَقْتَضِي ذَلِكَ وَ اسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ مَا رَغِبَ اللَّهُ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَهُ وَ كُلُّ مَا أَرَادَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَهُوَ وَاجِبٌ فَالْنَّفْلُ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

أقول: في هذا الاستدلال نظر و ذلك لأنّ الكبرى في القضية ليست بصحيحة فإنّ الإرادة تتعلّق بالنفّل أيضاً و بعبارة أخرى ما أَرَادَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ أَعْمٌ مِنَ الْوَجُوبِ وَ النَّدْبِ فَانْ ثَبِتَ أَنَّ الْإِرَادَةَ تَعَلَّقَتْ بِالْفِعْلِ مَعَ الْمَنْعِ مِنَ النَّقِيزِ

فهو واجى وإلا فهو ليس بواجب ولا يمكن أن يقال أن الإرادة لا تتعلق بالنفل وتفصيل الكلام في الأصول.

وأما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو ثابت كتاباً وسنةً وإجماعاً ومعقلاً وقد مرّ الكلام سابقاً بما لا مزيد عليه فلا نحتاج في إثباتهما بما ذكره المستدل في المقام وقوله ولله عاقبة الأمور، معناه تصير الأملاك لله تعالى لبطلان كل ملك سوى ملكة وقيل توعد للمخالف ما ترتب على التمكن.

وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودُ

في هذه الآية تسليية للرّسول بتكذيب من سبق من الأمم المذكورة لأنبيائهم وعيدٌ لقريش إذ مثلهم بالأمم المكذبة المعذبة وأما أسند الفعل بعلامة التأنيث و قال، كذبت، من حيث أراد الأمة أو القبيلة أي كذبت الأمة قبلهم قوم نوح وقد تقدّم الكلام في قصّة نوح والطوفان وقصّة عاد و ثمود وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ وقد مرّ الكلام فيهما أيضاً.

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

المراد بأصحاب مدين، قوم شعيب النّبي وقوله: كَذَّبَ مُوسَى لم يقل و قوم موسى، لأنّ قومه بني إسرائيل وكانوا آمنوا به وأما كذّبه قوم فرعون، فأملت للكافرين، أي أهملت لهم وأخرت عنهم العذاب مع علمي بفعلهم واستحقاقهم له، ثم أخذتهم، أي هؤلاء الكفار الذين كذبوا الأنبياء فكيف كان إنكاري عليهم وتبديل حالهم الحسنة بالسّيئة وحياتهم بالهلاك ومعمورهم بالخراب وهذا إستفهام فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أشدّ ما كان إنكاري عليهم وفي الكلام إرهابٌ لقريش ومحصل الكلام في الآية هو نزول العذاب

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

على الكفار المكذبين بعد الإمهال والإملاء و أنما أمهلهم إتماماً للحجة ليهلك من هلك عن بينة و يحيا من حيي عنها.

وإعلم أن قوم نوح فأهلكهم الله بالطوفان بعد تكذيبهم إياه:

كما قال الله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ^(١).

و أما قوم عاد و هم قوم هود النبي فأنهم أيضاً كذبوه و قالوا أنا لنظنك من الكافرين فأهلكهم الله:

كما قال الله تعالى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ^(٢).

و أما قوم ثمود فهم أصحاب صالح النبي و قد عقروا الناقة فوقعوا في العذاب:

كما قال الله تعالى: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ^(٣) إلى أن قال: فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ^(٤).

و قد ذكرنا قصصهم في تلك السورة و هكذا قوم إبراهيم و قوم موسى فلا نعيد الكلام بذكرها في المقام حذراً عن الإطناب و قد مرّ الكلام في تلك السورة في أصحاب مدين و هم قوم شعيب فأنهم كذبوا شعبياً فأهلكهم الله أيضاً:

قال الله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ^(٥).

وسياتي الكلام فيها في المستقبل أيضاً.

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثْرِ
مُعْطَلَةٌ وَاقْصِرْ مَشِيدٍ

فَكَأَيِّنْ للتكثير وهي ظالمة، جملة حالية والمعنى وكم من قرية أهلكتها
لَمَّا اسْتَحَقُوا الإهلاك حال كونها ظالمة لنفسها، والمراد أهل القرية أي أنهم
اسْتَحَقُوا العذاب لكونهم ظالمين على أنفسهم بتكذيبهم الرُّسل وما رَبَّكَ
بظلام للعبيد، وفي هذا الكلام إشارة بل تصريح بأن العذاب في الدنيا و
الأخرة بسبب أعمال العبد وهو كذلك صرَّح بذلك كثير من الآيات وقوله
خاوية على عروشها أي تهدمت الحيطان على السَّقوف وقيل على عروشها
أي سقوفها وذلك لأنَّ العرش يطلق على السَّقَف، وبئرٍ معطلةٍ وقصرٍ مشيدٍ.

قال الزمخشري معنى المعطلة أنها عامرة منها الماء ومعها آلات الإستثناء
إلا أنها عطلت أي تركت لا يستقي منها الهلاك أهلها والمشيد المحصص أو
المرفوع البنيان والمعنى قرية أهلكتها أي أهلها وكم بئر عطلناه عن سقاتها و
قصرٍ مشيدٍ أخيلناه عن ساكنيه فترك ذلك لدلالة معطلة عليه إنتهى.

فقوله: وَ يَثْرِ وَ قَصْرٍ، معطوفان على من قريةٍ ومن قريةٍ تمييزٌ، لكأين وكأين،
تقتضي التكثير فدل ذلك على أنه لا يراد بقرية وبئر وقصر، معين وإن كان الإهلاك يقع
في معين لكن من حيث الوقوع لا من حيث دلالة اللفظ ثم أنَّ بعض المفسرين قد عيَّن
هذه البئر ونقل عن ابن عباس أنها كانت لأهل عدن من اليمن وهو الرُّس.

وعن كعب الأحبار أنَّ القصر بناه عاد الثاني وهو منذر بن عاد بن إرم بن
عاد وقال غيره أنَّ البئر بحضر موت والقصر مشرفٌ على قلَّة الجبل لا يرتقى
إليه وقالوا غير ذلك والكُل لا دليل عليه فلا حاجة إلى نقله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الصُّدُورِ

المجلد الحادي عشر

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ وَ تَكْذِيبِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ قَالَ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْهَمْزَةُ لِلِإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ أَيْ أَنَّهُمْ سَارُوا فِيهَا وَ رَأَوْا أَثَارَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْتَبِرُوا بِهَا عِنَادًا وَ كُفْرًا مِنْهُمْ وَ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلحَثِّ عَلَى السَّفَرِ لِيُشَاهِدُوا مِصَارِعَ الْكُفَّارِ فَيَعْتَبِرُوا ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَيْ إِذَا سَارُوا وَ رَأَوْا مِصَارِعَهُمْ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَيْ بِالْقُلُوبِ أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا صَحَّةٌ مَا ذَكَرْنَاهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ بِصَحَّتِهِ مِنَ الَّذِينَ عَرَفُوا أَخْبَارَ الْمَاضِينَ وَ عَلَى هَذَا فَتَكُونُ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ أَيْ أَنْ سَافَرُوا وَ عِلْمُوا وَ عَقَلُوا مَا ذَكَرْنَاهُ هَكَذَا فَسَرُّوا الْكَلَامَ وَ الَّذِي يَخْتَلِجُ بِالْبَالِ هُوَ أَنَّ الْفَاءَ لَيْسَتْ لِلتَّفْرِيعِ لِأَنَّ التَّعْقِلَ وَ الْإِعْتِبَارَ لَا يَتَفَرَّعُ عَلَى الرُّؤْيَا وَ بَعْبَارَةً أُخْرَى رُؤْيَا الشَّيْءِ لَا تَلَازِمُ الْإِعْتِبَارَ بِهِ فَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ يَرُونَ الْأَثَارَ وَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا أَكْثَرَ الْعَبْرَ وَ أَقَلَّ الْإِعْتِبَارَ وَ عَلَى هَذَا فَالْمَعْنَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِ التَّعْقِلِ وَ الْإِسْتِمَاعِ عَنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ لِيَعْتَبِرُوا بِهَا فَالْمُرَادُ بِالسَّيْرِ هُوَ السَّيْرُ لِلتَّعْقِلِ لَا مَطْلُقَ السَّيْرِ وَلَوْ كَانَ بِقَصْدِ السَّيَاحَةِ مَثَلًا وَ أَنَا بَعْدَ مَا إِحْتَمَلْنَا ذَلِكَ رَأَيْنَا فِي تَفْسِيرِ الْبِيضَاوِيِّ مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ مَا هَذَا لَفْظُهُ، حَتَّى لَهُمْ عَلَى أَنْ يَسَافَرُوا لِيَرَوْا مِصَارِعَ الْمُهْلَكِينَ فَيَعْتَبِرُوا وَ هُمْ وَ أَنْ كَانُوا قَدْ سَافَرُوا لَمْ يَسَافَرُوا لِذَلِكَ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَعْقِلَ مِنَ التَّوْحِيدِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِسْتِبْصَارِ وَ الْإِسْتِدْلَالِ إِنْتَهَى.

فَقَوْلُهُ وَ أَنْ كَانُوا قَدْ سَافَرُوا لَمْ يَسَافَرُوا لِذَلِكَ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا الْخِ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فَإِنَّ قَوْلَهُ لَمْ يَسَافَرُوا لِذَلِكَ أَيْ لِلتَّعْقِلِ وَ الْإِعْتِبَارِ. وَ أَمَّا قَوْلُهُ: فَاتَّهَى لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، فَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ، فَإِنَّهَا الضَّمِيرُ ضَمِيرُ الشَّانِ وَ الْقِصَّةُ يَجِيءُ مَذْكَرًا وَ

مؤثراً و في قراءة ابن مسعود فأنه، و يجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره الأبصار و في تعمي ضمير راجع إليه و المعنى أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها و أما العمى بقلوبهم أو لا يعتدّ بعمى الأبصار فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب إنتهى كلامه.

أقول في الآية إشارة إلى نقطة خفية دقيقة و هي الحواس أعني بها الباصرة و السامعة و اللمسة و الذائقة و الشامة وظيفتهما الإدراك المجرد و أما حسن المدرك أو قبحه فهو من وظائف العقل الذي مدركٌ للكليات فالمدرك بأحدى القوى ينتقل إلى العقل و هو الحاكم فيه و محلّه القلب و بهذا يفترق الإنسان عن الحيوان ألا ترى أن هذه الحواس موجودة في الحيوان أيضاً بل هي فيه أشدّ و أقوى منها في الإنسان في أكثر الحيوانات إلا أنه ليس للحيوان فيها تعقل و تدبر فلو كان الإنسان أيضاً كذلك فما الفرق بينه و بين الحيوان و على هذا ينبغي أن يكون الإنسان متّعلاً متدبراً فيما يراه بعينه أو يسمع بأذنه و هكذا و هذا هو المترقب منه فمن رأى شيئاً ببصره و لا يعقله فكأنه لم يبصره إذا عرفت هذا.

فقوله تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** معناه أن كثيراً من الناس يرون الآثار و لكن لا يعقلوها فعبر عن عدم التعقل بعمى القلوب مجازاً:

كما قال الله تعالى: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا**
 الى قال: **أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ^(١) والله أعلم.

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٧

الجلد العادي على

أَيَّ يَسْتَعْجِلُونَكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْعَذَابِ قِيلَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَحْذَرُ قَرِيشَ نَقَمَاتِ اللَّهِ وَيُوعِدُهُمْ بِذَلِكَ دُنْيَاً وَآخِرَةً وَهُمْ لَا يَصْدَقُونَ بِذَلِكَ وَيَسْتَعْجِدُونَ وَقَوْعَهُ فَكَانَ إِسْتَعْجَالَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِهْزَاءِ وَأَنْ مَا تَوَعَّدُنَا بِهِ لَا يَقَعُ وَأَنَّهُ لَا بَعَثَ وَلَا نَشُورَ وَفِي قَوْلِهِ: وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَا مُحَالَةً لَكِنْ لَوْ قَوَّعَ الْعَذَابَ أَجَلَ لَا يَتَّعِدُهُ وَأَضَافَ الْوَعْدَ إِلَيْهِ تَعَالَى لِأَنَّ رَسُولَهُ هُوَ الْمَخْبَرُ عَنْهُ تَعَالَى فَوَعْدُهُ ﷺ وَعْدُهُ ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْكَرَ عَلَيْهِ إِسْتَعْجَالَهُمْ بِالْمَتَّوَعَّدِ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ وَالْأَجَلَ فَكَأَنَّهُ قَالَ وَلَمْ يَسْتَعْجِلُوا بِهِ كَأَنَّهُمْ يَجْوزُونَ الْفَوْتَ وَالْخُلْفَ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ يَجْوزُ ذَلِكَ عَلَى مِيعَادٍ مِنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخُلْفَ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ وَمَا وَعَدَهُ لِيَصِيبَهُمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ وَهُوَ سَبْحَانَهُ حَلِيمٌ لَا يَعْجَلُ ثُمَّ قَالَ وَأَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

إِخْتَلَفُوا فِي هَذَا التَّشْبِيهِ فَقِيلَ فِي الْعِدَدِ أَيَّ الْيَوْمِ عِنْدَ اللَّهِ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ عِدَدِكُمْ وَفِي الْحَدِيثِ يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَلِكَ خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى، وَأَنْ طَالَ الْإِمْهَالُ فَأَنَّهُ فِي بَعْضِ أَيَّامِ اللَّهِ.

وَقِيلَ التَّشْبِيهِ وَقَعَ فِي الطُّوْلِ لِلْعَذَابِ فِيهِ وَالشَّدَّةِ أَيَّ وَأَنْ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ عَذَابِ اللَّهِ لَشَدَّةِ الْعَذَابِ وَطَوْلِهِ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِنْ عِدْوَكُم فَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْوَاحِدَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِنْ سَنَى الْعَذَابِ وَالْمَعْنَى أَنََّّهُمْ لَوْ عَرَفُوا حَالَ الْآخِرَةِ مَا اسْتَعْجَلُوهُ، وَقِيلَ التَّشْبِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَإِنْفَاقِ مَا يَرِيدُ كَأَلْفِ سَنَةٍ وَأَقْتَصَرَ عَلَى أَلْفِ سَنَةٍ وَأَنْ كَانَ الْيَوْمُ عِنْدَهُ كَمَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ مِنَ الْعِدَدِ وَلَكِنْ الْأَلْفُ مَمْتَهَى الْعِدَدِ وَدُونَ تَكَرَّرَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَرَادَ بِالْيَوْمِ مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

و قال ابن عيسى يجمع لهم عذاب ألف سنة في يوم واحدٍ و لأهل الجَنَّة سرور ألف سنة في يوم واحدٍ، و قال الفراء تَضَمَّت الآية عذاب الدُّنيا و الآخرة و أريد العذاب في الدنيا أي لن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا و أنّ يوماً من أيّام عذابكم في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا فكيف تستعجلون العذاب و الأقوال في هذا التَّشبيه كثيرة.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ
قلنا أنّ، كأيّن، للتكثير أي وكم من قرية و المقصود أهلها فهو من قبيل قوله تعالى و أسئل قرية، أي و أسئل أهلها، أمليت، الإملاء و الإملال و التّأخير نظائر و المعنى أخرت العذاب عنها و أن شئت قلت أمهلتها و هي ظالمة، الواو للحال أي حال كونها ظالمة و لا يبعد أن يكون الإمهال و التّأخير لأجل التّوبة و الرجوع عمّا كانوا عليه من العصيان فقلوه: ثُمَّ أَخَذْتُهَا، أي بعد الإملاء و الإمهال أخذتها بالعذاب و في هذا الكلام إشارة الى أنّ الله تعالى رؤوفٌ بعباده و هو كذلك و قوله: وَإِلَى الْمَصِيرِ، إشارة الى أنّ الأمور تصير إليه.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

أمر الله نبيه أن يقول للمشركين أيها الناس إنّما أنا لكم نذيرٌ، أي مخوِّفٌ من عذاب الله و موضحٌ لكم ما يجب عليكم فعله و ما يجب عليكم تركه قال الله تعالى: إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ^(١) فذكر النّذارة دون البشارة لأنّ الحديث مسوقٌ للمشركين و قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ نداءٌ لهم و هم المقول فيهم (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) و المنجز عنهم باستعجال العذاب و حصر النّذارة فيه لأنّ المعنى ليس لي بتعجيل العذاب و لا تأخير عنيكم و إنّما هو بيد الله و إرادته و إنّما أنا منذرهم به و ما على الرّسول إلّا البلاغ:

في القرآن تفسير

جزء ١٧

الجلد العاشر

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

و المراد بالإيمان هو التصديق بوحدايته ونبوة رسوله ثم العمل و لذلك أردف الإيمان بالعمل الصالح و قال: وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وفيه إشارة بل دلالة على أنَّ الإيمان لا يتحقق إلا بالعمل الصالح و مجرد الاعتقاد و الإقرار لا يكفي في تحققه فمن كان مؤمناً له مغفرة من الله لمعاصيه و رزق كريم أي مع إكرامهم بالثواب الذي لا يقاربه تعظيم و لا تبجيل ففي الآية السابقة أثبت للرسول الإنذار و في هذه الآية أثبت البشارة.



وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
 مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيِّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ
 فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
 يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ
 مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
 وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ
 بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ
 اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)
 وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى
 تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ
 (٥٥) أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
 (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا
 حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)
 لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ
 (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ
 بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَتُصَرَّنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠)

◀ اللّٰغَةُ

مُعَاجِزِينَ: قيل عاجز أي سابق وعجز أي سبق.
 أُمْنِيَّتِهِ: بضم الألف وكسر النون وفتح الياء معناها الفكرة بلغة قريش.
 فَتَحُتْ: الإحبات الأطمئنان.
 بَعْتَهُ: أي فجأه.
 لَعَفُوْهُ عَفُوْهُ: مبالغة من العفو والغفران.

◀ الإِعْرَابُ

مُعَاجِزِينَ حال و يقرأ، معجزين أيضاً إِلَّا إِذَا تَمَنَّى قيل هو إستثناء من غير الجنس قُلُوبِهِمْ مرفوع بإسم الفاعل و هو القاسية فَيُؤْمِنُوا هو معطوف على، ليعلم، وكذلك فتختب في مَرِيَّةٍ بالكسر والضّم و هما لغتان يَوْمِئِذٍ منصوب بقوله، لله، ولله الخبر.

◀ التّفْسير

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
 قيل في معناه أَنَّ الَّذِينَ يعجزون المؤمنين في قبول هذه الآيات أي يعجزونهم من إقامتها بجحدهم تدبير الله لها، و قيل معناه يعجزونهم عن تصحيحها والسعي الإسراع في المشى.
 و قال مجاهد معناه من إتباع آيات الله هذا كله على قراءة معجزين بغير ألف.

و أما على قراءة، معاجزين، كما عليها المصاحف كلها و هي المشهور فالمعنى أَنَّهُمْ يجادلون عجز الغالب و منهم من قرأ، معجّزين، بالتشديد و معناه طلب إظهار العجز و قال ابن عباس معنى، معاجزين، ماقين، و قيل معنى، معجزين، مسابقين.

وقال بعض المفسرين السَّعي الطَّلَب والإجتهاد في ذلك يقال سعى فلان في أمر فلان، فيكون بإصلاح وفسادٍ وقد يستعمل في الشر يقال فيه سعى بفلان سعاية أي تحيُّل وكاد في إيصال الشر اليه وسعيهم بالفساد في آيات حيث طعنوا فيها فسموها سحراً وشعراً وأساطير الأولين وثبطوا الناس عن الإيمان بها.

قال الزَّمَخْشَرِي، عاجزه، سابقه، فالمعنى سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم إنتهى.

وقال أبو علي الفارسي، معجزين معناه ناسبين أصحاب النبي الى العجز كما تقول فسقت فلاناً إذا نسبته الى الفسق.

أقول: معنى الآية لا خفاء فيه ولا يحتاج الى هذه التَّخْرِيجَاتِ والمعنى، الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا بِالرَّدِّ وَالْإِبْطَالِ، معاجزين، أي مسابقين مشتاقين للساعين فيها بالقبول والتَّحْقِيقِ من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سبقه فسبقه لأنَّ كلاً من المتسابقين.

يطلب إعجاز الآخر عن اللِّحاق به:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

روي عن ابن عباس وابن جبير وغيرهما في سبب نزول الآية أنه لما تلى النبي: أَفَرَأَيْتُمْ آلَافًا وَ أَلْعَزَى وَمِنَ ثَالِثَةِ الْآخِرَى^(١).

ألقي الشَّيْطَانُ فِي تِلَاوَتِهِ، تلك الغرائق العلى وأن شفاعتهن لترجى، ومعنى الآية التَّسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا إِلَّا إِذَا تَمَنَّى

في القرآن في تفسير القرآن



الجلد العادي عشر

يعني، تلا، ألقى الشَّيْطَانُ في تلاوته بما يحاول تعطيله فيرفع الله ما ألقاه بمحكم آياته و قيل، الأمانة الفكرة بلغة قریش.

و قال مجاهد كان النَّبِيُّ ﷺ إذا تأخَّر عنه الوحي تمنَّى أن ينزل عليه فيلقي الشَّيْطَانُ في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشَّيْطَانُ و يحكم آياته.

و قال الجبائي أنما كان يغلط في القراءة سهواً فيها و ذلك جائز على النَّبِيِّ لأنه سهوٌ لا يعري عنه بشر و لا يلبث أن ينهه الله تعالى عليه.

و قال غيره أنما قال ذلك في تلاوته بعض المنافقين عن إغواء الشياطين و أمرهم أنه من القرآن، و قال الحسن أنما قال هي عند الله كالغرائق العلى يعني الملائكة في قولكم و أنَّ شفاعتَهم لترجى في إعتقادكم و التَّمني في الآية معناه التَّلاوة.

قال الشَّاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلةٍ و آخره لاقى حمام المقادر

و قال الجبائي أنما سهى النَّبِيُّ في القراءة نفسها فأما الرواية بأنه قرأ تلك الغرائق العلى و إنَّ شفاعتَهم لترجى، فلا أصل لها لأن مثله لا يغلط على طريق السَّهو و أنما يغلط في المتشابه إنتهى ما ذكره في التَّبيان في تفسير الكلام.

و قال بعض المفسرين من العامة أنَّ الأنبياء كانوا حريصين على إيمان قومهم و أنه ما منهم أحد إلا و كان الشَّيْطَانُ يراغمه بتزيين الكفر لقومه و بثَّ ذلك اليهم و إلقاءه في نفوسهم كما أنه ﷺ كان أحرص النَّاس على هدى قومه و كان فيهم شياطين كالنَّضر بن الحرث يلقون لقومه و للوافدين عليه شبهاً يثبُتون بها عن الإسلام و لذلك جاء قبل هذه الآية وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ و سعيهم بإلقاء الشَّبه في قلوب من إستحاله و نسب ذلك الى الشَّيْطَانُ لأنه المغوي و المحرِّك شياطين الإنس للإغواء كما قال لأغوينهم،

إنتهى.

وقيل أنَّ المراد بالشَّيْطان هنا هو جنس يراد به شيطان الإنس و الضَّمير في، أمنيته، عائد الى الشَّيْطان أي في أمنيته نفسه أي بسبب أمنيته، نفسه و مفعول، ألقى، محذوف لفهم المعنى و هو الشر و الكفر و مخالفة ذلك الرُّسول أو النَّبي لأنَّ الشَّيْطان ليس يلقي الخير و معنى فينسخ الله ما يلقي الشَّيْطان أي يزيل تلك الشَّبه شيئاً فشيئاً حتَّى يسلم النَّاس كما قال، و رأيت النَّاس يدخلون في دين الله أفواجاً إنتهى.

أقول نحن نذكر قصّة الغرائق بتمامها ثمّ نتكلّم فيها.

قال الرّازي في تفسيره ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية أنَّ الرُّسول ﷺ لمّا رأى إعراض قومه عنه و شقّ عليه ما رأى من مباحدهم عمّا جاءهم به تمنّى أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه و بين قومه و ذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله و أحبّ يومئذٍ أن لا يأتيه من الله شيئاً ينفروا عنه و تمنّى ذلك فأنزل الله سورة، **والنَّجم إذا هوى** فقرأها رسول الله ﷺ حتّى بلغ قوله أفرايم اللات و العزى و مائة الثالثة الأخرى، ألقى الشَّيْطان على لسانه تلك الغرائق العلى منها الشفاعة ترتجى، فلمّا سمعت ذلك قريش فرحوا و مضى رسول الله ﷺ في قرائته فقرأ السُّورة كلّها فسجد المسلمون لسجوده و سجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمنٌ و لا كافر إلاّ سجد سوى الوليد بن المغيرة و أبي أصيحة سعيد بن العاصي فأنهما أخذتا حفنةً من التراب من البطحاء و رفعاهما الى جبهتهما و سجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السُّجود و تفرقت قريش و قد سرّهم ما سمعوا و قالوا قد ذكر محمّد آلهتنا بأحسن الذّكر فلمّا أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبرئيل فقال ماذا صنعت تلوت على النَّاس ما لم آتك به عن الله و قلت ما لم أقل لك فحزن رسول الله حزناً شديداً و خاف من الله خوفاً عظيماً حتّى نزل قوله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ

هذا رواية عامة المفسرين الظاهرين و أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة و إحتجوا عليه بالقرآن و السنة، و المعقول إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

ثم شرع في الاستدلال على بطلان الرواية مفصلاً بما لا مزيد عليه و نقل عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سأل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة و صنّف فيه كتاباً و قال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم فقد روي البخاري في صحيحة أن النبي ﷺ قرأ سورة، و النجم، و سجد فيها المسلمون و المشركون و الإنس و الجنّ و ليس فيه حديث الغرائق و روي هذه الحديث من طرق كثيرة و ليس فيها ألبتة حديث الغرائق هذا ما ذكره الرّازي في ردّ الحديث من طرق السنة ثم شرع في ردّه من طريق العقل فقال و أمّا المعقول فمن وجوه:

أحدها: أن من جوّز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن سعيه ﷺ كان في نفي الأوثان.

ثانيها: أنه كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي و يقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له حتّى كانوا ربما مدّوا أيديهم اليه و أنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة و ذلك يبطل قولهم.

ثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقرّوا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتّى خروا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم.

رابعهما: قوله: **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَكِّمُ اللَّهُ أَيَاتِهِ** وذلك لأنَّ إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنًا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى.

خامسها: وهو أقوى الوجوه لو جَوَّزنا ذلك إرتفع الإمامان عن شرعه و جَوَّز في كل واحدٍ من الأحكام و الشرائع أن يكون كذلك و يبطل:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**^(١).

فأنَّه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي و بين الزيادة فيه فهذه الوجوه عرَّفنا على سبيل الإجمال أنَّ هذه القصَّة موضوعة أكثر ما في الباب أنَّ جمعاً من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حدَّ التواتر و خبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية و النقلية المتواترة إنتهى ما ذكره و حققه في المقام.

و قال الطبرسي رحمته الله في المجمع في قوله تعالى: **إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ** ما هذا لفظه قال المرتضى رحمته الله لا يخلو التمني في الآية من أن يكون معناه التلاوة كما قال حسان بن ثابت:

تمنى كتاب الله أول ليلة و آخره لاقى الحمام المقادر

أو يكون التمني فأن كان المراد التلاوة فالمعنى أنَّ من أرسل قبلك من الرُّسل كان إذا تلى ما يؤديه الى قومه حرَّفوا عليه و زادوا فيما يقوله و نقصوا كما فعلت اليهود و أضاف ذلك الى الشيطان لأنَّه يقع بغروره فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيله و يدحضه بظهور حججه و خرج هذا على وجه التسلية للنبي لما كذب المشركون عليه و أضافوا الى تلاوته من مدح آلهتهم ما لم يكن فيها، و أن كان المراد تمنى القلب فالوجه أنَّ الرسول متى تمنى بقلبه

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

ما يَتَمَنَاهُ من الأمور ووسوس إليه الشَّيْطَانُ بالباطل يدعوه إليه و ينسخ الله ذلك و يبطله بما يرشده إليه من مخالفة الشَّيْطَانِ و ترك إستماع غروره قال و أمَّا الأحاديث المروية في هذا الباب فهي مطعونة مضغطة عند أصحاب الحديث، إلى أن قال و لا يجوز أن يقع مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السُّورة و نظمها ثم لمعنى ما تَقْدَمُها من الكلام و قد قال الله سبحانه: كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ^(١) و قال: سَنَقْرِيكَ فَلَا تَنْسَى^(٢) إلى آخر كلامه.

أقول: إنَّما ذكرنا ما نقله الرَّايزي من العامة و الطَّبْرسي من الخاصَّة بطوله و تفصيله لتعلم أنَّ حديث الغرانيق من الموضوعات بإجماع المحققين من العامة و الخاصَّة إذا عرفت هذا.

فنقول مضافاً إلى ما ذكره في وجه البطلان أنَّه قد ثبت عقلاً و نقلاً عصمة النَّبي و هذا ممَّا لا كلام فيه إلَّا أنَّ أكثر العامة قالوا بها بعد البعثة و أمَّا قبلها فلا و قال بعضهم بعدمها بعد البعث أيضاً إلَّا في تبليغ الأحكام و أمَّا الخاصَّة فقالوا بعصمة الأنبياء قولاً واحداً قبل البعثة و بعده و على هذا فالعصمة ثابتة في حقِّ الرُّسول في تبليغ الأحكام الشرعيَّة بإجماع المَرَكَب و لا شك أنَّ تبليغ الآيات من الأحكام فإذا فرضنا صحَّة إلقاء الشَّيْطَانِ على لسانه يلزم عدم الإعتماد و هو كما ترى ينافي عصمته هذا أولاً.

ثانياً: قد ثبت أنَّ الشَّيْطَانِ لا يقدر على إغواء المخلصين من عباد الله فضلاً عن الأنبياء و الرُّسل و الأوصياء و قد دلَّت الآيات عليه و من المعلوم أنَّ إلقاء الشَّيْطَانِ في أمنيته لا يكون إلَّا بعد تسلُّط الشَّيْطَانِ على النَّبي و هو مناف لصريح الآيات كما حكى الله تعالى عنه بقوله: فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^(٣) و لا يكون عبداً أخلص في عبادته من النَّبي و الرُّسول.

ثالثاً: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي الرَّسُولِ وَ مَا يَنْطِقُ عَنْ النَّهْيِ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى^(١) فَلَوْ صَحَّ إِقْدَاءُ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِهِ لَصَحَّ إِقْدَائُهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ لِأَنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ.

فَأَنْ قُلْتُ: لَعَلَّ مِنْ جَوِّزِ ذَلِكَ حَمْلُهُ عَلَى السَّهْوِ يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ عَلَى مَسَلِّكَ الْعَامَّةِ وَبَعْضِ الْخَاصَّةِ.

قُلْتُ: أَمَّا أَوَّلًا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ السَّهْوُ عَلَى مَذْهَبِ الْحَقِّ لِأَنَّهُ يَنْفِي الْعَصْمَةَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَحَلِّهِ.

ثانياً: لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى السَّهْوِ لِأَنَّ السَّاهِيَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ مِثْلُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْمَطَابِقَةِ لَوْزَنِ السُّورَةِ وَنَظْمِهَا ثُمَّ لَمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ الْكَلَامِ وَهُوَ ظَاهِرٌ عَلَى الْمُتَأَمَّلِ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَ سَيَأْتِي الْبَحْثُ فِيهِ فِي سُورَةِ النَّجْمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ مَعْنَاهُ يُبْقِي آيَاتِهِ وَ دَلَائِلَهُ وَ أَوَامِرَهُ مُحْكَمَةً لَا سَهْوَ فِيهَا وَ لَا غَلْطَ، وَ أَمَّا مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّيْطَانِ هُوَ جَنْسُهُ يَرَادُ بِهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَ الضَّمِيرُ فِي أَمْنِيَّتِهِ، عَائِدٌ عَلَى الشَّيْطَانِ أَيْ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي، أَمْنِيَّتِهِ، نَفْسَهُ أَيْ بِسَبَبِ أَمْنِيَّةِ نَفْسِهِ وَ مَفْعُولٌ، أَلْقَى مُحذُوفٌ لِفَهْمِ الْمَعْنَى وَ هُوَ الشَّرُّ وَ الْكُفْرُ وَ مُخَالَفَةُ ذَلِكَ الرَّسُولِ وَ النَّبِيِّ لِأَنَّ الشَّيْطَانِ لَيْسَ يُلْقِي الْخَيْرَ وَ مَعْنَى فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ أَيْ يَزِيلُ تِلْكَ الشُّبُهَةَ شَيْئاً فُشِيئاً إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ فَهُوَ وَ أَنْ كَانَ بِمَحَلٍّ مِنَ الْإِمْكَانِ إِلَّا أَنَّهُ مُخَالَفٌ لظَاهِرِ الْآيَةِ مُضَافاً إِلَى أَنَّ جُمْهُورَ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى خِلَافِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ كَلَامِهِ.

في القرآن: في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ آَلْفَاسِيَةً لِقُلُوبِهِمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

الفتنة الإبتلاء و الإختبار و الذين في قلوبهم مرض عامّة الكفّار و المنافقين و الشّاكين و القاسية قلوبهم خوّاص من الكفّار كأبي جهل و النّضر و عتبة و قيل المشركون المكذبون، و أنّ الظالمين أي و أنّ هؤلاء المنافقين و المشركين و أصله و إنهم، فوضع الظّاهر موضع المضمّر قضاءً عليهم بالظلم، و الشّقاق المشاقّة أي، أي في غير شقّ الصّلاح و وصفه بالبعيد مبالغةً في إنتهائه و أنّهم غير مرجّو رجعتهم منه و معنى الآية أنّه تعالى يجعل ما يلقيه الشّيطان من الأمنيّة، فتنة أي إمتحاناً و إختباراً للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم. أن قلت: كيف يصح أن يجعل الله ما يلقيه الشّيطان فتنة.

قلت: ذكروا في معنى الجعل أمرين:

أحدهما: الحكم و التسمية كما تقول جعلت حسني قبيحاً و يكون المراد أنّه ينسخ ما يلقي الشّيطان طلباً للفتنة و الإغواء.

الثاني: أنّه أراد ليجعل نسخ ما يلقي الشّيطان فتنة لأنّ نفس فعل الشّيطان لا يجعله الله فتنة لأنّ ذلك قبيح و هو تعالى منزّه عنه و عليه فمعنى الفتنة في الآية المحنة و تغليظ التكليف للذين في قلوبهم مرض، أي شكّ و نفاق و قلة معرفة هكذا قيل في معنى الجعل ونحن نقول لا إشكال في حمل الكلام على ظاهره و أن يكون المراد بالفتنة و الإختبار و الإمتحان كما دلّت بل صرّحت به الآيات فلا نحتاج إلى هذه التّأويلات.

بناء القرآن في تفسير القرآن

وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الواو للعطف أي أنّ الله يحكم آياته ليجعل ما يلقي الشّيطان فتنة و ليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحقّ، و المقصود أنّه فتنة أي إختبار لمن كان في قلبه مرض و سبب للوصول إلى الحقّ للذين أوتوا العلم:

حزء ١٧

المجلد الحادي عشر

قال الله تعالى: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^(١).

و أما الذين أوتوا العلم بالله و صفاته و أن أفعاله صواب فأنهم يعلمون أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، أي تطمئن إليه و تسكن و يعلمون أن الله لهاد الذين آمنوا، به و برسوله، إلى صراطٍ مستقيم و قد تكلمنا فيه عند قوله تعالى: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^(٢) في سورة الحمد و قلنا أن الصراط المستقيم صراط عليٍّ و أهل بيته.

و لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ

الضمير في (منه) عائد على القرآن و قيل على الرسول و قيل على، ما ألقى الشيطان، و المرية بكسر الميم الشك و المعنى أن الكفار لا يزالون في شك من القرآن أو الرسول و يستمر الشك فيهم حتى تأتيهم الساعة أي القيامة بغتة أي فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، أي يوم القيامة و قيل عذاب يوم بدر و الحق هو الأول و أما سمّي عقيماً لأنه لا ليلة بعده يوم و قيل لأنه لا مثل له في عظم أمره، و حتى، غاية لإستمرار مريتهم فالمعنى حتى تأتيهم الساعة أو عذاب يوم عقيم فتزول، مريتهم و يشاهدون الأمر عياناً و جملة هذه الآية توعّد و تهديد.

في القرآن: في تفسير القرآن

أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ

التنوين في، يومئذٍ، تنوين العوض و الجملة المعوض منها هذا التنوين هو الذي حُذف بعد الغاية و التقدير المُلْك يوم نزول مريتهم لله و الظاهر أن المراد

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

بهذا اليوم هو يوم القيامة من حيث أنه لا مُلْكَ لأَحَدٍ فيه من مُلُوكِ الدُّنْيَا كما قال تعالى: **لِمَنْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ^(١) وإِسْتَدَلَّ بعضهم على ذلك بأنَّ الله تعالى قَدْ مَلَّكَ في الدُّنْيَا أَقْوَاماً كَثِيراً أَشْيَاءَ كَثِيراً والملك عبارة عن إِتْسَاعِ الْمَقْدُورِ لِمَنْ له تدبير الأمور فالله تعالى يملك الأمور لنفسه ولكلِّ مالكٍ سواه فأنما هو مُمَلِّكٌ له بحكمه إمَّا بدليل السَّمْعِ أو بدليل العقل إنتهى كلامه.

أَقُولُ: الْحَقُّ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ تعالى في الدُّنْيَا والآخرة إذ لا مالك في الوجود إلاَّ هُوَ تعالى والسَّرَفُ فيه أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا و ما سواه كائنًا ما كان فهو مخلوق له قائمٌ به بل لا وجود له مُسْتَقِلاًَّ لِأَنَّهُ موجودٌ به و ما كان كذلك فهو مَمْلُوكٌ له تعالى فَأَنَّ الْعَبْدَ و ما في يده كان لمولاه وإذا كان مملوكاً فهو المالك لا غيره فله الملك قطعاً في جميع المراحل و أمَّا تخصيصه بِلَا قِيَامَةٍ حيث قال يومئذٍ أي يوم القيامة لِأَنَّهُ يوم الحكم و الفصل كما قال يحكم بينهم وإن شئت قلت الملك بضم الميم الحقَّ الدائم لله تعالى و لذلك قال له الملك و له الحمد.

و **قُلِ أَلِلْهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تَوْتَى الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكِ مِمَّنْ تَشَاءُ** ^(٢) فالملك ضبط الشئِ المصْرَفُ بالحكم و الملك بكسر الميم كالجنس له فكلِّ ملكٍ ملك و ليس كلِّ ملكٍ ملكاً و حاصل الكلام هو أَنَّ اللَّهَ تعالى لمكان خالِقَتِهِ هو مالك الملك و الحاكم فيما سواه **فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِهِمُ الْجَنَّةِ** ^(٣) **النَّعِيمِ** جزاءً بما عملوا في الدُّنْيَا من الأعمال و أنما قال، جنات، بلفظ الجمع لكون الجنان سبعاً، جنة الفردوس، جنة عدن، و جنة النعيم، و دار الخلد، و جنة المأوى و دار السلام، و عليين.

و أصل الجنِّ ستر الشئِ عن الحاسَّة ثمَّ أَنَّ المراد بالعمل الصَّالح هو كلِّ عملٍ يحكم بحسنة العقل و الشرع و ما ليس كذلك فهو غير صالح فلا يترتب عليه الثَّواب و في هذه الآية إشارة إلى أَنَّ الْإِيمَانَ لا يتحقَّق إلاَّ بِالْعَمَلِ فالعمل شرطٌ في تحقُّقه و من المعلوم أَنَّ المشروط يتنفى بإنتفاء شرطه فالإيمان

ينبغي بانتفاء العمل وهذا هو الحقّ عندنا معشر الشيعة خلافاً لأكثر العامة حيث ذهبوا إلى أنّ الإيمان يحصل بمجرد الاعتقاد ولا يكون العمل شرطاً في حصوله ولم يعلموا أنّ الآثار مترتبة على الوجود الخارجي و أمّا الذهني فلا يترتب عليه الأثر وعلى هذا فالإيمان الموجود في الخارج يترتب عليه الثواب وهو لا يوجد في الخارج إلا بالعمل ولذلك قال تعالى أمنوا وعملوا الصّالحات.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

قيل نزلت الآية في قوم من المشركين أتوا جماعة من المسلمين فقاتلوهم في الأشهر الحرم بعد أن نهاهم المسلمون عن ذلك فأبوا فنصروا عليهم وقيل أنّ النبي عاقب بعض المشركين لما مثلوا بقوم من أصحابه يوم أحد والعذاب المهين هو العذاب الذي يهينهم ويذلهم في الآخرة وذلك لأنّ الهوان الإذلال بتصغير القدر والظّاهر أنّ المراد بالآيات هو آيات الكتاب كما عليه جمهور المفسرين والحقّ عندنا هو أنّ المراد بها معناها العامّ الشّامل للآيات التكوينية والتشريعية والمراد بالآيات التكوينية الموجودات الخارجيّة التي هي مخلوقة لله تعالى، وبالآيات التشريعية الآيات القرآنيّة والكفر بهما وتكذيبهما إنكارهما والقول بأنّهما ليسا من الله تعالى فالكافر بالتكوينية منكر لوجود الخالق وفي التشريعية منكر لوجود التكلّم وأنّ القرآن كلام الله وكلاهما كفر بالله هذا إن أردنا التكوينية بمعناها العامّ الشّامل لجميع الموجودات الخارجيّة وأمّا أنّ قلنا بأنّ المراد بها مصاديقها الأتمّ الأكمل أعني بها الأنبياء والأوصياء فالأمر أوضح وأظهر وأي فرق بين إنكار النبي أو الوصي وبين إنكار القرآن وأنه كلام الله.

فصل الفرقان في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

قِيلَ لَمَّا مَاتَ عِثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ قَتْلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلَ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ وَحُكِمَ اللَّهُ فِيهَا بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمَا وَعَدِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمَوْتَيْنِ هَكَذَا قِيلَ وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ بَغْضًا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْذِنُهُمْ بِمَكَّةَ ثُمَّ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَاتُوا حَتْفَ أَنْفِهِمْ فَحُكِمَ اللَّهُ تَعَالَى بِعَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ حَتْفَ الْأَنْفِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلَكَ وَهُوَ الْهَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ مَوْجُودٌ فِيهِمَا وَقَوْلُهُ: لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا، قِيلَ هُوَ الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعْمِ وَقِيلَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَعْبَرُ عَنْهُ بِمَقَامِ الْعِنْدِيَّةِ الْمَشَارِإِلَيْهِ بِقَوْلِهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ، وَقَوْلُهُ: إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ الرَّزْقُ بِكَسْرِ الرَّاءِ يُقَالُ لِلْعَطَاءِ الْجَارِي تَارَةً دُنْيَوِيًّا كَانُ أَمْ أُخْرَوِيًّا وَلِلنَّصِيبِ تَارَةً، وَلَمَّا يَصِلُ إِلَى الْجَوْفِ وَيَتَغَذَّى بِهِ تَارَةً، يُقَالُ أُعْطِيَ السُّلْطَانُ رِزْقَ الْجَنْدِ، كَمَا يُقَالُ رَزَقَتْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَالرَّازِقُ يُقَالُ لِخَالِقِ الرَّزْقِ وَمُعْطِيهِ وَالْمُسَبِّبِ لَهُ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يُقَالُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يَصِيرُ سَبَبًا فِي وَصُولِ الرَّزْقِ، وَالرَّزَاقُ لَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

إِمَّا لِأَنَّ أَصْلَ الرَّزْقِ بِيَدِهِ وَإِمَّا لِأَنَّهُ أَيْ الرَّزْقُ مِنْهُ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ التَّفَضُّلِ وَلِذَلِكَ يُعْطِي الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ وَهُوَ وَاضِحٌ فَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ

أَيَّ لِيُدْخِلَنَّهُمُ اللَّهُ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا فِي طَاعَتِهِ، مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ الْجَنَّةَ وَمَعْنَى، يَرْضَوْنَهُ، يَخْتَارُونَهُ إِذْ فِيهِ رِضَاهُمْ وَقَرَأَ نَافِعٌ، مُدْخَلًا بِفَتْحِ الْمِيمِ يَرِيدُ الْمَصْدَرُ أَوْ إِسْمَ الْمَكَانِ وَتَقْدِيرُهُ مَكَانًا يَرْضَوْنَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ، أَنَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ حَلِيمٌ عَنْ مَاجَلَةِ الْكَفَّارِ بِالْعُقُوبَةِ وَلَا مَشَاعَةَ فِيهِ.

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفْوٌ غَفُورٌ

قيل نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم الكفار في الأشهر الحرم فأبى المؤمنون من قتالهم وأبى المشركون إلا القتال فلما إقتتلوا جدد المسلمون و نصرهم الله و مناسبة الآية لما قبلها واضحة و هو أنه تعالى لما ذكر ثواب من هاجر و قتل أو مات في سبيل الله أخبر أنه لا يدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم و قال ابن جريح الآية في المشركين بغوا على رسول الله و أخرجه و التقدير و الأمر ذلك إنتهى.

ثم وصف الله نفسه بأنه عَفْوٌ غَفُورٌ، و هما مبالغتان في العفو و المغفرة قال الزمخشري فأن قلت كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع.

قلت: المعاقب مبعوث من جهة الله عز و جل على الإخلال بالعقاب و العفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التَّحريم و مندوب إليه و متَّوجِب عند الله المدح أن أثر ما ندب إليه و سلك سبيل التنزيه فحين لم يؤثر ذلك و أنتصر و عاقب و لم ينظر في قوله تعالى: **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ^(١) و أن تعفو أقرب للتَّقوى، و لمن صبر و غفر أن ذلك لمن عزم الأمور فأنَّ الله لعَفْوٌ غَفُورٌ، أي لا يلومه على ترك ما بعثه عليه و هو ضامن لنصره في كرَّته الثانية من إخلاله بالعفو و إنتقامه من الباغي عليه و يجوز أن يضمن له النَّصر على الباغي و يعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو و يلوح به بذكر هاتين الصِّفتين أو دَلَّ بذكر العفو و المغفرة على أنه قادر على العقوبة لأنَّه لا يوصف بالعفو إلاَّ القادر على ضده (ذلك) أي ذلك النَّصر بسبب أنه قادر إنتهى كلامه.

أقول: ما ذكره لا بأس به و الَّذي يختلج بالبال في وجه ذكر الوصفين في المقام هو أنه تعالى متَّصف بهما فأن كان المقام مقام العفو فهو عَفْوٌ و أن كان

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

المقام مقام المغفرة فهو غفورٌ أي أنه غافر الذنب وتوضيح الكلام إجمالاً هو أنَّ العفو ضدَّ الإنتقام وهو إسقاط ما يستحقه من قصاصٍ أو غرامة و أمَّا الغفور فهو الذي يغفر الذنوب وهو لا يكون إلاَّ الله تعالى ولذلك لا يطلق هذا اللفظ و ما يشقُّ منه من الغافر والمغفرة والغفران و أمثال ذلك على غيره تعالى فالمخلوق لا يتَّصف بالغفور و يتَّصف بالعفو يقال فلان عفى عن فلان و لا يقال غفر له و الله يتَّصف بهما.

و قال الرَّاعِب في المفردات المغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسَّه العذاب وكيف كان لا شك في مدح العفو و قد حثَّت الآيات و الأخبار على حسنه و سيأتي الكلام فيه إنشاءً الله تعالى و كفى للعفو فضلاً و شرافةً أنه من أجمل الصفات الإلهية و قد يمدح الله تعالى في مقام الخضوع و التَّذلل.

قال سيّد السَّاجدين عليه السَّلام، أنتَ الَّذِي سَمَّيتَ نفسك بالعفو فأعف عني، وقال عَلَيْهِ السَّلَام: أنتَ الَّذِي عَفَوْهُ أَعْلَى من عقابه، و العفو لا يكون إلاَّ من القادر على الإنتقام و لذلك يقال العفو عند القدرة.



ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ
 النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١)
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
 الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا
 فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
 الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا
 فِي الْأَرْضِ وَ أَلْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ
 يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ
 إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَ هُوَ الَّذِي
 أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ
 لَكَفُورٌ (٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ
 فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ أَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ
 لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَ إِنَّ جَادِلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
 اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي
 كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَ يَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا لَيْسَ
 لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَ إِذَا
 تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي

ضياء الفرقان في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمُنَكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُون
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ
مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِشْرِ
الْمَصِيرِ (٧٢)

◀ اللغة

يُولِجُ: الولوج الدخول في مضيق.
مُخْضَرَةٌ: الخضرة أحد الألوان بين السواد والبياض وهو إلى السواد أقرب
ولهذا سَمِيَ الأسود أخضر وبالعكس.
لَكَفُورٌ: مبالغة في الكفران.
مَنْسُكًا: أي مذهباً وقيل المنسك الموضع المعتاد لعمل خير أو
شر المألوف لذلك.
يَسْطُون: السطوة إظهار الحال الهائلة للإحافة يقال سطا عليه سطوة.
أَفَأَنْتُمْ كُمْ: متكلم وحدة من فعل المضارع من نَبَّيْ مثل صرف من
النَّبَأُ الخبر.

◀ الإعراب

فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ: أما رفع الفعل هنا وأن كان قبله لفظ الإستفهام لأمرين:
أحدهما: أنه إستفهام بمعنى الخبر أي قد رأيت فلا يكون له جواب.
الثاني: أنْ بعد الفاء ينتصب إذا كان المستفهم عنه سبباً له ويجوز أن يكون
فتصبح بمعنى، أصبحت وهو معطوف على، أنزل، فلا موضع له مُخْضَرَةٌ
حال وهو إسم فاعل و قرئ شاذاً بفتح الميم وتخفيف الضاد مثل مبقلة و
مجزرة أي ذات خضرة وَالْفَلَكَ في نصبه وجهان:
أحدهما: أنه منصوب بسخر معطوف على، ما.

الثاني: أنه معطوف على إسم، إن، أَنْ تَقَعَ مفعول له أي كراهة أن تقع و قيل هو في موضع جر أي من أن تقع، و قيل في موضع نصب على بدل الإشتغال كَأَدُونِ الجملة حال من الذين أو من الوجوه النَّارُ مبتدأ، و وَعَدَهَا الخبر و قيل هو خبر مبتدأ محذوف أي هو النَّار و يقرأ بالنصب على تقدير، أعني.

◀ التفسير

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ

المشار إليه في الكلام محذوف و تقدير الكلام ذلك الأمر.

و قال الزمخشري ذلك أي ذلك النصر سبب أنه قادر و من آيات قدرته البالغة أنه يولج الليل في النهار يولج النهار في الليل فعلى هذا يكون المشار إليه هو النصر في الآية السابقة و هو قوله: لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ فكَأَنَّهُ قِيلَ كَيْفَ يَنْصُرُهُ فقال تعالى أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِهِ كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِيْلَاجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَ يمكن الجمع بين القولين بأنَّ مراد القائل من الأمر، هو هذا المعنى، و أمَّا إِيْلَاجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ فَقَدْ مَرَّ فِي شَرْحِ اللُّغَاتِ أَنَّ الْوُلُوجَ الدَّخُولَ فِي مَضِيْقٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ^(١).

قال بعض المحققين في قوله: يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ تنبيه على ما ركب الله تعالى عليه العالم من زيادة الليل في النهار و زيادة النهار في الليل و ذلك بحسب مطالع الشمس و مغاربها و الوليجة كل ما يتَّخذه الإنسان معتمداً عليه و ليس من أهله من قولهم فلان وليجة في القوم و ليس من أهله إذ لحق بهم إنساناً كان أو غيره إنتهى.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

و قال البيضاوي بسبب أنَّ الله قادر على تغليب بعض الأمور على بعضٍ و من ذلك إيلاج أحدهما في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص منه أو بتحصيل ظلمة اللّيل في مكان ضوء النهار بتغيب الشّمس و عكس ذلك بإطلاعها إنتهى.

و قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام السّؤال السّابع، ما معنى إيلاج اللّيل في النهار و إيلاج النهار في اللّيل.

الجواب فيه وجهان:

أحدهما: يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيوبة الشّمس و ضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضي البيت بالسّراج و يظلم بفقده.

ثانيهما: أنّه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينتقص من الآخر من السّاعات إنتهى.

أقول: و إلى القول الأخير يعني الزّيادة و النّقصان فيهما بحسب السّاعات قال الطّنطاوي في تفسيره المسمّى بالجواهر عند تفسيره لهذه الآية حيث قال ما هذا لفظه أي ذلك النّصر للمظلوم بسبب أنّه قادرٌ على ما يشاء و من عجائب قدرته أنّه يدخل ساعات اللّيل في النهار فيأخذ اللّيل في القصر و النهار في الطّول و ذلك في فصلي الشّتاء و الرّبيع و يدخل ساعات النهار في اللّيل فيجعلها في اللّيل و يأخذ النهار في النّقص و اللّيل في الزّيادة و ذلك في فصلي الصّيف و الخريف و لا يأخذ أحدهما من الآخر إلّا على مقدار ما أخذ الآخر منه و ذلك في بلاد مصر لا يعدوا أربع ساعات فأقصر نهار عندنا عشر ساعات و أطوله ١٤ و هكذا العكس فلا يأخذ النهار من اللّيل و لا يأخذ اللّيل من النهار إلّا بحسبٍ واحدٍ فلذلك جعلت الإنتقام من الباغي على مقدار جرمه لا يزيد و لا ينقص كما جعلت كلّ ليلٍ لا يأخذ من كلّ نهار إلّا ما أخذه الآخر منه إنتهى موضع الحاجة من كلامه و إن أردت الإطلاع على تفصيل ما ذكره فعليك بمراجعة كتابه^(١).

وقوله: **أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** معناه واضح فأنتهما من صفاته الثبوتية إلا أنهما يرجعان إلى علمه بالمسموعات و المبصرات لا أنه يسمع و يبصر بألة السَّمع و ألة البصر كما هو في حقنا كذلك.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

أي ذلك الوصف بخلق الليل و النهار و الإحاطة بما يجري فيهما و إدراك كل فعل و قول بسبب أن الله تعالى هو الحق الثابت الذي لا تتغير في ذاته و أن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدَّعوة و أنه لا شيء أعلى منه شأنًا و أكبر سلطاناً و أن الله هو العلي الكبير، فالعلي القادر الذي كل شيء سواه تحت معنى صفته أنه قادرٌ عليه و وصفه بأنه الكبير يفيد أن كل شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء و العالم الذي لا يخفى عليه شيء.

وإعلم أن الحق يطلق على معانٍ:

أحدها: يقال **لَمَوْجَدَ الشَّيْءِ** بكسر الجيم بسبب ما يقتضيه الحكمة و لهذا قيل في الله تعالى هو الحق.

الثاني: يقال **للموجد** بفتح الجيم بحسب مقتضى الحكمة و لهذا يقال فعل الله حق.

الثالث: يقال **للإعتقاد المطابق** للواقع كقولنا **إعتقاد فلان في الثواب و العقاب حق و الجنة حق و النار حق** كل ذلك لكون الإعتقاد مطابقاً للواقع.

الرابع: يقال **للتأبث الذي لا يتغير و لا يتبدل.**

الخامس: يقال **للموجود الذي لا سبيل للبطلان الله و الله تعالى حق** بقولٍ مطلق بجميع هذه المعاني إذا عرفت معنى الحق فقد عرفت معنى الباطل أيضاً فإن الأشياء تعرف بأضدادها و على هذا فما سوى الحق هو الباطل كما قيل **إلا كل شيء ما خلا الله باطل و كل نعيم لا محالة زائل.**

وهذا معنى قوله: وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ، والعاقِل لا يدعو الباطل ولا يعتمد على ما هو باطل عاطل في ذاته.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

الإستفهام إنكاري أي ترى أن الله كذلك و المراد بالماء المنزل من السماء هو ماء المطر هو الذي يحيي الأرض بعد موتها والخطاب و أن كان للنبي ظاهراً إلا أن المراد به جميع المكلفين، والمعنى ألم تعلموا أن الله أنزل من السماء ماءً يعني غيثاً ومطراً فتصبح الأرض بذلك الماء أي بسببه مخضرة بالنبات قلنا في شرح اللغات أن الخضرة أحد الألوان بين البياض والسود و هو إلى السود أقرب ولهذا سمي الأسود أخضر وبالعكس وفيه قال الشاعر:

قد أعسف النَّازِح المجهود عسفة في ظلَّ أخضر يدعو هامه البوم
ولذلك قيل سواد العراق للموضع الذي يكثر فيه الخضرة ومنه المخاضرة
وهي المبايعة على الخضرة والثمار قبل بلوغها والخضيرة نخلة ينتشر بسرهما
أخضر وكون الأرض مخضرة أمرٌ محسوس يراه كل ناظرٍ حتَّى الحيوان ولا
شكَّ أن ذلك بسبب الماء المنزل من السماء وإلى هذا المعنى أشار الشاعر
بقوله حيث قال:

تفكر في نبات الأرض وأنظر إلى آثار ما صنع المليك
ففي رأس الزبرجد شاهدات بأنَّ الله ليس له شريك
وقال السَّعدي بالفارسيّة:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار

هر ورقش دفتري است معرفت كردگار

وقوله: إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ، هما من صفاته تعالى، وإعلم أن اللطيف إذا وصف به الجسم فهو ضدّ الجتل و هو الثَّقيل يقال شعرٌ جتل أي كثير وقد يعبر

باللطفة و اللطف عن الحركة الخفيفة و عن تعاطي الأمور الدقيقة و قد يعبر
باللطف عَمَّا لَا تدركه الحاسة و يصح أن يكون وصف الله به على هذا الوجه
و أن يكون لمعرفته بدقائق الأمور و أن يكون لرفقة بالعباد في هدايتهم:

قال الله تعالى: **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ**^(١).

قال الله تعالى: **اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**^(٢).

و قد يعبر عن التحف المتوصل بها إلى المودة باللطف و لهذا قيل، تهادوا و
تحابوا، و قد أطف فلان أخاه بكذا فالله تعالى لطيف بعباده بهذه المعاني و
هو واضح و أما الخير، فقليل أنه العارف ببواطن الأمر و منه الخبرة بضم الغاء و
قليل الخير العالم بالأخبار.

و قيل أنه بمعنى مخبر و الله تعالى خير لأنه عارف ببواطن الأمور خير
لأنه عالم بأخبار أعمالنا، خير بمعنى أنه مخبر يوم القيامة لقوله تعالى:
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٣) أي يخبركم بما عملتم به في الدنيا فثبت أنه تعالى
لطيف خير بعباده و هو المطلوب.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ
اللام في قوله: لَهُ للملك أو للإختصاص أي أن السموات و الأرض و ما
فيهما يتعلّق به و ملكّ له أو يختصّ به و الوجه فيه هو أنه تعالى خلق
السموات و الأرض و ما فيهما من الخلق و لا شك أن الخالق مالك لمخلوقه
حقاً و إذا كان كذلك فله الحكم في خلقه بما يشاء و كيف يشاء و هذا ممّا لا
يحتاج إلى الدليل لوضوحه.

وقوله: **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** الغني، بفتح الغين يقال على
ضروب:

بسم القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

أحدها: عدم الحاجات مطلقاً وليس ذلك إلا لله تعالى وهو المراد في هذه الآية وأمثالها والدليل على ذلك أنه تعالى لو لم يكن غنياً فلا محالة يكون فقيراً لعدم الوساطة بين الفقر والغنى إذا أخذ بقول مطلق و الفقر نقص لأنه فقد كمال وكل ناقص مخلوق والمفروض أنه خالق وبعبارة أخرى الغنى كمال و الفقر نقص وقد ثبت أن الواجب تعالى جامع لجميع الكمالات مبرراً عن التفاضل وأما النقص فلقلوه تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(١).

و تقديم المسند إليه يفيد الحصر فهو الغنى المطلق وهو المطلوب و سيأتي الكلام فيه تفصيلاً.

و أما الحميد بفتح الحاء فهو يصح أن يكون في معنى المحمود و أن يكون في معنى الحامد وهو أيضاً من أسمائه تعالى كما تقول في الدعاء، يا حميد بحق محمد و يا عالي بحق علي و يا فاطر بحق فاطمة و يا محسن بحق الحسن و يا قديم الإحسان بحق الحسين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ

أي ألم تعلم يا محمد أن الله سخر لكم ما في الأرض، و الإستفهام أيضاً للإنكار كالأية السابقة و هكذا الكلام في الخطاب حيث أن المراد به جميع المكلفين و أن كان المخاطب هو النبي ظاهراً و قوله: سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ من الجماد و الحيوان و النباتات و المعنى أن الله قد ذلل لكم ما في الأرض تتصرفون فيه كيف شئتم و ذلك ظاهر محسوس لنا فالحجر مع صلابته و الحديد مع حدته و النار مع هيبتها و سطوتها قد سخرها الله تعالى لنا هذا

في الجماد وأما في الحيوان فالإبل والبقر والفيل وغيرها من الحيوانات مع عظم جثتها وشدة قوتها قد سخرها الله تعالى للإنسان الضعيف بل للصبي المميز وليس هذا إلا أن الله سخرها للإنسان حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب وحمل المتاع وغير ذلك من المنافع المترتبة على وجودها بسبب تسخيرها لنا وهذا واضح لا خفاء فيه وفي هذا الكلام دلالة على قدرة الله وأنه خلق ما في الأرض للإنسان لينتفع بها ولولا ذلك لما كان الإنسان قادراً على التعيش وإدامة الحياة على وجه الأرض فينبغي له أن يشكر ربه على هذا النعم التي أن تعدوها لا تحصوها، ثم أشار الله تعالى إلى الفلك التي تجري بأمره.

قال بعض المفسرين الأقرب أن المراد وسخر لكم الفلك أيضاً لتجري في البحر وكيفية تسخير الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها فلولاً صفتها على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص في الماء أو تقف تعطب فبّه على نعمه بذلك وإنما قال بأمره لأنه سبحانه لما كان هو المجري لها الرياح نسب ذلك إلى أمره، وقوله وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فالمراد بالسّماء جنس السّماء ليشمل جميع كرات السّماوية إشارة إلى أن الكرات معلقة في الفضاء والممسك لها هو الله تعالى وهو كذلك:

كما قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا** ^(١).

وفي قوله: **أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** إشارة إلى إمكان وقوعها على الأرض لو أذن الله به وسيأتي الكلام في هذا الباب في موضعه ثم قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ** أي أن المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدّين والدّنيا قد بلغ الغاية في الإحسان والإنعام فهو أذن رؤوف رحيم، وفيه إشارة إلى أن رافة الله ورحمته صارت باعثة على إعطاء النعم وهو كذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم
في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُخِيبُكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ
 لما ذكر الله تعالى أنه الذي سَخَّرَ لكم ما في الأرض من الجماد والنَّبات و
 الحيوان وذلَّها لكم وكذلك سَخَّرَ لكم الفلك التي تجري في البحر بأمره قال و
 هو الذي أحياكم بعد إن كنتم جماداً و تراباً و نطفةً و علقةً و مضغةً و هي الموتة
 الأولى المذكورة في قوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ
 يميتكم بعد الحياة ثُمَّ يحييكم يوم القيامة للحساب إما الجَنَّةَ و إما إلى النَّارِ ثُمَّ
 أخبر عن الإنسان بأنَّه كفورٌ أي جحودٌ لنعم الله المتظافرة المتواليَّة و المراد
 بالإنسان جنسه و الحكم باعتبار الأغلب.

و قيل المراد به الأسود بن عبد الأسد و أبو جهل و أبى بن خلف و هذا
 على طريق التَّمثيل إنتهى.

أقول و هذا ممَّا لا دليل عليه و الحقَّ ما ذكرناه:

قال الله تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى أَنْ رَأَهُ اسْتَعْتَضَى^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ^(٢).

قال الله تعالى: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا^(٣).

قال الله تعالى: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا^(٤).

قال الله تعالى: قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ^(٥) و أمثال هذه الآيات كثيرة.

و حاصل الكلام هو أنَّ الله تعالى حكم في الآية بأنَّ الإنسان يجحد النِّعم و
 يكفر بها أي كثيراً من أفراد الإنسان لولا أكثرهم كذلك و هذا أمرٌ محسوسٌ إذا
 ضدَّ الكفران الشُّكر على النِّعم و قد قال الله تعالى: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ
 الشُّكُورُ^(٦) و إذا كان الشُّكر قليلاً فلا محالة يكون الكفران كثيراً و بذلك صدر
 الحكم و هو المطلوب.

٢- إبراهيم = ٣٤

٤- الكهف = ٥٤

٦- سباء = ١٣

١- العلق = ٦

٣- الإسراء = ١١

٥- عبس = ١٧

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ

قيل أنها نزلت بسبب جدال الكفار بليل بن ورقاء و بشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما في الذبائح و قولهم للمؤمنين تأكلون ما ذبحتم و هو من قتلهم و لا تأكلون ما قتل الله فنزلت بسبب هذه المنازعة.

و الظاهر أن الآية بصدد بيان حكم كلي و هو أن الله تعالى جعل لكل أمة من الأمم السابقة منسكاً و مذهباً هم ناسكوه أي يلزمهم العمل به هذا إذا قلنا أن المنسك هو المذهب و إن قلنا أن المنسك الموضع المعتاد لعمل خير أو شر و هو المألوف لذلك و مناسك الحج من هذا لأنها مواضع العبادات فيه فهي متعبّات الحج قالوا و فيه لغتان فتح السين و كسرهما.

و قال ابن عباس منسكاً أي عيداً و قال مجاهد و قتادة متعبداً في إراقة الدّم بمني و غيرها و كيف كان فقد نهى الله تعالى في الآية عن منازعتهم النبي ﷺ في الأحكام و ذلك لأن الأديان في الأحكام مختلفة بحسب مقتضيات الزمان كما أن الأنبياء و الرسل أيضاً كذلك فلا تصح المنازعة في تفاوت الأحكام ثم أمر الله تعالى بنبيه بالدعوة فقال و ادع إلى ربك أنك على هدىً مستقيم، أي ادع الناس إلى توحيد ربك و طاعته فأَنَّ هذا هو الغاية القصوى للنبوة و قوله: إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ، معناه واضح لأن من يدعو الناس إلى الطريق المستقيم و هو النبي أولى بأن يكون كذلك فأَنَّ معطي الشيء لا يكون فاقداً له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ

أي إن جادلوك على وجه المراء و التعنّت الذي يعمله السفهاء فلا تجادلهم على هذا الوجه و أدفعهم بهذا القول و قل لهم الله أعلم بما تعملون و هذا أدب من الله حسن و ينبغي أن يأخذ به كل أحد هكذا فسره الشيخ في التبيان.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، سياق الآية السابقة يؤيد أن المراد بهذا الجدل المجادلة و المراء في أمر اختلاف منسكه ﷺ مع الشرائع السابقة بعد الإحتجاج عليهم بنسخ الشرائع و قد أمر بإرجاعهم إلى حكم الله من غير يشتغل بالمجادلة معهم بمثل ما يجادلون و قيل المراد بقوله: وَ إِنِّ جَادِلُوكَ مطلق الجدل في أمر الدين و قيل الجدل في أمر الذبيحة و السياق السابق لا يساعد عليه إنتهى.

أقول: أما قولهم أن المراد بالمجادلة الجدل على وجه التّعنت و المراء فهو حق لا مرية فيه لأنّ المجادلة بالتّي هي أحسن لا كلام في حسنها بل الأمر بها في الشريعة المقدّسة قال الله تعالى: **أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْقُوَّةِ الْخَيْرَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**^(١).

بل نقول أساس الموعظة و التبليغ على المجادلة الحسنة و هو ظاهر و أما الجدل بغير حقّ فهو مذموم عقلاً و شرعاً فكلّ آية أمر الله فيها بالجدال لا يعنى بها إلا بالتّي هي أحسن و لك آية نهى الله عنها فالمراد المراء و التّعنت إذا عرفت هذا فنقول:

أنّ هذه الآية ليس فيها نهى عن الجدل بل نقول أنّها عن المجادلة بالتّي هي أحسن و ذلك لأنّ الله تبارك و تعالى قال لنبيه و إن جادلوك فقل الله أعلم كلام فيه رفق و لين و ليس فيه شيء من الغلظة و الخشونة حتّى يخرج الكلام من الحسن و الرفق و آية مجادلة أحسن منه.

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

و ذلك لأنّ الله تعالى نعم الحكم يوم القيامة فهو يحكم بين المجادلين بأحسن وجه أصدق من الله قليلاً فهو أحكم الحاكمين.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

لَمَّا تَقَدَّمَ ذكر الفصل بين الكفار والمؤمنين يوم القيامة أعقب تعالى ذلك
بأنه عالم بجميع ما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالكم وأن ذلك في
كتاب قيل هو أم الكتاب الذي كتبه الله قبل خلق السموات والأرض كتب فيه
ما هو كائن إلى يوم القيامة وقيل المراد به هو اللوح المحفوظ وقوله: إِنَّ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ معناه أن العلم بذلك على الله سهل يسير أي غير متعذر عليه
والوجه فيه واضح لأنه خالق السموات والأرض وما فيهما من أنواع
المخلوقات والخالق عالم بخلقه إذ الخلق مسبوق بالعلم وكيف يعقل أن
يخلق الخالق شيئاً ولا يعلم ما خلقه وقوله في كتاب، يحتمل أن يكون المراد
به كتاب التكوين ويدل عليه تنكير الكتاب فإنه لم يقل في الكتاب أو المراد به
كتاب لا يعلمه إلا الله أو كتاب المحو والإثبات والله أعلم.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ
مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ

أخبر الله تعالى في الآية عن حال الكفار الذين يعبدون مع الله الأوثان و
الأصنام فقال أنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، أي حجة وبرهاناً
وأما قيل للبرهان سلطان لأنه يتسلط على إنكار المنكر فكل محق في مذهبه
فله برهان يتسلط به على الإنكار لمذهب خصمه.

وقال بعض المفسرين في قوله: لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا أي حجة وبرهاناً
سماوياً من جهة الوحي والسمع وفي قوله: وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ أي دليل
عقلي ضروري أو غيره.

أقول: ولعل القائل أخذ قوله من كلام الرازي في تفسيره لهذه الآية حيث

قال ما هذا لفظه، فَبَيَّنَ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لغيرِ اللَّهِ ليست مأخوذة عن دليلٍ سَمِعِيٍّ و هو المراد بقوله ما لم يَنْزَلْ به سلطاناً و لا عن دليلٍ عَقْلِيٍّ و هو المراد من قوله: **وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ بِهِ** من علم و إذا لم يكن كذلك فهو عن تقليدٍ أو جهلٍ أو شبهةٍ فوجب في كُلِّ قولٍ هذا شأنه أن يكون باطلاً فمن هذا الوجه يدلُّ على أَنَّ الكافر قد يكون كافراً و أن لم يعلم بكونه كافراً و يدلُّ أيضاً على فساد التقليد إنتهى.

أقول: ما ذكره الرَّازِي و تبعه غير واحدٍ من مفسري العامة من أَنَّ قوله تعالى: **وَمَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا**، أريد به الدليل السَمْعِي و قوله: **وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** الدليل العَقْلِي، لا دليل عليه و أنما هو من إستخراجات ظَنِّهِ و وهمه لأن الآية تدلُّ على من عبد شيئاً من غير حجةٍ و لا برهان يؤيده العقل السليم فهو ظالمٌ و من المعلوم أَنَّ ما لم يَنْزَلْ له دليل من العقل لا سبيل للعلم إليه فقوله و ما ليس لهم به علم، في الحقيقة تفسير و توضيح لقوله: **وَمَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا**.

و أمَّا تخصيص قوله ما لم يَنْزَلْ به سلطاناً، بدليل السمع و قوله ما ليس لهم به علم، بدليل العقل، فلا نفهم معناه مع أَنَّ الثاني مترتبٌ على الأول وجوداً و عدماً و حاصل الكلام أَنَّ ما لم يَنْزَلْ به سلطاناً هو بعينه ما ليس لهم به علم، فالواو في قوله: **وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** ليس للعطف بل للتفسير وكيف كان في الآية إشارة بل دلالة على أَنَّ العاقل يتبع عقله و لا يتبع هواه و إذا كان كذلك فلا يأخذ بما لا دليل عليه من العقل و هذا حكمٌ كُلِّي في جميع الأمور من التوحيد و النبوة و الإمامة و غيرها إلا أَنَّ التوحيد هو الأصل في الباب و قوله: **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**، معناه ليس للظالم على نفسه بإرتكاب المعاصي و ترك المعرفة بالله من ينصره و يدفع عنه العذاب في الدنيا و العقاب في الآخرة.

وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذَلِكُمْ الثَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ الْمَصِيرُ

في هذه الآية إخبارٌ عنه تعالى بعناد هؤلاء الكفار وأنهم لا يقبلون الحق لشدة عنادهم فقال: وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا آيَاتُنَا، أي آيات الكتاب وغيره من حجج الله بواسطة أنبيائه كالمعجزات و خوارق العادات فأتها أيضاً من الآيات الظاهرات البينات، تعرف يا محمد في وجوه الذين كفروا و جحدوا ربوبيته، المنكر، من القول كقولهم هذا من أساطير الأولين، يكادون يسطون، أي قاربوا أن يوقعوا بمن يتلوها المكروه قولاً و فعلاً، و السطوة إظهار الحال الهائلة للإضافة و لذلك يقال أَنَّ الإنسان يخاف سطوات الله و نقامته، قيل السطوة و الإستطالة و البطشة نظائر في اللغة ثم قال لنبيه (قل يا محمد لهؤلاء الكفار) أفأتبكم أي فأخبركم، بشرٍ من ذلكم، أي من إعتدائكم و ظلمكم على التالي لآيات الله و قيل بشرٍ ممَّا يلحق التالي منهم وكأنَّ قائلاً قال ما ذلك الشر ف قيل في جوابه النَّار أي هو النَّار التي وعدھا الذين كفروا بآيات الله و بشر المصير، و قيل، النَّار، مبتدأ و وعدھا الخبر، و الأمر سهل و قال بعضهم أَنَّ الكفار قالوا أَنَّ محمداً و أصحابه شر خلق الله فنزلت.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ
 الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ
 لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
 يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)
 مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ
 (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ
 النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَغْلُمُ مَا بَيْنَ
 أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
 (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَ
 اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
 (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ
 وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ
 إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي
 هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا
 شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
 الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ
 الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

◀ اللغة

ذُبَابًا: الذباب كغراب معروف و جمعه في الكثر، ذَبَان، بالكسر و في القلة،
 أذْبَة، بكسر الذال و الواحدة، ذبابة و أصله من الذب و هو الطرد.
 اجْتَبَاكُمْ: الإجتباء الاختيار.

حَرْجَ: بفتح الحاء و الراء الضيق و يعبر عنه بالتكليف بما لا يطاق.
مِلَّةً: بكسر الميم و فتح اللام المشدد الجماعة.

◀ الإعراب

يَسْلُبُهُمْ يتعدى الى مفعولين و شيئاً هو الثاني حَقَّ جهادِهِ هو منصوب
على المصدر مِلَّةً أْبَيْكُمْ أي مثل مِلَّة أْبَيْكُمْ محذوف المضاف و أقام
المضاف إليه مقامه هُوَ سَمَيْكُمْ الضمير لإبراهيم عليه السلام.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْكَفَّارَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ يَتْرَكُونَ عِبَادَةَ
مَنْ خَلَقَهُمْ ذَكَرَ مَا عَلَيْهِ مَعْبُودَاتِهِمْ مِنْ إِنْتِفَاءِ الْقُدْرَةِ عَلَى خَلْقِ أَقْلِ الْأَشْيَاءِ وَ
أَحْقَرِ الْمَوْجُودَاتِ تَجْهِيلٌ عَظِيمٌ لَهُمْ حَيْثُ عَبَدُوا مِنْ هَذِهِ صِفَةٍ فَقَالَ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ الْخُطَابُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمَكْلُفِينَ مِنَ النَّاسِ، ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، قِيلَ
الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَرَادَ اللَّهُ يَبَيِّنُ لَهُمْ خَطَأَ الْكَافِرِينَ وَ الْحَقُّ أَنَّ الْخُطَابَ عَامٌّ
يَشْمَلُ مِنْ نَظَرٍ فِي أَمْرِ عِبَادَةِ اللَّهِ فَاتَّهَ يَظْهَرُ لَهُ قَبِيحُ ذَلِكَ وَ إِتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ،
ضَرْبٌ، مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ وَ لَمْ يَذَكَرِ الضَّارِبُ فِي الْآيَةِ هَلْ هُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ فَيَقْتُلُ
الضَّارِبُ لِلْمِثْلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ضَرْبٌ مِثْلًا لِمَا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ أَيَّ بَيِّنٍ شَبَهًا لَهُمْ
وَلِيَعْبُدُوهُمْ وَ قِيلَ ضَارِبُ الْمِثْلِ هُمُ الْكَفَّارُ جَعَلُوا مِثْلًا لِلَّهِ تَعَالَى أَصْنَامَهُمْ وَ
أَوْثَانَهُمْ فَقَالَ تَعَالَى فَاسْمِعُوا أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لِحَالِ هَذَا الْمِثْلِ وَ نَحْوِهِ مَا قَالَ
الْأَخْفَشُ قَالَ لَيْسَ هَاهُنَا مِثْلٌ وَ أَنْمَا الْمَعْنَى جَعَلَ الْكَفَّارَ لِلَّهِ مِثْلًا.

وَ قِيلَ هُوَ مِثْلٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى لِأَنَّهُ ضَرْبٌ مِثْلٌ مِنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ بِمَنْ يَعْبُدُ
مَا لَا يَخْلُقُ ذُبَابًا.

قال الزّمخشري فأن قلت الذي جاء به ليس بمثل فكيف سمّاه مثلاً.
قلت: قد سميت الصّفة أو القصّة الرائعة المتّلقاة بالإستحسان والإستغراب
مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم
إنتهى.

وقوله: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا
لَهُ قَرَأَ الجمهور، تدعون، بالتاء و قرأ الحسن و يعقوب و من تبعهما بالياء
وكلاهما مبنيّ للفاعل و قرأ اليماني و موسى الأسواري بالياء مبنياً للمفعول
فعلى الأوّل الخطاب للمكلفين و على الثّاني فالمراد الكفّار أي أنّهم يدعون
من دون الله الخ.

و على الثّالث فالمراد الأصنام والأوثان و كيف كان أفاد الله في هذا الكلام
أنّ كلّ ما يدعى للعبادة من دون الله فهو لا يقدر على أن يخلق ذبابةً و لو
اجتمعوا له، أي إتّفقوا جميعاً على خلقه فهو من قبيل قوله تعالى في القرآن:
قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا^(١).

و المقصود بيان عجزهم في المقامين و هو ظاهر لا خفاء فيه و أنّما أتى
بكلمة لن، دون، لا، مع، أن، لن، أخت، لا، في نفي المستقبل لأنّ كلمة، لن،
لنفي الأبد أي أنّهم لا يقدرّون عليه أبداً و لو اجتمعوا له ففيه مضافاً على ما
ذكرناه من نفي الأبد تأكيداً على عدم قدرتهم عليه فكأنّ خلق الذّباب منهم
مستحيلٌ و هو كذلك ثم قال تعالى: إِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ أي كيف يمكن لهم خلق الذّباب و هم لا يقدرّون على إستنقاذه ما يسلب
الذّباب منهم مع أنّه أي الإستنقاذ من الذّباب أسهل بمراتب من خلقه إذا كان
كذلك فلا يكون معبوداً و هو المطلوب.

و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ الخالق المعبود لا بدّ له من أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد وإلاّ يكون ضعيفاً حقيراً و كلّ ضعيف محتاج إلى من هو أقوى منه و بعبارة أخرى كلّ عابد محتاج إلى معبوده فإن كان المعبود آخر يتسلسل و التسلسل باطل فالإحتياج في المعبود باطل و هذا أصل لا خلاف فيه فينتج أنّ المعبود الذي يتّضرع العابد إليه و يستمد منه في حلّ مشكلاته ينبغي أن يكون غير محتاج إلى غيره في جميع الشئون و لا نعني بالقدرة إلّاّ هذا إذا عرفت هذه المقدّمة العقلية فنقول كلّ موجود في عالم الوجود متّصف بالضعف و الإحتياج سوى الله تعالى الذي خلق الخلق فكّل معبودٍ سواه مخلوق له و إعتداده الضعيف لا معنى له و أنّما قلنا ما سوى الله ضعيف لأنّه لا يقدر على إستقّاذ ما يسلب الدّباب منه فضلاً عن خلقه و إيجاده و هذا دليل على ضعفه فيلزم من كونه معبوداً خضوع الضعيف للضعيف و أن شئت قلت إحتياج الضعيف إلى مثله في الضعف و الحقارة و هو ممّا لا يقبله العقل السليم و على هذا فمعنى الآية أنّ الذين تدعون من دون الله للرَبوبية و المعبودية لن يقدروا على خلق الدّباب الحقيق الصّغير بل و لا على إستقّاذ الشّيء منه فكيف إتخذتموها للعبادة و هذا واضح.

و قوله: **ضَعْفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ** فقال ابن عبّاس يعني من الأوّثان و الأصنام، و المطلوب، من الدّباب.

أقول: لا يبعد أن يكون المراد بالطّالِب العابد و بالمطلوب المعبود، يعني ضعف العابد و المعبود لأنّهما مخلوقان لغيرهما و كلّ مخلوق ضعيف و إذا كانا في الضعف على حدّ سواء فلا معنى لترجيح أحدهما على الآخر بأن يكون معبوداً لغيره و المفروض هو مثله و هذا هو الظاهر في معنى الآية و أمّا تفسير ابن عبّاس و من تبعه لهذا الكلام فلا نفهم معناه و ذلك لأنّ الدّباب لا يكون مطلوباً بل المطلوب كناية عن المعبود و الله أعلم بما أراد من كلامه.

ثُمَّ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ الضَّارِبَ لِلْمَثَلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا هُوَ رَأْيُ أَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ وَ قَالَ قَوْمٌ، أَرَادَ اللَّهُ أَنَّ الْكَافِرِينَ ضَرَبُوا لِي الْأَمْثَالَ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا فِاسْتَمَعُوا لِمَا ضَرَبَ لِي مِنَ الْأَمْثَالَ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهَا كَيْفَ هِيَ وَ كَيْفَ بَعْدَهَا مِمَّا جَعَلُوهُ مَثَلًا وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ قِيلَ الْمَطْلُوبُ الْأَلْهَةُ وَ الطَّالِبُ الدَّيَّابُ فَضَعَفَ الْأَلْهَةُ أَنَّ لَا مَنَعَةَ لَهَا وَ ضَعَفَ الدَّيَّابُ فِي اسْتِلَابِهِ مَا عَلَى الْأَلْهَةِ.

وَ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَ قَوْلُهُ ضَعَفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ كَالنَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الدَّيَّابِ فِي الضَّعْفِ وَلَوْ حَقَّقْتَ وَجَدْتَ الطَّالِبَ أَوْضَعُفَ وَ أَوْضَعُفَ لِأَنَّ الدَّيَّابَ حَيَوَانَ وَ هُوَ جَمَادٍ وَ هُوَ غَالِبٌ وَ ذَاكَ مَغْلُوبٌ وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ إِخْبَارٌ بِضَعْفِ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ أَيُّ مَا أَوْضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ.

أَقُولُ: هَذَا مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْكَلَامِ فَأَقْضُ مَا أَنْتَ قَاضٍ وَ أَظُنُّ أَنَّ مَا إِحْتَمَلْنَاهُ أَظْهَرَ وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَ مَا يَسْتَفَادُ مِنْهَا هُوَ أَنَّهُ مَا أَقْبَحَ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَدَّعِي الْعَقْلَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَ الْأَوْثَانِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْجَمَادِ وَ لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ أَصْلًا وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

إِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ فَقَالَ الْحَسَنُ مَعْنَاهُ مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ إِذْ جَعَلُوا لَهُ شَرِيكَاً فِي عِبَادَتِهِ وَ هُوَ قَوْلُ الْمَبْرَدِ وَ الْفَرَاءِ وَ قَالَ قَوْمٌ مَعْنَاهُ مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

وَ قَالَ آخَرُونَ مَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَيُّ مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ حَيْثُ عَبَدُوا مِنْ هُوَ مَنْسَلَخٌ عَنْ صِفَاتِهِ وَ سَمَّوْهُ بِاسْمِهِ وَ لَمْ يَأْهَلُوا خَالِقَهُمْ لِلْعِبَادَةِ ثُمَّ خَتَمَ بِصِفَتَيْنِ مُنَافِيَتَيْنِ لَصِفَاتِ آلِهَتِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَ الْعَلْبَةِ إِنْتَهَى.

أَقُولُ: الْجَامِعُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ هُوَ عَدَمُ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ فَأَنَّ جَمِيعَ الْأَقْوَالِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ عَدَمَ التَّعْظِيمِ وَ التَّوْصِيفِ وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ النِّقَاطِصِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى

عدم معرفته الله واقعاً و ذلك لأنّ من عرف الله يعلم أنّه قادر على كلّ شيء فلا يوصفه بالضعف و يعلم أنّه عالم بكلّ شيء فلا يوصف بالجهل و أنّه قائم بالقسط فلا يوصف بالظلم و أنّه واجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الكمالية فلا نقص فيه ذاتاً و صفة بل هو جامع لجميع الكمالات من العلم و القدرة و الحياة و غيرها من الصفات و هذا ظاهر لا كلام فيه فمن وصفه بغير ما هو يليق به فلم يعرفه حقّ معرفته هذا كلّّه بحسب ظاهر الآية و أنّها ناظرة إلى الكفار الذين يدعون من دون الله كما يدلّ عليه سياق الآية و الذي يقتضيه النظر عند التأمل و التدبر هو أنّ الله تعالى لم يعرف كما هو حقّه و لن يعرف أبداً و ذلك لأنّ المعرفة لا تحصل إلّا بسبب العلم و العلم لا يحصل إلّا بإحاطة المدرك على المدرك و حيث أنّ المخلوق كائناً ما كان متّصف بالتناهي ذاتاً و صفةً فكما أنّه محدودٌ في وجوده محدودٌ في صفاته فإنّ الصفات من توابع الوجود و من جملة الصفات العلم فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات لا يقدر على الإحاطة بكنه ذاته تعالى حتّى تحصل له المعرفة كاملاً فما ظنّك بغيره من المخلوق و الدليل على ذلك عقلاً هو أنّ إحاطة المخلوق بكنه ذاته تعالى مستلزمٌ لخروجه عن التناهي و قد فرضناه متناهيّاً و هذا خلف و لأجل هذه الدقّة قال سيّد البشر صلوات الله عليه ما عرفناك حقّ معرفتك و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

نبأ القرآن في تفسير القرآن



المجلد الحادي عشر

آنجا که عقاب پر بریزد از پشه لاغری چه خیزد
 فقله تعالى: مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مِنَ الْأُصُولِ الْمُسَلِّمَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْكَلِمَةِ
 الشَّامِلَةِ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَّا أَنَّ الْمَيْسُورَ لَا يَتْرَكَ بِالْمَعْسُورِ وَ مَا لَا يَدْرِكُ كَلَّهُ لَا
 يَتْرَكَ كَلَّهُ فَكُلُّ مَخْلُوقٍ يَعْرِفُهُ بِقَدْرِ إِسْتِعْدَادِهِ وَ فَهْمِهِ وَ عَقْلِهِ وَ هَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ
 فِيهِ.

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ
 كلمة، من للتبعض و المعنى أَنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي أَي يختار من الملائكة رسلاً
 أي من بعض الملائكة و من النَّاسِ أي و كذلك يَصْطَفِي من النَّاسِ رسلاً فالآية
 تدلُّ على أَنَّهُ ليس جميع الملائكة رسلاً كما أَنَّ النَّاسَ ليس جميعهم أنبياء
 كذلك و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، إشارة إلى أَنَّهُ تعالى عالمٌ
 بالسموعات كما أَنَّهُ عالمٌ بالمبصرات فلا يخفى عليه شيء لا فى الأرض فى
 السماء و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً.

و قلنا أَنَّ اللَّهَ تعالى لا يسمع و لا يبصر بالألة لتَنَزَّهه عن الجسميَّة و التركيب

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ

إذا ثبت أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ بقولٍ مطلق فهو يعلم ما بين أيديهم و ما
 خلفهم، قيل المراد بقوله: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يعنى ما بين أيدي الخلاق من
 القيامة و أحوالها يكون فى مستقبل أحوالهم، وَ مَا خَلْفَهُمْ، أي و ما يخلفونه
 من دنياهم، المعنى يعلم ما بين أيديهم أي أول أعمالهم و ما خلفهم، آخر
 أعمالهم و إليه ترجع الأمور، يعنى يوم القيامة ترجع الأمور إلى اللَّهَ فهو الَّذي
 يحكم بين العباد يوم القيامة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ أَسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

أثما خاطب المؤمنين لأنهم الذين يركعون و يسجدون و يعبدون اللَّهَ و
 يفعلون الخيرات فهم المفلحون يوم القيامة قطعاً و إعلم أَنَّ الرُّكُوعَ لغةً الخفض
 و الإنحناء و ضده الرِّفْعُ، قال الشَّاعر:

لا تهين الفقير علك أن تركع يوماً و الدهر قد رفعه

و شرعاً هو إنحناء المصلى حتى تصل كفاه ركبتيه، و السُّجُود، لغة الخضوع

و شرعاً وضع الجبهة على ما يصح السجود عليه و وضع بقية الأعضاء السبعة على الأرض أو غيرها إذا عرفت ذلك.

فالمراد هنا الركوع في الصلاة و السجود فيها و خصهما من بين بقية أفعال الصلاة لأنهما أعظم الأفعال و بهما يحصل الإرغام التام و مع ذلك هما من أركان الصلاة تبطل الصلاة بتركهما عمداً أو سهواً إجماعاً.

قال بعض المفسرين أن المراد بالركوع و السجود هنا الصلاة تسمية للشئ باسم أعظم أجزائه و لم يقل، صلوا، لدفع تهم إرادة الدعاء قوله: وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، أي و عبدوه بفعل ما تعبدكم من العبادات كالصوم و الزكاة و الحج و نحوها، و افعلوا الخير، أي لا تقتصروا على فعل الصلاة و الواجبات من العبادات بل افعلوا غيرها من أنواع البر كصلة الرحم و مكارم الأخلاق و نحو ذلك من أنواع القرب و قيل الخير النفع الذي يحل موقعه و تعم السلامة به و نقيضه الشر إنتهى.

أقول: الخير لا يحتاج إلى التفسير فكل عمل أو قول صدقه العقل و الشرع فهو خير و ضده الشر و قوله: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، معناه لكي تفلحون فإن الترجي لا معنى له بالنسبة إليه تعالى لكونه علام الغيوب.

وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ

في الآية أبحاث:

الأول: في تفسير قوله تعالى: وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ الجهاد بكسر الجيم مصدر قال في المنجد، جاهد مجاهدة و جهاداً إنتهى.

و في الشَّرْع هو إستفراغ الوسع في مدافعة العدو و هو من الواجبات بشرائطه المقررة في الفقه و قال بعضهم هو بذل النَّفْس و المال لإعلاء كلمة الإسلام و الإقرار بها و إقامة شعائر الإيمان و هو من أعظم أركان الإسلام و فضله عظيم حتَّى ورد في الخبر عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فَوْقَ كُلِّ بَرٍّ بَرٌّ حَتَّى يَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَيْسَ فَوْقَهُ بَرٌّ وَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ الْجِهَادُ بَابٌ فَتَحَهُ اللَّهُ لَخَاصَّةِ أَوْلِيَاءِهِ إِلَى أَنْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَ الْجِهَادُ لِبَاسِ التَّقْوَى وَ دَرَعَ اللَّهُ الْحَصِينَ وَ حَصَنَهُ الْوَثِيقَةَ مِنْ تَرْكِهِ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذَّلَّةِ وَ شَمَلَهُ الْبَلَاءُ وَ فَارَقَ الرِّخَاءَ وَ ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ بِالْأَشْبَاهِ وَ رِيثَهُ بِالْصَّغَارِ وَ الْقِمَاهِ وَ سِيمَ الْحَنْفِ وَ مَنَعَ النَّصْفَ وَ أَدِيلَ الْحَقَّ بِتَضْيِيعِهِ الْجِهَادَ وَ غَضَبَ اللَّهُ بِتَرْكِهِ نَصْرَتَهُ الْخ.

و للجهاد شرائط و أحكام فصله في الكتب الفقهية و أنما قال حَقَّ جهاده أي جهاداً حقاً كما ينبغي بجذب النَّفْس و خلوصها عن شوائب الرِّياء و السُّمعة مع الخشوع و الخضوع و الجهاد مع النَّفْس الأَمارة و اللُّوامة في نصرة النَّفْس العاقلة المطمئنة و هو الجهاد الأكبر و لذلك ورد عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ فَقَالَ رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ وَ قِيلَ الْجِهَادُ بِمَعْنَى رَتَبَةِ الْإِحْسَانِ هُوَ أَنَّكَ تَعْبُدُ رَبَّكَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ وَ الْآيَاتُ فِي فَضْلِهِ كَثِيرَةٌ جَدًّا قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ وَ الْجِهَادُ ثَلَاثَةٌ أَضْرَبَ: مُجَاهَدَةُ الْعَدُوِّ الظَّاهِرِ، وَ مُجَاهَدَةُ الشَّيْطَانِ، وَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَ تَدَخَّلَ ثَلَاثَتَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ إِنَّتَهَى.

و أعلم أَنَّ الجهاد تارة يكون بآلات الحرب لدفع الكفَّار و تارة يكون ببذل المال و تارة ببذل النَّفْس و تارة بالقلم و تارة باليد و تارة باللسان و هكذا. فقولهُ تَعَالَى: حَقَّ جِهَادِهِ يشمل الكلَّ و أمَّا قوله: هُوَ أَجْتَبَيْكُمْْ معناه هو إختاركم للجهاد لإعلاء كلمته و جهاد أعداء فيكون ذلك خطاباً متوجهاً إلى من إختاره الله بفعل الطاعات.

الثاني: قوله: **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** الحرج محرّكة الضيق والشدة والعسر وفيه دلالة على أن الله تعالى: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ^(١).

قال بعض المفسرين معناه لم يجعل عليكم ضيقاً في دينكم ولا مالا مخرج منه وذلك أن منه ما يتخلص منه بالتوبة ومنه ما يتخلص منه برّد المظلمة وليس في دين الإسلام ما لا سبيل الى الخلاص من عقابه إنتهى.

أقول: ما ذكروه في معنى الحرج في الآية لا بأس به إلا أن المراد من نفي الحرج في هذه الآية بقرينة السياق هو نفي الحرج في الجهاد كما إذا كان المتكلف مريضاً أو أعمى أو غير ذلك وأن كان نفي الحرج فيه أيضاً من مصاديق نفي الحرج في الدين وكيف كان فالأمر سهل قال رسول الله ﷺ بعثت الى الشريعة السمحة السهلة وفي رواية الى حنيفة سمحة والأصل في الحكم هو قوله تعالى: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** هذا وقوله: **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمِيكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَرْجِعُ جَمِيعُهُمْ إِلَى وِلَادَةِ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى هَذَا فَحَرَمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَحَرَمَةِ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ وَقِيلَ لَمَّا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ وَلَدِهِ كَالرَّسُولِ وَرَهْطِهِ وَجَمِيعِ الْعَرَبِ طَلَبَ الْأَكْثَرَ فَأُضِيفَ إِلَيْهِمْ وَجَاءَ قَوْلُهُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ بِإِعْتِبَارِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَرْكِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَهُوَ الْمَسْئُوقُ لَهُ الْآيَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ فَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى الْإِتِّبَاعِ فِي تَفْصِيلِ الشَّرَائِعِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **هُوَ سَمِيكُمُ** عَائِدٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ وَلِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وَدَعَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ^(٢) فاستجاب الله له فجعلها أمة محمد ﷺ وقيل الضمير يعود الى الله وبه قال ابن عباس ومجاهد أي أن**

في القرآن تفسير

جزء ١٧

العمل والعبادة

اللَّهُ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، وَ الْحَقُّ أَنَّ الصَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ^(١) وَ قَوْلِهِ: مِنْ قَبْلُ أَيَّ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ، وَ فِي هَذَا، يَعْنِي الْقُرْآنَ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ فِي هَذَا الْأَوَانِ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ الْمَعْنَى لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ أَطَاعَ فِي تَبْلِيغِهِ وَ عَصِيَانِ مِنْ عَصَى وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ وَ أَنَّ الرَّسُلَ قَدْ بَلَّغْتَهُمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ وَ سَنَةِ نَبِيِّهِمْ وَ إِذْ خَصَّكُمْ بِهَذِهِ الْكِرَامَةِ فَأَعْبَدُوهُ وَ ثَقَوَا بِهِ وَ لَا تَطْلُبُوا النَّصْرَةَ وَ الْوَلَايَةَ إِلَّا مِنْهُ فَهُوَ خَيْرُ مَوْلَى وَ نَاصِرُكُمْ أَمْرُهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ أَيَّ بِدِينِهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ أَيَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نِعْمَ الْمَوْلَى لَكُمْ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ، أَيَّ النَّاصِرِ وَ الدَّافِعِ عَنِ الْخَلْقِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَ لِنَشْرِهِ إِلَى بَعْضِ مَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

مارواه الكليني رحمه الله في أصول الكافي بأسناده عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَ أَسْجُدُوا وَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ أَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّا عَنِي وَ نَحْنُ الْمَجْتَبِيُّونَ وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ فَالْحَرْجُ أَشَدُّ مِنَ الضَّيْقِ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّا عَنِي خَاصَّتُهُ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَّاَنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي مَضَتْ، وَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، فَرَسُولُ اللَّهِ الشَّهِيدُ عَلَيْنَا بِمَا بَلَّغَنَا عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى وَ نَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ صَدَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقْنَاهُ وَ مَنْ كَذَبَ كَذَبْنَاهُ إِنَّتَهَى.

و عن فضيل بن عياض عن أبي عبد الله قال سألته عن الجهاد أسنةً هو أم فريضة فقال الجهاد على أربعة أوجه فجهادان فرض، و جهادٌ سنّة لا يقام إلّا مع فرضٍ، و جهاد سنّةٍ، فأما أحد الفرضين فمجاهدة الرّجل نفسه عن معاصي الله و هو من أعظم الجهاد، و مجاهدة الذين يلونكم من الكفار فرضٌ.

و أمّا الجهاد الذي هو سنّة لا يقام إلّا مع فرض فإنّ مجاهدة العدو فرضٌ على جميع الأمّة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب وهذا هو من عذاب الأمّة وهو سنّة على الأنام أن يأتي العدو مع الأمّة فيجاهدهم و أمّا الجهاد الذي هو سنّة فكلّ سنّةٍ أقامها الرّجل و جاهد في إقامتها و بلوغها و إحيائها فالعمل و السّعي فيها من أفضل الأعمال فإنّه أحيا سنّة قال النّبي من سنّ سنّةً حسنةً فله أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء إنتهى.

و عن محاسن البرقي بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَزْكِعُوا وَ اسْجُدُوا إِلَى قَوْلِهِ مَنْ خَرَجَ فِي الصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ الصَّوْمِ وَ الْخَيْرِ إِذَا تَوَلَّوْا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولُوا الْأَمْرِ مِمَّا أَهْلَ الْبَيْتِ قَبْلَ اللَّهِ أَعْمَالُهُمْ إِنْتَهَى الْأَحَادِيثُ نَقَلْنَاهَا عَنْ تَفْسِيرِ نَوْرِ الثَّقَلَيْنِ ^(١).

ختامه مسك و فى ذلك فليتنافس في المتنافسون، هذا آخر الكلام في تفسير الجزء السابع عشر من هذا السّفر الجليل.



الفهرست

سُورَةُ الْكَهْفِ	٩
الآيات ٧٥ إلى ٨٢	٩
الآيات ٧٥ إلى ١١٠	٢١
اللُّغَةُ	٢٣
الإعراب	٢٣
التفسير	٢٤



سُورَةُ مَرْيَمَ	٥٣
الآيات ١ إلى ١٥	٥٣
اللُّغَةُ	٥٤
الإعراب	٥٤
التفسير	٥٥
الآيات ١٦ إلى ٢٢	٧٢
الآيات ٢٣ إلى ٤٠	٧٨
اللُّغَةُ	٧٨

٧٩	الإعراب.....
٧٩	التفسير.....
١٠٠	الآيات ٤١ الى ٥٠.....
١٠٠	اللغة.....
١٠١	الإعراب.....
١٠١	التفسير.....
١١٠	الآيات ٥١ الى ٦٥.....
١١١	اللغة.....
١١١	الإعراب.....
١١١	التفسير.....
١٢٨	الآيات ٦٦ الى ٩٨.....
١٢٩	اللغة.....
١٣٠	الإعراب.....
١٣١	التفسير.....



سُورَةُ طه..... ١٦٥

١٦٥	الآيات ١ الى ٣٥.....
١٦٦	اللغة.....
١٦٧	الإعراب.....
١٦٨	التفسير.....
٢١٠	الآيات ٣٦ الى ٤٩.....
٢١١	اللغة.....

٢١١	الإعراب.....
٢١١	التفسير.....
٢٢٩	الآيات ٥٠ الى ٧٠.....
٢٣٠	اللغة.....
٢٣١	الإعراب.....
٢٣٢	التفسير.....
٢٥٤	الآيات ٧١ الى ٨٤.....
٢٥٥	اللغة.....
٢٥٥	الإعراب.....
٢٥٦	التفسير.....
٢٧٨	الآيات ٨٥ الى ١٠٣.....
٢٧٩	اللغة.....
٢٨٠	الإعراب.....
٢٨٠	التفسير.....
٣٠١	الآيات ١٠٤ الى ١٢٦.....
٣٠٢	اللغة.....
٣٠٣	الإعراب.....
٣٠٣	التفسير.....
٣٣٠	الآيات ١٢٧ الى ١٣٤.....
٣٣٠	اللغة.....
٣٣١	الإعراب.....
٣٣١	التفسير.....

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٣٤٥

الآيات ١ الى ٢٠ ٣٤٥

اللُّغَةُ ٣٤٦

الإعراب ٣٤٧

التفسير ٣٤٨

الآيات ٢١ الى ٣٥ ٣٤٦

اللُّغَةُ ٣٤٧

الإعراب ٣٤٧

التفسير ٣٤٨

الآيات ٣٦ الى ٤٧ ٤٠٥

اللُّغَةُ ٤٠٦

الإعراب ٤٠٦

التفسير ٤٠٦

الآيات ٤٨ الى ٧٠ ٤٢٥

اللُّغَةُ ٤٢٦

الإعراب ٤٢٦

التفسير ٤٢٨

الآيات ٧١ الى ٨٢ ٤٤٩

اللُّغَةُ ٤٥٠

الإعراب ٤٥٠

التفسير ٤٥١

الآيات ٨٣ الى ٩١ ٤٦٩

اللُّغَةُ ٤٦٩

فبألف التوقان في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

٤٧٠	الإعراب.....
٤٧٠	التفسير.....
٤٨١	الآيات ٩٢ الى ١٠٣.....
٤٨١	اللغة.....
٤٨٢	الإعراب.....
٤٨٢	التفسير.....
٤٩٥	الآيات ١٠٤ الى ١١٢.....
٤٩٥	اللغة.....
٤٩٦	الإعراب.....
٤٩٦	التفسير.....



سُورَةُ الْحَجِّ..... ٥٠٤

٥٠٤	الآيات ١ الى ١٠.....
٥٠٥	اللغة.....
٥٠٦	الإعراب.....
٥٠٦	التفسير.....
٥٢٤	الآيات ١١ الى ٢٢.....
٥٢٥	اللغة.....
٥٢٥	الإعراب.....
٥٢٥	التفسير.....
٥٢٧	الآيات ٢٣ الى ٣٣.....
٥٢٨	اللغة.....

٥٢٩	الإعراب.
٥٢٩	التفسير
٥٥٤	الآيات ٣٤ الى ٤٠
٥٥٥	اللغة
٥٥٦	الإعراب.
٥٥٦	التفسير
٥٦٦	الآيات ٤١ الى ٥٠
٥٦٦	اللغة
٥٦٧	الإعراب.
٥٦٧	التفسير
٥٧٦	الآيات ٥١ الى ٦٠
٥٧٧	اللغة
٥٧٧	الإعراب.
٥٧٧	التفسير
٥٩٢	الآيات ٦١ الى ٧٢
٥٩٣	اللغة
٥٩٣	الإعراب.
٥٩٤	التفسير
٦٠٧	الآيات ٧٣ الى ٧٨
٦٠٧	اللغة
٦٠٨	الإعراب.
٦٠٨	التفسير